

جامعة الملك عبدالعزيز

بمكة المكرمة

الدراسات العليا العربية

فرع الأدب



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٣٤٨

التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث

رسالة لنيل درجة الدكتوراه

اعداد : منير محمد خليل ندا

اشراف : الدكتور علي العمّاري



٢٤٨

المقدمة

بسم الله نبدأ ، وبه نستعين ، ونحمده سبحانه وتعالى أن هدانا لهذا (وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) .

ونصلي ونسلم على سيد الخلق ، وأشرف المرسلين ، امام الأنبياء ، وسيد البلغاء ، آتاه الله دواعي الكرم وسحر البيان ، وخصه من بين رسله بمعجزة القرآن .

وبعد : فإن من المقاصد العالية التي يتطالع اليها الباحث ما يكون الهدف الاسمي من معالجتها خدمة اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، الذي أنزل بلسان عربي مبين ، فكان المعجزة الخالدة الى يوم الدين .

ومن أهم العلوم التي وضعت للبحث في هذه المعجزة ، وأسهمت فيه بنصيب موفور ، علم البلاغة ، علم الذوق والجمال والفن الأدبي .

ولقد كان لعلم البلاغة فضل كبير في بيان أساليب العرب وتراكيب لغتهم ، وما تتنازه من قوة وجمال في اللفظ والمعنى والعاطفة والخيال ، مما أعان كثيرا على فهم تراثنا ، وتقدير لغتنا ، وبيان اعداز كتابنا الكريم . بل ان دراسة الاعجاز وادراكه كان الهدف الاسمي الذي من أجله وضع علم البلاغة . يقول ابن خلدون (وأظن أن شرة هذا الفن انما هي فهم الاعجاز من القرآن) (١) .

فالبلاغة العربية اذن دينية النشأة ، قرآنية المولد ، درجت ونمت في رحاب كتاب الله ، تستهدي آياته ، وتتشرب معانيه ، قبل أن تتناول الأدب العربي بوجه عام .

وعلى هذا فالبلاغة علم له قدره ومكانته ، وطيننا نحن العرب والمسلمين أن نحله المكانة اللائقة به من الاهتمام والتقدير .

لكن البلاغة العربية - وان كانت لقيت عناية كبيرة في عصورها الأولى - تخلفت عن ركب العلوم الحديثة ، واعترض طريقها من الصعاب والعقبات ما وقف بها عن بلوغ الخاية ، وحاد بها عن سار الذوق والفن والجمال .

(١) مقدمة ابن خلدون - باب البيان - ص ٢١ هـ ط الشعب .

ذلك أن البلاغة بعد أن أئمنت على يد الامام عبد القاهر واستوت على سوقها تعصب الزراع ما لبثت أن استقرت في يد علماء الكلام والفلسفة والمنطق فحولوها الى تعاريف وتقاسيم تقوم على جدل عقيم .

فمنذ ألف السكاكي في القرن السادس الهجرى كتابه المفتاح ، وجعل القسم الثالث منه في علم البلاغة ، وكتب المؤلفين تدور حوله ، وتبنى عليه ، وتنهج طريقته الكلامية الجدلية ، بل وتزيد عليه تعقيدا واغرابا . (١)

وجاء القزوينى في القرن الثامن الهجرى فاتجه هو الآخر الى " مفتاح العلوم " ولخص قسمه الثالث بعد أن رأى فيه حشوا وتطويلا وتعقيدا فهدبه ورتبه ترتيبا أقرب تناولا ولكن بنفس الطريقة والاسلوب ، ثم رأى أن هذا التلخيص غير واف بالعرض فوضع شرحا على تلخيصه هو " الايضاح " وهذا الكتاب هو الذى وقفت عنده البلاغة لا تريم ، ولم يكتب لها بعده التناور والتحد يد .

وفى كتابى القزوينى (التلخيص والايضاح) يجد الباحث الفلسفة وأساليب المناطقة ومصطلحاتهم ماثلة أمامه ما يعوق الانتفاع من بلاغته فى عقل الأذواق وتربيتها . وللأسف فان كتاب التلخيص هو الذى دارت حوله وحول شروحه دراسة البلاغة حتى العصر الحديث .

وقد نقد الدكتور احمد مطلوب كتابى القزوينى نقدا جيدا ، (٢) وأبرز ما فيه من عيوب واغراب عن مسائل البلاغة وفنها ، ونقل بعض عبارات القزوينى عن الطلحة والكيف والصدق والكذب والجامع والدلالات وغيرها كأمثلة تؤيد وجهة نظره ، ثم قال : لقد نقلنا هذا كله لنظهر خروجهم عن البلاغة ، والا فما علاقة هذا الكلام بها ، وكيف يستفيد منه الأديب فى نقد الأدب واظهار جماله ؟ (٣)

وقال فى موضوع آخر : وننتهى من هذا كله الى أن النزعة الفلسفية والجدلية تسيطر على بلاغة القزوينى ، وهذا واضح فى المنهج والتبويب وبيان المعانى البلاغية

(١) يستثنى من ذلك النذر اليسير مثل كتابى " ابن الأثير وابن سنان "

(٢) انظر " مناهج بلاغية " ص ٣٧٨ - ٤٢٠

(٣) المرجع السابق ص ٤٠٤

واستخدام الأساليب والمصطلحات الكلامية والفلسفية ، ومن هنا نرى أن لا فائدة من العكوف على بلاغة القزوينى وشرح تلخيصه . (١)

والواقع أن الشكوى من جفاف علم البلاغة واقحام مسائل الفلسفة والمناظرة فيه شكوى عامة وردت فى كثير من كتب المعصرين الذين كتبوا فى تاريخ البلاغة وعلومها أو دعوا الى تجديدها ، كما وردت كذلك فى كتب المتقدمين والمستأخرين ، من ذلك قول المغربي بعد أن تحدث عن اللذة والألم والأشكال والسمع والذوق : " وقد أطنبت فيما يتعلق بهذه الكيفيات على حسب ما فسرهما الشارح مما هو من تدقيقات الحكماء بعد تفسير بعضها بما هو أقرب الى الفهم قصد الايضاح وزيادة فى الفائدة ، وان كان تفسيره - كما قيل - لا يناسب هذا الفن ، ولا يسهل على المتعلم ، بل يزيده حيرة (٢) ومن ذلك أيضا قول عصام الدين بعد أن تكلم عن الحواس والكيفيات والحركات " واعلم أنه لم يف المصنف بما وعد فى ديباجة الكتاب من حذف الحشو والتطويل والتعقيد ، وسهلا عنه فى هذا المقام ، لأن هذه التقسيمات ما لانفع له فى هذا الفن ، بل يوجب تحير الأفهام ، وإيقاع المبتدئين فى الظلام . (٣)

اذن فالقدماء أنفسهم أحسوا بما فى هذه البحوث من حشو واقحام على الدراسات البلاغية ، ولكنهم - فيما يبدو - فعلوا ذلك ليشبهوا ثقافتهم الواسعة والاعلم العميق على أساليب الفلاسفة والمتكلمين .

ولقد كنا ونحن طلاب بالقسم الثانوى فى معهد القاهرة الدينى نحس بجفاف البلاغة وكتبها ، ونسأل : أهذه هى البلاغة حقا ؟ وهل يجوز أن يتعلم طالب البلاغة أول ما يتعلم التناظر والتعقيد والفرابة وأن يكون ذلك أول ما ينطبع فى ذهنه عن البلاغة ؟ ثم هو لا يجد بعد ذلك - اذا ما أخذ يتعمق فى الدراسة - الا جردا لا طويلا عقيما مملا يخرج منه فى النهاية بأن الخلاف لفظى أو أن الجهد لا يكافى النتيجة وتبحث عن البلاغة فتجد ها هائمة مطمورة تحت هذه الأمواج المارمة من المصطلحات والمحتررات والفرعيات التى لا حصر لها .

(١) المرجع السابق ص ٤١٠

(٢) مواهب الفتح - شروح التلخيص ج ٣ ص ٣٤٣

(٣) الاطاول - ج ٢ ص ٧٧

وليس معنى ذلك أننا كارهون لقديم البلاغة، نريد أن نلقى به وبكتبه في بحر الظلمات " كلا " فإن التراث القديم يستحق منا التقدير والاحترام، ولكني لا أعتقد أبداً أنه يستحق التقديس والعبادة .

والدعوة الى التجديد في البلاغة ليست شيئاً حديثاً ابتدعناه، فمنذ القرن الثالث الهجري دعا ابن قتيبة الى التجديد وقال قوله المأثورة " ان الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره " . (١) . وفي القرن السادس الهجري ثار ابن بسام في أقصى المغرب وشكا من الجمود وتقليد المشاركة فقال : " وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالاحسان، والاحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بمقصور، وعزيز على الفضل أن ينكر، تقديم به الزمان أو تأخر، ولحي الله قولهم : الفضل للمتقدم فكم دفن من احسان، وأخمل من فلان، ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لضاع علم كثير، وذهب أدب عزيز " . (٢) .

ولو أمعنا النظر فيما تركه لنا الامام عبد القاهر - طيب الله ثراه - من تراث بلاغي لوجدناه قد أفسح المجال للتجديد في البحث البلاغي، وترك الباب مفتوحاً أمام كل باحث مجدد مخلص، وكان حريصاً على أن يذكر في أكثر من موضع أن هذا الجهد الكبير الذي بذله لا يعد الكلمة الأخيرة، وأنه ليس في استطاعة أي باحث مهما أوتي من حول وطول أن يستقصى مسائل الفن البلاغي، أو أن يدعي لنفسه العلم والاحاطة بذلك، أو أن يسد باب الاجتهاد .

ومن ثم رأينا الأستاذ الامام يختم بعض مباحثه البلاغية بما يؤكد هذا المعنى فمثلاً نجد بعد حديثه عن أسرار حذف المفعول يقول : " وليس لنتائج هذا الحذف أعنى - حذف المفعول - نهاية فانه طريق الى ضروب من الصنعة والى لطائف لا تحصى " .

(١) الشعر والشعراء ص ٧ وانظر " أبو هلال العسكري ومقاييسه النقدية للدكتور

بدوي ص ٥٦ و ٥٧

(٢) الذخيرة ج ١ ص ٢ ط ٣

(٣) دلائل الاعجاز ص ١٢٥ ط دار المطرف ببيروت .

وفى نهاية بحثه للكنانية والتعريف يقول : " وليس لشعب هذا الأصل وفروعه وأمثله
وصورة وطرقه ومسالكه حد ونهاية " (١) وفى حديثه عن العبرة والتفصيل فى هروب
التشبيه والتشيل يقول : " وأعلم أن هذه القسمة فى التفصيل موضوعة على الأغلب
الاعرف والا فداقيقه لا تكاد تضبط " (٢)

وهكذا نجد الامام عبد القاهر فى بحوثه البلاغية كان من وقت لآخر يمنحنا
انطباعاً بأن فرصة الكشف عن الجديد سهياً بل مألوفة .

ان الزمان لم يعقم ، وان الحياة لا تزال خصبة مشرة ، وان الطبيعة لم ينقطع
عناؤها بعد ، وما يزال فى أمة الاسلام خير كثير ، وما زال بين علمائها وأدبائها من
يستطيع التجديد والتطوير .

وقد وجدت عدداً غير قليل نادى بتجديد البلاغة ، ووضع معلّم لهذا التجديد
من هؤلاء : الشيخ أمين الخولى والشيخ عبد العزيز البشرى ، والأساتذة احمد
الشايب واحمد حسن الزيات وأنيس المقدسى ، والدكاترة : احمد بدوى وعلى العمارى
وعبد الرزاق محي الدين وأحمد مطلوب وعلى عبد الرزاق وبدوى طابانة وحفنى شرف
ومحمد نابل وكامل الخولى وغيرهم ، كما وجدت فى تقرير لجنة المعارف المصرية
تخطيها كاملاً لمنهج جديد للبلاغة . وقد عرضت كل ذلك ناقداً ومفنداً كما عرضت
لمعركة البلاغة التى قامت على صفحات الرسالة وبينت مالها من قيمة وأثر وكيف أنها
أثارت قضية التجديد من جديد .

ولأن بلاغتنا الحبيبة تعرضت فى العصر الحديث لهجوم ظالم خبيث باسم
الاصلاح والتجديد فقد عقدت باباً عن البلاغة بين الدفاع والهجوم وأوضحت وجه
الخطأ والصواب فى كل .

ولأن اعجاز القرآن هو الهدف الاسمى من أهداف البلاغة وغاياتها فقد عقدت
الباب الاخير لبيان ما حد من آراء فى أوجه الاعجاز .

(١) المرجع السابق ص ٢٤١

(٢) أسرار البلاغة ص ١٤٦ ط ه المنار .

وانى لأمل أن أخرج من هذه الدراسة بمنهج جديد صالح لبلاغتنا الحبيبة
 يبرز جمالها ، ويرضى عشاقها ، ويسعد دارسيها ، ويعيد اليها قدرها ومكانتها .
 وانى لأعلم أن طريق البلاغة طريق شائك مهجور ، يسير فيه علماء البلاغة وحدهم
 بلا أضواء ولا جمهور ، ومع ذلك فقد اخترت هذا الطريق ، لأنى منذ صباى أحببت
 البلاغة ، وأعجبت بأساليب البلغاء ، وحفظت مختارات منها . وعندما أخذت فى
 دراسة البلاغة صدمت كما صدم الآخرون بكتبها ومناهجها ، ووجدنا فرقا كبيرا بين
 البلاغة التى نحياها ونحسها وبين هذه الكتب التى ندرسها ، والتى ان صح أنها
 ملحت لعصرها فهى بالتأكيد لا تصلح لعصرنا .

ولقد هاجم بلاغتنا من هاجم ، وأيدها من أيد ، وأضاف اليها من أضاف ،
 وانتقى منها من انتقى ، فكان لابد من وقفة نعيد فيها النظر ، ونجلى الرأى ،
 ونشخص الداء ، ونستقصى الحقيقة ، ونعرض على بساط البحث ماجد من آراء وبحوث
 ومناهج ، علنا بذلك نستطيع أن نتيين ألهرشد من الخفى فى تجديد بلاغتنا ، وما
 يجب أن تكون عليه فى العصر الحديث .

من أجل كل ذلك كان هذا البحث :

" التجديد فى علوم البلاغة فى العصر الحديث " .

وانى لأتقدم بوافر الشكر ، وجزيل التقدير ، الى أستاذى الفاضل الدكتور على
 المصارى ، على ما بذله معى من جهد مخلص فى الاشراف على هذه الرسالة .
 وقد كان لتوجيهاته القيصة ، وملاحظاته الدقيقة ، ومناقشاته العميقة ، وارشاده
 ايباى الى كثير من المراجع ، كان لكل هذا الأثر الكبير فى استواء هذا
 البحث ، وأداء هذه الرسالة .

والله أسأل أن يوفقنا لخدمة ديننا ولغتنا وبلاغتنا . انه سميع مجيب .

التمهيد

نشأة البلاغة وتأورها
مدارسها وخصائصها
صلة البلاغة بالعلوم الأخرى
نضوجها على يد الإمام عبد القاهر
استقلالها على يد السكاكي
جمود البحث البلاغي بعده
حاجة البلاغة إلى التجديد

من الأسس الهامة التي يقوم عليها هذا البحث بيان وتقييم ما وصلت اليه البلاغة العربية في العصر الحديث من تطور وتحديث .
ولكى نحقق هذا الهدف كان علينا أن نعرض بادئ ذي بدء لنشأة البلاغة وتطورها على مر العصور ، حتى يمكننا أن نكشف عما صاحبها من تطورات ، وما جد عليها من تعديلات وإضافات . فالتحديث ومعرفة الجدي يحتاج كل منهما الى معرفة القديم .

وإذا كنا نريد أن نتحدث عن نشأة البلاغة وتطورها ، فعلينا أن نأخذ نبدأ من أول التاريخ العربي ، من العصر الجاهلي ، حيث وجد لدينا - نحن العرب - هذا الحشد الهائل من القصائد والأشعار التي حفلت بأيام العرب وتاريخهم .

وإذا تأملنا في الأدب الجاهلي وتاريخه وجدناه حافلا بالملاحظات النقدية التي كانت (من أهم العوامل في إيجاد البلاغة ، وذلك أن هذه الملاحظات والأحكام النقدية أفادت جماعة العلماء فأحالوها قوانين وأصولا ، ودونوها في فصول مخططة بالنقد حيناً ، ومنفصلة أخيراً حتى كانت أساساً صالحاً لتكوين قواعد بلاغية قامت بوظيفتها فيما مضى) (١) .

(ويمكن أن يستدل الباحث على أن العرب عرفوا كثيراً من الأحكام النقدية في العصر الجاهلي بأمرين :

الأول : عقلى لا يمكن إنكاره ، وهو أنه لا يصدق أن الشعر وصل الى ما وصل اليه في تلك الفترة ، وأن الخطابة بلغت ذروتها ، وأن اللغة أخذت صورتها ، من غير أن يكون هناك عقل مدبر لذلك ، ومن غير أن تكون هناك أصول عامة تعارف عليها الشعراء والمتكلمون ، وساروا عليها فيما نظموا أو قالوا . ومهما تحدث الباحثون عن السليقة العربية الصافية والذوق السليم ، ومهما وصفوهم بالفطنة والذكاء ، فإن العقل لينكسر أن يكون ما كان من غير ثقافة ودربة ، وقواعد تضيء لهم الطريق وتفتح أمامهم سبل القول .

الثاني : نقلى ، وهو ما أثر عنهم ، وما جاء عن خطيبهم ووصف خطيبهم .

وقد كان الخطباء يمتزجون ببيانهم ويفخرون بأنفسهم . ولما دخل ضمرة ابن ضمرة على النعمان بن المنذر رزى عليه للذي رأى من دمايته وقصره وقتله ، فقال النعمان : " تسمع بالمعيدي لا أن تراه " فقال ضمرة : " أبيت اللعن ، ان الرجال لا تكال بالقفزان ، ولا توزن بالميزان ، وليست بمسوك تستقى وانما المرء بأصغريه : بقله ولسانه ، ان حال حال بجان ، وأن قال قال ببيان " (١) . وكان ضمرة خطيبا فارسا شاعرا شريفا سريدا ، وكان يحكم وينفر بالأسجاع . قال الجاحظ : " ان ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطيبة والأقرع بن حابس ونغيل بن عبد العزيز كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع وكذلك ربيعة بن حذار " (٢) (٣) (٤) (٥)

وعلى هذا فيمكننا أن ننظم بذور البلاغة الأولى في مناجرات الشعراء
الجاهليين وأحاديثهم ، وخاصة في أسواقهم الشهيرة مثل : سوق عكاظ ،
ومجنة ، وذى الحجاز . حيث كان الحكام الحكماء وكبار الشعراء يتصدرون
مجالس الحكم ، وينقدون الشعر ، ويحكمون للجهد بجودته ، وللسرء
بردائه . ومن تلك الأحكام النقدية والملاحظات الفطرية التي تعتمد على
الذوق العربي الأصيل بدأت تتكون البلاغة فناً متميلاً بين فنون اللغة
العربية يعتاز بذكاء النظارة وحمال الفكرة .

من ذلك ما روى عن النابغة الذبياني أنه جلس مرة في سوق عسكاظ
فتابع عليه الشعراء ينشدون بين يديه أجود أشعارهم وما أن سمع
النابغة قصيدة الأعشى حتى قضى له . ثم جاءت بعده الخنساء فأنشدته
رائيتها التي ترثي بها أخاها صخرًا ، والتي تقول فيها :

وان صخرنا لمولانا وسيدنا
وان صخرنا لتاتم الهداة به

وان صخرنا اذا نشتولنهار
كأنه علم في رأسه نار

(١) البيان والتبيين : ١ ص ١٧١

(٢) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٩٠

(٣) مناهج بلاغية : د . مطلوب - ص ٢٠ و ٢١

فيعجب النابغة بقولها ويقول لها : (لولا أن أبا بصير أنشدني آنفا لقلت
انك أشعر الحن والانس) ، ويسمع حسان هذا الحكم على الخنساء
فتأخذه الغيرة ، ويذهب به الغضب ، فيقول للنابغة : أنا والله أشعر منها
ومك ومن أبيك . . فيقبل عليه النابغة فيسأله : (حيث تقول ماذا ؟) . .
فيقول حسان حيث أقول :

لنا الحففات الفر يلعبن بالضحى

وأسيافنا يقطرن من نعدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق

فأكرم بنا ذالا وأكرم بنا ابننا

لكن النابغة لا يعجبها هذا التصوير من حسان فيقول له : أنت شاعر ،
ولكنك أقللت من جفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك
وقلت يلعبن بالضحى ولو قلت يرقن بالدمحى لكان أبلغ فى السديح لأن
الضيف فى الليل أكثر ، وقلت يقطرن من نعدة دما ولو قلت يحرين لكان
أكثر لاصباب الدم . ولن تستطيع أن تقول :

فانك كالليل الذى هو مدركى وان خلت أن المنتأى عنك واسع (١) .

وسواء صحت هذه الرواية أم لا فانها على أية حال تعطينا صورة عما كان
يجرى بين الشعراء فى ذلك العصر من مساجلات أدبية ونقدية كانت نواة
لما ظهر بعد من الاصطلاحات البلاغية المعروفة .

ومن ذلك أيضا ما روى عن طرفة بين العبد أنه لاحظ على المتلمس -
أو المسيب بن عيسى - أنه وصف فى بعض شعره البعير بوصف خاص بالناقة
قال سائرا : " استنوق الجميل " . وهذا البيت هو :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

وذلك أن الصيعرية سمة تكون فى عنق الناقة لافى عنق البعير (٢) .

(١) الأغاني ٣٤٠ / ٩ طبع دار الكتب .

(٢) الأغاني (طبع الساسى) ١٣٢ / ٢١ وتاريخ النقد الأدبى عند العرب

ت / طه احمد ابراهيم ص ١٣ طبع بيروت .

(هذا وقد وصف العرب كلامهم فى أشعارهم كبرود العصب وكالحلل والمعاطف والدبيح والوشى وأشتباه ذلك . (١))
 كما وصفوا شعراءهم وأضفوا عليهم ألقابا ، ولأمر يتعلق بمكانتهم أطلقوا عليهم تلك الألقاب : كالمهلhel والمرقش والأفوه والنافسة وغيرها . وهذه الأوصاف تتصل بأحكامهم النقدية وبذوقهم الذى ميزوا فيه بين شاعر وشاعر وكان بعض الشعراء فى الجاهلية يعنون بأشعارهم وينقحونها قبل أن يذيعوها بين الناس ، وقد اشتهر زهير بن أبى سلمى بالحوليات ، وتبعه فى ذلك الحطيئة وغيره ممن اهتموا بتنقيح الشعر وتحويده . وكان الحطيئة يقول : " خير الشعر الحولى المحكك " ، وقال الأصمعى : " زهير بن أبى سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين " (٢))

ان وقوف الشعراء عند قصائد هم لينقحوها ويعيدوا النظر فيها يدل على الروح النقدية التى كان الشاعر نفسه يمارسها قبل أن ينقده السامعون (٣) ذلك ومثله ما يتخلل ثنايا أدبنا الداهلى يدلنا على أن الشعراء كانوا يدققون فى اختيار الألفاظ والمعانى والصور ، وكانوا يبدون أحيانا ملاحظات نقدية ذكية مهدت لظهور البلاغة وبروزها الى عالم الوجود . هذا الى أن أشعار العرب تزخر بالتشبيهات والاستعارات وتتناثر فيها بين الحين والحين ألوان من المقابلات والحنايات ما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعنون عناية واسعة باحسان الكلام على وجهيه الحقيقى والمجازى قبل أن يعرفوا الحقيقة والمجاز بالمعنى الاصطلاحي بزمان طويل

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٢٢٢

(٢) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٧٨

(٣) منهاج بلاغية : ص ٢١-٢٣ بتصرف .

وقد أستدل الجاحظ على أن العرب في الجاهلية قد عرفوا عيوب البلاغة والخطابة فقال : (وكلام الناس في طبقات ، كما أن الناس أنفسهم في طبقات ، فمن الكلام . الحزل والسخيف والمليح والحسن والقبیح والذخيف والثقيل ، وكله عربي ، وكل قد تكلموا ، وكل قد تمارحوا وتمايوا فان زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل ، ولا بينهم في ذلك تفاوت ، سلم ذكروا : العيب (١) والبكى (٢) والحصر (٣) والفحم (٤) والخطايل (٥) والمسهب (٦) والمتشدق (٧) والمتفهبق (٨) والهماز والمهماز (٩) والثرثار والمكثار (١٠) وقالوا : رحل تلقاعة (١١) وظهاعة (١٢) وفلان يتلهي في خطبته ، وقالوا : فلان يخطئ في جوابه ويحيل في كلامه ويناقض في خبره ، ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سعى ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء (١٣) .

فالعرب في الجاهلية كانوا اذن - كما يرى الجاحظ - يحسون بفطرتهم مواضع البلاغة ، ويستعملونها دون تفهيم أو تعريف .

-
- (١) العيب : من عيب أى حصر في النطق ولم يستطع العضى فيه . المنجد ص ٥٤٢
(٢) البكى : كثير البكاء .
(٣) حصر حصرا : عيب في النطق ، وأمله من الحصر أى التضييق . المنجد ص ١٣٧
(٤) فحم فحما : لم يستطع جوابا . المنجد ص ٥٧١
(٥) خطايل خطلا : واخطايل في كلامه ، أتى بكلام كثير فاسد ، والخطايل : الخطايل يقول الشاعر : أمالة الرأي صانتني من الخطايل . والخطايل الأحمق . المنجد ص ١٨٧
(٦) أسهب الكلام في الكلام : أطال فهو مسهب . المنجد ص ٣٥٩
(٧) تشدق تشدقا : اتسع شدة فهو أشدق ، تشدق : لوى شدة للتفصح ، وتشدق : استهزأ بالناس يلوى شدة بهم وعظيهم . المنجد ص ٣٧٩
(٨) همزة : غزوه وخطاه ونخسه ودفعه واغتابه فهو هماز وهمزة ، وهمز الفرس نخسه بالهماز ، والهماز والهمزة ، الخيايل والعياب والطعان . المنجد ص ٨٢٣
(٩) المكثار : الكثير الكلام (للمذكر والمؤنث) . المنجد ص ٦٧٤
(١٠) تلقع بالكلام : رمى به رميا ، والتلقاعة : العيبة المطبق للناس - والكثير الكلام والأحمق . المنجد ص ٧٣٠
(١١) لهع في الكلام : تشدق ، والظهاعة : الغفلة . المنجد ص ٧٣٦
(١٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٠ تحقيق حسن الندوى .

وذكر أبو هلال العسكري أن القدماء أشاروا إلى الغنص والوصل في الكلام قال : " وكان
أكرم بن صيفى إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه : افصلوا بين كل معنى متقنصين ،
وصلوا إذا كان الكلام معجونا بعبءه ببعض . وكان الحارث بن أبى شمر الفسائى يقول
لكتابه المرقش : إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين
تبعيته من الألفاظ . فانك إذا حذفت الفاظك بغير ما يحسن أن تحذف به نفرت القلوب
عن وعيها ، وطمته الأسماع ، واستثقلت الرواة " (١)

وشك بعض الباحثين فى هذه الروايات فقال الدكتور جميل سعيد : ونحن نستبعد
أن يكون عند العرب هذا النوع من النقد الذى يرويه الرواة ، لأننا لانعرف لهم شيئا
به فى ذلك العصر . وقد رأينا نقدهم للقرآن الكريم فما رأينا فيه مثيلا له ، ونرجح أن
يكون هذا من إضافات النقاد فى القرن الثالث الهجرى أو نحوه ، يوم نما النقد ونمت
بذور البلاغة (٢)

سنا مع هذا الشك نقرر أن هذه الروايات تعكس - أنها من فهم العرب للنقد فى
المرحلة الأولى . وليس بعيدا أن تصدر مثل هذه الأحكام فى الجاهلية بعد ما رأينا
من الدلائل التى تؤيد ذلك . هذا بالإضافة إلى أن هذه الروايات ليس فيها التعليل
القائم على النظرة العلمية لكى ننكرها فما هى الأحكام عابرة أطلقها الشعراء والمحكون
معتدین على الذوق الفطرى الذى عرف به العرب (٣) . وليس فى تلك اللحات النقدية
شئ غريب عن البيئة التى قيلت فيها ، بل انها أشبه ما تكون ببايعة الجاهليين الذين
لم يكن لديهم من أسباب الحضارة والوان الثقافة ما يسمح لهم بمحاولة تأييد السراى
بالعلة المعقولة والدليل الواضح (٤)

وقد ورد أن شعراء اليونان القدماء كانوا يمدون بعض الأحكام النقدية التى تعبر
عن رأى ذاتى أبعد ما يكون عن القاعدة العلمية (٥) فلم نستبعد ذلك عن العرب وهم
أهل الذوق الرفيع والشعر البديع .

صناعتين ص ٤٤٠

(١) دروس فى البلاغة وتأثيرها ص ١٠ وتاريخ النقد الأدبى عند العرب للمرحوم

طه احمد ابراهيم ص ١٩

(٢) انظر مظاهر بلاغية ص ٢٧ وما بعدها .

(٣) دراسات فى نقد الأدب العربى . د . طهانه ص ١٧٢

(٤) النقد الأدبى عند اليونان . د . صقر خفاحه ص ١٧

كان ذلك في العصر الجاهلي . . فلما أرسل الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم
 هاديا وبشيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، وايده بمحيزة بيانية كبرى هي
 القرآن الكريم . . أنزله بلسان عربي مبين فأخرس بفصاحته فصحاء العرب ، وأنزل
 ببلاغته فرسان البلاغة ، وحاول أمراء البيان وسادات القوافي أن يأتوا بمثله ، أو بسورة
 من مثله ، أو حتى بآية من مثله (١) فما استأعوا وعجزوا عن محاراته ومعارضته ، وعجز
 عليهم عزهم وفشلهم فقالوا : هو شعر أو كهانة أو سحر ، ولو كان شيئا من ذلك الذي
 قالوه لاستأعوا أن يأتوا بمثله . (٢)

وقصة الوليد بن المغيرة عندما ذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منه
 شيئا من القرآن . . عاد الى قومه بوجه غير الوجه الذي ذهب به وقال لهم : خلوا بين
 هذا الرجل وبين ما هو فيه . ولما سألوه قال : * والله لقد سمعت من محمد أنفا
 كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن والله ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ،
 وان أعلاه لحشمر ، وان أسفله لمضدق ، وانه يعملو ولا يعمل على عليه ، وفي رواية : وما
 هو بقول بشعر . (٣)

وتعطينا هذه القصة صورة صادقة عما كان يفعله القرآن الكريم في نفوس العرب
 عندما كانوا يسمعون شيئا منه ، وما ذلك الا لما فيه - بجانب المعنى والمضمون - من
 بلاغة وفصاحة بلغا حد الاعجاز .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن العباس سأله ، فقال : يا رسول الله فيم
 الجمال ؟ قال صلى الله عليه وسلم * في اللسان * (٤)

(١) من الذين حاولوا تقليد القرآن الشاعر أمية بن أبي الصلت وسليمة الكذاب فمن
 قول الأول : * انا أعطيناك المعقق ، فصل لربك وأزقق . ان شائك هو الحصان
 الأبلق .

(٢) وهناك مذهب " الصرفة " الذي يقول بأن العرب البلغاء كان بإمكانهم محاربة
 القرآن لشدة فصاحتهم لكن الله صرفهم عن ذلك فلم يأتوا بمثله . وعلى ذلك
 فمذهب " الصرفة " يرى أن القرآن ليس بمعجز حيث كان في الامكان أن يقلد .
 ويجاري لولا أن الله صرف البلغاء عن ذلك . لكن ثبت على مر الدهور والعصور
 أن القرآن الكريم معجز بلفظه ومعناه وبشكله ومضمونه وسيظل معجزا الى يوم
 الدين . هذا وسوف نعود الى الخوض في هذا الموضوع بتفصيل عند الحديث
 عن (قضية الاعجاز) .

(٣) مختصر تفسير بن كثير ج ٣ ص ٥٦٩ - ٥٧٠ تحقيق واختصار محمد الصابوني .

(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٤ .

ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم يريد بجمال اللسان بلاغته وحسن حديثه . فقد ذكر صاحب البيان والتبيين : أن النبي عليه السلام كان به التكلف في القول والاغراب في البيان . وله الأحاديث الكثيرة التي تؤيد ذلك . منها قوله صلى الله عليه وسلم : " أن الله يفضي البليغ الذي تخلل (١) بلسانه كما تتخلل الباقرة (٢) بلسانها " ، وقال : " إياي والتشادة وقال : " أبغضكم إلى الثرثارون المتفهبون " . ثم قال الجاحظ بعد إيراد هذه الأحاديث : (وعاب رسول الله الفدادين (٣) والمتزبدون في جهارة الصوت ، وانتحال سعة الأشداق ، ورحب الغلاهم (٤) ، وهذا الشفاء . . .) (٥)

هذا وكان الرسول عليه السلام يراعى في كتبه إلى الطبوك والقبائل مطابقة كلامه لمقتضى الحال . فقد ذكر صاحب البيان والتبيين أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس كتب إليهم بما يمكن ترجمته فسهل الألفاظ غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة بالعربية . . . ولكن لما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فخم اللفظ لما عرف من فضل قوتهم على فهمه وعادتهم لسماع مثله . وذلك مثل كتابه لوائيل بن حجر الحضري . (٦)

-
- ١١١ خل الشيء : شقه ، واخلل بينهما : فرج ، وتخلل القوم : دخل بينهم . وتخلله بالرمح : طعنه طعنة اثر أخرى . . . المنجد ص ١٩٠
- (٢) بقره بقرا : شقه . . . والبقر والبقارى : الكذب الداهية . المنجد ص ٤٤
- (٣) فد الرجل : رفع صوته . منجد ص ٥٧٢
- (٤) الغلصمة : رأس الحلقوم ، وهو الموضع النائق في الحلق . المختار ص ٣٧٦
- (٥) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٤
- (٦) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٥ ، والمناعتين لأبي هلال العسكري تحقيق علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل ص ١٦٠ و ١٦١

وعلى نهج الرسول الكريم في البلاغة والبيان سار الخلفاء الراشدون من بعده . . . فأبو بكر الصديق رضي الله عنه كان يفاضل بين الشعراء . . . ويروي أنه كان يفضل النابغة ويقدمه على غيره من الشعراء ويقول : هو أحسنهم شعرا ، وأعذبهم بحرا ، وأبعدهم قصرا . (١)

ونلاحظ من أسلوب أبي بكر السابق أنه يتحدث عن البلاغة بأسلوب بليغ .

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان هو أيضا يفاضل بين الشعراء وكان يفضل زهير بن أبي سلمى ، لأنه لا يعاظم في الكلام ، ولا يتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه . (٢) وكان رضي الله عنه يوجه الشعراء في القول ، ويدلهم على مواطن الصواب ، حتى قال له الحطيئة : أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم مني بمذاهب الشعر . (٣)

ويتضح من كلام عمر في الشعر والشعراء أن البلاغة عنده : تحسب التعقيد ، وترك الغريب والوحش ، والبعد عن المبالغة والكذب .

أما على كرم الله وجهه فكان من أنصار السهولة في التعبير فعرف البلاغة بأنها : إيضاح الملتبس بأسهل عبارة . (٤)

وقريب من هذا التعريف قول الحسن بن علي رضي الله عنهما : البلاغة تقريب بعيد الحكمة بأسهل العبارة . ومثله قول محمد ابنه : البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ . (٥)

هذا وكان على يفخر بالفصاحة ، ويعدها من خصائص قريش . وقد روي عنه قوله : ما رأيت بليفا قط إلا وله في القول إيجاز ، وفي المعاني إطالة (٦)

(١) العمدة لابن رشيقي ج ١ ص ٩٥ تحقيق محمد محيي الدين .

(٢) المرجع السابق ص ٩٨

(٣) المرجع السابق ص ١٧٠

(٤) الصنائع ص ٥٨

(٥) المرجع السابق

(٦) المرجع السابق

ما تقدم نستطيع القول بأن البلاغة في العصر الاسلامي الأول (عصر صدر الاسلام) لم يدون لها علوم ، ولم توضع لها مصطلحات ، وأنهم ما زالت عبارة عن مجموعة من الملاحظات والتوجيهات النقدية النابعة من ذوق عربي سليم .

وإذا ما انتقلنا الى العصر الاسلامي الثاني (العصر الأموي) نجد علمين كبيرين بارزين برزا في ميدان الكتابة والأدب ، وكان لهما في مجال البلاغة فضل لا ينكر . . هما :

" عبد الحميد الكاتب " و " ابن المقفع "

أما عبد الحميد : فكان زعيم الكتاب في عصره ، وصاحب مذهب منفرد في البلاغة والبيان ، وهو أول من خطا بالنثر الفني خطوة واسعة السبي ميدان الأدب الفصيح ، وأول من عني بالمحسنات اللفظية واستعملها برقة وبراعة فائقة ، وكانت طريقته في الكتابة مدرسة سار عليها الكتاب من بعده الى عهد ابن العميد . ولذا قيل : (بدت الكتابة بعبد الحميد ، وختت بابن العميد) .

وأما ابن المقفع : فقد تأثر بالثقافة الأجنبية الفارسية ما جعله يعمل في كتابته الى الاسهاب والاطناب والتحليل والتفريع . ولعله أول من شرح البلاغة وفسرها تفسيرا فنيا الى حد ما . قال اسحق ابن حسان : (لم يفسر البلاغة تفسيرا ابن المقفع احد قط . سئل : ما البلاغة؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان تحرى في وجوه كثيرة . . فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الاشارة ، ومنها ما يكون في الحديث ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا وخطبا ومنها ما يكون رسا . فعامة ما يكون في هذه الأبواب الوحى فيها والاشارة الى المعنى ، والايحاز هو البلاغة . فأما الخطاب بين السماطين وفي اصلاح ذات البين ، فالأكثر في غير خطب ، والاطالة في غير ملل ، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي اذا سمعت صدره عرفت قافيته)^(١)

ويتلخص لنا من ذلك أن البلاغة عند ابن المقفع هي : الإيجاز في موضعه والادّئاب في موضعه ، والمعرفة بسياسة القول ، والمطابقة بين الكلام ومقتضى الحال . وكان حرثومة التعريف الاصطلاحى نشأت عند ابن المقفع .^(١)

وبعد ذلك بحوالى قرن من الزمان ظهرت طائفة من العلماء أطلق عليهم : " علماء الكلام " . اتجه هؤلاء العلماء الى دراسة اعجاز القرآن الكريم وما يقوم عليه من ظواهر بلاغية ، وصارت معرفة البلاغة أمرا دينيا كلاميا يقرر حجة الله في عقول المتكلمين كما يقول عمرو بن عبيد في القرن الثالث الهجرى .^(٢)

أخذ علماء الكلام يشتغلون بالابحاث البلاغية فظهرت على أيديهم أوليات الاصطلاحات البلاغية . يقول ابن تيمية : (وانما هذا - يقصد تقسيم الكلام الى حقيقة ومحاز - اصطلاح حادث ، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين ، فانه لم يوجد هذا في كلام أحد من أهل الفقه والأصول والتفسير والحدِيث ونحوهم من السلف . . .)^(٣)

وكانت مدرسة المتكلمين جدلية برهانية ، تستعين بالأبحاث الفلسفية ، وتتسلح بالمنطق ، وترجح جانب المنهج النظري العقلى ، وتتناول مسائل البلاغة تناولا منطقيا عقليا استدلاليا .^(٤)

(١) البلاغة العربية في دول نشأتها ص ١٠٧

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٩٠

(٣) الايمان : لابن تيمية ص ٢٥

(٤) محاضرات في البيان العربى : ص ١٠ للدكتور يوسف البيومي / طبعة ١٩٦٥

وكان بشر بن المعتز واحداً من هؤلاء المتكلمين الذين انتهت اليهم
زعامة المعتزلة ببغداد ، يتفجع بثقافة واسعة ، وعقل نافذ وزوق حساس
ومحيفة بشر^(١) في البلاغة مشهورة حاول فيها أن يوضح معالم وأسس صناعة
البيان . وما يهتما في هذه الصحيفة يتلخص في نقطتين تناولهما بشر في
حيفته :

اللفظ والمعنى : فكل عين وغرة من الكلام " لفظ شريف ومعنى بديع " ، والتعقيد
هو الذي " يستهلك معانيك ، ويشين أظاظك ، ومن أراغ معنى كريماً
فليتمس لفظاً كريماً ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن أحقهما
أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما " .^(٢)

من هذه العبارات نستنبط أن بشراً يسوى في المتزلة بين اللفظ والمعنى ،
أكل منهما حقه في وجوب العناية والرعاية ، وهو يحكم على الأدب بقدر
إجادته فيهما معاً . وتلك هي النظرة المثلى إلى الفن الأدبي ، وما
يجب أن يراعى فيه من جودة اللفظ والمعنى معاً ، وتناسق كل منهما مع
الأخر .

طابقة الكلام لمقتضى الحال : وفيه يقول بشر : " ان مدار الشرف على
الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال " .^(٣)
ويقول : " وينبغي للمتكم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار
المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طابقة من ذلك كلاماً ، ولكل
حال من ذلك مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار
المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات " .^(٤)

-
- (١) راجع نص محيفة بشر في البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٤ - ١٠٧ ، والعمدة
لابن رشيق ج ١ ص ٢١٢ - ٢١٤ ، والصناعتين لأبي هلال العسكري ص ١٤٠ - ١٤١
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٦
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق ص ١٣٩

وهاتان النقطتان - اللفظ والمعنى ، ومقتضى الحال - من أهم ما تدور حوله الدراسات البيانية ، وحديث بشر عنهما فى صحيفته يلفت نظرنا الى نقطة هامة ، هى أن الدراسات البيانية وضع أساسها ، وأبان أول معالمها المتكلمون .

ويرى الأستاذ أحمد أمين أن صحيفة بشر تشتمل على " أسس البلاغة " وقد كتبها بشر قبل أن يؤلف (البيان والتبيين) لأن الجاحظ نقلها عنه ، ولأن بشرا نضج قبل نضوج الجاحظ ، ومات قبله بنحو خمس وأربعين سنة ، فان بشرا مات سنة ٢١٠ هـ ومات الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ ، ولا نعلم قبل بشر من تعرض لوضع هذه الأسس ، فلو أسمىناه مؤسس علم البلاغة لم نبعد^(١) وفى هذا الكلام نظر ، فقد بينا منذ قليل فى الصفحات السابقة أن " عبد الحميد الكاتب " و " ابن المقفع " كان لهما سهم كبير فى ارساء أوليات البلاغة وخاصة ابن المقفع . كما ذكرنا فى الصفحات الأسبق الدعوة الصريحة فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين الى مجانية التكلف وترك التعقيد ومراعاة مقتضى الحال . وكذلك نلاحظ أن ابن المقفع قال ما هو أدخل فى باب البحث البلاغى مما قاله بشر .

وقد وضع الدكتور سيد نوفل صحيفة بشر فى إطارها الصحيح ، ولم يؤيد ما ذهب اليه الأستاذ أحمد أمين . . فقال : " ولكنى لا أستطيع أن أذهب مذهب الأستاذ أحمد أمين . . فلكى نحكم بحجة قول بشر فى تاريخ البلاغة ، يجب أن نعلم أولا قول ابراهيم بن جبلة الذى اعترض عليه بشر ، وربما كان أدخل فى البحث البلاغى منه ، ويجب أن نعلم كذلك ما كان يقوله غير ابراهيم من المعلمين لتلاميذهم ، وتوجيهات عبد الحميد الكاتب وسهيل بن هرون وكتابه : معانى القرآن والخطاب فى التوحيد والعدل ، وغيرهما من الكتب التى لم نملنا ، فتاريخ البلاغة ملئ بالمجهولات ، والقول بأن فلانا مؤسس علم البلاغة لا يقوى أى باحث على تحمل عبئه .

على أنى لست بحاجة الى الاحالة على مجهول ، فقد رأينا الدعوة الى
مجانبة التكلف والتعقيد والى مراعاة مقتضى الحال فى كلام النبی والصحابه
والتابعين ، ورأينا أن ابن المقفع قد قال ما هو أدخل فى باب البحث
البلاغى من هذا ، وقيل عنه ان أحدا لم يفسر البلاغة تفسيره اياها ، وأنه
قد وجه الكتابة العربية توجيها جديدا ، وابن المقفع توفى سنة ١٤٢ هـ .
وهذا أبو عبيدة قد عامر بشرا وعاش نحو مائة سنة وتوفى قبله بعامين ،
وألّف فى مجاز القرآن وتحدث فى التشبيه والاستعارة ، ومشر توفى والجاحظ
فى الستين من عمره . فالقول بأن الجاحظ لم ينضج وقت هذا القول ليس
له ما يثبت به وخاتمة أن هذا القول جاء فى كتاب البيان والتبيين وهو من
آخر مؤلفات الجاحظ ^(١) .

وبعد بشر بن المعتمر يطالعنا على الطريق شيخ العربية وامامها وعلم
القرن الثالث الهجرى أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فقد ترك لنا ثروة
ضخمة من أثنائها كتابه " البيان والتبيين " .

فى هذا الكتاب تعرض الجاحظ لموضوعات البيان والفصاحة والبلاغة ،
ولم يكن لأحد من هذه الألفاظ مدلول خاص يميز كلا منها عن الآخر ، وعرف
البلاغة عند الأمم المختلفة من فرس ورومان ويونان وهنود ^(٢) ، ونقل أقوالا
كثيرة فى البلاغة وعلق على بعضها شرحا وتعليقا . من ذلك قوله : (حدثنى
صديق لى قال : قلت للعتابى : ما البلاغة ؟ قال كل من أفهمك حاجته من غير
اعادة ولا حبة ولا استعانة فهو بليغ) ^(٣) ثم قال بعد شرح وتوضيح : وانما
عنى العتابى أفهامك كلام العرب حاجتك على محارى كلام العرب الفصحا .

(١) انظر البلاغة العربية فى دور نشأتها ص ٨٨ و ٨٩

(٢) البيان والتبيين - ج ١ ص ٨٨

(٣) البيان والتبيين - ج ١ ص ١١٣

وأثار الجاحظ في كتابه هذا بعض التضاميات البلاغية العامة : كالعيوب اللسانية ، ونسبته الى وجوب مراعاة مقتضى الحال ، وقسم الكلام الى طبقات والناس الى طبقات كذلك فقال : (وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا ، الا أن يكون المتكلم بدويا اعرابيا ، فان الوحش من الكلام يفهمه الوحش من الناس ، كما يفهم السوقى رمانسة السوقى ، وكلام الناس فى طبقات ، كما أن الناس أنفسهم فى طبقات ، فمن الكلام : الحزل والسخيف والطبع والحسن والقبيح والخفيف والثقيل ، وكله عربى ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمارسوا وتعايىروا)^(١)

وهكذا نجد الجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين) تعرض لكثير من فنون البلاغة ، وعرضها عرضا رائعا يمتاز بالجمع بين التوضيح النطرى والنموزج التطبيقى ، فذكر البديع والايجاز وعرض للاطناب والازدواج والسجع والمجاز والتشبيه ، وله مع كل منها فقرة رائعة ولمحات ذكية .

وفى كتابه (الحيوان) وقفات أخرى فى الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة لا تقل روعة وذكاء عن وقفاتهِ فى البيان والتبيين .^(٢)

والواقع أن الجاحظ لم يختر فى كتابته أسلوب التعريف والتحديد ، وإنما اختار أسلوب الأدب البليغ الذى يتطابق مع عقله وذوقه وفطارته ، فكان يستعرض النصوص الأدبية ويشرحها مستهدفا الوصول الى مواطن الجمال فيها مستعينا على ذلك بالشواهد الكثيرة من القرآن الكريم ومن كلام العرب .

(١) البيان والتبيين - ج ١ ص ١٤٤

(٢) انظر كتابه الحيوان : ج ٥ ص ٢٣ و ٢٥ و ٢٨ و ٣٩ و ٤٢٥

وفى ذلك يقول الدكتور شوقي هيف : (ان الملاحظ قد ألم فى كتاباته
المصور البيانية المختلفة ، وبكثير من فنون البديع ، غير أنه لم يستق ذلك فى
تعريفات وتحددات ، فقد كان مشغولا بأيراد النماذج البلاغية ، وطمسا عني
بتوضيح دلالة المثال على القاعدة البلاغية التى يقررها) (١) ،
على أن عزوف الملاحظ عن المصطلحات والتعريفات لم يمنع من جأءوا بعده
من الكتاب أن يستخرجوا من كتاباته عن البلاغة كثيرا من الاصطلاحات
والتعريفات ،

يقول الدكتور هيف : (وقد ظلت كتابات الملاحظ وملاحظاته فى البيان
والبلاغة معينة لا ينفذ لمد الأحيال التالية بكثير من قواعدهما ، كل يستمد
منها حسب قدرته الذهنية) (٢)

ثم يقول : (ولعلنا لانبالغ اذا قلنا بعد ذلك كله : ان الملاحظ يعد -
غير منازع - مؤسس البلاغة العربية ، فلقد أفرد لها لأول مرة كتابه " البيان
والتبيين " ، ونشر فيه كثيرا من ملاحظاته وملاحظات معاصريه ، وتعمق وراء
عصره ، فحكى آراء العرب السابقين ، والتمس آراء بعض الأجانب أو قل سجلها
وقد مضى ينثر فى كتابه " الحيوان " تحليلات لبعض الصور البيانية فى الذكر
الحكيم . وليس من شك فى أن كتابه المفقود الذى صنفه فى نظام القرآن
كان يشتمل على كثير من ملاحظاته البلاغية . وهو حقا لم يكن يعنى بوضع ملاحظاته
فى شكل قوانين محددة بالتعريفات الدقيقة ، ولكنه صورها فى أمثلة متعددة بحيث
تمثلها من خلفه تمثلا واضحا) (٣)

(١) البلاغة تطاور وتاريخ : ص ٥٦

(٢) البلاغة تطاور وتاريخ : ص ٥٧

(٣) البلاغة تطاور وتاريخ : ص ٥٧ و ٥٨

وقد شارك الدكتور سيد نوفل الدكتور عفيف رأيه في أن الجاحظ هو مؤسس علم البلاغة فقال: (يعد الجاحظ في رأي مؤسس علم البلاغة العربي ذلك بأنه قد جمع ما يتصل به من كلام سابقين وملاحين ، وشرحه وأضاف إليه . . .) ^(١)

هذا بينما نرى الدكتور بدوي طبانة يقرر أن الجاحظ: (واسع المعرفة ضليع في الثقافة ، عظيم الخبرة ، رحب العقل والتفكير ، ومن هنا تراحمت عليه الأفكار ، وتساقطت الى قلمه ، فحشد كل ما استطاع أن يسجل مما جال بفقره في كتابته ، وكان هذا هو السرفيما نرى من فقد التنظيم العلمي حسي ليصعب الاهتداء في جنبات مؤلفاته الى الفكرة والرأي لمن يبحث عن الفكرة والرأي .

وعلى هذا النحو كتاب "البيان والتبيين" الذي تضل فيه الابانة عن حدود البلاغة ، وأقسام البيان والفساحة ، أنها مبثوثة في تضاعيفه ، ومنتشرة في أثنائه ، فهي ضالة بين الأمثلة ، لاتدرك الا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير) ^(٢) . ومع ذلك يرى الدكتور طه حسين أن: (العرب لم يخطئوا حين عدوا الجاحظ مؤسس البيان العربي ، وليس ذلك لأنه وصل بجهدده الخاص الى قاعدة بيانية بعينها ، فشخصيته القوية تكاد تكون معدومة في كتابه البيان والتبيين ، ولكن لأنه جمع في هذا الكتاب طائفة من النصوص توضح لنا توضيحا حسنا كيف كان العرب يتصورون البيان في القرن الثاني والنصف الاول من القرن الثالث ، وتطينا صورة مجملة لنشأة البيان العربي ، ان لم نسمع لنا بتاريخ هذه النشأة) ^(٣)

(١) البلاغة العربية في دور نشأتها ص ١٧٠

(٢) البيان العربي: ص ٦٥ و ٦٦

(٣) مقدمة نقد النثر: د . طه حسين ص ٣ و ٤

ويبدو أن هذا الرأي للدكتور طه حسين والدكتور بدوي طبانة مأخوذ من كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري^(٥).
ورأى أن كتاب البيان والتبيين على ما فيه من قيمة بلاغية يحتاج لمجهود كبير، وتأمل طويل، لاستخراج هذه القيم. فهي ليست منظمة تنظيماً علمياً بحيث يسهل ادراكها والاستفادة بها. كما أن القول بأن الجاحظ مؤسس علم البلاغة مردود بما قلناه من بشر بن المعتمر حين قيل عنه بأنه مؤسس علم البلاغة.

ومن الذين كان لهم باع لا ينكر في التأليف البلاغي العالم الجليل ابن قتيبة صاحب كتاب "تأويل مشكل القرآن" . . . فهذا الكتاب قد أولى البلاغة عناية كبيرة وإن كان صاحبه قد ألفه أصلاً للرد على الطاعنين في بلاغة القرآن، الذين اتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وقد تحدث ابن قتيبة في هذا الكتاب عن كثير من فنون البلاغة وعقد لها أبواباً، هي القول في المجاز، والاستعارة، والمقلوب، والحذف والاختصار، وتكرار الكلام والزيادة فيه، والثنية والتعريض ومخالفة ظاهر اللفظ معناه، ولا نجد في الكتب المتقدمة هذا المنهج في دراسة البلاغة، وهذه الأبواب الواضحة المعالم . . . وبذلك يعد ابن قتيبة من أوائل اللذين فتحوا باب التأليف في هذا الفن لابن المعتز^(٦).

وأهم كتاب جاء بعد ذلك هو كتابه (البديع) لابن المعتز^(٧). ذلك أنه أول كتاب في البلاغة العربية لم يجاوز في موضوعاته وفنونه دائرة البحث البلاغي.

(٥) انظر كتاب الصناعتين : ص ٥
(٦) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٢٠٨
(٧) من أعلام القرن الثالث الهجري، انظر ترجمته في تاريخ بغداد ١٠ / ٩٥ والافغانى (ط دار الكتب) ١٠ / ٢٧٤ ونزهة الألباء ٢٩٩، ونزرات الذهب ٢ / ٢٢١ .

وكلمة " البديع " التي وضعت عنواناً لهذا الكتاب ليست جديدة مستحدثة، بل كانت مستعملة في لغة العرب من قبله وكانت تدل على كل طريف مستحسن، وفي القرآن الكريم: " بديع السموات والأرض " وقد ذكر الجاحظ هذه الكلمة حين ذهب إلى أن البديع مقصور على العرب، ومن أجله فاشتغل لغتهم كل لغة، وأرست على كل لسان.

فإن ليس لابن المعتز فضل في هذه التسمية، ولكن فضله يعزى إلى أنه أول من جمع فنون البديع ووضحها وأتى بشواهد لها من القرآن الكريم، والسنة الشريفة، وكذلك من روائع الأدب، ويحتر ابن المعتز بسبقه إلى التأليف البلاغي فيقول: (وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد) (١)

ويذكر ابن المعتز أن السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابه (البديع) هو تلك الخصومة القائمة بين القدامى والمحدثين، فأنصار القديم يرون أن القدماء هم أهل الفصاحة واللسان، وهم أصحاب المعاني والأخيلة، وهم السابقون إلى وضع الأوزان والقوافي، وأن المحدثين عالة عليهم. وأنصار الحديث يرون أن المولدين هم أهل المواهب وأصحاب البديع ومخترعوها. وأنبرى ابن المعتز ينفذ دعاوى المحدثين، ويثبت أصالة العرب في البديع، وإن كان للمحدثين شيء، فهو مغالاتهم فيه وإسرافهم في استعماله يقول ابن المعتز: (وانما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع) (٢)

والبديع عند ابن المعتز يشمل خمسة فنون هي: الاستعارة - والتجنيس - والمطابقة - ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها - والمذهب الكلامي.

(١) كتاب البديع ص ١
(٢) المرجع السابق ص ٣

على أن ابن المعتز لم يقصر كتابه على هذه الفنون الخمسة ، وإنما ذكر بعدها ثلاثة عشر فناً . . قال أنها من محاسن الكلام ، وهى : الالتفات ، الاعتراض ، الرجوع ، حسن الخروج ، تأكيد المدح بما يشبه الذم ، تاهل العارف ، الهزل يراد به الحد ، حسن التضمين ، التعريف والكنائية ، الإفراط فى الصفة ، حسن التشبيه ، لزوم ما لا يلزم حسن الإيحاء ، وضرب لكل ذلك أمثلة كثيرة .

(ونلاحظ أن ابن المعتز اعتبر التعريف والكناية شيئاً واحداً . كما نلاحظ أن ما ذكره ابن المعتز من البديع والمحاسن خليط ببعضه أخيراً من علم المعانى : كالاتفات والاعتراض ، وغير بعضه من علم البيان : كالاستعارة وحسن التشبيه والتعريف والكنائية ، وبعضه من البديع الاصطلاحى كالتجنيس والمطابقة .

وبالرغم من ذلك فكتاب البديع هو أول محاولة جدية فى وضع اصطلاحات والقاب لوجوه الحسن فى الكلام ما أسرع ما بنى عليه من بعده قواعد هذا العلم وشادوا من بنيانه (١)

وإذا كان لابن المعتز فضل كبير على البلاغة بتأليفه هذا الكتاب ، فإن له كذلك فضلاً كبيراً على النقد ، إذا أدخل فيه جانب البلاغة ، وجعل أساس النقد الأدبى تمييز الأسلوب بما فيه من فنون البديع ، وأولها عنده (الاستعارة) ، وهذا يعنى أن ابن المعتز أدخل الصورة بين عناصر النقد الأدبى ، بعد أن كان النقد متجهاً الى الكلمة وما فيها من خطأ أولحن ، والى المعنى وما يتضمنه من جودة أو رداءة .

(١) المدخل الى البلاغة العربية : د . يوسف البيومي ص ١٥

وكتاب البدیع - فوق ما تقدم - يمتاز بأنه عمل عربي صرف لم يتأثر
بزرعة أجنبية كما حدث بعد ذلك عند ما ألف قدامة بن جعفر كتابه
" نقد الشعر " فقد جاء منه متأثرا بما عرف من قواعد البلاغة
عند أرسطو وفلاسفة اليونان وما ترجم منها في ذلك الحين .
وكان قدامة (١) قد اشتهر بين معاصريه بثقافته العميقة ومعرفته
بالفلسفة والمناطق في كتابه " نقد الشعر " لأنه تحد لابن المعتز
ومدرسته العربية الأصلية .

ويرى الدكتور طه حسين أن قدامة لم يتأثر بتفكير أرسطو وفلسفته (٢)
بينما لا يشك باحث في كتاب قدامة أن صاحبه كان مطالعا على آراء أرسطو
ومتأثرا بها الى حد بعيد (٣)

وقد رد الدكتور شوقي ضيف على الدكتور طه حسين ردا مقننا
أثبت فيه أن قدامة تأثر في كتابه " نقد الشعر " بكتابي الخطابة
والشعر لأرسطو ، كما تأثر بكتابات الجاحظ وابن المعتز والاعمش وغيرهم
من سابقيه (٤)
ونظرة عاجلة على كتاب (نقد الشعر) لقدامة تحده نظامه
ورتيبه فصولا ثلاثة :

الفصل الاول : لتعريف الشعر وبيان أجزائه .

الفصل الثاني : تحدث فيه عن نعوت الجودة في الشعر .

الفصل الثالث : خصه بعيوب الشعر ونعوت رداءته .

ومحل القول أن قدامة وفق في هذا الكتاب توفيقا عظيما جعل من يكتبون
بعده في البدیع يلهمون باسمه وفي مقدمتهم أبو هلال العسكري صاحب
كتاب الصناعتين .

(١) انظر تاريخ قدامة وترجمته في : معجم الادباء لياقوت (مطبعة القاهرة)

ج ١٧ ص ١٢١ ، وتاريخ بغداد ٢٠٥/٧

(٢) مقدمة نقد النثر ص ١٧

(٣) انظر (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) د . ابراهيم سلامة ،

(والنقد المنهجي عند العرب) د . محمد مندور ص ٦٢ - ٦٨

(٤) (البلاغة تطوّر وتاريخ) د . شوقي ضيف ص ٨١ وما بعدها الى ص ٩١

هذا وقد ظهرت - فيما بين قدامة وأبي هلال العسكري كتب نقدية تناول أصحابها كثيرا من الأمور البلاغية ، مثل كتاب (عيار الشعر) لابن بابايا سنة ٥٣٢٢ هـ ، وكتاب (الموازنة بين الهائين) للامدى سنة ٥٣٧١ هـ ، وكتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) للقاضي الجرجاني سنة ٥٣٩٢ هـ .

وقد اشتهرت هذه الكتب في تاريخ النقد الأدبي ، وهي كتب كثر الحديث فيها عن التشبيه والاستعارة والجناس والطباق ، وما يستحسن من هذه الفنون ويستقبح . والظاهرة العامة في هذه الكتب أن النقد الأدبي فيها قد اخطط بالبلاغة ، والبلاغة اخطط بالنقد ، وبات من الميسر على الباحث فيها أن يميز نقدا من بلاغة أو بلاغة من نقد . يقول صاحب الموجز : " وذلك في اعتقادنا أمر محمود ، وكان ينبغي أن يستمر ، فلا يقدم نقد بلا بلاغة ، لأنها عنصر من عناصره ، ولا تقدم بلاغة بلا أدب ، لأنها به تحيا وتظهر ، وما أطالت البلاغة عندنا ومدة الا يوم انزوت عن النقد والادب جميعا لتصبح حدودا جامدة وتعريفات خالية من النبض والروح " (١)

ولأن هذه الكتب (عيار الشعر ، والموازنة ، والوساطة) لاتعد كتباً في البلاغة بالمعنى الذي آلت اليه بعد ذلك فاننا نتجاوزها الى كتب أخرى تلتها ، واتخذت من فنون البلاغة موضوعاً لها . ككتاب المناعتين لأبي هلال العسكري الذي أشرنا اليه آنفاً .

(١) الموجز في تاريخ البلاغة ص ٧٩ و ٨٠ للدكتور زكي المبارك .

ويعتبر كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري^(١) نقطة هامة على طريق التطور البلاغي وتحولا ملحوظا في تاريخ الدراسات البلاغية ، فترك الملاحظات النقدية التي أشرنا اليها عند ابن المقفع وبشر بن المعتمر والجاحظ وغيرهم من الأدباء ، جميعها أبو هلال ونسقها في قواعد بلاغية تعين على صناعة الكتابة والشعر. ولذلك يمكننا أن نعتبر هذا الكتاب بداية تحول النقد الى بلاغة.

وقد ذكر أبو هلال في مقدمة كتابه السبب الذي دعاه الى وضع كتاب في البلاغة والفصاحة فقال : (ان أحق العلوم بالتعليم وأولها بالتحفظ ، بعد المعرفة بالله حل ثناؤه ، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة ، الذي به يعرف اعجاز كتاب الله تعالى ...)^(٢)

فالبلاغة على هذا - عند المؤلف - لها غاية دينية ، وهي اثبات اعجاز القرآن عن طريق معرفتها . وتلك الغاية الدينية هي التي لمسناها لدى أكثر السابقين الى علم البلاغة .

ونظرة فاحصة الى الأبواب والفصول التي اشتمل عليها كتاب الصناعتين ترينا مبلغ الجهد الشاق الذي بذله أبو هلال في تأليف هذا الكتاب. وقد قسمه الى عشرة أبواب تشتمل على ثلاثة وخمسين فصلا ، تتناول الموضوعات البلاغية المختلفة من تحديد موضوع البلاغة لغة واصطلاحا ، الى تمييز حيد الكلام من رد يفسه ، ومعرفة صنعيته ، وحسن الأخذ وقبحه ، الى ذكر الايجاز والاطناب والتشبيه ؛ وما يستحسن وما يستقبح ، وذكر السجع والازدواج والقول في الهدى ووجهه وحصر أبوابه وفنونه . وذكر لكل ذلك أمثلة كثيرة عني في أحوال كثيرة بتحليل أطراف منها تحليل يدل على رصافة حسه وصفاء ذوقه ونقائه .

وما يذكر بالفضل لأبي هلال في كتابه الصناعتين ذلك الأسلوب الأدبي الصنع الذي سلكه في تبويب البلاغة وتطبيق الأمثلة وشرحها ، ويعدّه عن طريقة علماء المنطقي والكلام التي كانت قد طغت على أفكار القوم وأساليبهم في القرن الرابع ، وكأنما تنبه العسكري الى مخالفة هذه الأساليب لطبيعة البلاغة العربية الاصلية. وقد أشار الى ذلك في آخر الفصل الاول من الباب الأول ان قال :

(١) انظر ترجمته في : معجم الأدباء ٣ / ١٣٥ ، وخزانة الادب ١ / ١١٢ .

(٢) الصناعتين ص ١ .

(ليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وإنما قدمت فيه مقصد صناع
(١) الكلام من الشعراء والكتاب . . .)

وهكذا كان أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين كاتباً أدبياً يتذوق البلاغة
ويبحث عن مواطن الجمال فيها مستدلاً بالشواهد والبراهين . وما فعله أبو هلال
العسكري في علم البلاغة هو - لا شك - عمل قيم وعظيم ، ولكنه لا يمد شيئاً بجانب ما أتى
في علم البلاغة وعلمها الشامخ الأستاذ الإمام عبد القاهر الجرجاني (٢) . الذي يسلو
نظرية النظام ورأى أن البلاغة تدور في فلكها ، وأن الأبحاث البلاغية يجب أن ترتبط بها
وتنضوي تحتها . وما النظام عند الجرجاني إلا ائتلاف الالفاظ ووضعها في الجملة
الموضع الذي يفرض معناها النحوى ، فالمعنى النحوى للكلمة هو الذى يفرض تقديرها
أو تأخيرها ، وتصريفها أو تنكيرها ، ذكرها أو حذفها . يقول الجرجاني : (واعلم أن
ليس النظام إلا أن تضع كلامك الموضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله
وتصرف مظاهره التى نهجت فلا تزيع عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك فلا تدخل بشئ
منها . . .) (٣)

ويقول في موضع آخر : (وليس الغرض بنظام الكلم أن توالى ألفاظه في المنطق ، بل
أن تتناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى يقتضيه العقل) (٤) . وفى كتابه
(دلائل الاعجاز) نجد أن معظم الأبحاث البلاغية التى درسها عبد القاهر فى هذا
الكتاب هى التى وضعت فيما بعد تحت اسم " علم المعانى " فقد عالج مسائل كثيرة
ترتبط بالمعانى التى تستفاد من الجملة عندما توضع على نحو خاص من تقديم وتأخير
وذكر وحذف وتصريف وتنكير الى غير ذلك من ألوان الصياغة .

(١) الصناعتين ص ٨

(٢) انظر ترجمته فى : انباء الرواة ١٨٨/٢ ، وطبقات السبكي ٢٤٢/٣ ،

وبغية الوعاة ٣١٠

(٣) دلائل الاعجاز ص ٤٨

(٤) المرجع السابق ص ٣٣

فجاء من بعده وربطوا بين هذه المسائل التي عالجهما على نحو جديد وسموها (علم المعاني) ، بل لعزل الاسم نفسه مأخوذ عن عبد القاهر أيضا لأنه كثيرا ما ردد وأعاد وكرر أن النظام هو توحي معنى النحوي فيما بين الكلم ،

وفي كتابه (أسرار البلاغة) يتابع عبد القاهر ويؤكد نظريته في النظام ، وأن مزية البيان إنما هي فيما بين الألفاظ من علاقات تنسجم مع المعنى ، وبدون ذلك لا فائدة للألفاظ " كيف والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ، ويعتمد بهما إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب " (١) ويؤكد عبد القاهر ذلك في أكثر من موضع وهو أن العبرة ليست باللفظ وإنما بالمعنى ، لأن اتساق الألفاظ وترتيبها إنما يكون بحسب ترتيب معانيها في النفس وتقبلها في العقل ويضرب عبد القاهر لذلك أمثلة عديدة ، منها ما ذكره عن التحنيس فقال : (أما التحنيس فأنك لا تستحسن تحانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعا حميدا) (٢) . كما يقول في موضع آخر : (ولن تجد أيمن طائرا ، وأحسن أولا وآخرها ، وأهدى إلى الاحسان وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعاني على سجيقتها ، وتدعها تطالب الألفاظ لنفسها ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكن إلا ما يليق بها ، ولم تلبيس من المعارض إلا ما يزينها ، فأما أن تضع في نفسك أنه لابد من أن تحنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت فيه بفرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم) (٣) .

وقد حشد عبد القاهر في (أسرار البلاغة) كثيرا من أبحاث علم البيان ، فبحث فيه التشبيه والتشيل والمجاز بلوغه اللغوي والعقلي وهذه الأبحاث هي التي جمعها من جاءه بعد عبد القاهر في علم واحد سموه " علم البيان " .

(١) أسرار البلاغة : ص ٣

(٢) المرجع السابق : ص ٦

(٣) المرجع السابق : ص ١٢ و ١٤

وهذه الجهود العظيمة التي بذلها عبد القاهر في الابحاث البلاغية جعلت صاحب الطراز يذكر في فاتحة كتابه أن عبد القاهر هو واضح علم البلاغة يقول: (وأول من أسس من هذا الفن قواعده ، وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ، ورشده أفانينسه ، الشيخ العالم الفخير علم المحققين عبد القاهر الجرجاني . . فجزاه الله عن الاسلام خير الجزاء)^(١) . كما يرى د . بدوي صيانة أن عبد القاهر فاق أرسطو في هذا المجال يقول: (ولقد أفاد من دراسات عبد القاهر وبحوثه البلاغية من لا يحصون من علماء البلاغة ، وانتفعت الاجيال المتعاقبة بما بسط من الأفكار وبما عمق من البحث في أصول الفنون الادبي ، وما تزال أصدائه تتجاوب في بيئات الأدب وقاعات الدرس في جامعاتنا وفي كتبنا البلاغية ودراساتنا النقدية ، حتى يمكن القول بحق أن عبد القاهر هو أرسطو العرب في سعة باعه وغزارة معرفته بالفن الأدبي ، وإن فضل عبد القاهر أرسطو في صناعة الحجّة وإشراق البيان)^(٢)

وهكذا نجد أن البحوث البلاغية تكاد تكون قد تمت وبلغت أوجها في دراسات عبد القاهر الجرجاني . ولكن كما يقول الشاعر: لكل شيء إذا ما تم نقصان فقد شاء الله تعالى أن تتحول البلاغة من علم ذوق وجمال وأدب الى علم جاف يعتمد على المنطق بأصوله ومناهجه الخادة ما جعل علم البلاغة قوائين تسبك في قوالب منطقية جافة .

ولقد حدث هذا التحول الخطير على يد أبي يعقوب السكاكي^(٣) . الذي وضع كتابه (مفتاح العلم) وقسمه ثلاثة أقسام : القسم الأول للصرفه والقسم الثاني للنحو ، والقسم الثالث للبلاغة وما تحتوى عليه من أقسام المعاني والبيان والبديح وما يلحق بهذه العلم من قافية وعروض . حقيقة ان هذا التحول يرجع قبل السكاكي الى فخر الدين الرازي في كتابه (نهاية الايجاز في دراية الاعجاز) فهو أصل القسم الثالث من كتاب المفتاح . . الا أن السكاكي أخذ هذه البداية وركز عليها ونماها وزاد فيها حتى اعتبر لدى علماء البلاغة امام هذه الطريقة .

(١) الطراز: ج ١ ص ٤

(٢) البيان العربي: ص ٢٥٠

(٣) انظر ترجمته في: معجم الأدباء ٣٠٦ / ٧ ، وبغية الوعاة: ٤٢٥

وما صنعه السكاكي في مفتاح العلم من تقسيم البلاغة هو الذي أخذ به علماء البلاغة من بعده ، وهو الذي استقرت عليه البلاغة الى وقتنا الحاضر . فاذا عرفنا أن السكاكي كان متأثرا بثقافته النحوية والمنطقية والكلامية ، وعرفنا أنه صبح البلاغة في كتابه بصيغة هذه العلم ، عرفنا سبب طغيان القوالسبب والحدود على علم البلاغة ، وعرفنا سبب التعقيد الذي أصابها عنده وعند من قلده وحذوا حذوه من بعده . إذ ظل (مفتاح العلم) للسكاكي محورا للتأليف البلاغي ، فظهر حوله عدد كبير من كتب الشرح والايضاح والتلخيص والتمهيد فكانت كغيم تحجب صفاء السماء وتمنع عن البلاغة البهجة والرواء . ويرى الأستاذ احمد موسى أن البديع ساء حاله على يد السكاكي ولم يعد بديعا فقد (أخذ يتحدو رويدا رويدا الى هاوية الاسفاف والانحطاط ، ويفقد صبغته الأدبية التي أبرزته في معرض الاشراق والاعجاب ، ويتعثر في قيود ضيقة قدها له المنطق والفلسفة ، حتى صار هم السكاه تحديد ألوانه والاكتفاء بتحديداتها كما تحدد الكلمات اللغوية وسوق الأمثلة التقليدية التي يتوارثونها لكابر عن كابر ، حتى أصبحت الكتب الكثيرة التي ألف فيها بعد السكاكي كأنها كتاب واحد ، فمن وقف على أحدها غنى به عما عداه ، وقد زاده تعثرا على مر الزمن وقوعه فريسة للشرح والمقررين الذين يرون أن الحذق والتعثر انما يظهران في العناية بالجدل الذي لا يفيد وافترض الافتراضات والشبه نسم الاشتطاط عليها ما قضى على البديع وذهب بروعته الأدبية وأورد موارد العلم والجمسود (١)

من أجل ذلك قامت الدعوة الى تجديد البلاغة أو العودة بها الى عصر نضجها وازدهارها أو على الأقل تنقيتها مما شابها من أسلوب المناطق وطريقة الجدل العقيم الذي جاء كعاصفة مترسة وزج سمم فغطى على جمال البلاغة وما امتازت به أصلا من فخامة اللفظ ورقة المعنى وحلاوة الصياغة وجمال الصورة وقوة الخيال .

مع روعة فى التطبيق ومراعاة فى الاستشهاد الى غير ذلك مما اعتلزت به المدرسة الأدبية قبل أن تظهر عليها وتطفي المدرسة الكلامية .
ويسوقنا هذا الى الحديث عن المدارس التى مرت بها البلاغة وخصائص كل منها حديثا موجزا يتناسب مع هذا التحديد الذى أحاذر فيه الإيجاز المخل والاطناب الممل .
المدرستان الأدبية والكلامية : وأعود فأقول : ان بلاغتنا العربية عاشت فى أحضان مدرستين كان لكل منهما طابعها الخاص ومنهجها فى البحث والدراسة . وهاتان المدرستان هما :

أ - المدرسة الأدبية ب - المدرسة الكلامية

وقد نشأت البلاغة كما عرفنا - منذ العصر الجاهلى - عربية السروح وترعرعت وأزهرت فى رحاب الذوق الحساس ولغات الطبع الذكية فى أسلوب أدبى هو من حوك البلاغة التى يصورها والدرر التى ينظمها ، فكانت النفوس تأنس لها وتنتعش بها تجد فيها من بهجة ومال وسحر .
ذلك هو العصر الأول للبلاغة الذى انتهى الى الشيخ عبد القاهر الجرجانى وتمثل فى كتابه (دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة) ذلك العصر الذى لانستطيع أن نحكم على تراثه فى البلاغة والأدب أى كتبه بلاغة وأيمها أدب لشدة الامتزاج وكثرة التداخل ووفرة ما أفاض كل منهما على الآخر فالبلاغة والأدب فرعان متعانقان من شجرة طيبة هى شجرة اللغة العربية الخالدة .

تلك هى المدرسة الأدبية ، وقد كان للكتاب والشعراء الأثر البالغ فى نشأة تلك المدرسة فقد صبغوا كثيرا من مباحثها بصبغة أدبية رائعة ، وذلك لما امتازوا به من حسن دقيق مرهف وطابع رقيق صاف وذوق ناقد وذلك يتضح من حديث الحافظ عن الكتاب حيث يقول : (أما أنا فلم أرقوما قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب . . .) (١)

ومن أهم ما تمتاز به تلك المدرسة هو مجافاتها الأحكام النظرية ،
وعند التحاكم الى النطاق الميزاني ، والاعتبار العقلي ، والشعوري بأن
فى الانسان من قوى الحكم شيئاً غير هذا كله . . . (١) فالذوق أساس
هام فى الاحساس بحال الكلام وروعة الاسلوب وقد أدرك هذا الامام
عبد القاهر فعقد فصلاً فى آخر " دلائل الاعجاز " بعنوان (ادراك
البلاغة فى الذوق والاحساس الرومانسى) .

وكذلك ما تمتاز به هذه المدرسة الأدبية اكارها الصرف فى
استعمال الشواهد الأدبية شعراً ونثراً ، واقلالها من البحث فى
التعاريف والقواعد والأقسام والفروع ، مع الاعتماد على الذوق وحاسة
الجمال فى تقرير المعانى الأدبية . (٢)

ومن أبرز رجال هذه المدرسة الامام عبد القاهر وكتابه ، وضيأ
الدين بن الاثير الذى يعد قمة المدرسة الأدبية لأنه بحث البلاغة بحثاً
أدبياً فى كتابه : المثل السائر ، والحامع الكبير (٣) وكذلك أبو هلال
المسكوى فى كتابه : المناعتين ، ويمكن أن نعد من رجالها كذلك ؛
ابن رشيق القيروانى فى : العمدة ، وابن سنان الخفاجى فى : الفصاحة ،
والرمانى فى : النكت فى اعجاز القرآن .

أما العصر الثانى : فهو عصر المدرسة الكلامية التى حمل لواءها
أبو يعقوب السكاكى فى أواخر القرن السادس وامتدت حتى قبيل النهضة
الحديثة . وفى تلك الفترة طغت الروح الاعممية والافكار الأجنبية وأصاب
البلاغة منها رذائل كثيرة بل سيل جارف أغرقها فى دوامات المنطق والفلسفة
وعلم الكلام وتحولت البلاغة المسكينة الى حدود وتعريفات وشروح وتلخيصات
أبعد ما تكون عن روح البلاغة وما يجب أن يكون فيها من روعة وجمال .

(١) فن القول ص ٩٢

(٢) مناهج تهديد ص ٢٣٠

(٣) اتجاهات البلاغة العربية ص ١٢ / د . احمد مطلوب .

وقد يكون للمدرسة الكلامية فضل في استواء علم البلاغة وتكامل نموه وتقسيمه الى فروعها الثلاثة : المعانى ، والبيان ، والبديع ، وتخصيص كل قسم بما يضمنه ويندرج تحته من فنون البلاغة . ولكن ما لا شك فيه أن ضررها كان أكثر من نفعها وأن المدرسة الكلامية رغم ما بذلت من جهود وانتجت من كتب بعدت بالبلاغة عن روحها ودخلت بها في مآهات مازالت تتخبط في دياجيرها حتى اليوم .

ذاك هي المدرسة الكلامية وتتلقى خصائصها في تطبيق المظاهر المنطقية والفلسفية في الأبحاث البلاغية ، وإصدار أحكام عقلية في الموضوع الوجداني ، والحوار على الناحية الأدبية بالاقبال من الشواهد الأدبية والاكتار من الأمثلة المصنوعة التافهة ، وعدم العناية بالناحية الفنية في ادراك خصائص التراكيب ، واستعمال المقاييس الحكمية والخلقية والعقلية في تقدير المعانى الأدبية . (١) هذا وربما تكون المدرسة الكلامية قد ظهرت مبكرة عما ذكرنا ، فنحن نعرف أن الجاحظ كان من أعلام المتكلمين وكان على رأس فرقة اعتزالية لها مبادئها الخاصة في علم الكلام ، وكان الجاحظ مشغوبا بعلم الكلام لدرجة أنه تمنى أن يكون الأطباء متكلمين (٢) ولكن عصر الجاحظ كان عصرا ذهبيا ازدهرت فيه الآداب لذلك لم يظهر أثر المتكلمين واضحا في كتابته . هذا بالإضافة الى أن الجاحظ نفسه كان صاحب ذوق رفيع وإحساس مرهف وطبع صاف أصيل فغطى ذلك على ميوله الكلامية وهو يكتب في البلاغة والأدب . لكن هذا لا يمنع أن المدرسة الكلامية كانت موجودة قبل السكاكي وإن كانت ضعيفة الأثر لم تطغ بشكل واضح على الناحية الأدبية .

وليس عجيبا بعد ذلك أن نرى الجاحظ وهو من أعلام المتكلمين يشير الى المدرسة الأدبية ويبدى إعجابه بها وذلك عند ما تحدث عن الكتاب فقال : " أما أنا فلم أر قوما قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوهرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا " (٣)

(٢) انظر كتاب الحيوان : ج ٥ ص ٢٢

(١) انظر خصائص المدرستين الأدبية والكلامية في مناهج تجديد ص ١٢٥

وعص ٢٦ و ٢٣٠ ، وفن القول ص ٧٩ - ١٠٠

(٣) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٠٥

وفي كتاب المناعتين لأبى هلال العسكري نده هو الآخر يشير
مراحة الى منهجين فى دراسة الادب والبلاغة هما : منهج المتكلمين
الذى يعنى بتحديد الموضوعات وتقسيمها وبيان ما يتشعب عنها ، ثم
منهج الأدباء الذى يمتاز بالاكثار من الشواهد شعرا ونثرا وتلمس الجمال
الفنى فيها . يقول أبو هلال : (وليس الغرض فى هذا الكتاب سلوك
مذهب المتكلمين ، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء وال
والكتاب) (١)

على أن هناك مدارس أخرى مرت بها البلاغة فى أيامها الاولى مثل :
المدرسة الأصولية ، ومدرسة الرواة ، ومدرسة الكتاب التى تعتبر نواة
للمدرسة الأدبية . ذلك أن البلاغة العربية نشأت وترعرعت فى أحضان
علوم أخرى ترتبط بها أشد الارتباط ، وستظل مرتبطة بها مهما بلغت
سن الرشد فأستقلت علومها وتحددت مسائلها . وهل تستغنى البلاغة
عن علوم القرآن واللغة والأدب والنقد . هذه هى العلوم التى نشأت
البلاغة فى أحضانها ونست حتى استوت على سوقها علما ناضجا مزهرا .
فعلما أصول الفقه مثلا كانت لهم بحوث بلاغية تحتل المقدمة اللغوية
لعلم الأصول ، وهى مقدمة تضخمت مع الوقت حتى صارت مسائلها من
أهم ما يبحثه الأصوليون . فقد عرضوا فى مبادئهم اللغوية للبحث فى
الحقيقة والمجاز والتشبيه والكناية وما الى ذلك من أبحاث علم البيان ، كما
تحدثوا عما يتصل ببحث أجزاء الجملة فى علم المعانى ، وفى حد يشهد
عن العموم والخصوص عرضوا المتكثير والتعريف ، واستفراق المفرد ، واستفراق
الجمع ، والحصص ونحوه . وتلك الابحاث البلاغية فى المدرسة الأصولية
هى التى جعلت السكاكى يشير الى استئثار علم أصول الفقه بأبحاث علمى
المعانى والبيان ويقول : " بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه لترى من أى
علم هى ومن يتولاها " (٢)

(١) المناعتين : ص ١٥

(٢) مفتاح العلوم ص ١٩٩ ط ١ الحلبي .

أما الرواة فقد كانت لهم جهود طيبة في وصل ماضي العرب بحاضرهم وحفظ تراث اللغة والأدب بعد ما اغتط العرب بالمعجم . وقد خاض هؤلاء النفر من أصحاب اللغة في الألفاظ العربية واستعملاتها وما إلى ذلك من دراسة بلاغية يشير إليها الجاحظ في البيان والتبيين بمعد ما روى بيت الأشهب بن رميلة :

هم ساعد الدهر الذي يتقى به وما خير كف لا تنوء بساعد
فيقول : (هم ساعد الدهر) إنما هو مثل ، وهذا الذي تسميه الرواة
البديع (١) كما يشير عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز (٢) إلى
ما نجده في كتب اللغة من إدخال ما ليس طريق نقله التشبيه في الاستعارة
كما صنع أبو بكر بن دريد في الحمرة فإنه ابتداءً باباً فقال : باب
الاستعارات . . . وكالذي نجده متفرقا في كتب الأمل من هذا التناول
البلاغي لأصحاب اللغة ودارسيها . (٣)

أما الكتاب فقد كان لهم بدراستهم ومؤلفاتهم أثر واضح في حياة
البلاغة العربية يدركه من تتبع أعلامهم من ابن المقفع بأدبيه ، إلى قدامة
ابن جعفر بنقده (٤) إلى ابن شيت القرشي صاحب كتاب " معالم الكتابة
ومغانم الإصابة " والشهاب الحلبي الكاتب صاحب كتاب " حسن التوسل
إلى صناعة الترسل " ، وابن الأثير بمثله السائر ، والقلقشندي بـ " صبح
الأعشى في صناعة الأنشأ " . ف هؤلاء وغيرهم من الكتاب قد خدموا دراسة
البلاغة العربية خدمات جليلة . (٥)

ويحاول بنا الحديث لو أردنا أن نتتبع ونستقرى كل ما ورد في علوم القرآن
واللغة والأدب والنقد من مسائل بلاغية تبلورت على مر الأيام وأصبحت فناله
حدوده ومعالمه .

(١) البيان والتبيين : ج ٣ ص ٢٤٢

(٢) ص ٣٢٨ ط الترقى

(٣) المدخل إلى البلاغة العربية ص ١٤

(٤) بعضهم يرى أنه ليس لقدامة النقد الشعر فقط .

(٥) المدخل ص ١٢

وكنا نود أن تزال البلاغة - بعلومها الثلاثة التي تحددت معالمها
فى بيئتها التى نشأت فيها . وترعرعت فى أكنافها ، فتسير فى موكب
هذه العلوم ، تتقدم معها ، وتتجدد فى ظلالها . لأن البلاغة يوم
بعد يوم رجالها عن هذه العلوم ، وألقوا بها فى أحضان علوم أخرى
كالمنطق والفلسفة فقدت روائها وضلت أهدافها ودخلت فى مآهات
لم تخرج منها حتى اليوم .

ان علوم القرآن واللغة والأدب والنقد هى الأسرة الطيبة المباركة
التي أنجبت علوم البلاغة والتي يجب أن تظل البلاغة منتعشة اليها ، فى
رحابها ترقع وفى أفيائها تعيش . كما أن هذه الأسرة الطيبة من العلوم
لا تستغنى عن البلاغة ولا تجد حتمها بدىلا .

هذا وقد أشرنا من قبل وأوضحنا أن الذى قام بهذه القطيعة بسين
البلاغة وأسرتها العلمية هو السكاكى ، فبالرغم من أن استقلال البلاغة
بعلومها الثلاثة قد تم على يديه - فهو الذى حدد معالمها وأحسن
تبويبها - إلا أنه حنح بها بعيدا عن أسرتها وبيئتها ، وأسلمها الى
علوم المنطق والفلسفة ففرقت فى بحر من التقسيم والجدل المقيم
والذين جاءوا بعد السكاكى - للأسف - سلكوا طريقته (١) وساروا
سيرته ، فظل السكاكى محورا للتأليف البلاغى ، تدور كتبهم حوله
وتحذو حذوه (حتى ليخيل اليك وأنت تقرأ جمهورها أنك أمام عسدة
علوم قوامها المنطق والفلسفة وعلم الكلام . أما البلاغة فالحفاء عليها
وسط هذه الأخطا أو قل ان شئت فأما البلاغة فهى كالبرق الخاطف
وسط هذه السحب المتركمة بيد و قليلا ثم يختفى كثيرا (٢)

وإذا كان هناك شبه اجماع من المحدثين بأن السكاكى هو السبب
فى تقعيد البلاغة وتعقيدها فان هناك بعض الأصوات تخالفه ذلك وترى
غير هذا رأى . فقد وجدت فى كتاب (المتنبى وشوقي) للدكتور عباس
حسن رأيا مخالفا تماما ...

(١) يستثنى من ذلك قليلون مثل ابن الأثير وابن سنان الخفاجى .

(٢) المصباح البديعى : ص ٢٤٣

ان يرى الدكتور عباس أن السكاكي خدم البلاغة خدمة جليلة ويشيد بفضل السكاكي ومن لف لفه برغم الناقمين عليه أو المتسرعين في حكمهم على آثاره ، وذهب يثبت ذلك بأراء و حجج لا نسلم له بكثير منها . (١)

ويبدو أن رأى الدكتور عباس حسن مأخوذ من ابن خلدون في مقدمته حين كان يؤرخ لعلم البيان حيث قال : " . . . ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا الى أن محض السكاكي زبدته ، وهذب مسأله ، ورتب أبوابه على نحو ما ذكرنا آنفا من الترتيب ، وألف كتابه المسمى " بالفتاح " في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض أرائه ، وأخذ المتأخرون من كتابه ولخصوا منه . . . (٢)

والواقع أن ادخال السكاكي للمصطلح في البحث البلاغى وربطه بعن علم الاستدلال وعلم المعانى كان ضرره أكثر من نفعه . ذلك أن العمل البلاغى النقدى يعتمد اعتمادا كبيرا على الذوق ، والادواق تتباين وتختلف ، ولا يلزم لهذا العمل التصريف الجامع المانع وإنما يكفى وضع الملامح العامة . ومثالا على ذلك فان أنصار المنهج السكاكى قد أختلفوا في وضع هذه التصريفات الجامعة المانعة للفنون البلاغية ولم يلتقوا عند رأى واحد في كثير منها . كرايهم مثلا فى الاستعارة المكنية فهى عند السكاكى : لفظ المشبه المستعمل فى المشبه به الادعائى ، وعند الخطيب : هى التشبيه المضمرة فى النفس المتروكة أركانه سوى التشبيه المدلول عليه باثبات لازم المشبه به للمشبه وعند المصنف : لفظ المشبه به المحذوف المستعار فى النفس للمشبه والمرموز اليه باثبات شئ من لوازمه للمشبه . وهذا قليل جدا من كثير جدا من الخلافات التى لا طائل تحتها والتى تحاشينا الدخول فى تفصيلها لأنها ليست من مهمتنا فى هذا البحث ، ويكفى أن نقول ان هذه الخلافات والطرائق الجدلية والفلسفية بعدت بالبلاغة عن روعتها وجمالها . (٣)

(١) انظر ص ٦٤ - ٦٩ من كتاب (المتنبى وشوقى)

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٠ ط الشعب .

(٣) انظر الرسالة البيانية للمصباحية الشيخ الانبائى ص ٤٢ - ٤٨

والبلاغة بين عهدين د . نايل ص ٢٢٠ ، ومنهج البحث البلاغى بين

السكاكى وعبد القاهر د . حجاب ص ٣٢٤ و ٣٢٥

والمعجب أن السكاكي ومن أفرق البلاغة في بحار المنطق ونأى بها عن نهر الذوق يقف في قسمة الاعجاز موقفا مخالفا لمنهجه فيرد الاعجاز إلى الذوق ويقول : (واعلم أن شأن الاعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالمصلاحة ، ومدرك الاعجاز عندي هو الذوق ليس إلا ، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين) (١) .

ويرى الأستاذ أحمد موسى أن البلاغة (استفادت الكثير على يد السكاكي من حسن التنسيق والتبويب ، ودقة التقسيم والتفصيل ، واحكام التمييز بين مباحث علم المعاني وعلم البيان . فان هذا مما يحمده التاريخ للسكاكي . ولو سلم هذا القسم الثالث من (المفتاح) من مزجه بالعلم العقلية لأن هذا من خير المؤلفات في البلاغة في جميع عصورها) (٢) .

وأما الدكتور سمير القاموحي فانما تعفى السكاكي من مسئولية جمود البحث البلاغي وتعقيده وترى . (أن كتاب " المفتاح " كتاب جاف في ترتيبه ومعالجته للموضوعات ، وأن السكاكي ليس هو المسئول عن جفاف هذه الدراسة التي نتجت عن جفاف الكتاب نفسه ، وليس الواقف أن البلاغة والنقد الأدبي لا بد أن يمر في هذه الاطوار دائما ببداية نظرية مبشرة ، ثم دراسة حية قوية مثمرة مؤثرة وأخيرا خلاصة وتفنين وتعقيد جاف يؤدي بحياة النظرية أو الفكرة أو الناحية المدروسة ، ان هذه سنة الحياة في الابحاث الأدبية والفنية . أما المسئول عن جفاف هذه الدراسة فهو أمة بأسرها وظروف في جعلها لقد ان عصره عصر جمع وتبويب ، وعصر تعقيد وتفنين ، فجمع فنون البلاغة وكانت أشعثا مفترقة في كتب كثيرة . .

(١) المفتاح ص ١٦٦

(٢) الصبح البديعي ص ٢٤٩

وكتاب المفتاح بلا شك عمل على حفظ الصورة البلاغية القديمة وروح لها ولكنه لم يسع الى تطويرها ، لأن مهمته الرئيسية كانت الصون والحماية ونشر الذوق العربي السليم في كل الأريسين التي فتحها المسلمون - ان في البلاغة العربية غابات بل أدغالا مازالت بكرات تنتظر الدارسين (١) ونحن لانسلم بكل ماورد في كلام الدكتورة سمير القلماوى ، فانه اذا كان عصر السكاكى قد أسهم بنصيب وافى فى جفاف الدراسة البلاغية فان السكاكى هو الآخر قد شارك فى صنع هذا الجفاف . ألا ترى أن عصر عبد القاهر كانت تشيع فيه موجة السجع والجناس والزخارف اللفظية حتى لتكاد تغطي على المعنى والمضمون ، ومع ذلك شعر عبد القاهر عن ساعد الجدد وأخرج لنا كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وما فيهما من نفائس بلاغية بأسلوب أدبى فى غاية الرقى ومازلنا نحن فى القرن العشرين نتغذى برحيقهما ونتغنى بروعتهما ونرجع اليهما كقصة غنية فى ميدان البلاغة والأدب .

أما أن كتاب (المفتاح) كان أعون على نشر الذوق العربى السليم فى كل الأريسين التي فتحها المسلمون . فهذا أيضا كلام لانسلمه للدكتورة فانسكاكى وان كان دعا الى استخدام الذوق فى ادراك قضية الإعجاز الا أنه لم يطبق ذلك عمليا فخالف قوله فعله وسلك بالبلاغة دروبا وأزقة منطقية وفلسفية ضلت فيها البلاغة وفترتها تلك الكثرة الكاثرة من الحواشى والهوامش والتقارير التى ان صح أنها تعين على شحذ الأفكار فانها لا تبنى ذوقا ولا تنمى احساسا .

أما مانسلم به للدكتورة فهو قولها : (ان فى البلاغة العربية غابات بل أدغالا مازالت بكرات تنتظر الدارسين) فهذا قول حق ، ولعله هو الذى دعا علماءنا القدامى أن يقولوا عن البلاغة : انها علم مانضج وما احترق ، وفى ذلك حجة لنا أن نشمر عن ساعد الجدد لنجدد بلاغتنا ونهض بها بحديث تساير الفنون الأدبية فى العصر الحديث .

(١) انظر تقديم د . سمير القلماوى لرسالة الماجستير (البلاغة عند السكاكى) للدكتور احمد مطلوب .

أجل أن بلاغتنا اليوم في حاجة ماسة إلى التجديد والتطوير ،
 وأول ما يجب عمله هو تجديدها من أسدقاء السوء ، واستخلاصها من
 برائن تلك العلوم التي جنت عليها من أمثال المنطق والفلسفة وعلم الكلام
 والجدل والمباحكات التي بعدت بالبلاغة عن ميدانها وحملتها مسخا
 مشوها مع أنها فن الروعة والجمال . وبات علم البلاغة - للأسف
 الشديد - كريها إلى طلائنا ، ثقيل على أربائنا ، بعيدا عن
 نقادنا .

من أجل ذلك كان لابد لرجال البلاغة والمهتمين بشئوننا من
 وقفة يعيدون فيها النظر ويدققون البحث من أجل تجديد البلاغة
 وتلاويرها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الاول

بوادر التجديد واتجاهاته

(أ) التجديد - مفهومه - بواذره

(ب) اتجاهات التجديد ومظاهره

الفصل الاول

التجديد - مفهومه - بؤاده

التجديد والتغير طبيعة الحياة ، وسنة الله في كونه ، والتجدد والتغير ظاهرة عامة في كل زمان ومكان ، تشمل الانسان والحيوان والنبات والجماد وكل ما خلق الله في هذا الوجود من ماديات ، ومن معنويات أيضا ، فالعلم والفنون والآداب على اختلاف أنواعها وأجناسها تتغير في كل عصر ، وتتجدد مع كل جيل .

والتجديد لا يأتي عادة طفرة واحدة ، وانما هو تغير حتمي يصاحب تغير الزمن ، وتغير المجتمعات ، وتغير الفكر .

واذا دقت النظر ، وأمنحت الفكر ، لانتجد شيئا يثبت على وضع ، ولا انسانا يدم على حال ، انما هو التطور الحتمي الذي يخرج بالخلقة من النقص الى الكمال ، ومن الحسن الى الأحسن ، تبعا لعوامل تؤثر في الفكر الاجتماعي من دين وعلم وحضارة وخلق ، واللغة وعلومها من أدب وقواعد وأساليب محكومة بهذا القانون الطبيعي ، لا تستطيع أن تجمد والانسان يتطور ، ولا أن تقف والعالم يسير .^(١)

واذا كان من رأى بعض العلماء والادباء أن التطور الحتمي يخرج بالخلقة من النقص الى الكمال ، ومن الحسن الى الأحسن . . . فانا لانرى ذلك في كل حال . بل نستطيع القول في ثقة وادراك بأن التغير والتجدد قد يكون أحيانا سموا وتقدما ، وقد يكون أحيانا أخرى هبوطا وتدنيا . وواقع الآداب يؤيد أن الأشعار القديمة هي خير ما أنتجته العقول ، فمن الثابت لدى معظم النقاد أن خير أشعار الأمم هو ما قالته أيام بداوتها الأولى ، وفي تاريخ الأدب العربي ما يزيد من رجحان كفة قديم الشعر على حديثه ، وهو صدور القديم عن طبع وحياة ، وصدور أغلب الحديث عن تقليد وفن .^(٢)

(١) من تقديم الزيات لكتاب الصراع الأدبي بين القديم والجديد - د. علي السماري ص ٧ ط ١٩٦٥

(٢) النقد المنهجي عند العرب ص ١٣ د. محمد مندور .

وكان المأمون الخليفة العباسي - مع ثقافته الواسعة - يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر مع ملك بني أمية ^(١) . (وينفرد ابن خلدون وحده - من بين نقادنا القدامى - فيما أعلم - بتفضيل الاسلاميين على الجاهليين ، وذلك أنه بنى حكمه على نظرية آمن بها وأشاعها في فصول الأدب من كتابه (المقدمة) وهي أثر المحفوظ من الكلام في تكوين الملكة . وهو يرى أن الاسلاميين قرءوا من جيد المنشور والمنظم ما لم يتسع للجاهليين ، فقد تدارسوا القرآن الكريم وحفظوه ، أو حفظه كثير منهم ، كما حفظوا أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحفظوا أشعار الجاهليين ، فتهيا لهم من هذا قدر كبير صالح حرم منه الجاهليون ، فجاءت أشعارهم - يعني الاسلاميين - أجود . بل جعل كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة ، وأصفى رونقا ، وأرصف معنى ، وأعدل تثقيفا .

وكلام الآمدي في (الموازنة) صريح في الرد على مثل ابن خلدون حيث يقول : " والذي يورده الأعرابي ، وهو محتذ على غير مثال أحلى في النفوس ، وأشهى في الاسماع ، وأحق بالزيادة والاستجادة مما يورده المحتذى على الامثلة ^(٢) وهكذا نجد الخلاف واضحا في أفضلية الجديد على القديم ، وبالتالي لانستطيع أن نحكم بأن الجديد الذي اقتضاه التطور الحتمى هو دائما أفضل ، ويخرج بالخلقة من النقص الى الكمال ومن الحسن الى الأحسن .

وإذا نظرنا في تاريخ الدول والشعوب نجد ذلك واضحا أيضا فالعصر الاسلامي - مثلا - من حيث الدولة والحكم والتشريع كان أفضل من العصر الجاهلي فالتطور هنا كان من النقص الى الكمال ومن الحسن الى الأحسن . ولكن العصر الأموي ليس كذلك ولم يكن التطور فيه ، من النقص الى الكمال ولا من الحسن الى الأحسن . كذلك العصر العباسي الثاني لم يكن أفضل من العصر العباسي الأول ، وليس ذلك بحاجة الى دليل وبرهان ، فيكفى أن نعرف أن العصر العباسي الأول كان عصر القوة أدبيا وسياسيا ، وكان عصر الدولة الواحدة الموهوبة الجانب .

(١) سهوان الميماني ج ١ ص ١٦٢

(٢) الصراع الأدبي ص ٧٩ د . العماري

أما العصر الثانى - مع أنه وقع فيه جزء كبير من العصر الذهبى للعلوم والفنون والآداب العربية - فقد كان عصر الضعف والتخاؤل ، عصر الدويلات والانقسامات وملوك الطوائف . فهل بعد ذلك - وهو على سبيل المثال - نستطيع أن نجزم بأن التطور والتجدد دائما يخرج بالخلقة من النقص الى الكمال ومن الحسن الى الاحسن ؟

واذا عدنا الى الادب والشعر ، فنجد أن الشعر فى العصر الحديث تجد وتطور ولكن من أحسن الى حسن ، ثم من حسن الى سيئ ، فالشعر الحديث والشعر الحر تأخر لا تقدم ، وتدن لاسمو . وكذلك الأدب العربى - فيما يلوح لى - بوجه عام . هذا بينما علوم أخرى تقدمت وسمت حتى وصلت الى القمر . فالتجدد اذن طبيعة كونية ، وقاعدة يخضع لها كل موجود ، سواء كان هذا التجدد الى الاحسن أم الى الأسوأ ، الى الضعف أم الى القوة .

واللغة بوصفها كائنا حيا تتجدد مع الأحياء ، وتتطور مع أجيالها ، فلكل عصر لفتة ، ولكل جيل أسلوبه ، ولكل مقام مقال . ولقد تطورت لفتتنا العربية ، ولقيت علومها اللغوية والشرعية الكثير من الاهتمام والعناية ، فسايرت ركب الحضارة ، وواكبت تقدم الزمن . . .

الا علم البلاغة ، شذ عن القاعدة ، وخرج عن سنة الطبيعة ، وظل جامدا منذ القرن السادس الهجرى حتى اليوم .

وهانحن أولا (فى مستهل القرن الخامس عشر الهجرى) ننظر الى علوم البلاغة بحسرة وأسى ، فقد انصرف عنها الدارسون ، وزهد فيها الأرباء والكاتبون ، مع أنها من أجل العلوم العربية قدرا .

يقول الامام عبد القاهر : (ثم انك لا ترى علما هو أرسخ أصلا ، وأبسط فرعا ، وأحلى جنى ، وأعذب ورذا ، وأكرم نتاجا ، وأنور سراجا ، من علم البيان ، الذى لولاه لم تر لسانا يحوك الوشى ، ويصوغ الحللى ، ويلفظ الدر ، وينفث السحر ، ويقرى الشهد ، ويريك بدائع من الزهر ،

ويحنيك الحلو اليانع من الثمر ، والذي لولا تحفيه بالعلوم ، وعنايته بها ، وتصويره اياها ، لبقيت كأمّنة مستورة ، ولما استبنت لها يد الدهر صورة ، ولا ستر السرار بأهلتها ، واستولى الخفاء على حطتها ، الى فوائد لا يدركها الا حصا ، ومحاسن لا يحصرها الاستقصا . (١)

فالبلاغة اذن لا غنى عنها لتذوق أدبنا ، ومعرفة ما في لغتنا من جمال وسحر ، ثم هي - كذلك - لا غنى عنها لمصرفة اعجاز القرآن الكريم المعجزة الكبرى الالهية التي أنزلها الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين ، ليخرج الناس من الظلمات الى النور ويهديهم الى صراط العزيز الحميد . بل ان دراسة الاعجاز وادراكه كان الهدف الأساس الذي من أجله وضع علم البلاغة . يقول ابن خلدون : (واعلم أن ثمرة هذا الفن انما هي في فهم الاعجاز من القرآن) (٢)

ولما كانت البلاغة بهذه المنزلة من علو القدر وعظم الشأن ، وقد تعرضت في العصور الأخيرة لما تعرضت له من توقف وحسود ، بل من هجوم وتحسن ، كان من المحتم أن يدعوا بعض المهتمين بشئون الأدب واللغة الى تحديد علوم البلاغة في العصر الحديث ، وأصبحت تلك الدعوة قضية تثار من وقت لآخر ، ومحاولات واهية ، تظاهر حيناً وتختفي أحياناً .

والشكوى من الحيف الذي لحق علوم البلاغة شكوى قد يمسها (فلا تكاد تطالع على مؤلف في البلاغة العربية - منذ أخذت تتكون - عما له قواعد ورسوم ، وتسلك طريقها الى التحديد والتفصيل - حتى تجد العلماء يجهرون بالشكوى المرة ، من إهمال الناس لهذه العلوم ، وانصرافهم عنها ، ويعدّهم عن التعمق في دراستها ، واكتفائهم بالقشور دون اللباب وتقاعسهم عن اكتفاء أسرارها واستجلاء غوامضها وتفهم شواهد ها .

(١) مدخل دلائل الاعجاز ص ٤ ، طبعة السيد محمد رشيد رضا سنة ١٩٦١

(٢) مقدمة ابن خلدون - باب البيان - ص ٥٢١ طبعة الشعب .

فوجد عبد القاهر الجرجاني الامام الجليل ، يطيل القول في وصف
الظلم الذي لحق بهذه العلوم ، وعذره واضح ، فهو يرى للنحو مدارس
ودارسين ، وكتباً تؤلف ، ومناظرات تقدم ، وتنافساً قويا حاداً .

ويرى للفقه مدارس تتدارسه ، وتأخذ في تحقيق أصوله ، واستخراج
فروعه ، فتخرج بحوثاً متجددة دائمة . ويرى لعلم الكلام حركة
نشيطة ، وحيوية غالية ، فيشغل هذا العلم كثيراً من الأذهان ،
ويسيطر على كثير من العقول ، ويبلغ ذروته في البحث والاستقصاء ،
والأخذ والرد . وهكذا يجد في التفسير والحديث والاصول والمنطق
والادب . . . ثم ينظر في علوم البلاغة فلا يجد لها حياة بين الدارسين ،
ويرى التعمق في دراستها أبعد ما تكون عن تفكير العلماء . وانما يكتفون
إذا درسوا - بالنظرة العابرة ، والجولة العابرة ، والهمة الخائرة .

ولذا يقول عبد القاهر في مقدمة كتابه " دلائل الاعجاز " بمقد
أن تحدث عن علم البلاغة وفضله على سائر العلوم : " الا أنك لن ترى
على ذلك نوعاً من العلم قد لقي من الضيم مالم يقه ، ومنى من الحيف
بما منى به " (١)

ثم يجيء السكاكي في القرن السادس فيرد في مقدمة القسم الثالث
من كتابه (المفتاح) مقالته عبد القاهر ، فيقول : " ثم مع ما لهذا
العلم من الشرف والظاهر ، والفضل الباهر ، لا ترى علماً لقي من
الضيم مالم يقه ، ولا منى من سوم الخسف بما منى ، أين الذي مهد له
قواعد ، ورتب له شواهد ، وبين له حدوداً يرجع اليها ، وعين له
رسوماً يمرج عليها ، ووضع له أصولاً وقوانين ، وجمع له حججاً وبراهين ،
وشمر لضبط متفرقاته ذيله ، واستنهض في استخلاصها خيله ورجله ؟
علم تراه أيدي سبا ، فجزء حوته الدبور ، وجزء حوته الصبأ . "

ولم يكن عصر السعد والسيد بأحدب على هذه العلوم ، ولم يكن أهله أحفل بها ، فنرى السعد يقول فى مقدمة شرحه للقسم الثالث من مفتاح العلوم : " وبعد انقراض علماء فن البيان ، المطلاع على نكست نظم القرآن ، وانتقاص أمره على الزمان ، وانتقاص مدده بتعاقب الحدثان كاد تبقى رباعه من غير طلل ورسم ، وتذهب ذهاب جد يس وطسم ، وتؤذن آليها بالطمس ، ويقرأ عليها : كان بالأس " . ويقول فى مقدمة المختصر : " وان هذا الفن قد نضب اليوم ماءؤه ، فصار جدالا بلا أثر ، وذهب رواؤه ، فعاد خلافا بلا ثمر ، حتى طارت بقية آثار السلف أدرج الرياح وسالت بأعناق مطايا تلك الأحاديث البطاح " . ويرد هذه المعانى بأسهاب فى مقدمة المطول .

ونلاحظ أن العلماء كذلك يحرصون فى أوائل كتبهم على أن يبينوا أن هذه العلوم جليلة القدر ، عظيمة المنزلة ، لما يترتب عليها من فهم اعجاز القرآن ، وأنها أولى العلوم بالدراسة ، وأحقها بالعناية ، فمن الرسوم المقررة أن تجد فى أوائل كتب البلاغة اشادة بمقادير هذه العلوم ، وشكوى من تقاصر الهمم عن تحصيلها . وهذه كلمة لأحد المؤلفين من علماء القرن الثامن تعطينا صورة قوية واضحة للنهج الذى سارت عليه جمهرة كتبهم . قال أمير المؤمنين على بن حمزة صاحب كتاب " الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز " فى مقدمة كتابه . " أما بعد . فان العلوم الأدبية ، وان عظام فى الشرف شأنها ، وعلا على أوج الشمس قدرها ومكانها ، خلا أن علم البيان هو أمير جندها وواسطة عقودها ، وفلكها المحيط الدائر ، وقمرها السامر الزاهر ، وهو أبو عزرتها ، وانسان مقلتها ، وشعلة مصباحها ، وياقوتة وشاحها ، ولولا له لم تر لسانا يحوك الوشى من حلل الكلام ، وينفث السحر مفتر الاكمام وكيف لا وهو المطلاع على أسرار الاعجاز ، والمستولى على حقائق المجاز ، فهو من العلوم بمنزلة الانسان من السواد ، والمهيمن عليها عند السير والحك والانتقاد ، ولما فيه من الغموض ودقة الرموز ، واحتوائه على الاسرار والكنوز ، استولت عليه يد النسيان والذهول ،

والت نحوه وشموسه الى الانكشاف والأفول ، ولم يختص باحرازه من العلماء الا واحد بعد واحد ، وطالما قيل : اذا غام المألوف قل المساعد ، وما ذاك الا لقصور الهم عن بلوغ غاياته ، وعجزها عن ادراكه والوصول الى نهاياته .

(فاذا وصلنا الى عصرنا الحاضر نجد الشكوى لاتزال مرة قاسية ، ونحن - ولا شك - أحق بالشكوى ، وأولى بتصوير الظالم الذى منيت به هذه المعلوم ، فالمطابع العربية تلد كل يوم عشرات المؤلفات ، ومع ذلك فلا نجد منها فى علوم البلاغة الا النزر اليسير ، فاكثره للتجارة لا للعلم ، وبعضه للهدم لا للبناء) (١)

وهكذا نجد أنه - بعد هذه المجهود الأولية قد آن الأوان لتجديد علوم البلاغة وادراكها قبل أن تفرق فى محيط الإهمال والحيود والتأخر ، فقد سحت أوليا فى بحور الفلسفة والمنطق وعلم الكلام فلم تصادف جزيرة ، ولم تصل الى شاطئ .

والدعوة الى تجديد البلاغة لها جذور قد يمتدأت منذ بدأ البحث البلاغى ينمو ويتفرع ، ومنذ بدأت الآراء والأحكام تصدر وتتوالى من علماء البلاغة واللغة والأدب .

من ذلك ما ارتآه ابن قتيبة فى القرن الثالث الهجرى من رأى يعارض به ماساك فى عصره وقبل عصره من بعض الآراء التى تجعل القداسة للقديم وحده ، فنجدد يقرر : أن الله عز وجل لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر . (٢)

واذا كان ابن قتيبة قد دعا الى تجديد البلاغة ، فهل ماجأ به الجاحظ وابن المعتز من اضافات لها وزنها فى البحث البلاغى يعد من قبيل التجديد .

(١) قضايا بلاغية : ص ١٣٦ د . العمارى .

(٢) الشعر والشعراء ص ٦ .

ان الجاحظ جمع ما تفرق في كتب السابقين من مباحث بلاغية ،
وماتناثر هنا وهناك من أحكام وآراء نقدية وبلاغية ، وصاغ كل ذلك
بأسلوب أدبي ، وأضاف من عنده بعض المباحث ، كبحثه في اللفظ
والمعنى .

وابن المعتز وضع كتابه (البديع) فكان أول كتاب يجرى مباحث
البلاغة ، ويخلصها مما أختلطت به من مباحث علوم أخرى ، وقد اخترع
مسميات ووضع رموزا لكثير من ألوان البديع .

وكذلك فعل قدامة بن جعفر ، فانه جاء في كتابه (نقد الشعر)
بصياغة جديدة للبلاغة العربية ، فاخضعها لنزعة الأجنبية ، ولمنهج
المتأثر بالفلسفة والمنطق وما عرف من قواعد البلاغة عند أرسطو وفلاسفة
اليونان حين ذاك .

وأبو هلال العسكري الذي يعتبر كتابه (الصناعتين) بداية تحول
النقد الى بلاغة ، والذي (يمكن أن يعد نقطة تحول في الدراسات
البيانية والنقدية ، وأنه جنح بترك المعالم الذوقية اتجاه قواعد بيان
بما وضع من أسس فن البلاغة التي يعد كتابه مصدرا من أهم مصادرها)^(١)

ثم عبد القاهر الجرجاني الذي نضجت على يديه نظرية النظام ،
وبلغ البحث البلاغي بفضله الى القمة ، وكان كتاباه - أسرار البلاغة ،
ودلائل الإعجاز - من أحدث وأفضل كتب البلاغة في عصره ، ومازالا الى
يومنا هذا أروع ما كتب في علم البيان .

كل ذلك هل يعتبر تجديدا ؟ وهل كل ما أضافه واستحدثه هؤلاء
العلماء يعد من قبيل التجديد ؟

أغلب الثمن أنه ليس كذلك . . فقد كانت البلاغة العربية في دور
التكوين والبناء - لم تكتمل بعد - والتكوين والبناء لا يعتبران تجديدا ،
بل هما انشاء وإعمار .

ولكن نستطيع أن نقول : انه لما نضجت البلاغة ومباحثها على يد عبد القاهر ، ثم بدأت تتحدر على يد السكاكي ومن تابعه من بعده حتى بداية العصر الحديث - كما أوضحنا من قبل - وجدنا البلاغة العربية وقد أجهدها السير الطويل في شعاب مقفرة مظلمة فشحب لونها ، وحف عودها ، ونهب روائها ، فكانت حينئذ في حاجة الى التجديد .

ومن هنا ارتفعت أصوات بعض العلماء والمهتمين بشئون البلاغة يدعون الى تجديد ها .

وهذا ليس عيبا توصم به البلاغة ، فكثير من العلوم جدت وطورت وأخذت مكانتها في العصر الحديث .

وانا كان الأوان قد آن لتجديد علوم البلاغة ، والوصول بها الى ما نرجو لها من قوة وتمكن وتأثير ، فما هو الطريق الأسلم الذي نسلكه الى هذا التجديد ؟

والحل يكفى أن نفعل ما فعله الامام محمد عبده حين قام بتدريس كتابي عبد القاهر - دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة - في الأزهر الشريف؟ يقول الدكتور احمد مطلوب : ان الأزهر الشريف هو أول من حمل لواء التجديد في البلاغة (وذلك بأن قيض الله له الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الذي أخذ يحيى كتب السلف وعلومهم ، ويقوم ما اعوج من مناهج التأليف وطرائق التدريس ، فقد انصرف الشيخ الى تدريس كتابي "دلائل الاعجاز" و "أسرار البلاغة" لعبد القاهر وبذلك فتح أذهان الطلبة ، وقوى مداركهم ومواهبهم ، لأنهم وجدوا في تدريس الامام غير ما ألفوه ، وبذلك كان الجامع الأزهر أول معهد من معاهد التعليم الاسلامي والعربي قرئ فيه : دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة - بعد الفغوة الطويلة - درسا لطالب البلاغة ، ولأجله طبع الكتابان وانتشرا . وقد تخرج في الأزهر الشريف في مطلع العصر الحديث جيل فيه عزم على البحث ، وفي روحه اندفاع الى التجديد (١)

ومع اعترافنا بجهد الامام الشيخ محمد عبده وحسن عنيجه ، وأنه أفاد طلاب
الازهر في البلاغة ، نرى أن مافعله الامام الجليل انما كان بداية طيبة
لنهضة بلاغية مأمولة ، ومحاولة لها قيمتها في ارواء شجرة البلاغة التي
جفت وكادت تذويها الرياح .

ولكن مافعله الامام محمد عبده - مع ماكان له من قيمة وفائدة جليلة -
هل يعتبر تجديدا ؟

الواقع أنني لا أرى فيه أى تجديد ، فالامام الجليل اختار أفضل
الكتب في البلاغة ليدرسها لابنائها الطلاب في الازهر ، وهذا كان عملا
جليلا لاشك فيه ، ولكنه لايعتبر بحال من الأحوال تجديدا ، وانما يعتبر
- في رأيي - من قبيل احياء التراث والاستفادة به .

وعلى هذا فلا يمكننا أن نعتبر الامام محمد عبده من المجددين في علم
البلاغة وان كان أول من حاول في العصر الحديث أن يحيى تراثها ، ويغنى
أفضل قناديلها ، فأجاد وأفاد . رحمه الله .

مفهومنا عن التجديد :

واذا لم يكن كل ما تقدم من قبيل التجديد ، فما مفهوم التجديد عامة ؟
وما المراد بتجديد البلاغة خاصة ؟

نقول وبالله التوفيق : ان مفهوم التجديد عامة يتضح اذا نظرنا الى الشئ
وعنده ، فبغدها تتميز الأشياء .

فالجديد ضد القديم ، والقديم يتجدد ، والجديد يصبح قديما ، وتجديد
القديم ينبغي ويندب اذا دعت الحالة الى ذلك ، ويكون التجديد حينئذ
بازالة سمات القديم وما نتج عنه من ضعف ووهن ، ثم تزويده بعد ذلك بما
يقويه ويعيد اليه رونقه وجده وجماله ، بحيث يصبح لحسنه وقوته محبوبا
جاذبا للانتباه .

أما أن نترك القديم كله ، وندعه للفناء والبلى ، ثم نأتى بجديد آخر ، يحل
محلّه ويأخذ مكانه ، فليس ذلك بتجديد ولا تطوير ، بل هو وضع شئ مكان آخر .
فالتطوير والتجديد يستلزمان أن يكون هناك قديم أصلا يجرى عليه التجدد والتطوير

هذا هو مفهومنا عن التجديد بمعنى عام .

وط هذا الاساس يمكن أن نفهم المراد بتجديد البلاغة . فإن القائلين بالقضاء بلاغتنا القديمة ، والقضاء كتبها في بحر الظلمات واستيراد بلاغة اخرى أجنبية لحل محلها . هؤلاء ليسوا بحال من الأحوال مجددون ، وانما هم في الحقيقة غاشمون معتدون على تراثهم وتاريخهم مفضون لأمتهم ولغتهم .

فتجديد البلاغة في مفهومنا هو أن نتناول بلاغتنا القديمة - ولكل قديم دأؤه - فنخلصها من دائها ، ثم نضيف إليها ما يقومها ويرد شبابها ورواءها ، ثم نكسوها أحدث الحل وأبهاها حتى تصبح في العصر الحديث فتنة للناظرين .

وقد يكون من المفيد - والمؤيد لنا في هذا المقام - أن نعود الى المعاجم فنستأنس بما قالت في مادة (جدد) . فنجد لهذه الكلمة في (المنجد) أحد عشر معنى ، وكثيرا من الاستعمالات والتركيب نحترئ منها ما يأتي :-

جَدَّدَ = قطع ، والمجدود المقطوع .

وجد = في الأمر ، عجل وأسرع .

وجد = به الأمر ، اشتد

وجد = في أعين القوم : عظم .

وجد = اجتهد ، وجد في الأمر = حقق ، اهتم .

واجد الامر = حققه ، أحكمه .

والجد (جسد) بكسر الجيم = ضد الهزل .

والجد = المحقق المبالغ فيه ، يقال " عذاب جدّ " أي مبالغ فيه .

" وفلان عالم جدّ عالم " أي متناه في العلم ، و " عظيم جدا " أي بالغ النهاية في العظام .

والجد = بفتح الجيم وضمها ، الحظ - الحظوة - الرزق ، والجديد

والمجدود = ذو الحظ .

ونستطيع ما تقدم أن نستخدم فى معنى التجديد عدة أساليب
 مثل : حد فى أعين القوم : أى عظم . بمعنى أن القديم عند ما يصير
 جديدا يعظم فى أعين الناس ويعجبهم ويقبلون عليه .
 ومثل : حد فى الأمر : أى حقق واهتم . بمعنى أن القديم لابد أن
 يقوم تجديده على أساس من التحقيق والاهتمام . ومثله : أجد الامتر .
 أى حققه وأحكمه . وعظيم جدا : أى بالغ الغاية فى العظام .
 أما الحد بمعنى : الحظ والحظوة فلا يخفى مناسبتها لمعنى الجديد
 فالجديد والمحدود : ذوالحظ ، لانه بعد أن كان قدما لاحظ له ،
 أصبح بعد العناية به وتجديده ذا حظ عظيم .

وفى المنجد أيضا :-

جد الثوب حدة = صار جديدا .

وحدّ وأحد الشئ = صيره جديدا فتحدّر ، والجديد ج حدّ :

عكس القديم .

" والجديدان والأجدان " الليل والنهار ، لانهما لا يلبثان أبدا . وهما
 لا يفردان فلا يقال للواحد منهما الجديد أو الأحد . (١)

وفى المختار من صحاح اللغة نحترئ أيضا ما يأتى :-

والحدّ أيضا : الحظ والبخت ، والجمع الحدود ، تقول منه : حددت
 بإفلان - على ما لم يسم فاعله - أى صرت ذا حد ، فأنت جديد : حظيظ
 ومحدود : محظوظ ، وحد - بوزن حد - ، وحدى - بوزن مكى . وفى
 الدعاء : " ولا ينفع ذا الحد منك الحد " أى لا ينفع ذا الغنى عندك
 غناه ، وإنما ينفعه العمل بطاعتك ، و " منك " معناه عندك ،

وقوله تعالى : " وأنه تعالى حد ربنا " أى عظمة ربنا ، وقيل : غناه .
 وفى حديث أنس : " كان الرجل منا اذا قرأ البقرة وآل عمران حدّ فينا "
 أى عظم فى أعيننا .

تقول من العظمة ومن الحظ أيضا : حددت بإرجل - بالكسر - حدا بالفتح
 والحدّ - بالكسر - : ضد الهزل ، تقول منه : حد فى الأمر يحد ويحد
 والحدّ - بالكسر أيضا - : الاجتهاد فى الأمر ، تقول منه : حد فى الأمر
 يحد ويحد - بكسر الجيم فى المضارع وضمها . وتقول : أجد فى الأمر أيضا .

والهيئة - بالضم - الطريقة ، والجمع حدود ، قال الله تعالى : " ومن
الجمال حدود بيض وحمرة " أى طرائق تخالف لوان الجبل .
وحده الشئ : قطعه ، وبابه رت . وثوب جديد ، وهو فى معنى محدود
يراد به حين حده الحائك : أى قطعه . قال الشاعر :
أبى حبسى سليسى أن يبيدا وأهـ حبلىها خلقها جديدا
أى مقطوعا .

وتجدد الشئ : صار جديدا . وأجدده ، وجدده ، واستجدده : أى صيره
جديدا . (١) ونخلص من ذلك كله إلى أن جميع الصيغ تدل على أن هناك
شيئا يجرى عليه التجديد أو التحدد . ففى المنجد مثلا : نجد قوله :
حدد وأحد الشئ : صيره جديدا فتحدد .
وفى المختار : تحدد الشئ : صار جديدا . وأجدده ، واستجدده : أى
صيره جديدا .

هذا الى ما فى معنى التحديد من القطع ، والعظمة ، والتحقق ،
والاهتمام ، والاحكام . الى غير ذلك مما أوردناه آنفا .

وماد لنا بسبيل الاستئناس بالمعاجم فانه لمن المهم أن نبحث هنا
كلمة كثر ذكرها وترديد ها مع كلمة التجديد وهى : التطوير .
ففى المنجد فى مادة (طار) نجد لها عدة معان نحترئ منها
ما يأتى :-

طار = طورا وطوراننا بفلان ، قرب منه .
والطور = (مصر) ج أطوار : ما كان على حد الشئ ، أو بحذاءه . يقال :
" عدا طوره " أى حده ، و " جاوز طوره " أى قدره . . .
والطور = ج أطوار : الهيئة - الحال . يقال : " الناس أطوار " أى أصناف
وعلى حالات شتى .

والطور = التارة . يقال : " أتيت طورا بعد طوره أى تارة بعد تارة " . (٢)

(١) ص ٧٠ و ٧١ ط ٣ .

(٢) المنجد ص ٤٧٥ ط ٢٣ .

وفى المختار من صحاح اللغة نحتزئ أيضا ما يأتى :-

طور = عدا طوره ، أى جاوز حده .

والطور = التارة . وقوله تعالى : " وقد خلقكم أطوارا " قال الأخفش :

طورا علقه ، وطورا مضفة .

والناس أطوار : أى أخيف على حالات شتى . (١)

وانا أعدنا النظر ، وردنا الفكر ، فى مادة (طار) كما فى المنجد

و (طور) كما فى المختار ، وجدنا العبارات الآتية :

" عدا طوره " أى حده ، و " جاوز طوره " أى قدره ، ومعنى ذلك أنه خرج عن شكله التقليدى ، وحدّه الذى ثبت عليه ، وقدره الذى عرف به ، وذلك نوع من التغيير والتجديد .

ونجد أيضا : الطور . ج أطوار : الهيئة أو الحال ، يقال " والناس أطوار " أى أصناف وعلى حالات شتى .

والأصناف تتعلق بالشكل ، والحالات تتعلق بالمعنى والمضمون .
و " الناس أطوار " أى تختلف فى المظاهر والمخبر ، لأن الطور هو الهيئة المتغيرة أو الحال المختطف أو كلاهما معا ، ولا تتغير الهيئة الا اذا كان لها شكل قديم سابق على التغيير ، وكذلك الحال المختطف . وفى ذلك أيضا نلمح معنى التجديد .

ونجد أيضا : الطور = التارة ، يقال : " أتيت طورا بعد طور " أى تارة بعد تارة ، ومنه قوله تعالى : " وقد خلقكم أطوارا " أى - كما قال الأخفش - طورا علقه ، وطورا مضفة .

وهنا يتبين لنا بصورة أوضح معنى التجدد والتغير من حال الى حال وهو هنا فى الآية تغير من نقص الى كمال ، وهو تغير تدريجى اذا لاحظنا الترتيب فى قوله تعالى :

" ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين
ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ،
فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر . . . " (١) فهذه كلها
أطوار متتالية يمر بها الحنين ، وفي كل طور منها يتغير ويتحدد من
نقص الى كمال ، حتى يستوى خلقا سويا ، " فتبارك الله أحسن الخالقين "
ان فمادة (طار) أو (طور) فيها معنى التحدد والتغير والخروج
من حال الى حال . وتبقى مشكلة الكلمة من الناحية اللغوية ، فانه لم يرد
في اللغة لفظ (طَوَّر) مضعفا ، وبالتالي فكلمة (تطویر) غريبة
صحيحة لغة ، وان كانت تتضمن معنى التغير والتحول .

ونقول ان العصر الحديث يتطلب منا التوسع في اللغة ، وعدم الحمود
على الصيغ والاشتقاق القديمة ، وخاصة اذا شاع استعمال الكلمة بين
الأدباء والكتاب ، وكانت على صلة بالمعنى الذي تستعمل فيه من قريب
أو بعيد .

وهذه الكلمة على صلة بالمعنى واللفظ ، فلماذا لا نشق من مادة
(طار) أو (طور) طَوَّر بالتضعيف ؟ خاصة وان كان لها في ذلك
شبهه ونظير ، مثل : مادة (طال) أو (طول) فانه يتصرف منها : طال
يطاولا طولا ، وطاول بالتضعيف يطاول تطويلا . وكذلك : خاف يخاف خوفا ،
وخوَّف يخوِّف تخويِّفا ، وتخوَّف يتخوَّف تخوفا وأيضا : حال يحول حولا ،
وحوِّل يحوِّل تحويلا ، وتحوِّل يتحوِّل تحوُّلا .

وغير ذلك كثير اذا رحت أتنبع وأرصد الأشياء والنظائر . ألا يحيز لنا
كل ذلك أن نشق من (طار) أو (طور) طَوَّر يطوِّر تطويرا ، وتطوِّر
يتطوِّر تطورا ؟

وهل يجنى ذلك على اللغة أم يفيدها ويثريها ويعتبر كسبا لها ؟ والى
متى نظل همسكين بزمام اللغة ، نشد لحامها ، ونخلق نوافذها وأبوابها ،
ونضرب حولها سورا حديديا ، ونمنعها من التوسع والانتشار ؟

وليس معنى ذلك أن نفتح باب التوسع في اللغة على مصراعيه ، حتى لا يحدث ما يخشاه المحافظون من شيوع العامية في الفصحى ، بل وربما أرى ذلك في المدى الطويل الى طغيان العامية وطمس معالم الفصحى ، ويصبح من العسير فهم كتاب الله وهو عقيدتنا وديننا وتشريع حياتنا ، ولكن نقول : افتحوا الباب بحساب ، فلا يدخل منه الا ما يستحق من الكلمات والألفاظ ، وما نجد له صلة بالفصحى ، وما نشعر أنه كسب لنا وللغتنا وقريب من طبعنا وأن واقنا ثم نخضعه بعد ذلك لقواعد النحو والصرف ويجب أن يشعر الأدباء والكتاب والنقاد أننا نفعل ذلك من باب التحديد والتطوير والتوسع في اللغة ، فلسنا حامدين ، ولا لغتنا حاملة ، وقد قبلت من قبل كلمات أعجمية ، ونزل القرآن ببعضها ، أقليل ذلك ايحاء لنا بأن لغتنا يمكن أن تتقبل وتهضم كلمات وأساليب قد تطرأ في المستقبل وتفيدنا في التصوير والتعبير .

ولا خوف على كتاب الله وفهمه من هذا التوسع المحدود ، اذا ركزنا في دروسنا وتعليمنا على أسلوب القرآن ولغته وعباراته وجعلناها مقياسا للحودة والفصاحة .

ومجامع اللغة العربية هي الحارس الأمين على تراثنا اللغوي ، وهي المسئولة عن هذا التوسع في اللغة ، فهل أدت المجامع العربية رسالتها ؟ . والى متى يظل صوتها خافتا لا يحل ؟ ونعود الى كلمة (تطوير) أو (تطوّر) فنقول : ان لهذه الكلمة صلة بالفصحى من جهة المعنى ، ومن جهة اللفظ ، ومادتها موجودة في معاجم اللغة ، ولها من حيث الاشتقاق والتصريف أشباه ونظائر . وهي كلمة أثبتت وجودها وطاشت - رغما عنا - ^(١) في أساليب الكتاب والأدباء ، فما أحقها بالانضمام الى روضة الفصحى ، عضوا جديدا له مؤهلاته وكفاءته

(١) اعتمد مجمع اللغة العربية هذا التعبير ، وأعمله : على الرغم من كذا وبالرغم منه .

وهناك من دعاة التحديد من نادى بفكرة التوسع فى اللغة ، ولكن دعوتهم غير دعوتنا ، فنحن نرى التوسع فى حدود وقبوض ، وهم يفتحون الباب على مصراعيه حتى ليحيزون اعزاج العامية بالفصحى وتداخلها ، ولسنا معهم فى ذلك مهما قدموا من اعتبارات ومبررات . ومن هؤلاء الكاتب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات ، فقد تحدث عن التحديد فى الأدب ، واللغة ، وقواعد النحو والصرف ، والعروض والقافية . ويعنينا من هذا كله قوله : (فأما التحديد فى اللغة فيكون بقبول ما وضع المولدون والمحدثون من الألفاظ والتراكيب والمصطلحات ، لأن اللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وأفكارهم والأغراض لا تنتهى ، والمعانى لا تنفذ ، والناس لا يستطيعون أن يعيشوا خرسا وهم يرون الأغراض تتحدد ، والمعانى تتولد ، والحضارة ترميهم كل يوم بمخترع ، والعلوم تطالبهم كل ساعة بمصطلح ، ولا علة لهذا الخرس الا أن البدو والمحموريين فى حدود الزمان والمكان لم يتنبثوا بحديث هذه الأشياء ، ولم يضعوا لها ما يناسبها من الأسماء .

بذلك ينهار السد الذى أقامه اللغويون والأدباء الأولون بين الفصحى والعامية ، فتكسب الفصحى من العامية السعة والمرونة والجدوة ، وتكسب العامية من الفصحى السلامة والصيانة والسمو ، فيكون لنا من تداخل اللغتين وتغاطسهما لغة تجمع بين محاسن هذه ومحاسن تلك . أما مساوئ الفصحى أو عجزهيتها فتصوت كما يصوت الحوشى المهجور فى كل لغة . وأما مساوئ العامية أو حثالتها فتبقى على الألسنة التى تستديقها من دهماء العامة ، وتكون هى العامية التى لا بد منها فى كل لغة من لغات العالم . ولكن بالنسبة الضئيلة التى لا تطافئها على الفصحى ، ولا تفرضها على الناس (١)

(١) من تقديم الزيات لكتاب: الصراع الأدبى بين القديم والجديد

ولئن كان هذا رأى الكاتب الكبير فاننا نعرف أنه قاله عن حسن نية وطيب طائفة ، فاعزازه للفصحى وتقديره لها فوق كل شك . ولكن هناك من اتخذ مثل هذه الدعوى ذريعة لمحاربة الاسلام والمسلمين ، ونادى بها عن دهاء وخبت ، وأراد بها الكيد للعرب ولغة العرب وكل ما هو عربى . وسنعود لهذا الموضوع بالتفصيل فى الباب الرابع ان شاء الله .

ونعود الى كلامنا عن التجديد فى مجال البلاغة فنقول : انه قد آن الاوان للمعناية بعلوم البلاغة وتجريدها مما شأنها وأثقلها من مسائل علم الكلام والمنطق والفلسفة والرياضة وغير ذلك مما طغى على بلاغتنا فأخفى جمالها وحجب روائها ، حتى أطلق عليها بعض النقاد " بلاغة الأعاجم " أو طريقة الأعاجم . . . وعطينا بعد أن نزيل عن كاهلها هذا العبء ، وننفض عنها هذا الثقل ، أن ننظر فيما يصلح لها وتحتاجه من الدراسات الحديثة ، فنأخذ منها بقدر ، وننقل اليها فى حدود وحدود ، بحيث يكون مانضيفه اليها كالإطار الجميل ، يحدد صورتها ، ويبرز سحرها وفتنتها ، ويؤثر فى النفوس .

بؤادر التجديد :

وقد كان لهذا التجديد - الذى نأمله وتدعو اليه - بؤادر وبدايات ، بدأت مع بداية هذا القرن العشرين ، وتمثلت فى محاضرات ومقالات تدعو الى تجديد البلاغة العربية بعد ما طال عليها الزمن ، ولم تغير ثوبها منذ القرن السادس الهجرى حتى اليوم . وقد كان لهذه البؤادر والبدايات أصوات تعلو هينا ، وتخفت أحيانا ، الى أن كانت البداية التى أشعلت الحماس ، وأثارت الرأى ، تلك هى معركة البلاغة التى حمى وطيسها على صفحات مجلة الرسالة بين الدكتور العمارى والاستاذ أمين الخولى ثم انضم اليهما آخرون .

وتثور قضية التجديد البلاغى ، فيعكف الأستاذ أمين الخولى على كتابه
 " فن القول " ويضمنه آراءه وخطاته فى تجديد البلاغة .

ويشارك الاستاذ احمد حسن الزيات فى القضية فيدفع الى الميدان
 بكتابه : " دفاع عن البلاغة " .

ومن قبل وفى الجامعة الأمريكية يلقي البشرى محاضرتة : " ثورة على
 علوم البلاغة " .

وفى المجمع اللغوى يلقي د . عبد الرزاق محيى الدين بحثه : " مفاهيم
 بلاغية " .

وتعقد الندوات والمحاضرات بين المعنيين بالدراسات البلاغية والنقدية
 وتذاع على الهواء ، كالندوة التى عقدت بين الدكاترة : غنىم هلال ،
 وبدوى طابنة ، واحمد بدوى .

وفى جامعة الأزهر ينشأ قسم خاص بالبلاغة والنقد فى كلية اللغة
 العربية ، ويقوم أساتذته بالدعوة الى تجديد البلاغة وتطويرها .
 وفى آداب القاهرة ، والاسكندرية ، وعين شمس ، ودار العلوم ، ترتفع
 الأصوات بضرورة اصلاح البلاغة وتجديدها حتى تخرج من عزلتها ،
 وتعود الى المشاركة والعمل فى ميادين الأدب ، بعد ما أوشكت
 مقاييس النقد الأدبى الجديد أن تزيجها وتحل محلها . بل أن ذلك
 قد حدث بالفعل فى السنوات الأخيرة .

كل ذلك أثار قضية البلاغة بعد ركود ، وأيقظها بعد سبات ،
 وأخذ العلماء والأدباء وأساتذة البلاغة ، يعبرون عن آرائهم ،
 ويعلنون عن اتجاهاتهم فى تطوير البلاغة وتجديدها .

الفصل الثاني

اتجاهات التجديد ومظاهره

- عندما انطلقت أمواج الدعوة في العصر الحديث تنادى بتطوير البلاغة وتجديدها ، بدأ كل منهم يطرب عن رأيه في التجديد ، ويبين وجهة نظره في التطوير .
- وباستقراء آراء هؤلاء الدعاة ، نجدهم في دعوتهم إلى التجديد يتجهون في شبه إجماع إلى تخليص البلاغة مما شابها من علوم المنطق والفلسفة وغيرهما مما جنى عليها وأضر بها ثم يختلفون بعد ذلك :
- أ - بعضهم يرى الاعتماد على تراثنا في البلاغة وجعله أساسا للتجديد وأن التجديد يجب أن يكون نابعا من روحنا ومجتمعنا وتكويننا وفطرتنا وذاقتنا .
- ب - وبعض آخر يرى أن الكتب القديمة التي تناولت البلاغة بمنهج السكاكي والخطيب يجب أن تُلغى ويحل محلها كتب أخرى جديدة مؤلفة على منهج حديث . ومعنى ذلك أن التجديد عند هؤلاء أن تلقى بتراثنا البلاغي في بحر الظلمات ، وأنه لا بد من وأد القديم ليظهر الجديد وينتشم .
- ج - وبعض ثالث يرون مزج البلاغة العربية بأصول الدراسات البلاغية في شتى اللغات الحديثة الأوروبية ، وأنه من الخير الجمع بين ما يصلح من تراثنا وما يصلح من بلاغة الغرب ، وأن التعايش بين القديم والحديث أفضل نتاجا وأقوى أثرا .

مظاهر التجديد الأولى :

- كان لهذه الاتجاهات في تجديد البلاغة والدعوة إلى تطويرها آثار ومظاهر بدأت صغيرة بسيطة ، ولكنها أخذت تكبر وتقوى وتشهد حتى صارت شملا وهاجة توضح معالم الطريق إلى بلاغة عربية جديدة .
- ومن أول المظاهر التي رأيناها - كآثر من آثار الدعوة إلى التجديد - مظهران : أولهما نظري ، والثاني عملي .

مقدمة لدراسة بلاغة العرب :

كان من أوائل الذين دعوا الى الاهتمام بالبلاغة وشجع يد هــ
الدكتور احمد ضيف الذى أصدر كتابه : (مقدمة لدراسة بلاغة العرب)
وكان ذلك عام ١٩٢١ .

وهذا الكتاب - فيما وجدنا - هو أول ظاهرة نظرية ، تحدثت عن
البلاغة وتعريفها بطريقة مغايرة لطريقة القدماء ، وقد يكون ماورد فى
هذا الكتاب بمثابة بلمة الى المدرسة الأدبية ، ولكنه على أى حال كان
أول ظاهرة للخروج على نظام وروح المدرسة السكاكية .

وفى هذا الكتاب يرى الدكتور ضيف أن البلاغة هى : (كل قول
الغرض منه قبل كل شئ ، الاستيلاء على نفس السامع أو القارئ بفصاحة
العبارة وحسن التركيب وبراعة الكاتب أو الشاعر) . أو بعبارة أخرى :
(هى الكلام الفنى المستع ، والكلام الفنى يملأ نفس السامع وعواطفه فى أى
موضوع كان ، وعلى أى معنى دل) . ولعل الكاتب أراد بهذا التعريف
للبلغة أن يبعد عن التعريفات القديمة التقليدية ، وما ترتب عليها من
محتررات وشروح وتعليقات . ولئن كان هذا قصده فلقد أفلح الى حد
ما على الأقل .

ويفرق الكاتب بين البلاغة وعلومها . . (فعلوم البلاغة هى علوم البيان
المعروفة بالمعانى والبيان والبديع . أما البلاغة فهى عبارة عن أدب
اللغة ، فهى تحبير اللفظ واتقانه ليلغ المعنى قلب السامع أو القارئ
بلا حجاب ، ولينال الكاتب أو الشاعر من الأثنية ما يريد ، وهى المقصودة
بقوله عليه السلام : " وان من البيان السحرا " ، وأنها ابلاغ المتكلم حاجته
بحسن افهام السامع ، ولذلك سميت بلاغة) .

ولا حديد فى هذا فالفرق بين البلاغة وعلومها وارد فى كتب
السابقين ، وكذلك هذا التعريف الذى ورد فى آخر الفقرة السابقة .

ويرى الدكتور أحمد ضيف : (أن البلاغة فن من الفنون الجميلة مثل التصوير والموسيقى ، والغرض منها تهذيب النفس ، وترقيق العواطف ، وتقوية الملاحظة ، فهو مسلاة النفوس ، وأنيس الجليس ، فعلى هذا هي ضرب من الكمال . أما من جهة أنها معرض عام للحياة ، وجعبة لأفكار الانسان ، ومسرح الآراء والفلسفة ، فهي شئ من الضروريات لتربية الافكار وتهذيبها .)

وبوضح د . ضيف كلامه هذا بأن هناك نوعين من البلاغة : (البلاغة الوجدانية ، والبلاغة الاجتماعية . فالبلاغة اما أن تكون عبارة عما يحول فى نفس الانسان من عواطف واحساسات وخيالات وغيرها مما يدل على شخصية الكاتب أو المتكلم فحسب . واما أن تكون صورة غير صورة نفس الكاتب أو الشاعر . فالأولى هي البلاغة الوجدانية ، والثانية هي البلاغة الاجتماعية (١)

وتقسيم البلاغة الى وجدانية واجتماعية يعتبر رأيا جديدا ، ان لم نسمع بهذا التقسيم من قبل ، ولكنه على أى حال تقسيم غير مقنع ولا مفيد ولعل الكاتب خلط فى هذا التقسيم بين الأدب والبلاغة ، لأن من أنواع الأدب ، الأدب الوجدانى أو الذاتى : وذلك عندما يتحدث الأديب عن نفسه وعن مشاعره وأحاسيسه وتصوراته . والأدب الاجتماعى : وذلك عندما يتناول الأديب مشاكل المجتمع وصور الحياة المختلفة . ويروج هذا المزج بين البلاغة والأدب ما قاله الكاتب عندما فرق بين البلاغة وطومها فعرف البلاغة بأنها : عبارة عن أدب اللغة .

هذا وقد فرق القدماء بين الشعر الوجدانى والشعر الاجتماعى . فهذا التقسيم ان بالنسبة للأدب شعرا ونثرا ليس جديدا ، ولكنه بالنسبة للبلاغة جديد وغريب .

(١) راجع ص ٢٧ - ٣٧ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

أما الغرض من البلاغة فيقول الكاتب : (بأن جماعة من العلماء^(١) أن الغرض منها - أي البلاغة - نشر المعلومات الصحيحة بأسلوب يلذ للناس وقالوا : إنه لا يصح أن يقول الشاعر ما لا معنى له ، أو يكتب الناثر صحيفة أو صحيفة بدون أن تحتوى على معلومات مفيدة ، وحتى قال " تين " في مقدمة كتابه " تاريخ البلاغة الانجليزية " أن البلاغة صورة كاملة صحيحة من الزمن والأشخاص الذين يعيشون فيه^(٢))

وأعتقد أيضا أن " تين " في كتابه " تاريخ البلاغة الانجليزية " غلط كذلك بين الأدب والبلاغة . فالأدب هو الذي يوصف بأنه صورة كاملة صحيحة من الزمن والأشخاص الذين يعيشون فيه . وليس البلاغة . ويعود الدكتور فيقرر أن الرأي الصحيح السائد هو أن (الغرض من البلاغة إعجاب القارئ أو السامع ببراعة الكاتب أو المتكلم ، وأنه لا يطلب من البليغ أن يملأ كلامه بشيء من المعلومات الصحيحة^(٣))

والجزء الأول من هذا الكلام هو عودة من المؤلف الى قوله سابقا في تعريف البلاغة هي : (كل قول الغرض منه قبل كل شيء الاستيلاء على نفس السامع أو القارئ بفصاحة العبارة وحسن التركيب وبراعة الكاتب أو الشاعر) . ونسى الكاتب أن الغرض من البلاغة أولا وقبل كل شيء هو : تربية الطليعة لادراك الاعجاز . ثم هو بعد ذلك - على حد تعبير الكاتب - : تهذيب النفس ، وترقيق العواطف ، وتقوية الملاحظة وهو أمر ضروري في تربية الأمة يال العربية وتهذيبها ، وليس ضربا من الكمال كما يقول الكاتب .

أما الجزء الثاني - وهو أنه لا يطلب من البليغ أن يملأ كلامه بشيء من المعلومات الصحيحة - فليس دافعا في أغراض البلاغة من قريب أو بعيد ولعل الكاتب يقصد أن العبرة في البلاغة بالأسلوب لا بالمعنى ، وأن الشكل هو المعول عليه ،

(١) لم يحدد الدكتور من هم جماعة العلماء الذين يقدمهم .

(٢و٣) راجع ص ٢٧ - ٣٧ من مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

وهو الذى ينفق على المضمون قوة وسحرا ، سواء كان المضمون يتضمن معلومات صحيحة أو خاطئة . وهو بذلك يدخل فى قضية اللفظ والمعنى . هذا والكتاب لم يعن بوضع خطة أو منهج جديد ، وإنما هو محاولة مبكرة للشروع على نظام المدرسة الكلامية فى تناول البلاغة ، والاستفادة بما جدد من حديث البلاغة عند الغربيين .

البلاغة الواضحة :

ويعد كتاب الدكتور احمد ضيف الذى أصدره سنة ١٩٢١ - طاهر فى مجال التأليف البلاغى فى العصر الحديث كتاب " البلاغة الواضحة " سنة ١٩٣٠ وقد قام بتأليفه الاستاذان : على الحارم ومصطفى أمين . . وهذا الكتاب كان - فيما وجدنا أيضا - أول ظاهرة عملية تطبيعية لدعوة التجديد البلاغى وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يتناول سلب علم البلاغة بشئ . من التعديل الجوهرى فقصده أجاد الصغر وأحسن اختيار الأمثلة وشرحها بأسلوب معاصر قريب إلى أفهام الدارسين وأكثر من الشواهد الأدبية الحديثة . فهذا الكتاب عودة بعلم البلاغة إلى المدرسة الأدبية التى هجرها أكثر المؤلفين منذ عهد السكاكى الذى أصل المدرسة الكلامية وكان من أعلامها وورشها . فعند بعده حتى العصر الحديث . والمؤلفان لم يدعيا أنها ألتيا بمنهج جديد فى علم البلاغة أو زادا شيئا ذا أهمية وإنما عرضا علم البلاغة بطريقة علمية جديدة تشجع على الاقبال والدرس فقد نفذت عنه كل الأساليب العقيمة والمسائل الجدلية وركزا على اللباب والجوهر وعرضاه بأسلوب عبرى جميل مستساغ . وقالوا فى المقدمة : (وأملنا أن يكون لعملنا هذا شأن فى أحياء الأدب ، وتوجيه أذهان المعلمين والطلاب إلى هذه الطريقة التى ابتكرناها فى دراسة البلاغة ، ولعلنا نكون قد وفقنا إلى ما قصدنا إليه ، والله خير مستعان) .

وأكبر الشأن أن هذا العمل فى حينه كان بداية طيبة واتجاها قيما نحو دراسة جديدة لعلم البلاغة . . وقد قررت وزارة المعارف المصرية آنذاك هذا الكتاب على طلاب المرحلة الثانوية ومدارس المعلمين .

ومما بلغت للنظار أن الكاتبين الجليلين لم يتحدثا عن طريقتيهما الجديدة في كتابهما الجديد . . . ولم يقوموا بوضع نظرية سهية لها . . . وإنما قاما بوضعها موضع التنفيذ دون مخب أو ضجيج . وقدما الكتاب الذي أثبت أنه خير كتاب ألف في علم البلاغة حتى ذلك الوقت . وربما حتى اليوم . . . يبدأ الكتاب بمقدمة في : الفصاحة والبلاغة والأسلوب . فيتكلم عن الفصاحة كما وردت عند السابقين ولكن بعرض جميل شائق مقنع . ثم يتحدث عن البلاغة . . . فيأتى بتعريف جديد - غير بعيد عن التعريف القديم - لكنه سهل العبارة واضح المعنى يقول : (أما البلاغة فهى تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صحيحة فصيحة ، لها فى النفس أثر خلاب ، مع ملائمة كل كلام للموطن الذى يقال فيه ، والاشخاص الذين يخاطبون به) (١) ووصفه المعنى بالجليل فيه نظار ، لأن القدماء لم يشترطوا ذلك ، ولأن البليغ قد يتناول المعنى التافه والردى ، فيرفع قدره ويعلى منزلته .

والواقع أن هذا التعريف قريب من تعريف الدكتور أحمد زهير فى كتابه (مقدمة لدراسة بلاغة العرب) الذى سبقت الإشارة اليه . ولكن تعريف البلاغة الواضحة أشمل وأكمل . ويعود الكتاب فيتحدث عن البلاغة بوصفها فنا فى أسلوب شفاف رقيق فيقول : (فليست البلاغة قبل كل شئ ، إلا فنا من الفنون يعتمد على صفاة الاستعداد الفطرى ودقة ادراك الجمال ، وتبين الفروق الخفية بين صنوف الأساليب ، وللمرانة يد لاتحدد فى تكوين الذوق الفنى ، وتنشيط المواهب الفاترة ، ولايد للطالب الى جانب ذلك من قراءة طرائف الأدب ، والتلو من نعيمه الفياض ، ونقد الآثار الأدبية والموازنة بينها ، وأن يكون له من الثقة بنفسه ما يدفعه الى الحكم بحسن ما يراه حسنا ، ويقبح ما يعبده قبيحا .) (٢)

(١) ص ٨ البلاغة الواضحة ط ٢١

(٢) المصدر السابق .

ويستأورد للكتاب في عرض مقارنة طريفة مختصرة بين البليغ والرسام ثم يتطرق الى عناصر البلاغة بأسلوب جميل وأمثلة وشواهد أكثر مما لا يتحدث الكتاب بعد ذلك عن الأسلوب وهو شئ جديد أضيف الى الفصاحة والبلاغة . . . ويعرفه بأنه (المعنى المصوغ في ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل المراد المقصود من الكلام وأفضل في نفوس سامعيه) (١) وهذا التعريف للأسلوب قريب من التعريف القديم لابن خلدون الذي يرى أن الأسلوب " يرجع الى صورة ذهنية للتركييب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وذلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكييب وأشخاصها ، ويصيرها في الخيال كالقالب والمنوال . . . (٢)

وعلى هذا المفهوم يرى الأستاذان الشايب في تعريفه للأسلوب ، فهو عنده " معان مرتبة قبل أن تكون ألفاظا منسقة ، وهو يتكون في العقل قبل أن يناق به اللسان أو يحرى به القلم " (٣) أما عبد القاهر فقد كان الأسلوب عنده : " الضرب من النظام والطريقة فيه " (٤) والأسلوب في البلاغة الواضحة " يتنوع الى ثلاثة أنواع :-

- (١) الأسلوب العلمي : وهو أهدأ الأساليب ، وأكثرها احتياجا الى المنطق السليم ، والفكر المستقيم ، وأبعدها عن الخيال الشعري ، لأنه يخاطب العقل ، ويناقح الفكر ، ويشرح الحقائق العلمية التي لا تخلو من غموض وخفاء . وأما أهم ميزات هذا الأسلوب (الوضوح) ولا بد أن يبدو فيه أثر (القوة والجمال) . ثم يشرح هذا الكلام في وضوح وإيجاز .

(١) ص ١٢ المرجع السابق .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٨ ط ١

(٣) الأسلوب ص ٤٠ ط ٤

(٤) دلائل الإعجاز ص ٣٦١

(٢) الأسلوب الأدبي : و (المال) أبرز صفاته ، وأهم مميزات . . . ويذهب الكتاب فيشرح مال الأسلوب الأدبي بعرض مجموعة قيمة من الأمثلة والشواهد المريحة للنفس المفيدة للعقل بأسلوب شائق جذاب ثم يقول في النهاية : (وطسمة القول أن هذا الأسلوب يجب أن يكون (ميلا) رائعا بديع الخيال ثم (واضحا قويا) . ويثان الناشئون في صناعة الادب أنه كلما كثر المآز ، وكثرت التشبيهات والأهيلة في هذا الأسلوب زاد حسنه ، وهذا خطأ بين ، فإنه لا يذهب بحال هذا الأسلوب أكثر من التكلف ، ولا يفسده شر من تعدد الصناعة ونعتقد أنه لا يعجزها قول الشاعر :

فأما رت لؤلؤا من نرجس وسقت . . . وردا وعضت على الحناب بالبرد
هذا ومن السهل عليك أن تعرف أن الشعر والنثر الفني هما
موطننا هذا الأسلوب ففيها يزدهر ، وفيها يبلغ قمة الفن
والجمال . (١)

(٣) الأسلوب الخطابي : (وهنا تبرز " قوة " المعاني والألفاظ ، و " قوة " الحجة والبرهان ، و " قوة " العقل الخصب ، وهنا يتحدث الخطيب الى ارادة سامعيه لاثارة عرائضهم واستنهاض همهم ، و " له مال " هذا الأسلوب و " وضوحه " شأن كبير في تأثيره ووصوله الى قرارة النفوس . . .) (٢) ويذهب الكتاب فيتحدث في أسلوب شائق واضح عن مميزات الخطيب ثم مميزات أسلوب الخطابة ويضرب مثلا بخطابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما أغار سفليان بن عوف الأسد على الانبار وقتل عائلته عليها . ويعلق على الخطابة تعليقا موزنا مقنعا ثم يقول :

(١) ص ١٥ المرجع نفسه .

(٢) ص ١٦ المرجع نفسه .

(ونرى) وأن نكون قد وفقنا الى بيان أسرار البلاغة في الكلام وأنواع أساليبه حتى يكون الطالب خبيراً بأقانيين القول ، ومواطن استعمالها ، وشرائع تأديتها ، والله الموفق) . (١)

ونلاحظ أن الكاتبين الحليين على الحارم ومصطفى أمين قد استعملا في كلامهما عن الأسلوب ألفاظاً : القوة - الجمال - الوضوح . وهى كلمات وردت في علم النفس الحديث ، وقد أحسننا تقسيمها على أنواع الأسلوب الثلاثة حسب مدلول كل لفظ منها - فعملنا الوضوح : السمة المميزة للأسلوب العلمى ، والجمال ، السمة المميزة للأسلوب الأدبى ، والقوة : السمة المميزة للأسلوب الخطابى . على أن كل أسلوب لا يستغنى عن اجتماع الثلاثة كل بنسبته . . فالوضوح فى الأسلوب العلمى لا يستغنى عن القوة والجمال والا مازدافاً ضعيفاً ، والجمال فى الأسلوب الأدبى لا يستغنى عن الوضوح والقوة والا صار مهبطاً قاتراً والقوة فى الأسلوب الخطابى لا تستغنى عن الوضوح والجمال والا صارت غامضة باهتة . فاجتماع الثلاثة . . الوضوح والقوة والجمال - فى كل نوع من أنواع الأسلوب مهم . . غاية ما فى الأمر أن كل أسلوب له سمته الأساسية - من هذه الصفات الثلاثة - التى يختاز بها .

ومن الملاحظ أيضاً أن كتاب البلاغة الواضحة أوجز الكلام عن " الأسلوب " فى ست صفحات فقط ١٧ - ١٢ فأفاد وأجاد . بينما سفر فيما يأتى أن كتاب " الأسلوب " للأستاذ أحمد الشايب استمرغ هذا الموضوع فيما يقرب من مائتى صفحة ومع ذلك ففيه تكرر . ونعود الى تصفح كتاب " البلاغة الواضحة " حيث يتناول بعد ذلك علم البيان - فيتحدث عن التشبيه وأركانه ، ثم أقسامه ، ثم تشبيه التمثيل ثم التشبيه الضمنى ، ثم أغراض التشبيه ، ثم التشبيه المقلوب ، ثم بلاغة التشبيه وبعد ما أثر منه عن العرب والمحدثين . (٢)

(١) ص ١٧ المرجع السابق .

(٢) ص ٦٨ - ١٨ المرجع السابق .

ونجده قد استعمل فى عرضه طريقة الاستنباط التطبيقية ، أى أنه يعرض الأمثلة والشواهد أولاً ، ثم يشرحها ، ثم يستنبط القاعدة ، وأخيراً يضع لها نماذج وثمارين وتطبيقات . وللمحقق أقول : ان الكتاب قد أحسن هذه الطريقة وأحاط باستعمالها .

وينتقل الكتاب بعد ذلك الى : الحقيقة والمجاز - فيبدأ بالمجاز اللغوى بنفس الطريقة الاستنباطية - ثم الاستعارة التصريحية والمكنية - ثم تقسيم الاستعارة الى أصلية وتبعية - ثم تقسيم الاستعارة الى مرشحة ومجردة ومطابقة - ثم الاستعارة التشيلية - ثم بلاغة الاستعارة - ثم يتحدث بعد ذلك عن : المجاز المرسل وعلاقاته . . ثم المجاز العقلى . . ثم بلاغة المجاز المرسل والمجاز العقلى . (١)

ويتحدث الكتاب بعد ذلك عن : الكناية وأنواعها وبلاغتها بنفس الطريقة الاستنباطية البديعة فتستقر المعلومات فى النفس وترسخ فى العقل . . ثم يختم علم البيان بحد يث قيم موحى - يعتمد على الشواهد والأمثلة - عن : أثر علم البيان فى تأدية المعانى . (٢)

ثم ينتقل الى علم المعانى : وبنفس الطريقة الاستنباطية فيتحدث عن : تقسيم الكلام الى خبر وإنشاء ثم يعقد فصلاً للخبر يتحدث فيه عن : الفرض من القاء الخبر - ثم أضرب الخبر - ثم خروج الخبر عن مقتضى الظاهر . ثم يعقد فصلاً للإنشاء يتحدث فيه عن : تقسيمه الى طلبى وغير طلبى . . ثم يتحدث عن أنواع الطلبى فيتناول : الأمر - النهى - الاستفهام وأدواته - خروج بعض أدوات الاستفهام عن معانيها الأصلية - التنى - النداء . (٣)

وينتقل الكتاب بعد ذلك الى : القصر : تعريفه - طرقه - طرقه ، تقسيم القصر الى حقيقى وإضافى . (٤)

(١) ص ٦٩ - ١٢٢ المرجع السابق .

(٢) ص ١٢٣ - ١٣٦ المرجع السابق .

(٣) ص ١٣٧ - ٢١٥ المرجع السابق .

(٤) ص ٢١٦ - ٢٢٦ المرجع السابق .

ثم يتحدث الكتاب عن: الفصل والوصل: مواضع الفصل . . ثم مواضع الوصل .
واخيرا ينتقل في علم المعاني الى الايجاز والاطناب والمساواة فيتحدث
عن كل منها بتركيز وايجاز^(١) مع المحافظة على الطريقة الاستنباطية
التي امتاز بها الكتاب .

بعد ذلك ينتقل الكتاب الى العلم الثالث من علم البلاغة (علم
البديع) فيتحدث عن: المحسنات اللفظية ويورد منها: الجناس
الاقتباس - السجع - ثم يتحدث عن: المحسنات المنوية ويورد منها:
التورية - الطباق - المقابلة - حسن التعليل - تأكيد المدح بما يشبه
الذم وعكسه - أسلوب الحكيم^(٢).

وبعد: فهذا الكتاب "البلاغة الواضحة" الذي استعرضناه استعراضا
عابلا مجملا كتاب قيم في أسلوب وطريقة عرضه . . وهو أول كتاب أخضع
علم البلاغة لهذه الطريقة ذات العرض الجذاب . . وليس معنى ذلك
أن هذا الكتاب وصل الى درجة الكمال المنشودة وأنه انتهى الى نهاية
ما نريد لعلم البلاغة . . ولكنه نقلة طيبة من القديم حققت بعض التجديد
اذ محصت علم البلاغة ونفخت عنه كثيرا من الشوائب وعرفته عرضا أفضل
ونسقت تنسيقا أجمل وعادت به الى أحضان المدرسة الأدبية التي حرم منها
منذ عهد بعيد . . وليت هذا الكتاب يعاد وضعه في مناهج التدريس
في المدارس ومعاهد المعلمين بعد حذف بعض الأبواب منه مثل: الاستعارة
التصريحية التبعية - الفصل والوصل . . وإن كان الكتاب قد تناولهما
في يسر وسهولة وايجاز . . على أن لنا في الفصل والوصل رأيا سنعود
اليه فيما بعد ان شاء الله .

(١) ص ٢٢٧ - ٢٦٣ المرجع السابق .

(٢) ص ٢٦٤ - ٢٩٨ المرجع السابق .

ومح إعجابنا الشديد بهذه الكتاب يومئذ بداية عملية في طريق التجديد البلاغى ، فان لنسأ عليه بعض المآخذ منها :

(١) نحن فى ص ١٦٩ على أن (أنواع الانشاء غير الطلبى ليست من مباحث علم المعانى ولذلك نقتصر فيها على ما ذكرنا ولا نطيل فيها البحث) . بينما كان الواجب أن يوضح ولو بإشارة عابرة لماذا لم يعتبر الانشاء غير الطلبى من مباحث علم المعانى .

(٢) قسم المحسنات الى لفظية ومعنوية ولم يوضح الفرق بين ماء ولماذا اعتبرنا السجع مثلاً محسناً لفظياً ، بينما اعتبرنا التورية محسناً معنوياً .

(٣) ترك أبواباً على قدم كبير من الأهمية مثل باب المسند اليه وباب المسند والحذف ، والتقديم ، وكان يمكن دراستها دراسة أدبية تبين مدى أهميتها فى البلاغة .

(٤) قصر فى أبحاث علم البديع إذ اقتصر منه على ألوان قليلة ، وترك ألواناً رائعة وكثيرة الدوران فى الكلام ، كالمبالغة ومراعاة النظير وغيرهما . وقد حرص المؤلفان تماماً للفائدة على أن يحدرا ملحقاً للبلاغة الواضحة يستعمل على حل جميع التمرينات التى تضمنها الكتاب - وما أكثرها - فجاء كتابهما " دليل البلاغة الواضحة " دليلاً على إخلاصهما للحرية وحرصهما على معاونة الجيل الجديد من دارسى البلاغة على فهم مسائلها وحل تمارينها يقول المؤلفان فى مقدمة دليل البلاغة : (وبعد ، فقد رأينا الحاجة دافعة الى خدمة كتابنا " البلاغة الواضحة " بالإجابة عن تمريناته ، لأن ما فيه من نصوص الأدب الكثيرة ، وما فى مسائله وتطبيقاته من الجدة والابتكار ، قد يلجئ الطالب فى أول عهده بالبلاغة ، وبهذا الأسلوب الطريف منها ، الى الاستعانة بمن يأخذ بيده ويهديه الطريق السوى فى التفكير .

على أن اطلاع الطالب على نماذج كثيرة فى حل مسائل الأدب وشواهد يفرس فيه من غير شك ملكة البلاغة ، ويطبعه على الذوق العربى فى معالجة كثير من نصوصها ، وييسره بأسرار اللام البائخ ، وما فيه من ضروب الحسن ، ويدائح البيان) (١)

وفي كتاب "مناهج بلاغية" يستعرض المؤلف كتب البلاغة في العصر الحديث فيقول عن هذا الكتاب (ومن أهم الكتب المتداولة "البلاغة الواضحة" للأستاذين علي الجارم ومصطفى أمين، وهذا الكتاب حلقة الانتقال بالبلاغة من طابعها القديم المعتمد على تقرير القواعد وحفظ القوالب إلى الاهتمام بالتحليل، وقد اتبع المؤلفان أسلوباً تربوياً جديداً، يقوم على ذكر الأمثلة واستنتاج القواعد وشرحها... ولعل أهم ما يمتاز به كتابهما البحث في الأسلوب، وهو بحث جديد في البلاغة التي لم تخرج على ما خطه السكاكي وقرره اقزويني^(١))

ومثل ذلك قال د. حنفى شرف في معرض حديثه عن المؤلفين في البلاغة في العصر الحديث (ومنهم أيضاً المرحومان علي الجارم ومصطفى أمين فسي كتابهما "البلاغة الواضحة" الذي تكلمنا فيه عن علم البلاغة الثلاثة، وإن كان يمتاز هذا الكتاب بأن فيه شيئاً من التحرر والبعد عن العقلية المنطقية التي أصابت البلاغة والفيق الذهني الذي أصاب علماءها، فكانا يعرضان الشواهد للصورة البلاغية ثم يحقban عليها بالتحليل الذي يؤدي إلى استنتاج القاعدة، وهذه الطريقة وذلك المنهج وإن عرف عنه الاختصار في القواعد والبعد عن الخلافات، إلا أن فيه أكثرًا من الشواهد وتحليلها والكشف عن النكتة البلاغية فيها)^(٢)

وقد شجع نجاح هذا الكتاب على صدور كتب أخرى مدرسية في البلاغة تدور حوله وتتبع طريقته. وما زالت هذه الكتب... مع تغييرات طفيفة - تتوالى على مدارسنا حتى اليوم.

أما الدكتور بدوي طبانة فنجد أنه يعرض لهذا الكتاب بإسهاب ضمن حديثه عن البيان البلاغي فيقول: (ومن أنفس كتب هذه المدرسة في القرن العشرين كتاب "البلاغة الواضحة" الذي ألفه الأستاذان مصطفى أمين وعلي الجارم.

(١) مناهج بلاغية د. أحمد مطلوب ص ٣٥٥ و ٣٥٦

(٢) الصور البديعية: ط ١ ص ٣٥٥

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد ألف لغاية تعليمية مطابقا لمنهج وزارة المعارف لتدريس البلاغة في مدارسها الثانوية ، فإن مؤلفيه اتجها فيه كثيرا الى الأدب ، رجاء أن يجتلى الطلاب فيه محاسن العربية ، ويلمحوا ما في أساليبها من جلال وجمال ، ويدرسوا من أفانين القول وغريب التعبير ما يرب لهم نعمة الذوق السليم ، ويرى فيهم ملكة النقد الصحيح .

وقد درس المؤلفان في هذا الكتاب فنون البلاغة موزعة بين علومها الثلاثة فبدأ الكتاب بمباحث علم البيان ، فمباحث علم المعاني فبعض فنون من علم البديع مقسمة الى محسنات لفظية ومحسنات معنوية .

والحقيقة أن هذا الكتاب كان مطلع عهد جديد في كتابة البلاغة والتأليف فيها ، اذ اتجه الى استثارة الأذواق ، والتنبيه على مواطن الجمال في النصوص الأدبية ، وذلك بعرض طائفة كبيرة من الأمثلة ، ثم دراسة هذه الأمثلة وبحثها بحثا جماليا ، يشرح أثرها في النفس ، وفعلها في الأدب ، ثم تلخير القاعدة البلاغية في كلمات قليلة ، واتباع ذلك بكثير من النصوص الأدبية ، ليتدرب الطلاب على دراستها واستخلاص ما فيها من صفات الحسن البلاغي .

وكان هذا أول اتجاه للتخفيف من سيطرة القاعدة البلاغية ، ولتقريب البلاغة من الأدب الذي جعلت لخدمته . وكان هذا في الوقت نفسه أول تنبيه عملي للأذهان الى محاولة التحرر من المنهج المألوف في دراسة البلاغة العربية ، ذلك المنهج الذي يعنى بحفظ القواعد والتعاريف والأقسام ، واستطاع المؤلفان الى حد كبير التمهين من هذا المنهج المأثور ، فاتجهت الأذهان الى البحث عن منهج جديد يلمح لبحث البلاغة وتحريرها من منهج المدرسة القديمة .

ولقد حاول كثيرون من المؤلفين لتلاميذ المدارس اقتفاء أثر مؤلفي "البلاغة الواضحة" فنجح كثير منهم في تقليد الطريقة دون أن تظهر شخصيتهم في منهج جديد ، أو موضوع جديد من الموضوعات التي تتجه البلاغة الى دراستها والفحص عنها .

ومن أجمل ما يمتاز به كتاب البلاغة الواضحة بحته في "الأسلوب" الذي عرفه بأنه "المعنى المصوغ في الفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وأفضل في نفوس سامعيه" ثم يبين أنواع الأساليب وخصائص كل منها

ولقد كان هذا الكلام فيما أعلم أول كتابة في الأسلوب ، ومحاولة تقسيمه الى أنواع ، وشرح خصائص كل نوع منها ، وقد عني بعض الدارسين بهذا الموضوع فيما بعد ، فزادوا في أنواع الأساليب ، وفصلوا القول في خصائص كل منها

ونستطيع أن نقول ان هذا الكتاب يمكن أن نعبده حلقة اتصال بين ما استقرت عليه البلاغة ، وما يرجى أن يكون لها من بحث وحياة وازدهار (١)

وهكذا بدأت بوادر التجديد واتجاهاته تتضح معالمها ، وتبرز خطوطها ، مهددة الطريق لدعوات التجديد البلاغية .

الباب الثاني

(دعوات التجديد البلاغية)

ودعوات التجديد في العصر الحديث إنما نمت بها تلك التي بدأت مع هذا القرن العشرين ، حيث بدأت النهضة العربية في العلوم والآداب تأخذ سبيلها وتشق طريقها بعد أن انفتح العرب على النهضة الغربية الأوربية واطلموا على الكثير من علومها وآدابها ، فكان لذلك أثره في حفز الهمم العربية للنهضة بالعلوم والفنون والآداب وكان نصيب اللغة العربية وآدابها - خاصة الأدب والنقد - نصيبا وافرا في هذه النهضة الحديثة .

لكن البلاغة - كمهدنا بها منذ القرن السادس الهجري - لم تأخذ حظها في هذه النهضة وأن كانت لم تعدم أنصارا تحدثوا عنها ودعوا إلى تجديدها .

وسوف يكون حديثنا في هذا الباب على النحو التالي :

الفصل الأول - بحوث في البلاغة وتجديدها .

الفصل الثاني - آراء في التجديد البلاغي .

الفصل الثالث - حركة الرسالة .

الفصل الأول

بحوث فى البلاغة وتجديدها

كان كتاب " البلاغة الواضحة " وما أعقبه وتلاه من كتب مدرسية مماثلة مجرد بدايات ، القصر منها تخلص البلاغة من برائن المدرسة الكلامية وتقريبها الى أفهام الدارسين - والتأثير فيهم باتباع وسلوك مسلك المدرسة الأدبية فى ايراد الأمثلة والسوائد من الروائع الأدبية والاكتثار منها بحيث يمكن عقل موهبة الدارسين .

ولكن هذه النقلة من طريقة المتكلمين الى طريقة المتأديين لم تكن الا الخطوة الأولى على طريق تجديد البلاغة ، ولم تؤد الى النتيجة المطلوبة ، ولم تؤت اثمرة المرجوة .

كما أن هذه النقلة لا تعتبر - فى رأينا - تجديدا ، وانما هى تغيير من حال الى حال ، ومن طريقة لأخرى ، خاصة وأن كلا من الطريقتين - الأدبية والكلامية - ليس غريبا على البلاغة ، ولا جديدا عليها .

اذن هى - كما قلت - بدايات ومحاولات لتجديد البلاغة والنموذج بها وبالطبع لم تقف هذه البدايات ، ولم تنته هذه المحاولات . فقد رأينا بعد ذلك محاولات أفضل تتحمل فى دعوات صادقة لتجديد البلاغة وبحوث ومناقشات قيمة فى البلاغة وتجديدها ، كان لها أثرها فى دفع موجة التجديد ، والاهتمام بقضية البلاغة .

وأهم هذه البحوث والمعارف

- | | | |
|-------|-------------------------------------|---------------------------|
| (١) | البلاغة والفلسفة | للأستاذ أمين الخولى |
| (٢) | البلاغة وعلم النفس | “ “ “ |
| (٣) | ثورة على علم البلاغة | “ عبد العزيز البشري |
| (٤) | البلاغة العربية بين التطور والجمود | د . احمد بدوى |
| (٥) | المسوغات العقلية للبلاغة | “ أنيس المقدسى |
| (٦) | البلاغة العربية وحاجتها الى التجديد | د . على الحمارى |
| (٧) | مفاهيم بلاغية | د . عبد الرزاق محيى الدين |
| (٨) | تخطيط رسمى جديد للبلاغة | لجنة المعارف المصرية |

البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها

كان من أوائل دعوات التجديد التي ارتفعت في أوائل هذا القرن العشرين هذا البحث الذي كتبه والقاء^(١) الشيخ أمين الخولي عن الفلسفة وأثرها في البلاغة العربية . وقد استهل بحثه بكلمات عن التجديد والتبديد قال : " تتحابب اليوم أصداء السوادي بدعايات التجديد ، وأقوى هذه الدعايات وأجهرها صوتا دعاية التجديد الأدبي ، وهذا التجديد - فيما أؤمن أنا به - ليس إلا متابعة الحياة من حيث عاقتها غفوة اجتماعية ، ومواصلة النماء من حيث وقفقت عواصل الحمود وليس يستبين المحدث طريقه ولا يدرى من أين يبدأ جهاده ، إلا إذا استجلى تاريخ مايماني تنميته ، وعرف كيف ومن أين بدأت حياته ؟ ومتى ، ولم وقف به الحمود ؟ فإذا ما تبين المحدث طريق غده بتجارب أسسه ، عرف مايدع وما يأخذ ، وإن ذاك ينفي ويثبت عن بصيرة ، ويتر مظاهر الحمود في هدى وثقة كالطبيب كشفت له الأشعة عن دبيب العلة .

أما إذا مضى برغبة في التجديد مبهمه ، وتقدم بحالة للماضي وغلبة عنه ، يهدم ويحطم ، ويشتمز ويتهمك ، فذلكم - وقيتم شره - تبديد لا تجديد .

بهذه المقدمة الصغيرة وضع الشيخ أمين قاعدة للتبديد ، فليس التجديد فوضى ولا انطلاقا من لا شيء ، ولكن - كما قال الشيخ الخولي ورد أكثر من مرة - أول التجديد قتل القديم فهما " فأصدق عمل المحدث أن يعرف أن وراءه تاريخا يستطيع أن يتعلم منه أشياء كثيرة ، ولذا رأيت أن أتصفح اليوم جانباً من التاريخ الأدبي بالبحث في علاقة البلاغة العربية بالفلسفة ، وما لتلك فيها من أثر .

(١) التي هذا البحث في الجمعية الجغرافية الملكية مساء ١٩ / ٣ / ١٩٣١

ثم نشر في كتاب مناهج تجديد ص ١٤٣ - ١٧٦ .

وربما يكون تاريخ البلاغة قد تنوول ، لكن لم يتصد فيه لدرس هذه النقطة درساً واعياً مع مالها من الأهمية الكبرى في فهم ماأيدينا من كتب البلاغة ونقد ها . وإذا كان للموضوع بالفلسفة صلة فاني أنتصح بنصيحة شيخ الفلاسفة سقراط التي كان يوجهها دائما الى طالبته مهيبا بهم أن " حددوا الالفاظ التي تستعملونها " وكذلك أفعل " .

ماهى الفلسفة : أما الفلسفة " فليست الا البحث الحر العميق ، ولا حاجة بى الى أكثر من هذا فى تعريفها ، والانسان وهو سيد الكون المنقب عن المصرفة قد كان موضع ذلك البحث من حيث عقله وشعوره ، وعواطفه وأرادته ، فتوزعت البحث فى هذا فروع الفلسفة ، وكان المنطق ، والجمال ، والنفس ، والأخلاق ، وغيرها من الفروع " .

ماهى البلاغة : " وأما البلاغة فما هى - بإيجاز - الا درس فى القول ، والبحث عن الجمال فيه ، كيف ، وبم يكون ؟ .
تلك هى الفلسفة والبلاغة بتحديد قصير .

الصلة بين البلاغة والفلسفة : يرى الخولى أن الصلة بين البلاغة والفلسفة صلة متينة اذ الجمال موضع العناية لكل منهما . فالفلسفة تحاول " فى بحثها عن الجمال أن تتعرف ماهو ؟ وكيف يحسه الانسان ويقع من نفسه ، وأى طرق أداء الانسان لهذا الشعور بالجمال أدق ؟ وكيف يترجم عن احساسه به ؟ وبم يقتدر على هذا الأداء وتلك الترجمة حتى يكون فنا حقيقيا صادقا . وهاتيك الابحاث الفلسفية كلها قريبة من البلاغة التى هى درس لفن الترجمة عن الاحساس بواسطة القول ، ويبحث فى جمال الكلام . وبهذا نجد بين الفلسفة والبلاغة صلة ذاتية دائمة ، لها فى البلاغة أثرها .

البلاغة التي نبحث فيها : "الا أننا نبحث عن بلاغة قوم بعينهم ، لها زمانها ولها مكانها ، ولها ظروفها الخاصة . نبحث عن تلك البلاغة ذات العلم الثلاثة - المعاني والبيان والبديع - المتداولة على النقط المعروف لنا المشتهر بيننا . نبحث عن تأثيرها بفلسفة أولئك القوم في زمانهم وبيئتهم ، وملايسات حياتهم ، وفي هذا البحث لا يكفي القول بتلك العملة العامة التي بين حقيقة الفلسفة وحقيقة البلاغة " .

حقيقة الفلسفة العربية : " والفلسفة العربية . أو بعبارة أدق فيما نريده . الفلسفة الاسلامية انما هي - كما نعرف - بناء أجنبي الدعامة ، أجنبي المادة الى حد ما . أسس بعد العناية بالترجمة والاطلاع على ثمار الحقول في الحضارات التي سبقت المدنية الاسلامية ، ولا سيما الحضارة الاغريقية فكان بين الفلسفة والدين ما كان من جذب ودفع ، استعان فيه رجال الدين بأسلحة الفلسفة نفسها فاقتبسوا المنطق وتمثلوه ، واعتمدوا عليه في أبحاثهم الاعتقادية ، وعرضوا لمسائل الفلسفة ومشاكلها على اختلافها فقامت حركة فلسفية كلامية ، واتسعت حتى كان أكبر مدارس الفلسفة الاسلامية المدارس الكلامية . وهكذا صار أظهر الفلسفة في الاسلام كلاما . واستحال علم الكلام فلسفة ، حتى صار القول وساع بأنه لا يجترئ على الخوض في علم الكلام الا فلسفي أو متفلسف . ومن هنا يتبين أننا حينما نقول : ان البلاغة قد تأثرت بالكلام ، لانكون الا مقدرين أنها قد تأثرت بالفلسفة وعلى ضوء هذا الأيضاح نبحث عن أثر تلك الفلسفة الاسلامية في بلاغة اللغة العربية . . . وأول ظاهرة سطحية نلمحها من العملة بين الفلسفة والبلاغة هي :

أنا نرى البلاغة في جميع أدوارها قد عاشت في كنف رجال الفلسفة وتحسنت
رعايتهم ، وجمهرة الأقلام التي خدمتها أقلام فلاسفة أو متفلسفين ، ولم يكسده
ذلك يتخلف في عصر ما .

ففي دور نشأتها وتكونها نرى من رجالها سهل بن هارون المتوفى سنة ٢٢٠ هـ
كان حكيما يتعاطى الفلسفة ، وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ
كان حكيما قرأ كتب الفلاسفة من اليونان والفرس والروم والهند ، وكان رأس فرقة
في الاعتزال نسبت إليه تسمية الجاحظية ، كما نجد قدامة بن جعفر المتوفى
أواخر القرن الثالث الهجري - أو أوائل الرابع - كان أحد الفلاسفة ومن يشار
اليهم في المنطق ثم نرى عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى
سنة ٤٧١ هـ كان متكلما على مذهب الأشعرى ، والزمخشري الذي يقول أشياخنا
عنه وعن عنوه السكاكي : " لولا الاعرجان لذهبت بلاغة القرآن " فالأعرج الأول
أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ كان متكلما معتزليا
قويا في مذهبه مجاهدا به ، والأعرج الثاني هو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر
محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ كان له النصيب الوافر في علم الكلام .
ثم يبدأ دور التلخيص والشرح ، فالحواشي والتقارير ، فنرى من رجاله :
العضد الأيجي عبد الرحمن بن أحمد المتوفى سنة ٧٥٦ هـ كان إماما في
المحذولات ، له في علم الكلام كتاب " المواقف " المشهور وغيره . ونجد السعد سعد
الدين مسعود عمر التفتازاني المتوفى سنة ٧٩٢ هـ صاحب الكتاب الطائر في شرح
التلخيص ، كان متكلما منطقيًا له شرح العقائد ، والمقاصد في الكلام ، وله شرح
الشمسية في المنطق . والسيد الشريف الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ هـ كان نظارًا
فارسا في البحث والجدل متكلما فيلسوفا له شرح " حكمة العيون " وشرح كتاب المواقف
في الكلام .

كما نجد البسطامى والفنارى والعصام وحفيدة والسيالكوتى وغيرهم من أصحاب الشروح والحواشى ، والتعاليق فى البلاغة لهذا الدور كلهم متكلمون ، بارعون فى العقول ، متفلسفون ، لهم فى ذلك أكثر كثيرا من مالهم من الآثار فى البلاغة . وكأن البلاغة كانت وديعة فى يد المتفلسفين على مر الدهر . والواقع أن الاستاذ الخولى قد لفت أنظارنا بشكل مشير ، ووضع أيدنا على أمر خطير ، ذلك هو وقوع بلاغتنا الحبيبة فريسة فى يد الفلاسفة وعلماء الكلام ، فأغرقوها فى البحث والجدل ، وحولوها من علم جميل ، يعلم الجمال ، ويطبعه فى النفس ، ويمتص العقول والقلب والحس ، الى علم يثير الغثاء والصداغ ، وينفر العقول والاسماع ويضيق به الدارسون ، وينتفض عنه الراغبون ، بعد أن يخيب فيهم أملهم ، وتضيق به صدورهم وعقولهم .

آثار الفلسفة فى البلاغة : " هذه ظاهرة بدائية سطحية من صلبة الفلسفة بالبلاغة ، وقد كان لها ولا شك أثرها فى اشراق كتب البلاغة أبحاث الفلسفة اشرايا واضحا الأثر فيما بأيدينا منها . نرى النزعة الجدلية تسيدار عليها حتى لتكاد تخرجها تماما عن الغرض الأدبى : فترتيب الابواب فى تلك المؤلفات فلسفى ، وتنظيم مسائلها لعلل فلسفية ، وبيان المعانى البلاغية من خواص التراكيب وطرق الدلالة وأوجه الحسن فلسفى ولعلنا لو جردنا ما فى مختصر شرح السعد للتلخيص من هذا لخرجنا بموجز فى الفلسفة له قيمته . أما اذا تتبعنا ما فى الحواشى والتعاليق منه فانا نأفرون بمجموعة فلسفية وافية

وقد جارت تلك النزعة الفلسفية على الناحية الأدبية جورا تحسه حين تراههم في المواطن الأدبية الحقيقية يدجون القول ويحملون ، ان لم يفسدوا المعنى الأدبي ويشتطوا في البعد عنه تلك ظاهرة سطحية وحدنا ها فيما ذكرنا من تولي رجال الفلسفة التأليف في البلاغة وغلبيتهم في هذا الميدان . لكن ليس ذلك كل ما نريد أن نقوله من أثر الفلسفة في البلاغة ، ولا هو جوهره ، وإنما هو أسره وأظهر ما يقع التنبيه اليه . ولو أمعنا النظر ومضينا في التقصي لوحدنا تأثر البلاغة بالفلسفة وفروعها من المنطق والكلام قويا بعيد المدى في نواح متعددة :

- (١) قويا باديا في نشأة البلاغة وظهورها .
 - (٢) قويا في تطورها وسير دراستها .
 - (٣) قويا في ضبط أبحاثها وتحديد دائرة درسها .
 - (٤) قويا في تعيين غرضها وغايتها . وهذا ما نتولى بيانـه نقطة نقطة ، وسألة مسألة ، ثم نعود آخر الأمر فنمعرض بنظرة شاملة لما كان لذلك التأثير من عائدة على البلاغة ، وما جر عليها من نفع أو ضرر ^(١) ويذهب الأستاذ الخولي يستقصى هذه النقاط الأربع ، ويتحدث عنها بتفصيل ، ويسوق الحجج والبراهين ، وكنت أود أن أعرض البحث في هذه النقاط الأربع كاملا لما فيها من حقائق ولفات دقيقة جيدة ^(٢) .
- ولكني أجتزئ منها أهم الحقائق واللفات .

(١) مناهج تجديد ص ١٤٣ - ١٤٩ بتصرف .
 (٢) انظر البحث في هذه النقاط الأربع في كتاب مناهج تجديد ص ١٤٩ - ١٧٥ .

(١) الفلسفة ونشأة البلاغة :

نجد للفلسفة تأثيرا فى نشأة البلاغة من جهتين :

- أ - جهة منطقية أو فلسفية عامة .
 - ب - جهة كلامية أو فلسفية اسلامية خاصة .
- فأما الجهة المنطقية فذلك : أن القوم أيام عنايتهم بالفلسفة قد ترجموا منطق أرسطو على أنه ثمانية كتب هى :
- ١ - المقولات : أو كما عربوا اسمها اليونانى " كاتيفورىاس "
 - ٢ - العبارة : أو القضايا التمديقية وأصنافها .
 - ٣ - القياس : وصور انتاجه أو " أنا لوطيقا الأولى "
 - ٤ - البرهان : أو القياس من حيث مادته وهو " أنا لوطيقا الثانية "
 - ٥ - الجدل : أو طويقا .
 - ٦ - السفسطة : أو سوفسطيا .
 - ٧ - الخطابة : أو ريطوريقا .
 - ٨ - الشعر : أو بويطيقا .

ووقف الخولى عند القسمين السابع والثامن وهما : الخطابة والشعر . وبين ما بينهما وبين ما بأيدينا من أبحاث بلاغتنا من صلات كثيرة . وأما الناحية الثانية من نواحي تأثير الفلسفة فى البلاغة ، ناحية تأثير الفلسفة الخاصة أو الكلام ، فقد كان يعمل مباشر للمتكلمين أنفسهم ولفلسفتهم فى الميدان البلاغى ، كان بعناية لهم خاصة وجهوها الى تناول الابحاث البلاغية وخلق المصطلحات فيها .

ولقد أشار ابن تيمية فى كتابه الايمان الى هذا التأثير حينما تكلم عن منشأ اصطلاح البلغاء على كلمة المجاز ما عباره : " وانما هذا اصطلاح حادث ، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين "

(٢) الفلسفة وتدرج البلاغة : أوسير دراستها في عصر تكوينها .

وهنا نجد كذلك حظ الفلسفة قويا ، فروحها مازالت سيطرة على درس البلاغة ، والتوسع في أبحاثها مازال يجرى أكثر مليجى على رسوم بحث الفلسفة . وذلك أن هذا البحث قد اتجه اتجاهين مختلفين . فكانت هناك طريقتان لدراسة البلاغة ، لكل واحدة منهما مزاياها وخواصها وهاتان الطريقتان هما :

أ - طريقة المتكلمين ب - طريقة الأدباء

فأما الطريقة الأولى فتستاز بخاتمة أهلها المتكلمين في الجدل والمناقشة والتحديد اللفظي ، والعناية بالتصريف الصحيح ، والقاعدة المقررة ، والاقبال من الشواهد الأدبية ، وعدم العناية بالناحية الفنية في خصائص التراكيب وتقدير المعاني الأدبية ، واستعمال المقاييس الحكيمة الفلسفية المعتمدة على قواعد منطقية ، أو نظريات خلقية ، أو مقررات طبيعية في الحكم الأدبي دون نظر إلى معاني الجمال وقضايا الذوق . ونرى هذه الطريقة حلية في نقد الشعر لقداصة حين يتكلم عن المديح فينظر إلى مذهب أفلاطون في أصول الفضائل الأربع وأهمياتها ؛ من الحكمة والعفة والشجاعة والعدل ، ويرى أن القاصد لمدح الرجال بهذه الخصال مصيب ، والقاصد السى مدحهم بغيرها مخطئ .

وأما الطريقة الثانية وهي طريقة الأدباء في درس البلاغة فتستاز بالاكثار المسرف من الشواهد الأدبية نشرها وشعرها ، والاقبال من البحث في التعارف والقواعد والاقسام ، وتعتمد في النقد الأدبي على الذوق الفني وحاسة الجمال أكثر من اعتمادها على تصحيح الاقسام وسلامة النثر المنطقي ولا ترجع في ذلك إلى أصول الفلسفة من خلفيات وغيرها .

ونرى هذا فى مثل كتابة أبى هلال العسكري فى الصناعتين ، يسوق فى المقام الواحد عشرات الأمثلة والشواهد من القرآن والحديث وكلام العرب نثرا وشعرا ، ويعتمد فى النقد الأدبى على الذوق .

هذا وقد تحدثنا فى مكان سابق عن هاتين المدرستين حديثا وافيا وما يهمنى هنا هو أن أنقل رأى الخولى فى المدرسة الكلامية وأثرها ، فهو يرى أننا لو رجعنا ننظر استبيان المدرسين طوال حياة البلاغة لوحدنا أن المدرسة الكلامية كانت أوفر حظا عند المتقدمين ، كما أنها كانت الأرجح كفة عند المتأخرين ، ثم الغلبة المنفردة فى النهاية . ولا نرى إلا لمعا يسيرة من روح المدرسة الأدبية فى مثل كتابة أبى الفتح ضياء الدين بن الأثير فى كتابه " المثل السائر " وأغيره .

(٣) الفلسفة ومدى بحث البلاغة : أو تحديد دائرة بحثها . وقد رأينا فيما سلف تأثير المنطق فى نشأة البلاغة ، وفى طريقة درسها . وهنا نرى هذه الصلة تزداد توثقا وقوة ، فيكون للمنطق أثره الظاهر فى تحديد دائرة بحثها . هنا نرى السبكاكى حين يؤلف كتاب (مفتاح العلوم) فى العلوم الأدبية يردف علوم البلاغة بالبحث المنطقى فى الحد والاستدلال ، مطلقا ذلك بقوله : " . . لما كان تمام علم المعانى بعلمى الحد والاستدلال لم أربدا من التصحح بهما " . كما نرى مؤلفا آخر من أهل عصره هو القاضى نرين الدين أبوعبد الله التنوخى أحد رجال القرن السابع الهجرى حين يؤلف كتابه " الاقصى القريب فى علم البيان " ^(١) يعتبر القواعد المنطقية فى القضايا وأنواعها مقدمات ضرورية للبحث البيانى ، ضرورة الأبحاث اللغوية والنحوية له ، فيقول فى مقدمته " ألفت هذا المختصر مبتدئا فيه بما يجب تقديمه من القواعد المنطقية ومعانى الأدوات العربية . . "

ويندفع فى الكلام عن العلم وأقسامه والقضايا وأنواعها كلاما غير قصير
 طغما فيه من المنطق الشئ الكثير ثم يقتدر عن عدم الأسهاب والشرح
 وفى هذين المثالين ترى المنطق يحيط ببحث البلاغة وينزل خيفا غير
 متشم فى أول كتبها وآخرها : بل مازال بها حتى اعتبرت ميزانا
 مثله فوضعتها السكاكى فى المفتاح بأنها " علم معيارى يحترز بالوقوف
 عليه من الخطأ فى مطابقة الكلام لتسام المراد منه " (١) . . . وهكذا
 قفى بحث البلاغة على خطى بحث المنطق وجرى فى مضماره ويكاد لا يعدوه
 وترى ذلك بينا فيما يأتى :

تبدأ البلاغة - على آخر نظام لها - بالبحث فى المفردات وخصائصها
 وهو علم المعانى . ثم البحث فى المركبات ودلالاتها وهو علم البيان .
 ثم تحسين ثانوى وهو علم البديع . وفى هذا كله لم يتعمد البحث دائرة
 الجملة التى رأوها نظيرة القضية .

أما وراء بحث الجملة فلا تجد شيئا ، بل أن الأبحاث التى كان
 المرجول لها أن تتجاوز الجملة قدردت اليها وألزمت حدودها فقط .
 فالبحث فى الإيجاز والاطناب والمساواة مثلا كان يصح فيه النظر الى
 غرض الأدب كله وكيف تناوله ؟ وهل أسهب فى ذلك أو أوجز ؟ وقد رأينا
 فى أبحاث خطابة أرسطو السابقة بحث الإيجاز والاطناب فى الجمل وفى
 الأسلوب . لكنهم لم ينظروا من ذلك الا الى الجملة أو ما هو كالجملة ، وراحوا
 يفاضلون بين جملة " القتل أنفى للقتل " وجملة " فى القصص حياة "
 بعدد حروفها .

فهذا التضييق فى دائرة بحث البلاغة أثر تسويتها بالاستدلال ،
ورجعها الى المنطق ، وأخذها بنظامه بعد ما اشتدت الصلة بينهما ،
وزاد عليها ضغطه .

(٤) الفلسفة وغاية البلاغة : وفى هذا لانحسب اذا رأينا البلاغة
التي كانت تلك نشأتها التي سمعت ، وهذا نظام درسها الذي رأيت ،
وتلك حدود بحثها كما علمت ، لا تنتهى الا الى غرض كلامى اعتقادى ،
أعنى الى غرض فلسفى خاص . وكذلك كان الأمر منذ العهد الأول ، وفى
الطبيعة رأينا عسروبن غبيد يجعلها أداة لتقرير حجة الله فى عقول
المتكلمين رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم . كما رأينا
فى ذلك رجال المدرسة الأدبية كأبى هلال يصرح بأن البلاغة إنما
تدرس لأن اغفالها يؤدى الى عدم وقوع العلم باعجاز القرآن على وجه
استدلالي تحليلي كما نرى صاحب الطراز يقصر الغرض من البلاغة
على مسألة الاعجاز فقط . كما نراه يعتقد لبحث الاعجاز فصلاً خاصاً
متمماً لدرس البلاغة ويبدأ هذا الفصل بعلوم المؤلفين فى البلاغة ممن
لم يفرقوا الموضوع بالبحث مع أنه الغرض المقصود
وهكذا مضى القوم على أن الغرض من البلاغة والغاية منها انما هى
معرفة الاعجاز .

هل استفادت البلاغة من الفلسفة :

بعد أن بين الأستاذ الخولى نواحي التأثير المختلفة - عامة وخاصة -
على البلاغة يجيب عن هذا السؤال فيقول :
أما عن تأثير البلاغة بالفلسفة فى نشأتها ، فذلك أمر له ما بعده ،
وقد ظهر أثره الحقيقى بما تلاه من أدوار حياة البلاغة ، فقد عجلت هذه
الصلة بلاشك فى تكوين البلاغة وظهورها لما أمدتها به من أبحاث وامطلاحات
وعناية رجال ، فكانت تلك ناحية الاستفادة ان عددناها .

ومن ناحية أخرى نرى أن هذه النشأة قد تركت في البلاغة استعدادا للاتصال بالفلسفة فيما بعد ذلك من أيامها ، ففي طور التكون والدراسة رأينا المدرستين اللتين تولتا بحث البلاغة ، المدرسة الكلامية والمدرسة الأدبية ، وميزة كل واحدة منها وانتهاها* الأمر بغلبة النزعة الفلسفية وظهور آثارها واضحة في البلاغة ، وهنا نرى البلاغة وهي البحث في الحسن القولي - ولهذا الغرض نفسه التمسها الكلاميون - نراها قد بعدت عن البحث في هذا الحسن القولي ، أو قل تولته على نحو غير مبين له ، إذ تركت الاعتماد في ذلك على الميزان الوحيد له ، والقياس الفرد فيه وهو الذوق الوجداني واعتمدت على قضاي العقل ، وقياسات المنطق .

أبحاث ضرورية للبلاغة :

كان من أثر الفلسفة في تحديد البلاغة وقصور بحثها أن حرمتها من أبحاث ضرورية للفن الأدبي ، ضرورة لصناع القول من الكتاب والشعراء ، ضرورة لحملها بحثا في الحسن القولي مؤديا ثمرته ، أبحاث نراها في بلاغات اللغات الحية ويجب أن نتناولها بالدرس لنحقق وجود المدرسة الأدبية .

ومن تلك الأبحاث : البحث في الأسلوب واختلافه ، وأوجه تفاوته ، ومزايا أنواعه المختلفة .

ومن ذلك : البحث فيما وراء المعنى الجزئي - تشبيه أو استعارة أو كناية - من معنى كلي وغرض يقصد إليه الأديب ، وكيف يرسم لسه صورة كاملة ، يراعى تناسب أجزائها وملة تلك الأجزاء ، وكيف يبرز كل جزء من هذه الأجزاء ، فتكون وحدة درسنا القصيدة الكاملة ، أو القاعية النثرية بتسامها ، لا البيت المفرد ، والفقرة الواحدة .

ومن ذلك : البحث فى ايجاد المعانى كيف يكون ؟ وفى ترتيبها كيف يتم ؟ وفيما يناسب كل فن منها وما لا يناسب .
ومن ذلك : البحث فى فنون القول الأدبى نثرية وشعرية ، ودرسها فنا فنا ، وبيان ما به قوام كل فن منها وحسنه ، وما يلائمه من المعانى والتشبيهات والاستعارات والكنايات وما لا يلائم .
ومن ذلك : البحث فى فنون جديدة خلقتها الحياة بعد الرسائل والمقامات ، كالبحث فى المقالة التى هى أروع فنون القول النثرى مثلاً . ولا تنسى الفن القصصى الذى نافى على الفنون الأدبية الأخرى ، وحرم منه أدبنا ، ولا بد لأبنائنا الطامحين اليه بمعرفة أصوله ومناجى الحسن فيه .

ونحن فى الحق لسنا مبتدعين فى ذلك تماماً بل نجد نواة مثل هذه الأبحاث فى الدراسة البلاغية القديمة ، كالذى كتبه الجاهظ فى بيانه عن صحة المعانى وفسادها ، ومناسبتها للسامعين كما نجد طرفاً صالحاً من ذلك الجديد المرجوفى نقد قدامة حين يتكلم عن نعمت الوصف ، ونعمت الهجاء ، ونعمت الرثاء ، ونعمت المديح ، ونعمت التشبيه وما الى ذلك ، لكن فى اجمال وايجاز لم يتناوله أحد بعده بالبسط الى اليوم لكساد المدرسة الأدبية وسيطرة النزعة الجدلية وانتهاء البحث فى البلاغة الى ضروب من الخلاف والمناقشة تعقد لها مجالس المناظرة ، ويقعد لها المحكمون بين السعد التفتازانى والسيد الشريف ، حين يتناظران فى اجتماع الاستعارة التبعية والتشيلية وعدم اجتماعهما (١) كأنهما يتناظران فى مشكل من أصول القوانين أو معضل من مسائل الفلسفة السى أن ينهزم السعد فيصوت رحمه الله كمدا ، ضحية الفلسفة الزائفة فلسى

(١) هى مناظرة مشهورة جرت فى بلاط تيمورلنك سنة ٧٩١هـ . ان كان السيد قد اتصل بتيمور ، وارتحل معه الى ما وراء النهر . واشتغل بالتدريس هناك .

البلاغة المألوحة ولو أنه ليس آخر ضحايا هذه الفلسفة .
 ويتوجه الأستاذان الخولى الى أبناء اللغة ودارسيها قائلا : " وانسى
 لآمل أن يخرج قسم اللغة العربية بالجامعة المصرية أبحاثا ناجحة
 فى تلك الموضوعات التى أشرت اليها . . . حتى يكون للبلاغة أثرها فى
 فهم الجيد والردى ، وصنع الجيد ، وتمود دراستها على صناع
 القول بالفائدة ، بل يحى ذلك فى هذا البلد الناهض فنونا جديدة
 من الأدب " . (١) ويذهب الخولى بعد ذلك يتحدث عن أثر الفلسفة
 أو البلاغة الفلسفية فى الاعجاز ، وما نال البلاغة من قصر الفلسفة
 الكلامية اياها على بيان الاعجاز .

وهو حديث ليس بالتفسير رأينا تأجيل عرضه الى الفصل الثانى
 سنسوقه فى الباب الخامس عن قضية الاعجاز .
 ثم يقول أخيرا : " ان البلاغة تتبنى أن لو لم يكن لها بالفلسفة
 تلك العلاقات السابقة . . . وحيدا لو لم يكن لها الا تلك العلاقة العامة
 التى أشرنا اليها أول المحاضرة ، وهى عناية الفلسفة والبلاغة بالجمال
 فتعمل البلاغة العمل المادى فى درس الجمال القولى . . . وعلى هذا
 البيان والتحرير يجب أن نؤيد المدرسة الفنية ، ونؤثل تلك الابحاث
 الجديدة التى أشرت اليها من قبل ، ونهجر المدرسة العلمية فى
 دراسة البلاغة . ونمضى فى كل ذلك التجديد بقدم ثابتة لا نخشى
 خطرا مألوفه : تحديد تاريخى وطيد الدعائم " . (٢)

خاتمة :

وفى نهاية هذا البحث القيم يضع الأستاذ الخولى خاتمة
 يلخص فيها القضايا التاريخية والقضايا الاصلاحية التى وردت فى هذا
 البحث بفرض الحث على تحديد البلاغة فيقول :

(١) مباحث تجديد ص ١٧٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٥ .

• أحببت أن أضع بين يدي معلمى البلاغة ومتعلميها فى أنحاء العالم العربى المختلفة ما فى ذلك البحث من قضايا تاريخية وتجديدية ، بعبارات موجزة ،
 لفتنا أنظارهم اليها ، وحثالهم على نقدها وأعمال الفكر فيها ، حتى اذا
 بدت لهم صحتها عملوا متكاتفين على تجديد درس البلاغة العربية انعاشا
 للأدب العربى ونقده ، وسعيا الى أن يجد فيه شباب الأقطار العربية طلبته
 الفنية ، وحاجته الوجدانية ، فلا يبعد عنه ويرميه بالجفاف والجمود ، وتستجد
 فى هذه الخلاصة فهرسة علمية للموضوع : -

القضايا التاريخية :

- (١) كانت جمرة الذين تولوا البحث فى البلاغة على اختلاف العصور فلاسفة
 أو متفلسفين ، وكان لذلك أثره الظاهر فى كتبها .
- (٢) قضايا مؤرخى الآداب العصريين فى تاريخ البلاغة قاصرة تارة وغير صحيحة
- (٣) علم المنطق وعلم الكلام هما أهم العوامل فى نشأة البلاغة ، وقد أشار
 القدماء الى ذلك ، ولو أنها إشارة يسيرة .
- (٤) للقدماء فى درس البلاغة طريقتان : كلامية وأدبية ، ولكل طريقة مزاياها ،
 وكتبها ، ورجالها .
- (٥) نظرة تاريخية قصيرة فى نصيب كل مدرسة من الكتب والرجال ترينا غلبة
 المدرسة الكلامية وتفوقها .
- (٦) صلة الفلسفة - ولا سيما المنطق - بعلم البلاغة قد سببت ضيق دائرة
 بحثها ، وحرمتها من أبحاث ضرورية .
- (٧) صلة الفلسفة - ولا سيما علم الكلام - قد جعلت الغاية منها كلامية .

القضايا الإصلاحية :

- (١) الدرس التاريخي يهدينا الى تجديد نظمنا اليه ، ونثق أن لا تبديد فيه
 - (٢) في دراسة البلاغة بكتبها الأخيرة تفسير أدبي وديني .
 - (٣) يجب ايجاد الطريقة الدلالية - أو العلمية - في درس البلاغة ، و احياء الطريقة الأدبية وتنميتها .
 - (٤) مانحتاج اليه من الأبحاث الجديدة التي يجب ادخالها في بلاغتنا .
- هذا هو عرض سريع لهذا البحث القيم الذي يعتبر به الأستاذ الخولي من أوائل الدعاة الى تجديد البلاغة .
- وهو يتفق معنا في مفهومنا عن التجديد ، وهو أن نتناول بلاغتنا القديمة فنخلصها من داءها - ولكل قديم دأؤه - ثم نضيف اليها ما يقويها ويرد جمالها ورواءها ، ثم نكسوها أحدث الحلول وأبهاها حتى تصبح في العصر الحديث فتنة للناظرين .

البلاغة وعلم النفس

بعد بحث البلاغة والفلسفة بشماني سنوات طالع الأستاذ الخولي بهذا البحث داعيا فيه الى تجديد البلاغة عن طريق امدادها بعلم النفس وارتكازها عليه في التحليل والتعليل . وقد بدأ البحث بخلاصة صغيرة يقول فيها ، :

١ - عاودت وأعاود البحث في مسائل مفردة من البلاغة وتاريخها ، لأن حاجتنا العلمية اليوم انما هي الأبحاث الحقيقة العميقة ، لا الواسعة الشاملة .

٢ - اتملت البلاغة قدما بعلم النفس اتمالا وثيقا ، ولولم يلح القداماء هذه الصلة ، أو يرتبوا عليها أثرها .

٣ - نأرتنا المحدثنة في صلة الأدب بالحياة ، وفي أثر الخبرة النفسية على العمل الفني ودقته ، تقضى علينا بأن نوطن أصل البلاغة - بل دراسات الأدب جميعا - بعلم النفس .

٤ - ومن سبيل ذلك أن نروغ المتأربين على المشاهد النفسية ، وأن نحمل من مقدمات البلاغة مقدمة نفسية خاصة ، وأن نشقف المتأرب " بعلم النفس الأدبي " .

٥ - لهذا الوصل الوثيق بين البلاغة وعلم النفس أثر قوى في اصلاح الحياة الأدبية ، وفي اصلاح دراسة البلاغة ، وفي تغيير الآراء في مسائل أدبية سياسية كاعجاز القرآن وتعليه ، ثم في تغيير أساس نظارنا في تفسير القرآن .

ولحكمة ما وربما من باب التجديد جعل الأستاذ الخولي هذه الخلاصة في مكان المقدمة من هذا البحث فخرج بذلك على التقليد الأدبي من جعل المقدمة في البداية ، والخلاصة في النهاية .

صلة قديمة :

تحت هذا العنوان ذهب الأستاذ الخولى يتحدث عن صلة علم النفس بالفلسفة ، وصلته بالبلاغة وقدم هذه الصلة يقول :
 " حينما تحفث منذ أعوام عن البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها اكتفيت فى بيان الفلسفة بأنها : البحث الحر العميق فى هذا الكون كما اقتضرت فى بيان البلاغة على أنها ، فن القول ، والبحث عن الجمال فيه ، كيف وبم يكون ؟ .

وقد كان من الفلسفة قديما - ولا يزال على اتصال بها حديثا - ذلك الفرع الذى يتولى دراسة المظاهر والخصائص المعنوية ، أو العقلية ، أو الروحية فى الانسان ، فيتولى شرح الاحساس والرغبات والانفعالات والميول والنزوع الانسانى ، وما الى ذلك من المظاهر الحسوية غير المادية فاذا ما نظرنا النظرة الاولى الى البلاغة ، على هدى ذلك البيان القريب لها ، وجدنا محاولتها الفنية فى القول ليست الا تتبعها لمواقع رضا النفس ، وعناية بالتأثير فيها . ومن هنا تتصل بعلم النفس ، وتحتاج فى دراستها اليه . لكن ليس على هذا البيان الساذج وحده يقوم اتصال البلاغة بعلم النفس ، بل يتضح ذلك الاتصال بالنظر الدقيق

فالقدما " قسموا البلاغة الى تلك الفنون الثلاثة : المعانى والبيان والبديع ، ووضعوا لها أقساما وأبوابا ، ودنوا لها الأصول والقواعد ، وهم فى ذلك اما يظرفون بلاغة الكلام بأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته

ويشرحون هذا المقتضى بأنه : الاعتبار المناسب الذى يلاحظ . ويتحدثون عن انكار السامع لما يلقى اليه ، أو موافقته عليه ، أو خلوص ذهنه . ويفرقون بين الذكى والغبى والمعانى ، كما يتكلمون عن رغبات المتكلم واتجاه نفسه لما يتحدث عنه من حب أو كره ، وتلذذ أو تألم ، وما لكل ذلك من أثر فى القول

وليس هذا فقط. مظهر وصلهم البلاغة بالابحاث النفسية عند هم ، بل هم يمرضون لذلك كثيرا حين يتحدثون خلال أبواب البلاغة عن الأحوال النفسية وما تقتضيه ، وما يلائمها من مظاهر كلامية ، وخصائص أسلوبية ، ان تراهم يخالفون بين أضرب الخير باختلاف حال المخاطب ، ويتحدثون عما يلزم في كل ضرب من وسائل التقوية والتأكيد .

وهم يتكلمون عن الأمزجة الانسانية في الفصائل البشرية المختلفة ، وأثرها في صوغ الممارات ، فيفرقون بين المولد ين والمرب ، ويرون أن بناء الكلام للمزاج العرقي يخالف بناءه للمزاج الدخيل المستعرب كما في قصة بشار المشهورة عن بيته ، الشاهد المصروف :

بكرأ صاحبي قبل الهجير ان ذاك النجاح في التفكير
وقول خلف الأحمر له : لو قلت يا أبا معاذ ، مكان ان ذاك النجاح
" بكرأ فالنجاح " كان أحسن ، واجابة بشار له بقوله : انما بنيتها
أعرابية وحشية ، فقلت ان ذاك النجاح ، كما يقول الأعراب البدويون ،
ولو قلت بكرأ فالنجاح ، كان هذا من كلام المولد ين ، ولا يشبه ذلك
الكلام ، ولا يدخل في معنى القصيدة .

والأقدمون هم الذين نسمعهم يتحدثون عن التخيل ولمصه بالنفس وعن التخيل حتى ليفلظ المرء حسه .

وهم الذين يذكرون الايهام والوهم ويشرحونها مبينين أثرهما في القول . وهم الذين يذكرون الفخمة وفعلها في النفس ، وأثرها في اخفاء أشياء ، وحذف أشياء عند القول .

وهم الذين يتحدثون عن التشويق وطلب الاصفاء ، ومواضع ذلك ووسائله ، والطرق القولية المثيرة له ، وعن الطمع والرغبة الطحسة ، والاطماع والايثار ، وعن السرور بخلف الظن ، وما الى ذلك .

وهم الذين شرحوا - فى اطالة - تنادى المعانى ، وأنواع الترابط بينها ، فيما يبينونه من جامع وهمى أو خيالى أو عقلى ، وحقائق تلك الحركات النفسية وفرق ما بينها فى تعمق ، الى غير ذلك من مظاهر الاعتماد القوى على الخبرة بالنفس الانسانية ، اعتمادا يدل على العلاقة الوثيقة بين البلاغة وعلم النفس ، مع ما لبلاغتهم تلك من ناحية فنية ضيقة المدى ، وناحية علمية فلسفية شديدة التركيب والتعقد .

ولكنى رغم هذا الاتصال الوطيد بين البلاغة والنفس ، لم أر من القدماء من لمح هذا الارتباط فيما لمحوا من صلة البلاغة بمختلف العلوم والأبحاث ، مع أن علم النفس كان من معارفهم ، وبين أقسام فلسفتهم ^(١) .

الفن والفلسفة :

وتحت هذا العنوان راح الأستاذ الخولى يشير الى بحثه السابق عن البلاغة والفلسفة ، وأن " الفن القولى تملئه بالفلسفة وشائج قوية ، وقربا متينة ، إذ الفن والفلسفة يخدمان معا فكرة الجمال والجميل " وأن " الفلسفة تعد الجمال شطرا من درسيها الانسانى ، وتشعر أنها حين تتولى العقل بالدرس ، وتنظر فى منطقه ، لابد أن تتولى الوجدان الانسانى بالتصرف ، وتنظر فى موازينه ومقاييسه ، ومكان الجمال من الحياة البشرية " .

" وان الفلسفة لتمد الجمال غاية من غايات الحياة الكاملة ، الخليفة بأن تنمت بأنها حياة انسانية ، حين يخلق الفن على اختلاف أساليبه من ناطقة وصامتة ، صور ذلك الجمال ومظاهره ومثله الستى تحقق تلك الغاية الفلسفية " .

" ويتأثير هذه الفلسفة وذاك الفن تمس النفوس الراقية تلك الحياة المادية العاطلة من المستشرق الطامع ، وتزاولها مزاولة الانسان المترفع ،

(١) انظر مناهج تجديد ص ١٨٢ - ١٨٥ بتصرف .

الواسع الأفق ، الذى يدرك معنى الكرامة البشرية ، فيجد فى توفيرها ويحلم بحياة راغدة راقية ، يجاهد لتحقيقها بالعلم تارة وبالمعمل طورا . وكذلك كان الفن والفلسفة عالمين قويين فى انهاض الأمم وإثارة العناصر الحية الطامحة فيها . . . ويتلاقى الفن والفلسفة معا فى العمل لذلك ، حين تجد الفلسفة فى فهم الانسان ، وتفرد له منها قسما برأسه ، وهو ما لا يزال ينمى : بالفلسفة الانسانية وليست العبقرية الفنية فى أى صورة من صورها الا البصر بخفايا الحس البشرى ، والاقتدار على الاتصال بالوجدان ، ومداخله العاطفية ، وسايرة الأمل ، والتحليق مع الخيال ، والوقوف على مواطن الهوى ، ومكان الرغبة ، التى احتوت النفس منها أسراراً باهرة ، وقوى رائجة .

" وعلى هذا الأساس من علاقة الفن بالنفس الانسانية تظاهر صلبة الأدب بالنفس ، وتتحدى قوة تلك الملة . وإذا ما علت الأدب فلا يخالن مشتبته أنى جاوزت حد عنوانى ، أو عدت ما اليه قصدت ، ومن حديث عن البلاغة ، فان البلاغة من بين العلوم الأدبية هى روح الأدب ، والأدب مادتها ، تعلم صنعه ، وتبصر بنقده ، ولن تعدو البلاغة ذلك عند القدماء والمحدثين "

" فإذا ما تسامى الفن القولى فاتصل بالفلسفة ، وعمق فزاد بالنفس خبيرته ، ودق فأفصح عن هسات الوجدان حديثه ، كان على البلاغة أن تقدر ذلك له ، وتمهد طريقه اليه ، وتمينه على الابداع فيه . ان هى كما أسلفنا تعلم صنع ذلك ، أو تنقده وتقدره . " (١)

وهكذا ربط الأستاذ الخولى بين البلاغة وكل من الفلسفة الانسانية وعلم النفس ، ورأى أن هذا الربط يجب أن يكون واضحا عند تحديد البلاغة .

مقدمة نفسية :

يرى الاستاذ الخولى أن البلاغة - وهذا مكانها فى الدراسة الأدبية - قد انتهت إلينا فى حال باعدت بينها وبين الروح الفنية وأشاعت فى أوصالها حفافا وذبولا ، وكستها خشونة وغبرة ، نفرت من درسها ، وعوقت عن الجدوى منه . وقد تعالت دعوتنا ودعوة الأرباء إلى اصلاحها ، فإذا ما أردنا أن نخلصها من ذلك كله ، فأول العمل فى هذا السبيل أن نقيسها على ما تعتمد عليه الفنون الرفيعة كلها ، وما هو أصل أول فيها ، وما ذلك الأصل إلا الأصل النفسى " .

و " الذى نريد ، من عمل المؤدبين فى سبيل هذه الغاية ، هو أن توثق الصلة بين ذلك الفن القولى ، والخبرة بالنفس ، ويدعم الأساس النفسى للفن ، وهذا فى درس البلاغة بخاصة ، بأن تقدم بين يدي الدرس البلاغى : مقدمة نفسية : هى أمر به والزم له ما اغتبس من أبحاث أصولية أو منطقية أو فلسفية طبعية وغيرها ما أقحم فيه ، وحفلت به كتبه ، من أمثال أبحاث المقولات المختلفة فى تعاريف الفنون البلاغية ، وأبحاث الدلالات أول درس البيان ، وأبحاث المنطق وقضاياها فى النفس والاثبات والتوكيد من علم المعانى ، وأبحاث الفلسفة المختلفة فى الألوان والطعوم والماهيات والحقائق والنسب والصلات من درس التشبيه والفصل والوصل وغيرها ما مضى القول فيه عند الحديث عن أثر الفلسفة فى البلاغة " .

ويعرض الخولى للمقدمة النفسية التى اقترحها وآها أصلح من الأبحاث فى المقولات والدلالات والمقدمات الأخرى ، ويصفها ومما احتمالها ويرى : " أن تدرس فى هذه المقدمة القوى الانسانية بعامة ، وماله منها أثر فنى بخاصة ، فنحرف غير قليل عن الوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور الأخرى من ناحية عمله الفنى .

ونصرف مثل ذلك عن الخيال ، والذاكرة ، والاحساس وعن الذوق الذى طال ويطول التحدث عنه فى البلاغة ، بل فى سائر الفنون جميعا . كما يجب أن نصرف الكثير عن أمهات الخواص الإنسانية من حب وبغض وحزن وفرح وغيره وانتقام ، وما الى ذلك ما هو مادة المعانى الأدبية الكبرى فى الآداب الإنسانية كلها ، وعلى الخبرة بحركات النفس فيه واتجاهاتها ، يقوم النقد الفنى ذو الأساس ، بل ان البصر بذلك هو مادة النبوغ الفذ ، وسبيل خلود الآثار الأدبية للمنشئين والناقدين .

ثم نريد لندرك المعانى النفسية فى الشعور بالجمال ، والتأثير به ، وتقديره ، ليكون قولنا فى ذلك ، حينما نصنع مثله ، أو نقده قولاً معتمداً على غير اللحمة الخاطفة ، والملاحظة السطحية ، والهاجس الطائر ، وبهذا لا يكون فننا لمبا بالألفاظ ، ولا خواطر متناثرة ، ولا رعاية لمشاكلات سطحية ، أو التماسات متكلفة ، كما لا يكون نقدنا فارغاً معاداً ، نضمه فى كل بيت ، ونلبسه لكل قصيدة ، بل يكون فننا عميقاً مفدياً للروح ، محدثاً عما تجده النفوس القوية الشديدة الاحساس ، فيسحرها أن تسمعه ، ويفتنها أن يترجم عنها أصدق ما استطاعت ، كما يكون نقدنا وزناً مقاييسه حقيقية اختبارية ، وتقديرات دقيقة ، تبتعثها خبرة لا يدعيها كل أفاق ، ولا يطمعها كل عاطل ، ولا ينتحلها كل من قعدت به الهمة عن الجد فى الحياة ممن نشهد هم يطئون أسواق الأدب ونواديه ، ويختلسون صفة الناقد والمنشىء .

" ولعله اذا ما استقر هذا فى نفوس من يزاولون الأدب ، ونفوس من يستمتعون به ، نستطيع القضاء على المنحط من صنوف القول الادبى "

" وما ان أشك في أنه كلما اشتد وصلنا للأدب بالبيئة النفسية والجو الانساني الحقيقي ، خلطنا من كثير ، بل من أكثر الآفات التي نشكوا اعتدائها على الأدب ، وحياتها المتطفلة عليه ، وافسادها لأثره وحطابها من قيمته . وحسبنا ذلك مفعلاً ، لو كان هو كل ما نخرج به " . (١)

آثار هذه الصلة في اصلاح البلاغة:

تحت هذا العنوان راج الأستاذ الخولى بتأييد من تلك المعرفة النفسية ينظر في الاعتبارات البلاغية " لنقبل منها ما نقبل على أساس واضح ونرفض منها ما نرفض عن فكرة صحيحة ، فنخلص دراسة البلاغة من تلك التطليلات الركيكة المزيفة ، التي لم تعتمد الا على نظر عقلى بعيد عن روح الفن ، أو قد اعتدت من ذلك على باطل لا صحة له ، ولا قوة فيه ، كما نفهم بذلك مابقى من تلك الاعتبارات ، فهما ذاعادة على الذوق والتكوين الأدبي . . . والى القارئ من ذلك أمثلة يتبين فيها ما نقول :

نحن نقرأ - مثلاً - فى بيان ميزة الأسلوب المعروف عندهم باسم " تأكيد المدح بما يشبه الذم " قولهم : ان سبب ذلك أن هذا الأسلوب كدعوى الشئ ببيئة ، ويفسرون ذلك بأن القائل طعن نقيض المدعى وهو اثبات شئ من العيب بالمحال ، فعدم العيب محقق . كما نقرأ لهم وجهاً آخر لميزة هذا الأسلوب هو " أن الأصل فى مطلق الاستثناء الاتصال ، فذكر أداته قبل ذكر المستثنى يوهم اخراج شئ مما قبلها ، فإذا ما أوليت الأداة صفة مدح ، وتحول الاستثناء من الاتصال الى الانقطاع " التأكيد ، لما فيه من المدح على المدح ، والاشعار بأنه لم يجد صفة ذم يستثنىها " . (٢)

(١) المرجع السابق ص ١٩٢ - ١٩٥ بتصرف .

(٢) مواهب الفتاح للمغربى ج ٢ من شروح التلخيص ص ٣٨٩

هذا ما يقولونه ، ولورحمنا الى أنفسنا لوجدنا أن التعليل الأول بالدعوى والدليل عليها ، تعليل فيه الضمور والابهام . . وفيه فوق ذلك أن الضمور بمعنى الاستدلال ، أو وجدان أثره في الانبئات لا يلحق منه شيء ، في نظم الكلام ، فلا يزال السامع يجد دعوى مرسله لم يتأيد منها شيء ، بشيء ، وما زعموه من أثر البيئة وتقوية الدعوى لا وجود له ، ولا يتبادر الى النفس من فعله أثر .

وليس التعليل النحوي الآخر بأحسن هذا من سابقه " الفقهي " فهذا الذي يذكره من الاتصال والانقطاع اعتباران نحويان ، لا يحسن المرء تذكرهما أو ملاحظة الفرق بينهما ، ينص يسمع هذا الأسلوب ، وليس كل من يجد أثر هذا الأسلوب في نفسه قد درس الاتصال والانقطاع في الاستثناء ، بل لعل معرفة المرء لهذا الاتصال والانقطاع يضعف معها شعوره بميزة هذا الأسلوب . ثم هم أنفسهم قد عد بعضهم في هذا الوجه من التعليل تحملاً^(١) . كما لاحظوا أن التعليل الأول إنما أقام التأكيد بأمر تخيلي .

ولعل السر النفس لذلك فيما يظهر ، هو في هذا الأسلوب من معنى المباشرة والمفارقة التي تكسبه طرافة ، وتثير جوله تنبها . وسواءً أكانت هذه الطرافة تقوم على اتصال الاستثناء أو يتحول معها منقطعا ، فإن المباغته هي الأصل ، لا ملاحظة الاستثناء وحالته .

وقد نجد آخر قولهم في هذا المقام لمحة كخفق البرق نستخرج منها هذا المعنى النفسى ، لشعورنا به لا للفت عابرتهم اليه ، وذلك اللحمة هي قولهم : " تأكد المدح لكونه مدحا على مدح ، وان كان فيه نوع من الخلافة " . فما أروع هذه الخلافة الى البيان ، لأنها روح التعليل ، وسر الحياة في الأسلوب .

ويعرّف الأستاذ الخولى مثالا آخر كشاهد على صدق قوله وصحة رأيه : " ومن ذلك مثلاً أنا نسمعهم يقولون " أطيع البلاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأن الاستمارة أبلغ من التصريح بالتشبيه ، وأن التمثيل على سبيل الاستمارة أبلغ من التمثيل لا على سبيل الاستمارة وأن الكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر " .

يقولون هذا ثم لا يملكون شيئاً منه كله إلا بالفكرة السابقة في تأكيد المصدق بما يشبه الذم من قولهم : انه كند عوى الشئ ، ببينة ، ويعودون الى الاستدلال والتلازم ، والانفكاك . . . الخ .
وشهد الله وأولوا الفن ، أن ليس من ذلك الاستدلال ، ولا تلك البينة ولا هاتيك الشهادة ، قد مربخا طر القائل ، أو السامع ، أو وحدته نفس أدبية . . . ولعل الاعتبارات النفسية في تداعى المعانى ، وتحاذب الصور ، ونحو هذا ، مما يكشف حسن هذه التعابير ، ويحسم ناحيتها القوة فيها دون برهان ولا ادعاء ، ولا مقاضاة أو احتجاج .

وكم انحوت كتب البلاغة على سخيّف النكات التي لا تراحم ، والتي هي ضرب من فكاهة الفقهاء ، ودعاية النفوس الراكدة ، وليست في أصلها إلا فروضاً ذهنية ، واحتمالات عقلية لا غير ، قد نبههم اليها وأغراهم بمثلها طول إلفهم لهذه الفروض ، وتلك الاحتمالات البعيدة عن واقع الحياة ، ونضرة الفن ثم راحوا بهذا الفقر النفسى ، والجذب الوجدانى ، يمللون حسن التعابير ، وقوة الأساليب ، ويتبينون خصائصها ووجه حسنيتها ، فلم يكن من وراء ذلك إلا ما حفلت به الكتب من سقيم الملاحظة ، وسمح النكتة التي يلحمها ، بل يتكلفها محدود الأفق ، قد بعد ما بينه وبين الوجدان ، بقدر ما بعد بينه وبين الحياة الحافلة الشاعرة . ولا سبيل الى استئصال ذلك من الكتب في هداية وتوفيق إلا بالملاحظة النفسية الدقيقة الصادقة " .
(١)

وانتقل الأستاذ الخولى بعد ذلك فى بحثه هذا الى الحديث
عن الاعجاز النفسى وهو حديث تختزنه ونحتفظ به للفصل الذى سيأتى
قريبا فى " قضية الاعجاز " .

رد الممارى :

ويبدو أن بعض العلماء غضبوا من الأستاذ الخولى لتهجمه على
القدماء واتهامهم بالقصور والتقصير والفقر النفسى ، فانبهر الدكتور
الممارى يرد على الخولى هجومه وينقد بحثه ، وقد بدأ بقوله ،
" لعل علوم البلاغة أقل علوم العربية نصيبا من جهود الباحثين
المعاصرين ، ولعلها كذلك أحوط هذه العلوم الى التجديد والتهذيب
ولكننا نستطيع ان نقول - فى غير غش من عمل أحد - : ان الابحاث التى
ظالمنا بها هذا العصر فى هذه العلوم دون ما كنا نأمل من علمائه
الأعلام .

ولقد شاع فى رسائل المعاصرين النعى على علماء البلاغة ورميهم
بالجهل والتقصير أحيانا ، وهذه طريق لا تؤدى الى الغاية ، ولو أنهم
انحدوا بنوا لكان الأمل قويا فى أن نأفر بشىء ، ومن حنى أسلافنا
علينا أن نزود عنهم ، وندفع ما يلحق بهم من ظلم وجور .^(١)

ثم بدأ الممارى يعلق على بحث الخولى :
" قرأت رسالة للأستاذ الشيخ أمين الخولى المدرس بجامعة فؤاد الأول ،
عنوانها ، (البلاغة وعلم النفس) ، تحدث فيها عن صلة قديمة بين الابحاث
البلاغية ومظاهر النفس الانسانية ، ولكنه نعى على الأسلاف أنهم لم
يربطوا بينهما على أن علم النفس علم من العلوم (مع أنه كان من معارفهم)
ورأى أن هذا الربط ضرورى فى الدرس وفى غير الدرس "

(١) نقلنا هذا المقال عن مخطوطة لمجموعة مقالات فى البلاغة بعنوان

(قضايا بلاغية) د . الممارى ص ٦٨ .

وبعد أن يستعرض العمارى رسالة الخولى بايجاز يعود ليرد " على
هذين المثالين الوحيدين اللذين اعتمد عليهما الخولى فى رسالته ،
وادعى فيهما أن القداسى وقفوا عند تحليلات حافة ركيكة ، ولم ينظروا
فيهما الى الأمر النفسى قط . وسنرى أن ماوصمهم به ليس صحيحا ،
وأن ماذكر أنه وصل اليه هو هو الذى ذكره طماؤنا الأجلاء . قال :
(نحن نقرأ مثلا فى بيان ميزة الأسلوب المعروف عندهم باسم تأكيد
المدح بما يشبه الذم قولهم : ان سبب ذلك أن هذا الأسلوب كدوى
الشيء ، ببينة ، ويفسرون ذلك بأن القائل علق نقيض المدعى وهو اثبات
شيء من العيب بالمحال (الى أن يقول) :
ولعل السر النفسى لذلك فيما يظهر هو ما فى هذا الأسلوب
من معنى المباغطة والمفاجأة التى تكسبه طرافة وتثير حوله تنبها) .

وبعد أن عرض د . العمارى المثال الأول ، والتعقيب عليه بأن السر
النفسى فيه انما هو المباغطة والمفاجأة ، يرد على الخولى ذلك فيقول :
" والذى نلاحظه هنا :

١ - أن المفاجأة التى تمدح بأنه وصل اليها انما مأتاها انقطاع
الاستثناء ، وذلك أن النفس حين تسمع أول الكلام تنتظر أن يجرى آخره
أليفا لأوله ، ويستقر فيها اطمئنان لذلك ، فاذا انقطع الاستثناء فوجدت
بما لا تتوقعه .

٢ - أنهم ذكروا لهذا طعة نفسية ، قال فى المطول بعد أن ذكر
التحليلين السابقين " مع ما فيه من الخلابة وتأخير للقلوب " وفى هذه
الكلمة الأخيرة (تأخير للقلوب) كل الرد على الباحث الفاضل المجدد .
ويلتفت د . العمارى الى المثال الثانى فيقول :

أما المثال الثانى فحيث يقول : (ومن ذلك مثلا أنا نسمعهم يقولون
أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأن الاستمارة أبلغ من
التصريح بالتشبيه . . . الخ ثم يمللون شيئا من ذلك كله الا بالفكرة السابقة
من تأكيد المدح بما يشبه الذم من قولهم : انه كدوى الشيء ، ببينة) .

ولعلنا نقف طويلا متعجبين من جرأة أستاذ في الجامعة ، ورئيس
 طائفة تدعى التحديد في علوم البلاغة ، حين نعلم أن صاحب الصناعتين
 عقد فصلا للموازنة بين الحقيقة والمجاز ، ذكر فيه أكثر من أربعين مثالا ،
 وعلل لكل مثال بعللة ، وليس تأكيد المدح بما يشبه الذم واحدا من هذه
 العلل ، وأنه في أول الفصل علل تعليلا عاما بأمر نفسه فقال :
 " وفضل هذه الاستمارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفصل في نفس
 السامع ما لا تفعل الحقيقة " . فكيف يسوغ بعد هذا الأستاذ أمين في
 العلم أن يطرح بهذا كله ليقول ان علماءنا لم يعرفوا تعليلا نفسيا واحدا
 وهل يرى أن الباحث لا يكون بارعا معلما الا اذا ادعى أن الأوائل لم
 يتنبهوا لما وصل اليه ؟ .

ويذهب د . العماري بعد ذلك يعرض أمثلة أخرى للدلالة على أن
 أسلافنا كثيرا مارعوا الأمور النفسية في البلاغة ولم يقتصروا على تعليقات
 ركيكة حافة . ومن ذلك : ما كتبه ناشر كتاب " أسرار البلاغة " في مقدمته
 (ينبغي لقارئ هذا الكتاب وصنوه دلائل الاعجاز أن يتأمل حق التأمل
 ما انفرد به الامام عبد القاهر من جعله علوم البلاغة - البيان والمعاني
 والبديح - من قبيل العلوم الطبيعية ، كعلم النفس ، وعلم الأخلاق ،
 وعلم الفلسفة العقلية ، لا مجرد مواصفات واصطلاحات . . .) . ثم يقول :
 وهذا كلام صريح في أن علماءنا تنبهوا لهذا الذي أراد الأستاذ أن
 ينبهنا اليه ، بل جعلوه أملا تؤلف في ضوءه الكتب .

ويسوق د . العماري شاهدا آخر للامام عبد القاهر فيقول : " قال
 الشيخ عبد القاهر يعلل بأمر نفسه هذا الامر الذي ادعى الأستاذ أنهم
 لم يذكروا له تعليلا نفسيا :

" وان أردت اعتبار ذلك - يعني تأثير التشيل في النفس - في الفن الذي
 هو أكرم وأشرف - يقصد فن الوعظ - فقاارن بين أن تقول : ان الذي يمظ
 ولا يتمتع يضر نفسه من حيث ينفخ غيره . . وبين أن تذكر المثل على ما جاء
 في الخبر من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

مثل الذى يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذى يضى للناس
ويحرق نفسه . . . الخ .

فأما القول فى العللة والسبب ، ولما كان من مثل هذا التأثير
وبين جهته ومآتاه وما الذى أوجبه واقتضاه فسيرها . . .

وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وطلا كل منها يقتضى أن
يخدم المصنى بالتمثيل وينيل ويشرف ويكرم ، فنأول ذلك وأظهره أن
أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى الى جلى ، وتأثيرها
بصريح بمد مكنى ، وأن تردها فى الشئ . تعلمها اياه الى شئ ،
آخره شئ بشأنه أعلم ، وثقتها به فى المعرفة أحكم ، نحو أن
تنقلها من العقل الى الاحساس ، وعما يعلم بالفكر الى ما يعلم
بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرُق الحواس أو المركز
فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة
النظر والفكر فى القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام كما
قالوا " ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين " فلهذا يحصل بهذا
العلم هذا الأنس أعنى الأنس من جهة الاستحكام والقوة . . .

وفى آخر المقال يقول :

وبعد : فنحن لا يكفيننا من معاصرنا أن يثلبوا الأقدمين ، وينوهوا
بقصورهم وتقصيرهم ، ولكننا نريد أن يخرجوا لنا قواعد جديدة
على الوضع الذى يريدونه ، وهينئذ نقول : انهم استدرکوا على
سابقهم وأفادوا علوم البلاغة . أما أن نسمع ونقرأ أن البلاغة معقدة
وأن النحو قاصر وأنه كان يجب أن يدرك الأقدمون ملّة البلاغة بعلم
النفس ، وملتتها بالفلسفة ، ثم لانسمع ولا نقرأ غير هذا .

وما أحسن قول الشاعر :

تقولون أخطأنا فهاتوا صوابكم
وكونوا بناء قبل أن تهدموا الصرحا

والآن يحق لنا أن نتساءل :

هل هذه النزعة النفسية في فهم الأدب ونقده وليدة العصر الحديث؟

وهل هناك خطر من التوسع في استخدام البلاغة لعلم النفس؟

أجاب على هذين السؤالين الأستاذ سيد قطب في كتابه : النقد الأدبي - أصوله ومناهجه .

أما عن السؤال الأول فقد قال : " ربما يبدو أن النزعة النفسية في فهم الأدب ونقده وليدة العصر الحديث ، وأنها وافدة علينا من الغرب حيث نمت الدراسات النفسية ، وخاصة التحليلية ، نمو عظيم في هذا القرن الأخير ، وأن الأدب العربي لم يعرف هذه النزعة من قبل .

وفي هذا الذي يبدو للنظرة العجلى صواب وخطأ يحسن تمييزهما :

ان استخدام علم النفس وما وصلت اليه الدراسات فيه من نظريات مرسومة ، وقواعد محدودة ، وطرائق خاصة لفهم الأدب ونقده ، هي أشياء مستحدثة بلا جدال ، والذين حاولوا أن ينتقصوا بها قد استندوها من الغرب فعلا ، ولم يكن لها على هذا الوضع أصول في ثقافتنا الأدبية العربية . وأما تدخل الملاحظة النفسية بصفة عامة في فهم الأدب ونقده فهي أقدم من ذلك كثيرا في الأدب العربي ، لأنها عاصرت منذ صدر الاسلام ان لم يكن قبل ذلك ، وتمشيت معه في نموه حتى بدت في هيئة قواعد ونظريات على يد عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري . ثم وقفت هناك . . . وحقيقة أنها حين وجدت في نقدنا الحديث لم يكن وجودها استثنافا لتلك الخطوات البعيدة ، إنما كان ذلك ابتداء واستعدادا من الغرب . . . ولكن قد آن الأوان أن نلتفت الى هذه الجذور الأولى ولو من وجهة التحصيل والتسلسل التاريخي " .^(١)

وأما عن السؤال الثاني فقد قال : " هناك خطر نلمحه من التوسع

في استخدام ذلك العلم - علم النفس - وهو أن يستحيل النقد الأدبي تحليليا نفسيا ، وأن يختنق الأدب في هذا الجوء

فمن الواضح أن العمل الفني الردىء كالعامل الجيد من ناحية الدلالة النفسية ، كلاهما يسلح شاهدا ، فإذا استحال النقد الأدبى الى دراسات تحليلية نفسية لم نتبين قيمة الجودة الفنية الكاملة ، لأن المجال لا يتسع للانتباه اليها وفرزها وتقدير قيمتها كما فى المنهج الفنى . وذلك خطأ مر غير مباشر قد لا يلتفت اليه فى أول الامر ، ولكنه يؤدى الى توارى القيم الفنية ، وانغمارها فى لجة التحليلات النفسية .

وشىء شبيه بهذا قد وقع فى كتب البلاغة بعد عبد القاهر ، ففقد كان المتبع فى أيامه أن تخطط قواعد البلاغة بالنقد الفنى ، وأن يستشهد على القاعدة البلاغية بالنصوص ، ثم تنقد هذه النصوص نقدا فنيا يبين الجمال والقبح فيها . وهذا هو المنهج الصحيح . ولكن البلاغة بعد ذلك استغلت على يد السكاكى وأمثاله فصارت القاعدة هى المقصودة أولا وأخيرا ، والقاعدة تثبت بالمثال الحيد كما تثبت بالمثال الردىء ، وعلى هذا أصبحت كتب البلاغة عند المتأخرين مفرضا لخارج فى غاية السخف والرداءة ، تذكر على أنها أمثلة لقواعد البلاغة ، ففسد الذوق فسادا عظيما (١) .

هذا هو رأى الاستاذ سيد قطب ، لكن الدكتور محمد خلف الله يرى أن علم النفس والأدب متداخلان بالضرورة تداخلا كبيرا وأن " اتصال النفس بالأدب لم يجر من علماء النفس وحدهم ، بل من رجال البحث الأدبى أيضا . فقد نظر هؤلاء فوجدوا ثروة من المعلومات ، ونتائج من الدرس تحمل طابع العلم الصحيح ، قد وضعت بين أيديهم ، ووجدوا أنهم أنفسهم وهم رجال الأدب لا يفتنون فى تاريخهم الطويل يتكلمون عن الخيال فى تقليده واختراعه ، وعن الحاطفة فى مدقها وباطنها واضطرابها وهدهدها ، وعن الشخصية وظهورها أو عدم ظهورها فى القصيدة أو الكتاب وعن الرجل وصورته فى الأسلوب ، وعن القريحة وأثرها فى تصوير الأفكار ، وعن الحس وقوته فى ضروب التشبيه والمجاز ، وعن الذهن وجبروته فى النوع على عميق المعانى ، وعن الشاعر وبيئته ،

وعن الكاتب وما حلل في رواياته من مختلف عقد الحياة ، وعن أسباب
أجادة هذا الشاعر في فن ما ، وذاك في فن آخر ، وعن الأحوال
والظروف التي مربها منشئ الأدب وما كان لها من أثر في نوع أسلوبه
الكتابي ، ولهجة خطابه ، ونوع أوزانه وقوافيه .^(١)

ونحن نرى أن علم النفس على أهميته في التحليل والتفصيل
لا يصح أن يطفى على مادة البلاغة ودراستها ، فما هو الا تمهيد
لدراسة البلاغة ، والتمهيد لا يجوز أن يطفى على الموضوع . ولهذا
فنحن مع ميلنا الى استخدام علم النفس في البلاغة واحلاله محل
القضايا المنطقية والمسائل الكلامية ان هو أقرب الى النفس وأبعد عن
الجدل نرى أن علم النفس بالنسبة للبلاغة خادم لاسيد وتابع لا متبوع
فهو موظف لها ومعين على فهم أسرارها . وعلى هذا فيجب أن
يكون استخدامنا له في حدود معينة فلا نتركه يطفى على مسائل
البلاغة ويتغشى في منهجها ويسيطر على مباحثها وتتحول البلاغة
الى دراسات تحليلية نفسية .

هذا خطر محتمل " وقد نبهنا اليه الاستاذ سيد قطب فيما
أوردناه له من نقد . ولا شك أن علم النفس أقرب وشيخة الى
علم البلاغة من علم الكلام وقضايا المنطق وسيكون له أثر جميل وجديد
في دراسة البلاغة ولكن على المجددين أن يكونوا حذرين فيستخدونه
بقدر ويستعملونه في حدود قالشيء ان زاد عن حده انقلب الى ضده
ولقد حدث ذلك من قبل عندما دخلت قضايا المنطق وعلم
الكلام ساحة البلاغة فلم تثبت أن طغت وسيطرت وحولت دراسة البلاغة
الى منطق وافتراضات وجدل وكلام . ونود مخلصين ألا يتكرر هذا
الخطأ وألا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

(١) من مقال : بعض التيارات الفكرية التي أثرت في دراسة الأدب - مجلة
آداب اسكندرية - المجلد الأول سنة ١٩٤٣ ص ٨٠ - ٨٨

ثورة على علوم البلاغة

ألقى هذه المحاضرة الأستاذ عبد العزيز البشرى فى قاعة المحاضرات بالجامعة الأمريكية . وكانت هذه المحاضرة فيما يبدو صدق لما لمسه البشرى من عجز البلاغة العربية بعلومها الثلاثة عن صنع القول الجيد أو خلق الأدب البليغ .

وفى بداية المحاضرة ذكر البشرى^(١) أنه قضى فى الأزهر بضع سنين يدرس الفقه والنحو والبلاغة فى كتبها المعروفة يومئذ لأهل الأزهر ، ثم راوده سؤال شغلته وأهمه حتى كاد فى بعض الأحيان يطك عليه مذاهب تفكيره ، وكان يخشى أن يظهره لزملائه وأساتذته حتى لا يرموه بالجهل المطابق بما يعلم الناس جميعا بدليل أن أحدا لم يراجع فيه من بين الطلاب جميعا . هذا السؤال هو أنه : مادامت للبلاغة علوم مقررة ومعارف واضحة وقواعد مفصلة وقضايا محدودة مرسومة ، فقد أصبح من اليسير على كل من يجيد علمها ويحذق فهمها أن يجيىء بالبليغ من القول اذا نظم أو نثر ، بل لتهيأ له بأن يجيىء بأبلغ الكلام ، بل بما ينتهى منه الى حدود الإعجاز . وماله لا يصنع وقواعد البلاغة تشير بأوضح الاشارة اليه ، وتدل بأفصح العبارة عليه . ماذا على المرء اذا أرسل الكلام أن يخرج مطابقا لمقتضى الحال ، ويجريه على أحكام الفصل والوصل ، ولا ينحرف به عن مقتضيات الإيجاز والاطناب والمساواة ؟ وهذه أحوال التشبيه بين يديه فما يمنعه أن يمزج الكلام على غرارها ، ويترسم فيه أجلى آثارها ؟ ولكن الواقع يأتى مع الأسف الا أن يزعمه عن الاستراحة الى هذا الفكر القديم والمنطق السليم ، فهو لا متقدم الطالب الذين درسوا علوم البلاغة فى أفضل كتبها وأعلاها مكانا ، لاحظ لا أكثرهم فى فصاحة لسان ولا نضاعة بيان . ومن هؤلاء طالب كوم زمران .

(١) نشرت بمجلة الهلال عدد يناير سنة ١٩٣٨ ص ٢٦٥ - ٢٧٥ .

كما نشرها فى كتابه (المزارج) .

وقبل أن نسترسل مع البشرى فى قصة طالب كوم زمان أحب أن أقف لأعجب على تساؤل البشرى الذى حملته فى نفسه حينما من الدهر وخشى أن ييوح به وأنا أعجب كيف غاب عن بال البشرى أن البلاغة قبل كل شئ ، انصا هى : ملكة وفطارة وسليفة ، وأن دراسة علوم البلاغة بدون ذلك لا تخرج بلغيا ولا تمنع قولا ينتهى الى حدود الاعداز . وأن كل مانطمع فيه من هذه العلوم هو أن تمكن الدارسين من التمييز بين الحمل والقبح والجهل والرديء من الكلام ، فيرتفعون بالأسلوب العربى ولا يبهتوا ، ويسمسون بالأدب ولا يسفلون . أما البلاغة والبلغاء فذلك وقف على أصحاب الملكات الذين صقلوها بالدراسة والمرانة والخبرة . وماننا نذهب بعيدا ان معاهد الفنون المختلفة وبها طالاب كثيرون ودراساتهم فى هذه المعاهد تركز على الناحية العملية التطبيقية - وهو ماننادى به فى تدريس البلاغة - ومع ذلك فكم فنانا خرجت هذه المعاهد ؟ انهم لا يكادون يعدون على أصابع اليد الواحدة ، ان جميع الذين تخرجوا من هذه المعاهد يعرفون الفن الذى تخصصوا فيه ويميزون حيد من رديئه ، هذا حق ، ولكن أن ينفخوا فسى تخصصهم الفنى فهذا شئ آخر . وكم خرجت معاهد وكلليات الموسيقى من أعداد مالت الميدان الفنى بمشترات الفرق ؟ كلهم اشتغلوا بتدريس الموسيقى أو تفرغوا للمعزف فى فرقهم وفى التلفزيون والاذاعة . . لقد طغوا فراغا وشتغلوا حيزا من ميدان الفن . هذا حق . ولكن كم منهم نبغ واصبح (موسيقارا) بشار اليه بالننان ؟

ونعود الى قصة طالب كوم زمان - هكذا سماه البشرى - هذا الطالب الذى حاور البشرى فى خزانة حوائجه بالأزهر . . فبعد أن فرغ هذا الطالب من درس كتاب السعد دعا البشرى وزملاءه لسمعمهم قصيدة رائعة من نظمهم يهجو بها أهل بلدة كوم زمان المحاورة لبلدته ، فاستوتوا بين يديه وقصيد أرفعوا الآذان ، وحددوا الأذهان ، وعلقوا الأنفاس ، حرصا على المتاع بما لا ينافر به عامة الناس .

أما مطلع القصيدة فهو بمشيئة الله تعالى :
 دع كوم زمران كي تنجو من الملل وتستريح أخى من ككرة الزلل
 ومنها :

ان جاء ضيفهم قبل المشاء اذن تراهم يافتى فى غاية الطلل
 فالبلخل مشتق منهم ما على أحد منهم شهاب سوى البالى من الحلل
 ما فيهم عاقل يا ابن الكرام فقد حنوا جميعا وقال الله من خبل
 أما تمام التمام ومسك الختام فهو :

ستون بيتا قريضا لا تزيد سوى بيت به قد سألت العفو عن زللى
 ويقول البشرى : ان هذه القصيدة قد نبهته الى أن درس علوم البلاغة
 على هذه الصورة ليس من شأنه أن يعلم البلاغة أو يطبع على ناصع البيان .
 ويبرى البشرى : أن عجز البلاغة عن الاعانة على منع القول البليغ داء قديم
 هدى ابن خلدون الى وجه الصواب فى علاجه المعطى حين قال : " ان
 اكتساب القدرة الفنية انما يكون بالممارسة الأدبية . . " وان لم يشرح ذلك
 نظريا فيفصل بين المعلم والفن .

هل البيان أول مانون من علوم البلاغة :

مرة أخرى يتساءل البشرى - وهذه المرة - عن تدوين علوم البلاغة
 وأيها أسبق ، ويورد قول ابن خلدون : " ان السبب فى اطلاق البيان
 على الأصناف الثلاثة أنه أول ما تكلم فيه الأقدمون ، ثم تلاهت سائل
 الفن واحدة بعد أخرى . . . الخ " وأخذ يشرح كلام ابن خلدون
 بقوله : (أما أن البيان كان أسبق الفنون الثلاثة الى التدوين فذلك أن
 الامام اللغوى الحليل القدر أبا عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩ هـ . قد وضع رسالة
 فى البحث عن : " الماز فى غريب القرآن " ولا شك فى أن غرضه كان دينيا
 محضا فان تبين الحقيقة من الماز مما تتأثر به بالضرورة أحكام الشرع الكريم ،
 فاذا صح أن تقضى هذه المجازات تفصيا جزئيا دون العناية بنظمها فى قواعد
 كلية يستخرج منها الأحكام العامة ،

إذا صح أن يدعى هذا تدويناً في علم البيان ، فلا نزاع في أن رسالة أبي عبيدة هذه هي أول ما دونه لافي علم البيان فحسب بل في علوم البلاغة على الإطلاق . (١)

وهذا لا شك قول غريب من الأستاذ البشرى ، فكيف لم يدرك أن أبا عبيدة في رسالته لم يقصد المجاز المقابل للحقيقة ، بل كان يقصد به — على مذهب القدماء — معنى التعبير وما يدل عليه أسلوب الكلام ، فالمراد بالمجاز عند أبي عبيدة تفسير المعنى وبيان لا غير .

يقول ابن تيمية : " وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة مقرر بن المشي في كتابه ، ولكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسم الحقيقة ، وإنما عني بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية " . (٢) ويظهر ذلك بوضوح في فاتحة كتابه إذ يقول أبو عبيدة : قال الله جل ثناؤه : " ان علينا حمله وقرآنه " محازه تأليف بعضه الى بعض ، ثم قال : " فاذا قرأناه فاتبع قرآنه " محازه : فاذا ألفنا منه شيئاً فضمنناه اليك فخذ به واعمل به وضمه اليك . ويقول أبو عبيدة في قوله تعالى : " وأجل مسمى عنده " مقدم ومؤخر محازه وعنده أجل مسمى أى وقت مؤقت . (٣)

وهكذا يتبين لنا خطأ البشرى في فهم نص ابن خلدون وفي فهم رسالة أبي عبيدة . وعلى كل فان معنى المجاز قد يما وأسبق علوم البلاغة التي التدوين ليس مهمتها في هذا البحث فنكتفى بما أوردنا .

ويذهب البشرى بعد ذلك يتحدث عن أثر الجاحظ وعبد القاهر والسكاكي في البلاغة العربية ، ويقابل بين عبد القاهر وبين السكاكي وكتب المتأخرين

(١) ص ٢٦٨ من مجلة الهلال .

(٢) كتاب الايمان ص ٧٥ .

(٣) مجاز القرآن ص ١٨٥ ج ١ .

ويظهر اعدائه بمنهج عبد القاهر وكيف أنه " يعتمد الى المسألة من مسائل المعلم فيضفى بين يديها المقدمات ويسمخ المقال فى التعليل لها أيما اسباغ ، ولا يزال يتيان بالقول ويتياسر ، ويضرب فى محازات الكلام جيئة وذهوبا ، ولا يبرح يفصل المعانى تفصيلا ، ويلون الحجج تطوينا ، حتى اذا ظن أنه أوفى من ذلك على الغاية ووقع بقارئه على الصميم ، راح يورد الشاهد فى اثر الشاهد ، جاهدا فى شحذ فطنتك وارهاف ذوقك ، ليتهيأ له أن يتدسس بك الى أطواء الكلام ، فتجس ما أخفت من الدقائق حسا وتستشعر ما أضمرت من المحاسن ذوقا محسا ، وكل أولئك يصنعه فى عبارة حزلة فخمة ، ويجلوه فى ربيعة مشرقة اللفظ متلاحمة النسج . . . "

ويرى البشرى أن فضل عبد القاهر على البحث البلاغى لا يظهر الا اذا وازنا بين منهجه ومنهج المتأخرين فى كتبهم البلاغية . ويروح البشرى يصف هذه الكتب أو بالأحرى يهاجمها ، وينعتها " بأن عبارتها معقدة ، وملاك البحث فيها انما هو الجدل اللفظى والاعتساف فى بحوث فلسفية لاغناء لها فى صنعة بيان . بل أن من يريد أن يتخلص من فصاحة اللسان فليس عليه أكثر من أن يدرس هذه الكتب حق درسها ، ويدبر النظر فيها ، ويقلب فى عبارتها لسانه وفكره " .

ويسأل البشرى بعد ذلك : أليس لهذه الكتب من فائدة ؟ ويجب على تساؤلهم فيقول : نعم لها فوائد كثيرة منها : أنها تفسح فى الطككات المأمة ، وتطبع الطالب على الصبر فى البحث والتحقيق ، وتموده الا يسيخ قضية من القضايا الا بعد أن يحركها بألوان الاختبار والامتحان . ثم يقول : ليكن لها هذا ، وليكن لها غير هذا أيضا ، ولكنها لا يمكن أن تلقن علوم البلاغة على أى حال فضلا عن أن تذيق الطالب البلاغة نفسها ، أو تريحه ريحها ، اللهم الا أن تكون بلاغة من طراز :

دع كوم زمران^{كي} تنجو من الملل وتستريح أخى من كثرة الزلل . وهذا - بالطبع - حكم عام من البشرى لأن هناك من الكتب ما يمين على تذوق البلاغة مثل " المثل السائر " و " الطراز " ولكنها للأسف لم توضع موضع الدرس فى معهد من معاهد التعليم .

البلاغة بين العلم والفن :

وتحدث البشرى عن البلاغة بين العلم والفن " فالفن ابن الطبع والخيالة والملكة ، وإنما يدعوا الى انشاء ومعالجته الحاجة تبعثها ضرورة أو تبعث اليها مجرد الرغبة فى الترفيه والتلذذ . أما العلم فمهمته بعد ذلك الملاحظة والتقييد والتسجيل .

فالبلاغة باعتبارها فنا هى أثر الملكة ومظهر قدرتها من نظم شعر رائع أو ارسال نثر بديع . أما البلاغة باعتبارها علما فهى عبارة ماخرج بالاستقراء للاحساس والأذواق من دواعى الحسن والقبح فى فنون الكلام . فالمعالم بالفن غير الفتن ، وطالب كوم زمران لنا أن نعتبره عالما وليس فنانا .

ومما لا شك فيه أن أظهر ما يظهر فى التطور بالاتساع هو الفن الجميل ، وذلك لأن مرده فى النهاية الى الأذواق ، والأذواق شديدة التأثير بالكثير من أسباب الحياة ، ومن أهمها حظ الجماعات من الحضارة والثقيف . وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لهذه الفنون ، فإن البلاغة العربية باعتبارها فنا أولا ، وباعتبارها فنا جميلا ثانيا مما يجوز عليه التخيير والتلوين ، ومما يتقبل النمو بحكم اطوار التقدم فى أسباب الحضارة واتساع الأفهام ورهافة الأذواق باتساع ، آفاق العلوم والفنون .

أثر تقدم الحضارة فى البلاغة :

ومن رأى البشرى أنه بسبب تقدم الحضارة واتساع آفاق العلوم قد فطن النقدة ومتذوقو الأدب الى ألوان من البلاغة فى مأثور العربية

لم يحتفل لها متقدمون نقد الكلام أى احتفال . ومن أظهر ما أغفلوا الحد يث عنه بلاغة الصورة ، وبلاغة القصص وما يتضمن من بارع الجدل ورائع الحوار .

ومرة أخرى أعجب من الاستاذ البشرى كيف لم يدرك أن بلاغة الصورة قد تناولها عبد القاهر ولو فى بعض الأحيان - نظريا وتطبيقيا . أما نظريا فقد قال - مثلا - فى دلائل الاعجاز أثناء حديثه عن مزايا النظام بحسب المعانى والاعراض .

قال : " وانما سبيل هذه المعانى سبيل الأصباغ التى تعمل منها الصورة والنقوش فكما أنك ترى الرجل قد تهدى فى الأصباغ التى عمل منها الصورة والنقش فى ثوبه الذى نسج الى ضرب من التخير والتدبر فى أنفاس الأصباغ وفى مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبها اياها الى ما لم يتهد اليه صاحبه ، فها نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب ، كذلك حال الشاعر والشاعر ويقول بعد ذلك ، واعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية فى نظمه الحسن كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وينظم بعضها الى بعض حتى تكبر فى العين ، فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه ، ولا تقضى له بالحدق والأستاذية وسعة الذرع ، وشدة المنة ، حتى تستوفى القطعة وتأتى على عدة أبيات وذلك ما كان من الشعر فى طبقة ما أنشدت من أبيات البحتري " (١)

وأما عمليا فأننا نجد ذلك فى بعض تطبيقات عبد القاهر على نظرية النظام من ذلك - مثلا - قوله : وهل تشك اذا فكرت فى قوله تعالى : " وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء اقلعى وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجوى وقيل بعدا للقوم الظالمين " فتجلى لك منها الاعجاز ، وبهرك الذى ترى وتسمع ، أنك لم تجد ما وجدت من المزية

الظاهرة ، والفضيلة الباهرة ، الا لأمر يرجع الى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأنه لم يمرض لها الحسن والشرف الا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة ؟ وهكذا ، الى أن تستقرىها الى آخرها ، وأن الفضل تنائج ما بينها ، وحصل من مجموعها " (١)

وفى هذا يقول د . نايل : ان عبد القاهر قد " تناول القصيدة كوحدة وتناولها صورة وحملة فأبان عن ترابط أجزائها وترتيب عناصرها وتلاؤم معانيها كما نفعل نحن الآن تماما فى تحليل النص وبيان ترابطه فى وحدة عضوية " (٢)

وأقول : ان أستاذى الدكتور نايل قد غالى بمضى الشئ فى قوله هذا فان عبد القاهر لم يتناول القصيدة - كوحدة ، وان تناولها - أحيانا - صورة وحملة ، ولكن ليس كما فعل نحن الآن تماما فى تحليل النص ، حيث ظهرت فى الدراسات الأدبية الحديثة (الوحدة العضوية) (٣) ومالها من خصائص ومواصفات ، وحيث أصبحت الصورة الأدبية فصلا يدرس وموضوعا له أهمية .

وأيا فان عبد القاهر لم يشر الى الصورة الا اشارات خفيفة عابرة فى ثنايا حديثه عن تحقيق القوس فى الفصاحة والبلاغة وعن مزايا النظم بحسب المعانى والأغراض وهو ذلك ، ولم يفرد لها بابا ، ولا فصلا ، ولا حتى موضوعا خاصا يدور الحديث حوله ويرتكز عليه . ولا ننبى للإمام عبد القاهر فى ذلك ، فعصره غير عصرنا ومن الظلم له أن نطلب منه فى عصره ما جدد فى عصرنا ويكفى أن عبد القاهر أشار فى بعض حديثه الى الصورة وتناولها فى بعض المواقف .

(١) المرجع السابق ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) نثرية العلاقات ص ٤٨ .

(٣) المقصود بالوحدة العضوية : وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسى .

انظر الأضواء فى اللغة العربية ص ٢٠٩ .

وكان يجب أن يكون هذا حافزا لمن بعده أن يتلقفوا تلك الاشارات المابرة واللمحات الخاطفة ويستفيدوا بها في تنمية الصورة وبعثها في أدبنا وبلاغتنا . ولكأنى بلسان حال عبد القاهر يقول لنا :
 " فلا تلومونى ولوموا أنفسكم " .

أما بلاغة القصص وما يتضمن من بارع الجدل ورائع الحوار ، فان كان القدماء قد أغفلوا الحديث عنها - كما يقول البشرى - فان ذلك لا يمنع من أن القصة كانت موجودة وأن أدبنا العربى حافل بكثير من القصص شمرا ونشرا ، والذين يقولون بأن القصة أدب جديد وافسد ومستحدث اما جاهلون لم يطلعوا على أدبنا القديم ، واما مفرضون والحقيقة أن الجديد فى القصة هو ما وضع لها من أصول وقواعد مثل : المقدمة والصرخ والأحداث والعقدة والحل والنهاية أو الختام . أما القصة نفسها فهى موجودة ولها جذور فى أدبنا العربى القديم وهى قصص فى غاية الروعة والبلاغة والابداع . ولن أقول أن المقامات من الفن القصصى ، فهى بحسب ماورد من أصول وقواعد جديدة للقصة ليست الا حكايات فهى خالية من الأحداث غالبا وليس فيها عقدة ولا حل . ولكنى أذهب الى أبعد من ذلك الى العصر الجاهلى وصدر الاسلام ،

فبالنسبة للعصر الجاهلى نجد الشعر أغلب من النثر ولذلك أطلق عليه بعضهم (عصر الشعر) وبعض قصائد الشعر الجاهلى والاسلامى عبارة عن قصة لها بداية ونهاية وفيها الأحداث والصرف والحوار بل العقدة والحل أحيانا . ولكن اسم (القصة) لم يكن وقتها مألوفا أو شائعا وان كان موجودا فى اللغة ، ولكنه لم يطلق أو لم يؤلف إطلاقه على قصيدة مهما كانت تحمل من معالم القصة . فمثلا نجد للحطيئة قصيدة صغيرة لم يكن لها عنوان فى عصرها ولكن لما أراد بعض المؤلفين حديثا أن يضعوها ضمن النصوص التى تدرس فى

المدارس وضعوا لها عنوانا هو: (قصة كرم) للحطيثة^(١) فما الذى دعاهم الى ذلك ؟ ان نظرة فاحصة لهذه القصيدة تجد فيها كل مقومات القصة الحديثة من بداية ونهاية وعرض وحدث وحوار وعقدة وحل فى أسلوب بارع بليغ ولأن القصة من الأساليب والفنون الحديثة التى ينادى كثير من المجددين بآداب خالها ضمن الدرس البلاغى فانى أعرض لك هذه القصيدة على سبيل المثال مطبقا عليها مقومات القصة الحديثة . يقول الحطيثة :

- ١ - وطأوى ثلاث عاصب البطن مرسل .. ببيدا^١ لم يصرف بها ساكن رسما
 - ٢ - أخى جفوة فيه من الانس وحشة .. يرى البؤس فيها من شراسته نعما
 - ٣ - وأفرد فى شعب عجوزا ازا^٢ها .. ثلاثة أشباح تخالهم بهما
 - ٤ - حفاة عراة ما اغتذوا خبز طمة .. ولا عرفوا للبرمذ خلقوا طعما
-
- ٥ - رأى شبحا وسط الظلام فراعه .. فلما رأى ضيفا تشمر واحتما
 - ٦ - فقال هيا رياه ضيف ولا قسرى .. بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحم
 - ٧ - فقال ابنه لما رآه بحيرة .. أيا أبت اذبحنى ويسر له طعما
 - ٨ - ولا تعتذر بالعدم على الذى طارا .. يظن لنا مالا فيوسمنا ذما
 - ٩ - فروى قليلا ثم أحجم برهة .. وان هولم يذبح فتاه فقد هما

-
- ١٠ - وبيناهما عنت على البعد عانة .. قد انتظمت من خلف سحلهما نظما
 - ١١ - عطاشا تريد الماء فانساب نحوها .. على أنه منها الى دمه أظما
 - ١٢ - فأمهلهما حتى تروت عطاشهما .. فأرسل فيها من كنانته سهما
 - ١٣ - فخرت نحو من ذات جحر سمينه .. قد اكتنزت لحما وقد طبقت شهما
 - ١٤ - فيا بشره ان جرهما نحو قومه .. ويا بشرهم لما رأوا كلمها يد من

-
- ١٥ - وباتوا كراما قد قضوا حق هيفهم .. وما غرموا غرما وقد غنموا غنما
 - ١٦ - وسات أبوهم من بشاشته أبا .. لضيفهم والأُم من بشرها أما

(١) انظر كتاب الأدب والنصوص للمصنف الأول الثانوى .

لن أحدثك فى هذه القصيدة عن بلاغة الأسلوب وروعة الصور الجزئية
وخلابة الصورة الكلية ، ولا عن روعة البديع من جناس ومقابلة ومراعاة
نظير ، ولا عن جمال الحذف وسحر الإيجاز ولا عن الموسيقى الداخلية
والخارجية التى تستولى على النفوس وتأخذ بمجامع القلوب والعقول ،
بل لن أحدثك عن بارع الحوار ولا عن الناحية الانسانية والمواقف
النبيلة ، لن أتحدث عن شئ* من كل أولئك الذى ورد فى هذه
القصيدة الصغيرة . فقط سأشير فى عجلة الى مقومات القصيدة
الحدیثة مطبقة على هذه الأبيات : ففى الأبيات ١ - ٤ نجد بداية
القصة ونجد العرض أى عرض أشخاص القصة بدءا بالبطل وتثنية
بأفراد أسرته وبيان حالته وحالتهم .

وفى الأبيات ٥ - ٩ نجد الحدث والحوار والمقدمة فى سبك وصياغة
تكاد تصل الى حدود الإعجاز كما قال البشرى .
وفى الأبيات ١٠ - ١٤ نجد الحل وما أعقبه من بشر وسعادة .
وفى البيتين الأخيرين نجد الختام المحيى الذى يترك أثرا فى
النفس لا يمحي بسهولة .

هذا من ناحية الشعر . أما من ناحية النثر فإن هناك قصصا
زخرت بها مجالس الخلفاء ، وسوامر الأمراء ، وملأت الكتب التى
انحدرت اليها عن المؤلفين القدماء ، وما منع الناس أن يسردوا
شريعتهم ، أو يحذروا أطايبها الا ما منيت به هذه الكتب من اضطراب
الترتيب ، وردى الطبع وتحريف الناسخين .^(١) أما قصص القرآن
فهو أعرف من أن أعرف به وأشهر من أن أتكلم فيه .
ولئن كان لى فى ذلك حديث فهو حديث يتصل بالبلاغة والإعجاز ،
ذلك هو بيان الفرق بين القصة القرآنية والقصة المؤلفة وهو فرق
جوهرى ان الثانية افتعال أمور وأحداث يسكبها الخيال حتى ولو
كانت من الواقع ، بينما الأولى عرض من واقع الحياة التى لا ريب فيها .

(١) قصص العرب ج ١ ص ٤ . وهو كتاب من أربعة أجزاء جمع فيه مؤلفوه كثيرا
من شوارد ومتفرقات قصص العرب/ دار أحياء التراث العربى بيروت عام ١٣٨١ هـ ط ٤

القصة المؤلفة تخضع لمعاطفة صاحبها وفهمه للأشخاص وأدراكه للأشياء وحكمه على القضايا ولذلك فهي أسلوب للتوجيه متأثر بألوان الرغبات. فالبنون شاسع بين شطحات الخيال فى القصص الحر ، وبين الحق الثابت المستقر فى قصص القرآن .^(١)

بلاغتنا قاصرة فما الوسيلة :

ونعود الى البشرى حيث نراه يجد أن هناك قصورا فى علوم البلاغة فى العصر الحاضر ذلك لأن سلفنا وجهوا كل عنايتهم الى النقد الجزئى ، أى نقد الكلمة أو نقد الجملة فى العبارة ، فإذا كان الكلام نظاما جرى النقد للبيت مستقلا وأحيانا للبيت من حيث اتصاله بما قبله أو بما بعده ، أى النقد (بالقطايع) على حدد تعبير التجار .

أما نقد الكلام مجتمع الشمل وتناوله من حيث استواء الصورة واتصال المعانى واتساق الأقطار وتلاحم الأجزاء فذلك ما لم يكن من نقده حظ حليل .

ويرى البشرى أن الوسيلة لتلافى هذا القصور هو تبيين البلاغة وتمارينها حتى تصبح أشبه بالأسلوب النقدي القائم على التفصيل والتذويق بحيث تطور مع تطور الأفهام والأذواق ، وعلى أن يوصل تعليمها فى المدارس والمعاهد بدراس الأدب نفسه فالواقع أنه ما نضجت موهبة شاعر ولا كاتب قط بدراس علوم البلاغة ، ولكن بطول ترديد النظر وتقليب الذهن فى المأثور من روائع الأدب فإذا انفسحت مع هذا ملكة الكاتب أو الشاعر ، ورهفت فطنته بترسم مذاهب النقد الفنى فقد تمت نعمة الله عليه .

(١) اعجاز القرآن البيانى . للدكتور حنفى شرف ص ٢٩٢ بتصرف .

ثم ختم البشرى محاضراته بقوله : " وبعد فاذا أبينا الا حرص على بقاء هذه المعلوم على تلك الصورة التي دفعها اليها السابقون فلا شك في أن لها في دار الآثار العربية المكان الفسيح " .

وهكذا نحد البشرى من الداعين الى تجديد البلاغة ، وتحدد لها في رأيه هو : تبيين البلاغة وتطويعها لتشمل النص حطمة وتتناوله مجتمع الشمل وأن تصبح أشبه بالأسلوب النقدي القائم على التفطين والتذويق ، وأن يوصل درسها وتعليمها في المدارس والمعاهد بدرس الأدب نفسه .

وهذه الأسس التي ذكرها البشرى لتجديد البلاغة ذكرها الخولي في بحثيه السابقين ، وأضاف زيادة عليها استخدام علم النفس الأدبي في التحليل البلاغي ، ووضع مقدمة نفسية تحل محل الدلالات والجامع وغيرها ، وأدخل دراسة الأسلوب وعناصره وأنواعه .

البلاغة العربية بين التطور والجمود

كان هذا عنوان الندوة العلمية التي عقدت فى البرنامج الثانى باذاعة القاهرة^(١) بين الدكاترة : محمد غنيمى هلال ، بدوى طبانة احمد بدوى . وقد نشر هذه الندوة الدكتور احمد بدوى فى كتابه : من النقد والأدب .^(٢) وقال انه فصل فى الكتاب ما أجمله فى الندوة .

تحدث د . بدوى أول ما تحدث عن نشأة البلاغة وكيف أن رجال الدين أسهموا فى نشأتها خاصة المتكلمين والأصوليين ، وأن الشعراء المحدثين الذين ظهروا فى أوائل العصر العباسى قد خيل الى كثير منهم أن الأوائل استنفدوا الممانى وأنه لا سبيل الى ابتكار فيها ، ورأوا أن سبيلهم الى التجديد إنما يكون فى الصياغة ، فمضوا يفتشون فى الشعر عن مظاهر الجمال التى كانت تأتى عند الشعراء السابقين من غير قصد ومن غير أن يصرفوا لها اسما من استعارة أو جناس أو طباق أو رد عجز على صدر ، ثم أخذوا يقصدون الى هذه الألوان قصدا فى أشعارهم ، واتخذوها مذهباً جديداً فى الشعر ، وعلى رأس هؤلاء بشار ومسلم وأبو تمام . ثم جاء ابن المعتز فصنف هذه الألوان والتصرب لها أمثلة فى الشعر القديم . وعلى رأس طوائف الأدباء - كذلك - الكتاب الذين كانوا يتنافسون فى الأخذ بألوان الجمال فى القول .

وانتقل د . بدوى بعد ذلك الى الحديث عن صلة البلاغة بالنقد وأنها معيار من معايير النقد الأدبى ، وذلك لأن النقد يتناول النص من جميع نواحيه ، من ناحية لفظه ، ومن ناحية معناه ،

(١) أذيعت فى الساعة التاسعة من مساء الاحد ٢٤ يناير سنة ١٩٦٠

(٢) ٢ ص ١١٠ - ١١٢ .

ومن ناحية تالأوم اللفظ مع المعنى ، ومن ناحية صلة النص بقاؤه
وبنيته وزمنه ، ومن ناحية تكون النص وترتيب أفكاره ، ومن ناحية
ما فى النص من عاطفة وخيال ، وملاءمة النص للزمان والمكان ، وما
ينبغى أن يتبع فى كل غرض من أغراض القول .

والبلاغة تتكفل بدراسة بعض النواحي التى يريد النقد الأدبى
أن يدرسها ، لأن البلاغة تعنى بدراسة المفردات من ناحية فصاحتها ،
وبدراسة الجملة من حيث قوتها وحملها فى علمى المعانى والبيان ،
وبدراسة بعض ألوان الخيال المفسر الشارح للفكرة فى علم البيان . .
ويذهب د . بدوى يتحدث عن علم المعانى وعلم البديع وعلم
البيان بما لا حد يد فيه ثم يقول :

ولا يضير علوم البلاغة أن تقف عند هذه الحدود (يقصد
حدود الجملة والجمتين) فذلك ميدانها ، وهو ميدان شاسع
الأرجاء ، لأنها تقف فى النص الأدبى عند كلماته تتبين سر اختيارها
وعند جملة تبين سر تركيبها ، وليس ذلك بالعمل الهين .

اتجاهات ثلاثة فى دراسة البلاغة :

- وانتقل د . بدوى الى الحديث عن دراسة البلاغة واتجاهاتها ،
فقال : ان لها ثلاثة اتجاهات :
- ١ - الاتجاه الأدبى : وهو الذى يعنى بمعرض الأمثلة وتذوقها ،
ولا يعنى كثيرا بالحدود والتعريفات .
 - ٢ - الاتجاه الفلسفى : وهو الذى يعنى بالتعريفات ، واخراج
المحترزات ومناقشة التعاريف حتى تصبح منطقية خالصة .
 - ٣ - والاتجاه الثالث هو الذى يجمع بين الأمرين ، فيعنى
بالتعريفات والأمثلة معا . وربما كان ذلك هو الاتجاه المصرى .

ومن الواضح أن د . بدوى متأثر فيما كتبه عن اتجاهات
الدراسة البلاغية بما كتبه الشيخ أمين الخولى من قبل فى أبحاثه
البلاغية التى عرضناها آنفا .

هل أدت البلاغة رسالتها :

يقول د . بدوى اذا كانت رسالة البلاغة تبصير الكتاب والشعراء
وهذا يهتم الى الرفيع من التعبير ، فانى أعترف أن الاهتداء الى
فن من فنون البلاغة وهو علم البديع كان له أثر كبير جدا فى الشعر
والنثر . فان طائفة كثيرة قد استخدموا ألوان البديع فى شعرهم
بحذق ومهارة دون تكلف أو تعنت ، فجاء شعرهم غاية فى الجمال
والابداع .

أما هؤلاء الذين أكثروا من البديع فى شعرهم بدون داع فقد عاد
على شعرهم بالتكلف والارهاق واستفلق الممضى عندهم فى كثير
من الأحيان كأبى تمام ، وعلماء البديع قد بحوا أصواتهم معلنين
أن جمال البديع لا يكون طبعيا الا اذا كان قليلا ولم يكن متكلفا .

أما اذا كانت رسالة البلاغة البحث عن أسرار الجمال فى المفرد
والجملة والخطتين فيمكن القول بأنها وصلت فى ذلك الى مدى بعيد
وان كان الأمر لا يزال محتاجا الى جهود وجهود للكشف عن باقى
أسرار الجمال فى الأمور التى يحسن القارئ بحالها ثم لا يجد
البلاغيين قد اهتموا اليها . وعلوم البلاغة ترحب بهذه المكشوفات
وتدعو للبحث وراء الأسرار المجهولة . وعلماء البلاغة أنفسهم
يشعمرون بأن أسرار الجمال لم يكشف عن كلها ، ولهذا قالوا : أن
علوم البلاغة لم تنفج ولم تحترق ، وقرروا أنه فى كثير من الأحيان
يجد القارئ لذة فى ^{النص} ثم لا يستطيع أن يذكر سببا لهذا الاحساس مما
يدل على أن علماء البلاغة يدعون الى ادامة البحث وراء أسرار الجمال
لأنهم لم يقولوا الكلمة النهائية فى كل مسائل البلاغة .

وان كان معنى رسالة البلاغة أنها كانت أداة فى أيدي النقاد يزنون بها النصوص الأدبية ، فقد أدت البلاغة رسالتها فى العصر الأولى الى مدى بعيد ، وما تركه الأقدمون من كتب شاهد على ذلك ، فانهم قد اتخذوا ما وصلوا اليه من قواعد وسيلة لقياس النصوص الأدبية وبيان جمالها وروايتها ، وكان للمقاييس البلاغية شأنها فى تلك الأزمان . . أما فى عصرنا الحاضر فلا ينكر الدكتور بدوى أن المقاييس البلاغية قليلة الاستعمال فى أيدي النقاد . قد يكون ذلك لأن كثيرا من الأدب فى عصرنا الحاضر يتجه الى الافهام والاعتماد على التأثير من ناحية معناه أكثر من اعتمادة على التأثير من ناحية لفظه وأسلوبه وعبارته .

ثم تسأل : هل الفنون التى شاعت فى وقتنا الحاضر كالقصة والرواية تتنافى مع الأسلوب البلاغى الذى يراد به التأثير فى نفس القارئ بعبارته ومعناه مما ؟ وأجاب : بأن الفنون لا تتنافى مطلقا مع الأسلوب البلاغى ، ولكنها السرعة التى تحول دون التريث والانتاج الفنى ذى الأسلوب البلاغى .

ولا ننسى ونحن فى هذا المقام أن السرعة التى تحدث عنها د . بدوى هى احدى البلايا الثلاث التى ذكرها الأستاذ الزيات فى كتابه " دفاع عن البلاغة " بل هى أولها وهذه البلايا الثلاث هى : السرعة - الصحافة - التطفل . وهى أسباب التكرار للبلاغة فى العصر الحديث .

واجبنا نحو البلاغة : يرى د . بدوى أن هناك أربعة واجبات نحو البلاغة هى :

- ١ - واجبنا نحو تدريس البلاغة .
- ٢ - واجبنا نحو التأليف فى البلاغة .
- ٣ - واجبنا نحو البلاغة نفسها .
- ٤ - واجبنا نحو تطبيق مسائل البلاغة فى النقد الأدبى .

(١) أما واجبنا نحو تدريس البلاغة ؛ فهو وصل البلاغة بالحياة وذلك يكون بالتدرج فى ثلاث خطوات :

أ - أن نطمس فى لغتنا الدارجة عبارات تصلح بمقد جعلها مصرية أن تكون أمثلة لمسائل البلاغة ، فإذا عرض على الطلبة هذه الأساليب كان من السهل عليهم أن يتذوقوا جمالها .

ومثل هذا رأى قاله الدكتور حنفى شرف فى كتابه (التصوير البيانى) فهو يقول : " أن فى كلامنا المادى ألوانا بارعة بضروب التصوير البيانى وبغيرها من ألوان الخيال . فمثلا نحن نكنى عن شدة الزحام - ترش الملح ما يزلش - يمكن تحويل الفعل الأخير الى فعل صحيح وتصير الكناية غاية فى الروعة والجمال .

وكقولك لمن لم يفصل ما ترجموه منه - قصرت رقبتنا - ... وفى الجملة معظم أمثالنا الشعبية تتحقق فيها تلك المزية " . (١)

ب - أن ننقل من ذلك الى أدبنا الحديث شعره ونثره لنبين فيه أمثلة للجمال البلاغى يستطيع الطالب أن يدرك أسرارها .

ج - ننقل بمقد ذلك الى رائع الأمثلة المتخيرة من الأدب القديم . ولا شك أنه بهذه الخطوات ينتقل الطالب للبلاغة انتقالا طبيعيا ويحس أن مسائل البلاغة ليست بعيدة عن حياته ، وأنها قريبة منه فى الحياة ، وبين يديه فى أدبه الحديث وموصولة بترائه القديم .

(٢) وأما واجبنا نحو التأليف فى البلاغة ؛ فهو ألا نقف فى التأليف البلاغى عند ذكر التعاريف والأمثلة بل لابد من الوقوف عند القاعدة والمثال لنبين أسرار الجمال وصلته ذلك بالنفس الانسانية . كما يجب فى التأليف البلاغى للناشئين أن يتبع خطوات تدريسها ... ويحق أن نترك الأمثلة التقليدية التى لا تصلح للمصر الحاضر من مثل حبان

(١) انظر التصوير البيانى ص ٥٢٧ وما بعدها .

الكلب وكثير الرماد ومهزول الفصيل ، كما يجب أن نبتعد عن المنهج القديم فى التأليف البلاغى كمنهج التلخيص وشروحه ، وعن اللفاز وخط مسائل البلاغة بالفلسفة .

(٣) أما واجبنا نحو البلاغة نفسها : فهو ألا نقف فى دراسة المفرد والجملة عند الحدود التى رسمها الأقدمون بل نبحث عن ألوان جديدة للجمال فى المفرد والجملة ، وقد فتح البلاغيون باب الاجتهاد فى البلاغة على مصراعيه ، وأن نمود الى بعض قواعد البلاغة لمعرفة مدى صحتها ووزن هذه القواعد بالمقاييس النفسية الانسانية وفى باب التشبيه مثلاً مجال واسع للتهذيب . كما أن مسائل علم البديع يجب أن تتحرر ليحذف المتكلف من بين مسائله ومالا قيمة له فى تحميل النص .

(٤) أما فى تطبيق مسائل البلاغة على النصوص الأدبية كمقياس من مقاييس النقد الأدبى فيجب أن يعرض هذا التطبيق فى ثوب عصري مستفيد من دراسة الذوق والفن والجمال ، معتمد على الدراسة النفسية ، مؤثر للشرح والتوضيح .

هذا الجزء الأخير من الندوة هو - فى رأى - أهم ماورد فيها ، فالواحيات الأربع التى ذكرها الدكتور بدوى أشبه بمنهج صغير جديد للبلاغة ، وهذا المنهج وأن كان مجعلاً ويحتاج الى كثير من التفصيل الا أنه جدير بالبحث والنظر . ويمكن أن يضم الى منهج الشايب ومنهج الخولى وسنتحدث عنهما فى الباب الثالث - عند النظر فى وضع منهج جديد للبلاغة .

المسوغات العقلية للبلاغة

وهذا بحث آخر نشر في مجلة المحتص الملقى المربى بد مشق
وكتبه الأستاذ أنيس المقدسى عضو المجمع . وهو بحث قيم ، فيه
محاولة محسنة لضبط أنواع البديع ومباحث البيان تحت ضوابط
عامة ومن ضوابطه مثلاً : " العقل يجذب عادة الى غير الممتد " .
فيتخذ هذه الخاصة وسيلة الى معرفة سر الحسن فى الالتفات ،
والقصر ، والتقديم ، والاستفهام . كما بين فى هذا البحث خصائص
البلاغة فى الوضوح وحلأ المعنى ، ونسب الايقاع وحسن التناسب
أجزاء الحطة وفى الاشارة الى المقدرة على انكاس المواطف وتحريك
القوى التخيلية والفكرية ، ثم الايمان أو الإيحاء الى معان وراء المعانى
القريبة .

وأهم ما يعنىنا فى هذا البحث هو ما اقترحه من أبواب
جديدة فنسج تحتها الفصول البلاغية . وقد بوبها تبويبا منطقيا
وهو شئ لم يفعله القدماء . كما يقول . وهذه الأبواب هى :-

- ١ - باب التماثل .
- ٢ - باب التواطؤ اللفظى .
- ٣ - باب التواطؤ المعنوى .
- ٤ - باب المفايرة .
- ٥ - باب الخروج عن الممتد .
- ٦ - باب الايمان الى غرض .

أولا : (باب التماثل) .

ويراد به تماثل الفقرات فى الجمل وزنا وتركيبا . وقد يسمى :

الازدواج وهو نوعان : عاطل ومقفى .

ويدخل تحت الماطل :

(١) التوازن : وهو أن يكون الكلام ذا فواصل متساوية الوزن .
كآلية الكريمة : " وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط
المستقيم "

(٢) السائلة : وهى أن تكون جميع الألفاظ فى الفقرات متساوية
الوزن . نحو سهل خلاثقه ، صعب عرائكه حم غرائبه ، فى الحكم
والحكم .

أما المقفى فيدخل فيه ما يلى :

(١) السجع : وهو معروف ، ويقوم على تقفية الفواصل .
(٢) التسميط : وهو أن يكون الكلام أربعة أجزاء ثلاثة منها على
سجع والرابع مختلف . كهذا البيت .

هم القوم ، ان قالوا أصابوا ، وان دعوا
أحلبوا ، وان أعطوا أطابوا ، وأجزلوا

(٣) الترميع : أى مقابلة كل لفظة فى العبارة بمثلهما فى الثانية
وزنا ورويا . نحو ، يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقعر
الأسماع بزواجر وعظمه .

(٤) التزاوج : أى ازدواج الفواصل المسجعة . نحو :
فانى مؤمل غمام غير همام ، ومعمل همام غير كهمام .

ثانيا : (باب التواطؤ اللفظى)

وهو أن تكون الألفاظ على حرس واحد ، أو من أحرف متشابهة ،
سواء اختلفت فى المعنى أم لم تختلف . وتقوم بلاغتها على تنبيه الذهن
الى المعنى بممارسة اللفظيين المتجانسين وعلى ما فيهما من حلاوة
موسيقية ناشئة عن تحانس الحروف وتألفها . ويدخل فى هذا الباب :

- (١) الجنس : وهو أنواع كثيرة منها : التام والمركب والمطلق والمزيل والمصحف والمقلوب والمحرف واللاحق والمطرف والمتعم وغيرها . هذا ونرى أن المقدسى أكثر من أنواع الجنس مع أن المحدثين قصرُوا أنواع الجنس على نوعين فقط : تام وناقص واكتفوا بهما .
- (٢) التورية : نحو قول الشاعر :
قالت وهبت لك السواك فقلت لا ولما كمالى حاجة بسواك
- (٣) التصوير : أورد المجز على الصدر . نحو :
فأجبتها إن المنية منهل لا بد أن أسقى بكأس المنهل
- (٤) المكس : نحو :
فلولا دموعى كتمت الهوى ولولا الهوى لم يكن لى دموع
- (٥) الجمع مع التفريق : أى الجمع بين شيئين فى حكم واحد ثم التفريق بينهما فى ذلك الحكم . نحو :
تشابه دمعا غداة فراقنا مشابهة فى قصة دون قصة
فوجنتها تكسو المدام حمرة ودمعى يكسو حمرة اللون وجنتى
- (٦) المجاورة : تردد لفظين ووقع كل منهما بجانب الآخر أو بقربه . نحو : انما يغفر العظيم العظيم .
- (٧) الطى والنشر : كقوله
..... فلذا تروى وتردى ذا صدى .. وحديثا عن فتاة الحى حى
ويحوز أن يلحق بهذا الباب لزوم مالا يلزم وما الى ذلك من أنواع
التحانس اللفظى . ونلاحظ أنه ذكر التورية والجمع مع التفريق والطى
والنشر فى باب التواطؤ اللفظى مع أنهم من المحسنات المعنوية ،
كما أن هذا البيت الذى ذكره ليس واضحا فيه وجه الطى والنشر .

ثالثا : (باب التواطؤ الممنوى)

ويتناول ما كان فيه مشابهة بين شيئين . ومن ذلك :

(١) التشبيه والتشيل والاستمارة . وهى معروفة لا تحتاج الى شرح بل عليها يقوم علم البيان .

(٢) مراعاة النظير . كقوله تعالى : " والشمس والقمر بحسبان "

(٣) تجاهل المعارف . كقول الشاعر :

سلاطية الوادى وما الطبقى مثلها وان كان مصقول الترائب أكحلا
أأنت أمرت الصبح أن يمدع الدجى وطمت غصن البان أن يتميلا

رابعا : (باب المغايرة)

وهى عكس المشابهة ، ويراد بها الجمع بين المتضادات وأشباهاها ويدخل فيه :

(١) المقابلة : بين ما يوافق وما يخالف . كقولهم :

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا . . وأقبح الكفر والافلاس بالرجل

(٢) المطابقة . أى الجمع بين لفظين متضادين . كقول البحرى :

ان أيامه من البيض بيض مارأين المفارق السود سودا

(٣) الطرد والعكس : كقوله

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

(٤) التبهكس . وهو ما كان ظاهره حدا وباطنه هزلا .

(٥) الاستفهام البيانى . نحو : أمصلحة الفرد أفضل من مصلحة

الجمهور ؟

(٦) التغاير : أى مدح ما هو مذموم ، وذم ما هو مدوح ، لفرض

كقول ابن الفارض :

يهوى لذكر اسمه من لى فى عذلى سمعى وان كان عذلى فيه لم يلج

وهذا البيت أيضا غير واضح المراد .

(٧) السلب والایجاب : وهو أن تبني الكلام على نفی شیء وثباته من جهة أخرى . كقولهم :

لا تمنع من المخطئ كيف أخطأ . بل اعجب من المصيب كيف أصاب .

خامسا (باب الخروج عن المعتاد) وهو يشمل ما يلي :-

(١) المجاز المرسل : أي تجسيم المجردات أو تفصيل ما لا يفعل مثل :

صررت على المروءة وهي تبكي فبكاء المروءة أمر غير عادي .

ونحب أن نقول هنا : ان هذا المثال عن المروءة الذي أورده المقدس

ليس من قبيل المجاز المرسل وانما هو استعارة مكنية أو مجاز عقلي .

(٢) التجريد : أن يخاطب الانسان نفسه كأنها شيء مستقل عنه

كقول المتنبي : كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن

أمانيا .

(٣) الالتفات : أو الانتقال المفاجئ من صورة الى صورة ، أو من

ضمير الى ضمير . نحو : قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند

كل مسجد . وهو كثير في القرآن .

(٤) تقديم ما حقه التأخير وبالعكس . نحو : وربك فكبر ، عظيمة

هي أعمالك يارب .

(٥) الفلو والمبالغة ، نحو :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

ويدخل في هذا الباب كثير من غرائب النعمة البدعية كقصيدة

الحريزي التي مطلعها :

يا خاطب الدنيا الدنيئة انهما شرك اليردى وقرارة الاكدار

دار متى ما أضحك في يومها أبكت هذا تبالها من دار

فهى من بحر الكامل ولكنك تستطيع أن تسقط منها الجزئيين
الأخيرين من كل بيت فيصبح من مجزوء الكامل وتتحول قافيتها
الى حرف الدال . فتقول :

يا خاطب الدنيا الدنية انها شرك الردى
دار متى ما أضحكك فى يومها أبكت غدا

سادسا (باب الایاء الى غرض) وما يدخل فيه :

- (١) الكناية والتعريض . وهى معروفة لا تحتاج الى تبيان .
- (٢) التوجيه : وهو أن يكون للكلام معنيان مختلفان يجوز اعتبار
أحدهما . كقول المتنبي :

ومالك تعنى بالأسنة والقنا وحده طعان بخير سنان
فقد يحمل على أن حسن طالعك يفعل مالا تفعله الأسنة وهو مدح ،
أو أنك رجل محفوظ لست من أهل السجاعة والاقدام وهو ذم .

(٣) الاكتفاء : وهو أن يكون الكلام متلقا بمحذوف مفهوم . كقول
الشاعر :

لا يعلم الشوق الا ولا الصباية الا
أى الا من يكابد ذلك .

- (٤) الاتفاق : كقول ابن الساعاتى يصف اقتحام صلاح الدين -
واسمه يوسف - لبيت يعقوب - فى القدس - :
- دعوا بيت يعقوب فقد جاء يوسف . وهو يعنى دعوا الحصن
فقد جاء فاتحه . وقد وافق ذلك كون الـجى يوسف هو ابن يعقوب
فهو أولى ببيته من سواه .

- (٥) الاشارات اللفظية والملمية . وهو باب واسع .

(٦) الامماج : وهو أن يدمج الشاعر أو الكاتب غرضاً له ضمن معنى آخر ليوهم السامع أنه لم يقصده وإنما عرّض في كلامه تنمّة للمعنى الرئيسى . كقول الشاعر :

أبى دهرنا اسما فنا فى نفوسنا وأسمعنا فيمن نحب ونكرم
فقلت له نعماك فيهم أتمها ودع أمرنا ان المهم المقدم
فهو أدمج شكواه فى تهنئة المدوح وتلطف فى الطلب مع صيانة
النفس والمدح هو المعنى الرئيسى والطلب هو المعنى الفرعى المدمج فيه .

(٧) التزييل : كقول النابغة :
ولست بمستبق أخا لا تلمه على شمت ، أى الرجال المهدب؟
فالمعنى مستوفى قبل العبارة الاستفهامية ولكن الشاعر ذيله بالاستفهام ليزيد المقصد إيضاحاً .

(٨) التتميم : كآلية : " ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً " فقوله على حبه تتميم للمعنى بزيده قوة وتوكيداً^(١) وفى الواقع ان هذا التوبيخ المقدسى مجهود طيب يشكر عليه مخطئه . ويمكن أن يعتبر منهما حديثاً للبلاغة أو استفاد به مع المناهج الأخرى التى أوردناها فى هذا الباب من بحثنا .
على أنه مما يلفت النظر أن هذا التوبيخ أهمل بعض المسائل البلاغية الهامة فلم يوردها فى تقسيماته مثل : مبحث الفصل والوصل ومبحث القصر ومبحث الإيجاز والإطناب والمساواة . كما أهمل بحثاً هاماً من البحوث المستحدثة وهو بحث : الأسلوب .

هذا وقد علق الدكتور العمارى على هذا البحث ونقده فى مجلة الأزهر تحت عنوان " وفى البلاغة أيضاً . . . " .

وفى المقدمة أثنى العمارى على البحث ومؤلفه واستمرغ ما ورد فيه
استعراضا سريما مجملا . ثم قال :

" ان واجب البحث العلمى يقتضينا أن ننبه هنا الى أمور :

١ - كنت أفضل أن يكون عنوان البحث (المسوغات النفسية)
فهذه الأمور التى ذكرها ليست مما يكون حكم العقل واضحا فيها ،
وانما هى الصق بمواطف النفس وانفعالاتها .

٢ - تحدث فى فاتحة البحث عن إغراغ أهل زماننا عن المحسنات
البيانىة وحسبانهم اياها من الطرق الرجعية ، وذكر أن البلاغة
تحولت الى منهج الصناعة المتكلفة منذ القرن الرابع ، فأصبح
البديع غاية منشودة لذاتها ، وأن التشدد فى هذا أتى بفعل
انعكاسى هدفه هدم الزخارف البديعية ، وملاحظتنا هنا أنه
لم يفرق بين المحسنات البديعية والمباحث البيانىة ، فالأولى -
حقيقية - هى التى أنقلت البيان المرسى ، وهى التى برم بها
الشعراء والكتاب فى عصرنا ، بل فى عصر الدولة العباسية نفسها ،
وليس ماوجه من النقد لأبى تمام بالأمر المجهول . أما المباحث
البيانىة من مجاز واستعارة وكناية ، فما تزال تحتل من أدبنا بل
ومن كل الآداب أسمى مكان ، وانا لنرى كتاب الصحف يعمدون كثيرا
الى استعارات ومحازات تحتاج الى تأمل طويل .

٣ - ذكر تعريفات تبعد كثيرا عما نعرفه فى اصطلاح البلاغيين ،
بل ان بعضها لاوجه له فيما أعتقد ، فهو يذكر المجاز المرسل ويمثل
له بقول الشاعر " مررت على المروءة وهى تبكى " ، وهذا مجاز عقلى .
وما أظن أحدا جعله مجازا مرسلا . ولا يقال هنا انه أخطأ فى
التمثيل فقط ، فانه لم يذكر غير هذا المثال ، فكأنه يعبرف بالثال .

ويعرف التجريد بأنه (أن يخاطب الانسان نفسه كأنها شئ ، مستقل عنه) وهذا فقط نوع واحد من أنواع كثيرة للتجريد ، وقد عرفه القدماء بقولهم : " وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة أمرا آخر مثله فيها ، مبالغة لكمالها فيه ، وهو أقسام منها نحو قولهم : لى من فلان صديق حميم ، أى بلغ من الصداقة حدا صح معه أن يستخلص منه آخر مثله فيها . . . الخ . "

وفى تعريف الالتفات رأيان : رأى للسكاكى ورأى للجمهور ، ولا ينطبق تعريفه هذا على واحد من الرأيين . والالتفات عند الأقدمين هو : " التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة - التكلم والخطاب والغيبة - بمد التعبير عن طريق آخر منها ، بشرط أن يكون التعبير الثانى على خلاف مقتضى الظاهر . ولا يشترط السكاكى أن يكون قد عبر عن المعنى بطريق من الطرق الثلاثة ، أو يكون مقتضى الظاهر التعبير عنه بطريق منها فعدل الى الآخر ، بل يكتفى بأن يعبر عن المعنى ابتداءً بالطريق وكان من حقه أن يعبر عنه بآخر . ولا ينطبق واحد من التعريفين على الآية ، ومجازها :
وقل أقيموا

٤ - ويقول الصامى : لم يظهر لى دخول بعض الانواع فى ضوابطه ، فمثلا أدخل التورية تحت ضابط (التواطى اللفظى) ومثل بهذا البيت :
قالت وهبت لك السواك فقلت لا وماك ، مالى حاجة بسواك

والذى سوغ دخول هذا المثال مافيه من الحساس ، ولكن ليس يلزم فى التورية أن يكون فيها حناس . وهذه بعض أمثلتها : (الرحمن على العرش استوى)
(والسما بنيناها بأيدى وانا لموسعون) ، وقول صلاح الدين الصفدى :

ياقلب مبرا على الفراق ولو	روعت ممن تحب بالبين
وأنت ياد مع ان أبحت بما	تخفيه وجدا سقطت من عيني

وكثير من أمثلة التورية بل أكثرها لا حناس فيه . كما أدخل فى باب التواطى

(١٤٢)

اللفظي (الطي والنشر) و (الجمع والتفريق) ، ولا أراهما داخيتين
في هذا الباب .

وأعود فأكرر أننا في سبب الحاجة الى كثير من هذه
الأبحاث .^(١)

(١٤٣)

اللفظي (الطي والنشر) و (الجمع والتفريق) ، ولا أراهما داخيتين
في هذا الباب .

وأعود فأكرر أننا في سبب الحاجة الى كثير من هذه
الأبحاث .^(١)

البلاغة العربية

وحاجتها الى التجديد

وهذا بحث آخر بين لنا فيه الدكتور العمارى بعض مساوئ البلاغة فى كتبها القديمة ، ودعا الى تجديد ها ، وقدم بعض الاقتراحات من أجل النهوض بالبلاغة وتدريسها . يقول :

" فى العالم العربى اليوم نقطة فكرية تهدف الى التجديد فى شتى العلوم ، وربما صح بعض قادة النهضة العلمية فحاول أن يهدم قد يمتنا ، ويستغنى بجديد الناس ، كما أن بعض العقول لا تزال تعيش فى ألفاف الماضى السحيق ، ولا غناء فى اصلاح مالم يقيم على احترام النافع المفيد من القديم ، والأخذ بالنافع المفيد من الجديد . وهذا بحث لعله يهين على التهدى الى سواء المحجة ، حين ينظر الناظرون فى تجديد البلاغة العربية واصلاح مناهجها .

وان علوم البلاغة لفى شديد الحاجة الى من يجد أخلافها ، ويخلصها ، ولكنها لا تغفر الا بالدعاوى المريضة الكاذبة . فبعض العلماء قنع بأن يجمع الأشعثات ويضيف بعض الخنازج ثم يدعى أنه فى البلاغة ألف ، وبعضهم يعمد الى الورق الثقيل والطبع الأنيق ليقل انه فى البلاغة حدد ، ولعل شر الثلاثة هؤلاء الذين يهدمون ولا يبنون ، ولو أنهم هدوا متبصرين لكان فيهم أمل ، ولكنهم يضربون معاولهم وهم مغضو الجفون فعلىنا اذا أردنا توطيد أركان اصلاح العلمى وارساء قواعد العلوم على أسس ترضى الذمينة الجديدة ، أن نكشف موضع الداء الحقيقى ، ثم نعمل جاهد من على علاجه ، وبذلك نأخذ الطريق على من يريد الشر بهذه اللغة وعلومها .

وفى رأى أن أول ما ينبأ به هو إصلاح المنهج ، واختيار الكاتب الدارس ، فليس يكفى فى التحديد أن نهدم قاعدة ونعيد بناءها على نحو جديد ، وإنما العمل أولاً فى خلق جيل جديد يدرس البلاغة على طريقة متحة صالحة ، وحينئذ يخرج العالم الذى يستطيع التحديد على هدى وبصيرة .

ولم يمد خافيا على أحد أن الدراسة فى المعاهد المصرية على اختلاف ألوانها - فى البلاغة - ليست بذات غناء ، فاما دراسة قاعدة بلا تطبيق ، واما دراسة تطبيق بلا قاعدة ، ولا بد للدراسة الصحيحة من الجمع بين القاعدة على مداها الواسع ، والتطبيق على أفقه الفسيح . كما لم يمد من الخفى أن الدراسة تدور كلها حول محور واحد لا تتمده ، فمنذ لخص الخطيب القزوينى الجزء الثالث من كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكى فى متنه (التلخيص) والدارسون يطوفون حوله تعليماً وتأليفاً ، فهم يضمون له الشروح ، ويؤلفون الحواشى على هذه الشروح ، ويكتبون التقارير على هذه الحواشى ، وبعضهم لخص التلخيص فى متن سماه (أقصى الأمانى) ، وقد أعقب عصر الخطيب عصر انحطاط أدبى ، وسيطرت الذهنية العلمية ، فكانت المؤلفات أشبه بالقوانين القضائية ، والنظريات الهندسية ، وكان الجدل اللفظى على أشده فى هذه المؤلفات ، وهو جدل حاف أشبه بشرح القوانين .

وانا نظرنا الى منهج الدراسة فى الأزهر مثلاً ، وجدنا دراسة البلاغة تدور حول هذا المتن أيضاً ، وفى المرحلة الأولى من الاقسام الثانوية يدرس كتاب " زهر الربيع " أو " المنهاج الواضح " وهما على طريقة التلخيص شواهد وقواعد ، وان كان المؤلف الثانى أوضح عبارة ، وأغنى نماذج . وفى المرحلة الثانية يدرس " مختصر السعد " وهو شرح على هذا المتن .

وفى كلية اللغة العربية يدرس " الايضاح " وهو كالشرح لهذا المتن وفى المرحلة الأخيرة يدرس جزء من " أسرار البلاغة " وفصل من " دلائل الإعجاز " ولكنها دراسة لا تتعدى الدائرة القزوينية فهم المدرس والطلاب أن يرحموا هذه الفصول الأدبية الرائعة الى قواعد مضبوطة حتى يجوزوا بها الامتحان . . . وليس الحال فى غير الأزهر بأفضل منها فى الأزهر ، فهناك يعطى الطالب قشورا لا تربى ذوقا ، ولا تعلم علما ، وانما هو التقصير والقصور .

أما الشواهد فى كتبنا فأمرها عجب من العجب ، فهى لم تتغير منذ عهد السكاكى والخطيب ، وأكثرها من الدرجة السادسة فى الجودة ، وكثير منها ساقط ردى ، وهم العلماء منها اثبات القاعدة ، وربما وقفوا عند بيت يتيم ، وهو محتاج الى أليف . فقد استشهدوا بهذا البيت :

كما أبرقت قوما عطاء غمامة فلما رأوها أقشنت وتجلت

فها هنا المشبه به ، وإذا سألت : أين المشبه ؟ أجابك أكثر الشراح بأن بيت لاثنى له . أما شرحهم حين يشرحون ، فقد يتعدى دائرة الحس الأدبى الى تحقيقات لفظية تذهب بحمال المعنى ومائه . كتب سعد الدين شرحا لهذا البيت :

حمامة حرعى حومة الجندل اسمعى فأنت بمرأى من سعاد وسمع

قال : " فأنت بمرأى من سعاد ، أى بحيث تراك سعاد وتسمع صوتك ، يقال فلان بمرأى منى وسمع ، أى بحيث أراه واسمع صوته . كذا فى الصحاح ، فظاهر فساد ما قيل ان معناه أنت بموضع ترين منه سعاد وتسمع كلامها ، وفساد ذلك مما يشهد به العقل والنقل . "

وقال البنانى تعليقا على هذا " أما النقل فما نقل عن الصحاح
وَمَا العقل فلأن المناسب أن يكون داعى الأمر بالتصويت سماع غير
الصوت له ، لاسماع المصوت لصوت الغير ، ويخذه أنه انما يكون
ذلك اذا كان الغرض من التصويت اسماع الصوت ، وأما اذا كان
الغرض اظهار النشاط كالبلابل تترنم بشهادة الأنوار والأزهار فلا ،
وربما يؤيده أنه لم يقتصر فى داعى الأمر بالتصويت على السماع بل
ضم اليه الرؤية بل قد منها . وغاية ما يمكن أن يقال : معنى شهادة
العقل بفساده أنه يحكم بفساد توجيه يخالف النقل وعنه من وجهة .
وقوله اظهار النشاط لتلك الحماسة كما يدل عليه عبارة ابن يعقوب
ونصها : أما اذا كان المقام مقام اظهار أن الأمور فى موضع النشاط
والطرب برؤية المحبوب وسماع كلامه ، كان المنسب : اسجى أى
اهتزى وأطرب من شهود سعاد وسماع كلامها له .
وقوله : وربما يؤيده الخ ، أى لأنه لو كان الغرض سماع صوت لم
يكن لذكر الرؤية وجه ، قال شيخنا الطوى فى شرح ألفيته :
قد يقال الغرض الأمر بفعل ما يرضى المحبوب أو يستعلقه ، ووقع
ذلك الفعل مع رؤيته وسماعه أتم وأقوى من وقوعه بدونها . أهـ .
أى فالجمع بين رؤية الحماسة وسماع صوتها أتم وأقوى فى طرب المحبوبة
وابنساها ورضاها . تأمل .
وجه السيرافى الفساد عقلا بأن المحب اذا رأى المحبوب انفعلا
واندهش فيفسد عليه طريق الكلام ، والفساد نقلا بأن من لا ابتداء ،
الغاية ، فابتداء الرؤية من سعاد فهي الرائية لا المرئية . أهـ .
وفيه أن من الابتدائية تدخل على المرئ أيضا ، نحو رأيت القوم
من أولهم الى آخرهم . وجه عبد الحكيم شهادة العقل بأنه
لو كان كما زعم هذا القائل لكان المعنى اسجى أيتها الحماسة
فانك بمكان تسمع فيه صوت سعاد مع أنه لا يحسن فى نذر العقل

طالب التصويت عند سماع صوت المحبوب ، بل اللائق طالب الاصفاء
عند سماع صوته ، فكان الواجب على هذا الزعم أن يقول : اسكتي
وانصتي وأصغى . أه . وما مر عن ابن يعقوب والسيرافي يفيد أن
سماد محبوبة للحمامة كما أنها محبوبة لغيرها ولا مانع منه . وكتب
أيضا قوله : والنقل مستغن عنه لأنه قد تبين فساد من جهة
النقل بكلام الصحاح والتفريع عليه يظهر فساد الخ ، فكان الأولى
أن يقول : والعقل يشهد أيضا بفساده * .

ويمبر الممارى عن سخطه على هذا الكلام والشرح الذى أورد
السعد فيقول : * أشهد لقد ملئت من كتابة هذا الشرح دون أن
أعمل فكرا فى فهمه ، وهو يعد شرح لانسيم فيه ولا روح ، ومادام
الهدف من الشاهد هو تحقيق القاعدة ومادام الشرح على هذه
الطريقة العلمية فلا يرجى من وراء ذلك خير . وليس أدل على
اخفاق دراسة البلاغة من أن المتعلمين - والمعلمين أحيانا -
لا يستطيعون فهم الأسرار البلاغية فى الكلام ، وهمهم أن يقولوا :
ان فى هذه الفقرة تشبيها ، وفى تلك استعارة ، وقد حزن السند
اليه هنا للظلم به أو للخوف منه أو عليه .

ولما كانت هذه الأمور هينة سهلة فقد انصرف هم الطالب الى فهم
عبارة الكتاب ، فيغرق فى خضم واسع من المناقشات اللفظية ، وبذلك
أصبحنا - مثلا - ندرس كتاب السعد فى البلاغة ، ولا ندرس البلاغة
فى كتاب السعد ، ومن عجب أن واضح المنهج هدف الى هذا . . .
كما أنه ليس أدل على اخفاق هذه الدراسة من أن الأزهر أنشأ شعبة
مدتها ست سنوات لدراسة البلاغة وآداب اللغة ، وكان الهدف أن
تخرج للناس جرحانيا آخر ، وسكاكيا ثانيا ، ومن نظامها ألا يخرج
الطالب حتى يقدم رسالة فى أحد هذين العلمين ، فرأينا جمهرتهم
يطرقون أوسع البابين فيقدمون رسائلهم فى تراجم الشعراء وما إليها

ولم نر لواحد منهم - على كثرتهم - أى جهد فى خدمة البلاغة العربية ، وماذا إلا لأن دراسة البلاغة لم تنضج بعد .

كيف نسمو بدراسة البلاغة :

يتحدث الممارى عن ذلك فيقول : " والسبيل للسمو بهندسة الدراسة أن نترسم خطى الأسلاف ، ولا نقتصر على نهج واحد هو نهج السكاكى ومن جاء بعده ، ولهذا أحب أن أُلح إلى طرائق المتقدمين فى دراستها .

ويمكن أن نعتبر السكاكى فاصلاً بين عهدين ، فقد كان العلماء فى العهد الأول يتناولون البلاغة على أنها فن ، يبحثون فى الأساليب العربية ويضمونها تحت مظرة النقد ، ثم يصلون إلى الهدف من الجودة أو الرداءة ، ولم يكن هدفهم استخراج قاعدة أو استنباط ضابط ، يتضح ذلك فيما كتبه الحافظ والعسكرى والامام عبد القاهر والزمخشري ، وما كتبه النقاش القدامى كعبد العزيز الحرجانى والآمدى وغيرهما . ولا نعدم فى هذا العهد ميلاً إلى التعميد والتعقيد مما ، فقد كان علماء الكلام بصفة عامة ، والمعتزلة منهم بصفة خاصة ، يتناولون المسائل البلاغية محددين ضابطين ، ومن هنا نشأت المدرسة الكلامية بجانب المدرسة الأدبية ، وإن كان أثر الثانية فى هذا العصر أقوى وأظهر ، فلما جاء السكاكى ، وكان صاحب فلسفة ومنطق حاول إخضاع البلاغة للقواعد ، كما خضع النحو ، وكما خضع الصرف وغيرهما من العلوم المقعدة ، فأشاع فيها الأبحاث الفلسفية ، وأخرى فى أومالها الروح المنطقية ، وصيها فى قوالب

وجاء المتأخرون فتأثروا بالسكاكى أيما تأثر ، ووجدوا عنده ارضاء لذهنياتهم فنهجوا نهجه ، ونسجوا على منواله ، وذهبوا يدافعون عن آرائه ، ويطلبون الصواب لأخطائه .

فإذا أردنا النهوض بالبيان فلا مندوحة من أن نأخذ بهاتين الطريقتين على أن نهذب الطريقة الثانية ، فنحذف من كتبها الأبحاث المنطقية والأبحاث الفلسفية وما إليها ، نستغنى عن بحث الدلالات ، وعن الجامع العقلي والوهمي والخيال ، وعن المطالعة في بحث التعاريف ومحتزات القيود ، ولا نحمل لمباحث الأصوليين هنا موضعها ، ثم يجب أن نستغنى عن الخلافات اللفظية ، كالخلاف في الاستمارة هل هي محاز عقلى أولنوى ، وكالاختلاف في المحاز العقلى بين السكاكى والجمهور ، فانه لا معنى لأن يبذل الطالب وقتا وجهدا في خصومة عنيفة يطالغ فيها حجج الفريقين ، ويتمسب نفسه في تفهم جدل الخصمين ، ثم يقال له أخيرا : (ان الخلاف لفظى) ، أوجد النتيجة لا تكافئ الجهد . ثم ندرس - على هذا الضوء - فى المرحلة الأولى من القسم الثانوى كتابا على طريقة التلخيص مع مراعاة اختيار شواهد جديدة حيدة ، ومع المحافظة على صورة القاعدة ومنهجها ، وفى المرحلة المتوسطة ندرس كتابا فيه جميع القواعد مبسطة مختصرة ، ويجب أن يكون ثلثاه نماذج عربية فصيدة ويكون هم المدرس شرح هذه الشواهد شرحا نقديا ، وربطها بقواعدها ، وهذا الدرس يعتبر إعادة لمدرس فى السنتين السابقتين ولا يعوقنا أن مثل هذا الكتاب لم يوضع بعد ، فما أهون وضعه اذا خلصت النيات .

أما فى المرحلة الأخيرة من هذا القسم فيدرس " الايضاح " ولكن بعد حذف ما أوردنا حذفه سابقا ، وبعد شرح شواهد شرحا نقديا أدبيا ، والى هنا عند الطريقة الكلامية ، وينتدئ الطريقة الأدبية فى كلية اللغة العربية فيدرس كتاب الطراز ، وكتابى عبد القاهر ، وليس هذا بالأمر الصعب بعد ما أعدنا الطالب فى الثانوى لهذه الدراسة .

ويجب أن ندرس مادة النقد الأدبي بجانب هذا على أنها مادة مستقلة ، فندرس الوساطة والموازنة ونتمركز على جهود المعاصرين في النقد "

" ولا يفوتني أن أنبه على ضرورة العناية بدراسة نشأة علوم البلاغة فانه من المذهل أن يكون مبلغ علم العالم في عبد القاهر أنه ألف في البلاغة وفي السكاكي أنه عالم له اسم رهيب مخيف .

وبعد فهذا رأى أطرحه أمام من تعنيهم نهضة البلاغة العربية وأدعوهم أن ينظروا النظر فيه ، فانه سيحس ، اليوم الذى يقول فيه التاريخ : لقد قال قصير " لو كان يطاع لتصير أمر " .
(١) والله الهادى الى سواء السبيل " .

ولا شك أن هذا التخطيط الدراسى الذى طرحه د . العمارى لمنهج التدريس فى المرحلة الثانوية بالأزهر وفى كلية اللغة العربية تخطيط له قيمته ، ولا شك أنه أفضل بكثير من المنهج القديم فيما لو تم وضع كتبه على الأساس الذى أشار اليه التخطيط .
ولكننا نمتقد أن هذا البحث وقد وضع فى أواخر الثلاثينات لم يمد صالحا فى الثمانينات ، كما أعتقد لو أن د . العمارى كتب هذا البحث مرة أخرى هذه الأيام لآتى بتخطيط جديد آخر أحكم وأروع .

مفاهيم بلاغية

وتحت هذا العنوان ألقى الدكتور عبد الرزاق محيي الدين عضو مجمع اللغة العربية هذا البحث ^(١) حول بعض المفاهيم البلاغية وعدم فهمها واستفلاقها على الدارسين وعجز الأساتذة عن إيصالها إلى عقولهم واقتناعهم بها ، وكذلك الأمر بالنسبة للكتاب والشعراء والمحدثين .

وفى مقدمة هذا البحث ألقى الدكتور عبد الرزاق باللوم على المشتغلين بالدراسات الأدبية والنقدية لأنهم لم يعطوا البلاغة حقها من الدراسة والبحث بعكس المعلوم العربية الأخرى . " فقد أدت معاودة النظر في تاريخ الأدب العربي ومناهج دراسته من قبل الدارسين المحدثين إلى تطوير وتحديد جملة من علماء موسما يختلف اختلافا كبيرا عما تسلمه الجيل المظلم من الأحيال التي سبقتها . كذلك علم اللغة - أي علم المعجمات - تناوله المحدثون بمراجعة ومعاودة نظر أدت فيما أدت إلى تطوير بالغ في وضع المعجمات وأسلوب تأليفها ، وما ينبغي أن تتوفر عليه من شريط لصادر الكلمة المفردة وتاريخ وضعها والتطورات التي رافقت استعمالها ونظير ذلك أيضا ما وقع لعلم النحو فقد تمت في هذا العصر مراجعات لكتب أصوله ، ومناقشة الأحكام الواردة فيها ، ومحاولات في التبسيط والتيسير والجمع والحذف ، والحاق باب بباب ، وفصل مجموعة عن مجموعة ، الأمر الذي يكشف عن عناية بالغة بقضاياها واهتمام بشأنها .

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٢ ص ١١٩-١٢٢ . وقد ألقى هذا البحث في الجلسة السادسة للمجمع صباح السبت ١٩٦٩/٢/١م

أما علم البلاغة فقد استثنى من ذلك وظل على حاله لم يحدث فيه تغيير أو تطوير أو معاودة نظر بحيث يصح أن يعد ذلك تحافيا أو اهمالا أو ظاهرة عجز في جانب المعنيين بمعلوم العربية . وكان نتيجة لذلك أن انصرفت الهيئات المعنية عن اعطائه حقه من الرعاية ومن العناية حتى ضاق الطلاب بدراسة ، وعجز الأساتذة عن تدريسه ، وابتهم أمره لدى الكتاب والشعراء المحدثين .

وليس ما قاله الدكتور عبد الرازق عن البلاغة وعدم العناية بها صحيح ، فنحن اذا وافقناه على ضيق الطلاب بها وعجز الاساتذة عن تدريسها وابتهام أمرها لدى الكتاب والشعراء المحدثين فانا لانوافقه على عدم العناية بها في السنوات الأخيرة قبل القاء هذه المحاضرة في ١٩٦٩/٢/١ م . فنشد المشرينات - وما بعدها - من هذا القرن العشرين ، ارتفعت الأصوات بوجوب تجديد البلاغة ، وتوالى البحوث والمحاضرات ، وصدرت كتب ، ووضعت مناهج ، وأبدى كثير من المختصين آراءهم مما بيناه وسنبينه في هذا البحث .

ولكن المسألة أن ذلك لم يثر الجهات المسئولة عن الأدب والثقافة ، اللهم الا لجنة المعارف المصرية التي سنورد تقريرها ومنهجها بعد قليل في هذا الباب .

وتلك هي القضية : كيف نضع هذه المناهج التجديدية موضع التطبيق بعد غرلتها والتنسيق بين الألسن منها

وأرى أن هذا واجب الجامعات المصرية والجامع اللغوية محفمة أولا ، وواجب وزارات التعليم والثقافة في البلاد العربية محفمة أيضا ثانيا .

ونعود الى بحث الدكتور عبد الرزاق حيث أخذ يتحدث عن
الوضوح والفهم فى الفصاحة والبلاغة فذكر أنهما كانتا قد يما
تستعملان بمعنى واحد . فالفصاحة كانت تستعمل بمعنى البلاغة ،
والبلاغة كانت تستعمل بمعنى الفصاحة ، والبيان يعنى أحدهما
والاثنين معا أحيانا ، وربما قام مقامها الايضاح والبراعة والبديع ،
واستمر هذا التداخل فى مفهوم المصطلحين عهدا لا يقل عن
مائتى عام . منذ أن تلمست أصول هذا العلم الى أن استقرت
على يد البلاغيين فى القرن الخامس الهجرى فما يليه .

وأخيرا انتهى الأمر فى كلمة الفصاحة فأصبحت صفة للفظ المفرد
ولالألفاظ المؤلفة وهى تعنى فيهما الوضوح والتأهول والابانة ،
ولتحقيق الوضوح اشترط خلوص المفردة من تنافر الحروف ومخالفة
القياس الصرفى ومن الغرابية ، واشترط خلوص الكلام من ذلك ومن
مخالفة القواعد النحوية المستقرة ومن التعقيد اللفظى والمعنوى .
وكانت ما انتهت اليه كلمة البلاغة بلوغ القصد من التعبير والانتها
الى الخاتمة مع شرط التوفر على فصاحة مفرداته وتراكيبه .

واشترط الوضوح - كما يرى الدكتور عبد الرزاق - شرط معتدل
مفترض لا واقع له عند التطبيق على الروائع الأدبية ، وليس منتزعا
من واقع ما عليه الفن البيانى .

* وذلك لأن أسمى آثارنا الأدبية من مملكات الجاهليين الى خطب
الخلفاء الراشدين فرسانهم فخطاب الولاة وكتبهم الى شمر
الاسلاميين جرير والحطيئة الى أعلام الشعر فى العصر العباسى
كالبحتري وأبى تمام والمتنبى وأبى الملاء الى رسالة الخفران فمقاييس
أبى حيان فمقامات الحريري والبديع الى أسلوب الرافعى فالمقداد
أحيانا ، كل أولئك ما كانت آثارهم بالوضوح الذى سموره البلاغيون
للكلام الفصيح .

إن كثيرا منها لا يفهم إلا بعد الشرح وبعد التنقيح اللغوي بل أن قسما منها يصعب أن تعبر صفحة أو سطرا منه دون التنقيح - وهل التنقيح إلا البحث في كتب اللغة - فهل نفى عن هذه الكتب صفة الأرب العالي لأنها لم تتوفر على صفة الوضوح في حين أردناها ومما لهذا الأرب المتميز .

ولا نقصد أن يكون الغموض شرطاً في البيان الذي يبلغ درجة التميز والتفوق ، ولكن البيان المتميز في أفضل الأحوال لن يكون فهمه في متناول الناس كافة ، بل أنه لن يكون حتى للممارسين له بهذه الدرجة من المواتاة . فلا بد من اشتراط الوضوح في حدود معاناة أربية وليس باليسر المتناهى الذي تفتى فيه عن البحث في معنى المفردة وعن الخامسة البيانية التي وراء هذا التعبير . وقد رد الدكتور عباس حسن على ذلك بما يفيد أن البلاغيين لم يحددوا الوضوح بالكلام الجاهل أو الاسلامي في عصوره المختلفة ، وإنما ضبطوا هذا الوضوح بمراعاة المقام ، بمعنى أن الواضح في العصر الجاهل قد يختلف عن الواضح في العصر الاسلامي ، وقد يختلف عما بعده من العصور . فهذا هو ما يسمى الوضوح ، ووضعوا له في كل باب من أبواب البلاغة ما يسمى بمراعاة المقام ، فالمقام في عصرنا يختلف تمام الاختلاف عما سبقنا من القرون .^(١)

ونعود الى الدكتور عبد الرزاق في بحثه حيث يرى " أن التعريف التقليدي للبلاغة - بأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته - مع دقته وشموله يتميم بالغموض والابهت ، وفي مفتاح العلوم وتخليصه وشروحه محاولات مجهدة لتوضيحه ، ومع ذلك بقي الغموض يصاحبه . وليس من موائمات البلاغة أن يكون تعريفها على هذه الصورة من الغموض " .

وهذا الرأي سبق وذكره الشيخ أمين الخولى فى كتابه " فن القول " ان تعرض لتعريف البلاغة بتفصيل أكثر ورأى أن المنهج الفنى يستطيع أن ينتهى الى شىء أبين من ذلك وهو تعريف البلاغة بأنها " فنية القول " ثم بين ميزة هذا التعريف الجديد للبلاغة. (١)

وانتقل الدكتور بعد ذلك الى مفهوم آخر من مفاهيم البلاغة فى علم المعانى فقال : " ان فى مباحث علم المعانى قصورا ففى استيفاء مقتضيات الأحوال فان الدراسة لها اتجهت الى حال المخاطبين عند تلقى الخبر أو الطلب ، وهى أحوال على تنوعها لا تفى بأحوال المتكلمين والمقتضيات التى تدفعهم على القول فان الباعث على القول ربما يكون احساسا داخليا أو نازعا ذاتيا لا يدخل فى تقدير قائله ما يكون عليه حال القارئ أو السامع ، ولا الموازنة مع تلك الحال " .

وهذا الرأي أيضا سبق وذكره الشيخ أمين الخولى فى نفس الكتاب بتفصيل أكثر وشرح أوفر (٢) . كما أن الدكتور رجاء عياد يرى ذلك الرأي أيضا وهو أن الباعث على القول ربما يكون احساسا داخليا أو نازعا ذاتيا ويضرب لذلك مثلا بالمتنبى فى مطالع قصيدته التى يمدح بها كائنورا :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا
 " فالمتنبى لا يقصد بالطبع افادة مخاطبه بأن الموت شاف له ، أو أن المنايا أمانيه ، وإنما هى دفقة لاشمورية من احساسه الممزقة نحو صديقه وأميره " سيف الدولة " الذى هجره ، ومن أمانيه التى تصوحت فى ولاية طال يحلم بها ، وكان أمله أن يحققها له كافور . وهو يخاطب نفسه فى البيت التالى قائلا :

(١) انظر " فن القول " ص ١٩٦-١٩٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠١-٢٠٦ .

تمنيتهما لما تمنيت أن ترى مديقا فأعيا أو هدا مداحيا

ويطال في حوار نفسى بينه وبين ذاته الى أكثر من خمسة عشر بيتا حتى يبين عن أمله الذى أشقاه بل اننا نرى الشعر فى دهره ليس افادة المخاطب بأنه عالم بمضمون خبره أو افادة مخاطبه بهذا المضمون بقدر ما هو تنفيس تلقائى لمشاعر نفسية حبيسة تحد انغلاقها فى هذا العالم السحرى الخامس^(١) .

وبعد أن تحدث الدكتور عبد الرزاق عن وقوف البلاغة عند حال المخاطب دون المتكلم رأى السبب فى ذلك " أن الدراسات البلاغية قد اهتمت بالقرآن الكريم وهو كتاب هداية وتبشير وانذار يضع فى اعتباره بالدرجة الأولى حال المخاطبين فى هدايته وتبشيره وانذاره ، وكذلك الأمر فى خطاب الرسول والخلفاء والولاة وفى كثير من شعر الشعراء الأقدمين . ولذلك بحث دارسو البلاغة أكثر ما بحثوا خصائص أحوال المخاطبين . ولكنهم نكسوا على أن الأحوال ومقتضياتها لا تقف عند حد ولم تستقصى بعد فرغموا بالاستزادة منها للآتين من بعدهم . ولكننا وقفنا حيث انتهوا ولم نستزد جديدا من الأحوال ومقتضياتها " .

ومثل هذا الكلام ذكره أيضا الشيخ أمين الخولى فى فن القول^(٢) ، مما يدعونا الى الاعتقاد بأن الدكتور عبد الرزاق قد اطلع على هذا الكتاب وتأثر به .

على أننا نجد فى كلام الأقدمين أنفسهم ما يشير الى اهتمامهم بحال المتكلم ومن ذلك قولهم فى تقديم الشعراء : " كفاك من الشعراء أربعة : زهير اذا رغب ، والناخبة اذا رهب ، والأعشى اذا طرب ، وجرير اذا غضب "^(٣) وهذه وما مثلها ليست الا أحوال المتكلمين .

(١) فى البلاغة العربية ص ٦٤ (٢) انظر ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٣) الصمد ص ٩٥ .

وفى باب القصر والاختصاص كثيرا ما يشير الامام عبد القاهر الى حال المتكلم . من ذلك قوله : " اعلم أنك اذا قلت ، ما جأنى الا زيد ، احتمل امرين : أحدهما أن تريد اختصاص زيد بالمجىء ، وان تنفيه عن عداه والثانى أن تريد الذى ذكرناه فى انما " .^(١)

وقوله : " واعلم أن حكم غير فى جميع ما ذكرنا حكم الا ، فاذا قلت : ما جأنى غير زيد ، احتمل أن تريد نفى أن يكون قد جاء معه انسان آخر ، وأن تريد نفى ألا يكون قد جاء وحده مكانه واحد آخر " .^(٢) وقوله : (تريد) فى هذه العبارات وأمثالها انما هو اشارة لحال المتكلم ، والضمير فى (تريد) عائد اليه .

هذا الى أن أحوال المتكلم قد شاع الحديث عنها فى مواضع أخرى لمبد القاهر . من ذلك قوله : " والمراد بالكفاية ههنا أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللفظة ولكن يحىء الى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود " .^(٣)

على أن غرض المخبر من خبره - كما هو معلوم - أحد أمرين : فائدة الخبر أو لازم الفائدة ، وهذا الثانى هو افادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم . وان فلان الفائدة حالة من حالات المتكلم .^(٤)

وكذلك فان الخبر قد يخرج عن هذين الفرضين الأصليين الى أغراض أخرى مثل : التحسر ، اظهار الضعف ، الفخر ، التوبيخ ، الاستعطاف وهذه وما مثلها ليست الا أحوال المتكلم .^(٥)

هذا وليس التأكيد محصورا فى الداللى والانكارى من ضرب الخبر - كما يقولون - فان التأكيد يأتى لأغراض أخرى كثيرة منها :

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٦٠ د بيروت

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٨

(٣) المرجع السابق ص ٥٢

(٤) انظر ص ٢٣ من كتاب توضيح المعانى للدكتور العمارى .

(٥) المرجع السابق .

١ - شعور المتكلم أن المخاطب لا يهتم إلى خبره .

٢ - رغبة المتكلم فيما تضمنته الخبر .

٣ - قصده المبالغة في تحقيق الخبر . (١)

وهذه الثلاثة أيضا من أحوال المتكلم . اذن فليست أحوال المخاطب وحدها هي التي اهتم بها علماء البلاغة ، وان كانت هي التي سلطت عليها الأضواء أكثر من أحوال المتكلم .

ونعود إلى الدكتور عبد الرزاق حيث يتحدث في بحثه بعد ذلك عما حدث في العصر الحديث " من فنون تعبيرية جديدة كاللمحة والقصة والرواية ، كما انتهت إليها عدد من الدراسات النفسية والحوافز الشعرية والاشعرورية لدى المتكلمين . لهذا لابد من استكمال الدراسات البلاغية لخصائص هذه الفنون ومعرفة مقتضيات القول فيها لتصوغ النقد الأدبي صياغة علمية ذات ضوابط وحدود " .

وأينما هذا الكلام ليس حديثا بل تحدث عنه الأستاذ الخولي والأستاذ الشايب والأستاذ البشرى والدكتور طيانة وغيرهم . ويكاد العلماء المحدثون والنقاد يجمعون على ذلك . وهو أن البلاغة العربية يجب أن تخرج من نطاق الحيلة والحيلتين إلى رحاب النص الكامل من شعر وقصة ومقال . . . الخ .

ويقول الدكتور بعد ذلك : اننا أخذنا بعض القواعد البلاغية عن السابقين مأخذ التسليم دون أن نحاول مراجعتها أو عرضها على أذواقنا وذلك لثقتنا المطلقة فيهم ، مع أن في هذه القواعد كثيرا من مظاهر التناقض والأمثلة على ذلك كثيرة . وقد أتى بمثال واحد على ذلك وهو تنكير المسند إليه :

" فنسمعهم يقولون : ان لتنكير المسند إليه خصائص كثيرة فهو يفيد الافراد في قوله تعالى " وجاء رجل من أقصى المدينة يسمى " ،

والتعظيم والتحقيق فى قول الشاعر :

له حاجب عن كل أمر يشين وليس له عن طالب المعرفة حاجب
والنوعية فى قوله تعالى : " وعلى أبصارهم غشاوة " والتكثير فى نحو :
ان له لا بلا وان له لغنا ، والتقليل نحو : " ورضوان من اللام اكبر "
والتعظيم والتكثير فى قوله تعالى : " وان يكذبوك فقد كذبت رسل "
أى رسل ذوو عدد كبير وذو آيات عظام .

هذا ما يقولونه عن تنكير المسند اليه وماله من خصائص مختلفة قد
تبدو متناقضة كالتعظيم والتحقيق ، والتقليل والتكثير .

هذا ما قاله صاحب البحث . والواقع أنه لا تناقض هنا لأن التعظيم

والتحقير والتقليل والتكثير مستفاد من سياق الكلام وتسلسل التعبير
لامن المعنى الضمنى للكلمة ولا من مجرد تنكيرها . ويكاد الدكتور
نفسه يوافقنى فى ذلك إذ يقول بعد قوله السابقة : " ان الصورة
الواحدة لا يمكن أن تؤدى الا غرضا واحدا أو أغراضا متقاربة غير
متناقضة على الأقل ، فان أدت خواصا متعددة ومتناقضة فلا بد أن
يعود ذلك الى شىء فى الجملة سواها والى ملابسات اتصلت بها
وليس لها وحدها . وعلى هذا تكون الخواص المختلفة من صانع
الجملة كلها أو من أثر الملابسات لها . وليس ما أورده البلاغيون
من مفادات مختلفة من كون المسند اليه نكرة " .

ويذهب الدكتور بعد ذلك يستدل - بنفس الأمثلة التى ذكرها
آنفا - على أن السياق والمقام هو الذى يحدد الغرض من التكثير
وليس التكثير وحده . يقول : " فالتعظيم والتحقيق اللذين تنطسهما
فى كلمتى حاجب من قول الشاعر :

له حاجب عن كل أمر يشين وليس له عن طالب المعرفة حاجب

منشؤه ما أسلوب التعبير وملازمة القول ، فالبيت في مقام المدح وذلك باثبات شيء للممدوح ونفيه عنه ولا يتم المدح الا باختلاف بين ما يثبت وما ينفي وحين تثبت الصفة للممدوح ثم تنفي عنه لابد أن يكون المثبت منها له أفضل صورها والمنفي منها عنه أهون صورها . فإذا ما نظرنا الى ما تعددت له كلمة حاجب في الأول وهي مثبتة وجدناه : عن كل أمر يشينه . فالمدح يقتضى أن يكون حاجبا قويا عظيما ، وإذا ما نظرنا الى ما تعددت له كلمة حاجب الثانية وهي منفية وجدناه عن طالب الصرف . وحيث ان ما أثبت له كان بصورة معظمة فلا بد أن يكون مانفي عنه بصورة محقرة . فتكثير المسند اليه لم يؤد هذه الخاصية بمفرده وإنما أداها الأسلوب والمناسبة .

وكذلك التكرير في قولنا : ان له لا يلا وان له لغنا : فالتأكيد بان واللام وتكرار هذا التأكيد هو الذى هيا فهم التكرير وليس ورود المسند اليه نكرة .

وكذلك التعظيم والتكثير في قوله تعالى : " وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك " أى رسل ذوو عدد كثير وذو آيات عظام . المقام مقام تسلية للرسول عليه السلام وحمل على الرضا والتحمل ولا تتأتى التسلية والتصيير عن طريق الناس بأفراد قليلين أو جماعة لا طائل لها فلا بد أن يكون مضرب القدوة جماعة لها شأن وشأن عظيم .

وللدكتور رحمان عبيد في ذلك رأى مماثل أيضا : " فالتعظيم والتحقيق الذى أفاده تنكير المسند اليه في قول الشاعر :

ولله منى جانب لا أضيمه ولله منى والخلاعة جانب

لم يأت من التكثير فقط بل أتى من السيلان . فـ " جانب " الأولى منسوبة الى الله وفيها تأكيد بالنفي " لا أضيمه " والذى يؤكد المعنى أكثر من قوله :

ثابت أو موجود مثلا مع محييه مقدما الأمر الذى يوحى بأهميته ، و
 " جانب " الثانية جاءت بلا تأكيد ويتداخل الشعور الدينى والاخلاقى
 لذكر الهو والخلاعة حتى يدفع الى القول بأنه للتحقير . ولو وجد
 البلاغيون البيت مثلا :

ولله منى الجانب المثبت ولله منى والخلاعة جانب
 لرأيهم يسرعون الى القول بأن التمرير للتعظيم . وفى رأينا أن
 الذى دفع البلاغيين الى هذه المتاهات هو الرغبة فى تقنين مسائل
 بلاغية تعلو على التقنين ^(١) .

وأخيرا يختتم الدكتور عبد الرزاق بحثه بقوله : " أيها السادة
 الزملاء " : ان دارسى البلاغة من طلاب الثانويات والجامعات حين
 يواجهون بقائمة طويلة من الأغراض المتناقضة لشيء واحد يقعون
 موقع الحيرة ولا يملكون الاحتفاظ بها من غير وعى وتبين . لهذا أرى من
 الضرورى مراجعة ماورثناه من أحكام بلاغية بكثير من الفحص والزالة
 اللبس وتكملة ما فات الأوائل جزاهم الله خيرا ولكم ترك الأول لآخر " .
تعقيبات مجمعية على بحث " مفاهيم بلاغية " :

عقب على بحث الدكتور عبد الرزاق محيى الدين بعض من الاساتذة
 الذين حضروا جلسة المجمع . منهم الأساتذة عباس حسن وزكى المهندس
 وأنيس المقدسى ومحمد خلف الله ، وقد أعجبوا بهذا البحث ورأوا
 أنه فتح آفاقا جديدة فى ميدان البحث البلاغى حديرة بالاهتمام
 والتقدير .

وقد أشرنا فى ثنايا البحث الى تعليق الدكتور عباس حسن . وهناك
 مقتافات من تلك التعليقات الأخرى :-

الأستاذ زكى المهندس : أحب أن أضيف الى هذا أن للمرحوم الأستاذ احمد حسن الزيات كتاباً ضخماً فى الدفاع عن البلاغة العربية . كذلك للمرحوم الأستاذ أمين الخولى كتاب " فن القول " وهى محاضرات ثمينة فى البلاغة ألقاها فى كلية الآداب .^(١)

الأستاذ أنيس المقدسى : أوافق الاخوان الذين رأوا فى محاضرة الدكتور عبد الرزاق محبى الدين أشياء جديدة وجوانب مفيدة . وأحب أن أضيف فكرة صغيرة تتعلق بمسألة الضمور والوضوح ، وأعتقد أن المقام الكتابى نوعان : المقام العلمى والمقام الأدبى . ففي المقام العلمى تكون الكلمات الفصيحة هى التى تؤدى المعنى المحدود الواضح الذى لا تمقيد فيه . أما المقام الأدبى فالتمساحة ليست فى تأدية المعنى المحدود ولكن الكلمة قد تدل على معنى أو معانى المعانى . والبلاغة هى الوصول الى معانى المعانى فى الأدب فقد يكون فى هذا شئ من الضمور لافى اللفظ نفسه ولكن فى التوصل الى هذه المعانى أى معانى المعانى .^(٢)

الأستاذ محمد خلف الله : أعبر عن تقديرى للبحث الدقيق الذى استقمنا اليه من الزميل الدكتور عبد الرزاق محبى الدين . ونحن فى حاجة الى مثل هذه البحوث الدقيقة التى تتعرض لمفاهيم تراثنا العربى بالتحليل والتحديد فى التفكير . وأعتقد أن الدعوة الى العناية بعلوم البلاغة العربية تحى ، فى حينها والفنون الأدبية الحديثة وعلى الأخص القصص أصبحت تستلزم فى نقدها وفى دراستها مفاهيم أخرى لم تكن لازمة ولا موجودة بهذا الشكل فى كتابتنا النثرية القديمة ، وهذا يتصل به شئ كثير من سبب الانصراف عن درس البلاغة ، أو عدم الميل عند الكثيرين فى العصر الحاضر على متابعة التراث العربى الأدبى الرفيع ومفاهيمه .

(١) مجلة المجمع ٢٢ ص ١٣٢ (٢) المرجع السابق ص ١٣٣ .

وهذا ما جعل الدراسة في بعض الأقسام الجامعية التي كان
واحدها أن تمنى بالدرس البلاغي تنصرف عنه شيئاً ما
فهذا كله حقيقة جعلنا نلج في ألا نهمل هذا التراث الذي يتصل
الاتصال كله بالقرآن وبتراثنا العربي في عصوره الطويلة، وفي أن
نركز الدعوة للمتخصصين وللمهتمين بالدراسات العربية أن
يهتموا به .

وأقول : إن هذه المحاضرة " مفاهيم بلاغية " التي أقيمت
في مجمع اللغة العربية ليست في مستوى المجمع . وكنا نتوقع
من أعضاء المجمع بحوثاً ومحاضرات في تحديد البلاغة على مستوى
أعلا . فليس المهم أن ننقد بلاغتاً القديمة ونبرز بعض مساوئها
بقدر ما يهم أن نضع لبنات جديدة في شرح تحديدها . ولا يكفي
أن تتردد في جنبات المجمع دعوات التجديد دون تحديد .

تخطيط رسمي جديد للبلاغة

وضعت لجنة المعارف ^(١) تخطيطاً جديداً للبلاغة عند ما اجتمعت لتتأمر في تيسير العلوم العربية ومنها البلاغة . وقد جاء هذا التخطيط ضمن التقرير ^(٢) الذي كتبت اللجنة عن البلاغة وجاء في أوله " ان العرب قد استطاعوا أن يستغنوا عن البلاغة ويمشوا بدونها عصرًا طويلاً هو من أزهى عصور الحياة الأدبية وأروعها . وقد عدلت الأتم الحديثة في تعليم لغاتها وآدابها عدولا تاما فلم يصيبها من ذلك شر ما . ومع ذلك لم نعدل عنها ، ولم نطلب الفناء لها ، وإنما رددناها الى أصلها ، وجعلناها فصلا من فصول الأدب ، ووسيلة من وسائله ، والغينا منها ما لا صلة بينه وبين الحياة الأدبية ، وأضفنا اليها أبوابا بحث عنها القدماء من النقد في إجمال ، وبحث عنها المحدثون في كثير من التفصيل ، وقد أهملت في البلاغة الرسمية أهمالا تاما " .

ورأت اللجنة أن التخطيط العام لأبواب البلاغة يجب أن يكون كما يلي :-

- أ - معنى البلاغة - الفروع منها .
- ب - الأسلوب : معناه ، اختلاف الأساليب باختلاف الكتاب والشعراء ، نماذج من أساليب مختلفة كابن المقفع والجاحظ وديع الزمان وابن خلدون ، ومصر المحدثين الشعراء كبشار وأبي تمام وابن الرومي والبيها زهير - الإيجاز والاطناب والمساواة - الفرق بين الأسلوب الأدبي والأسلوب الملقى .

(١) كانت اللجنة مكونة من الاساتذة : طه حسين ، واحمد أمين ، وطلح الحارم

إبراهيم مصطفى ، وعبد المجيد الشافعي ، ومحمد أبو بكر ابراهيم .

(٢) انظر التقرير في صحيفة دار العلوم ، عدد اكتوبر ١٩٣٨ ص ٦٥ وما بعدها .

ج - أهم الموضوعات الأدبية :

(١) الوصف : شروط جودته ، استمرار الوصف جيد ووصف

غير جيد .

(٢) المقالة : معناها ، شروط جودتها ، نماذج منها .

(٣) القصص : معناها ، أنواعه ، شروط جودته ، نماذج منه .

(٤) الخطابة : معناها ، شروط جودتها ، نماذج منها .

(٥) تراجم الأشخاص : شروط جودتها ، نماذج منها .

د - الشعر والنثر والفرق بينهما :

الشعر : شرح لمعنى البيت والقصيدة والقافية ، المامة بمعنى

الوزن فى الشعر ، لفظة الشعر ، خياله ، موضوعاته ، أوصاف

الشعر الجيد .

النثر : لفته ، موضوعاته ، أوصاف النثر الجيد .

هـ - الكلمة :

بم تفضل كلمة كلمة فى الموضوع الواحد ، دقة استعمال الكلمة ،

حملها ، ملائمتها لموضوعها ، دلالتها بالوضع وبالالتزام .

(ويراد بالدلالة بالوضع معنى الكلمة كما تدل عليه المعاجم ،

والالتزام تأثر الكلمة بما حولها من معان وجو ونحو ذلك) .

و - الحملة :

تقسيمها الى خبر وانشاء ، وأغراضها البلاغية - التقديس

والتأخير - الفصول " الفقر " معناها ، علاقة الفقر بالموضوع ،

علاقة الفقر بعضها ببعض - وحدة الموضوع : فى الشعر ، فى

المقالة ، فى الرواية - التشبيه والاستمارة : معناها ، الفرق

بينهما ، متى يحسنان - الكناية - نماذج كثيرة من التشبيه

والاستمارة والكناية ونقد ها - المحسنات البديعية : نماذج منها

متى تحسن ، ومتى لا تحسن من ناحية الكم ومن ناحية الكيف .

ونلاحظ للوهلة الأولى أن هذا التخطيط ينطبق كثيرا على منهج الأستاذ الشايب في كتابه "الأسلوب" . كما سنرى في الباب الثالث غير أن هذا التخطيط ورد في التقرير محملا بينما ورد في كتاب الأسلوب مفصلا . وإذا كان هذا التخطيط قد صدر من اللجنة في أول عام ١٩٣٨ م . وسدر كتاب الأسلوب عام ١٩٣٩ م ، فمن الواضح أن الأستاذ الشايب قد استفاد كثيرا من هذا التخطيط بالإضافة إلى أبحاث الأستاذ الخولي في البلاغة . وليس هذا بعيب نعميه على الأستاذ الشايب وإنما هي مجرد ملاحظة .

كما نلاحظ في هذا التخطيط الفاء "التقسيم القديم لمعلوم البلاغة الثلاثة - المعاني والبيان والبديع - وثمها في ثانيا أبواب وفصول التخطيط الجديد .

وإذا نظرنا إلى هذا المنهج - أو التخطيط - الذي اقترحه اللجنة في البلاغة نجد أنه يتضمن أنواعا ثلاثة :

- (١) موضوعات هي موادون في مناهج البلاغة قد يسمها وحد يسمها وهي : معنى البلاغة - الإيجاز والاختصار والمساواة - الحطة وتقسيمها إلى خبر وإنشاء - التقديم والتأخير - التشبيه والاستعارة والكناية - المحسنات البديعية .
- (٢) مباحث من مناهج الأدب وهي : الخطابة - الشعر - النثر - تراجم الأشخاص .
- (٣) أبواب قالت اللجنة إنها قد " بحث عنها القدماء " من النقاد في أعمال وبحث عنها المحدثون في كثير من التفصيل وهي : الأسلوب - الوصف - القصص - المقالة - الفصول - الفقر - وحدة الموضوع .

(١)

(١) انظر نقد تقرير المعارف في صحيفة دار المعلوم عدد أكتوبر ١٩٣٨

ص ٥٨ . وما بعدها .

ونلاحظ في النوعين الثاني والثالث أن التخطيط أدنى
البلاغة في مسائل الأدب وقد أشارت اللجنة إلى ذلك في المقدمة
حيث قالت : " وقد رددناهما إلى أصلها ، وجعلناها فصلا من
فصول الأدب ، ووسيلة من وسائله " ، ولا أدري ان كان هذا الأجراء
تعظيما للبلاغة أو استهانة بشأنها ، ولكن هذا الأجراء - على
أى حال - ليس غريبا على البلاغة فأقوى أيامها وأفضل عهودها
أيام كانت هي والأدب توأمين لا ينفصلان .

كانت تلك - فيما وحدنا - هي أهم البحوث والمباحثات
والتقارير التي عرضت للبلاغة وتحديثت عن تحديدها واشتملت
على بعض مقترحات وخيوط لتحديد البلاغة هي وإن كانت صغيرة
محلقة ، إلا أن لها أهميتها التي لا تتكرر عندما نحاول أن نقيد
على تحديد البلاغة .

وتميمها للفائدة رأينا أن نشبع هذا الفصل بفصل آخر نعين
فيه آراء مجموعة من الأساتذة الذين مارسوا تدريس البلاغة في
الجامعات ، ولا شك أن لهذه الآراء - مهما قل حجمها - ^{قيمتها} وتقديرها
كما أن لها أثرها في دفع عملية التحديد البلاغي إلى الأمام .

الفصل الثاني

آراء في تجديد البلاغة

دعوات التجديد البلاغية في العصر الحديث كانت ومازالت ترتفع بها الأصوات من جانب المهتمين بالبلاغة واللغة العربية وتراثها . ونحن هنا - بعد أن استعرضنا البحوث التي كتبت والمحاضرات التي أقيمت في البلاغة وتجديدها - نعرض لآراء بعض أساتذة الجامعات الذين لهم دور ملموس في تدريس البلاغة ، لأنهم الأقدر من سواهم على معرفة حاجتها وتفهم مشكلاتها . وإذا كان الطبيب يستطيع بالكشف على مريضه أن يحدد الداء ويعرف الدواء ، فإنهم - ولا شك - يعرفون داءها ويستطيعون أن يصفوا دواءها . ولذلك رأينا ألا نهمل آراءهم حتى ولو كانت إشارات عابرة .
وانتنا في هذا الفصل - علاوة على ما أوردنا من بعض الآراء في ثنايا البحوث السابقة - سنعرض لآراء الأساتذة :

- ١ - د . أحمد مطلوب
- ٢ - د . علي عبد الرازق
- ٣ - د . بدوي طبانسة
- ٤ - د . خفني شرف
- ٥ - د . علي المصاوي
- ٦ - د . محمد نايل
- ٧ - د . كامل الخولي

(١) الدكتور أحمد مطلوب :

يرى الدكتور مطلوب أن البلاغة العربية كانت في القرن الماضي فنونا تحفظ وشروحا تدرس ، وحيثما أطل فجر النهضة الحديثة واتصل العرب بالغرب ورأوا ما عندهم من مناهج أدبية التفتوا الى تراثهم يديون ما فيه النفع ويأخذون عن الغرب ما فيه انارة السبيل ، ولم تمر سنوات حتى بدأ الأزهر الشريف يعيد النظر في مناهجه ، وأخذت المعاهد والجامعات تقيم دراساتها على أسس علمية قوية ، وكان للبلاغة نصيب بما حدث للحياة الفكرية من تطور وتقدم فظهرت دراسات جديدة وضعت المعالم في الطريق . وقد تحدثت هذه الدراسات عن نشأة البلاغة وتطورها ، ورسمت صورة واضحة لها ولكنها تكاد تتفق في أمرين :

الأول : اتخاذها المنهج التاريخي سبيلا لتصوير حياة البلاغة .
والآخر : إهمالها بعض البلاغيين الذين كانوا يصلون بين حيل وحيل أو مذاهب ومذاهب وعدم التفصيل في البلاغة الحديثة التي يسمى اليها المحدثون .^(١)

ويرى د . مطلوب أن الأزهر الشريف هو أول من حمل لواء التجديد في البلاغة وذلك بأن قيض الله له الأستاذ الامام محمد عبده - رحمه الله الذي أخذ يحيى كتب السلف النافعة وطوهم ويقوم ما اعجز من مناهج التأليف وطرائق التدريس فقد انصرف الشيخ محمد عبده الى تدريس كتابي دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر ، وبذلك فتح أذهان الطلبة وقسوى مداركهم ومواهبهم ، لأنهم وجدوا في تدريس الامام غير ما ألفوه . وبذلك كان الجامع الأزهر أول معهد من معاهد التعليم الاسلامي والعربي قرئ فيه دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة - بعد الصفوة الطويلة - درسا لطلاب البلاغة ولأجله طبع الكتابان وانتشرا . . ويرى أنه بسبب ذلك قد تخرج في الأزهر الشريف في مطلع العصر الحديث حيل فيه عزم على البحث وفي روحه اندفاع الى التجديد .^(٢)

(١) مناهج بلاغية - د . مطلوب - ص ٧

(٢) اتجاهات البلاغة العربية / د . مطلوب / ص ١٨ .

وفى كتاب اتجاهات البلاغة العربية أحمل الدكتور مطلوب رآيه فى التخطيط العام للبلاغة العربية الحديثة . وهو يمثل فى الغاء التقسيم الفلاش لعلوم البلاغة ، واعتبار البلاغة فنا واحدا . وأن تتجاوز البلاغة مجال البحث فى الحملة والخطتين الى البحث فى الفقرة والقطعة الأدبية والأساليب المختلفة وتستعين بما ذكره القدماء كمبد القاهر وابن الأثير فى ذلك . أما مصطلحات البلاغة فينبغى تقليلها والاكتفاء بأهمها . فالمجاز مثلا لا حاجة الى تقسيمه الى أنواع كثيرة ، وإنما نكتفى بتقسيمه الى لغوى وعقلى كما فعل الحرطاني ، أو نعتبره لغويا كله كما فعل السكاكي ونكتفى فى الاستعارة بمصطلحات قليلة ولتكن الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية ورد جميع الأنواع الأخرى الى هذين النوعين .

كما يجب أن نهتم فى بحث البلاغة بالناحية الأدبية وتخير الأمثلة والقطع الرائعة من القرآن الكريم وكلام العرب ، كما نهتم بتحليل الأمثلة تحليلاً أدبياً يعتمد على الإدراك والاحساس الفنى . ويجب أن نبيد ما أدخله القدماء فى البلاغة من الفلسفة والأصول والمنطق وعلم الكلام مستعنيين ببعض الدراسات النفسية وما لها من أثر فى الفن الأدبى ، ولكن لا الى الحد الذى تتجاوز فيه البحث البلاغى فتطغى عليه كما طغى المنطق وعلم الكلام فأخرجها عن غايتها الى من أجلها بحثت . وبذلك نهضت فى البلاغة العربية الروح من جديد لتكون صالحة لنقد الأدب ، وإنشائه ، وتكون ملائمة للفن الأدبى المعاصر . (١)

هذا رأى الدكتور مطلوب فى تجديد البلاغة . وهو يصلح منهاجاً صغيراً للتجديد له اعتباره وقدره بجانب المناهج الكبيرة التى سنوردها فى الباب الثالث من هذا البحث . وقد أعجبنى فى هذا المنهج دعوة وتحذير . أما الدعوة فهى الى نبذ ما أدخله القدماء فى البلاغة من الفلسفة والمنطق والأصول

وعلم الكلام ، وادخال - بدلا منها - بعض الدراسات النفسية لما لها من أثر
فى الفن الأدبى .

وأما التحذير : فهو من أن تتجاوز تلك الدراسات النفسية مداها فى البحث
البلاغى فتطغى عليه كما طغى المنطق والأصول وعلم الكلام من قبل .

وهذا التحذير - فى رأى - مهم جدا . لأن الكثير من دعوات التجديد
كما رأينا وكما سنرى - قد اقترحت ادخال الدراسات النفسية بدل المنطق
والفلسفة وغير ذلك مما أغرق البلاغة وغطى عليها حتى عادت كتب البلاغة كتباً فى
المنطق والفلسفة أكثر منها كتباً فى البلاغة . فنحن والأمير كذلك نخشى أن
تتحول كتب البلاغة فى مرحلة التجديد الى كتب فى الدراسات النفسية .

كما أعجبني فى هذا المنهج أيضا دعوة د . مطلوب الى تقليل المصطلحات
البلاغية والاكتفاء بأهمها . وهذه النقطة بالذات تشكل جانبا هاما من شكوى
الطلاب وانصرافهم عن الدرس البلاغى وغيقهم به . وما أورده من أمثلة جدير
بالنظر والاهتمام . فلماذا لانقصر المجاز على قسميه اللغوى والعقلى أو نعتبره
لغويا كله كما فعل السكاكى ونقطع أذنان الفروع والتقسيمات الأخرى والمهم أن
يستقر فى ذهن الطلاب المراد بلاغيا بالحقيقة والمجاز وأمثلة واحدة لكل منهما
فيها ذوق وجمال . وكذلك الاستعارة : لا داعى للاستطراد فى فروعها وأقسامها
بل نكتفى بالاستعارتين التصريحية والمكنية ونرد الأنواع الأخرى اليها بل ونعمل
على تبسيطهما قدر الامكان بحيث يفهم الطلاب الاستعارة ويقتنعون بها ويستطيعون
تطبيقها فى أحاديثهم وكتابتهم الأدبية . أما بالنسبة للمتخصصين فى الكليات
والدراسات العليا فلا مانع من الزيادة والتفصيل .

(٢) الدكتور على عبد الرازق :

ان التقسيمات الكثيرة التى تناولت أبواب البلاغة وطغت على أبحاثها ورأى الدكتور مطلوب أنه لا داعى لها ، واقترح اختصارها قد نبه الدكتور على عبد الرازق أيضا اليها والى قسوتها وسخفها وعدم جدواها ، قال : " وقد كان بوجدنا لو تيسر لنا البحث فى سر هذه التقسيمات التى حياءوا بها فى باب التشبيه ، وحياءوا بمثلها فى باب الاستعارة ، فان استخراج أقسام شتى لشيء واحد وتنويعه الى أنواع وأجناس وتحزيرة الى أجزاء أمر ميسور لكل ناظر ، سهل على كل من شاء ، ولو أننا ذهبنا نستخرج للتشبيه أقساما كالتي استخرجوها لكان فى مقدورنا وفى مقدور كل أحد أن نبلغ بالأقسام مئات وألوف . فلنا أن نقسمه باعتبار وجهه مثلا الى ما يكون وجه الشبه فيه ذاتيا من ذاتيات المشبه أو المشبه به أوهما ، أو يكون عرضيا كذلك ، والعرض اما أن يكون لازما أو متخلفا ، والمتخلف اما سريع الزوال أو بطيء ، فبنتج من ذلك خمسة عشر قسما فان شئت ضعفتها الى هعفين وأضعاف وان شئت اختصرتها .

وعلى هذا الأسلوب يمكن أن يقسم التشبيه باعتبار كل ركن من أركانه ، وكذلك يمكن القول فيه باعتبار أدواته ، ويمكن أن يعتبر فى التشبيه شيئا آخر غير أركانه الأربعة يلحق بها أقسامات وتنوعات

وكذلك القول فى الاستعارة وتقسيماتها . . . ومادامت مبانى التقسيم عندهم أمورا انتزاعية وشئونا اعتبارية فان لكل قادر شاء أن يعتبر وينتزع . اللهم الا أن يجعل الحكم فى ذلك للفائدة فلا يقبل من التقسيم الا ما كان اذا حظ من الفائدة والنفع وما كان داخلا تحت حدودها . . . (١)

وفى الواقع ان هذا الضيق من تلك التقسيمات الكثيرة والفروع المتداخلة ليس قاصرا على المحدثين ، ولا ضايقا به الجيل الجديد من الدارسين للبلاغة فقط ، فهذا هو سعد الدين التفتازانى - وهو أحد أقطاب المدرسة الكلامية - يمين على السكاكى كثرة التقسيمات التى أوردها فى التشبيه ويفضل عليه منهج عبد القاهر فيقول : " واعلم أن أمثال هذه التقسيمات التى لا تتفرع على أقسامها أحكام متفاوتة قليلة الحدود ، وكأن هذا ابتهاج من السكاكى بإطلاعه على اصطلاحات المتكلمين ، فلهذا درى الامام عبد القاهر وإحاطته بأسرار كلام العرب وخواص تراكيب البلغاء ، فأنه لم يزد فى هذا المقام على الكثير من أمثلة أنواع التشبيهات وتحقيق اللطائف المودعة فيها . (١) "

أجل ان هذه التقسيمات والتفريعات التى تناشرت هنا وهناك بكثرة هى من أهم الأسباب التى شوهت وجه البلاغة ، وحالت بين الدارسين والأدباء وبين فهمها وتفهمها واستعمالها فى النقد والأدب . فضايق بذلك مجال البلاغة وأصبحت على مر الأيام معزولة عن الحياة ، غريبة حتى بين أهلها .

(٣) الدكتور بدوى طبانة :

يرى د . طبانة : أن البلاغة تشريع للأدب يضع قواعده ويحدد أصوله ويرسم طريقته ومنهجه ، وإذا كان الأدب تعبيراً متاناً فإن البلاغة هي التي توضح معالم هذا التعبير الممتاز وتبرز عناصره لينتفع بها الأدباء حتى يستطيعوا أن يحققوا هدفهم الذي يرمون إليه من اقناع المقول أو التأثير في المواقف والقلوب

وإذا كانت تلك هي حقيقة البلاغة فإنها تتسع لدراسة فنون الأدب ورسم خطوطها ولا تقتصر على بعض الأجزاء القليلة من الفن الأدبي ، وإنما ينبغي أن تحدد كل فن من فنون الأدب وتشرح مظاهر الإحادة وأسباب التوفيق فيه كما رسمت الطريق للكلمة المفردة وللجملة المركبة .

ثم إن علم البلاغة هو " علم الأسلوب " ولا شك أن الأساليب تختلف من موضوع إلى موضوع كما تختلف من فن أدبي إلى فن أدبي آخر . وهذا الاختلاف يوجب علينا أن ندرس خصائص كل فن ونوضحه ونحدد جوهره وغايته وموضوعه وشكله ونشرح ما ينبغي أن يتوافر في كل منها . فللشعر أقسامه وفنونه وله معانيه وأخيلته وله صوره وأشكاله . وللنثر أبوابه القديمة من الخطاب والأمثال والوصايا والرسائل والمقامات والجدل والمنافرات ، وأبوابه الجديدة من المقالة التي تختلف في الموضوع والغاية ، والقصة التي ولدت في هذا العصر ونفق سوقها واتسعت دائرتها وتعددت أنواعها كما تعددت مناهجها ، والمسرحية التي عظم شأنها في الأدب العربي في هذا الزمان وكل فن من هذه الفنون جد يربآن تحدد معالمه وأن تعرف مواضع الإصابات فيه .

والموضع الدائري لهذه الدراسة هو البلاغة التي تستقى قواعدها من أعمال الأدباء ومن أعمال النقاد ثم تصفيها وتجعل منها دستورا قابلا للتجدد بتجدد المصور وتطور الأذواق ، فلا يكون لهذا الدستور صفة الخلود الا اذا خلدت المقاييس التي أثبتتها ووقف الأدباء في دائرتها لا يتجاوزونها وهيئات قد خول مثل هذه الدراسات في البلاغة يتفق تماما مع طبيعتها التي تضع أصول الفن الأدبي ، وتلك الأصول هي الخلاصة العلمية المنظمة التي اهتمت اليها الأجيال بعد درس لجميع الظواهر الفنية في الأدب .

بهذا تستطيع البلاغة أن تتفاعل مع الأدب وتتفاعل مع النقد الأدبي كما تتفاعل مع اللغة والبيئة وألوان الثقافة وفنون المعرفة التي تتصل بالأدب وتؤثر في الأدب . وهذا التفاعل هو الذي سيهيئ للبلاغة سبيل التجديد وسبيل الحياة .^(١)

هذا ومن قرأ كتاب الأسلوب للشايب يرى بوضوح اتفاق وجهات النظر بينهما في تجديد علم البلاغة . الا أن الأستاذ الشايب قد فصل منهجه في كتابه الأسلوب ، بينما د . طائفة قد أجمل هذا المنهج في آخر كتابه : البيان العربي .

(٤) الدكتور حنفى شرف:

يرى د . حنفى شرف أنه يجب علينا أن نعيد النظر فى قواعد البلاغة القديمة لتهذيبها مما أصابها من الخلافات والاعتراضات وتقديم المقدمات واستنتاج النتائج ، ونقل من القواعد وتكميل من الشواهد ونكشف عن الجمال الذى اكتسب رفعة مكانا . كما لا نفرض القاعدة على التحصيل نتحسس سبب الحسن والجمال فيه ، ولا بأس بأن ندمج بعض الألوان التى تتشابه حتى لانكثر التعريفات التى شوهت جمال البلاغة كما يجب ألا نقف فى التأليف البلاغى عند ذكر التعاريف والأمثلة بل نبين أسرار الجمال وحلته ذلك بالنفس الانسانية ، كما يجب فى التأليف البلاغى للناسئين أن نترك الأمثلة التقليدية التى لاتصلح للعصر الحاضر ولا تستعملها الا بالقدر الذى يودى الى فهم القديم ، لأنه لا جديد لمن لا قديم له ، كما ندع طريقة التلخيص وشروحه وخلق مسائل البلاغة بالفلسفة . ويجب علينا ألا نقف فى دراسة المفرد والجملة عند الحدود التى رسمها الأقدمون ، بل نبحث عن ألوان جديدة للجمال فى المفرد والجملة .

أما فى تطبيق مسائل البلاغة على النصوص الأدبية كمقياس من مقياس النقد الأدبى فيجب أن يعرض هذا التطبيق فى ثوب عصري مستفيد من دراسة الذوق والفن والجمال معتمد على الدراسة النفسية مؤثر للشرح والتوضيح .

ويرى د . حنفى أن الوقت قد حان لتجديد البلاغة العربية والنظر فى قواعدها وتطبيقها من جديد ، ذلك لأن سنة التطور التى تشمل الحياة تدعونا حتما الى التفكير الناقد فيما بين أيدينا من قواعد بلاغية قد تحجرت وأصيبت بالجمود فلم تعد مألوفة للنظر والقياس . وهناك دوافع كثيرة متضافرة تلح على تجديد البلاغة أهمها :

أولا : طبيعة الأدب العربي أن يتجدد وأن تسرى فيه دماء الحياة ، وقد واكبت قواعد البلاغة أدبنا العربي منذ ومن طويل . فقبل العصر العباسي كانت هناك نظرات في النقد وتعليقات على إنتاج الأدباء ، ومنذ أغل العصر العباسي حركات الترجمة التي نقلت إلى العربية بلاغة أرسطو ، والعلماء مشغولون بتأصيل قواعد البلاغة ، وقد سارت البلاغة والنقد منذ العصر العباسي في تيارين مختلفين : أحدهما : متأثر باليونانية وبلاغة أرسطو إلى حد واضح . والآخر : من وحى الذوق العربي الخالص .

ويرى د . حنفي أن البلاغة واكبت الأدب العربي ، ولكنها لم تؤثر التأثير الكافي في تمحيص الأدب كفن ، وشغلت بمسائل جزئية استهلكت طاقتها ، وبددت سلطانها وحسن قيامها على الأدب ، وأحسننا نحن في العصر الحديث بعد الثقة بين الأدب والبلاغة لما سرى في حياة الأدب الجديد من تطور . الأثر الذي يحفز الهممة ويدعو إلى إعادة النظر في البلاغة .

ثانيا : ينبغي أن يكون في الحساب أن البلاغة سناد الأدب قوامه عليه ، وإذا كانت نظرتنا اليوم إلى الأدب تقدمية ، إذ أن أدبنا صورة لحياتنا الجديدة ، فنحن نتنظر من الأدب اليوم أن يدفعنا إلى التطور ويزيد إحساسنا بالحياة التقدمية التي نعيشها ، فكيف يلتفت الأدب الحديث إلى البلاغة الجامدة يستوحىها ويمدحها ؟ ...

وقد جدت في فنون الأدب اليوم أشياء لم يرها أدبنا من قبل ولم يختر غمارها . فبأي مقياس نقوم ما جد على أدبنا من فنون ؟

ثالثا : أصبحت حياتنا خمية ، والاتجاه الذي يسود الناس هو الاتجاه العلمي المتعمق ، وكان لزاما علينا أن نغير مقاييس البلاغة بروج من البحث الخصب المتعمق .

هذا مع ملاحظة أننا حين تكسب بلاغتنا روحاً من الخصب والتعمق
 لانقصد أن نتحرف بها عن ميدانها الأصيل ، وهو الهيمنة على
 الأدب كفن ذوقى يقصد منه الاستمتاع الفني والدفع القوي الى سمو
 النفسى والوجدانى . ونحن نرى مقدار ما خاضت فيه الأبحاث النفسية
 وما جدد على حياتنا من علم نافع ، فعلم الجمال ، وأبحاث الذوق الفنى ،
 وعلم النفس الأدبى ، وبحث الصلات الواسعة بين الفنون - الموسيقى والتصوير
 والشعر والنحت وكل الفنون المعبرة - هذا كله يدفعنا الى إعادة النظر
 فى قواعد البلاغة والنقد على أساس متعمق خصب يستلهم هذه
 المنافع الفنية التى برزت فى هذا العصر .

رابعاً : ينبغى أن تحدد مهمة البلاغة الحديثة فى ظل الأدب
 وقد يكون واضحاً أن مهمة الأدب امتاع الذوق ، وإعلاء الفكر ، بما يحور
 لنا من خوالج النفس السوية ، ووضعات الفكر الباهر ، ولتكن البلاغة
 قواماً أميناً يرسم الطريق للذوق الأصيل ، ويشرح المنهج للفكر المستنير .^(١)

وبالتأمل فيما قاله د . حنفى شرف نجده يتفق مع كثير من
 الآراء والخطط التى أوردناها ، والتى تدور حول تخلية كتب البلاغة
 القديمة مما شابها من مسائل علم الكلام والمنطق والفلسفة ،
 وتقليل التقسيمات والفروع ، وتنقية الأمثلة والشواهد ، ثم الخروج
 بالبلاغة من نطاق الجملة والجملتين الى مجال النص الكامل .
 وبذلك تكون البلاغة كما يقول الدكتور : " قواماً أميناً يرسم
 الطريق للذوق الأصيل ، ويشرح المنهج للفكر المستنير " .

(١) التصوير البيانى من ٥٣٠ - ٥٣٤ بتصرف .

(٥) الدكتور على العمارى :

يرى د . العمارى : أن علم البلاغة أشد حاجة للبحث والدرس والتجديد من علمى اللغة والنحو . ذلك أن المتقدمين عنوا بالنحو واللغة أكثر مما عنوا بعلم البيان ، ووجد المتأخرون مجال البحث فيهما مبهدا فأكثروا من التأليف فى هذين العلمين ، وبخاصة علم النحو ، أما علم البلاغة فنبيل البحث فيها وعمر شائك ، وليس فى استطاعة كل من تحدثه نفسه أن يقول فى البيان قولا ، لأن هذه الناحية من الدرس لا تحتاج الى التحصيل وحده ، وإنما تعتمد الى حد كبير على ذوق سليم وطبع مسعف .

الشكوى من اإهمال البلاغة :

ولقد ظهرت الشكوى من الإهمال فى علم البيان فى وقت مبكر ، فوجدنا عبد القاهر الجرجانى يتحدث فى أكثر من موضع عن التقصير فى تحصيل هذه العلم حتى ليقول : " لا ترى فى الدنيا علما قد جرى الأمر فيه بديثا وأخيرا على ما جرى عليه فى علم الفصاحة والبيان . . فانك اذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جملة أو كلمة رمزا ووحيا . . . وأما الأخير فهو أنا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم فى شىء من العلم أن يحفظوا كلاما للأولين ويتدارسوه من غير أن يعرفوا له معنى العلم الفصاحة " . (١)

ولم تكن الحال بعد عبد القاهر بأحسن منها قبله ، فهذا الامام أبو يعقوب السكاكى يشكو من الشكوى من أن علم البيان مع ماله " من الشرف الظاهر ، والفضل الباهر ، لا ترى علما لقى من الضيم ملقى ، ولا منى من سم الخسف بما منى " . (٢) وان كانت شكوى السكاكى تختلف عن شكوى الشيخ عبد القاهر ، فالامام الجرجانى يشكو من غشوى مسائل البيان عند المتقدمين ،

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٥٠ بتصرف

(٢) مفتاح العلم ص ١٧٨

ومن التقليد والجمود ، وعدم الغوص على معانى الأوائل عند المتأخرين ، ويتألم لما يظهر فى بحوث البيان من فحش الخطأ ، والذهاب مع الظنون الفاسدة .
وأما السكاكى فشكواه من تفرق مسائل البيان ، وأن أحدا لم يمهّد لها قواعد ، ولم يرتب لها شواهد ، وكل مسألة من هذه المسائل ذاهبة فى مجاهل علم من العلم "علم تراه أيادى سبأ ، فجزء حوته الدبور جزء حوته الصبا" . (١)

وشمر السكاكى لضبط متفرقاته ذيله ، واستنصر فى استخلاصها من الأيدى رجاله وخيله ، ومن قبله جدد عبد القاهر فى تخليص العلم من الظنون الفاسدة ، وبالغ فى الابانة والتوضيح ، ولكن الشكوى ما برحت تظهر كلما تقدمنا مع العصور ، فقد عكف العلماء والمتعلمون على ما كتبه السكاكى ، يستظهرونه ويجادلون حول الفاظه ، دون أن يفيدوا العلم بجديد . مما دعا سعد الدين التفتازانى أن يقول فى مقدمة شرحه "المختصر" عن علم البيان : "وان هذا الفن قد نضب اليم مأوه فصار جدا لا بلا أثر ، وذهب رواؤه فعاد خلافا بلا اثر" .

بلافتنا اليوم :

ولسنا اليوم فى حال أحسن من عهد من هذه الجهود الثلاثة فيما يتعلق بهذه العلم ، فقد تغيرت الدنيا ، وتقدمت الدراسات وثبت بما لا يدع مجالا للشك ، أن دراسة البلاغة على الطريقة المدرسية وتحصيلها على أنما قوانين جافة وقواعد مضبوطة لا يفيد هذه العلم ولا يفيد طلابها ، ولا يمكن بحال أن يساعد على تنمية الملكة وتربية حاسة الادراك . بل ربما كان له أثر عكسى ، كما هو الحال فيما نشاهده من أذواق المتعمقين فى دراسة كتب البلاغة السكاكية . ومع كل هذا لانزال مصرين على أن يقضى الطلاب أعمارهم فى استظهار طائفة كبيرة من التعريفات ، ويحدد لاحصر له من التقسيمات التى لا طائل وراءها .

کیف نجدد بلاغتنا :

وإذا كان لابد من دراسة البلاغة فى دائرة علمية ، فنحن فى حاجة الى من ينظر ويحايل النظر فى هذه الكتب القديمة ، ويعرضها لنا بأسلوب جديد ، وبطريقة جديدة أقرب الى روح الفن ، وأعود بالفائدة على الراغبين . (١) ويقول فى موضع آخر :

وعندنا أمران لاثالث لهما : اما أن نضع ضوابط جديدة لهذه العلوم (علوم البلاغة) ... وهذه الضوابط الجديدة - على الرغم من الصيحات المتتابة - لم نضمها . واما أن نصوغ هذه القواعد التى بين أيدينا صياغة جديدة ، ونلتصّل بها من كتب النقد والأدب شواهد جديدة . . . حينئذ نكون قد قاربنا حقا بين قواعد البلاغة وبين النقد الأدبي وصناعة الأرب . (٢)

وفى موضع ثالث يقول أيضا ، بعد أن عرض عرضاً موجزاً للمذهبين الأدبى والكلامى : نريد أن نحدد مواضع أقدامنا من دراسة البلاغة . وقبل أن نحدد الوضع الذى نريده نلمح بشئ عن الطارق التى تسير عليها دراسة البلاغة عندنا . فالازهر والمصاهد التى تخذ وحذوه لاتزال كلها تدور فى تلك السكاكى ، تدرس التلخيص والايضاح مشروحين على الطريقة القديمة ، أو على الطريقة الحديثة ، وإذا كان قد جد شئ فى السنوات الأخيرة فانما هو لفظة ضعيفة الى كتب عبد القاهر

ورجال وزارة التربية والتعليم نظروا فى البلاغة الضربية فنقلوها
الىنا حطة ، بالطريقة من هناك والامثلة من هنا ، ولقد نقرأ الكتاب
المرسوم بالبلاغة والنقد المقرر على الفرقة الأخيرة من المرحلة الثانوية
فلا نجد فيه أثرا لقاعدة من القواعد ، ولقد جاء فى كثير من القلائد
وهم أشبه بالضالين فى بيداء لا يعرفون منها مخرجا .

(١) قضايا بلاغية : ص ٧٥ - ٧٦ (٢) المرجع السابق ص ١٢٢ .

نعم تعلم اللغة يكون أجدى لو كان بالممارسة ، فيخلى التلميذ ونفسه ليقراً ويتحدث ويحفظ فيتذوق ويكتسب . ولكن كم من الوقت والجهد يحتاجه التلميذ ليصل بهذه الوسيلة الى غايته . لو أن فى الوقت متسعاً ، ولو أن التلميذ لا يدرس الا هذه المادة لقننا : ان هذه أجدى طريقة ، ولكن اذا كانت العلوم الأخرى تملأ كل وقته ، واذا كانت المدة التى يقضيها فى دراسة البلاغة مدة وجيزة ، فكيف نتوهم أنه يتمكن من اكتساب الذوق وتكوين الطلاقة . اننى لا أدعو الى حشو ذهن الطالب بالقواعد والضوابط ، ولكن مع ذلك لا أرى أن يخرج من المرحلة الثانوية وهو يجهل قواعد البلاغة وضوابطها . وأبعد من ذلك فى الخيال ، وفى توهم أن تثمر دراسة البلاغة ، أن نترك الأمر للمدرس . نعم ، يرى بعض الذين قضوا أعمارهم فى دراسة البلاغة أن نترك الأمر للمدرس ، وفى ذلك يقول أحدهم : " ولمضى فى هذا المقام أجهر ببقية رأيي ، وهو ألا توضع كتب مقررة ، بل يترك كل مدرس ، وبخاصة فى هذه الدراسة الفنية الأدبية التى تتأثر باقليمها تأثيراً شديداً ، يترك كل مدرس ليضع بين يدي تلاميذه مراجع المذاكرة وتحصيل ما عرضه عليهم فى صورته التى عرضه بها ، وما أهون أن يهين لهم ذلك اذا ما يسرت له الجهات الادارية سبله ، وببذل قليل مما تنفقه ثمناً لهذه الكتب " . (١)

وما أشك أن هذا كلام يقوله رجل لم يختلط بأوساط المدرسين ، وقد يظن أن كثيرين منهم نوابغ يستطيعون أن يضعوا المنهج ويؤلفوا عليه المذكرات ويلقنوه بعد ذلك لتلاميذهم . والخلاصة : أن على الذين يتمسكون بمنهج المتكلمين أن يتخلوا قليلاً عن تعصبهم لهذا المنهج ،

وأن يلتفتوا الى الكتب الاخرى التى ألفت على منهج آخر ، فيأخذوا منها ما يلفظ هذا الجوالذى لا أجده له وصفا الا ما وصف به شعر أبى تمام ، فقد قالوا : ان أباتمام " استكره الألفاظ والمعاني ففسد شعره ، وذهب طالوته ، ونشف ماؤه " .

وعلى الذين يمشون فى أجواء باريس أو لندن أن يدركوا أن لنا بلاغة عربية مهما قيل فيها فانه لاغنى لعربى عنها ، وأن الضوابط ليست عديدة الجدوى ، بل ربما كانت ضرورية فى بعض الأحيان . وياحبذا لو تقاربت البلاغتان ، فكان منهما مزج طيب يبقى على تراثنا القديم ، ويسير بنا فى الطريق السوى ، ويعطى الدارس ذوقا وعلما .^(١)

وهكذا نجد الدكتور العمارى قد رفع صوته أكثر من مرة موضحا حاجة البلاغة الى التجديد وشارحا ظروفها وما صارت اليه فى العصر الحديث . كما نجده فى دعوته الى التجديد من أنصار تجديد القديم وتطعيمه بالمناسب والصالح من الجديد . فالجديد عنده يجب أن يقوم على أساس من القديم ، فمن لا قديم له لا جديد له والقديم عنده لا يصلح أساسا للجديد الا بعد تنقيته من طائفة كبيرة من التعريفات وعدد لا يكاد يحصى من التقسيمات واستبعاد مسائل الخلاف والجدل العقيم وغيره من آثار المدرسة الكلامية ، فهذا القديم - كما يقول - يجب أن " يمرض بأسلوب جديد ، وبطريقة جديدة أقرب الى روح الفن ، وأعود بالفائدة على الراغبين " . وبعد ذلك نضيف اليه مانشا " ومانراه مالحا من الجديد . " فياحبذا لو تقاربت البلاغتان ، فكان منهما مزج طيب ، يبقى على تراثنا ، ويسير بنا فى الطريق السوى ، ويعطى الدارس ذوقا وعلما " .

(١) قضايا بلاغية د . العمارى - ص ٥١ - ٥٣ .

(٦) الدكتور محمد نايل :

يرى د . نايل أن احياء البلاغة العربية وتجديدها يتطلب
انقلابين عظيمين : أحدهما فى البلاغة نفسها ، والثانى فى الأدب
ودراسته . أما الأول فيكون بثلاثة أمور :
أولا : ازالة الأبحاث الدخلية التى لاصلة لها بالبلاغة من منطق
وفلسفة وغيرهما ، وابطال الآثار التى بنيت على هذا الدخيل من
الامعان فى الحصر والتعديد والتقسيم ، واعادة تنظيم البلاغة على
أسس تتصل بالذوق والجمال والتأثير .

ثانيا : تجنب العمق الفلسفى فى طرائق كشف الأسرار والنكات
البلاغية وتبسيطها بكل سبيل ، لأن البلاغة فن جميل ، وطبيعة
الفنون الجميلة لا تقبل كثرة العمق والتدقيق ، لأن ذلك يذهب
بجمالها وروائها ، ثم الاستعاضة عن هذا العمق بالمرح والواسع
لأساليب البيان الساحرة ، وأناشيد الخالدة ، فان البلاغة لا تحيا
ولا تفلح فى طبع الأذواق وتنمية المواهب الا اذا رجعت الى حظيرة
الأدب القوى الحى ، تستمد منه غذاءها ، وتستوعب من غيره ما
يتسع لها جهدها .

ثالثا : احياء الكتب التى خلفها لنا العصر الأول ، فانها لاتزال
الرائد الصادق والمرشد الموفق . تهدى الى السبيل القيم فى
درس البلاغة وفهم أسرار العربية ولطائفها ، وانما المواهب ومقلها
فهى لاتزال شاهد اعلى صفاء تلك القرائح ، وسلامة هاتيك الأذواق
وهى لاتزال الى اليوم تورى رونقا وحدة ، وتفيض حياة وقوة ، ولن
تزال كذلك حتى يطفر الزمن طفرة جديدة ، فيأتى بشئ يزاها
فى هذا الميدان .^(١)

ومن هذا الصرض ندرك مدى التوافق بين آراء الدكتور نايل وبين آراء الدكتور العمارى السابقة . غير أننا لا نرى أن احياء كتب التراث من التجديد . فاحياء الكتب التى خلفها لنا العصر الأول - وهو لا شك يقصد كتب عبد القاهر وأمثالها - شئ ، لا نضعه ولا نعارضه ، بل نشجع عليه ونستحسنه ، ولكن أن تكون هذه الكتب هى مادة الدراسة فى الوقت الحاضر فهو ما نعترض عليه ونعارضه ، لأن ذلك عود بنا الى ما قبل عهد السكاكى ، وفرق بين عصرنا وذلك العصر البعيد ، وحتى عندما قام الامام الشيخ محمد عبده فى أوائل هذا القرن بتدريس كتابى الشيخ عبد القاهر فى الأزهر لم يكن ذلك تجديدا وإنما كان احياء للتراث ، وربما كان عصر الشيخ محمد عبده على قربه مناسبا لتدريس هذه الكتب . أما اليوم وفى أواخر القرن العشرين ، وقد ارتفعت الأصوات هنا وهناك بتجديد البلاغة والاستفادة من العلوم الحديثة وطبع الدراسة والكتب بطابع حديث ، فلا أظن أن وضع تلك الكتب القديمة موضع التدريس لائق أو مجد .

كان هذا هو حديث د . نايل عن البلاغة وتعقينا عليه . أما حديثه عن الانقلاب الثانى ، وهو الانقلاب الأدبى ، فانا نورد باختصارا تاما للفائدة ، ولأن الأدب والبلاغة صنوان وتوأمين : فأما الانقلاب الأدبى فمتصم لهذا الانقلاب ، ومعين له على أحداث الثمرة المرجوة ، والغاية المقصودة ، وأعنى به هنا أن يتجه الدرس الأدبى الى النقد الواسع والموازنة الخصبة بين الآثار الأدبية ،

فاننا نحسن أن تاريخ الأدب طغى فى الدراسة على الأدب نفسه
 أغيانا شديدا حتى أوشك أن يحوذاته وشخصيته ، وعاد
 الأدب متخما بنظرياته وتراجمه التاريخية ، يتسع فيها ويسرف ،
 فاذا جاء الى النصوص الأدبية مربها سريعا كأن لم تكن هى
 الغاية ، حتى خلا من اللذة والمتعة التى كان يجب ألا تفارقه
 أبدا ، فحياة الأدب الصحيح فى أن يكون حظ التراث الأدبى
 فيه هو الغالب فى الدرس ، وأن يقف الدارس عند حسناته
 وسيئاته واحدة فواحدة مع النقد الحر والموازنة الواسعة ،
 فانه بذلك يصبح أدبا حقيقيا ممتعا خصبا ، يخرج الأديب
 والناقد ، ويمين البلاغة على مهمتها أبلغ عون وعلى أكمل
 وجه .^(١)

(٧) الدكتور كامل الخولى :

يرى د . كامل أنه لكي تصبح البلاغة فنا جميلا يجب مراعاة خمسة أمور :-

١- يجب أن تتصل البلاغة العربية اتصالا وثيقا بالنبع القرآنى الفياض الزاخر بشتى الصور البلاغية ، ففي ذلك الاتصال اصداد البلاغة بالماء الذى أبقى لها الرى والنماء وحفظ لها روح الفن وسحر الأدب ، ويوم أن حال المتأخرون بينها وبين هذا النبع وقصروهما على مثلهم المرددة الموروثة جمدت وجف ماؤها وذهب رونقها وفقدت جمال الفن وروعة الأدب .

٢- اذا أردنا أن ندرس الصورة البيانية فيجب أن ندرسها لا ذراك أثرها الفنى الأدبى ، وذلك مثلما فعل عبد القاهر فى التمثيل والرمانى فى الاستعارة ، وبهذا النهج تتضح الصلة أمام المدارس بين دراسة البلاغة والأداء الجميل .

٣- يجب أن نكثر من الموازنات الأدبية فى البلاغة بين الصور المختلفة فى الأداء والخواص مع بيان الأثر النفسى للتعبير الأدبى ، وألا يكون هذا الى الضوابط الجافة ، والاسراف فى تمييز الحدود والرسوم ، والرد على الشبهات وتفصيل الاعتراضات حتى نستطيع أن نخلق جوا من الجمال يهيمن على فن البلاغة ويوحى الى من يدرسها بأنه يمارس فنا يعينه على ادراك الجمال فى الكلام الأدبى ويأخذ بيده الى التعبير الرائع الجميل .

٤- يجب أن نحى عن منهج المدرسة الأدبية القديمة التى تتمثل فى نهج الخطايب وعبد القاهر فى دراسة النظم ، ودراسة عبد القاهر وأبى هلال للصورة البيانية ، فى ظل البيان المعجز والغنى الزاخر من شتى الصور بالحياة والجمال البيانى ،

عسى أن يكون ذلك لافتا لنهج قوييم فى دراسة البيان تمت معه
البلاغة واكتملت أصولها .

هـ - يجب أن نجرد المباحث البلاغية من النحو الخالص الذى
وضع بذوره عبد القاهر ، ومباحث المنطق كالدلالات والجامع
وغيرهما ، وجميع المباحث الفلسفية التى وشحت بها الشروح ،
وإذا التمسنا أصول البحث البلاغى فى منابمه الأولى وعرضنا
جوهره بالصورة التى يتقبلها العصر الذى نعيش فيه بلسان الأرب
ونذوق الناقد على نحو يقربه من الأرب والنقد ويدنيه من الفن
والجمال نكون قد أسهمنا بحظ محدود فى بحث البلاغة وأحيائها^(١).

وإذا أمعنا النظر فى رأى الدكتور كامل الخولى رأينا أنه أيضا
من أنصار أحياء التراث وبحث القديم ومن المعجبين بالمدرسة
الأدبية القديمة ونهجها .

وهو أيضا يرى تخليص القديم من الضوابط الجافة والاسراف فى
تمييز الحدود والرسوم والرد على الشبهات وتفصيل الاعتراضات
وغير ذلك مما جعل كتب المدرسة الكلامية الموروثة (ضررها أكثر
من نفعها) .

ولذلك فهو يرى أنه " إذا التمسنا أصول البحث البلاغى فى منابمه
الأولى ، وعرضنا جوهره بالصورة التى يتقبلها العصر الذى نعيش
فيه نكون قد أسهمنا بحظ محدود فى بحث البلاغة
وأحيائها " .

وأقول : انه لا يكفى بحث البلاغة وأحيائها ، فان هذا - كما
قال - حظ محدود نمطيه لبلاغتنا ، ولكن لابد بعد أحيائها
من إضافة الجديد المناسب اليها ،

(١) أثر القرآن فى تطور البلاغة العربية ص ٢٣٨ - ٢٤٤ بتصرف .

حتى تستطيع أن تواكب الزمن وتأخذ مكانها اللائق بها بين
علوم الأدب واللغة .

والجديد في رأى الدكتور كامل أنه نبه الى نقطة أغفلتها
الآراء السابقة ، ولا أظنها أغفلتها الا لبدايتها وأنهما بالضرورة
من أسس البلاغة وأسباب وجودها ، ذلك هو اتصال البلاغة
اتصالا وثيقا بالنبع القرآنى ، فذلك أمر لا ريب فيه ولا جدال .

وأعود فأقول : ان هذه الآراء ، وما سبقها من بحوث
ومحاضرات ، انما كانت بدايات طيبة وبنوادر مفضلة ودعوات صادقة
لتجديد البلاغة ، وكان لها ولا شك أثرها فى انعاش قضية
البلاغة العربية ، وإشارة انتباه المهتمين بشأنها الى وجوب
تجديدها .

ومن أهم البدايات التى كان لها الأثر البالغ فى انعاش
قضية البلاغة " حركة الرسالة " تلك المعركة البلاغية التى دارت
على صفحات مجلة الرسالة ، وكان لها فى ذلك الوقت طينتها
ومداها . وهى ما سنعرض له ان شاء الله فى الفصل القادم .

الباب الثاني

الفصل الثالث

حركة الرسالة

تحدثنا فيما مضى عن أهم البحوث والمحاضرات فى البلاغة وتجديدها وعرضنا آراء بعض الأساتذة الذين يشتغلون بتدريس البلاغة فى الجامعات وما سبق ذلك من مبادرات ومحاولات . وقلنا ان ذلك كله انما كانت بوادر وبدايات ومحاولات لنها قيمتها فى تجديد البلاغة والنهوض بها .

ومن أهم تلك البدايات : حركة الرسالة * تلك المعركة البلاغية التى قامت على صفحات مجلة الرسالة عام ١٩٤٦ وما بعده بين الدكتور على الصمارى والاستاذ الخولى وغيرهما ، فأتت ثمارها ، وحركت قضية البلاغة من سباتها ، وكان آثارها أن عكف الاستاذ أمين الخولى على كتابه (فن القول) الذى وضع فيه تخطيطا ومنهجاً جديداً للبلاغة العربية . وهذا بالإضافة الى كتاب دفاع عن البلاغة للاستاذ احمد حسن الزيات الذى كتبته فى مواجهة تلك الموجهة التى تهاجم بلاغتنا ولغتنا ، وكان على رأس من ركبوا هذه الموجهة سلامة موسى فى كتابه " البلاغة المصرية " .

وقبل أن نخوض فى غمار كل ذلك وغيره نعود الى حركة الرسالة التى حركت قضية البلاغة من سباتها ، وجعلتها حديث الرأى العام فى ذلك الحين - وسأعرض هنا هذه المعركة كما وردت فى أعداد مجلة الرسالة دون تدخل منى الا بقدر ما يقتضيه البحث وما يعين لنا من تعليق .

والذى حرك هذه المعركة البلاغية واشعل فتيلها هو الدكتور على الصمارى وذلك أن الاستاذ أمين الخولى حينما بدأ القاء دروسه البلاغية فى كلية الآداب كان متشبعاً بفكرة التجديد فى علوم اللغة العربية وخاصة البلاغة ،

فكانت محاضراته تتسم بحرية التفكير والخروج عن الطابع المتعارف عليه
وقتنئذ في الدراسات البلاغية . . لكنه - وقد كان في مبدأ حياته التجديدية
- ارتكب بعض الأخطاء وأملأها لطلابه ، فهال ^{ذلك} بعض العلماء ، وتصدى له
العماري ، والطنطاوي ، ودافع عن الشيخ أمين الخولي الأستاذ المرحوم
كامل شاهين ، ودارت بين الطرفين معركة بلاغية هامية الوطيس .
وقد بدأ الدكتور العماري هجومه بمقالات عدة عنوانها :
علوم البلاغة في الجامعة .
واليك المقال الأول :

علوم البلاغة فى الجامعة

يحلوا لبعض المعاصرين أن يسموا أنفسهم مجددين ، كل فيما يزاول من علم أو فن ، ولعل هذا الادعاء عارض نفسى يعرض للكثيرين فى كل عصر ولا سيما من يفرغون بالشهرة ، ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا .

وتجدد هؤلاء عجب من العجب ، فما هو الا أن تعن فكرة فى رأس احدهم حتى يطير ، ويكاد يجن فرحا وغرورا ، ولو عرف قدر نفسه وتأنى قليلا لادرك أنما خيل له ، وليس هو التجديد ، ولكنه قصور الفهم ، وضلال العقل ، وعمل الغرور . وربما اكتفى أحدهم بدرس كتاب أو كتابين فى المادة التى يريد أن يجد فيها ، ثم بعد ذلك يشهد العالم على أن العلماء قصروا ، وانهم لم يفهموا ، ولولم عن الفهم ، ولموسع دائرة اطلاعه لقد كان وجد فى كتب القوم ما يرد نزعتهم ، ويطفئ شهوته .

وقد منيت علوم البلاغة فى هذا العصر بدعاة التجديد ، وهى فى شديده الحاجة الى من يجدد أخلافتها ، ولكنها لا تنظر الا بالدعاوى العريضة الكاذبة وتستطيع أن تقول : ان التجديد فيها وقف بعد الامام الجليل الشيخ عبدالقناهر الجرجانى ، وان ما بذل بعد ذلك ليس الا محاولات بسيطة ان لست بعض النواحي فى هذا الفن فانها لم تخلص الى اللباب . وان فى (دفاع عن البلاغة) للاستاذ الزيات ، وفى مذكرات فى علوم البلاغة (لفضيلة الشيخ سليمان نوار ، وفى (التصوير الفنى للقرآن) للاستاذ سيد قطب ، أقول ان فى هذه الكتب لوثبات تبشر بخير ، وهى بعد جديرة بالتقدير .

ويمكن أن ننظر فى محصول هذا العصر البلاغى فنجد بعض العلماء قنع بأن يجمع الاشتات ، ويؤلف المتفرقات ، ثم يدعى أنه فى البلاغة ألف ، وبعضهم يعمد الى الورق المقل ، والطبع الانيق ، ليقول انه فى البلاغة جدد .

ولعل شر الثلاثة هؤلاء الذين يفترون على العلم ، ويكذبون على القدامى ، ويكثرون من ثلبهم وتنقصهم ، ليقال انهم وحدهم الذين عرفوا وقد جهل الناس ، ووصلوا وقد تخاذل العلماء .

بين يدي الآن مذكرات في علم المعانى أسلاها الأستاذ الشيخ امين الخولى على طابته فى الجامعة المصرية ، وفيها كثير مما يستحق أن يناقش ، ولكنى رأيت أن يشركنى القارئ فى هذا الأسلوب الذى يدرس به هؤلاء الأعلام . وانما يعنينى هذا الأمر لأن البلاغة فن من الفنون قبل أن تكون علما من العلوم ، ومادامت فنا فهى تتطلب ما تتطلبه الفنون من حسن العرض وجمال التنسيق وخلق الذوق الأدبى فى المتعلمين ، ولهذا كانت حاجتها الى الاكثار من النماذج العربية الصحيحة الفصيحة ، ومن العرض المتأنق الجميل الحاجة القصوى . ولكن ماذا نقول حين نرى أستاذ البلاغة فى الجامعة المصرية يعرض هذا الفن ، كما يعرض واعظ العامة موعظته فى أسلوب عامى ركيك .

ولنقتصر الآن على عرض لثلاث آيات من كتاب الله الكريم :

١ - " وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم "

يشرحها الأستاذ هكذا . . . (وبعبارة أخرى يريد الله أن يقول : هو محمد ده يطالع ايه ؟ محمد هذا والرسل من قبله مجرد سعاة بوسته . . . هو مرسل زى المراسيل اللى قبله . . . يجي ويروح ويموت وينقتل . . . الخ . . . فاذا حصل شئ من هذا يبقى خلاص انقطع ما بينكم وبين الله ؟ هو يمتنعهم لا على نكوصهم عن محمد ، بل لنكوصهم من أجل موت محمد " ولذا يقول : أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . الخ انتهى بنهه وفهه !! . صدقنى - أيها القارئ - أن هذه عبارته ، فهل هذا هو التجديد ؟ !

هذا كلام يمكن أن نتصور صدوره من واعظ يلقي عظه على جماعة من البرابرة

فيضطر الى أن ينحدر هذا الانحدار ، على أنى واثق من أن مثل هذا الواظ يعف لسانه وذوقه عن هذا الهديان .
ولكن ما الحيلة والرجل من كبار المجددين فى علوم البلاغة ، أليس التجديد هو مخالفة الأقدمين ؟ أليس التجديد هو البساطة والحذف ؟ وما المانع من أن يلقي على طلبة الجامعة أن محمدا وعيسى وموسى وابراهيم وجميع الرسل ليسوا الا " سعاة بوسته " ؟ وهل فى السنسنة البلاغيين أصدق وأبسط وأحسن من هذا التعبير الجميل الظريف الخفيف ؟

٢ - قال الله تعالى : " وما أنت بمسمع من فى القبور ان أنت الا نذير " وقال الشيخ نفعا الله به ويعلمه آمين : (انت مش حاتسمع اللى فى القبور والحقيقة انه هوه مش قدام أموات ، وانما ناس ألواح وبهايم ، والقرآن بيقله له : انك حريص قوى على هدايتهم ، والاحسن انك ما تحرصش كثير على هذه الهداية . قال له ذلك لأنه شاف انه كاد لفرط عنايته به أن يهتدى هؤلاء " أن يخرج عن حده فينس أن مهمته هى مجرد التبليغ هوه عمال يحرق فى دمه مع الناس دول ، ووقاؤه لمهمته هو الذى يحمله على الاسراف فى الاحاج ويهز فى هذه الألواح ، ويحاول أن يبعث فيهم نفحة من الهداية بأى ثمن . فقال له الله : يا أخى انت حارق نفسك ليه . . . انت ما نتش حاجة أبدا الا نذير تنذر من ينذر ، وتخوف من يخاف ، وتعلم من يتعلم ، وتنبيه من يتنبه ، ودول أموات . . . فالأحسن أنك تريح نفسك) .

والله ما أدري ماذا أقول ؟ وانى لخائف أن أقابل هذا الكلام بما هو جدير فيستثقل القراء ويستهزئون كلماتي ، ولو أن فى الجامعة قوما يحاسبون المدرس لا تهموا هذا الشئان بتهم أقلها افساد أذواق التلاميذ .
على أن شرحه بعدد ركائته وتهافته ليس موافقا كل الموافقة لما تنطق به الآية ، وادراك ذلك سهل ميسور .

٣ - وقال عز وجل : " وإن قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله " .
ويقول الشيخ : (الحوار في هذه الآيات بين عيسى وبين الله حوار خيالي محض صور وقوعه بعد أن انتقل عيسى من هذا العالم الذي نحن فيه بدليل " فلما توفيتني " وكأن الله يقول لهم : انتم بتقولوا عيسى ده اله ، وانه هو الهى أمركم انكم تعبدوه . . . نجيبه ؟ نسحبه ونسأله ؟ ثم صور بعد ذلك أنه لو قام وبعث الى الحياة لدار بينه وبين الله هذا الحوار : الناس الباردين دول . . . هل انت قلت لهم يا عيسى انك اله ؟ قوللهم ؟ قوللهم يا أخى (! !)

بمثل هذه الأساليب البارة الفاتنة يلقى مدرس البلاغة في جامعة فؤاد الأول وسيد المجددين كما يدعى . . . يلقى دروسه ومن الانصاف أن نذكر أن الاستاذ الفاضل أدرك أخيراً ما فى هذه الأساليب من ضعف وسخافة ، فأشار على تلاميذه أن يملأوا بالقلم على بعضها ، ولكنه بعد قلم خفيف ، ان مر على دفاترهم فلن يمر على أفكارهم وأن هانهم .

الشيخ على الطنطاوى يتهم الشيخ أمين الخولى
بالكفر والالحاد

ما كادت المقالة الأولى للدكتور العمارى تنشر حتى تلقفها الشيخ على الطنطاوى واتهم الشيخ أمين بالكفر والالحاد . وفى ذلك يقول موجهها حديثه الى الدكتور العمارى : . . .

قرأت ما كتبت ياسيدى فى العدد ٦٨٧ ، فقل لى سألتك بالله : أنت تجد أم تهزل ؟ وهل تنقل هذا الهذيان عن أستاذ فى الجامعة أم عن حشاش فى القهوة ؟ وهل هذه هى دروس الجامعة التى نرسل اليها أبناءنا ليفترفوا من علوم أساتذتها ما يعودون به معلمين فى مدارسنا ؟ وهل هذا هو دين التجديد الذى يبحث به نبي البلاغة فى آخر الزمان ؟

وإذا نحن احتملنا الركافة والمجزأفاحتمل الكفر من هذا الشيخ الذى يقرر أن الله قال لمحمد : ياأخى انت حارق نفسك ليه ؟ لقد عرفنا من جعل لله صاحبة وولدا ، ولكننا لم نعرف قبل اليوم من جعل لله أخا ، أفلا يرضى الشيخ إلا أن يكون مجددا فى الشرك بالله ؟ تعالى الله عما يقول المشركون علوا كبيرا ؟ ولا يمجبه إلا أن يفتح له الى جهنم باب خاص .

وماذا يقول صديقنا الحميد الدكتور عزام وهو العالم البليغ المؤمن فى هذا الجهل والحق والكفر ؟

أما أنا فأقول : أعيدوا أولادنا الى باريز ليعلموا فيها العربية كما كانوا فان الجهل الذى يعودون به من باريز أهون من الكفر الذى يرجعون به من الشيخ أمين الخولى .

الاستاذ كامل السيد شاهين نيود على
الاستاذ بين العمارى والطنطاوى

كان هذا المقال بعنوان : علوم البلاغة بين القدماء والمحدثين .
وقد استهل المقال بقوله : مدرسة الرسالة لها طابعها الخاص فى الساحة
والنقاش على هذا أسست ، وامتحنتها الأيام بضروب من المحن ، فثبتت على
الزعازع ، وانتصرت على الأغراض والأهواء ، يعلم ذلك من تابع الرسالة منذ
مولدها الميمون الى حاضرها الزاهر ، فالرسالة للجميع بلا تفضيل ولا إبطار ،
لأن البحث والدرس يلدان الحقيقة التى كانت نشدة أصحاب العقول . . .
ثم يرد على العالمين الجليلين فيقول : فليسمح لى الزميلان الطنطاوى
والعمارى أن ألقت نظرهما فى رفق الى مزالق ماكنت أحب لهما أن يتورطا
فيها أو ينحدرا اليها .
فقد راع الأول أن يقول أستاذ البلاغة فى الجامعة : الله يقول لنبيه
: يا أخی انت حارق نفسك ليه ؟ وراح يزعم أن هذا اشراك وكفر ، ويستمدى
على الجامعة والجامعيين ، ويشير الناس ليتداركوا أبناءهم أن يجرفهم تيسار
الشرك والالحاد .
بالله هون عليك يا على فليس ثمة شرك ولا كفر وانت اخبر الناس بذلك وأدراهم ،
ان هذه الكلمة قد فقدت حقيقتها فى أفواه الناس . ألم تسمع الفلاح يهز حمارة
ويقول : يا أخی سر ، أفترأه قصد أخوة النسب أو الرضاع أو الآدمية . أو الحارمية
. . لا . . انما هى كلمة تحنن وتعطف . وشبه بهذا قول السائق لحصانه
: يا شيخ . والنظائر فى هذا أكثر من أن تحصى ، فلا ترع ولا تستغفر ، وابسق
على الجامعة والجامعيين ، ودع حديث الكفر والالحاد ، فقد جنت منه مصر
ثمرا مرا فى دهر طويل كانت حرية أن تصرفه فيما يفيد ويغنى .
ثم اللغة العربية ليست لغة الايمان والاسلام ، فقد سبقت الايمان والتوحيد
بقرون طويلة . فأن أبيت الا أن تخرج لغة مؤمنة مسلمة موحدة فدونسك فامنع

دراستها في كلية اللغة ودار العلوم بمصر ودار العلوم ببغداد ، ثم ادعنا
وانا ان شاء الله لمستحيون .

وأما أنت يا عمري فكنت بمنجاة من اللوم ان عرضت للأسلوب الذي تدرس
به البلاغة في الجامعة ، فكل امرئ فيما يحاول مذهب .

وراح الأستاذ شاهين يرر ما حدث بأنها محاضرات ألقيت على طلبة
صغار لم يتعدوا مرحلة التعليم الثانوي الامنذ قليل ، وأنه لا بأس أن يكون
هذا الأسلوب أداة التعليم في الجامعة ، وأن الأسلوب العامي مادام لم
يكتب في كتاب وانما يلقي في درس في حجرة فلا غبار عليه

وهذه كلها مبررات واهية ، وأعدار أقبح من الذنب .

هذا وقد شعر الأستاذ الخولي بخطئه ، وأحس ركافة هذه الأساليب
وضعفها ، فأشار على تلاميذه بشطبها . " ومن الانصاف أن نذكر أن الأستاذ
الفاضل أدرك أخيرا ما في هذه الأساليب من ضعف وسخافة فأشار على تلاميذه
أن يعروا بالقلم على بعضها " (١) .

أما الشيخ علي الطنطاوي فقد رجع عن اتهامه بالكفر والاحاد للشيخ الخولي
وأصدر بذلك بيانا على صفحات الرسالة جاء فيه : " وأنا ما كتبت الذي كتبت لأنال
من الشيخ أمين الخولي الأستاذ في كلية الآداب ، وما بيني وبينه صلة ولا معرفة
ولم أروجه الامرة واحدة منذ أسبوع ، فلا يعقل أن يكون قصدي تحقيره هو
بالذات ، أو ذمه والقدح به . فاذا فهم أحد من الذي كتبت أنه أرمى السى
هذا فأرجوا أن يصحح فهمه ، وأن يعلم أنني لا أبخس عالما قدره ، ولا أجحد
فاضلا فضله " .

وهكذا نجد الطنطاوي انسحب من المعركة بعد مقاله الأول . أما العمري
فقد استمر في المعركة .

العماري يتصدى لآراء الخولسى

فى علمى البيان والمعانى

فى المقال الأول نقد العمارى أسلوب الخولسى فى تدريسه البلاغة فى الجامعة ولكنه هذه المرة ينقد آراء الشيخ أمين الخولسى فى مذكراته فى علمى البيان والمعانى والتي كان يلقيها على طلاب كلية الآداب حينئذ .

وقد بدأ العمارى نقده للخولسى فى علم البيان ، ورأى أن " الفكرة المتسلطة عليه فى هذا الفن أن يجعل لكل عبارة من عباراته منبعاً لمعان نفسية يجب أن تثيرها فى نفس المتكلم أولاً ، وفى نفس السامع ثانياً ، وهو لذلك يتكلف العنت ، ويركب الشطط فى تخريج النصوص الأدبية ، وهو لا يؤمن بالماديات الصرفة فى هذا الفن ، ويكاد ينكر المحسّات التى لا تثير لمعانى نفسية . . . " فمثلاً :

أ - فى قول ابن المعتز :

ولا زورده شجره هو يزرقتهما بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت

يقول الشيخ الخولسى :

١ - المشبه : زهرة البنفسج قائمة على ساقها .

والمشبه به : أوائل النار فى أطراف كبريت .

وانا أردنا أن نحلل عملية التشبيه لقلنا ان شجر البنفسج بجمال فترجم عنه ، ونحن نفهم أن الجميل قادر أن يلفت الى معنى وراء وجوده المادى ، لكن الشاعر لم يتخطى الوجود المادى ، ونظار اليها على أنها زهرة لها حجمها الخاص ، ولونها الخاص ، وقال كلاماً شرح به هذا الوضع المادى " كأوائل النار فى اطراف كبريت " .

وراح الأستاذان الخولسى بيدي رأيه وملاحظاتة على هذا التشبيه :

اولاً : ما هو الشئ المعنوى الذى لفتت اليه الزهرة الجميلة ؟

لا شئ . زهرة البنفسج هذه يمكن أن نحسن أمامها بنوع من الانصراف

عن التنبيه واليقظة ، فإذا شبهتها بانسان حاله تكون قد تذكرت
للون طعما خاصا من طعموم الحياة ، وبذلك تكون المادة قد
أفلحت في ايجاد المعنى . . أما وصف اللون بلون آخر فلاشئ .
ثانيا - نلاحظ أن الشاعر نقلنا من جو فسيح الى جو خائق . فليست
هنا قوة في الاحضار ، وانما هي غفلة وسوء تصرف .

علق أستاذنا العمارى على هذا الشرح والتفسير قائلا :
قد يبدو هذا الكلام مقنعا ورائعا لأول وهلة ، ولكن يجب أن نتذكر حقيقتين
الأولى : أنه يدرس التشبيه . ومعنى ذلك أن يقف عند تشبيه الشاعر هل أطياب أو
أو أخطأ في الحاق هذا اللون بذاك . أما أن الشاعر لم يلتفت الى ما يبهجة
البنفسج من المعانى فى النفس ، والتفت الى شئ مادي بحث فهذا مالا دخل
له فى صحة التشبيه أو فساده .
الثانية : أن البيان يبحث عن الأساليب الفنية التى تؤدى بها المعانى ومادام
يبحث عن الفن فهو يجده فى المعانى البحتة ، ويجده كذلك فى الماديات
البحتة ، وليس أحدهما أولى من الآخر فى ابراز الفن البيانى فيه . وعلى ذلك
فهم علماء البلاغة ماورد من هذه الأمثلة .

ويستشهد الدكتور العمارى بكلام لعبد القاهر فى هذا الموضوع :
" ولعلنا نأتى بالقول الفصل حين نسوق مقاله امام البلاغيين الشيخ عبد القاهر
الجرجاني فى هذا الموضوع بعينه . . . " وهكذا اذا استقرت التشبيهات وجدت
التباعد بين الشئيين كلما كانت الى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب
، وكان مكانها الى أن تحدث الأريحية أقرب . وذلك أن موضع الاستحسان ومكان
الاستطراف ، والمثير للدفين من الارتياح ، والمتألف للنافر من المسرة ، والمؤلف
لأطراف البهجة ، أنك ترى بها الشئيين مثلين ، ومؤلفين مختلفين ، وتسمى
الصورة الواحدة فى السماء والأرض وفى خلقه الانسان وخلال الروض وهكذا اطراف
تنثال عليك اذا فصلت هذه الجملة ، وتتبع هذه اللحمة ، ولذلك تجد تشبيه
البنفسج فى قوله :

ولا زوردة تزهر بزرقتهـ
بين الرياض على حمر اليواقيت
لأنها فوق قامات ضعفتـ
أوائل النار في أطراف كبريت
أعجب بوا عجب ، وأحق بالولوع وأجود من تشبيه النرجس بمداهن در هشوهن
عقيق . لأنه انذاك مشبه لنبات غص يرف ، وأوراق رطبة ترى الماء منها
يشف ، بلهب نار مستول عليه اليبس ، وبلغ فيه الكلف ، ومبنى الطبع
وموضوع الجيلة على أن الشئ اذا ظهر من مكان لم يعتقد ظهوره منه وخروج
من موضع ليس بمعدن له ، كانت صباية النفوس به أكثر ، وكان الشف منها
أجدر (١) .

وبعد كلام عبد القاهر يعون العمارى الى توضيح رأيه وبيان وجهة نظره :
ان الشاعر أراد أن يبين زرق البنفسجة التى نفخر بها على اليواقيت الحمر
ففكر فى شبيه لهذه الزرقة . وهنا يتفاضل الشعراء . . فمنهم من يكون قوى
اللفة ، فسرعان ما يقع على شبيه ولو كان نادر الحضور فى الذهن ، ومن
هنا تبنى طرافقه وجدته . . ومنهم البليد الذى لا يصل الى الشبيه الا بعد
حين ، وربما لا يصل .

ويضرب العمارى مثلا لذلك بقصيدة جرير مع عدى بين الرقاع . . . وأنسه
اذا كان من الميسور لأستاذ البلاغة فى الجامعة أن يتهم الشيخ عبد القاهر
فى ذوقه فأظن أنه ليس من الميسور أن يتهم جريرا الشاعر فاليه نسوق
القصة التالية :

يحكى أن جريرا قال : أنشدنى عدى : عرف الديار توهما فاعتادهما ،
فلما بلغ الى قوله : تزجى أغن كأن ابرة روقه . . رحمة وقلت : قد وقع ،
ماعناه يقول وهو أعرابى جلف جاف ؟ فلما قال : قلم أصاب من الدواة مدادهما .
استعمال الرحمة حسدا . قال صاحب الايضاح : فهل كانت الرحمة فى الأولى
والحسد فى الثانية الا أنه رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر ما لا يحضر لـ
فى أول الفكر شبه وحين أتمه صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف .
وأحب هنا أن أقرر ما قرره أستاذنا العمارى من أن طرفى التشبيه قد

يكونان حسيين أو معنويين أو مختلفين ، وأن تشبيه المحسوس بالمحسوس قد يأتي أحيانا في غاية الروعة والجمال . وأوائل النار في أطراف كبريت منظر له روعته وجماله ، غير أننا ألغناه ، لكن الأطفال لم يألوه بعد ، فهو بالنسبة اليهم وفي حقيقته ، منظر جميل جذاب خلاب ، وخاصة اذا كان في المساء ، لذلك تراهم يتحينون الفرص لاختلاس طبة الكبريت ، والانزواء في مكان ما ليلعبوا به ويشتعلوا أعواده الواحد بعد الآخر واذا نظرت في عيونهم عندئذ لوجدت السعادة والبهجة تشعان منها ، وهذه السعادة بمنظر الكبريت ليس وراءها ادراك معنى جميل رائق ، وانما هي سعادة ناتجة من هذا المشهد المحسوس الذي يراه الطفل أمامه . لذلك فان هذا التشبيه جميل ورائع على الرغم من أن المشبه به حسي لا معنوي .

ونعود الى الدكتور العماري حيث يقول :

وماذا يقول الأستاذان في قوله الله تعالى : (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) ؟ لقد ذكر أن تشبيه زرقة البنفسج بأوائل النار في أطراف الكبريت ليس شيئا ، لأنه ينقلنا من جو الزهبر والجمال الى جو اللهب والاختناق ، ولم ينظر الى فنية التشبيه ، ولا الى ندرته . فهل يقول فسي هذا التشبيه في الآية الكريمة انه ليس شيئا . . . ايضا . لأن القمر مسكنه في السماء ، والعرجون في الأرض ، والقمر من فصيلة الكواكب التي زين الله بها السماء ، والعرجون نوع من الحطب اليابس ، والقمر مثال الهداية والعلو ، والعرجون شيء تافه حقير لا تكاد تظهر له فائدة . . . ؟

وهل تخسر البلاغة القرآنية شيئا اذا وقف الأمر عند حد تشبيه القمر يحتضر في آخر الشهر ، وحين يضعفه المسير ، وينال منه السرى فندق وينحني ويصفر . . . بهذا العرجون الذي دق وانحنى واصفر ، ولا يلاحظ شيء وراء ذلك مما .

توحيه صورة العرجون ؟

ومن الممكن أن نتكلف جوا ملائما لكل من المشبه والمشبه به ، ولكن هل جو العرجون وينسج المدق واضمحلاله ، يشبه جو القمر حين يبلغ آخر الشهر ؟

لابد - اذن - أن نكون مع علماء البلاغة حين يرون أن ليس القصد الأول من التشبيه إثارة جو عام بين المشبه والمشبه به ، وأن التشبيه منبج لتداعى معان يجب أن نلتص آثارها فى النفس ، بل يكفى أن نقول - معهم - أن : التشبيه بالمحس المشاهد يحدث نوع اطمئنان فى النفس ، وأن السامع قبل أن تذكر له التشبيه قد يكون المعنى عنده غامضا مضطربا ، أو موضعا للشك ، حتى اذا شبه له استقر المعنى فى نفسه ، وكان أكثر اطمئنانا ، وأثبتت يقينا .

فانك - كما يقول البلغاء - قد تبالغ فى المعنى ، ولا تدع مزيدا فى الاسراف ، فتدعى أنه بلغ نهايته ، فلا تبلغ من اقناع السامع ما تبلغ حين تشبه بشئ محس ، تثقف عنده النفس ، ويطمئن اليه الخاطر . فأنت تقول مثلا : ان فلانا أخفق فى عمله ، ولم يحظ منه بفائدة ، ولا عاد منه يعائدة . ولكن هذا كله يتضاءل أمام أن نقول : فلان كمن يخط على الماء .

ب - حين تسمع قول ابن الرومى :

كل امرئ مدح أمراً لنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءه
تأخذك موجة من الشك فى صحة هذا المعنى ، وتظهر عليك - بادئ ندى بد - أمارات الاستغراب . ولكنك حين تسمع بعد ذلك :
لولم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه
وترى أنه شبه المدوح بالبئر فيها الماء ، وكما كان الماء أبعد احتياج المستقى الى أن يطيل الحبل الذى يرفع بواسطته الماء . . حينئذ تتبدد الشكوك من نفسك .

وانما سقت هذه الجفلة من القول لأعجب من الأستاذ كيف ينكر على البلاغيين أن يجعلوا من أغراض التشبيه (بيان امكان المشبه) . . أى بيان أن المشبه أمر ممكن الوجود ، وذلك اذا كان أمرا غريبا يمكن أن ينازع فيه ويدعى امتناعه ، فيعلق على قول أبى الطيب المتنبى الذى استشهد به البلاغيون لهذا الغرض :

فان تغى الأنعام وأنت منهم فان المسك بعض دم الفزال
 بقوله : كلامهم فى أن الغرض من هذا التشبيه بيان أن وجود المشبه ممكن ،
 مرفوض . . لأن الأديب لا يضع نفسه موضع المناقش ، ولكنه يفرض نفسه على الناس ،
 وكل ما هنالك أن الناس من طبيعتهم انكار هذا الامتياز . . .
 والمعنى فيه شئ من الغرابة فى أنه واحد منهم ، وفاق عليهم ، فقال
 هذا لا غرابة فيه لأن له نظائر وشواهد ، و . . . و .

رد العمارى بأن هذا كلام غريب ، ووجه غرابته :
 أنه ينفى الشئ ثم يشبهه فى وقت واحد ، وسطر واحد ، فهو يرفض كلام
 البيانين فى الغرض من هذا التشبيه بدعوى أن الشعراء قوم متفطرسون ،
 ويفرضون أنفسهم على الناس ، وعلى الأذواق ، ولكنه يحس فى الوقت نفسه
 أن من طبائع الناس انكار مثل هذا الامتياز الذى ذكره المتنبي ، فالشاعر
 يقول لا غرابة .

وعلماء البيان لا يقصدون من بيان امكان المشبه أكثر من أن المتكلم يأتسى
 بقضية تقرب الى الأذهان أن هذا جائز وممكن ، مادام شبيهه ممكنا وواقعا . .
 عرض لى كل ذلك حين ابتدأت أقراء (مذكرات الشيخ) فى علم البيان
 فما كدت أنتهى من السطور الأولى حتى وجدت فى فقرة واحدة أغلاطا أربعة
 وليست أغلاطا لغوية ، ولا أغلاطا نحوية حتى يمكن التسامح فيها خاصة أن
 الشيخ كثيرا ما يلجأ الى العامية ، والى العامية الساذجة ، ولكنها أغلاط
 علمية ذات ضرر كبير على عقول الطلاب الذين يعدون أنفسهم ليدرسوا هذه
 البلاغة لبناثنا .

قال الشيخ : (هم يقولون ان بعض التعابير أوضح من بعض ، فعلم البيان
 هو الذى يبين درجات هذا الوضوح ، فالجملة تتكون من أجزاء سليمة ، وهذا
 ما يكمله علم النحو ، صالحة للسكنى ، وهذا ما يكمله علم المعانى . هذه الجملة
 ذاتها يمكن أن تعرض عرضا متنوع الانماط ، وهذا ما يكمله علم البيان) .

فأولا = ليست وظيفة علم البيان البحث في درجات وضوح التعبيرات ، وأنه لا ينقص هذا العلم أن نقول : ان مباحثه تقتصر على معرفة أن كثير الرماد أوضح أو أقل وضوحا من مهزول الفصيل في الدلالة على الكرم ، أو أن التشبيبه والاستعارة مختلفان في وضوح الدلالة . ولكن لهذا العلم أبحاثا كثيرة قد يكون البحث في وضوح العبارات أسرها .

ثانيا = قوله (الجملة تتكون من أجزاء سليمة ، وهذا ما يكله علم النحو) كلام فاسد ، ذلك أن النحو - وقد حددت وظائف العلوم تحديدا دقيقا - لا يبحث في سلامة المفردات ، وإنما يبحث في ذلك علم الصرف ، أما وظيفة النحو فالبحث عن سلامة التركيب . هذا شيء يعرفه من له أدنى التمام بموضوعات هذين العلمين .

ثالثا = كون الجملة (صالحة للسكنى) ليست وظيفة علم المعاني ، ذلك أن صاحب المعاني يعنيه - اذا اردنا أن نلجأ الى الاستعانة بالتشبيه - ان يعرف هل هذا البناء مطابق للمواصفات التي وضعها المهندسون أو غير مطابق ، كما يعنيه أن يعرف هل هو ملائم للمكان والبيئة اللذين وجد فيهما أو غير ملائم ؟

رابعا = قوله ان الجملة يمكن أن تعرض عرضا مختلفا ، كلام غليل ، وذلك أن الجملة نفسها لا تعرض ، وإنما يعرض المعنى .

فإذا عبر شاعر عن طول الليل بقوله :

أضل النهار المستنير طريقه أم الدهر ليل كسه ليس يسبح

وعبر آخر بقوله :

حدثنسى عن النهار حد يشا أوصفه فقد نسيت النهارا

وعبر آخر القيس عنه بقوله :

فيالك من ليل كأن نجومه بكل منار الفتل شدت بيزبل

فهذه التعبيرات ليست عرضا لجملة واحدة ، وإنما هي عرض لمعنى واحد .

ج - ينكر الأستاذان على علماء البيان جعلهم أداة التشبيه (ركنا) من

أركانه ، ويرى أن ذلك اغراق منهم فى الماديات ، ومتابعة مسرفة للتصوير
الصقلى أدى الى نسيان الناحية الأدبية فى التشبيه ، وهى أن أفضل التشبيه
ما يقوم على ايها أن المشبه هو المشبه به ، وهذا لا يكون الا بحذف الأداة .
وهذا كلام عجيب حقا ، فهل جنى علماء البلاغة جناية كبيرة حين ارادوا
أن يقعدوا البلاغة ، فوضعوا لها قواعد وضوابط ؟
التشبيه الحاق أمر بأمر ، وهو كذلك فى طبيعة اللغة ، واللغة قد وضعت
أداة لهذا اللاحق ، فلا يمكن أبدا - مادام هناك تشبيه - أن يتخلى هذا
اللاحق عن أدواته ، والافقد حقيقته ، والحمل لا يمكن الا أن يكون كذلك ،
اذا أريد التشبيه .

يقول : محمد كريم فتحمل الكرم على محمد لأنه صفة له ، وتقول : محمد
حاتم تريد تشبيهه به فى الكرم ، فلا يمكن - حينئذ - الا أن نلاحظ أن هنا
أداة صححت حمل حاتم على محمد ، والاكت حملت ذاتا على ذات أخرى ،
وهذا ما لا يصح بحال ، انهما ذاتان مختلفتان ، فليست أحدهما هى الأخرى
والأداة لا بد منها فى التشبيه ، وقد تكون ظاهرة - وعليه أكثر تشبيهات
القرآن الكريم - وقد تحذف ، ولكن لا بد من ملاحظتها حتى يصح الحمل - كما
ذكرنا - ومادامت بهذه المثابة فهى جزء لازم للتشبيه ، فلا غرو كانت ركننا من
أركانه .

د - ولا أحب أن أختم قولى فيما كتبه الشيخ تعليقا على بعض مباحث البيان
حتى أورد هذه الكلمة .

قلت : ان الفكرة التى سيطرت عليه حملته على أن يتكلف شططا فى
تخريج الشواهد . وهذا مثال :

يعلق الشيخ على بيت بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا - وأسيفنا ليل تهاوى كواكب

فيقول : (التركيب يفهم على أنه صورة ملونة . . الغبار تكاثف حتى أظلم ،
ووصل الى السواد القاتم ، وليس تشبيه مثار النقع بالليل لمحض القاتم وانما

ملحوظ فيه أيضا الحيرة والظلام والخطورة والاضطراب ، فهو انما اختصار
 ظلام الليل للحيرة والضلال ، وهذا هو ما يطلب في القتال بالسيوف فاذا
 أضفنا الى هذه الحالة النفسية لم يقاتل بالسلاح الأبيض ، نجد أنه يمتقد
 أنه معرض للموت بشبهات ممزق ، ولذا قال في السيوف ليل تهاوى كواكبه) .
 فهذا كلام يقوله من لا يحسب للعقول حسابا . فمن أين له أن يشارا لا حظ
 في تشبيه الغبار بالليل الحيرة والضلال ، بل ما جدوى ارادتهما هنا ؟ أن
 بشارا لو أراد أن رجال جيشه حائرون ضالون لكان ذمهم أشنع الذم ، ولكن
 قد وصفهم بالجبن والعماية في قتالهم ، ان الفارس الحق هو الذي يكون ثابت
 الجنان ، مهما اشتدت المعركة ، وحمى وطيس الحرب .

ومن أين للشيوخ أن الشاعر أراد أن المقاتلة يتوهمون أنهم معرضون لشهاب
 ممزق ولذلك جاء ب (تهاوى كواكبه) ؟

أعتقد أنه لا ينبغي للناقد ، وللاستاذان في الجامعة - خاصة - أن يتسنى
 لخياله العنان ، يقول ما يصح وما لا يصح ، ويحمل النص فوق ما يحتمل .
 نعم ان في النصوص معاني ، وان لها ظلالا غير ماتفيدة الألفاظ بحسب
 وضعها ، ولكن لا ينبغي أن تجمع الأعلام في خلق معان وظلال لا صلة للنص
 بها ، أولا يتخيل أن صاحب النص قصد اليها .

وقصة بيت بشار بسيطة . يريد الشاعر أن يدل جماعة يقاتلون - تصويبرا
 حسيا - وقد عقد الغبار فوق رؤوسهم ظلاما ، ثم تصور الشاعر سيوفا تعلو وترسب
 ، وتجيء وتذهب ، وهي بيض لوامع مستطيلة تتلاقى وتتداخل ، ويقع بعضها
 في بعض ، فالتسلي هذه السمرة شبيها فوجده في ليل مظلم تتساقط كواكبه .
 وما أظنه خطر على باله شيء مما قال الأستاذان .

رد شاهين على العمارة :

يرى الأستاذ شاهين أن الأستاذ الخولى على صواب فى أن يجعل لكل عبارة من عبارات هذا الفن - علم البيان - منبعاً لمعان نفسية . . ويقول :
 " أى نعم يا على . . أنت قرأت تعريف البلاغة ؟ وان الذى لا يختلف فيه اثنان هو أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال . ولا أزيد بياناً ولا بسطاً ، ولكن هذه المطابقة لا تكون الا بادرار المتكلم لنفسه السامع وما تحوى من ملابس فهذا هو فحوى كلام الأستاذ الخولى . أفتمارى فى هذا ؟ ان فها ت تعريفك أنت لعلم البلاغة فانا لمنتظرون " . (١) .

ويرى الأستاذ شاهين أن الأستاذ الخولى على صواب أيضاً فى نقده لبيت ابن المعتز : ولا زوردية . . الخ ، وأنه لا وجه لاعتراض العمارة هذا السراى بأن الفن يوجد فى المعانى كما يوجد فى الماديات . وذلك أن " الماديات البحتة لا تأثير لها ، وانما التأثير لما يتعلق بها من المعانى . أفان قلت : ان تمثال الزهرة كالزهرة كنت مشبها تشبيها مصيها مؤثرا ؟ لا . انه لا اعتبار الا لما يوجبه ويستلزمه هذا التشبيه من دقة الصناعة والمهارة فى المشابهة بين زهرة الورق أو الصاصال وأختها الطبيعية الحية . ياسيدى : ان مثل هذا التشبيه فى البيت فى خلوه من روح ، كمثل من يرى بقعا من دم قتيل أو طائر منثور على الرمال ، ثم يسير فيجد خرزات حمراء مستديرة فيفجأ السامع : أتدرى ؟ ان يقع الدم التى رأينا كهذه الخرزات ، احمرارها احمرارها ، واستدارتها استدارتها ، وحجمها حجمها ، وانتثارها على غير نظام انتثارها . أفيعجبك هذا ويكون تشبيها غريبا عجيها مصيها مستحقا للاطراء والثناء ؟ أحسب أن لا . ذلك أن السامع حين يذكر الدم تعتريه الرهبة والاشفاق والرتاء لصاحب الدم المطلول ، وحب التشفى من سفكه ، ولا يخطر ببال أنه مستدير أحمر منثور على غير نظام . فمثل هذا التشبيه عبث ولفووشة وسقوط بالقيم الفنية للشعر الى حد سخيف .

كذلك يرى الأستاذ شاهين : أن الثقة بأدواق النقاد يجب أن لا تطرد ، وأن استشهادهم يجب أن يكون موضع نظر جديد ، وأن الاستشهاد بأرائهم يجب أن يعرض على محك التمحيص . ذلك " بأنهم - على جلالتهم - قد شملهم ذوق العصر ، ولم تستقم في أدواقهم اللغة غضة طرية عطلا من زينة وحليقة ، وأثر البيئة أثر حليل في الأدواق والعقول ، ومن ثم كانت تفاهة الاستشهادات والتخرجات ، وكان لجوءهم الى الفلسفة والناحية العقلية هربا من الناحية الذوقية ، فحاسوا بالشعر والقيراط ، واتخذوا المبالغة أساسا للتفضيل ، ولم تظهر لهم الزينة في القوة والعذوبة والسلاسة والنغم ، فطلبوها بالصبغ والألوان والشعبذة اللفظية .

إذا ثبت هذا فاعفنى عافاك الله من استحسان البلاغيين وعدم استحسانهم ، فنحن نسأل الذواقين من أمراء البيان فطه حسين والزيات والعقاد . . . أولئك المحكمون نرضى حكومتهم . . . فأما السعد والخطيب فلا نصيبيهما . ولكن نقول غلبت عليهما شقوة العصر وفساد الذوق وقوة الفلسفة . . . فكلام عبد القاهر في أن التباعد كلما زاد كان موجبا لارتياح النفس ليس مطردا . وليس أمرا على ذلك مما سقته لك من تشبيه الدم بالخرز الأحمر .

وإذا ما كان لنا من تعليق على قول الأستاذ شاهين بأن نحميه من استحسان البلاغيين أو عدم استحسانهم ، وأنه يسأل الذواقين من أمراء البيان أمثال طه حسين والزيات والعقاد ، " أولئك المحكمون نرضى حكومتهم " .

فأنا نسوق له على سبيل المثال رأى العقاد في المجددين الذين يرون الفاء علوم المعاني والبيان والبديع والانتقاص من علم رواق القدماء أن يقول : " أن علوم البديع والمعاني والبيان خلاصة الملاحظات التي أدركها النقاد بالذوق والفهم ، واهتدوا بها الى مواضع البلاغة فيما وعوه من كلام الشعراء والكتاب ، وان الحذلة كانت أكثر من الوعي الصادق والفهم الحسن عند من حاولوا في العصر الحديث أن يبطلوا علوم البديع " . . .

فلا بد أن نفهم أن علوم البديع والمعاني والبيان لم توضع لتلغى ، أو لينصرف

عنها النظر في الدراسة أو المطالعة . . ولقد وضعها الأقدمون وأدركوا من شأنها كل ما يدركه المحدثون الآن من فوائدها وماخذها ، بل أدركوا منها ، على التحقيق - فوق ما يدركه المتحذاتين الذين يجهلون البلاغة قواعد ومصطلحات ، كما يجهلون معاني ومفاهيم . . فالعلوم التي عرفت باسم علوم البديع والبيان صحيحة لا عيب فيها ، وكل ما يؤخذ عليها فانما يؤخذ على إساءة استعمالها كما ينبغي لها ، وكما أرادها واصفوها * (١) .

ونعود الى الأستاذ شاهين حيث أخذ يناقش الأستاذ العماري في قصة جرير فيقول :

وأما حسد جرير لعدى بن الرقاع عند ما أنشد :

تزجى أغن كأنه ابـرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

فناحيته أنه أعرابي لا يعرف التعبير ولم يخبر من المدنية ما يطوع له أن يعرف قراطيسها ومحابرها وأقلامها ، فظن جرير أنه لن يهتدى الى شيء يشبه به روق الأغن ، فلما أصاب حسده جرير ، ألا تراء يقول : " قلت قد وقع ، ماعساه يقول وهو أعرابي جلف جاف " . فأنت قد وقعت يا على في سر حسد جرير ولم تدركه ، فظننت أنه انما حسده لأنه كان تشبيها بارعا مصيبا له تأثيره وجماله . وما هو بذاك .

رد العمارى على شاهين : (١)

اعترض العمارى على تعريف شاهين للبلاغة بأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال . وقال : ان أحدا من العلماء لم يعرف البلاغة هذا التعريف . . . ويبدو أن الأستاذ شاهين يريد أن يحدد كما يحدد الشيخ أمين الخولى ، والتحديد سهل ميسور مادام قصارى المجدد أن يسوق قضايا مخطئة ، واليك ما أعرفه أنا وما يقوله العلماء فى تعريف البلاغة .

ذكر يحيى بن حمزة صاحب الطراز : " أن البلاغة فى وضع اللغة هى الوصول الى الشئ والانتهاى اليه . فيقال بلغت البلد أبلغه بلوغا . والاسم منه : البلاغة ، وسمى الكلام بليغا لأنه قد بلغ به جميع المحاسن كلها فى ألفاظه ومعانيه .

وهو فى مصطلح النظار من علماء البيان : عبارة عن الوصول الى المعانى البديعة بالألفاظ الحسنة ، وان شئت قلت هى عبارة عن حسن السبك مع جودة المعانى .

وصاحب الصناعتين : عرفها بقوله : كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه من نفسه لتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن . وللعلماء والأدباء تعاريف كثيرة للبلاغة ليس منها مطابقة الكلام لمقتضى الحال . . . ونحن اذا سألنا طالبا صغيرا عن تعريف علم المعانى يقول : انه علم بقواعد وأصول يعرف بها مطابقة الكلام لمقتضى الحال . فاننا قلنا له : هل مطابقة الكلام لمقتضى الحال هى البلاغة ؟ يقول : لا . بل لابد من زيادة واطافة اليها فنقول كما قال بعض العلماء : مع فصاحته . وهذه عبارة مهمة جدا ومكملة للتعريف .

والطلاب الصغار يعرفون أن علوم البلاغة ثلاثة . . . وأن لكل علم تعريفا خاصا ، ولا يصلح تعريف علم منها لأن يكون تعريفا للبلاغة . فهل يصر الأستاذ شاهين على أن هذا التعريف للبلاغة لا يختلف فيه اثنان ، أو يسلم معنا

أنه كباحث أراد النهوض فكبا .

على أنى كنت أنقد الأستاذ فى علم البيان وقلت فى - هذا الفن -
أقصده فهل يحتج بتعريف علم المعانى على كلام فى علم البيان ؟
وينتقل الأستاذ العمارى بعد ذلك الى نقطة أخرى وهى قضية المادية
فى التشبيه فهو يرى أن اللغة العربية ملوثة بالتشبيهات المحسنة التى
لا ترمى الى معان وراءها ، وقد عاب على الشيخ الخولى أن يعتبر جميل
العلماء بيان حال المشبه من أغراض التشبيه (كلاما فارغا) ، وأن الأستاذ
شاهين لما جاء يرد علينا هذا لم ينصف الشيخ أمين الخولى ولم ينصفنا
فالعرب يقولون : أسود كحلك الغراب ، ويقولون : أحمر كالدّم القانى ،
ويقول امرؤ القيس :

ترى بعرا لآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفنيل

ويقول الله سبحانه وتعالى : " وجفان كالجواب وقد ور راسيات " أفلا
تكون هذه التشبيهات مقبولة حتى نتلمس لها معانى وراءها .

ثم يعود الأستاذ العمارى فيقرر أن التشبيه فن وهو يكون فى الماديات
البحثة كما يكون فى المعنويات ، وتلمس المعانى وراء كل تشبيه تعنت
وحذلقه . . . وهو لا يأخذ كلام المتقدمين قضايا مسلمة دائما ، كما لا يمتهم
أن واقهم ، بل يقبل منها المقبول ويرفض منها ما يتبين له أنه ضعيف واه ،
وليس كلامهم الذى ساقه بالكلام الضعيف الواهى ، ولكنه حسن جميل ،
يعتمد على الذوق قبل كل شئ ، فأنت حين تسمع ذكر المشبه تستشرف لما
يجىء بعد وتخطر فى ذهنك أكثر التشبيهات الغريبة ، فإذا أتى الشاعر
أو الناثر بتشبيه بعيد نادر وقع فى نفسك موقعا ممتعا ، وعرفت مقبلا ،
الشاعر فى استخراج هذا التشبيه .

ثم ينتقل العمارى الى قصة جرير ويقرر أن الاعجاب والحسد من جرير
ليس لمجرد أن الشاعر عدى بدوى والمشبه به حضرى ، ولكن سر الاعجاب
أن الشاعر استطاع أن يأتى بمشبه به موافق كل الموافقة للمشبه ثم كونه جبا .

من مكان بعيد لا ينتظر أن يهتدى اليه .

ويشرح الأستاذ العمارى ذلك فيقول : غزال صغير له قرن صغير
فى طرفه سواد أراد الشاعر أن يلتمس له شبها ، وجريرو حاضر ، فوق
فى نفسه أنه لا يمكن الاتيان بشبيه له لدقته وبعدة عن الأفهام . فلما
تهدى اليه الشاعر ووجده فى قلم لم يصب من المصاد الا قليلا ، ووجد
جريرو أن الشبه تام بين المشبه والمشب به حسد عديا على هذه القوة البيانية .
أما أنه حسده على أنه أتى بشبيه حضرى فمعنى ذلك أن جريرو كان يتوقع
من الشاعر أن يهتدى لهذا التهييه نفسه أو مثله من التشبيهات الحضرية ،
وما أظن جريرو خطر على باله شئ من ذلك ، وهب أن شاعرا شبه شيئا
بدويا بشئ حضرى وكان التشبيه ضعيفا واهنا أكان يعجب ذلك جريرو ؟ لا .
وانما اعجاب به لما ذكرنا .

وسواء كان رأى الدكتور العمارى أصح أم رأى الأستاذ شاهين ، فإن
النقد الحديث بعد ذلك بسنوات طويلة قال رأيه فى ذلك الموضوع ، وقرر
أن التشبيه الحسى يجب أن يدل على ناحية معنوية تتصل بماطة الأديب
وأحاساسه .

فالأستاذ سيد قطب يرى أن ابن المعتز فى معظم تشبيهاته كان يفقد
صلة الاتصال بالكون والحياة وهذا الاتصال هو أخص القيم الشعورية فى
العمل الأدبى . فمثلا : قول ابن المعتز فى وصف الهلال :

انظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر (١)

نراه قد فقد " صلة الاتصال بالكون لأنه لا يتجاوز رؤية البصر ، ولا يلمح
وراءها أية رؤية شعورية من منظر الهلال والسماء والطبيعة ، انما هو
جامد لا ايجاء له ولا ظل فى الحس ولا فى الشعور . . والخصوصية فى الشعور
ومدى العمق والشمول فى الاتصال بالكون والحياة ، وصحة الشعور ، وصدق
الاتصال هى أخص القيم الشعورية فى العمل الأدبى " (٢) .

١ - هذا البيت نسبته الأستاذ عبد الكريم الخطيب الى ابن الرومى . انظر أعجاز

القرآن ج ١ ص ١٩٦ .

٢ - النقد الأدبى أصوله ومناهجه - سيد قطب - ص ٣٢ ط ٣ .

والدكتور غنيمي هلال يقول وهو يتحدث عن مقاصد الصورة الأدبية
 فى العصر الحديث : " وعلى الرغم من أن صور الشعر وظيفتها التمثيل
 الحسى للتجربة الشعرية الكلية ، ولما تشتمل عليه من مختلف الاحساسات
 والمواطف والأفكار الجزئية ، فانه لا يصح بحال الوقوف عند التشابه الحسى
 بين الاشياء من مرئيات أو مسموعات أو غيرها دون ربط التشابه بالشعور المسيطر
 على الشاعر فى نقل تجربته ، وكلما كانت الصورة أكثر ارتباطا بذلك الشعور
 كانت أقوى صدقا ، وأعلى فنا . ولهذا كان مما يضعف الأصالة اقتصار الشاعر
 فى تصوير شعوره على حدود الصور المبتدلة التى تقف عليها الحواس
 جميعا ، والتى هى صور تقليدية . . . ولكن أشد ما يضعف الصورة فنا هو
 أن يقف بها الشاعر عند حدود الحس مما تسميه البلاغة العربية القديمة
 " الجامع فى كل " دون نظر الى ربط هذا التشابه الحسى بجوهر الشعور
 والفكرة فى الموقف " (١) .

ومثل ذلك قال الأستاذ العقاد فى الديوان : " وإذا كان كدك فى
 التشبيه أن تذكر شيئا أحمر ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله فى الاحمرار
 فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شئ واحد ،
 ولكن التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع
 فى ذات نفسك ، وما ابتداع التشبيه لرسم الأشكال والألوان محسوسة بذاتها
 كما تراها ، وانما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس السى
 نفس . وبقوة الشعور وثيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الأشياء
 يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه مطربا مؤثرا ، وكانت النفوس
 توافقه الى سماعه واستيعابه ، لأنه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرأة النور
 نورا . وصفوة القول أن المحك الذى لا يخطئ فى نقد الشعر هو ارجاعه
 الى مصدره ، فان كان لا يرجع الى مصدر أعق من الحواس فذلك شعر القشور
 والطلاء ، وان كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا ووجدانا تعود اليه المحسات
 فذلك شعر الطبع والحقيقة الجوهرية " (٢) .

١ - النقد الادبى الحديث - د . غنيمي هلال ص ٤٥١ .

٢ - المرجع السابق ص ٤٥٣ .

ونعود فنقول : ان عصر ابن المعتز - غير عصرنا - له طابعه وتصوراته ،
 والتشبيه الحسى المجرد فى عصره كان مستساغا مقبولا ، بل ربما جاء جميلا
 أخذا اذا كانت صورة المشبه به كذلك .

واذا كنا فى العصر الحديث نطمح الى تجديد البلاغة فليس معنى
 ذلك أننا ننكر علم القدماء وآراءهم ، ونجحد فضلهم ، ونأخذهم بما فعلوا ،
 فهم بذلوا جهودا كبيرة مشكورة لم نبذل بعضها بعد . ولكن لنا أن نسرى
 ما يناسب عصرنا من نتائجهم ونأخذ به ، فنشكرهم على ما أخذنا ، ولا نلومهم
 على ما تركنا . فمن يدري . . لو كانوا فى عصرنا لكان لهم رأى آخر .

معركة أخرى حول " القصر " :

عاد الأستاذ العمارى الى مناقشة الأستاذ الخولى فى علم المعانى والمناقشة هذه المرة حول " القصر " . يقول :

" انتهينا فى المقال السابق من مناقشة آراء الأستاذ الخولى فيما يتعلق بعلم البيان ، وقد أغفينا عن أشياء استكثرتنا على علم الأستاذ وفضله أن تكون من آرائه وتوجيهاته ، فنحن هنا لاننقد الا ما يتأكد عندنا أنه من رأيه بمراجعة النسخ المختلفة لمذكرات الطلاب ، أو بأن يشرح رأى فى فصل من الفصول فيتكرر فيه مرات . ولقد عملنا بالحكمة المأثورة " ما استقصى كريم قط " فأنكرنا بعضا وأعرضنا عن بعض .

وحد يثنا اليوم عن آرائه فى باب القصر ، وهو باب تعرض منه لثورة عنيفة ، فقد مزقه الأستاذ اربا اربا ، ورمى بكل شلو منه فى ناحية ، فذهب بقطعة الى علم النحو ، ومضى بثانية الى علم البيان ، أما سائر فأبقاه فى علم المعانى ولكن بعد أن هاض جناحه ، وتحيف أطرافه .

ورأيه أن القصر الجد ير بأن يبحث عنه البلاغى هو القصر الادعائى أما القصر الذى يعبر عن الواقع فيجب أن يقق فى علم النحو ، لأنه يؤدى به أصل المعنى المراد فقط ، والبلاغى انما تعنيه المعانى الثانية ، وهى المعانى التى يوسئ اليها الكلام وراء المعنى الأصلى : (القصر صيغة من صيغ التعبير العربية التى تحتاج اليها فى أداء المعانى الاصلية ، وتأتى المرحلة الثانية وهى أن القصر الحقيقى مادام حقيقيا بمعنى أنه مطابق للواقع فهو مرحلة لا تتجاوز أصل المعنى وصحته ، أى أن معناه النحوى هو دائما معناه الوحيد ، ولا يخرج عنه الى أغراض أخرى . أما القصر الادعائى فبخلاف ذلك له وراء المعنى الأول لصيغة القصر معان أخرى يرمى اليها المتكلم ، ومن أجلها لجأ الى هذا الادعاء فأسقط من حسابه كل شئ غير المتكلم فيه وأثبت المعنى الذى عنده له) . ثم يقول : (القصر الادعائى اذا توسعنا قليلا فى فهمه وتطبيقه فاننا نستطيع

نقله من باب المعانى الى اسلوب من أساليب التعبير الأدبى ، فلانقصر
المسألة على البحث اللفظى والدلالة على جزء المعنى الذى هو مطابقة
الكلام لمقتضى الحال . اذن نخرج من باب القصر بأسلوب يدخل فى البيان
لا فى المعانى .

ويذهب الأستاذ العمارى فى جولة حول الفرق بين النحو والبلاغة والحد
الفصل بينهما ، وعند ذكر المسند اليه وحذفه ، وعن حالات القصر المختلفة
وأنها كلها تفيد التوكيد والتقوية وأن التوكيد من أوليات الأغراض البلاغية ،
ثم بسط القول فى أدوات القصر ليقطع " كل حجة على من يتهم العلماء بأنهم
ضيقوا دائرته ، وأنهم غفلوا عن مزاياه ، وأنهم وضعوا فى علوم البلاغة ما كان
يجب أن يوضع فى علم النحو " . وبعد كل ذلك يرد على الأستاذ الجولى
فى رأيه عن القصر الادعائى :

" أما الذهاب بالقصر الادعائى الى علم البيان فأمره اشد غرابة . ذلك
أن علم البيان وضع ليحترز به عن التعقيد المعنوى ، فهو يبحث فى الجملة
من حيث أداؤها للمعنى ، فينظر فى ألفاظها ومدلولاتها وتركيبها ، و يرجع
مباحثه الى اللفظ التركيبى ومدى تأديقه للمعنى ، فالتشبيه والمجاز والاستعارة
والكناية كلها طرق يمكن البحث فى صورها من حيث دلالتها على ما سبقت له ،
وليس كذلك القصر الادعائى ، فان المزية التى فيه ليس لها مظهر فى صورة الكلام
وانما مظهرها فى اعتبار المتكلم ، فتناسى المتكلم لكل حالة غير الحالة المتكلم
فيها أمر فى نفسه هو ، ولا مظهر له فى أجزاء تركيب الجملة ، وانما الجملة
مشيرة له ، ففرق بين أن نقول : ماشوقى الشاعر ، وبين أن نقول : شوقى
بلبل غرد ثم سكت ، فأنت تبحث فى الثانية عن الكلمات وأدائها للمعنى ، وأما
فى الأولى فأول مرجعك قصد المتكلم وغرضه ، والحال التى ألجأت الى هذا
التعبير ، وهذا هو مبحث علم المعانى .

على أن العلماء قالوا : ان الجملة يمكن النظر اليها من جهات مختلفة
فهى من حيث مطابقتها لمقتضى الحال تكون من مباحث المعانى ، ومن حيث

أدائها للمعنى تدخل فى مباحث البيان . ولا شك أن القصر بجملته يلاحظ
قيمه الأحوال الداعية .

وقد يمكننا على هذا أن ننقل كثيرا من الأساليب الى علم البيان ، فالالتفات
بأقسامه الكثيرة ، والتعبير بالخبر عن الانشاء ، والأسلوب الحكيم ، والتعبير
عن الأمر بطريق الاستفهام وما يتصل به من المباحث الطويلة العريضة كـ
أولئك مما يمكن التمسك بها فتدخل فى مباحث البيان ، ولكن أهى غريبة
عن علم المعاني ؟ أهناك داع الى هذا التزيق ؟ لا .

للحديث بقیة :

عاد الاستاذ العمارى يواصل حديثه عن القصر وينقد آراء الخولى فيه
نقدا موضوعيا ، وقد صرف النظر عن الرد على الأستاذ شاهين وترك ذلك
لقراء الرسالة .

يقول : يعيب علينا بعض الكاتبين أننا نستأنس بما كتبه المتقدمون فى
مقالاتنا التى ننقد بها بعض آراء الجامعة فى البلاغة ، ويزعمون أن المتقدمين
كانوا أصحاب أدواق مريضة ، ومن العجب أن حجة الكاتب على ما يكتب هو
ما ينقله عن بعض كتابنا المحدثين ، أفيحرم علينا أن نستضىء بامام البلاغة
الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، ويحل له أن يتكئ على ما يقوله المحدثين ؟ ..
ثم انى كنت اعترمت أن أرد على هذا الذى يجادلنى على صفحات " الرسالة " .
ولم أجد سبيلا أهدى الى الحق من أن أحتكم الى عقول قراء الرسالة ، وكثيرون
منهم يفهمون هذه المسائل على وجوهها الصحيحة ، وهى بين أيديهم .

وهجيب أن نعيب على المتقدمين جهودهم فى خدمة علوم البلاغة ونحسن
لم نفعل شيئا . لقد ظل علماء البلاغة منذ القرن الثانى للهجرة الى أوائل
القرن السابع وهم ينشئون هذه العلوم وينمونها ، حتى اكتملت على يـ
أبى يعقوب يوسف السكاكى ، فلما جاء من بعدهم من العلماء وقف بهم

الاجتهاد ، ولكنهم جاهدوا وجهدوا ، وخدموا هذه العلوم بما لا نرى موضعاً لتفصيله الآن ، فماذا صنعنا نحن ؟ ملأنا أذهان التلاميذ ، وغرف الدراسة بالعيب على المتقدمين والنيل منهم ، والطعن في كفاياتهم ، ولكن من غير أن نبني قاعدة ، أو نهدم على بصيرة ، واني لأرى ما يمثل به في هذا الموضع المثل العربي : " أسمع جمعجة ولا أرى طحنا " .

وقد سمعت أن الشيخ أمين الخولي يريد أن يرد على مقالاتنا هذه التي يسميها " حركة الرسالة " بكتاب في البلاغة يخرجها للناس ، وانا منتظرون بفارغ الصبر هذا الكتاب انتظار المتعطش الى التجديد في هذه العلوم . وقد نكون أول من يرفع الصوت في امتداحه اذا وجدنا فيه ما يعدون به ، ولعله لا يكون صورة لهذه الرسائل الصغيرة التي أخرجها الشيخ ونقدنا بعضها . ثم نعود الى مناقشته في بعض مسائل القصر ، اتماماً لما كنا بدأنا به :

النفسيون والقصر الاضافي :

لا يرتضى - الأستاذ الخولي - تعريف العلماء للقصر الاضافي ، فيطالعنا بتعريف آخر دعاه اليه - فيما نظن - رغبته في أن يربط علوم البلاغة بعلم النفس وهو نوع من التجديد ، ووجد أنسب ما يلصقه بالقصر الاضافي هذا الذي يسميه علماء النفس " تداعي المعاني " فما يمنع أن يكون القصر الاضافي نظراً فيفسه الى هذه الفكرة النفسية ؟

والذي حفظناه عن مشايخنا ، وقرأناه في كتب العلماء ، أن القصر الاضافي يكون حين تتمثل صفتان في ذهن ، فقد يعتقد اجتماعهما في موصوف وأنت تريد أن تبين له خطأ هذا الاعتقاد فيكون قصر الافراد ، وقد يعتقد ثبوت احدهما دون الأخرى وأنت تريد أن تعكس عليه اعتقاده فيكون قصر القلب ، وقد يحار في أمر الصفتين : فاذا أثبت له احدهما ونفيت الأخرى كان قصر التعمين . فمدار القصر الاضافي اذن على صفتين أو أكثر في ذهن المخاطب وأمام بصيرته ، وله فيهما اعتقاد . لكن الشيخ يقول :

" وأساس القصر الإضافي ما يقرره النفسيون ، ويسمونه تداعي المعاني ، أى أن المعاني يرتبط بعضها ببعض بطريقة الضدية أو المناقضة أو المناقاة أو التلازم أو التكامل . والقصر الإضافي قائم على افراد معنى من المعاني لا على أنه لا يوجد سواء في الموصوف ، ولكن على أساس أن تبعده سواء هذا عن تفكير المخاطب . أى أن هذا النوع جاهز بين الصفة التي تريد اثباتها للمتحدث عنه ، وبين ما يمكن أن يقفز الى ذهنه من الصفات عند ذكر هذه الصفة . فمثلا تقول : ما نريد الا رياضيا ، فعند ذكر كلمة رياضى يحدث تداع في المعاني فتحول في الذهن صفات أخرى نحو : مهندس ، فلكى ، موسيقى ، مخترع ، أديب . ولكن اذا قصرت وأتيت بالأسلوب على هذا النحو فقد أبعدت كل هذه الوجوه .. "

وهذا كلام واضح وصريح في أن المقصود من القصر هو ابعاد ما عسى أن يحول بذهن المخاطب من الصفات التي تتصل بهذه الصفة المثبتة ، وكأن ليس عند المخاطب صفة ينكرها وأخرى يشبثها ، ويتبنى على هذا - ولا شك - فساد هذا التقسيم الذي ذكره العلماء للقصر الإضافي .

وقبل أن نرد على الشيخ نحب أن نذكر له ولمن يعيب علينا استدلالنا بكلام المتقدمين ، أن الشيخ عبد القاهر رحمه الله ، تنبه لهذه الفكرة ، ولكنه لم يكن يعرف تداعي المعاني أو تناوبها ، فلم يملأ الجو صياحا وضجيجا ، بل مر بذكر المسألة في بساطة وسهولة فقال في كتابه دلائل الاعجاز :

" واعلم أن قولنا في الخبر اذا أخر نحو ما زيد الا قائم ، أنك اقتصصت القيام من بين الأوصاف التي يتوهم كون زيد عليها ونفيت ما عدا القيام عنه ، فانما نعني أنك نفيت عنه الأوصاف التي تنافي القيام نحو أن يكون جالسا أو مضطجعا أو متكئا أو ماشاكل ذلك ، ولم نرد أنك نفيت ما ليس من القيام بسبيل ان لسنا ننفي عنه بقولنا : ما هو الا قائم ، أن يكون أسود أو أبيض أو طويلا أو قصيرا أو عالما أو جاهلا ، كما أنا اذا قلنا : ما قائم الا زيد ، لم نرد أنه ليس في الدنيا قائم سواء ، وانما نعني ما قائم حيث نحن وبحضرتنا

وما أشبه ذلك .

ونلاحظ أن الشيخ عبد القاهر كان دقيقا كل الدقة فلم يقل ان هذا في القصر الاضافي ، وانما ساقه على أنه فكرة عامة في القصر ، وأمثله صالحة لأن تكون قصرا حقيقيا (تحقيقيا أو ادعائيا) وأن تكون للقصر الاضافي ، ولكن بشرط أن يعين المخاطب في ذهنه المثلث والمنفى .

ثم نرد على الأستاذ فنقول له : ارجع الى شواهد القصر الاضافي ، فسترشدك الى أن النزاع يكون في شيئين ماثلين في ذهن المخاطب ، ولنسق نحن جملة من الشواهد الفصيحة :

يقول الله تعالى : " انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر " . وما أنت بمسمع من في القبور ان أنت الا نذير " . ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم . ويقول صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب " . انما أنا قاسم والله يعطى " وهكذا اذا تتبعنا الأمثلة التي مسدح فيها بالمثب والمنفى وجدنا أن كليهما معلوم للمخاطب ، وله فيه نظرة . فاذا كان المنفى عاما لم يكن من القصر الاضافي ، ولذلك يقول بعض العلماء ان قول الفطمش الضبي : الى الله أشكوا الى الناس اننى أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب من القصر الحقيقي .

قسم رابع القصر :

انتهى العلماء منذ زمن بعيد من تفسير القصر الاضافي ووقفوا عند قصر الافراد والقلب والتعيين ، باعتبار حال المخاطب في اعتقاد الشركية أو العكس أو التردد ، ولكن الأستاذ يتنبه الى أن القسمة الفعلية كانت تقتضى قسما رابعا ، وذلك في حال ما اذا كان المخاطب خالي الذهن ، وينعنى على العلماء اهمالهم هذا القسم الرابع . يقول : " وعلى ذلك يتضح لنا أن اغفال الحالة الرابعة ، وهى حالة خلو الذهن ، في باب القصر غير مبني على نظر صحيح . . . فمثلا يجوز لك أن تقول لخالى الذهن تماما : لا اله الا الله ، اعتمادا على ما يقدرونه في علم النفس من أن الخطأ الأول يصعب اصلاحه

والصورة الأولى يعسر معها . . . أما نحن فنقول لهم : ان أسلوبكم يقتضى
أن تردوا مواقف المخاطب بين هذه الأحوال الأربعة ، فلم أغفلتم الحالة
الرابعة ؟

ويرد الأستاذ العمارى على السؤال قائلا : والذي نؤكد أن تقسيم
العلماء مبنى على نظر صحيح وأنه لا حالة رابعة هناك حتى نتهمهم بأنهم
أغفلوها ، وأدنى نظر فى طبيعة القصر الاضافى يرشدنا الى ذلك ، فلا يدفعه
أن يكون المخاطب عارفا بالمثبت والمنفى ، فأنت تقول له : شوقى شاعر لا كاتب
إذا كان يعرف هاتين الصفتين فى شوقى فيثبتهما معا أو ينفى أحدهما
أو يتردد فيهما ، أما إذا قلت له هذا القول وهو يجهل كل الجهل شاعرية
شوقى وكتابته كان كلامك خلفا من القول ، وبعبارة عن اعتبار البلغاء ، فإذا اردت
أن تلاحظ هذه العلة النفسية ، وأن تؤكد من بادئ الأمر ، رجعنا الى جهة
أخرى ، وهى اخراج الكلام على مقتضى الظاهر ، ويقال حينئذ : ان المتكلم
نزل المخاطب الخالى الذهن منزلة المنكر أو المتردد أو العكس ، ويرجع الأمر
الى قسم من هذه الأقسام الثلاثة . والعلماء انما يذكرون المقاسم الأصلية ،
أما الأمور المنزلة فيرجعونها الى مشابهاتها ، ومعروف ذلك عند من درس ، فهم
يجعلون أضرب الخبر ثلاثة ، ثم ينزلون المنكر منزلة غير المنكر ، والعكس ،
وهكذا . ولا يحق لنا أن نقول ان هذه أضرب آخر للخبر .

على أن المثال الذى ذكره الأستاذ (لاله الاالله) لخالى الذهن
لا يصح مطلقا أن نجعله من القصر الاضافى ، وانما القصر فيه حقيقى ، وهذه
الأقسام الثلاثة كما هو معروف لا تتأتى فى القصر الحقيقى .

مرامى أخرى للقصر أهملها البلاغيون :

العلماء قصرُوا فى أغراض القصر ، وحصروها فى النفى والاثبات وهو أمر
يجب أن نؤاخذهم به . . . والذي نأخذه على صاحب الايضاح ومن لف لفهم
من البلاغيين أن شعورهم كان يجب أن يتسع حتى يشمل ما وراء القصر بانواع^{من} أنواع
القصر ، فكان يجب أن يوسعوا حسهم أكثر من ذلك ، فليس القصر للاثبات والنفى ،
بل هو للتضييق والتحديد . . . ولعله ثبت مما قلناه أن للقصر

مramى أخرى وراء المعنى النحوى أهملها البلاغيون .
وهذه الأغراض التى ذكرها ومثل لها هى غرضان :
التوهين : ومثل له بقوله تعالى " وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل "

والتأنيب : ومثل له بقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام :

" ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربي وربكم " .
عرض الخولى هذين المثالين وقال : اذا نظرنا الى المثال الأول وجدنا
أن التعبير بكلمة رسول عنصر أساسى فى المعنى قصد به (التوهين) من
شأن الرسول فى هذا المقام . " محمد ده يطلع أيه ؟ مرسل زى بقية
المراسيل بيحيى ويروح ، القصر هنا واضح فى أن المقصود به التوهين من
أثر الرسول فى الدين ، ولذلك جاءت تسميته هنا برسول ، ولو قال ، نذير ،
هاد ، سراج ، لقطع الطريق على هذا الغرض " .
واذا نظرنا الى المثال الثانى نجد " هذا التأنيب المؤلم مستفاداً من
وراء الألفاظ ، وهو هنا المرمى البلاغى للقصر ويدل عليه " .

وقال الأستاذ الممارى :

قبل أن نرد على هذا الكلام المتداعى نذكر ما قاله العلماء فى أغراض القصر
حتى ننفى عنهم تهمة أنهم ضيقوا حسهم أو قصروا :
قالوا من دواعى القصر :

١ - داعى القصر الحقيقى التحقيقى : بيان الواقع .
٢ - داعى القصر الادعائى : المبالغة وعدم الاكتراث بما عدا المقصور
عليه .

٣ - الرد على المخاطب فى قصر القلب وقصر الافراد .
٤ - تعيين المبهم عند المخاطب فى قصر التعيين .
٥ - قد يقصد من القصر مجازاة الخصم .
٦ - التنبيه على أمر هو مقتضى الكلام والفرض منه ، وجعل القصر وسيلة
اليه ، وذلك كغير فسى انما .

٧ - تنزيل غير المنكر منزلة المفكر لا اعتبار مناسب فيخاطب بأسلوب القصر (١)

أما ردنا على ما ذكره الشيخ من أغراض فواضح أنه ليس القصد في الآيات الأولى الحط من مقام الرسالة في الدين ، وهل يريد الله سبحانه وتعالى أن يقول : ان محمدا ليس شيئا ؟ لا . يا شيخ المسألة أن الله يقول لهم : لا معنى لتعلق الدين بمحمد - أى بحياته - فان الرسل قبله ماتوا وسيموت هو مثلهم ، ولا ينتهى الدين الذى يدعون اليه بانتهائهم ، لأن مهمتهم الرسالة والتبليغ ، والرسالة ولو أنها أمر له قيمته وخطره لكن لا يجب أن يتعلق ايمان الناس بمدة حياة صاحبها ، فهو انما يدعو الى الله .

ولعل ما يدل على ذلك أن العرب لم يفهموا أن القصد التوهين من شأن الرسالة ، وهذا أبوبكر يستشهد بها يوم وفاة الرسول ، فهل كان يريد أن يقول لهم : ان محمدا ليس شيئا في الدين ؟ ما نظن ذلك ولا نرضى لمسلم أن يظن أنه .

وأما التأنيب في الآية الثانية فليس مستفادا من القصر ، وانما هو مستفاد من السياق ، استفهام تعجيبى ، واتخاذ آلهة من دون الله ، وهو صادر عن النبی ، وهو المدعى عليه ، أنه دعاهم الى عبادته وأمه " أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله " ؟ هذا كثير ومدعاة الى تأنيبهم ، أما القصر فلا يفيد التأنيب ، وهب عيسى عليه السلام لم يقل الا جملة القصص أكان يستفاد منها التأنيب ؟ وبذلك تسقط دعواه أن التوهين والتأنيب من أغراض القصر . ووقفنا عند الأغراض التى ذكرها المتقدمون ، ولا نزال فى انتظار الجديد .

هذا ولنا تعليق على ذلك ، فان كلا من التوهين والتأنيب يصلح غرضا من أغراض القصر ، ولكن فى غير ماورد من أمثلة . مثال ذلك : ما أنت الا طالب : تقال للطالب المهمل ، والمراد منها التأنيب أو الحث على المذاكرة .

ما أنت الا مخلوق : تقال لمن يتعاطم ، والمراد منها التوهين .

قديمنا . . . و . . . جديدنا الناس

وهذا بحث آخر للدكتور العمارى مكمّل لبحوثه عن (علوم البلاغة فى الجامعة) تحدث فيه عن التجديد فى الفصل والوصل (١) يقول :
 " وانما أفردته بعنوان خاص لأن أستاذ البلاغة فى الجامعة قد أسرف فى التجنى على القديم حين عرض للباب الذى سنتناوله فى هذا الحديث .
 وذلك هو باب (الفصل والوصل) . وهو باب لا يزال مفلقا على كثرة من طرقه من الباحثين ، قدامى ومحدثين . .

فقد أجهد الأقدمون فيه أنفسهم ، فجعلوا يؤسسون قواعده ، ويخرجون شواهد ، وجاء المحدثون المجددون فلم يعجبهم هذا الاتجاه من الأقدمين فسلك بعضهم سالك أخرى ، منها مابنى على نظر سليم ، ومنها ماهاك عن جادة البحث العلمى الاصيل .

وقد كانت الفكرة عند القدامى فى هذا الفصل أنه صعب المدخل وعسر المسلك ، فأنه لا يكاد يخلو كتاب من الكتب من الإشارة الى ما فى هذا البحث من صعوبة .

قال الشيخ عبدالقاهر الجرجانى : (اعلم أن العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها ، والمعنى بهما منشورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى ، من أسرار البلاغة ، وما لا يأتى لتمام الصواب فيه الا الأعراب الخالص ، والأقوام طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فنا من المعرفة فى ذوق الكلام هم بها أفراد ، وقد بلغ من قوة الأمر فى ذلك أن جعلوه حدا للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها ، فقال : معرفة الفصل من الوصل . وذاك لغموضه ودقة مسلكه وأنه لا يكمل الا حراز الفضيلة فيه أحد الاكمل لسائر معانى البلاغة) (٢) . وقال فى موضع آخر :
 (واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول أنه فيه خفى غامض وقبيح صعب والا وعلم هذا الباب أغض وأخفى وأدق وأصعب) (٣) .

١ - راجع : قضايا بلاغية للدكتور العمارى . ص ١٠٤ .

٢ - دلائل الاعجاز ص ١٢٠ .

٣ - المصدر السابق ص ١٢٨ .

فلما جاء أبو يعقوب السكاكي في القرن السابع الهجري كان سبيله السبي
فهم هذا البحث مما يزيد دقه وصعوبة ، فلم يلبث أن قال : (وانها جهات
ارتباط الجمل - لمحك البلاغة ، ومنتقد البصيرة ، ومضمار النظار ، ومتفاضل
الأنظار ، ومعيار قدر الفهم ، ومسبار غور الخاطر ، ومنجم صوابه وخطائيه ،
ومعجم جلالة وصدائه ، وهي التي اذا طبقت فيها المفصل شهدوا لك من
البلاغة بالقدح المعلى ، وأن لك في ايداع وشيها السيد الطولي) (١) .
واذا قال عبد القاهر والسكاكي ماقالا فعلى من جاء بعدهما أن ينهج
نهجها ويسلك خطتهما . وقد كان . فما من عالم الاله الى ذلك اشارة
حتى وصلنا في كتب المتأخرين الى أنه بحث : (تسكب فيه العبرات) .
هكذا صوره الأقدمون بصورة رهيبة مخيفة .

أما المحدثون فيطالعك حين تقرؤهم أمرار :
الأول : أن أساتذتنا يعتمدون على المتقدمين ، وينهلون من معارفهم
ويردون ، ثم تراهم ينسبون كثيرا من آراء القدامى الى أنفسهم
وقد كنت أحسب أن هذه الخلبة اختص بها الناشئون من أصحاب الرسائل
الدراسية التي يقدمونها لينالوا بها درجة علمية ، فاذا الأساتذة والطلاب
في هذا المعنى سواء .

الثاني : لو قرأت ماكتبه المعاصرون - أو على وجه الدقة بعضهم - وفي هذا
الفصل الذي تسكب فيه العبرات لخلصت من ذلك الى أنه فصل غير
جدير بالنظر ، وما تحتاج في فهمه الا الى دقائق معدودة . فقد أخذوا
يحذفون منه ، ويضيقون من دائرته ، ويرمون أكثر مباحثه الى علم النحو .
وأريد في هذه الكلمات أن أناقش جماعة منهم . ولأبدأ بأستاذ البلاغة
في الجامعة المصرية الشيخ أمين الخولي :

ابتدأ فتابع القدامى في رأيهم من أن هذا البحث من المباحث التي
يحتاج السالك فيها الى قوى غير عادية حتى يسلكها . وعجارته :
(الفصل والوصل من الصعوبات لأنها ترجمة عن أشياء ليست مكتوبة بـ

ملحوظة ، فهما ظاهرة من ظواهر الدقة في العربية ، كما أنهما مظهر من مظاهر ميلها الى الاكتفاء والايجاز ، لأنه يستعمل أيضا في بيان دلالات أخرى بين الأسطر ، وفي تضاعيف الكلام وراء الدلالة اللفظية الساذجة ، فكما اعتمدنا في القراءة على الأعراب ، وكذلك اعتمدنا في الكتابة على الترتيب ، وفي الكلام على الفصل والوصل . (١) .

ونحن لاناقد هذه المتابعة ، فهي عدوى سرت في المؤلفين من قديم ثم ثنى الشيخ . . فرأى أن محاولة القدماء غير مجدية ، وأنه لذلك يجب أن يحاول محاولة جديدة تكون أجدى على العلم ، وأنفع للدارس . قال : (وعلى ذلك فإن المصلحة تقتضى بأن نشطب هذه المحاولة القديمة ، ونحاول فهم الأمر على ضوء طبيعى هو السياق والمعنى دون اللفظ) . وإذا سألت عن عيب (المحاولة القديمة) أجابك في أجمال :

(ومع الأسف لم ينظر المقدام الى الفصل والوصل الا في حيز الجملة والجملة) . هذا الحيز الضيق ، ولم يتجاوزها الى الجمل . ولكننا سننظر الى الفقرة كلها ، والقصيدة مجتمعة ، والمقالة كاملة . كما أن القدماء - كما قال فضيلته - (ركبهم غفريت فقالوا : ان الباب ده باب الواو ويس ، فما السبب ؟) . واذن فسيحدثنا الأستاذ عن هذا الفصل والوصل في الفقرة الكاملة ، وسيشمل كلامه غير الواو من أحرف المطف ، وهذا حسن . فلننظر الى أى مدى تتحقق الأحكام ؟ . ان القدامى قعدوا هذا الباب على هذا النحو ، قالوا : ان الجملتين يفصلان في مواضع ، ويوصلان في مواضع ، وجعلوا مواضع الفصل هي : ١ - اذا كان للجملة محل اعرابى ، أو حكم لم يقصد ادخال الثانية في واحد منهما .

٢ - اذا كانت الثانية من الأولى بمنزلة التوكيد أو البدل أو عطف البيان . وسموا ذلك (كمال الاتصال)

٣ - اذا اختلفت الجملتان في الخبرية والانشائية ، أو لم يكن بينهما جامع . وسموا ذلك (كمال الانقطاع)

١ - نقلا عن كراسة من كراسات طلابه بكلية الآداب .

٤ - اذا كانت الثانية منزلة منزلة جواب لسؤال اقتضته الأولى . وسموا

ذلك (شبه كمال الاتصال) .

٥ - اذا أوهم العطف على جملة العطف على أخرى عطفا يفسد المعنى وسموا

ذلك (شبه كمال الانقطاع) .

أما مواضع الوصل فهي :

١ - اذا قصد مشاركة الجملة الأولى في المحل أو في الحكم الاعرابى .

٢ - اذا اتفقت الجملتان في الخبرية أو الانشائية وكان بينهما جامع وسموا ذلك

(التوسط بين الكمالين) .

٣ - اذا أدى الفضل الى ايهام غير المقصود . وسموا ذلك (كمال الانقطاع

مع الايهام) .

هذا مجمل ما رتاه القدامى . فجاء الأستاذ الخولى ، فرأى أن يحذف

من هذه القواعد كل ماله صلة بالنحو ، لأن البلاغة انما تبحث في الجائز ،

فاذا كان الفصل واجبا ، أو اذا كان الوصل واجبا ، فهذا بحث نحوى لا بلاغى

وعبارته : (وحيث يوجد الجواز يكون عمل البلاغة لأن البلاغة ترجيح أحد الجائزين

عن طريق الاحساس والتذوق ، واذا كان لابد من الواو فان البلاغة تتسحب) .

وهذا نظر حسن ، واتجاه حميد ، ولكننا اذا جئنا عند التطبيق رأينا

المسألة قد التوت ، والطريق قد اعوجت . قال (شبه كمال الانقطاع هذا

بحث لا دخل للبلاغة فيه ، لأن مبناه على الايهام ، ومادامت المسألة دخل فيها

الايهام فهي من صميم النحو ، لأن الايهام هو افهام غير المراد ، أى هو

فساد المعنى ، والبلاغى انما يفرض أن اللفظ قد أفاد المعنى ، ثم يبدأ عطله

بالمفاضلة بين اعتبارين) .

ثم يتكلم الأستاذ بافصاح أكثر حين يعرض للمثال الذى مثل به القدامى

للعطف الموهم ، أولشبه كمال الانقطاع ، وهو :

وتظان سلمى أننى أبغى بها بدلا أراها فى الضلال تهيم

ويقول : (وأداروا الكلام فى المسألة على العطف الموهم ، فقالوا : ان

الجملة الثانية بمنزلة المنقطعة عن الأولى لكون عطفها عليها موهما لعطفها على غيرها . أى أنه لم يعطف (أراها) على البيت على (تظن) لئلا يتوهم السامع أنه معطوف على (أبغى) لقربه منه ، مع أنه ليس بمراد . ولا تدخل مسألة الفصل هنا فى البلاغة ، لأنه أمر ليس فيه احتمالات ، وليس له وجه آخر ، ولا حيلة فيه ، أى انه أمر نحوى .

وبهذا البيان استطاع أستاذ البلاغة فى الجامعة أن يريحنا من مسألة ذات خطر من مسائل الفصل والوصل ، ويلقى بها بعيدا عن حظيرة علم المعانى ، لتدخل فى حظيرة علم النحو .

غير أننا ما نلبث أن نرى هذا البريق ليس الاسرابا خادعا ، وأن هذه المسألة لو جعل الشيخ أمين وألف مثله يدفعونها بأيد يهم وأرجلهم لتخرج عن بابها الذى ألفتة ، وموضعها الذى نشأت فيه ما استطاعوا .

فنحن نقول : ان اللغة العربية فيها من الايهام ، ما لا يكاد يحصى ، وللقرينة بعد - وسيلة من وسائل رفع الايهام ، ولسنا نمثل الايهام بهذا البيت نفسه على الوضع الذى جاء عليه ، والذى ظن الأستاذ أن البيت فيه سليم معافى . فنظرة عابرة ترى أن البيت - مع الفصل - فيه ايهامان لا ايهام واحد ، فجملة (أراها) تصلح أن تكون حالا من فاعل (أبغى) ، وتصلح أن تكون خبرا ثانيا لـ (أن) ، وكلاهما ما يفسد به المعنى ، ولكن البيت صحيح . وقد قالوا فى قوله تعالى : " وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزون " الله يستهزئ بهم ، ويعلم فى طفيا نهم يعمهمون " ان جملة (الله يستهزئ بهم) يصح عطفها على الجملة المصدرية بالشرط ، لكنها لم تعطف عليها لئلا يتوهم عطفها على (قالوا) هذا العطف الذى يفسد المعنى . فالتحولا يمنع العطف مع الايهام بل يجوز ، وهو لا يعنيه الاصححة التركيب ، وصحة المعنى ، ولو على ضعف . أما البلاغة فوظيفتها تجميل المعنى وتحسينه ، ورفع ماعساه يشوك طريقك اليه .

ومن عجب أن الأستاذ الخولي قال كلاماً شبيهاً بهذا حين تحدث عن اختصاص الواو بهذا الباب . قال : (ان الواو قصدت ، وكانت اصل هذا الباب ، لأن هناك اعتبارات يصح الاتيان فيها بالواو أو عدمها مع بقاء أصل المعنى ، ولو على نوع من الضعف ، أو عدم التأثير ، فهذا بلاغى . وأما لورفعت الواو ففسد المعنى أو تغير ، فهذا لا يدخل فى البحث البلاغى) .

ويدهى أن الایهام لا يفسد المعنى ، لأن السامع يستطيع أن يفهم المراد ، ولو بعد التوهم . وتعبيرهم بكلمة (ايهام) - وهى الدلالة الضعيفة - دليل واضح على أن هذا أمر عارض لا يفسد المعنى ، ولا يغيره ، ولكن يجعل عليه سحابة رقيقة بيضاء ، تخفيه بعض الخفاء ، ثم لا تلبث أن تزول عنه . وكل من يستطيع أن يفهم معانى الكلام لا يفهم عليه أن جملة (أراها) اذا عطفت لا يمكن عطفها على جملة : (أبغى بها) .

وكذلك لا يمكن أن يقر فى ذهن فاهم أن جملة (" الله مستهزئ بهم ") معطوفة على جملة (انا معكم) والا كانت من قول الكافرين ، وهذا محال . ولذلك صح العطف فى قوله تعالى : (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) فقوله (ولا يستقدمون) معطوف على مجموع الشرط والجزاء ، لا على الجواب ، ان لا معنى لقولنا : اذا جاء أجلهم لا يستقدمون . ومع ذلك ربما توهم السامع فى بدء الأمر أنه معطوف على جملة الجزاء .

ولا أظننا نحتاج بعد ذلك أن نقيم دليلاً على أن (الایهام) لا يمنع العطف .

مرة أخرى مع الفصل والوصل

مرة أخرى يعود الدكتور العمارى الى دخول المعركة البلاغية دفاعاً

عن الفصل والوصل ، وذوداً عن علمائنا القدامى وتراثهم . يقول :

لم ينصفنا من يظن أننا ندافع عن القديم لأنه قديم ، وننافح عن السابقين من علمائنا تعصبا لهم ، وتأخذ الطريق على المحدثين استهانة بهم وبآرائهم ، فما الى ذلك قصدنا ، وكيف ؟ وقد جاء فى بعض ما كتبناه أن كشفنا عن بعض عيوب كتبنا القديمة ، ودعونا الى التخلّى عن هذه العيوب ، وإراحة الدارسين من همومها وأثقالها . (١) .

وأحياناً نتمسك بالقديم مرغمين ، لأننا نتلفت حولنا فلا نجد فى جديده الناس ما يغنى غناه ويسد مسده ، فلا نستطيع أن نوافق على هدم القديم ، وليس بين أيدينا صالح ترتكز عليه بلاغتنا العربية .

والفكرة عندنا لا تزال كما كانت عند أسلافنا : يقول أبو العباس محمد بن يزيد النمر : (وليس لقدم العهد بفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحق) . (٢) .

ويقول أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى : (ولا نظرت الى المتقدم فيهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل الى الفريقين ، وأعطيت كل حقّه ، ووفرت عليه حظّه ، فأنى رأيت من علمائنا من يستعيد الشعر السخيف لقدم قائله ، ويوزل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه . ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره . . . فكل من أتى بحسين من فعل أو قول ذكرناه له ، وأثنينا عليه به ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الردئ اذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعناه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه) . (٣) .

١ - انظر رأى د . العمارى فى الفصل السابق (آراء فى تجديد البلاغة) الجزء

الاخير من المقال .

٢ - الكامل ج ١ ص ١٨ ط التجارية .

٣ - الشعر والشعراء ج ١ ص ٧ .

ثم نمضي الى القصر:

قد انتهى الحديث في المقال السابق الى هدم نظرية (الایهام) والا تكاف عليه لجعله وسيلة الى اخراج بحث (شبه كمال الانقطاع) من البحث البلاغي ، وبينما أن الایهام لا يمنع العطف نحويا ، وانما يمنعه بلاغيا . ونحب أن نضيف في هذا الحديث أن علماءنا كانوا متبهمين الى هذه الفكرة فقد ذكروا أن الایهام يوجد في كل من كمال الاتصال وشبهه ، وأن صاحب التلخيص انما اقتصر على ذكره مع كمال الانقطاع لكثرة فيه ، بل قالوا انه يكون في الأقسام كلها . قال ابن السبكي في عروس الأفراح : " ولك أن تقول : الایهام كما يدفع الفصل بين الجملتين اللتين بينهما كمال الانقطاع ، يدفعه بين اللتين بينهما كمال الاتصال ، وكذا غيره من الأقسام السابقة واللاحقة ، فليعتبره الناظر ، والایهام مشروط بالأيماضة أيها آخر " .

ثم نراهم يحاولون أن يخرجوا من دائرة البلاغة - أيضا - بحث (كمال الانقطاع) وبحث كمال الاتصال ، ويعتمدون على أن المعطف أساسه المغايرة والمناسبة . . فنحن لا نعطف الا شيئين متغايرين متناسبين ، والمغايرة الا يكون المعطوف نفس المعطوف عليه ، ولا جزأه . وتقول جاء زيد نفسه ، أو جاء زيد زيد ، فلا تحتاج للمعطف ان لا مغايرة فيها ، بخلاف ما إذا قلت : جاء زيد وابنه ، فالمعطف لازم هنا لوجود المغايرة . وكذلك تباین الشيئين يمنع من أن نضع بينهما علاقة وصل لأنهما غير صالحين للاتصال . ومن المتفق عليه أن كمال الانقطاع اختلاف السياق ، فهما كلامان ليست بينهما وحدة ، فليس معقولا أن يتصلا . وعلسى ذلك فليس هذا الموضع محل بحث بلاغي لأنه وجه واحد لا يمكن العدول عنه . وأما كمال الاتصال وهو توكيد ومؤكد ، أو بديل ومبدل منه ، أو بيان ومبين ، فهو باب وحده . ذلك أن الاتحاد فيه في السياق تام ، فطبيعى أنه سياق واحد فلا داعي للوصل فيه ، ان أغنى عن ذلك شدة الاتصال .

هذا موجز مقالة أستاذنا في الجامعة . وخلاصته أن الباحث في الفصل

والوصل يجب عليه أن يطرح عنه بعيدا هذين الموضعين ، لأن الفصل
فيهما واجب ، والبلاغة إنما تبحث في الجائز .

ولست واجدا شيئا من المعنا في الرد على هذا ، فان العطف جائز بين
الخبر والانشاء ، وقد نقل عن سيوييه جواز : جاء زيد ومن عمرو ، ولا خلاف
عندهم في جواز هذا العطف في نحو قوله تعالى : " وقالوا حسبنا الله ونعم
الوكيل " .

وأما كمال الاتصال فبحسبنا أن نقول لهذا الشيخ : ان هذه التوابع
ليست توابع اصطلاحية ، ولذلك نرى علماءنا في غاية الدقة حين قالوا في كل
واحد منها (فوزانه وزان كذا) من توكيد أو بدل أو بيان . على أننا نرى
النص الأدبي الواحد يكون بيانا فيعطف مرة ولا يعطف أخرى :

قال تعالى في سورة البقرة : " وان نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء
العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم . . . " .

وقال عز وجل في سورة ابراهيم : " وان قال موسى لقومه انكروا نعمة الله
عليكم ان نجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون
نساءكم . . . " .

ولعل من المحب أن يقول هذا الباحث في قوله تعالى : (أمدكم بما تعلمون
أمدكم بأنعام وبنين) : (كان يمكن أن يعطف فيقول : وأمدكم) .
ياالله . . . تحلوناه عاما وتحرمونه عاما .

بقي عند الشيخ شبه كمال الاتصال وهو أولى الأقسام عنده بأن يخرج عن
البحث البلاغي . . (المسألة - ان - ليست مسألة سؤال وجواب واستئناف
ويتاع ، ومن المؤسف أن يقع فيه عبد القاهر نفسه) وانما المسألة - عنده - أن هناك
كلامين لمتكلمين مختلفين حقيقة أو حكما ، ومادام الأمر كذلك فالفصل واجب ،
لأنه لا يعطف كلام شخص على كلام شخص آخر .

وانا أرا أي دارس أن يفهم هذا الباب كله من أوله الى آخره ، فما عليه
- بحسب زعم أستاذ البلاغة - الا أن يفهم هاتين الكلمتين : (اذا كان الخطاب

بين متعدد ين حقيقة فهذا أول مواضع الفصل ، وهو أسلوب الحوار - ولم يعطنا الشيخ فكرة عن أسلوب الحوار هذا - والأصل في الحوار أن يكون بين شخصين ، وقد يقع لي مثل حالتين مختلفتين لشخص واحد ، فالحوار الذي نقصده هنا هو الذي يقع بين متعدد ين حقيقة أو حكما . حقيقة هذا أول مواضع الفصل حكما : هذا أول الكلام في الفصل والوصل . والأصل فيه أنه حيثما وجد التقابل بين كلامين فهو أول مواضع الفصل ، وحيثما وجد تكامل بينهما كان ذلك أول مواضع الوصل ، وإذا حدث اللبس أو التردد بين هذين الطرفين دخل عمل علم البلاغة ، وتعدد السياق اعتبار يدخل فيه شبه كمال الانقطاع . وأما في كمال الانقطاع فاما أن يتعدد السياق ، واما أن يتحد ، فإذا تعدد السياق فهما كلامان ، وإذا وجدت بينهما مناسبة فالفصل ، وإذا اتحد فاما أن يتعدد المتكلمان حقيقة أو اعتبارا ، وحينئذ نستغنى عن الوصل ونفصل ، واما أن يتحد المتكلم بالجملة ، وحينئذ يجب الوصل .

وبهذا البيان اللطيف وبهذا التعميد الرائع نخلص من هذا الباب الذي كانت (تسكب فيه العبرات) .

والحق أنى - الى هنا - وقفت ، ولست بمستطيع أن أزيد بيانا أو إيضاحا ولعل في العلماء المتعمقين في دراسة البلاغة من يستطيع أن يفهمنا هذه القاعدة الجديدة لهذا الباب المسكين ١١

اقترح فى باب الفصل والوصل

الحوار الساخن الذى أداره الدكتور العمارى بينه وبين الأستاذ الخولى
فى باب الفصل والوصل - على ما فيه من فائدة قطعية ومتعة نفسية - لم يصل
بنا الى وضع نستريح اليه فى دراسة هذا الباب المهم .

ونحن فى العصر الحديث لا يعنينا كثيرا أن ينتقل باب الفصل والوصل كله
أو بعضه الى علم النحو أو يبقى فى عرينه البلاغة ، بقدر ما يعنينا أن نهىء هذا
الباب العلمى الهام بحيث يصبح فى متناول الدارسين ، قريبا الى أفهامهم
خفيفا على عقولهم وأن هانهم ، وبحيث يمكن أن يطبق ويستعمل فى الكتابة
الأدبية والعلمية .

أما أن يكون كل تجديدنا أن ننقل منه جزءا أو أجزاء الى علم النحو فهذا
ليس - أبدا - حلا للمشكلة ، إنما نقل لها من مكان لآخر فقط لا غير .
وإذا كان باب (الفصل والوصل) يدور ويرتكز على " الواو " ذكرنا وخلفنا
فلماذا لا نستغنى عن هذا الباب ونستبدله ببحث صغير يتلخص فى :
مقدمة : تشتمل على جزأين :

أ - حديث موجز عن الواو بين المفردات ، وما يفيد استعمالها حينذاك
مع التمثيل .

ب - حديث موجز عن الواو بين الجمل ، وما يدخل فى هذا من اعتبارات
وحالات بايجاز .

الفصل الاول : حالات يجب فيها استعمال الواو - مع التمثيل .

الفصل الثانى : حالات يمتنع فيها استعمال الواو - مع التمثيل .

خاتمة : يذكر فيها بعض حالات جواز استعمال الواو ، وتفضيل ذلك
ان كان هناك أفضلية .

ويجب ملاحظة ما يأتى :

١ - الأمثلة لكل حالة تكون كافية للافهام والقياس عليها .

٢ - الشرح يكون في الهامش وهو لمن يطلب المزيد من الفهم والتعمق .

٣ - الهامش يجب أن يخلو من الخلافات والتعقيدات ، وأن يكون بأسلوب العصر .

٤ - تتراوح الأمثلة بين الحديث والقديم ، وتكون جميلة واضحة ، تضيف إلى الدارس ثروة لغوية ، وتؤثر في ذوقه وإحساسه بالجمال .

هذا ونرجو أن يتوفر لنا من الوقت والجهد والتوفيق ما يمكننا أن نضع هذا البحث قريبا إن شاء الله .

تجديد البلاغة فى الجامعة :

وهذا مقال آخر يتحدث فيه العمارى عن تجديد البلاغة فى الجامعة

كما يتحدث عن كتابى الأسلوب وفن القول (١) :

" قلت فيما سبق ان رجال الجامعة لم يصنعوا شيئا فى تجديد البلاغة العربية ، غير أن طؤوا غرف الدراسة ، وأذهان الطلاب بالطعن على المتقدمين والتنويه بقصورهم وتقصيرهم ، فلننظر فيما بين أيدينا من كتب لمؤثرى مصداق ذلك . فى سنة ١٩٣١ ألقى فضيلة الأستاذ الشيخ أمين الخولى محاضرة فى الجمعية الجغرافية الملكية ، وسماها " بحثا تاريخيا تجديديا " تحدث فيها عن صلة الفلسفة بالبلاغة ، وتكلم طويلا عن نشأة البلاغة وتطورها والمدارس التى احتضنتها ، ثم تحدث عن الدراسة فى كلية الآداب ودعا الى تجديد البلاغة تجديدا شاملا . وكان ما قاله :

(وهى - يعنى الكلية - فى اخلاص المجدد المستنير بالتاريخ تستطيع أن تختط طريق الدرس الفنى ، وتجعله واضح المعالم ، مفايز الطريق البلاغة التى سمينها البلاغة العلمية ، كما عزمت على أن تتلافى ما كان من أثر الفلسفة فى تجديد البلاغة وقصور بحثها ، لأن الزامها حدود دراسة الجملة قد حرمها من أبحاث ضرورية للفن الأدبى ، أبحاث نراها فى بلاغات اللغات الحية ، ويجب أن نتناولها بالدرس ، ومن تلك الأبحاث : الأسلوب ، واختلافه ، وأوجه تفاوته ، ومزايا أنواعه المختلفة ، ومن ذلك البحث فيما وراء المعنى الجزئى : تشبيه - استعارة - كناية - من معنى كلى وغرض يقصد اليه الأديب . الخ) . أبحاث كثيرة يدعو الأستاذ الى تناولها بالدرس وبذلك يجدد البلاغة العربية .

ظفر فى فم الأمانى حلو ليتمنه لنا قلامة ظفر

وتعضى خمسة عشر عاما كان يمكن أن ترى فيها أثرا لهذه الدعوة ، ولكننا نفاجأ فى سنة ١٩٤٦ بمكاتب للشيخ أمين يسميه " فن القول " .

ويقول فى الصفحة الرابعة منه " انى أحس احساسا قويا غنيا بحاجة

حياتنا الأدبية واللغوية الى دراسات كثيرة واسعة لم نقم بها ، ولا هيأنا السبيل لاتمامها ، ولو استطعنا أن نعرف بها ونقنع بضرورتها وندفع اليها ونقوم بمحاولات أولية فيها ، لنخلق الجيل الذى يقوم بها ويتمها ، فذلك خير مانسدى لعصرنا ، وجل مانؤدى به واجبنا .

ولن أظن لحظة أننا قد أوفينا فى ذلك على الأمل المرجو ، والمثل المنشود أبداً ، لأن الميدان خال بل مقفر . وسنرى فى البلاغة التى نزاول درسها هنا مثلاً لذلك بينا " .

وان فـالشيخ أمين لم يصنع شيئاً فى هذه المدة الطويلة ، ولم يصنع غيره كذلك ، لأن الميدان " خال مقفر " فهل يكون هذا الكتاب الذى يخرجـه هو العمل المرجو فى تجديد البلاغة ؟ هذه محاضرات القاها فى معهد الدراسات العليا ، وقد وصلنى منها ١٢٠ صفحة ، وباقيها فى المطبعة كما أظن ، وكان من حق الشيخ علينا أن ننتظر حتى يتم طبع المحاضرات ، ولكننا نقول هنا كلمة ولا يزال الباب مفتوحاً : مائة وعشرون صفحة هى مقدمة لعمل تجديدى فى البلاغة ، فماذا تناول فيها ، تحدث فى أربع عشرة صفحة عن التفسير الحيوى والاجتماعى لفكرة انشاء المعهد ، ثم التفت الى ما كان نشره من محاضرات ومقالات فأعاد نشرها بشئ من البسط والاسهاب فتكلم عن نشأة البلاغة وعن منهج دراستها عندنا وعند غيرنا ، وتحدث عن اللغة العامية واللغة الفصحى ومشكلات اللغة الفصحى . كل ذلك فى هذا العدد الضخم من الصفحات اعتبره مقدمة لكتابه ، أليس ذلك حسناً ؟ لقد ذكرنا أن أحمد الرجاز أتى نصر بن سيار والى خراسان ، ومدحه بأرجوزة تشبيهاً بمائة بيت ومدحها عشرة أبيات ، فقال نصر : والله ما تركت كلمة عذبة ولا معنى لطيفاً الا وقد شغلته عن مدحى بتشبيهاك . وانا أرجو ألا يكون كتاب " فن القول " كهذه الأرجوزة .

لكن جزءاً من دعوة الشيخ أمين قد تحقق ، فقد أخرج الأستاذ أحمد الشايب كتاب " الأسلوب " وتكلم فيه عن كل المباحث التى دعا الشيخ الى

تناولها ، فهل هذا الكتاب عمل تجديدي ؟ لننظر (١)
ومهما يكن من شيء فلا زلنا عند رأينا من أن الجامعيين تركوا البلاغة
العربية كما كانت على عهد السكاكسي ، وإذا كانوا صنعوا فانهم لم
يزيدوا على أن رجعوا الى كتب البلاغة قبل السكاكسي ، وكتب النقد الأدبي
فاغترفوا منها ، وهذا عمل يشاركهم فيه كثير من أبناء دار العلوم ومن أبناء
كلية اللغة العربية بالأزهر . فأين هو التجديد يا رئيس الامناء ؟ .

والآن وبعد أن استعرضنا هذه المعركة البلاغية . . . وهي فى الحقيقة
كانت دافعا قويا لاثارة قضية تجديد البلاغة العربية . . أقول نستطيع الآن
أن نتساءل : لماذا لم يتصد الأستاذ أمين الخولى ويرد بنفسه على تلك
المقالات التى كتبها الدكتور العمارى ونقد فيها أسلوب الخولى وآراءه فى بعض
مسائل البيان والمعانى ؟ ولماذا ترك هذه المهمة للأستاذ كامل شاهين الذى
تطوع لنزول المعركة والدفاع عنه ؟

وفىما يبدو أن الأستاذ الخولى كان مشغولا فى ذلك الوقت بتأليف كتابه
- فن القول - الذى أراد به الرد على " حركة الرسالة " كما سماها .
وقد أشار الى ذلك الدكتور العمارى حينما قال : " وقد سمعت أن فضيلة
الأستاذ الشيخ أمين الخولى يريد أن يرد على مقالاتنا هذه التى يسميها
" حركة الرسالة " بكتاب فى البلاغة بخرجه للناس وأنا منتظرون بفارغ الصبر
هذا الكتاب انتظار المتعطش الى التجديد فى هذه العلوم " (٢) .

ولكن الأستاذ الخولى تأخر كثيرا فى اصدار هذا الكتاب وحدثنا الدكتور
العمارى عن ذلك فى احدى مقالاته فقال :
أبحاث كثيرة يدعو الأستاذ الخولى الى تناولها بالدرس ، وبذلك يجدد
البلاغة العربية .

ظفر فى فم الأمانى حلو ليت منه لنا قلامة ظفر

١ - انظر : كتاب الأسلوب فى الميزان . من هذا البحث .

٢ - الرسالة - العدد ٧٠١ ص ١٣٥٩ .

وتعنى خمسة عشر عاماً كان يمكن أن ترى فيها أثراً لهذه الدعوة ، ولكننا
نفاًجاً فى عام ١٩٤٦ بكتاب للشىخ أمين بسميه " فن القول " .

واذا كان الشىخ أمين الخولى قد تأخر كل هذا الوقت ، فان أحد أمنائه
قد باءر وأصدر كتاب " الأسلوب " قبل ذلك بحوالى ثمانية أعوام . . متضمناً
كثيراً من آرائه وأفكاره فى تجديد البلاغة .

ولذلك فنحن مراعاة للترتيب الزمنى نتناول بالحدث والبحث أولاً كتاب
" الأسلوب " لمؤلفه الأستاذ اءمء الشايب الأستاذ بكلية الآءاب فى ذلك الءىن .
وهذا الكتاب - فىما وجدنا - هو أول محاولة لوضع منهج ءءىء متكامل
للبلالة العربىة . فهل وفق الأستاذ الشايب فى هذه المهمة الءءىءة الشاقة .
هذا ما سنحاول أن نعرفه فى الصفءات القادمة .

الباب الثالث

مناهج جديدة للبلاغة

- الفصل الأول : منهج الشايب .
 - الفصل الثاني : منهج الخولى .
 - الفصل الثالث : المنهج المدرسي الحديث .
 - الفصل الرابع : رأى الباحث فى تدريس البلاغة .
-

الفصل الأول

منهج الأستاذ الشايب وكتابه " الأسلوب "

أعجب بكتاب " البلاغة الواضحة " كثيرون من عشاق البلاغة والأدب لطرافته وجدته . . ويبدو أن الأستاذ أمين الخولى كان ضمن المعجبين به وخاصة بالبحث الجديد الموجز عن " الأسلوب " الذى أضافه الكتاب الى الفصاحة والبلاغة . . بالاضافة الى ماقرأه الأستاذ الخولى واطلع عليه من الأدب الغربي الحديث وفيه يأخذ " الأسلوب " حظا وافرا من العناية والدرس . وفى سنة ١٩٣١ أصدر الخولى بحثا عن : (البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها) . وكان من رأيه فى هذا البحث أن الفلسفة أساءت الى البلاغة اساءة بالغة فقد كانت سببا فى تضيق دائرة بحثها . . وحرمتها من أبحاث ضرورية . . كما جعلت الغاية منها كلامية (١) . . ثم قال : اننا نحتاج الى أبحاث جديدة يجب ادخالها فى بلاغتنا وذلك مثل البحث فى " الأسلوب " واختلافه وأوجه تفاوته وأنواعه المختلفة والبحث فى فنون القول الأدبى نثره وشعره . . . وماطرا من فنون جديدة خلقتها الحياة بعد الرسائل والمقامات كالبحث فى المقالة التى هى أروج فنون القول النثرى والفن القصصى الذى طغى على الفنون الأدبية الأخرى . (٢) ودعا الى تجديد البحث فى البلاغة على أساس جديد .

(١) أنظر منهاج تجديد ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٥ - ١٧٦ .

ويبدو أنه كان لهذه الدعوة من الأستاذ الخولى أثرها . . فقد طلع علينا الأستاذ الشايب بكتابه (الأسلوب) داعيا فيه الى نهج جديد فى البلاغة . . يقول فى مقدمة كتابه - الطبعة الأولى - : (أما بعد فهذه فصول فى الأسلوب مهدت لها ببيان ما ينبغى أن نسلكه فى درس البلاغة العربية حتى تسائر الدراسات الأدبية الأخرى فى عصرنا الحديث . وقد رأيت نشرها لتكون فاتحة لتناول ما تضمنت من مسائل ، ومقدمة لدراسات أوفى وأكمل ينهض بها الباحثون .) (١)

ويقول فى مقدمة الطبعة الرابعة (٢) : (أريد بهذه المقدمة أن أبين فى اجمال هذا المنهج الجديد لعلم البلاغة العربية ، وهو منهج أجملته فى كتاب (الأسلوب) منذ ظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٣٩ م ، ودرسته فى كليتي الآداب ودار العلوم بجامعة القاهرة .

ويقوم هذا المنهج على ملاحظة أن الدراسة النظرية للبلاغة العربية انتهت عند المتقدمين الى علوم المعانى والبيان والبديع ، يدرسون فى الأول الجملة منفصلة أو متصلة ، ويدرسون فى الأخيرين الصورة بسيطة أو مركبة من تشبيه ومجاز وكناية وحسن تعليل ، مع توابع أخرى فى علم البديع ، وهذه الدراسات على خطرهما لا تستوعب أصول البلاغة كما يجب أن تكون ، لتساير الأدب الانشائى فى أساليبه وفنونه .

لذلك أشرنا فى هذا الكتاب الى أن علم البلاغة العربية يجب أن يوضع وضعاً جديداً يلائم ما انتهت اليه الحركة الأدبية فى ناحيتيهما :

(١) ص ٤ الأسلوب ط ٤ .

(٢) ط ٤ سنة ١٩٥٦ مكتبة النهضة المصرية .

العلمية والانشائية . ورأينا أن يدخل علم البلاغة فى بابين أو كتابين :
الأول : باب الأسلوب أو كتابه - ويتناول دراسة : الحروف ، والكلمات ،
والجمل ، والصور ، والفقرات ، والعبارات ، على أن تدرس درسا مفصلا
دقيقا يعتمد على علوم الصوت ، والنفس ، والموسيقا وما إليها مما يقوم
الأسلوب على أنه صورة فنية أدبية . وفى هذا الباب أو الكتاب تدخل
موضوعات المعانى والبيان والبديع - لا على أنها علوم مستقلة - بل على
أنها فصول فى باب الأسلوب يتناول بحوثها كما يتناول غيرها .

أما الباب أو الكتاب الثانى : فيدرس الفنون الأدبية وقوانينها
شعرا ونثرا ، يدرس أصول المقالة ، والخطابة ، والرسالة ، والجندل ،
والوصف ، والرثاء ، والقصة ، والملحمة ، والتمثيلية ، والتأريخ ، والتأليف
إلى غيرها من هذه الفنون الأدبية التى زخرت بها الآداب العالمية ،
وشرعت قواعدها ، ولم تحظ فى بلاغتنا النظرية إلا بإشارات خاطفة
لا تغنى شيئا ، ولعل ذلك هو مادعا قدماءنا إلى القول بأن البلاغة علم
لم ينضج ولم يحترق كغيره .

هذا المنهج يرد عليك مجملا فى هذا الكتاب حين أعجلنى الزمن
عن تفصيله وعسى أن يهب لى الله من الوقت والجهد ما يسر لى وضع
(أصول البلاغة) فان أمكن ذلك . والا فقد رسمت الخطة وأجملتها
ودعوت إليها من عهد بعيد .

منى ان تكن حقا تكن أحسن المنى والا فقد عشنا بها زمنا رغدا
والله الهادى لأقوم سبيل . (١)

وأمام هذه المقدمة أجدنى أقف متأملا مشدودا تراودنى خواطر وأفكار عدة . . فالأستاذ الشايب يقول انه وضع منهاجا جديدا لعلم البلاغة العربية وأنه أجمله فى هذا الكتاب . . وأنظر فى صفحات الكتاب فأجدها قد تجاوزت مائتي صفحة . . ترى كم مائة أخرى من الصفحات يحتاجها ليفصل لنا هذا المنهج تفصيلا !!

ويقول الأستاذ الشايب : (ورأينا أن يدخل علم البلاغة فى باهين أو كتابين : الأول : باب الأسلوب أو كتابه : ويتناول دراسة : الحروف والكلمات والجمل والصور والفقرات والعبارات على أن تدرس درسا مفصلا دقيقا يعتمد على علوم : الصوت والنفس والموسيقا وما إليها . . .) ، ونسى المؤلف أن يذكر أيضا علوم القرآن واللغة والأدب والنقد فهى أمس بالبلاغة وأكثر تداخلا معها . . وندمج كل ذلك فى مزيج نسميه بعد الخلط والمزج " الأسلوب " .

ومن البديهي أن من العلوم ما يحتاج بعضها الى بعض . . فعلوم الجبر والحساب والهندسة علوم مستقلة ولكنها متعاونة يساند بعضها بعضا . وكذلك الشأن فى علوم الطبيعة والكيمياء والفيزياء . . وفى علمي التاريخ والجغرافيا . . وليس من شك " فى أن البلاغة - كذلك - تحتاج الى بعض العلوم التى تعاون فى تدوقها وتفهمها . . كما أن بعض العلوم - أيضا - فى حاجة اليها . وقد سبق وأشرنا - فى التمهيد لهذا البحث - الى أن البلاغة درجت ونمت فى أحضان علوم القرآن واللغة والنقد والأدب وأنها حين استقلت بشخصيتها لم تقطع مابينها وبين هذه العلوم من رحم . . بل ظل بين هذه العلوم وبين البلاغة ما يمكن أن نسميه بالتبادل الثقافى . . وهو أمر لاغنى عنه لكل علم من هذه العلوم وليس للبلاغة وحدها . وإذا كان

المؤلف يريد أن يضم علوم الصوت والنفس والموسيقا وما إليها الى تلك الباقية من علوم العربية وأن تصبح عضواً في جماعتها فذلك أمر مفهوم وميسور .. بل انه ليسرنا أن تكون تلك العلوم مجتمعة واجهة جميلة فعالة تساعد في ابراز البلاغة في اطار أكثر اشراقاً وأروع حسناً .. أما أن تدمج هذه العلوم في البلاغة وتصبح من أقسامها وفي صلب منهجها فهذا أمر يحتاج الى نظر .

ويقول المؤلف : (أما الباب أو الكتاب الثاني : فيدرس الفنون الأدبية وقوانينها شعراً ونثراً يدرس أصول المقالة والخطابة والرسالة والجدل (أى الحوار) والوصف والثناء والقصة والملحمة والتشبيـه والتأريخ والتأليف الى غيرها من هذه الفنون الأديبة)

وأجدنى أتساءل : أليست هذه الفنون " الأدبية " تابعة لعلم الأدب وقد شملها في العصر الحديث وأصبحت ضمن دروسه وفنونـه ؟ واذن فليست شيئاً جديداً .. وهل من التجديد أن ننقلها من علم الأدب ونجعلها في علم البلاغة ؟ ومعنى ذلك فى رأى أننا نـمـوـد بالبلاغة الى عهد نشأتها حيث كانت مختلطة بمسائل النقد والأدب .

فهل بعد أن استقلت بشخصيتها وبلغت أشدها يجوز لنا أن نردها الى عهد الطفولة أو ما يشبهه ؟ وهل يعتبر ذلك تجديداً ؟ !

كانت هذه بعض خواطرى وأفكارى بعد أن قرأت المقدمة .. ولكن لماذا التسرع .. لعلى على خطأ .. ولعل المؤلف أورد فى منهجه المجلد ما هو جدير بالنظر والتقدير . لذا فلنستمر ولنتوغل بتأمل فى كتابـه " الأسلوب " ، أول كتاب تضمن أول منهج جديد لعلم البلاغة فى العصر الحديث .

مقدمات :

قسم الأستاذ الشايب كتابه الى خمسة أبواب ، وعلى الرغم من أن للكتاب مقدمة عرضناها وعلقنا عليها في الصفحات السابقة فان المؤلف جعل الباب الأول من كتابه بعنوان (مقدمات) . واشتمل هذا الباب على خمسة فصول ، هي :

أ- البلاغة بين العلوم الأدبية .

ب- التعريف بالبلاغة .

ج- علوم البلاغة .

د- البلاغة بين العلم والفن .

هـ- موضوع علم البلاغة .

أ - البلاغة بين العلوم الأدبية :

في الفصل الأول يتحدث المؤلف عن العامية والفصحى ويقول

ان (اللغة العامية هي لغة الحياة العامة ، والتعاون الاجتماعي
اللازم لسير الحياة السريعة ونظامها المطرد الشامل ، وذلك لسهولة
وشيوعها)

وأن (هذه اللغة العامية العربية تختلف باختلاف الأقطار والأقاليم ..)
و (معنى هذا أن العامية توشك أن تكون هي اللغة القومية لكل قطر
من أقطار الشرق العربي ...) و (لذلك نشأت هذه الدراسات
الحدیثة التي تعنى بالعامية ..) و (مع ذلك لا تعد العامية
لغة رسمية ولا يعد أدبها أدبا رسميا يدرس على أنه مقرر يحتذى به
المتعلمون ...) .

ويسوق لذلك الأسباب .. ثم يقول: (وليس معنى هذا خلو العامية
من الألفاظ الصحيحة أو المعاني القيمة ، كلا ، فاللغة العامية هي
الفصحى طرأت عليها أخطاء ، ودخلت عليها تراكمات ، لم تستطع
أن تمحو صوابها كله ، كذلك نجد فيها فنونا أدبية من النثر والنظم -
كالجدل والحكم والأمثال والأغاني والمواويل والأزجال - تجعلها معرضا
لكثير من المعاني والموضوعات الأدبية القيمة ، ولكنها من الأدب
الشعبي على أية حال) . (١)

وكان بودي أن أناقش هذا الكلام لولا أنه بعيد عن موضوع بحثي

فلنكتف بعرضه الموجز ولننتطرق الى ما بعده .

يتحدث المؤلف بعد ذلك عن اللغة الفصحى .. وأنها لغة
الأدب الرسمي .. ويضرب مثالا للأدب بقول المتنبي :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم
وأن ترد الماء الذي شطره دم فتسقى إذا لم يسقى من لم يزاحم
ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رحمه غير راحم
فلا هو مرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليه بآثم

ويستخلص من هذه الأبيات عناصر الأدب وهى : العاطفة - الفكرة - الخيال -
الأسلوب . ويقول : (الأدب ينحل الى هذه العناصر الرئيسية الأربعة ،
وهذا التحليل نفسه يتوافر فى النثر كما توافر فى النظم على اختلاف فى
الدرجة تبعاً لاختلاف طبيعة الفنون فيهما ، ومن هنا نستطيع أن نعرف
الأدب بأنه الكلام الذى يعبر عن العقل والعاطفة) .

هذا وموضوع عناصر الأدب الأربعة وتعريف المؤلف للأدب سبق
وتحدث عنه فى كتابه " أصول النقد الأدبى " .

ويدخل المؤلف بعد ذلك فى حديث طويل يتناول فيه اختلاف الأمزجة
بين الشعراء والكتاب وبين المنشئ والقارىء ويمهد للكلام على نشأة
النقد الأدبى ثم يعرفه بأنه (بيان قيمة النص الأدبى ودرجته الفنية)
وهو كلام سبق وذكره أيضاً فى كتابه " أصول النقد الأدبى " . ثم يضع
قول المتنبي السالف الذكر موضع النقد .. ثم يستطرد فى الحديث عن
النقد وأن الأدب سابق والنقد لاحق ويتطرق الى الفرق بين النقد
والأدب ثم كيف كان النقد الأدبى من أهم العوامل فى إبداع البلاغة ..
وكيف أنهما عاشا مختلطين لم ينفصلا الا بعد جهد عنيف .. ثم يتطرق
الى الفرق بين النقد والبلاغة .. ثم يتحدث عن تاريخ الأدب وأهميته

وأن له وجهين : علم وأدب . ثم يستخلص النتائج الآتية :

(١) الأدب فن خالص ، وهو من الفنون الجميلة وتاريخ

الأدب يجمع بين الناحية الفنية والناحية العلمية .

(٢) النقد الأدبي جزء من تاريخ الأدب أو هو أدوات الأساسية .

(٣) علم البلاغة نافع للأديب والناقد والمؤرخ ولكل كاتب أو متكلم أو

خطيب أو مدرس . فانه ينير السبيل أمام هؤلاء جميعا .

وبعد أن ينتهي المؤلف من استخلاص هذه النتائج يذهب يتحدث عن حاجة البلاغة الى علوم أخرى فيقول : (هناك علوم أدبية أخرى لا بد للأديب من الإلمام بها المما كافيًا ليقى نفسه شر الأخطاء ففى التعبير : اللغة ، والصرف والنحو ، والعروض) ، ويتحدث عن كل علم من هذه العلوم مبينًا أهميتها وأثرها ومبينًا مكانة البلاغة بينها وأن الأديب فى حاجة الى الثقافة العامة والأخذ من كل فن بطرف وهذه الثقافة تتناول الفلسفة والتاريخ والدين والقانون والفنون الجميلة وغيرها وذكر أن ابن الأثير عقد فى صدر كتابه المثل السائر فصلا فى آلات علم البيان وأدواته يحسن الرجوع اليه . (١)

ونقول : ان هذه المقدمة فى (البلاغة بين العلوم الأدبية)

مقدمة طيبة ، توضح مكانة البلاغة بين هذه العلوم التى يجب أن يلم بها دارس البلاغة ، حتى يسلم له أسلوبه ، وتصح عبارته وتراكيبه ، وعلى البلاغة بعد ذلك أن تجعل هذا الأسلوب جميلا أخاذا .

ب - التعريف بالبلاغة :

اعتمد المؤلف تعريف البلاغة المشهور في كتب البلاغة وهو :
مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . . وقال : ان هذا التعريف
لا اعتراض لنا عليه في جملته . وقابل بين هذا التعريف وتعريف
الأستاذ جينونج Genung " البلاغة فن تطبيق الكلام المناسب
للموضوع وللحالة على حاجة القارئ أو السامع " . . وقال : ان
الحدود واحدة في جوهرها وان لوحظ في الأخير هذه الناحية
العلمية في صراحة واضحة (١) . ولم يوضح المؤلف هذه الملاحظة
العلمية الصريحة الواضحة وكأنه يلجأ الى أن تعريف جينونج أفضل . .
بينما بقليل من التأمل نجد أن تعريفه خال من اشتراط الفصاحة في
الكلام . . ولعل هذا راجع الى أن لغته غير لغتنا التي تمتاز
بأنها الفصحى .

ويتساءل المؤلف بعد ذلك : كيف فهم علماء البلاغة
عندنا معنى المطابقة أولاً ؟ وما الوسائل التي اعتمدوا عليها في
دروس البلاغة لتحقيق هذه المطابقة ثانياً ؟ وما هذه العلوم
البلاغية ثالثاً ؟

ويستطرد بعد ذلك كأنه يجيب على ما سبق فيقول : (اذا
وقفنا عند هذه المسائل التي انتهت اليها أبحاثهم رأيناهم
يذكرون أن خطاب الذكي يخالف خطاب الغبي ، وخطاب
الموقن غير خطاب المتردد ، وعلى هذا الأساس غالباً تقوم

المطابقة ، لتغذية " قوة الادراك " ، ووسيلة ذلك التصرف في الجملة وعناصرها ، خبرا وانشا ، فضلا ووصلا ، تعريفا وتشكيـرا ، ذكرنا وحذنا ، ثم الاختلاف بين التشبيه والمجاز والكنايـة ، مما لا يتجاوز كله دراسة الجملة والصورة دراسة قاصرة . ومعنى ذلك أمور ثلاثة :

(١) غاية البلاغة فيما يندو من هذه الدراسة العلمية يغلب عليها الاتجاه الى القوة الفكرية واقناع العقل اقناعا جزئيا قائما على نكاته أو بلادته وعلى شكه أو انكاره .

(٢) ووسيلة ذلك الصورة ، التي تختصر علم البيان وقسما من البديع - والجملة الخبرية والانشائية ، وقد درستنا من بعض النواحي لا غير .

(٣) وعلم المعاني هو الكفيل بدراسة الجملة عندهم ، كما أن البيان يدرس الصورة تشبيها ومجازا وكناية . وأما البديع فقد عدوه شيئا ثانويا لا دخل له في صميم البلاغة لأنه قائم على دراسة طرق التحسين الذي يلحق بالكلام كالسجع والجناس والمقابلة وما الى ذلك) . (١)

ولانجد في هذا الكلام جديدا سوى استعمال المؤلف تعبيرا " قوة الادراك " بدل كلمة " العقل " ، ويقول ان المطابقة تقوم لتغذيتها ووسيلة ذلك التصرف في الجملة وعناصرها . . وهو كلام غامض الى حد ما .

والمؤلف يرى أن دراسة الجملة والصورة دراسة قاصرة ..
ونحن نرى أن علم البيان لم يقصر في دراسة الجملة أو الصورة ..
ولعله أراد أن دراسة الجملة والصورة وحدهما لا يكفي بل لابد
من تجاوزهما الى الفقرة والعبارة والنص بكامله .

ويقول : ان غاية البلاغة يغلب عليها الاتجاه الى القوة
الفكرية واقتناع العقل اقناعاً جزئياً . . . ووسيلة ذلك الصـورة .
بينما الحقيقة أن الصورة خيالية فهي لا تقنع العقل بل تقنع
الماطفة والوجدان .

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن غاية البلاغة ووسيلتها
فيقول : (أما عن غاية البلاغة ، فليس المراد من الكلام وقفاً على
تغذية الفكر وحده ، فهناك قوى نفسية أخرى تعنى البلاغة بها
لتغذيتها وتهذيبها ، من ذلك " قوة الانفعال " و " قوة الإرادة " ...
وأما عن الوسيلة فلم تكن اللغة العربية محصورة في الصورة والجملة
وحدهما ، فهناك الحرف والكلمة والعبارة والأسلوب عامّة ،
وهناك الفنون الأدبية المختلفة شعراً ونثراً كالخطابة والرسالة
والوصف والجدل وغيرها مما أهملته هذه الدراسة أو العلوم
البلاغية) .

ونفهم من هذا القول أن البلاغة عند المؤلف تمتد غايتها
وتتسع حتى تشمل قوة الإدراك والانفعال والإرادة في الإنسان .
وأن وسيلة البلاغة قاصرة لأنها تعتمد على الجملة والصورة فقط .
وأورد هنا رأى الدكتور شوقي ضيف عندما تكلم عن أسباب
وقوف أسلافنا عند الكلمة والجملة والصورة .. فقد أرجع ذلك الى
أسباب منها :

١- أنهم قصدوا بقواعدهم البلاغية تحليل بلاغة العبارة القرآنية وما تحمل من خصائص تعبيرية وصور بيانية واستوفوا تصوير ذلك تصويراً دقيقاً رائعاً .

٢- طبيعة شعرنا القديم فقد كان في جملة وجدانيا غنائيا يجري في أسلوب عام واحد سواء في معانيه أو في صورته وأخيلته أو في صيغته وتعبيره . . . وتعارف الشعراء على أن كل بيت في القصيدة وحدة مستقلة ، وهذه الوحدة هي أساس البلاغة والجمال الفني .

لذلك لم توجد في محيط الشعراء ولا في محيط البلاغيين نظرة شاملة عامة للقصيدة ، بل ظلت نظرتهم تنصب على الجزئيات وأفراد الأبيات والعبارات . . . ولذلك رسخ في نفوس البلاغيين والنقاد أن محور البلاغة والبراعة البيت المفرد المسور بالقافية وكادوا لا يتجاوزونه في قواعدهم النقدية والبلاغية إلا بعض نظرات طائفة أو عبارة عابرة .

ويستطرد الدكتور ضيف مبيّنا ما طرأ على الشعر والنثر في العصر الحديث فيقول : (أما نحن فنختلف عنهم من هذه الوجهة اختلافًا واضحًا إذ استحدثنا في مجال الشعر أساليب وفنونًا جديدة من الشعر القصصي والمسرحي ، ومن الشعر الغنائي الوجداني بما صنعناه فيه من شعر رومانسي ذاتي ومن شعر واقعي اجتماعي ، ومن شعر رمزي ، وما ابتكرنا فيه من أنماط تتصل بالشكل على نحو ما هو معروف في الشعر المرسّل والشعر الحر .

أما في مجال النثر فإن تجددينا كان أبعد عمقًا إذ استحدثنا المقالة بجميع صورها السياسية والأدبية والاجتماعية ، واستحدثنا القصة والأقصوصة والمسرحية وحتى الخطابة نفذنا فيها إلى نمط جديد من الخطابة

القضائية . وهذا التطور الواسع لأدبنا فى شكله ومضمونه وأساليبه وفنونه
حرى أن يقابله تطور فى بلاغتنا بحيث تصور فنوننا الشعرية والنثرية وأساليبها
المتنوعة وبحيث تكون صورة صادقة لحياتنا الأدبية الحديثة) . (١)

وقد أوردت هذا الكلام لأفسر به ذاك وأوضح به ما يقصده
الأستاذ الشايب من وسيلة البلاغة .

ويبدو أن المؤلف متأثر الى حد كبير بأراء الأستاذ جينونج فى
المطابقة وربط البلاغة بعلم النفس لذلك نجده يقول : (لنفهم
المطابقة لمقتضى الحال فهما عميقا شاملا يجب أن نقيمه - من حيث الغاية
والوسيلة - على طبيعة النفس الانسانية ومواهبها من ناحية ، وعلى الأدب ؛
أسلوبه وفنونه المختلفة من ناحية أخرى) . ثم يتلو ذلك بقوله :
(علم النفس ينفعنا هنا ، ويتعاون مع النقد الأدبى والبلاغة فى
تفسير مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وفى بيان موضوع الدراسة البلاغية
بيانا مفصلا منظما ، فكيف نوضح ذلك ؟) (٢)

ويستخدم الكاتب من علم النفس القوى المعنوية الثلاثة ويحدد ثلثا
عنها على أنها مجال المطابقة الفسيح وهى : قوة الإدراك - قوة
الانفعال - قوة الإرادة .

قوة الإدراك = هى قوة الفهم والفكر والعقل فى الانسان - ويناسبها
الأسلوب العلمى .

قوة الانفعال = هى قوة العاطفة والتخيل فى الانسان -
ويناسبها الأسلوب الأدبى .

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٧٦-٣٧٨ ط ٢ .

(٢) الأسلوب ص ٢١ .

قوة الارادة = وهى نتاج مجموع الأمرين السابقين - وهى تناسب
الخطابة التى تعتمد على الاقناع والتأثير معاً فى
أسلوبها . (١)

وأنا أرى أن هذه الأمور تدرس فى علم الأدب والنقد . . بل ان
الأدب فى العصر الحديث تناولها وضمها الى أهوايه . . وليس فى
ضمها الى البلاغة من فائدة الا زيادة فى التقسيمات والتفريعات .
والمؤلف بعد أن تحدث بأسهاب عن قوة الإدراك والانفعال
والارادة قال فى النهاية : (وقد رأيت أنها جميعا تندرج تحت
هذا المعنى العام لكلمة الأدب) . (٢)

وانى لأتساءل : ما جدوى كل ذلك لعلم البلاغة ؟ وما الجديد
الذى أضافه فأفاد ؟ .. ان من واجب الأديب والبليغ أن يطلع
على كثير من العلوم الأخرى ومنها علم النفس .. لأن ذلك يفيد
على وجه الاجمال .. ولكن أن يصبح علم النفس قسماً من أقسام
البلاغة .. أو عاملاً من عوامل تربية الذوق البلاغى .. فهذا
يعد بنا عن دائرة تجديد البلاغة الذى نرجو أن يكون فى
صميم موضوعها وموجزا ومختصراً وواضحاً .. ليساعد الدارسين
ويفيدهم .

ثم ما قيمة هذه التعبيرات التى نقلناها عن علم النفس أو
اقتبسناها منه .. وهو بالتالى - علم النفس - مقتبس عن الغرب ..

(١) الأسلوب ص ٢٢ و ٢٣ .

(٢) ص ٢٤ .

أليست :

قوة الادراك هي " التفكير " أى الفهم والعقل .

وقوة الانفعال هي " التصوير " وهو أثر العاطفة والخيال .

وقوة الارادة هي أثر الادراك والانفعال وتتمثل فى

" التعبير " أى الأسلوب والصياغة .

فما الزيادة التى أفدناها واقتبسناها من علم النفس الحديث ..

ان هي الا أسماء استعمرناها .. وعندنا ما يعوضنا عنها ويفضلها ..

أم أن التجديد احلال أسماء مكان أخرى .. بينما الموضوع

والجوهر هو هو لم يتغير !! أم أننا اذا لم نقتبس من الغرب

لا نكون مجددين ؟ !

جـ - فى علوم البلاغة :

يتحدث المؤلف فى هذا الفصل (١) عن البلاغة — من

الوجهة الفنية وأنها فى حاجة الى علوم مساعدة أهمها : النحو

والمنطق .

فالنحو : مهمته فى استقامة تركيب الجملة بصرف النظر

عن مقتضى الحال . ومهمة البلاغة بمعد ذلك مراعاة هذا المقتضى

وكسوة العبارة بالجمال .

وبعد شئ من الشرح لما سبق يقول المؤلف : (وهذا

الذى ذكرناه هنا هو ما ألم به الأستاذ عبد القاهر الجرجاني فى

معرض القول فى نظم الكلام وتأليفه) . ويقول فى الهامش :
(ويلاحظ أن نظم الكلام يقابل الأسلوب ولكننا آثرنا الثانية
لخفتها وشيوعها) . (١) والسؤال : ما الجديد فى ذلك
اذن ؟ !

ويتحدث المؤلف بمد ذلك عن المنطق - وهو العلم
الذى اشتكت منه البلاغة من الشكوى - فيقول : (وأما المنطق
فانه يعلمنا طرق التفكير الصحيح ، ويشرح لنا خواص الفكرة
الصحيحة فى ذاتها ، لا يعنيه بمد ذلك أكانت مفهومة للناس
أم لا ، فعلى البلاغة بمد تسلم هذه الأفكار الصحيحة أن تقوم
بجهد فنى خطير فتبسط الأفكار وتحسن ترتيبها وعرضها وأدائها
بعبارة واضحة جميلة) .

اذن فالبلاغة هى التى تفيد المنطق وليس العكس .
وإذا أقررنا بأن علم النحو مهم ومهم جدا لعلم البلاغة فما أهمية
المنطق ؟ .

ويذهب المؤلف يستشهد بكلام بشر بن المعتز " ومن
أراد معنى كريما فليتمس له لفظا كريما الخ) . وقد تساءلت
ما مناسبة هذا الاستشهاد ؟ وقلت لعله أراد أن مهمة البلاغة
أن تلتبس للمنطق ألفاظا كريمة . . ويقول بمد ذلك : (وخلاصة
هذا الفصل أن هنا مسألتين يجب أن تتوافرا فى الكلام البليغ
هما : الصحة والمناسبة . فالأولى من وهى المنطق والنحو ،

والثانية هي الميزة التي يختص بها الفن البلاغي الجميل .

وفي النهاية يقول : (.. ان كلا من النحو والمنطق علم

مستقل لا يدخل في صميم البلاغة ولكنه يمهدها ...)

وأستطيع أن أخص هذا الفصل كله في ثلاثة أسطر أو

ثلاث عبارات هي :

النحو : يصح العبارة

المنطق : يصح الفكرة

البلاغة : تعطى الجمال والوضوح والقوة .

ولا اعتراض لنا على ذلك .. ولكن أين الجديد فيه ؟ !

د - البلاغة بين العلم والفن :

استغرق الحديث في هذا الفصل ست صفحات . (١)

ويتلخص في أن :

أصول البلاغة وقواعدها هي : علم البلاغة ، تطبيقها عمليا

بانشاء الكلام البليغ هو فن البلاغة . ويمدّ شرح لهذا الكلام

يقول : (وانما نذكر في هذا الفصل صلة البلاغة بكل من العلم

والفن مع الاشارة الى فوائدها في كل ناحية من هذه النواحي

متوخين الايجاز مادام كافيا) . ويذهب بعد قليل فيتساءل : ألا

يستطيع الانسان أن يكون بليفا دون أن يدرس قواعد البلاغة ؟ .
ويستطرد مجيبا بتفصيل عن هذا السؤال مبينا فائدة قواعد البلاغة
للموهبين وغير الموهوبين . . . وأن مسائل البلاغة شديدة الصلة
بأصول النقد الأدبي من حيث الارشاد والافادة حتى تسمى أحيانا
البلاغة النقدية .

ثم يعقد صلة بين الفن العملى النافع وبين البلاغة — من
ناحيتين : من حيث طبيعتهما ومن حيث غايتهما ، ثم يخلص الى أن
البلاغة أشد ما تكون صلة بالفن الجميل لأنها فى الحقيقة أحد هذه
الفنون كالرسم والتصوير الخ .

ثم يتحدث عن : القدرة على التعبير وكيف أنها هبة طبيعية
ولكنها متفاوتة الدرجات بين الناس وفى الأحوال المختلفة . ويرى
أن طالب البلاغة كغيره من طلاب الفنون الأخرى لا يكتفى بالموهبة
بل يحاول دائما صقلها ليصل الى مستوى النبوغ والابتكار .

ويرى المؤلف أن الأسلوب البلاغى معرض لأخطاء يقع فيها
الطالب منها : التهاون - الثقة العمياء - الشف بالمحسنات -
تكلف الاغراب والمبالغة . ثم يتحدث عن فكرة شائعة بين الفنيين
كثيرا ما يتشبث بها طلاب البلاغة وهى أن قواعد الفن وقوانينه تطفى
على حرية الطالب وتحد من كفايته . . ويملّق الكاتب على ذلك مدافعا
هذا الوهم الذى شاع بين الطلاب . وأخيرا يقول : ان البلاغة
تسيطر على ميزات الفنون الجميلة الأخرى وتمتاز بهذا الافصاح
الواضح .

ويختتم الفصل بقوله : هذا وقد درسنا هذا الموضوع دراسة مفصلة في كتابنا (أصول النقد الأدبي) فيحسن الرجوع إليه .

هـ - موضوع علم البلاغة :

يقدم الكاتب لهذا الفصل (١) بقوله : (رأينا أن البلاغة العربية انتهت في أبحاثها إلى علمين أساسيين ، المعانى والبيان ، وجعلت البديع ملحقا بهما ، كما لاحظنا أن مباحث هذه العلوم لا تخرج في جملتها عن دراسة الجملة والصورة لتفذية قوة الإدراك النفسية . وسنرى هنا كما بينا من قبل ، أن موضوع البلاغة أعم من ذلك وأشمل ، وأنه لا حاجة بنا مطلقا إلى هذه الأسماء العلمية - كالمعاني والبيان والبديع - التي تطلق على نقط جزئية لا تستوجب هذه العناوانات .)

ومن هذه المقدمة ندرك أن هذا الفصل من الأهمية بمكان . فسنرى فيه أن موضوع البلاغة أعم وأشمل من تلك الجزئيات : المعاني والبيان والبديع .. وان كنا لا نقره ولا نتفق معه على أنها جزئيات أو عناوين .

ويتناول الكاتب بعد ذلك موضوع البلاغة فيقول : (يعرف موضوع البلاغة بالرجوع إلى أهم خواصها وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال) ويشير في الهامش إلى أن هذا الكلام من كتاب الاستاذ

جينيوتج .

ويستطرد قائلا ان أبحاث علم البلاغة تدور حول هذه المسألة
وبيان ما يناسب وما لا يناسب ، لأن ما يحسن في خطاب جماعة أو
في حال ما ، قد لا يحسن مع جماعة أو في حال أخرى .. فالمسألة
هي بيان الأنسب (لذلك يعترضنا دائما هذان السؤالان :
ماذا نقول ؟ وكيف نقول ؟

والاجابة عن السؤال الاول تتناول القواعد الخاصة بمادة
الكلام البليغ من حيث موضوعاته ، وأفكاره ، وعواطفه ، وأخيلته .
كما أن الاجابة عن السؤال الثاني تقوم على طريقة التعبير عن هذه
المادة وأدائها

ثم بعد حديث قصير عن التعبير واختلاف الأسلوب وارتباط ذلك
بالفكرة والموضوع .. يحصر موضوع البلاغة في بابين أو كتابين -
كما سبق وذكر في المقدمة : الأسلوب ، والفنون الأدبية .
(١) الأسلوب : وفي هذا القسم من علم البلاغة ندوس القول بعد
التي اذا اتبعت كان التعبير بليفا أى واضحا مؤثرا ، فندرس :
الكلمة والصورة والجملة والفقرة والعبارة والاسلوب من حيث أنواعه
وعناصره وصفاته ومقوماته وموسيقاه ، وقد يجد الطالب في هذا
الدرس شيئا من التفاصيل المحتاجة الى أناة وصبر لكنها خطيرة
النتائج في فن البيان .

وفي هذا القسم نضع البلاغة العربية ، فعلم المعاني يدخل
كله في بحث الجملة ، وعلم البيان وأغلب البديع يدخل في باب
الصورة ، ويتبقى المباحث الأخرى مهمة . . . نعم انك واجد

بلاشك في كتب الأقدمين كالصناعتين ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة والمثل السائر مباحث قيّمة تتصل بالمعبرة من الناحية الفنية العامة ولكنها غير مستوفاة .

(٢) الفنون الأدبية : وقد تسمى قسم الابتكار . وهنا ندرس مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وتنسيقها وما يلائم كل فن من الفنون الأدبية ، وقواعد هذه الفنون ، كالقصة والمقالة والوصف والرسالة والمناظرة والتاريخ . وليلاحظ أن الدراسة هنا شكلية كذلك ، فهي لا تخلق المادة للطالب ولا تعدله الأفكار والآراء ، فذلك من عمل الطالب وقراءته الخاصة وتجاربه الحيوية ، وعلى البلاغة أن تشير فقط الى ما يتبع في تأليف المعاني وتنظيم الفنون . وهنا أشير الى مسألة هي نتيجة لما أسلفنا ، تلك أن علم البلاغة يميل في جملة الى الناحية الشكلية أو الأسلوبية ، فهو لن يمرض لقيمة الفكرة بل لملائمتها ، ولا يخلقها لكن ينسقها .. . ويقول الكاتب : كما لاحظنا قصور علوم البلاغة عندنا في قسم الأساليب ، كذلك نجد لها قاصرة في قسم الفنون الأدبية .

وبالموازنة بين أبحاث البلاغة كما دونتها الكتب العربية الأخيرة ، وبين موضوعها كما يجب أن يكون نستطيع أن نقرر النتائج الآتية :

(١) ان نصف البلاغة النظرية مفقودة في اللغة العربية ، أكثره في قسم الفنون الأدبية ، وباقيه في باب الأسلوب . على أن ما ترجم من خطابة أرسطو وشمره انما نقل على أنه فلسفة لا أدب ، وكانت الترجمة قاصرة فلم تفد كثيرا .

(٢) ان شطرا من الاسلوب قد درس تحت عنوان المعانى والبيان والبديع ، وهو شطر على خطورته يميزه التسييق ، ولا حاجة بنا الآن الى هذه الأسماء التى تسمى علوما خاصا لأنها فصول بلاغية يسيرة .

(٣) ان البلاغة العربية فى حاجة الى وضع علمى جديد يشمل هذه الأبواب والفنون التى أشرنا اليها ، ويصل بينها وبين الطبيعة الانسانية وملابساتها الزمانية والمكانية ، حتى يخدم الأدب ، وذلك كله غير البحث التاريخى الذى يفرد له درس خاص .

(٤) ان الأدباء هم أولى الناس بدرس البلاغة حتى يخلصوها من أساليب الفلاسفة ومذاهبهم وألفاظهم فذلك هو الذى أفسد بلاغتنا وحولها أبحاثا لفظية عقيمة أشبه بالرياضة والكيمياء .

وأخيرا يختم هذا الفصل بقوله :

ولست أدري أنى أفعل شيئا من ذلك فى هذه الفصول وحسبى

أمران :

الأول : هذه الإشارة الى ما يجب أن ننهض به .

الثانى : أنى تناولت الأسلوب من بعض نواحيه العامة ، فاتخذت هذا الدرس فاتحة لمواصلة البحث علنا ننتهى الى وضع علم البلاغة العربية .

وبعد الانتهاء من عرض هذا الفصل عرضا موجزا نستطيع القول بأن هذا الفصل الخاص من أهم الفصول فى الباب الأول حيث يحدد فيه المؤلف خلاصة منهجه الجديد للبلاغة ان يحصر موضوع البلاغة فى قسمين . رئيسيين هما :

(١) الأسلوب .

(٢) الفنون الأدبية .

وفى القسم الاول = الأسلوب : يرى المؤلف ان ندرس :

أ- الكلمة والصورة والجملة والفقرة والعبارة .

ب- الاسلوب : أنواعه - عناصره - صفاته - مقوماته - موسيقاه .

ج- المعانى والبيان والبديع .. على ان يدخل علم المعانى كله

فى بحث الجملة ، وعلم البيان واغلب البديع فى باب الصورة .

أما القسم الثانى = الفنون الادبية : ويمكن ان نسميه قسم الابتكار ،

فندرس فيه :

أ) مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وتنسيقها .

ب) قواعد الفنون الادبية كالقصة والمقالة والوصف والرسالة

والمناظرة والتاريخ .

وينظره متأمله الى هذا المنهج نجد رأيا جديدا فى تكوين علم

البلاغة من جديدي يستحق النظر والتقدير ، كما نجد هناك أيضا

ما يستحق التعليق .

فالقسم الثانى - فنون أدبية .. وهى تسمية المؤلف نفسه ..

بينما المنهج من أجل البلاغة - فهل يريد أن يدمج فنون

الادب بفنون البلاغة ؟ وهل يعتبر هذا تجديدا ؟ وقد ذكرنا

من قبل أن البلاغة كانت فى أول أمرها مختلطة بالنقد الأدبى

ثم استقلت عنه بعد أن استقلت أبحاثها وتكونت شخصيتها

ومع ذلك ظلت على صلة به وتلتقى معه فى كثير من المسائل

والتطبيقات .. فما حاجتنا الى ادماجهما مرة أخرى ؟ .
وهناك أيضا شىء يستحق السؤال .. ففى (أ) من القسم الثانى
وضع المنهج لدراسة : مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها
..... الخ . بينما (أ) أيضا من القسم الأول نجد فيه : الكلمة
والجملة والفقرة والمبارة والسؤال الآن : ما الفرق بين أ
فى القسم الأول .. وأ فى القسم الثانى ؟ وهل مادة الكلام
شىء آخر غير الحرف والكلمة والجملة والمبارة ؟ هذه أمور كان
جديرا بالمؤلف أن يوضحها .. ولكن يبدو أنه كان متأثرا
بأسلوب وأفكار جينونج فلم يلتفت الى هذه النقاط ولم يوضحها .
وأيضا لم يوضح قوله : (وليلاحظ أن الدراسة هنا شكلية
كذلك ، فهى لا تخلق المادة للطالب ولا تعدله الآراء والافكار ،
وعلى البلاغة أن تشير فقط الى ما يتبع فى تأليف المعانى) .
فهل يريد بقوله .. شكلية .. الدراسة النظرية دون التطبيق ؟
وأن التطبيق يوكل الى الطالب ؟ هذا منهج جديد كان جديرا
بالمؤلف أن يكتبه بأسلوب علمى محدد الألفاظ دقيق المعنى .
ويقول المؤلف فى رقم (١) من استنتاجاته : (ان نصف
البلاغة النظرية مفقود فى اللغة العربية ، أكثره فى قسم الفنون
الادبية وباقيه فى الاسلوب) ويبدو أنه يقصد بكلمة مفقود
متفرقا حتى يستقيم المعنى .

ويقول : (على أن مترجم من خطابة أرسطو وشعره
انما نقل على أنه فلسفة لا أدب) . وأنا أقف أمام هذا الكلام
متعجبا .. فأى مطلع على مترجم من خطابة أرسطو سيجد فيه

أبحاثا بلاغية كثيرة وخاصة في الكتاب الثالث .. فمثلا اذا نظرنا لما يعد من مقدمة البلاغة عندنا نجده تكلم عن الفصاحة وعن الغرابة والغريب في الفصل الثالث وعن المبارات الفخمة في الفصل العاشر. ومن أبحاث المعاني : نجده تكلم عن استعمال المشترك والمترادف والجمع والافراد ف ه (١) ، واستعمال الجمع في مكان المفرد ف ٦ ، وتكلم عن الإيجاز والاطناب وفي الأسلوب ف ٩ و ١٢ . ومن أبحاث البيان : نجده تكلم عن استعمال الاستعارة وشروط الاستعارة الجيدة والاستعارات غير المطابقة ف ٢ ، وفائدة الاستعارة في الكلام ف ١٠ ، وبين التشبيه وكيف ينضبط وذكر علاقاته بالاستعارة كما ذكر الفروق بينهما ف ٤ ، وساق شواهد على التشبيه الحسن من أقوال أدباء وخطباء اغريقين كهوميروس وأفلاطون وبيريكلين وديموستين ف ٣ ، وأشار كذلك الى الكناية ف ٣ . ومن أبحاث الهديع : نجده ذكر التقسيم والجمع في المعاني ف ٦ ، والمبالغة والاغراق ف ١٠ ، كما ذكر الاتزان في الشعر وفي النثر والفرق بينهما ف ٨ ، كما أشار الى السجع والجناس اشارات متفرقة . وله الى جانب ذلك أبحاث متفرقة في الأسلوب - ولعل هذه الأبحاث هي التي تأثر بها المؤلف في كتابه " الأسلوب " - فقد تحدث أرسطو عن الأسلوب وقيمه ووضوحه وصفاته الخاصة ف ١٠ ، والشروط العامة للأسلوب وفتور الأسلوب وسلامته وشروط

(١) ف ه ، أي الفصل الخامس ، وهكذا كل ف تأتي بعد ذلك .

ذلك ف ٣ و ١٢ ، وشرح شراة الأسلوب وبسطه ووسائط ذلك ف ٦ ،
كما بين الأسلوب الكتابي والأسلوب الخطابي والأسلوب الشعري
والأسلوب النثري ف ١٢ ، وتحدث عن اختلاف الأسلوب باختلاف
الموضوعات وغير ذلك . (١)

هذه الأبحاث البلاغية الكثيرة التي اشتمل عليها كتاب الخطابة
تدل على أنه كتاب أدبي في المقام الأول وبلاغى في المقام الثاني ..
ويبدو أن العناية الفائقة بفلسفة أرسطو وقت ترجمة هذا الكتاب
جعلت بعضهم يحسبونه كتابا في الفلسفة .

ونعمود فنقول : ان ماورد في هذا الفصل من رأى جديد فى
وضع علم البلاغة وتكوينه على أساس خطة جديدة رأى يستحق النظر
والبحث . وهو وان كان ورد هنا مجملا فاننا نتطلع الى تفصيله فيماأتى
من فصول الكتاب .

(١) مناهج تجديد ص ١٥٢ و ١٥٤ أمين الخولى / . والخطابة (الترجمة
العربية القديمة لأرسطو) د . عبدالرحمن بدوى سنة ١٩٥٩ م .

التعريف بالأسلوب

يرى الاستاذ الشايب أن البلاغة هي الأسلوب .. وهو هنا في
الباب الثاني من كتابه يعرفنا بالأسلوب كما يراه ويقصده .

وقد قسم الحديث عن الأسلوب الى ثلاثة فصول ، هي :

أ - حد الأسلوب .

ب - تكوين الأسلوب .

ج - عناصر الأسلوب .

أ - حد الأسلوب :

يرى الاستاذ الشايب ان لكلمة " الأسلوب " وجهين :
الاول : ان الناس ربما قصروا كلمة الاسلوب على الادب وحده
دون سواه وانه يدل على المنصر اللفظي الذي يتألف من الكلمات
فالجمل فالمبارات .. والواقع ان هذه الكلمة يرجع الفضل في
نظامها اللغوي الظاهر الى نظام آخر معنوي انتظم وتألف في
نفس الكاتب أو المتكلم فكان بذلك أسلوبا معنويا .. ومعنى
هذا : أن الاسلوب في حقيقته معان مرتبة قبل ان يكون ألفاظا
منسقة ، وهو يتكون في العقل قبل أن ينطق به اللسان أو
يجرى به القلم . فهذا وجه .

وليس هذا الوجه بجديد فقد عرفنا حكما قديمة تتحدث عن
هذا المعنى اذكر منها : (العقل بتفكيره يدبر ، واللسان
بحسن منطقه يعبر) ، (لولا العقل لما أمكن الكلام ..
ولولا اللسان ما عرف ما في الجنان) ، ومن هذا القبيل
قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : " المرء مخبوء تحت
لسانه ، حتى اذا نطق أفصح عن عظمته أو نقصانه " ولعل
هذه الاقوال وأمثالها هي ما دعت بعض العلماء الى القول
بأن شخصية الانسان يدل عليها أسلوبه وكلامه .

ومن هذا القبيل قول الامام عبد القاهر : " لا يكون الكلام
يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ،
ولا يكون لفظه أسبق الى سمعك من معناه الى قلبك .

وقولهم : يدخل في الأذن بلا اذن ، فهذا مما لا يشك الماقل في أنه يرجع الى دلالة المعنى". (١)

والوجه الثاني : أن كلمة أسلوب صارت هذه الايام حقا مشتركا بين مختلف العلوم والفنون .. لذلك يستعملها الادباء والموسيقيون والرسامون وغيرهم .. (لهذا كان اطلاقها على هذا المنصر اللفظي ضرورة اقتضاها التعليم أولا ، ولانه هو مظهر العناصر الاخرى ومعرضها ثانيا) .

ونستخلص من ذلك أن الاسلوب نوعان : خاص وعام . الاول خاص بالادب دون سواه ، والثاني عام يطلق على طريقة كل علم وفن في المنهج والأداء . وليس في هذا جديد .

ويتساءل المؤلف بعد ذلك .. (فما الأسلوب ؟) :
ويجيب : (في لسان العرب يقال للسطر من النخيل أسلوب ، وكل طريق ممتد فهو أسلوب ، والاسلوب الطريق ، والوجه ، والمذهب . يقال أنتم في أسلوب سوء ، ويجمع على أساليب ، والاسلوب الطريق . تأخذ فيه ، والاسلوب الفن يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه .)

ويخلص من ذلك فيقول : هذه المعاني التي نقلناها عن ابن منظور
قسمان : قسم حسي ، وقسم معنوي .. ويذهب يعرّف كل قسم بما لا يخرج
عن الكلام السابق . ثم يقول : (على أن هذه المعاني كلها تنتهي بنا

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٠٦ ط دار المعارف ببيروت . وانظر كذلك ص ٣٠.

عند فكرة اذا أردنا استعمالها في باب الادب كانت ملائمة ، فالاسلوب :
هو فن من الكلام يكون قصصا أو حوارا ، تشبيها أو مجازا أو كناية ،
تقريرا أو حكما وأمثالا ...)

وانى لأتساءل : أهذا تعريف للاسلوب أم ماذا ؟ وقوله :
(هذه المعاني كلها تنتهى بنا عند فكرة اذا أردنا استعمالها فى
باب الادب كانت ملائمة) فماذا يكون اذا أردنا استعمالها فى
باب البلاغة وهو المهم ؟ ولكن المؤلف لا يجيب عن هذا السؤال
ويستمر فى كتابه يتحدث عن الاسلوب الادبى .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى تعريف الاسلوب عند ابن خلدون
فيقول : (واذا تركنا لسان العرب الى مقدمة ابن خلدون رأينا
يتناول الاسلوب فى فصل صناعة الشعر ووجه تعلمه حيث يقول :
" ولندكر هنا سلوك الاسلوب عند أهل هذه الصناعة - صناعة الشعر -
وما يريدون بها فى اطلاقهم ، فاعلم أنها عبارة عن المنسـؤال
الذى ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه ، ولا يرجع الى
الكلام باعتبار افادته أصل المعنى الذى هو وظيفة الاعراب ،
ولا باعتبار افادته كمال المعنى من خواص التركيب الذى هو وظيفة
البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذى هو
وظيفة العروض ، فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية ،
وانما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على
تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ،
ويصيرها فى الخيال كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة

عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في
القالب أو النسيج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب
الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان
العربي فيه ، فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به ، وتوجد فيه
على أنحاء مختلفة ، فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول
كقوله : (يا دارمية بالعليا فالسند) ويكون باستدعاء الصحب للوقوف
والسؤال كقوله : (قفا نسأل الدار التي خف أهلها) أو باستبكاء
الصحب على الطلول كقوله : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) وأمثال
ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه ، وتنظم التراكيب فيه بالجمال
وغير الجمل انشائية وخبرية ، اسمية وفعلية ، متفقة وغير متفقة ، مفصلة
وموصولة على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي ، في مكان كل كلمة
من الأخرى يعرفك فيه (كذا) ما تستفيدة بالارتياض في أشعار العرب
من القالب الكلي المجرد في الذهن من التراكيب الممينة التي ينطبق
ذلك القالب على جميعها . وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في
المنثور فان العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين وجاءوا به مفصلاً
في النوعين ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال
الكلام في كل قطعة وفي المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع
وقد يقيدونه بالأسجاع وقد يرسلونه وكل واحدة من هذه معروفة في
لسان العرب .

ومع احترامي لابن خلدون ومقدمته فان تعريفه هذا للأسلوب قد
استفد غرضه في عصره ، ولم يعد صالحا للعرض في العصر الحديث .

ويذكرنى هذا بتعريف الأسلوب عند "بوفون" حيث عرضه فى
يسر ووضوح . . . فى عام ١٧٥٣م دعا المجمع اللغوى الفرنسى بوفون
حيث ألقى محاضرة قيمة فى المجمع عرض فيها بعض خواطره وأفكاره
عن الأسلوب فعرّفه بأنه : عبارة عن النظام والحركة التى يضمها المرء فى
أفكاره ، فإذا ربطت هذه الأفكار بدقة وضمت صار الأسلوب شيئا قويا
موجزا ، أما إذا تركت تتتابع فى بطل ولا تأتلف الا بفضل رباط الكلمات
مهما كانت أنيقة فان الأسلوب يكون مسهبا رخوا مملا . (١)

وهذا التعريف للأسلوب عند بوفون يذكرنى بتعريف الأسلوب
فى صدر هذا الفصل حيث عرّفه المؤلف بأنه : معان مرتبة قبل أن يكون
الفاظا منسقة وهو يتكون فى العقل قبل أن ينطق به اللسان .
ولو أنه عاد بعد ذلك فاعتبر الناحية الشكلية فى الأسلوب فقال بعد أن
علق على تعريف الأسلوب عند ابن خلدون وبعد أن استخلص منه نتائج
قيمة : (والذى يعيننا هنا أن الأسلوب منذ القدم كان يلحظ فى
معناه ناحية شكلية خاصة هى طريقة الأداء أو طريقة التعبير التى
يسلكها الأديب لتصوير ما فى نفسه أو لنقله الى سواه بهذه العبارات
اللغوية ، ولا يزال هذا هو تعريف الأسلوب الى اليوم ، فهو طريقة
الكتابة أو طريقة الانشاء ، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير
بها عن المعانى قصد الايضاح والتأثير ، أو "الضرب من النظم والطريقة
فيه" . هذا تعريف الأسلوب الأدبى بمعناه العام .)

(١) راجع رأى بوفون فى مجلة الرسالة عدد ٦١٧ ص ٤٤٦ وما بعدها .

ويشير المؤلف في الهامش الى أن هذا التعريف هو ماورد فسى
دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٣٦١ وكتاب جينونج ص ١٦ .
ويذهب المؤلف بعد ذلك يتحدث مرة أخرى حديثا مسهباً عن
الأسلوب وكيف يختلف في صوغ العبارات كما يختلف في اختيار الأفكار
ويضرب لذلك أمثلة ثم يخرج من ذلك بقوله : (ان الأسلوب هو
طريقة التفكير والتصوير والتعبير) ثم يقول : (والحق أن هذا التعريف
الآخر يتناول عناصر الأسلوب كلها ، ويقوم على أساس الصلة بينها وان
كان العنصر اللفظي مظهر الفكرة والصورة لأنه الجانب الحسى لهما
زيادة عما يتوافر له من جمال خاص) .

ثم يقول : (وأعود مرة ثانية الى تعريف الأسلوب فقد غمّ الأمر
على بعض الدارسين بصدور ذلك . .)

وأنا أقول : لا عجب أن يغمّ أمر الأسلوب على الدارسين اذا كان
مجرد تعريفه بهذا الكم وهذه الكيفية .

ولنتابع مقاله بعد ذلك : (أعود لأقول : ان تعريف الأسلوب
ينصب بداهة على هذا العنصر اللفظي فهو الصورة اللفظية التي يعبر
بها عن المعاني أو نظم الكلام وتأليفه لأدباء الأفكار وعرض الخيال ،
أو هو العبارات اللفظية المنسقة لأدباء المعاني . الا أننا - حين نريد
الايضاح والتقسيم - مضطرون الى ملاحظة أمرين :

أولهما : وحدة النص الادبي الذي لا يمكن الفصل بين عناصره
فاللفظ لا يتصور أبداً بدون سائر العناصر الادبية كما أنها لا تبدو بغير
اللفظ .

ثانيهما : أن الفرق بين الأسلوب العلمى والادبي مثلاً لا يمكن

الا بملاحظة ما وراء اللفظ من فكرة أو عاطفة أو خيال ، لذلك كان هناك فرق بين تعريف الأسلوب وتحليله وتقسيمه ، . . هو فرق أساسه وجهة النظر فقط ، وان كان النص الادبي وحدة لا تتجزأ .

وبهذا ينتهى الفصل الأول من الباب الثانى وهو فى حد الأسلوب أى تعريفه . . فأى هذه التعريفات نعتد ؟ وأى تلك الحدود نختار ؟

ونستطيع أن نقول تلخيصا لما قرأناه وعرضناه أن الأسلوب هو : المعانى المرتبة فى الذهن قبل أن تكون ألفاظا منسقة ، أو هو الألفاظ المنسقة وطريقة ترتيبها للمعانى وتعبيرها عنها ، أو هما معا . وهذا الاخير هو ما نختاره ونميل اليه .

ب - تكوين الأسلوب :

يرى الأستاذ الشايب أن تكوين الأسلوب يختلف بين الطالب المبتدىء والأديب . . فالطالب يبدأ بتعلم الحروف وتأليف الكلمات ثم الجمل مفصلة وموصولة حسب مقتضيات المعانى ثم طرائق المجاز ثم أنواع الأساليب منثورة ومنظومة ومعنى هذا أنه يبدأ بالألفاظ وينتهى الى الفنون الأدبية .

أما الكاتب المنتهى فانه يسير فى طرائق عكسية فيبدأ باختيار الفن وينتهى بالألفاظ عكس التلميذ الناشئ .

(وسواءً عينا بحال الطالب أم الكاتب ، فان تكوين الأسلوب أهم المظاهر لبراعة الكاتب ، وأوضح معرض لقوة الادراك ويقظة

الشعور وجمال الذوق ، لذلك كان الكاتب الأمين ذو الطبع الأدبى الصادق ، منصرفا الى تخير الكلمات الفصيحة الدقيقة المعنى ، المتلائمة مع أخواتها ، حتى تطمئن عناصر العبارة فى موضعها دون اكراه ، وحتى يجمع الأسلوب بين وضوح التفكير وجمال التصوير) .

ويذكرنى قول المؤلف هذا بتعريف بوفون السابق للأسلوب بأنه :
(عبارة عن النظام والحركة التى يضعها المرء فى أفكاره ، فإذا ربطت هذه الأفكار بدقة وضمت صار الأسلوب شيئا قويا موجزا ، أما اذا تركت تتتابع فى بسط ولا تأتلف الا بفضل رباط الكلمات مهما كانت أنيقة فان الأسلوب يكون مسهبا رخوا مملا) .

ويرى المؤلف أنه : (يمكن للكاتب أن يلزم نفسه بأمرين اثنين ليوفر لنفسه الفوز بحسن التعبير ..

الأول : الحرص الشديد على الدقة سواء فى أداء الفكرة أو صوغ الخيال...
الثاني : التصرف السديد فى بناء الجمل والعبارات حتى تكون العبارة صورة صادقة لما فى نفسه من المعانى وما فى وجدانه من تصور وموسيقا .)

وأجدنى أتساءل .. ما مكونات الأسلوب التى تضمنها هذا الفصل والذى عنوانه : تكوين الأسلوب ؟ أهى الحروف والكلمات والجمل والفقرات .. أم طرائق المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والمطابقة وحسن التحليل .. أم أنواع الاساليب القصصية أو الجدلية أو التقريرية أو الوصفية منثورة ومنظومة .. أم كل ذلك ماورد ذكره فى هذا الفصل ؟!!

كان من الممكن بل من المهم أن يوضح لنا المؤلف بالتحديد :
مم يتكون الأسلوب . وهو الذى يدعو الى الوضوح والقوة فى الأسلوب .

وان كان من الممكن أن نلمح من خلال كلامه أن الاسلوب يتكون من
(تخير الكلمات الفصيحة الدقيقة المعنى ، المتلائمة مع أخواتها ،
حتى تطمئن عناصر العبارة في موضعها دون اكراه ..) .
وحتى لو كان الامر كذلك .. فما الجديد في تكوين الأسلوب ؟
ثم لو كان الامر كذلك - أى أن الاسلوب يتكون من اختيار الكلمات
الفصيحة الملائمة - فهل هو بالنسبة للطالب المبتدى أو للكاتب
المنتهى ؟ انه يقول : لذلك كان الكاتب الامين ذو الطبع الصادق
منصرفا الى تخير الكلمات ... الخ ، فهو اذن يقصد الكاتب ..
مع أنه ذكر منذ قليل أن الكاتب يسير - في تكوين أسلوبه - في طريق
عكسية فهو يبدأ باختيار الفن وينتهى بالالفاظ عكس الطالب الناشئ !!

جـ - عناصر الأسلوب :

كان الفصل السابق في تكوين الاسلوب ، وهذا الفصل في
عناصر الاسلوب (١) . ومن المعلوم أن الاسلوب يتكون من عناصر
الاسلوب .. أما كان الاجدر أن يكون هذان الفصلان فصلا واحدا
لارتباطهما الشديد ان ما جدوى الاطالة والتفريع .

يتحدث المؤلف في هذا الفصل عن الاسلوب العلمى
والاسلوب الادبى .. وأن الاسلوب العلمى يتكون من عنصرين
أساسيين هما : الافكار والعبارات . وساق لذلك جزءا من مقال

علمى فى كتاب نزهة القارىء لأحمد السكندرى عن " الشمس " حيث يقول : (الشمس كوكب مهيب بذاته ، وهى أعظم الكواكب المرئية لنا منظرا ، وأسطعها ضوءا ، وأغزرها حرارة ، وأجزلها نفعا للأرض التى نسكنها ، والشمس كرة متأججة نارا ، حرارتها أشد من حرارة أى ساعور أرضى ، ويبلغ ثقلها ثلثمائة وزن من ثقل الأرض ، وهى أكبر منها جرما بثلاثمائة ألف وألف ألف مرة ...) .

ثم قال : ان الكاتب كان حريصا على ايثار الحقائق القيمة الدقيقة بعبارة واضحة . ثم أتبع ذلك بقطعة أخرى عن " الشمس " أيضا من أسواق الذهب لأحمد شوقى ، وبين كيف أن الكاتب لجأ الى الخيال يصور به عاطفته وانفعاله فى أسلوب يمتاز بالقوة والجمال : (سل الشمس من رفعها نارا ، ونصبها منارا ، وضربها دينارا ؟ ومن علقها فى الجو ساعة ، يدب عقرباها الى يوم الساعة) .

وقال ان هذا النص يختلف عن سابقه مع اتحاد موضوعهما ، فالاول وقف عند الحقائق التفصيلية الدقيقة كالاعداد والمقاييس ، والثانى تصورها أشياء جميلة لا عجابه بها . وبذلك ينحل الاسلوب الادبى الى عناصر ثلاث : الافكار والصور والعبارات . . . وعنصر العاطفة هام فى الاسلوب الادبى يحس دون أن يشرح أو يعرض عرضا مباشرا . وأعود فأقول : ما الجديد فى كل ذلك ؟ ثم اننا مازلنا نتحدث فى مجال الادب وأساليبه المختلفة بعيدا عن صلب البلاغة . ثم - وهو الأهم - نحن لانوافق المؤلف على أن الاسلوبين العلمى والادبى هما عناصر الاسلوب .. بل هما " أنواع الاسلوب " وذلك أمر معروف فى كتب النقد والادب .

ولعل هذا هو ما حدا بالمؤلف أن يقول بعد ذلك :
(وأما اذا وقفنا عند الجانب اللفظى فقط فيمكن أن نعتبر العناصر هي :
الكلمة والجملة والصورة والفقرة والعبارة ...) . أى أننا نرجع الى الفصل
السابق .. ألم أكن على حق حين قلت : ان هذا الفصل والذي قبله
كان يجب أن يكونا فصلا واحدا .. ؟!

الأسلوب والموضوع

يذكر المؤلف فى هذا الباب (١) وما يليه أسباب اختلاف الاساليب ،
ومظاهر هذا الاختلاف ، ويقول : (ونعنى بالاساليب هنا هذه
العبارات اللفظية التى هى المظهر لطريقتى التفكير والتصوير كما سبق ،
وانما يرجع اختلاف الاساليب الى سببين رئيسيين :-
الاول : الموضوع ، والثانى : الاديب) ...
ثم يقول : (فالموضوع هو السبب الاول الذى يقوم عليه اختلاف
الاساليب ، ويراد بالموضوع الفن الذى يختاره الكاتب ليعبر به عما فى
نفسه ، علما أو أدبا ، نظما أو نثرا ، مقالة أو قصة أو رسالة أو
خطابة .. فلكل فن منها أسلوبه الخاص الذى يلائم طبيعته .) ...
ثم يقول : (ونفرد هذا الباب للكلام فى السبب الاول وهو

الموضوع ؛ فنلاحظ أن ؛ الأسلوب من حيث الموضوع : علمي و أدبي ،
والادبي : شعروثر ، والشعر ؛ حماسة ونسيب ومدح وراثا* الخ
والنثر : مقالة ، قصة ، خطابة ، رسالة الخ .

ونذكر في الفصول التالية خواص كل أسلوب ، وما يميزه من سواء ،
بنا* على اختلاف هذه الفنون) .

ويذهب الكاتب بعد ذلك فيتناول في خمس وستين صفحة من ص ٦ هـ
الى ص ١٢١ الحديث عن الأسلوب وموضوعاته . وجعل ذلك في أربعة
فصول .

في الفصل الاول : تحدث عن الأسلوب العلمي والأسلوب الادبي
والفرق بينهما مع شواهد وأمثلة لكل منهما . وهذا الحديث عن
الاسلوبين العلمي والادبي حديث معاد مكرر .. غير أنه هنا وفي هذا
الفصل جنح الى الاطناب والاستطراد .. وعلى الرغم من ذلك لم يأت
يجديد فيهما .

الفصل الثاني : تحدث فيه عن أسلوب الشعر . ففرق بين الشعر
والنثر ، وتناول خصائص الشعر فتحدث عن : الوزن ، القافية ،
الكلمات ، الصور ، التراكيب والعبارات .

الفصل الثالث : في اختلاف أساليب الشعر . وذكر أن أساس
الاختلاف هو اختلاف الانفعالات وطبيعتها ، وأورد كلاما لعلماء
النفس في تفسير الانفعالات وصلتها بالفرائز ... وأن درجة
الانفعال تختلف قوة وضعفا .. وأن الأسلوب نفسه يختلف
باختلاف معناه الوجداني فالعبارة التي تصور الغضب أو السخط

أقوى من تلك التي تمبر عن الحزن أو الخوف أو الوله أو الخذلان .
ومعنى هذا أن أسلوب الحماسة أو الوعيد أقوى من أسلوب النسيب
أو الاعتذار أو الرثاء . ويستمر المؤلف فى حديثه على هذا المنوال ..
ثم يتحدث عن بعض أغراض الشعر مبينا فوارق الاسلوب بينها .. فيتكلم
عن الحماسة ، والنسيب ، والرثاء ، والمدح ، والهجاء ، والوصف .
الفصل الرابع : فى اختلاف أساليب النثر . وقد تحدث فى هذا
الفصل عن : النثر العلمى ومقوماته ، ثم عن أساليب : المقالة ، والتاريخ ،
والسيرة ، والمناظرة والجدل ، والتأليف . ثم يتحدث عن النثر الادبى
وأساليبه فى : الوصف ، الرواية ، والمقامة ، والرسالة ، والخطابة .
وقد أجمعنا الحديث عن هذا الباب - مع طوله - لأن الحديث
فيه جرى فى أمور معروفة مشهورة فى كتب الادب . فالشعر وأنواعه ،
والنثر وأنواعه ، وأسلوب كل نوع وما يلائمه ، أمور قتلها القدماء بحثا
وتفصيلا ، وان كنا لاننكر أن المؤلف جدد فى العرض والسررد
واعتمد أحيانا على التحليل النفسى والتدليل المنطقى (١) .
وما يلاحظ أنه جعل المقالة فى جانب النثر العلمى وقصرها عليه
مع أن المقالة فى اللغة العربية نشأت أصلا فى أحضان النثر الادبى
ثم تطاولت الى النثر العلمى .
ونعود فنقول : هل كل هذا الحشد لفنون الادب وأساليبه هو
المنهاج الجديد للبلاغة ؟!

(١) أنظر على سبيل المثال (المقالة) ص ٩٤ الأسلوب .

الأسلوب والأدب

يرى الاستاذ الشايب أن الأسلوب كما يختلف باختلاف الموضوع ، يختلف أيضا باختلاف الأدب . وقد أدار حديثه فى هذا الباب الرابع (١) من كتابه على أربعة فصول ، هى :

- أ) تمهيد .
- ب) الأسلوب والشخصية .
- ج) دلالة الأسلوب على الشخصية .
- د) أثر الشخصية فى اختلاف الأساليب .

أ - تمهيد :

فى هذا التمهيد يؤكد الاستاذ الشايب ماقدره سابقا من أن الاسلوب يختلف باختلاف الموضوع ، ثم يبين كيف تختلف الاساليب أيضا تبعاً لاختلاف المنشئين .. فالموضوع يكون واحدا ولكن تختلف الاشخاص فيختلف الاسلوب تبعاً لذلك .. ان نرى لكل منهم طابعا خاصا فى تفكيره وتعبيره وتصويره .. وقد يصح لنا بعد ذلك أن نقول مع القائلين : " الاسلوب هو الاديب " .

ثم يذهب المؤلف يشرح ويفصل هذا الكلام ويبين كيف أن الانسان يعرض له من الحالات والدواعى ما يجعله ينشئ * مقالة أو قصيدة أو بحثا علميا أو خطبة .. (وهكذا تتشكل النفس أشكالا شتى ، فتصدر عنها فنون متباينة ، لكل أسلوبه الخاص وغايته الممتازة ، فالشخص واحد والفن مختلف . (١)

هذا بالنسبة للموضوع .. (فاذا أردنا بيان ذلك بالنسبة للاديب عكسنا الوضع فالفن واحد ، ولكن الاشخاص يتعدون . وبذلك نجد لهؤلاء الادباء آثارهم المتباينة فى تكييف الاسلوب تبعاً لما يمتاز به كل اديب (١) . . .)

ويأخذ المؤلف فى توضيح وشرح هذا الكلام وكيف أن الاديب فى حدود هذا الفن ، ومع التزام خواصه الادبية العامة .. يطبع الاسلوب

طابعا آخر ممتازا ، وخاصة به هو ، بحيث لا يتوافر لصاحبه في نفس الفن أو الموضوع ، (وذلك يتحقق للأسلوب ميزتان ، ميزة عامة من حيث هو خطابة أو شعر أو كتابة ، وميزة خاصة من حيث هو أثر لأديب ممتاز (١)) ...

(على أن هذه الميزات - أو الشخصية الأدبية - لا تكون فردية فقط ، بل تكون كذلك اجتماعية .. فنجد العصر الواحد من العصور الأدبية له طابع عامة شائعة بين أدبائه ، منها تتكون ميزاته الأدبية ، أو شخصيته الأسلوبية التي يخالف بها سائر العصور . ونجد الشعب الواحد له خواصه الأدبية التي تفرقه من آخر يوافقه في لغته ، وجنس أدبه . (١)) .

ويذهب المؤلف يدل على صحة هذه النظرية فيقارن بين أدب العصر الجاهلي وأدب العصر العباسي وأدب العصر الحديث .
ثم يقول في النهاية : (نعم ، نجدنا الآن أمام دعوة لتحقيق الوحدة العربية الثقافية أو الأدبية ، وعندى أن هذه الوحدة ستتم بسرعة بتأثير المطبعة والاذاعة ، وتقارب مناهج التعليم ، وكثرة البحوث العلمية ، ولكن ذلك لن يعمو أبدا مظاهر الأدب الإقليمية إلا إذا اتحدت مواهب هذه الشعوب العربية وبيئاتهم (٢)) .

(١) ص ١٢٣ .

(٢) ص ١٢٥ .

ب - الاسلوب والشخصية :

الأسلوب هو الشخصية ، والشخصية هي الاسلوب . ذلك رأى الاستاذ الشايب ، ورأى كثيرين غيره من القدماء والمحدثين . ويدخل المؤلف الى هذا الموضوع بسوءال يطرحه ويجيب عنه ، فيقول : (كيف يختلف الاسلوب فى الموضوع الادبى الواحد ؟ ذلك راجع الى اختلاف الاشخاص الذين يتناولون الموضوع ، أو اختلاف الشخصيات . ما الشخصية ؟ وما عناصرها ؟ وكيف تختلف باختلاف الافراد ؟ وما مظاهر هذا الاختلاف فى الارب ؟ ذلك ما نحاول بيانه فى هذا الفصل وما يليه .)

ونلاحظ أن هذه الاسئلة قد أجاب عنها تقريبا فيما مضى اذا استثنينا تعريف الشخصية التى يقول عنها : (الشخصية (١) ما يميز الفرد من سواه ، أو هى مجموع الصفات الجسمية والعقلية والخلقية التى يتصف بها الانسان ، أو هى الميزات التى تفرق الشخص من الآخر خيرة كانت أو شريرة (٢))

(والناس يختلفون فى الشخصية بين قوى وضعيف ، نابه وخامل ، ثابت ومنقلب (٣) . . .) ، (والادب معرض لظهور الشخصية واضحة (٣)) ويشرح ذلك ثم يقول : (ونتيجة ذلك أن

(١) فى علم النفس : ج٣ ص ٣٢٠ .

(٢) ص ١٢٦ الاسلوب .

(٣) ص ١٢٢ و ١٢٨ .

الاديب حين يعبر عن شخصيته تعبيراً صادقاً يصف تجاربها ونزاعاتها ،
ومزاجها ، وطريقة اتصالها بالحياة - ينتهى به الامر الى أسلوب أدبى
ممتاز فى طريقة التفكير والتصوير والتعبير ، هو أسلوبه المشتق من نفسه
هو : من عقله ، وعواطفه ، وحياله ، ولغته ، تلك العناصر التى لا تتوافر
لغيره من الادباء . ومن ذلك تكثر الاساليب بعدد الكتاب والمنشئ (١) .
وبالنظر فى هذا الكلام الذى اقتبسه من علم النفس لانجد جديداً وانتسأل
ماصلة هذا بالبلاغة .. أيريد المؤلف أن يقول : ان ذلك داخل فى
مراعاة مقتضى الحال .. وأن الأسلوب يختلف باختلاف الموضوع وباختلاف
الاديب والمنشئ ؟! ان كان ذلك .. فانا نزيد على هذا أن الأسلوب
يختلف أيضاً باختلاف المخاطبين ومراعاة أحوالهم وطبقاتهم .. وليس
فى كل ذلك جديد . وان كان يريد أن الأسلوب هو الشخصية بمعنى
أنه يدل عليها ويرسم ملامحها فقد تحدثنا عن ذلك آنفاً حينما كنا
نتحدث فى حد الأسلوب .. فقد أوردنا هناك حكماً وعبارات للقديس
تدل على ذلك أنكر منها .. قول على بن أبى طالب كرم الله وجهه :
" المرء مخبوء تحت لسانه ، حتى اذا نطق أفصح عن عظمتة أو نقصانه "
والمراد بالنطق هنا أسلوبه فى الكلام وطريقته فيه . ويروى عن عمر بن
الخطاب رضى الله عنه أن رجلاً أعرابياً دخل عليه فى حلة جديدة
قشبية فأعجب به عمر واستقبله وكرمه ثم سأله عن حاجته فاذا بالأعرابى
يكلمه بكلام السوقه فأخذ عمر ودهش وقال : لقد أعجبتنى حين رأيته
ثم زهدت حين كلمتنى .. وهذه الحادثة هى الأخرى - على اختلاف

رواياتها - تدل على أن أسلوب الرجل أهم من مظهره .. وأن أسلوب
الانسان هو مخبره وحقيقة شخصيته .. وأن الانسان اذا تكلم رسم
شخصيته الحقيقية في كلامه وأسلوبه دون أن يقصد أو يتكلف . ولهذا
كان للسان - وهو أداة الأسلوب - عند القدماء شأن وخطر .. ولهذا
ورد عنهم مثل قول زهير بن أبي سلمى :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقولهم : وقع اللسان أشد من وقع السنان . وما ورد في تاريخ الادب
من أن جماعة من العرب دخلوا على عمر بن عبد العزيز فتقدمهم غلام
حديث السن .. فقال له عمر : تأخر يا غلام فان فيهم من هو أولى
منك . فقال الغلام : لو كان بالسّن لكان فينا من هو أولى منك
بجسك هذا يا أمير المؤمنين .. " المرء بأصغريه قلبه ولسانه " .
الى غير ذلك ما ورد عن القدماء .. وينبىء بأن اللسان والبيان
معرض لأراء صاحبه وأفكاره وصورة لعقله وخلقه .. فاذا أردت أن
تعرف شخصية انسان فاستمع جيدا الى حديثه وأسلوبه .

والآن .. اذا كان كل ذلك ورد عن أجدادنا القدماء ..
وكان معروفا لديهم منذ العصر الجاهلي .. فما الجديد الذى أتى به
علم النفس عن .. الأسلوب والشخصية .. ولماذا لجأ المؤلف الى
علم النفس الحديث ليستمد منه هذه الافكار بينما تراث آباءه
وأجداده يتضمن مثل ذلك ويزيد !!

ثم بعد كل ذلك نتساءل : كيف يمكن أن نكون -
الأسلوب والموضوع ، الأسلوب والاديب ، الأسلوب والشخصية -

منهجاً جديداً للبلاغة ؟ أنا ألتج صلة بعيدة هناك بين هذه الأمور وبين البلاغة ولكن الموهبة لم يشر إليها من قريب أو بعيد . ونستطيع القول بأن هذه الأمور داخلية في نطاق : مراعاة مقتضى الحال .

وبعد أن أطنب المؤلف في الحديث عن " الأسلوب والشخصية " .. وكيف أن لكل شخصية أدبية أسلوبها الخاص .. يذهب فيضرب الأمثال ببعض الأدباء واختلاف شخصياتهم وبالتالي أساليبهم .. فيذكر : الجاحظ ، وابن خلدون ، وطه حسين ، وأحمد أمين ، ويقارن بين المعري والشريف الرضي .

ثم يقول : (ومهما يكن من تأثير الوراثة أو التربية في تكوين الشخصية ، فانا نستطيع هنا أن نذكر بعض عناصر الشخصية وما قد يكون لها من أثر في الأسلوب ..) ويشير في الهامش إلى أن هذا الكلام هو أيضاً من علم النفس .

أما هذه العناصر التي ذكرها للشخصية فهي :

(١) الطبع : فالرقيق الطبع ترق ألفاظه ، وتسهل فقره ، وتلين عباراته . والخشن الجاف تجزل ألفاظه ، وتوجز جملة ، وتقوى تعابيره . إذ كانت الطبائع تجذب إليها من التراكيب والألفاظ ما يلائمها رقة وجفاء ، كما نجده عند المتبى والبحترى ، وعند جرير والفرزدق ، والمعقاد والمازني . قال القاضي الجرجاني في ذلك : " وقد كان القوم يختلفون في ذلك ، وتباين فيه أحوالهم ، فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره ، وانما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلقة ،

فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلق ، وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبنائك ، وترى الجافى الجلف منهم كثر الالفاظ ، معقد الكلام ، وهو الخطاب ، حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته . " (١)

وانى لأتساءل .. اذا كان القاضى الجرجانى قد تحدث عن الطبع وأثره في الشخصية ، فما فضل علم النفس الحديث ؟! ولماذا لا نقولها صراحة : أن علم النفس الحديث استمد أكثر بنوده من الادب العربى القديم ؟ !!

(٢) أثر البيئـة : فابن البادية المقيم في الغلاة حيث يرى الجذب الغالب ، والطبيعة القاحلة الجرداء ، والجبال الشم ، والصخور الجامدة ، والوعول الممتعة ، لن يكون كابن الحاضرة المترفة الخصبة ، يلقي العيش رقيقا ، والملبس ناعما ، والمزارع ناضرة ، والاخوان ظرفاء ، ان أن ذلك يطبع الذوق والشعور بطابعه ، فلا يقع اللسان الا على كفائه من العبارات . فما كان عدى بن زيد والمنخل اليشكرى كطرف بن العبد والحارث اليشكرى . ويقول الجرجانى في أعقاب كلامه السابق : " من شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبى صلى الله عليه وسلم : من بدا جفا . ولذلك تجد شعر عدى وهو جاهلى ، أسلس من شعر الفرزدق ورجز ربيعة ، وهما آهلان ، لملازمة عدى الحاضرة ، وايطانه الريف ، وبعده عن جلالة البدو وجفاء الأعراب .

فلما ضرب الاسلام بجرانه ، واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر،
ونزعت البوادي الى القرى ، ونشأ التأديب والتطرف ، اختار الناس من
الكلام ألينه ، وأسهله ، وتجاوزوا الحد في طلب التسهيل حتى تسمحوا
ببعض اللحن ، وحتى خالطتهم الركافة والعجمة ، وأعانهم على ذلك
لين الحضارة وسهولة طباع الاخلاق ، فانتقلت العادة ، وتغير
الرسم ، وانتسخت هذه السنة ، واحتدوا بشعرهم هذا المشال ،
وترققوا ما أمكن ، وكسوا معانيهم ألطف ماسنح من الالفاظ ، فصارت
اذا قيست بذلك الكلام الأولتين فيها اللين ، فيظن ضعفا ، فاذا
أفرد عاد ذلك اللين صفاء ورونقا ، وصار ما تخيلته ضعفا ، رشاقسة
ولطفا . . .

وهكذا نجد أن القاضي الجرجاني كما تحدث في الوساطة عن
الطبع وأثره في الاسلوب - تحدث كذلك عن : أثر البيئية .
ويستشهد المؤلف على أثر البيئة في الافراد واستحالتهم
بما روى من أن شاعرا بدويا قدم حاضرة عامرة فأكرمه صاحبها فمدحه
بهذين البيتين :

أنت كالذلّ لو لا عدمنّاك دلو من كثير العطا ، قليل الذنوب
أنت كالكلب في حفاظك للودّ وكالتيس في قراع الخطوب
فهمّ بعض أعوان الأمير بقتله ، فقال الأمير : خلّ عنه ، فذلك ما وصل
اليه علمه ومشهوده ، ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمنا ، وقد لا نعدم
منه شاعرا مجيدا . فما أقام بضع سنين في سعة عيش وبسطة حال حتى قال
الشعر الرقيق ونسبت اليه الأبيات :

يامن حوى ورد الرياض يخرده وحكى قضيب الخيزران بقده
دع عنك ذا السيف الذى جردته عيناك أمضى من مضارب هده
كل السيوف قواطع ان جردت وحسام لحظك قاطع فى غمده
ان رمت تقتلنى فأنت مخير من ذا يعارض سيدا فى عبده

وقد ورد أن هذه القصة للشاعر على بن الجهم فى مدح المتوكل ..
وأن المتوكل بعد سماعه البيتين غضب على الشاعر وكاد يأمر بقتله لولا أن
اقترح وزيره أن يحبسه عامين فى الرصافة ليتغير ذوقه البدوى الى حضرى
ففعل .. وبعد سنتين جىء به ليمدح المتوكل فألقى بين يديه قصيدة
رائعة قال فى أولها :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلىء الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
سلمن وأسلمن القلوب كأنما نشك بأطراف المشقة السمر
أعدن لى الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمرا على جمر
خليلى ما أحلى الهوى وأمره لو أن الهوى مما ينهنه بالزجر
الى أن قال فى آخر القصيدة :

ومن قال ان البحر والقطر أشبهها نداه فقد أثنى على القطر البحر (١)

ومهما يشك فى صحة هذه القصة التى تعددت رواياتها ، فليس من
شك أن هناك جماعة من الأدباء والشعراء تغيرت آثارهم لما تغيرت عليهم
آثار البيئة .

(٣) الثقافة والتربية : فالمهذب المثقف يكون أعمق تفكيراً ، وأحسن ترتيباً للمعاني ، وأحرص على جمال التصوير ، وصفاً التعبير ، وبذلك تغزير معانيه ، وتهذب عباراته ، ويتوافر له الملاءمة بين اللفاظ والمعاني . والجاهل الذي لم تصقله التربية ، أو لم يزود بثقافة كافية ، يقف عند حدود الطبع ، ويتوجه في الغالب الى جمال اللفظ واشراق الديباجة ، لعلها تعوض عليه ما فاته من ابتكار المعاني والغوص وراء الافكار . ولذلك وجد في الادب العربي طبقات من كتاب العصر العباسي بلغوا بالترسل مكانة مهذبة ، وتأثر شعرهم بذلك التهذيب والصقل ، كما يقول ابن رشيق : " والكتاب أرق الناس في الشعر طبعاً ، وأملحهم تصنيعاً ، وأحلاهم ألفاظاً ، وألطفهم معاني ، وأقدرهم على صرف ، وأبعدهم من تكلف (١) " .

والعجيب أن المؤلف يستشهد بكلام ابن رشيق في العمدة على أثر الثقافة والتربية ، كما استشهد من قبل بكلام القاضي الجرجاني في الوساطة على أثر كل من الطبع والبيئة .. اذن فالمؤلف يعلم جيداً أن القدماء سبقوا الى هذه الأمور وعرفوها جيداً .. ومع ذلك لم يفكروا أو يقترحوا جعلها من علوم البلاغة .

(٤) الابتكار : فمن الادباء من يلتفت الى نفسه ، ويثق ، ويحاول أن يفتح بها أو فيها آفاقاً من التفكير أو الشعور ، أو التخيل ، ليمرضها كما هي في أقوى أحوالها أو أوضح خواصها دون تحرج أو تكلف ، ثم

يطوع أساليب اللغة لطريقة تفكيره وتصويره ، فإذا به شىء جديد وشخصية ممتازة وقد يلقي انكارا وعنتا ، ولكن مادام مذهبه قويا خليقا بالبقاء ، فان الثورة عليه لا تكون الا فترة تجتازها النفوس لقبول الجديد واقتراره ، ثم يصبح سبيلا معبدة مسلوكة ، وقانونا متبعها محبوبا . وقد لقي أسلوب الجاحظ انكارا ولكنه عاد مدرسة المتأدبين . . .

والآن أحب أن أقف وقفة وأجمع شتات ما تقدم من عناصر الشخصية كما ذكرها علم النفس الحديث متغاضيا عن ورود ذكرها في كتب علمائنا الاقدمين . هذه العناصر هي باختصار :

١- الطبع ٢- أثر البيئة ٣- الثقافة والتربية ٤- الابتكار .

وبعد استعراض المؤلف لهذه العناصر والافاضة فيها يقول :

ومما سبق يمكن ذكر الملاحظات الآتية :

أولا : أن أسلوب الكاتب أو الشاعر أو الخطيب نتيجة طبيعية لمواهبه ، وصورة لشخصيته هو ، واذن ، لا يمكن أن يكون صادقا ، قويا ، ممتازا ، الا اذا استمد من نفسه وصاغه بلغته وعباراته ، دون تقليد سواء من الأدباء فالذاتية هي أساس تكوين الاسلوب ، والمقلد يفنى في غيره ويصبح شخصية منكرة

ثانيا : قد يبدو لبعض الناس التردد في أن الاسلوب صورة صادقة لصاحبه حين يرون حسان بن ثابت شجاعا في شعره جبانا في عمله ، والبحترى جميل الذوق في أسلوبه قذرا رث الثياب ، والمتنبى كريما في قوله بخيلا في حياته . وهذا من غير شك تناقض واضح يعرض ما قيل هنا للرد والتجريح . ولكن الشىء الجديد بالنظر أن هذه النصوص الادبية

التي تعد مظهرا قويا لميزات الاديب وسماته قد صدرت عنه في حالة نفسية خاصة هي حال الانفعال والتنبه العاطفي وسلطان الوجدان على العقل ، فيقول مايشاء بوحى الساعة ، حتى اذا ثاب الى عقله عاش بطبيعته العاقلة الاصيله دون الشاعرة الطارئة ، وربما أنكرت حياته الثانية حياته الاولى مما يعد شبيها بانقسام الشخصية (١)

ونحن اذا عولنا على كلام المؤلف هذا وماورد في علم النفس فسنجد أن الادب أو الاسلوب ليس دائما هو الشخصية ، مما يتناقض فعلا مع كلامه السابق بأن : " الاسلوب هو الاديب " وأن " الاسلوب هو الشخصية " .

ولعل المؤلف يريد أن يقول : ان الذين يقولون ان الاسلوب هو الشخصية لا يريدون أن أخلاق الشاعر تظهر في شعره .. وانما يريدون أن مزاج الشاعر يعبر عنه أسلوبه .. فنعرف أنه رقيق العاطفة أو عنيف الانفعال .. وهكذا ..

لكن هذا لا يحل الاشكال ان مزاج الشاعر وانفعالاته ماهي الا جزء من شخصيته .. وهنا أجدني أتمثل قول الله تعالى عن الشعراء :
" ألم ترأنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون "

ثالثا : ان بيان هذه الصلة بين الاديب وأسلوبه وتوضيح جوانبها يقتضينا أن نتناولها من وجهين :

الاول : أن نعرض النصوص الادبية لجماعة من الكتاب أو الخطباء أو الشعراء أو الموفين ، ونحاول تعرف شخصياتهم المتباينة استنباطا من هذه النصوص .

والثاني : أن نفرض أننا نعرف هذه الشخصيات ثم نتبين مظاهرها المختلفة في الأسلوب : ألفاظه وتراكيبه وصورها البيانية . وهذا ما نحاوله في الفصلين التاليين .

أى أن المؤلف يريد أن يبحث في : دلالة الأسلوب على الشخصية ، وأثر الشخصية في الأسلوب . وعلى الرغم من أن المؤلف تحدث عن ذلك سابقا وأفاد فيه .. فإنه يصر على تناوله ثانية بإفاضة أكثر في الفصلين القادمين .

جـ - دلالة الأسلوب على الشخصية :

لا يسعنا هنا أن نستعرض هذا الفصل بحذافيره .. فهو من باب تحصيل حاصل .. ولكننا نجمله ونعرف به ونبدى رأينا فيه . ويبدو أن المؤلف في هذا الفصل أراد أن يضع (دلالة الأسلوب على الشخصية) موضع التطبيق بعد أن سبق ووضعه موضع الدراسة النظرية . لذلك ذهب يوازن بين بعض الأدباء وبعض ملتصا الفروق الفردية لكل أديب .

ففي الشعر : ساق ثلاثة قصائد لأبى تمام والبحترى والمتنبى وكلها في غرض واحد هو العتاب . فأبو تمام يعاتب محمد بن عبد الملك الزيات ، والبحترى يعاتب الفتح بن خاقان ، والمتنبى يعاتب سيف الدولة الحمداني . وموازنة المؤلف بين هؤلاء الثلاثة موازنة أدبية محضة لا تكاد تلمح فيها شيئا من البلاغة .. وكان جديرا بها أن تكون في كتاب نقد أو أدب . ودليلا على صدق قولنا - نستعرض لبعض

هذه الموازنة . يقول المؤلف :

(موضوع القصائد واحد ، هو المصاب ، والاصل فيه تصوير الوفاة والبقيا على ماضى الصداقة ، ثم الاسف والاستنكار لما حدث . لهذا كان موقفا دقيقا يحتاج الى براعة ومع هذا فقد وقف كل من هؤلاء الثلاثة موقفا أدبيا يدل على شخصية واضحة ممتازة .

(١) فأبوتام : كان واقفا فى منتصف الطريق لم يقرب من صاحبه جدا ولم يبعد عنه كذلك وأخذ يمرض عليه الامر مستأذنا ، راضيا بما يقع ، مشيرا الى اثاره على سواه وهم كثير ، معنيا بنفسه ويغنه يصنعه بدقة واتقان ، يوسط عقله بينه وبين صديقه . واذا كان لابد من ذكر ميزات الشخصية كما تشير هذه الابيات ، فأبوتام انسان زكى حذر ، يعتمد بقلبه فيبخل به ، ويؤمن بعقله فيعتمد عليه ، مخلص لنفسه وفنه أكثر من عنايته بالناس ، يرضى بما يكون ، ويقتصد فى اتصاله بالحياة ، قوى الطبع مؤمن بالقضاء . (١)

وأجدنى أتساءل أين الميزات الشخصية التى أشار اليها المؤلف ؟ ان معظمها صفات عامة تنطبق على كثيرين .. وعلى سبيل المثال : قوله : مخلص لنفسه وفنه . هل نفهم من ذلك أن الشاعرين الآخرين .. البحترى والمتبى .. ليسا كذلك ؟! وكذلك قوله : قوى الطبع مؤمن بالقضاء .. فمن المسلم به أن كلا من البحترى والمتبى قوى الطبع ومؤمن بالقضاء كذلك .

(٢) وأما أبوعبادة البحرى (فقد تقدم الى صاحبه يكاد يحتضنه ، ويلقى بنفسه بين يديه ، لولا براءته من الذنوب ، واعتزازه بأن الحق فى جانبه ، قد ملك عليه الاسف والطمع نفسه ، فعجب أن يرنق ورده ، وصمم على البقاء حيث كان ، واثقا من ظهور الحق ومعاودة الصفاء .
البحرى اذن رقيق الطبع ، جميل الذوق ، لين الجانب وفى ، حسن الظن بالايام ، بارع ، شديد الاتصال بالحياة ، قريب المثال ، طبعى الفن ، متفائل ، ليس فى حذر أبى تمام ، ولا سخط المتبى .
(٣) وأبو الطيب شىء آخر فقد نغم من صاحبه ساخطا ، متوعدا ، متعاليا ، يرميه بالغفلة والتحيز ، معتزا بنفسه فخورا بخلقه وفنسه ، مزدريا الرؤساء والشعراء ، ولأهم ظهره غير مبالهم ان لم يحسنوا تقديره ولم يدركوا مكانته ، واذن فهو يودعهم نادمين . وسبب ذلك دالة له على سيف الدولة ، وعرفانه مكانة نفسه ، وهذه السماية التى خضع لها أمير بنى حمدان . فالمتبى جافى الطبع ، طموح ، مغرور ، بعيد الأمل ، قليل الوسائل ، ساخط على الحياة والأحياء ، يؤمن بالقوة ، ويمتز بها ، يثق بشعره الى أبعد حد ، ولا يرى نفسه دون الملوك ، ولا من طراز الناس .

ولعل البحرى أرق الثلاثة وأرضاهم ، والمتبى أجفاهم وأسخطهم ، وأبو تمام أوسطهم وأشد هم حذرا واحتياطا . وقد سئل الشريف الرضى عنهم فقال : " أما أبو تمام فخطيب منبر ، وأما البحرى فواصف جؤذر ، وأما المتبى فقائد عسكر (١) " . (٢)

(١) المثل السائر ص ٣١٥ .

(٢) الاسلوب ص ١٤٠ و ١٤١ .

وهكذا نجد أن هذه الموازنة بين الشعراء الثلاثة موازنة أدبية نقدية وهى قليل من كثير مماورد فى كتب السابقين مثل : الموازنة بين شعر أبى تمام والبحتري للامدى ، والوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجاني ، والعمدة لابن رشيق .

وكما فعل المؤلف فى أسلوب الشعر ووازن بين ثلاثة شعراء مستشفا شخصية كل شاعر من أسلوبه .. فعل ذلك فى الخطابة : فأورد ثلاث خطب لعلى بن أبى طالب ، ومعاوية ، وزيد . وهذه الخطب الثلاثة تدور حول الحكومة الاسلامية واقرارها بعد الثورة التى انتهت بمقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والنزاع بين على ومعاوية ، ونشأة الاحزاب السياسية وعناية معاوية وأعوانه باقرار الحكم فوالهيبست الأموى .

فأما على : فقد كان شجاعا قوى البأس ، ذكى الفؤاد ، واسع العلم ، شديد الايمان ، متحرجا فى الدين ، حديبا على المسلمين ، حزينا على حقه المسلوب ، صريحا فى القول ، غلبت نزعة الدينية على كياسته السياسية حتى غلب على أمره بعكس معاوية .

وأما معاوية : فهو شخصية سياسية حليلة ، عملية مرنة ، تصطنع الأناة ، وتبرر الوسائل فى سبيل الغايات ، لم يتشبث بتحرج على وسرعة غضبه ، اعتمد على قوة عقله أكثر من قلبه ، تلمسه حريرا ولكنك تلبسه شوكا وقتادا .

أما زياد : فهو - كهتلر وموسوليني ومصطفى كمال - هازم الرأى ، صارم العزيمة ، ذكى على ، اذا اقتنع بالرأى فرضه ، حاد الذكاء واللسان ، منظم التفكير حسن التدبير .

ويمكن تلخيص ذلك في أن عليا شجاع ساخط ، ومعاوية سياسى
بارع ، وزبادا حاكم حازم . (١)

وكما فعل المؤلف في الشعر ، وفي الخطابة ، فعل في : - الكتابة ،
والتأليف .

ونعمود فنقول : ان هذه الموازنات مكانها ومجالها النقــــد
والادب فهل يريد المؤلف أن يعيد البلاغة اليهما ويمزجها فيهما ،
كما كان الحال منذ قرون ؟ !!

د - أثر الشخصية في اختلاف الأساليب :

هذا الموضوع مكمل للموضوع السابق ومرتبطة به أشد الارتباط ،
فهو فقيضه ومقابله . ففي الفصل السابق جرى الحديث على (دلالة
الاسلوب على الشخصية) وفي هذا الفصل يجرى الحديث على (أثر
الشخصية في الاسلوب) . أى أن الاسلوب يتأثر بشخصية صاحبه ..
وبالتالى يدل عليها .. وهذه مسألة معروفة في الدراسات الادبية
قدما وحديثا . وكان الأولى أن يتقدم هذا الفصل على سابقه .. لأن
أثر الشخصية في الأسلوب يأتى أولا .. ثم يستدل بالأسلوب على
الشخصية بعد ذلك .

يقول المؤلف : (وأما في هذا الفصل فالمراد بيان آثار هذه
الشخصية في الأسلوب . ومعنى ذلك أننا نفترض معرفتنا شخصيات

(١) الأسلوب ص ١٤٥ و ١٤٦ بتصرف .

جماعة من الأدباء كتابا ، وشعرا ، وخطبا ، ثم نلتبس مظاهر هذه الميزات الفردية فيما ينشئون من نصوص أدبية ، ونقصر الكلام في هذا على نواح ثلاثة : -

الأولى : من حيث الألفاظ - حين يختلف الأدباء في الألفاظ والجمل ، والفقر ، والمبارات .

الثانية : من حيث المعاني - كالمطابقة بين اللفظ والمعنى ، أو ترجيح جانب اللفظ على جانب المعنى - وعكسه .

الثالثة : من حيث الصنعة - حيث يعتمد الأدباء الى الأسلوب الطبيعي أو المصنوع صنعة بديعية . قوامها السجع والجناس والمطابقة ونحو ذلك . (١)

ومعنى هذا - كما يقول المؤلف - أن الأسلوب يتأثر بشخصية صاحبه في هذه الأمور الثلاثة : اللفظ - المعنى - الصنعة .

ويذهب المؤلف يتحدث عن هذه الأمور الثلاثة .. أو النواحي الثلاثة كما يسميها المؤلف .. فيبدأ بالحديث عن .. الناحية الأولى .. وهي : (تتناول الاختلاف في الألفاظ ، والجمل ، والفقر ، والمبارات ، والمراد بالألفاظ ، الكلمات المفردة التي تتألف منها الجمل ، وهي : أسماء ، وأفعال ، وحروف ، ولكنها مع ذلك ذات خواص متباينة ، كأن تكون دقيقة محدودة أو مبهمه مشتركة ، اصطلاحية علمية أو فنية

عامة ، رقيقة أو خشنة ، عامية أو فصحي ، موسيقية رشيقة ، أو عادية جافة ، لونية أو صوتية الى نحو ذلك . (١)
ولاشك أن حشد هذه الالوان للكلمات المفردة جهد طيب ، ولعله عرض جديد لها ، ولكن كنت أود أن يشرح المؤلف غرضه من قوله : لونية أو صوتية ، فمعناها مبهم ، ويحتاج الى توضيح . على أن هذه الالوان المختلفة للكلمات المفردة قد يفيدنا في درس البلاغة عند الحديث عن الاسلوب وعناصره .

وأما عن الجملة فيقول المؤلف : (وتتألف الجملة من الألفاظ لتوحدى فكرة واحدة تامة ، وتكون الجملة اسمية أو فعلية ، خبرية أو انشائية ، طويلة أو قصيرة ، جزلة أو رقيقة ، تامة العناصر أو مختصرة ، مثبتة أو منفية ، أصلية أو فرعية وغير ذلك (٢) .

وهذا العرض للجملة ليس في قوة عرض الكلمات المفردة ، وليس فيه من جديد ، ولعله أراد به أن يعبر الى الفقرة فهي الجديد الذي لم تتناوله البلاغة بالبحث المستفيض كما فعلت مع الكلمة والجملة .

وعن الفقرة يقول المؤلف : (والفقرة عدة جمل متصلة تكون فصلا من المقالة ، وهي تقوم على الصلات بين الجمل ، وتنوعها ، وربطها معا ، ففيها الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة ، وفيها الرابطة اللفظية والمعنوية التي تصلها بما قبلها وما بعدها . وتكون بسيطة سهلة أو معقدة مضطربة ، وهي تختلف بحسب موقعها

(١) الأسلوب ص ١٥٧ و ١٥٨ .

(٢) الأسلوب ص ١٥٨ .

من الموضوع مقدمة أو نتيجة أو غرضاً (١).

هذا فقط ماورد عن " الفقرة " . . . وكنت أتوقع أن يعنى بها المؤلف أشد العناية لأنها الجديد الذى نتحمس لادخالها ضمن الدراسة البلاغية فكان عليه أن يبين صلتها بالبلاغة أو وجود البلاغة فيها أو حتى يشير الى ذلك . ولا أعتبر قوله : ففيها الفصل والوصل والايجاز والاطناب والمساواة من هذه الاشارة لان القدماء قتلوا هذه المسائل بحثاً . . . فالفصل والوصل يكون بين جملتين فأكثر . . . أى مايمكن أن يسمى بالفقرة . . . وكذلك الايجاز والاطناب والمساواة . . . بل ان الايجاز والمساواة قد يتحقق كل منهما فى جملة واحدة .

وأما العبارة فيقول المؤلف : (هى العنصر اللفظى من الأسلوب ، أو هى هذا الأسلوب اللفظى الذى يقابل الاسلوب العقلى والصورى ، والعبارات تقوم على هذه العناصر المذكورة قبلاً ثم تتأثر بعضهم — البحث وبالموضوع وبمزاج الكاتب ووقه وطبيعته كلها . والأدباء يختلفون فى ذلك كله تبعاً لأنواقهم وطبائعهم وثقافتهم وبيئاتهم فترى الموضوع الواحد من الفن الادبى يتوارد عليه أصحابه فاذا كل طراز بعينه فى اختيار الكلمات وصوغ التراكيب والعبارات التى تمثل نفسه وخلقه ودرجة انفعاله) . (٢)

وهذا الكلام مكرراً أكثر من مرة فى مواضع مختلفة من هذا الكتاب .

(١) الاسلوب ص ١٥٨ .

(٢) المرجع السابق .

بالإضافة إلى **أبي الجدي** فيه فهو قديم ورد في كتب السابقين ..
وها هو ذا المؤلف نفسه يستشهد على قوله بكلام لابن الأثير حيث
يقول : " اعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من
البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ،
والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق ، ولطافة
مزاج . ولذلك نرى الألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم
واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد ، وترى الألفاظ البحتري كأنها نساء
حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى " . (١)

وإذا كان الأمر كذلك فما الجديد في " العبارة " الذي نضيفه
إلى البلاغة ونحن نخلع عنها القديم ونلبسها ثوبا عصريا جديدا ؟!

ويذهب المؤلف بعد ذلك يستعرض الفروق - مرة أخرى -
بين الشعراء الثلاثة : أبي تمام والبحتري والمتنبي . ثم يسوق
أبياتا لكل منهم - مفاتيح للآبيات التي ذكرها آنفا - ويعلق على كل
منها بما يوضح شخصية الشاعر من أبياته .. أو .. أثر الشاعر في
الآبيات .

وبعد الشعراء .. انتقل إلى الكتاب .. وقال : انهم
يفترقون في التعبير كذلك .. وتحدث عن الجاحظ ، والبديع ،
وابن خلدون .. الذين تحدث عنهم وعن صفاتهم الشخصية في
الفصل السابق .

(فالجاحظ يتحرى دقة الالفاظ ليحسن الوصف ، ويـردد
الجميل ليستكمل معانيه ويؤكد ها ، ويلجأ الى الازدواج والتقسيم
الموسيقى دون التزام السجع ، ويستخدم الاعتراض داعيا أو محترسا ،
ويطن وراء الافكار والصور ، ويكثر من المقابلة والتقسيم .

ولكن البديع يتخير جزل الالفاظ والتراكيب ، ويكثر من الصور
البيانىة التى هى تكرار صورى للفكرة الواحدة ، يكثر من البديع طباقا
وجناسا ، يقتبس لغة الشعر ليوشى بها نثره ، سجمه قصيـــــر ،
وعبارته جزلة ايجازية اذا قيست بمعبارة الجاحظ السمحة المبسطة .
فالرجلان يمثلان مدرستين مختلفتين فى التفكير والتصوير والتعبير .

وابن خلدون دقيق الكلمات بسيط العبارات تشيع فيها
المصطلحات العلمية والفنية ، رتيب الاسلوب لا ينوعه ، لا يسلم من
الركاكة والجفاء ، لا يترأى فيه الجمال والبراعة ، معنى بالمعنى
أكثر من اللفظ ، نزعتة تقريرية ، فهو من طراز آخر .

واذا كان لابد من اختصار ذلك كله فالجاحظ فى أسلوبه
جميل ، والبديع قوى ، وابن خلدون واضح (١) .

ولسنا فى حاجة الى القول بأنه لا جديد فى هذا الكلام ..
اللهم الا جمال العرض والموازنة . كما نعود ونقول : هذا الكلام
مجاله فى الدراسات النقدية والموازنة الادبية . ولنتساءل على سبيل
المثال : هل كتاب الموازنة للامدى أو الوساطة للقاضى الجرجانى

من كتب البلاغة أم من كتب النقد ؟! مع ملاحظة أن البلاغة أيام
هذين الكتّابين كانت ما تزال مندمجة - ولو إلى حد ما - في النقد
والادب ومع ذلك فلم يقل أحد بأنهما من كتب البلاغة .

وبعد الشعراء .. والكتاب .. راح المؤلف يتحدث عن
الخطباء .. فذكر منهم زيادا والحجاج ووازن بينهما مبينا أثر كل
منهما في أسلوبه .. ثم وازن باقتضاب بين : سعد زغلول ، ومصطفى
النحاس ، ومكرم عبيد .. وبذلك ينتهى حديث المؤلف عن : الناحية
الاولى ... وهى من حيث الالفاظ حين يختلف الادباء في الالفاظ
والجمل والفقر والعبارات .

وقد عرضنا لما يهمننا في بحثنا ، وأوجزنا للباقى أو أشرنا اليه
مما لا ضرورة الى ذكره وتفصيله .

أما الناحية الثانية فهى من حيث المعانى : وهنا يتحدث
المؤلف عن هذه القضية الكبيرة ، أو المعركة العنيفة ، بين أنصار
اللفظ ، وأنصار المعنى . ثم يذكر بعضا من أنصار كل منهما فيقول :
(وكان أبو تمام من أسبق الشعراء وأظهرهم في ذلك - أى الاهتمام
بالمعنى - ثم ابن الرومى ، والمتنبى ، وأبو العلاء في خيرته -
الفلسفية - اللزوميات - وكان من ذلك ، ولا سيما عند شعراء الصنعة ،
أن ضعفت روعة اللفظ وسلاسته ، مبدت عليه الجفوة العلمية أو
الكلفة البديعية . وبجانب هؤلاء بقى آخرون محتفظين بالطبع
السمح والدياجة السهلة الجميلة كالبحتري ، وأبى العتاهية ،

والعباس بن الأحنف ، وظهرت لهم مقطوعات بالفت في السهولة حتى عادت باردة سخيصة (١) .

وأنا أتساءل : أليست - اللزوميات - من قبيل الصنعة اللفظية ؟
وكان من أثر هذه المعركة بين اللفظ والمعنى (أن نشطت حركة النقد ، وانتصر جماعة لكل فريق ، واختلف الباحثون حول هذه المسألة : أين تقع البلاغة ، أفي اللفظ أم في المعنى أم فيهما معا ؟ وأي هذين الفريقين من الشعراء أظفر بعمود الشعر ، وأجدر بالاحترام ؟ وخلاصة ما يحتاج به أنصار اللفظ (٢) أن المعاني معروفة للناس سهلة الإدراك ، يكفي أن تكون صحيحة ، ولكن البراعة البيانية إنما هي في الألفاظ وصوغ العبارات . و أما أنصار المعاني (٣) فيقولون : إن المعنى هو المقصود بالأداء ، وهو مجال الابتكار ، وحسن التصور ، واللفظ تابعه في ذلك فجماله من جماله .

ويدور جهد عبد القاهر الجرجاني على أن البلاغة في الأسلوب تنتهي إلى نظم الكلام وفق حاجة المعنى ، وبذلك تتحقق المطابقة بينهما ، ويكتسب اللفظ حسنه بصدق أدائه .

(١) الأسلوب ص ١٧٢ .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٨٥٦ ، والصناعتين ص ٥٥ .

(٣) راجع دلائل الإعجاز ص ٤٠ ، ٧٠ ، ٣٠٧ ، ٣٢٠ طبعة المنار .

ولكنك عرفت أن هذه المسألة قد فصل فيها الآن ، وأن البلاغة تقوم على حسن التعبير ، كما تركز على قيمة التفكير (١) (٢) .

وعلى الرغم من ذلك فقد وجد من الأدباء : من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته ومتجه عنايته ، ومن يؤثر المعنى على اللفظ فيعنى بعمقه وتركزه وجدته . وذهب المؤلف يضرب أمثلة لذلك وهو كلام مكرر معاد . والمؤلف نفسه يقول : (وكتب النقد والبلاغة ملأى بهذه النماذج) (٣) .

وقضية اللفظ والمعنى قضية كثر تناولها في الكتب القديمة . من ذلك على سبيل المثال زيادة على ماورد في الهامش : المعمدة ج ١ ص ٢٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٧٢ - المثل السائر ص ١٣٧ - الصناعتين ص ١٣٣ ، ١٤١ - نقد الشعر لقدامة ص ٥٥ . هذا عدا كثير من الكتب الحديثة تناولت هذا الموضوع كذلك . وكنا نود أن يدلى المؤلف - وهو بصدد تجديد البلاغة - برأى جديد في قضية اللفظ والمعنى . . ولكنه لم يقدم لنا الا رأيه الذى نشره في مجلة دار العلوم حيث يقول : (ولكنك عرفت أن هذه المسألة قد فصل فيها الآن ، وأن البلاغة تقوم على حسن التعبير ، كما تركز على قيمة التفكير) أى المطابقة بين اللفظ والمعنى والاهتمام

(١) صحيفة دار العلوم - العدد ٢ من السنة الثانية ص ٣٠ للمؤلف ، وفيض الخاطر لأحمد أمين ص ٣١ .

(٢) الاسلوب ص ١٧٣ .

(٣) الاسلوب ص ١٧٦ .

بكليهما معا . . فهل هذا رأى جديد لم يسبق اليه !!

لقد أشار كثير من علمائنا القدامى الى هذا المعنى ورأوا أن اللفظ والمعنى صنوان وتوأمان . يقول ابن رشيق : " اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته " (١) . ويقول ابن الأثير : " اعلم أن العرب كما كانت تمتنى بالالفاظ فتصلحها وتهذبها فان المعانى أقوى عندها وأكرم عليها وأشرف قدرا فى نفوسها . فأول ذلك عنايتها بالالفاظ لانها لما كانت عنوان معانيها وطريقا الى اظهار أغراضها أصلحوها وزينوها وبالفوا فى تحسينها ليكون ذلك أوقع لها فى النفس وأذهب بها فى الدلالة على القصد . . . فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ورققوا حواشيها وصللوا أطرافها فلا تظن أن العناية ان ذاك انما هى بالالفاظ فقط، بل هى خدمة منهم للمعانى . . . " (٢) .

وقد أورد المؤلف بعض هذه الشواهد فى كتابه .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى قضية أخرى أو مسألة تسمى اللفظ والمعنى ألا وهى : الایجاز والاطناب والمساواة . ويقول : (وقد وردت هذه الالفاظ فى كتب البلاغة أوصافا للعبارة وعناصرها من حيث ما تؤدى من معان ، فاذا قصر اللفظ عن المعنى كان ایجـازا ،

(١) المدة ج ٢ ص ٨٢ .

(٢) المثل السائر ص ١٣٧ .

وان طال لفائدة كان اطنابا ، وان تساويا كان مساواة أو تقديرا .
ولرجال البلاغة كلام كثير فى هذه الاقسام ، وفيما يدخل تحتها من
فروع لا حاجة بنا الى تكرارها هنا . ويمكن الرجوع اليها فى المشسل
السائر (١) وسواه . وقد تناولتها كتب البلاغة - غالبا - فى سياق
الجمال والفقر . (٢) .

وبعد ايراد أمثلة وشواهد مختصرة لكل من الایجاز والاطناب
والمساواة يقول عطا على كلامه السابق : (ولكننا نشير هنا الى هذه
الاصاف من ناحيتها العامة التى تبدو فى العبارة اللفظية لمقال أو
خطبة أو رسالة أو وصف أو قصيدة ، وفى مقدار ما يصل بينها وبين
الأغراض والمعانى كلها مجتمعة ، فمن الكتاب من يؤثر الایجاز حتى
يصل الى التوقيعات والاشارات ، ومنهم من يسهب ويطيل كما فى
الخطب والمقالات الصحفية غالبا ، ومنهم من يساوى ، ويغلب ذلك
فى الرسائل والمقالات العلمية . (٣) .

ويمكن أن نفهم من هذا الكلام أن المؤلف يشير الى تطبيق
أوصاف الایجاز والاطناب والمساواة فى النص الادبى كله ، كما طبق من
قبل فى الجمال والفقر . وهو أمر نرحب به وتدعو مع المؤلف اليه .

(١) ص ٩١ وما بعدها .

(٢) الأسلوب ص ١٧٦ .

(٣) الأسلوب ص ١٧٧ .

أما ان كان يريد القول بان الایجاز والاطناب والمساواة أثر من آثار الشخصية في اختلاف الاساليب فانا مع موافقتنا اياه في ذلك لانرى فيه أى جديد .

وأما .. الناحية الثالثة .. من أثر الشخصية في اختلاف الاساليب فهى : (ناحية الصنعة البديعية ، والتكلف المقصود ، طمعا في زخرفة الاساليب ، وتوشيتها بالسجع والجناس والمطابقة والاستعارة ونحوها من عناصر التحسين اللفظى والمعنوى . وقد كانت هذه المحسنات ترد في الشعر القديم قليلة وعفوا دون تكلف ، استجابة لقوة المعنى وصدق تصويره . كقول أبى ذؤيب الهذلى مستعيرا :

واذا المنية أنشبت أظفارها ألغيت كل تيممة لا تنفع

وقول حيان بن ربيعة الطائى فى التجنيس :

لقد علم القبائل أن قوسى لهم حد اذا لبس الحديد

وقول زهير فى المطابقة :

ليث بعثر يسطاد الرجال اذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقا

" فلما أفضى الشعر الى المحدثين ، رأوا مواقع تلك الابيات من الغرابة فى البديع ، فمن محسن ومسى ، ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط (١) " . وقد قيل ان : " أول من فتح البديع من المحدثين بشار بن برد وابن هرمة وهو ساقه العرب ، وآخر من يستشهد بشعره ، ثم أتبعهما مقتديا بهما كلثوم بن عمر العتاتى ، ومنصور النميرى ،

ومسلم بن الوليد ، وأبونواس ، واتبع هو "هـ" حبيب الطائي ، والوليد
البحترى ، وعبدالله بن المعتز فانتهى علم البديع والصنعة اليه ،
وختم به " (١) .

والذى يعنينا هنا - فى الشعر - أن هو "هـ" الشعراء اختلفوا
فى مقدار عنايتهم بالصنعة البديعية فاختلفت أساليبهم فى النظم تبعاً
لذلك . . . (٢)

وكلام المؤلف عن الصنعة البديعية ليس فيه جديد كذلك
فقد تحدث عنه أمثال الأمدى وابن رشيق اللذين استشهد بهما المؤلف .
ويبدو أن كل ما يريده هو إثبات أن الصنعة البديعية أثر من آثار
الشخصية فى اختلاف الأساليب ولكن طول الحديث وكثرة الاستطراد
يبعد بالقارىء عن ادراك ذلك إلا إذا عاد وقلب الصفحات الكثيرة
السابقة ليصل ما انقطع من تسلسل الحديث .

ويذهب المؤلف بعد ذلك فيضرب أمثلة مرة أخرى فى الصنعة
البديعية لكل من أبى تمام والبحتري وابن المعتز وابن الوليد محلاً
أثر الصنعة كل فى شعره . فأبو تمام أشد الشعراء تعلقاً بالبديع
وأكثرهم تكلفاً له وأما البحتري وابن المعتز فقد غلب عليهما
الطبع السمج وسهولة الأسلوب وعدم الكد وراء المعانى العميقة
والألفاظ الغريبة وبين هذين الطرفين تضع مسلم بن الوليد
فقد جمع بين الصنعة المعتدلة وتجويد الشعر والبطء فى صنعته حتى

(١) العمدة ج١ ص ٨٥ .

(٢) الأسلوب ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

سموه زهير المولدين (١)

وكما تحدث المؤلف عن الصنعة في الشعر - تحدث عنها في
النثر . . ف (هذه الصنعة البديعية قد انتهت الى غايتها المقبولة
على يد كتاب القرن الرابع الهجري ، أمثال بديع الزمان والخوارزمي
والصاحب بن عباد وابن العميد ، هؤلاء الذين عرفوا بالسجع والجناس
والطباق واقتباس لغة الشعر أو تضمين معانيه ، وقد استطاعوا احاطتهم
اللغوية وقدرتهم الادبية أن يجعلوا أساليبهم مقبولة ويخففوا آثار
هذه الصناعة ، الا أن كثيرا ممن خلفهم على هذا الفن - وبخاصة بعد
سقوط بغداد وفي عصر المماليك - لم يظفروا بمكانة السابقين في اللغة
والادب ، ثم غلوا في البديع فأضافوا الى ماسبق التورية والاستخدام
والتلميح للحوادث الشهيرة ، ثم التصحيف الذي كان مجال البراعة
عند المتكلفين . وقد نشأ عن ذلك فساد الاساليب وركتها والتضحية
بالمعاني في سبيل الالفاظ .) (٢)

ونحن مع تقديرنا للمؤلف - ان استطاع أن يختصر في أقل من
صفحة تاريخ الصنعة البديعية في النثر - نتساءل مرة أخرى ما الجديد
في ذلك الذي يمكن اعتباره اضافة جديدة الى البلاغة في كتاب يدعو
الى منهج جديد لها .

ولعل الجديد هو قول المؤلف في آخر هذا الفصل الرابع من
الباب الرابع : (ومثل هذه الصنعة بقيت الى أول العصر الحديث

(١) العمدة ج ١ ص ٨٥ .

(٢) الاسلوب ص ١٨٢ .

حين تشبث بها قوم من الكتاب ظانين أنها مظهر البراعة . فلما هبت هذه النهضة ، وحملت الثقافة والسرعة الناس على العناية بالمعاني والموضوعات ، انهزمت هذه الصنعة ولم تستطع مجاراة هذا التيار المعنوي الدافع ، فتحررت الاساليب بالتدرج وألقت عن كواهلها هذه السمخات اللفظية ، وأخذت ترقى مستجيبة للرقى العقلى والذوقى حتى بلغت الآن منزلة رفيعة لعلها لم تظفر بها قبل الآن . (١)

ولكنى أعود فأسأل : أين المنهج الجديد للبلاغة . . فبعد قرأنا حتى الآن واستعرضنا أربعة أبواب من الكتاب . . ولم يبق إلا الباب الخامس وهو فى صفحات الاسلوب . . ولعل هذا الباب الخامس أولى الأبواب بأن يقتصر عليه الكتاب . والله أعلم .

صفات الأسلوب

هذا الموضوع هو الأخير في هذا الكتاب .. وهو أهم ما تضمنه الكتاب - في رأيي - ويتكون من أربعة فصول تتناول صفات الأسلوب التي يرى المؤلف أن تضاف الى منهج البلاغة - ومع أن هذه الصفات مقتبسة من علم النفس .. وتحدث عنها (جينونج) .. فانها صالحة للاندماج وتفيد دارس البلاغة في انشائه للأساليب .

(ويمكن ارجاع هذه الصفات الى ثلاثة قياسا على الغايات التي يقصد اليها المنشئون :

- | | | |
|---------|--------|------------------------------|
| أولا : | الوضوح | لقصد الافهام |
| ثانيا : | القوة | لقصد التأثير |
| ثالثا : | الجمال | لقصد الامتاع (أو السرور) . |

ويذهب المؤلف بعد ذلك يتناول كل صفة بشئ من التفصيل .

أولا : وضوح الأسلوب :

والمصدر الاول للوضوح هو عقل الاديب . . . (لذلك كان الوضوح صفة عقلية قبل كل شىء . وبعد ذلك يأتى التعبير اللغوى الذى يتطلب من المنشئ ثروة لغوية وقدرة على التصرف فى التراكيب والعبارات لتلائم أفكاره وطريقة تفكيره ، فلا يرضى عن كلمة أو جملة تبعث الابهام أو الاشتراك ، ولا يشعر الناس بأن عبارته فى حاجة الى أن تفهم . ولن يجوز فى فن البلاغة هذا القانون الذى ارتجله أبوتام حين قال : ولم لا تفهم مايقال ؟ جوابا لمن قال له : لم لا تقول مايفهم ؟ لان البلاغة قائمة على العناية بالقراء والسامعين ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فاذا بدا الأسلوب بعد ذلك غامضا توجه الطعن الى منشئه ، ورمى اما بعدم فهمه مايقول ، واما بعجزه عن التعبير عما يفهم) (١) .

وتحقيق الوضوح فى الأسلوب يستلزم أمرين : أحدهما متصل بالأفكار نفسها وهو (الدقة) ، والثانى متصل بالقارىء وهو (الجلاء) ، وهأنذا ألخصهما فيما يأتى :

١ - الدقة أو وضوح الفكرة :

يقوم وضوح الفكرة ودقتها على لغة الكاتب ، وكلماته المفردة التى يؤثرها ، لانها أدل من سواها على مايريد . ويذكر المؤلف

بعض القوانين التى تساعد فى تحقيق الدقة وتحديد الأفكار، وهى :

(١) اختيار الكلمات المعينة غير المشتركة بين معان ، والتى تدل على الفكرة الكاملة وقد وقع جرير فيما يسمى الاشتراك حتى ذهب الناس كل مذهب فيما يعنى ، وذلك قوله :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل
فماذا كان يفعل ؟ أيبكى أم يهيم على وجهه ، أم يمنعهم المسير ،
أم يدفع اليهم شيئاً يذكرونه به أم ماذا ؟ (١) . ويدلى المؤلف
هنا برأى طيب حيث يقول : ومن يدرى فلعل فى هذا الإبهام
بلاغة أرادها جرير ولم يظن إليها النقاد . . . وعندى أن المراد
بهذا التركيب هو مجرد التهويل دون ارادة شئ * بعينه ،
فهو يريد بذل آخر جهده فى التحفى بأحبته ، وليس بلازم أن
يفهم التعبير فهما حرفياً .

(٢) يحسن بالاديب الاستعانة بالعناصر الشارحة ، أو المقيدة ،
أو المخيلة ، كالنعت ، والمضاف اليه ، والحال ، والتمييز ،
والاستثناء . . . فذلك من عوامل إيضاح المعانى وتحديد هـا .
كقوله : شوقى شاعراً أحسن منه ناثراً ، ليلة نابغية ، نهر النيل
من أطول أنهار الدنيا .

(٣) ومما يساعد فى وضوح الفكرة استعمال الكلمات المتقابلة المتضادة
المعانى ، إذ كانت مقابلة الاضداد مما يزيد فى كل منهما وبيان

خواصه ، وشرط ذلك عدم الغلو فيه ، والا عاد صنعة بديعية
تفسد الاسلوب . كقولك : طول النهار من قصر الليل ، لانقض
ولا ابرام ، وكقول الشاعر :

متى أردت الدنيا نهاية خامل فلا ترتقب الا خمول نبيه

(٤) البعد عن الغريب الوحشى ، والعمد الى لغة الناس وما يستطيعون
ادراكه ، وذلك يختلف باختلاف العصور وطبقات الناس
واذا أردت أمثلة للاغراب فارجع الى الصناعتين (١) .

(٥) ثم المصطلحات العلمية والفنية والاجتماعية والتاريخية التى وضعت
لمعان خاصة محددة ، لتكون بين الكتاب والقراء علامات واضحة
وروابط عقلية مشتركة .

والذى يخشى من هذه القوانين التى ذكرها المؤلف لوضوح الفكرة
هو أن ينهمك البليغ فى تحرى الدقة فيعود الاسلوب بذلك جافا
أشبه بالصكوك التجارية أو القانونية ، خاليا من الروح الفنية ، تقرؤه
محكما دقيقا ولكنك تشعر بعقم وملالة .

وهذا ما لحظه ابن قتيبة (٢) على قول لبيد بن ربيعة :

ما عاتب الحرّ الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

فقال : " هو جيد المعنى والسبك وان كان قليل الماء والرونق " ، وعقب
المؤلف على ذلك فقال : ان ذلك راجع الى أن البيت قد استأثر به العقل

(١) راجع الصناعتين ص ٢٦ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٤ طبعة الخانجي .

دون العاطفة ، فذهبت روعته ، وضاع جماله الأسلوبى .

ب - الجلالة أو وضوح التراكيب :

بعد أن يتوافر للكاتب دقة الفكرة ووضوحها ، تكون خطوته الثانية مطابقة الأسلوب لادراك القارىء ، وهى تبدو فى صورتى من الرقة والجزالة أو السهولة والصعوبة حسب المعانى التى تؤدى بها العبارات

والقانون الاساسى لتحقيق هذا الجلاء هو تحرى البساطة فى صوغ العبارات ومجانبة التعقيد ، مع الاحتفاظ بسموها وقوتها . وهذا القانون نفسه متصل بالتكوين المنطقى والنحوى للأسلوب ، هذا التكوين الذى يسلك الكلمات والجمل والعبارات فى نظام لفظى هو صورة لنظام عقلى وتفكير منطقى مطرد .

ويسوق المؤلف بعد ذلك بعض القواعد التى تفيد فى تكوين التراكيب الواضحة ، وتتلخص فى :

(١) لابد للبليغ من ذوق نحوى شديد ، يحسن التأليف بين الكلمات لتدل على معنى دقيق معين ، وتسلم من هذين العدوين اللذين يفسدان الكلام ، وهما : اللبس ثم الغموض كما فى بيت جرير السابق ، وكقول المتنبى :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا لمن بات فى نعمائه يتقلب
فعود الضمير فى نعمائه على من الاولى يختلف فى المعنى اذا
عاد على من الثانية . وهذا هو (الاشتراك) الذى سبق

- وذكره المؤلف فى رقم (١) عند حديثه آنفا عن وضوح الفكرة .
- (٢) الوثوق من أن العناصر التركيبية التى يرتبط بعضها ببعض فى المعنى - كأصل وتابع أو معنى وضده - قد ركبت بنظام دقيق وتأليف منسق بحيث لا يتعب القارىء فى تبين هذه الصلات بين الأجزاء ، فينصرف عن المعنى ويجهد عقله فى غير نفع .
- (٣) بعد ذلك تأتى مراعاة الجمل معا وما يكون بينها من فصل أو وصل ، وما يربطها من حروف العلة أو الحال أو الاستثناء .
- (٤) وما يتصل بذلك الاطناب والمساواة والايجاز . ولسنا نريد هنا فرض أحد هذه الاوصاف على العبارة ، لأن كل صفة منها تكون أوفى بالغرض فى مقام دون سواها . فالشعر تكفى فيه الكلمة الموجزة واللمحة الخاطفة أحيانا لان طبيعته الايجاز والرمز ، والاسلوب العلمى ثلاثه المساواة ، ويكون الاطناب أحيانا فى الخطب والمقالات السياسية والاجتماعية ، ولعل أسلوب الصحافة الآن أميل الى ذلك .

وانى لأتساءل : هل طبيعة الشعر الايجاز والرمز ؟!

أليست القصيدة مجالا واسعا للاطناب والاستطراد والتصوير والتذييل انه لمن النادر أن يكون لفظ البيت مساويا للمعنى بله الايجاز !!

أما الرمز فهو ليس من الكثرة فى الشعر بحيث يكون وصفا عاما له .

وعلى العموم فان هذا الفصل الاول من صفات الاسلوب تناول بشكل واضح ودقيق الوصف الاول للاسلوب وهو (الوضوح) وبين أن

هذا الوصف يجب أن يكون متوفرا في الفكرة أولا ثم في الأسلوب
ثانيا وهو أمر - لاشك - يجب أن يتصف به البليغ .

ثانيا : قوة الأسلوب :

نلاحظ أن القوة صفة نفسية ، تتبع أول أمرها من نفس
الاديب الذى يجب أن يكون نفسه متأثرا منفعلا اذا شاء من قرائه
حماسة وانفعالا ، وهى لذلك صفة العاطفة والارادة والاخلاق قبل أن
تكون صفة الأسلوب

وانا كان الغرض من الوضوح هو الاقتصار المباشر فى اجتهاد
مواهب القارى ، فان الغرض من القوة الاقتصار غير المباشر بايقاظ
عقله وعواطفه وأخيلته لتدرك المعانى بقوة وتحظى بمتعة جديدة . . .
وهناك قاعدتان لتحقيق القوة الاسلوبية هما :

قوة الصورة ، قوة التركيب

* أما قوة الصورة . . فيراد بها أن تتجاوز الصورة بالعقل معناها
الحرفى الى معنى أو معان أخرى مجازية أو غيرها ، وذلك يكون بالتمثيل
والكناية والاستعارة من كل ما يفتح أمام القارى آفاقا من التفكير أو
التخييل . من ذلك قول بشار :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت رأى الناس تصفو مشاريه

فيمكن أن نفهم من هذا البيت معانى ثلاثا بهذا الترتيب : أولها هذا
المعنى الحرفى الساذج وهو أن يحتمل الانسان شرب الماء على قذاه

أحيانا لانه لا يضمن صفاء دائما . ثانيها : احتمال الصديق على مابه من عيب فلم يسلم انسان من العيوب وهذا المعنى هو المناسب لأن بشارا كان يعاتب . وثالثها وهو الأخير : احتمال السقوط فى الحياة وتجمل عنت الدهر فالفوز المطلق غير المحتوم .

على أن مثل هذه الصور الخيالية ، والعبارات البيانية ، تبين لنا كيف يتصور الاديب الاشياء ويتناولها بعقله وخياله ، وتجعلنا نشعر بشعوره ونتحد معه ولو لحظات (١) .

وهنا يتبادر الى ذهنى سؤال أو خاطركنت أود أن يوضحه المؤلف . . وهو : هل الصورة الخيالية جزء من العبارات البيانية . . . ويتعبير آخر : هل الصورة جزء من الاسلوب . . المفهوم من كلام المؤلف أن قوة الأسلوب تتحقق أولا بقوة الصورة فهل معنى ذلك أن الصورة جزء من الاسلوب ؟ وأن الاسلوب أعم والصورة أخص ؟

وقد دفعنى ذلك أن أرجع البصر كرتين لأرى ماذا قال القدماء والمحدثون فى ذلك . . أى فى الاسلوب والصورة ومدى الارتباط بينهما :

يرى المحدثون وعلى رأسهم الزيات أن الاسلوب يشتمل على عناصر منها الصورة . . أى أن الاسلوب شامل لها وهى جزء منه . . فـ (الاسلوب ليس هو المعنى وحده ولا اللفظ وحده وانما هو مركب فنى من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه ،

تلك العناصر هي الافكار والصور والعواطف ثم الالفاظ المركبة والمحسنات المختلفة . والمراد بالصور ابراز المعنى العقلى أو الحسى فى صورة محسنة (١) .

أما الاستاذ الشايب فنجدہ يعتد بالشكل اعتدادا كلياً وأن العنصر اللفظى هو مظهر الفكرة والصورة والجانب الحسى لهما . . فـ (الذى يعيننا أن الاسلوب منذ القدم كان يلحظ فى معناه ناحية شكلية خاصة هى طريقة الاداء ، أو طريقة التعبير التى يسلكها الاديب لتصوير ما فى نفسه أو لنقله الى سواه بهذه العبارات اللغوية . . فهو طريقة الكتابة ، أو طريقة الانشاء ، أو طريقة اختيار الالفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعانى قصد الايضاح والتأثير . . ان الاسلوب هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير . . وهذا التعريف الاخير يتناول عناصر الاسلوب كلها ويقوم على أساس الصلة بينها وان كان العنصر اللفظى مظهر الفكرة والصورة لانه الجانب الحسى لهما) (٢)

وعلى الرغم من أن الاستاذ الشايب يعتد بالشكل ويعتبر العنصر اللفظى هو مظهر - مجرد مظهر - للفكرة والصورة نجده يعود فيعتبر الصورة جزءاً من الاسلوب . . ليس هذا فحسب بل العاطفة كذلك جزء من الاسلوب وعنصر من عناصره . . فـ (العاطفة فى الادب عنصر أسلوبى يحس دون أن يشرح أو يعرض عرضاً مباشراً صريحاً) (٣) .

(١) دفاع عن البلاغة ص ٧٦ و ٧٧ .

(٢) الاسلوب ص ٤٤ و ٤٦ .

(٣) الاسلوب ص ٥٣ .

أما الأسلوب عند القدماء فنجد الامام عبد القاهر عرفه بأنه :
الضرب من النظم والطريقة فيه (١) . و (أهم العناصر عنده
التي تجعل الصورة الادبية هو النظم .. هو التصرف في التراكيب
تصرفا حاذقا ماهرا يجعلها تستحق اسم الصورة ، فالنظم الاصيل
عنده هو الذي يشرح الكلام لاستحقاق اسم الصورة .. هو ذلك الذي
تضع فيه اليد على وجوه التصرف والصنعة فتري الناظم قد عرف ونكر
وقدم وأخر وفصل ووصل وأظهر وأضر ، وتراك تسائله لم قدم ما قدم ،
ولم أنكر ولم يعرف ، ولم وصل بالفاء دون ثم مثلا ؟

فمثلا قول ابراهيم بن العباس :

فلو اذنبا دهر وأنكر صاحب وسلط أعداء وغاب نصير

فان الشاعر أراد بتكثير الدهر والصاحب أن يحقرهما ويرميها بالفدر
والخيانة . وان قد دل التكثير على هذا الغرض الذي أراد الشاعر
فقد أصبح التكثير عنصرا في الصورة لأنه أدى غرضا أراد الشاعر ابرازه
في هذه الصورة . (٢)

والفرق الاساسي بين الصورة عند المحدثين وعند عبد القاهر هو
أن الخيال يعتبر الركن الأصيل عند المحدثين في الأسلوب الادبي
بينما هو ليس كذلك عند عبد القاهر ، فاللمسات الدقيقة في صناعة
النظم لها من الروعة والسحر ما يفوق الخيال أحيانا . ان جمال النظم
قد يبلغ بالحقيقة مرتبة لا يصل اليها الخيال . (٣)

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٦١ .

(٢) نظرية العلاقات - د . نايل ص ٥١ .

(٣) نظرية العلاقات - د . نايل ص ٥٢ .

ونفهم من ذلك أن عبد القاهر لا يعتبر الصورة عنصرا من عناصر
الاسلوب وان كان الاسلوب صانعها ومكونها .

ونعود الى المؤلف فنراه يقدم لنا بعض الوسائل التي تحقق للبليغ
قوة التعبير . . وكان الاولى أن يذكر هذه الوسائل عند حديثه عن قوة
التركيب التي ستأتى عقب حديثه عن قوة الصورة : علما بأن هذه الوسائل
سبق وذكرها فى أكثر من موضع من هذا الكتاب .

وهذه الوسائل هى : (١)

أولا : استعمال الكلمات المألوفة المحددة المعنى ، العربية ، فذلك
يفيد فى وضوح الافكار والصور كما يفيد فى قوتها واستقرارها
فى العقول .

ثانيا : استخدام الكلمات الوصفية التى تفيد فى جمال الاسلوب وفى قوته
معا ، ويراد بالكلمات الوصفية تلك التى تصور مشاهد أو حوادث
تلفت النظر وتروع الفؤاد وتشير الاعجاب ، كقول بدیع الزمان
فى المقامة الأسدية :

" فاذا السبع فى فروة الموت ، قد طلع من غابه ، منتفخا نسي
اهابه ، كاشرا عن أنياه ، بطرف قد ملئ صلفا ، وأنف قد
حشى أنفا ، و صدر لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرعب " .

ثالثا : الاستعمال المجازى للكلمات ، أو وصفها بنعوت غريبة تؤدى
معنى المبالغة المقبولة والايجاز الطريف ، وتفتح للقارى مجال

التفكير والتخييل ، ومن هذا الاخير قولهم : ليلة نابغيسة ،
ورأس كليب ، وثالثة الأثافي .

رابعا : التحاشي عن الكلمات الضعيفة ، والحشو الفارغ ، والعناصر
الثانوية في العبارات ، ثم الاكتفاء بأركان الكلام حتى يتترك
لها المجال لتبعث آثارها دون عائق . وأكثر ما يبدو ذلك
في الخطابة والجدل والمناظرة وفي الشعر والنثر الادبي .

* أما قوة التركيب فتتم بالوسائل الآتية :

(١) تقديم الكلمة أو تأخيرها بالنسبة الى موضعها الطبيعي دلالة على
القصر أو التغميس ، أو حسن الذوق واللياقة ، أو الأهمية مطلقا ،
مثل : اياك نستعين ، على الأخلاق خطوا الملك وأبنو ، لا اله
الا الله .

(٢) من أسباب القوة الطباق البديعي الذي مر ذكره في الوضوح لأن
المقابلة نوع من التحدى بين المعاني والمنافسة في الظهور وهذه
قوة للمعاني . مثل : فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا .

(٣) لما كانت القوة تستلزم السرعة في أكثر الأحيان ، كان الإيجاز
لزاما في العبارة عامة وفي التراكيب خاصة ، لذلك نجد تراكيب
الخطابة مقتضبة سريعة كأنها أوامر ونذر صارمة ، كذلك الحوار
التمثيلي ، والجدل الادبي ، لما تتطلب من سرعة الأداء .

وأجدنى أتساءل مرة أخرى : هل الخطابة حقاً مقتضية سريعة حتى لو كانت أوامروندرا ؟! ان المعروف عن الخطابة وهى التى تتطلب قوة الاسلوب أنها مجال واسع للاطناب والتأكيد والاستطراء وضرب الأمثلة .. وفى خطب على بن أبى طالب قديما ومصطفى كامل حد يشا وغيرهما خير دليل على ذلك .

ولماذا أذهب بعيدا .. ان المؤلف نفسه يقول فى نفس الكتاب عند حديثه عن الخطابة (١) :

(وعلى هذا الأساس من طبيعة الفن الخطابى نستطيع تمييز أسلوبه بما يلى :

١- الصفة العامة للاسلوب الخطابى هى القوة ، ومصدرها الاول انفعال الخطيب ، وقوة عقيدته وبقينه بما يقول ، ثم تظهر فى عباراته المسجوعة أو المزدوجة وكلماته المؤثرة الجزلة لتكون موسيقا قوية على تفاوت فى ذلك ، يقول زياد فى مطلع خطابه : " أما بعد فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء....."

٢- التكرار المعنوى جائز فى الخطابة لتشبيت الافكار فى الأذهان ولكن لابد من تغيير العبارات كما رأيت فى المثال السابق ان الفكرة الواحدة وردت فى عدة جمل ، كما رأيت عند على ، وكقول زياد : " أتكئون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ؟".

ثالثا : جمال الأسلوب :

الجمال صفة لازمة للأساليب الأدبية مادام الأدب معنيا
بامتناع القراء واحترام أذواقهم . . وليس من جمال الأسلوب في شيء هذه
المحسنات البديعية والصور الخيالية التي يصطنعها الكتاب عمدا
ويأتون بها تكلفا دون أن تستدعيها طبيعة المعاني أو يحتاج إليها
الخيال ليصور بها عاطفة صادقة وانفعالا قويا .

والجمال صفة نفسية تصدر عن خيال الأدب وذوقه ، فالخيال
المصور يدرك ما في المعاني من عمق وما يتصل بها من أسرار جميلة ادراكا
حادا رائعا ، والذوق يختار أصفى العبارات وأليقها بهذا الخيال
الجميل .

والجمال صفة سلبية و إيجابية ، تكون بخلو الأسلوب من التناثر
والخشونة التي تؤذى الحس والذوق ، ثم يجعله - أي الأسلوب -
صادحا بجمال الذوق والخيال .

الناحية السلبية : ويراد بها أن تكون العبارة خالية من أسباب
الاضطراب الصوتي والخشونة القاسية التي لا تتم عن عاطفة أو خيال ،
وبذلك نجد الكلمات والجمل مطردة متناسقة الحروف والكلمات .

الناحية الإيجابية : ماسبق كان عملا سلبيا يراد به اعداد الأسلوب
لقبول العنصر الإيجابي للجمال . وهو ما يمكن تسميته بالتناسب أو
مطابقة اللفظ للمعنى (١) .

تداخل صفات الأسلوب وتعادلها :

مما سبق اتضح أن صفات الأسلوب هي : الوضوح - القوة - الجمال .
وهذه الصفات لا يستغنى بعضها عن بعض في الأسلوب ، فهي أشبه
بنغمات الموسيقى وأدواتها التي لا بد من تعاونها وتآلفها لتكوين نغمة
عامة تلائم الدور الملحن موضوعا وغاية ، كذلك لا بد من تآزر هذه
الصفات وتتاسقها حتى يكون الأسلوب متزنا كاملا يغذى العقل والشعور
ويرضى نواحي النفس الانسانية معبرا عنها أو موثرا فيها .

وأساس النجاح ألا يسمح الأدب لصفة بالحياة على فناء الأخرى ،
بل لا بد من توفيرها جميعا ، وحفظ التوازن بينها بدرجسة تجعل
الأسلوب قائما بواجبه خير قيام . وذلك لا يكلف الأدب أكثر من
يقظة نفسية ، وبراعة أسلوبية ، وصدق في الأداء (١) .

هذا وقد ورد مثل هذا الكلام في ص ٢٥ من الكتاب نفسه
فليراجع . وبعد : فان هذا الفصل الأخير هو أليق ما ورد بالكتاب
لضمه الى منهج البلاغة حيث ان دراسة صفات الأسلوب (الوضوح -
القوة - الجمال) تفيد دارس البلاغة ، وتوقظ احساسه ، وتلفت
انتباهه وهو ينشئ الأسلوب الى ما يجب أن يراعيه من وضوح التفكير
وقوة التصوير وجمال التعبير ، وما بين هذه الصفات الثلاثة من
اشتراك ضرورى وتعاون لازم مع ظهور أحدهما على أخويه حسب مقتضى
الحال .

(١) راجع الأسلوب ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

عودة الى " بوفون " :

سبق وتحدثنا عن " بوفون " حينما تناولنا تعريف الأسلوب في هذا الكتاب وقلنا ان بوفون عرف الاسلوب بأنه عبارة : عن النظام والحركة التي يضعها المرء في أفكاره ، فاذا ربطت هذه الافكار بدقة وضمت صار الاسلوب شيئا قويا موجزا .

ومن يقرأ حديث بوفون عن الاسلوب ، والذي ترجمه ——— د . أحمد بدوي (١) ، يدرك تماما أن بوفون قد بين الاسلوب من جميع نواحيه وألفاظه ومعانيه وعواطفه وأخيلته ، ورسم الطريقة المثلى للكتابة الجيدة والاسلوب الممتاز ، وبين أن حفظ القواعد واستيعابها لا يمكن أن يحل محل الموهبة لانه لا بد منها حتى يصبح العمل الفني قريبا من الكمال . وبين كذلك أنه لا بد لكل عمل أدبي من خطة يتبعها الكاتب قبل الكتابة والا أصبح العمل الأدبي فوضى لا حدود لها .

ولقد حدد بوفون - في خطبته أمام المجمع الفرنسي - الملامح الأساسية والخطوات التي يجب على الاديب اتباعها حتى ينال أسلوبه رصانة وجلالا ونبلا . هذه الخطوات هي :

* امتلاك ناصية الموضوع امتلاكا تاما ، والتفكير فيه تفكيرا كافيا ، بحيث يرى الكاتب بوضوح نظام عناصره وتتابعها ، ويجعل منها سلسلة متصلة كل نقطة فيها تمثل فكرة .

* على الاديب أن يوجه قلمه لمعالجة الموضوع بالتوالي ، وأن يعنى

(١) راجع بوفون وحديثه عن الاسلوب في مجلة الرسالة / العدد ٦١٨
العام الثالث عشر ص ٤٧٤ و ٤٧٥ .

بالمناصر عناية متساوية ، وألا يضع عنصرا في مكان غير مكانه المحدد له والذي يجب أن يشغله .

* اذا ضم الى ذلك ، الموهبة والركة والذوق في اختيار التعبيرات حاز الاسلوب نبلا .

* واذا ضم الى ذلك أيضا : الاحتراس من أول انفعال ، والاحتقار لكل ما ليس فيه سوى البريق ، والنفور الدائم من الابهام والسخرية نال الاسلوب رصانة وجلالا .

* وأخيرا اذا كتب الانسان كما يفكر ، واذا كان مقتنعا بما يريد أن يقنع به سواه ، أنتج ذلك صدق الاسلوب وبالتالي اقناع الغير .

وفي هذا البحث أيضا ميز بوفون بين نوعين من الجماهير :
الأول : وهو القسم الاعظم من الناس . . وهو " لا تجب لاثارتهم واقناعهم نغمة حادة مؤثرة واشارات معبرة وكلمات سريعة رنانة .
الثاني : وهو العدد القليل ومن هم على شاكلة أعضاء المجمع الفرنسي . . هو " لا تقدم اليهم الافكار والحجج والبراهين ، وينبغي لمن يقدمها أن يعرف كيف يبرزها وكيف يلونها وينسجها . . ولا يكفيه أبدا أن يقرع الاذن أو يشغل العين ، بل يجب أن يحرك الروح ويلمس القلب والعقل .

وهذا الذي قاله بوفون في القرن الثامن عشر قريب جدا مما سطره بشر بن المعتز في صحيفته المشهورة حين قال :

(وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها

وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حال من ذلك مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات) . (١)

وأخيرا فكتاب الأسلوب كتاب يستحق النظر والدراسة فهو مفيد -
لا شك في ذلك - للطلاب والدارسين . . ولكن هل ندرسه على أنه
بلاغة . . أم أدب .

أعتقد أن الجواب على ذلك بات مفهوما بعد كل الآراء
والتعليقات التي ذكرناها على أبواب الكتاب وفصوله . والتي سنجملها
ضمن حديثنا القادم عن :

كتاب " الأسلوب " في الميزان .

كتاب الأسلوب في الميزان

(١) هذا الكتاب أجمل فيه الاستاذ الشايب المنهج الجديد لعلم البلاغة العربية - كما يقول في المقدمة ص ٣ - ويرى أن هذا المنهج يتطلب دخول علم البلاغة في بابين أو كتابين :

الأول : باب الأسلوب أو كتابه . . ويتناول دراسة الحروف والكلمات والجمل والصور والفقرات والعبارات . على أن تدرس درسا مفصلا دقيقا يعتمد على علوم : الصوت والنفس والموسيقا وما " اليها " مما يقوم الأسلوب على أنه صورة أدبية فنية . وهذا الكلام معناه أن ندخل في علم البلاغة جزءا . أو أجزاء من كل علم من هذه العلوم المستعین بها على دراسة الحروف والكلمات والجمل . . الخ ، وهذه العلوم ليست فقط هي : الصوت والنفس والموسيقا . . بل هناك أيضا وما " اليها " أي علوم أخرى لم يحددها المؤلف وقد تكون كثيرة . . هذا بخلاف علوم : النحو والفقه واللغة والأدب والنقد . . ولا مانع أيضا من : المنطق . . وغيره وغيره . وهذا الحشد من العلوم - أن تحقق أو أمكن مزجه بعلم البلاغة - يصيب البلاغة بالتخمة . . ويصيب الدارسين بالدوار . فهل هذا هو المنهج الجديد المجمع الذي بشرنا به المؤلف في مقدمة كتابه ؟! نعم لا يكون البليغ بليغا حتى يلم بهذه العلوم ويطوف بها قبل أو مع دراسته للبلاغة . . ولكن أن تكون البلاغة - ذاتها - خليطا من

هذه العلوم فهو أمر غير مستساغ ويحتاج الى نظر .

أما الباب أو الكتاب الثانى : فيدرس الفنون الادبية وقوانينها شعرا ونثرا ، يدرس أصول المقالة والخطابة والرسالة والجدل والوصف والرباط والقصة والملحمة والتمثيلية والتأريخ والتأليف الى غيرها من هذه الفنون الادبية التى رخصت بها الآداب العالمية وشرعت قواعدها ، ولم تحظ فى بلاغتنا النظرية الا باشارات خاطفة لا تغنى شيئا .

وهذا الباب الثانى : قلنا - وقال المؤلف نفسه كذلك - أنها فنون أدبية ، فهى تدخل - بل قد دخلت بالفعل - فى دراسة الأدب . وليس من التجديد أن نعود بالبلاغة الى أحضان الأدب والنقد فننشرها فيهما ونمزجها بهما كما كانت منذ قرون . ان هذه الفنون الادبية موجودة فعلا . . ووضعت موضع الدراسة والتدريس . . فهى ليست جديدة علينا . . فهل المطلوب أن ننزع عنها عنوانها القديم " دراسات أدبية " ونضع بدلا عنه العنوان الجديد " دراسات بلاغية " . وما جدوى ذلك ؟! ولأن هذه الفنون الادبية فى غنى عن التعريف . . نجد المؤلف اقتصر فى كتابه على الباب الأول : " الأسلوب " .

(٢) الباب الأول من الكتاب كله مقدمات سطحية وتمهيدية لم تدخل فى صلب الموضوع اللهم الا حديثه عن تعريف البلاغة فقد اعتمد التعريف القائم وهو : مطابقة الكلام لمقتضى الحال . . ودار حول هذا

التعريف مقارنا بينه وبين تعريف جينونج - كما تحدث عن المطابقة في ضوء علم النفس وتطرق الى القوى المعنوية الثلاثة: قوة الادراك وقوة الانفعال وقوة الارادة.

وقد علقت على ذلك في مكانه . . وبينت أن هذه القوى المعنوية الثلاثة تتدرج تحت المعنى العام لكلمة أدب - وهذا تعبير المؤلف نفسه - وتساءلت : ما قيمة هذه العناوين التي نقلناها عن علم النفس أو اقتبسناها منه . . أليست قوة الادراك هي "التفكير" ، وقوة الانفعال هي "التصوير" ، وقوة الارادة - كما يقولون - تتمثل في "التعبير" . والتفكير والتصوير والتعبير.. عناصر الاسلوب الادبي في دراستنا الادبية .

فما الزيادة التي أفدناها واقتبسناها من علم النفس الحديث ؟ ان هي الا أسماء استعرتها ، وعندنا ما يعوضها ويفضلها . . أم أن التجديد احلال أسماء مكان أخرى . . بينما الموضوع والجوهر هو هو لم يتغير !!

وكذلك حديثه عن موضوع علم البلاغة في الفصل الخامس من الباب الاول ، فقد ذكر فيه خلاصة منهجه الجديد للبلاغة حيث حصر موضوع البلاغة في قسمين رئيسيين هما : (١) الاسلوب ، (٢) الفنون الادبية . وينظرة متأملة الى هذا المنهج نجد رأيا جديدا في تكوين علم البلاغة من جديد وهو رأي جديد بالنظر والتقدير .

(٣) الباب الثاني من الكتاب في التعريف بالأسلوب . وأهم ما فيه

الفصل الاول حيث تحدث فى حد الاسلوب وبين معناه العام والخاص - فكلمة "أسلوب" كما تصدق على التركيب الكلامى أو على طريقة التعبير . . تصدق كذلك على طريقة ووسائل كل فن من الفنون .. فللرسم أسلوبه وللموسيقا أسلوبها وللمتمثيل أسلوبه وهكذا .

وإذا كان الامر كذلك فكيف يقترح المؤلف الفاء اسم " البلاغة " واحلال كلمة " الاسلوب " مكانها حتى ولو كانت عنده أخف نطقا وأجمل رنينا وأكثر شيوعا !! ان الوضع الذى نفهمه ونستسيغه أن يندرج " الأسلوب " بمعناه الخاص تحت علم البلاغة ويصبح فرعاً من فروعها مثل : المعانى والبيان والبديع .. ان كلمة "الأسلوب"، وباعتراف المؤلف " صارت هذه الأيام حقاً مشتركاً بين مختلف العلوم والفنون " .. فكيف - والحال هذه - نجعلها عنواناً جديداً لعلم البلاغة .. بينما كلمة " البلاغة " لا تصدق من بين كل الفنون الا على هذا العلم الخاص بها . ثم هل التجديد تجديد الفاظ أم تجديد مضمون !!

(٤) الباب الثالث والباب الرابع يتحدثان عن الأسلوب والموضوع ، والأسلوب والأديب . وهو حديث أدبى وأولى به كتب الأدب كما بينا .

(٥) أما الباب الخامس والأخير فيتناول " صفات الأسلوب " وهذا الباب - كما ذكرنا - أهم ما تضمنه الكتاب - فى رأينا - ان يصلح للاندماج فى دروس البلاغة ويفيد الدارسين فى انشاء الأساليب . ومن رأينا أن صفات الأسلوب - الوضوح والقوة والجمال - تعرض

للدرس عند الكلام في البلاغة عن مقتضى الحال .
فالأسلوب الأدبي : يجب أن تلازمه صفة الجمال بكل خصائصه
ومقوماته ولا يستغنى في الوقت ذاته عن القوة والوضوح .
والأسلوب العلمي : تلازمه صفة الوضوح بكل خصائصه ومقوماته
ولا يستغنى في الوقت ذاته عن القوة والجمال .
وأسلوب الخطابة : تلازمه صفة القوة بكل خصائصها ومقوماتها
ولا يستغنى في الوقت ذاته عن الوضوح والجمال .
ان دراسة هذه الصفات الأسلوبية وتتبع خواص كل منها توسع
مدارك الأديب وتلفت انتباهه البليغ الى أمور في الأسلوب يجب
مراعاتها ، وحسن تطبيقها ينتج .. أو على الأقل يساهم في تربية
الذوق وانتاج أو تكوين الأسلوب البليغ .
ولا أقول ان صفات الاسلوب هذه جديدة .. استحدثها المؤلف ..
أو اخترعها علم النفس الحديث .. فهي صفات أشار اليها
القدماء كما ورد في ثنايا هذا الكتاب .. وتحدث عنها كتاب
" البلاغة الواضحة " الذي أشرت اليه من قبل .. ولكن فضل
المؤلف هنا .. أنه عرضها في ايضاح وتفصيل رقيقة وعناية وألقى
عليها من الأضواء ما جعلها مشرقة جذابة .
واقعا كان من طبيعة كل رأى جديد أو فكر حديث ينشر في كتاب
أو مقال أن يتعرض للمعارضة والهجوم أو الموافقة والتأييد فان هذا
أمر هو ما حدث لكتاب " الأسلوب "

فبينما يرى د . طبانة أن كتاب الاسلوب يعد مدرسة جديدة
فى تناول البلاغة العربية بعائنه اليه من مجالات الدراسة البلاغية . .
يرى أستاذى الدكتور على العمارى أنه كتاب وصفى لا يفتنى ولا يفيد
وليس فيه جديد .

رأى د . العمارى :

يرى الدكتور العمارى أن دعوة الشيخ أمين الخولى قد تحققت،
فلقد أخرج الاستاذ أحمد الشايب كتابه " الاسلوب " وتكلم فيه عن كل
المباحث التى دعا الشيخ أمين الى تناولها .

ويتساءل الدكتور العمارى فى بداية مقاله : (هل هذا الكتاب
عمل تجديدى ؟) ثم يوضح أنه لا جديد فيه وأن الاستاذ الشايب
قد عمد الى جهات ثلاث اختطف منها كتابه :

فهو أولا : ترسم خطى أرسطو فى خطابته ، فقد تحدث هذا
عن الاسلوب ، وقيمه ووضوحه ، وصفاته الخاصة ، والشروط العامة
للالسلوب ، سوفتور الأسلوب ، وسلامته ، وشروط ذلك ، وشرح شرا
الأسلوب وبساطته ووسائط ذلك ، كما بين الاسلوب الكتابى ،
والأسلوب الخطابى ، والاسلوب الشعرى والنثرى ، وتحدث عن
اختلاف الاسلوب باختلاف الموضوعات وغير ذلك .

وثانيا : سطا على أبحاث المتقدمين من أمثال عبد القاهر ،
والجاحظ ، وقدامة ، وابن رشيق ، والآمدى ، وصاحب المثل السائر ،
والقلقشندي ، فاختطفها اختطافا . وحسبك أن ترجع الى ماكتبه

صاحب العمدة عن فنون الشعر، وما كتبه قدامة في نعت الوصف ونعت الهجاء ونعت الرثاء ونعت المديح ونعت التشبيه، ثم تقرأ كلام الاستاذ الشايب فسوف تعتقد أن المسألة كما يقولون "حذو القذة بالقذة".

وأما عبد القاهر فقد كتب كتابا خاصا في "النظم" الذي يسميه الاستاذ الشايب "الأسلوب" قال: للخفة والشيوع. والجاحظ كتب عن صحة المعاني وفسادها ومناسبتها للالفاظ.

وثالثا: أن الغربيين - كما يقول الشيخ أمين - يعنون في البلاغة بدراسة الأسلوب . . ويقول غير مرة ان هذه الابحاث التي يدعو اليها - وهي قوام كتاب الاستاذ الشايب - معانى به الغربيون عناية تامة ويخص بالذكر كتاب الأسلوب الايطالى للباريني .

ولانستبعد بل اننا لنوقن أن الاستاذ الشايب نظر طويلا فسى البلاغة الغربية وأخذ عنها . وان فهل لنا أن نقول كما قال بعض النقاد الظرفاء "لوقيل لكل معنى في شعر حميد بن ثور ارجع الى صاحبك لما بقى في يده شىء" . وأعتقد أننا لو حذفنا منه هذه الابحاث لبقى الكتاب أبيض مفسولا على أنه فوق ذلك كتاب وصفى وعمل البلاغة انما هو وضع القوانين التي اذا ترسمها الاديب استطاع أن ينشئ . وهذا الكتاب في أكثر مباحثه أشد صلة بأدب اللغة منه بالبلاغة وان ذكر مؤلفه أنه وضعه في البلاغة وقدم له بأبحاث فيها (١) .

(١) راجع رأى الدكتور العمارى في الرسالة/ العدد ٧٠٣ المقال السادس - علوم البلاغة في الجامعة .

وليسمح لى الدكتور العمارى أن أعلق على نقده هذا لكتاب
الأسلوب . فأنا معه فى أن هذا الكتاب خلاصة آراء عربية قديمة وغربية
حديثه . . وأن مؤلفه جمع مواد الكتاب من هنا وهناك . ولكن أيقصد
ذلك فى عمل المؤلف اذا كان غرضه من ذلك الوصول الى وضع منهج
جديد لعلم البلاغة ؟

ان الكاتب كما يقول د . طه حسين (مهما يسرف فى حب الجديد
والتهالك عليه فهو لن ينشئ من لاشئ ، وهو لن يستطيع أن يقطع
الصلة بينه وبين القديم الذى غذاه وأنشأه . ، فهو بطبيعة الحال يمثل
الجديد الذى يصبو اليه ، ويمثل القديم الذى نشأ منه) (١)

(والعمل الفنى بحق كما يقول " اليوت " ما هو الا ذلك الذى
ينتمى الى تراث الأمة الأديبى من ناحية ، ولا ينتمى اليه من حيث هو
عمل " جديد " يضيف على هذا التراث ويمدله فيه ويجدد ~~سلفه~~
اليه) (٢) .

وكننت أفضل لو أن فضيلة الدكتور العمارى ناقش المؤلف فى موضوع
الكتاب وفى جدوى الخطة أو المنهج الجديد الذى وضعه للبلاغة .
على أن الدكتور العمارى قد أشار الى ذلك فعلا فى آخر مقاله -
وان كانت اشارة مقتضبة - حيث قال : (على أنه فوق ذلك كتاب وصفى ،
وعمل البلاغة انما هو وضع القوانين التى اذا ترسمها الاديب استطاع أن

(١) حديث الأربعاء ج ٢ ص ١١٩ ط ١ .

(٢) النقد الموضوعى : سمير سرهان ص ٤ .

ينشىء . وهذا الكتاب فى أكثر مباحثه أشد صلة بأدب اللغة منه بالبلاغة ،
وان ذكر مؤلفه أنه وضعه فى البلاغة وقدم له بأبحاث فيها .

وهذا النقد هو ما أتفق فيه تماما مع الدكتور العمارى ، فبعد
دراستى لكتاب (الاسلوب) خرجت منه بهذه النتيجة ، وقد ذكرتها
بالتفصيل أثناء عرضى للكتاب وفى تعليقى عليه .

والحقيقة أن الاستاذ الشايب لم يأت من عنده بجديد ، كما لم
يتحدث فى صلب البلاغة ، ولكن الفصل الاخير من الكتاب فى " صفات
الاسلوب " يستحق النظر والبحث فى وضعه موضع الدراسة البلاغية ،
وعلى العموم فان كتاب (الأسلوب) كان محاولة طيبة من الاستاذ
الشايب - رحمه الله - لتطوير البلاغة ، وهو وان لم يفد افادة جازمة فى
الناحية البلاغية فانه قد أضاف - ولا شك - رصيذا طيبا الى الدراسات
الادبية فى العصر الحديث . وكما يقولون : من أخطأ فله أجر ومن أصاب
فله أجران .

رأى د . طهانة :

يرى الدكتور طهانة " أن كتاب الاسلوب يحتاج الى كتاب آخر يحقق
مانشده من التوضيح والسعة والشمول ، حتى يكون أصلا يعتمد فسى
الدراسات البلاغية الحديثة ويفتح مجالاتها على مصراعيها ، فان مظهر
السعة فى كتاب " الاسلوب " الذى بين أيدينا هو ما حشد فيه من
العنوانات الكبيرة ، وتلك الابواب المتعددة ، والفصول الكثيرة التى
تنظمها تلك الابواب . أما الدراسة فلم تف بما يحقق هذه الغاية ،

بل جاءت مقتضبة لم تتسع لها صفحات الكتاب القليلة نسبيا ، فحين
أن ما أثاره المؤلف من موضوعات يقتضى أن يكون كل فصل من الفصول
بابا ، وأن يكون كل باب من أبوابه كتابا ، وحينئذ يكون هذا البحث
الجديد فى البلاغة العربية الثمرة المشتهاة لتلك الجهود الكثيرة التى
بذلها المؤلف ، والعقلية الكبيرة التى يتمتع بها .

على أن هذه الملاحظة لا تنفى أن كتاب " الأسلوب " يعد مدرسة
جديدة فى تناول البلاغة العربية ، بمانبه اليه من مجالات الدراسة
البلاغية وآفاقها الواسعة التى تسمح بالتجديد ، ولا تقف عند غاية معروفة
لا تتعداها .

ويمكن أن ننظر الى هذا الكتاب على أنه منهج يرسم أصول
البحث البلاغى وسيادينه " (١) .

وأجدنى أقف متعجبا أمام رأى د . طبانة وأتساءل : أهو مدح
أم ذم ؟! لقد كان الدكتور العمارى واضح الخطأ فى رأيه ، وكان هجومه
على الكتاب وتجريده من الأصالة والابتكار ، هجوما واضحا ، لا مواربة
فيه ولا غموض ولا خفاء . أما د . طبانة فقد خلط المدح بالهجاء
فهو يرى (أن كتاب الأسلوب يحتاج الى كتاب آخر يحقق ما نشده من
التوضيح والسعة والشمول ، حتى يكون أصلا يعتمد فى الدراسات
البلاغية الحديثة ، ويفتح مجالاتها على مصراعيها ، فان مظهر السعة فى
كتاب الأسلوب هو ما حشد فيه من العنوانات الكبيرة وتلك الأبواب

(١) البيان العربى - ص ٣٠٨ طه دار العودة ببيروت .

المتعددة والفصول الكثيرة التي تنظمها تلك الابواب . أما الدراسة فلم تف بما يحقق الغاية ، بل جاءت مقتضبة لم تتسع لها صفحات الكتاب القليلة . . .) .

فقلوه : ان كتاب الاسلوب يحتاج الى كتاب آخر . . . الخ معناه بصراحة أن هذا الكتاب لم يقدولم يحقق الغاية منه . وهو بذلك يتفق مع قول الدكتور العماري : انه كتاب وصفي ، وعمل البلاغة انما هو وضع القوانين .

ويرى د . طبانة : أن صفحات الكتاب قليلة نسبيا ، ومع ذلك حشدت فيه العنوانات الكبيرة والابواب المتعددة والفصول الكثيرة . ومعنى ذلك - بصراحة أيضا - أن تخطيط الكتاب فاشل ، وخطته قاصرة لم تؤت ثمارها ، ولذلك يقول د . طبانة عقب ذلك : (أما الدراسة فلم تف بما يحقق الغاية ، بل جاءت مقتضبة لم تتسع لها صفحات الكتاب القليلة . . .) .

وكنا نقبل من د . طبانة هذا الكلام لو أن صفحات الكتاب عدد ها عشرون أو ثلاثون أو خمسون أو تسعون ، ولكن عدد صفحات الكتاب يربو على المائتين .

ويرى د . طبانة أن (ما أثاره المؤلف من موضوعات يقتضى أن يكون كل فصل من الفصول بابا ، وكل باب من الأبواب كتابا ، وحيث أن يكون هذا البحث الجديد في البلاغة العربية الثمرة المشتهاة لتلك الجهود الكثيرة التي بذلها المؤلف والعقلية الكبيرة التي يتمتع بها) .

ولاندرى ان كان د . طبانة بكلامه هذا يمدح أم يسخر، فان مؤلف كتاب الأسلوب " يتمتع بعقلية كبيرة " - هذا عظيم - ، " وسنذل جهودا كثيرة " - وهذا أعظم - ومع ذلك لم يكن بحثه الجديد فى البلاغة هو الثمرة المشتهة !! والمجيب أنه لن يكون كذلك ، الا اذا صار كل فصل من فصول كتابه بابا ، وكل باب كتابا !! واذا عرفنا أن الكتاب يشتمل على خمسة أبواب فمعنى ذلك أن ما فيه من معلومات وصفية يجب أن تتمطى بصلبها وتردف أعجازا وتتو" بكلكل لتصبح فى خمسة كتب ضخمة ، فان كتاب الأسلوب وهو مائتا صفحة يعتبر عند د . طبانة قليلا وضيلا . فاذن يجب أن يكون كل كتاب من الكتب الخمسة ألف صفحة على الأقل كلها كتب وصفية على غرار " الأسلوب " . وحينئذ ، حينئذ فقط ، يؤتى البحث ثماره !!!

واذا كان هذا البحث - كما يرى د . طبانة - لم يؤت ثماره لأن تخطيط الكتاب فاشل وخطته قاصرة ، فكيف اذن يقول بعد ذلك : (ان كتاب " الأسلوب " يعد مدرسة جديدة فى تناول البلاغة العربية ...) ، ان كيف يكون الكتاب قاصرا لم يؤت ثماره ثم يعد مدرسة جديدة ؟! وأخيرا نقول : ان كتاب " الأسلوب " كتاب قيم - رغم ما تعرض له من نقد - وهو جهد مشكور من الاستاذ الشايب - رحمه الله - ويكفى أنه أول كتاب حاول وضع منهج جديد متكامل للبلاغة العربية يجمع بين خلاصة القديم والجديد . وان كان لم يحقق كل ما نصبوا اليه . لكنه فتح الباب الى بلاغة عربية جديدة .

الفصل الثانى

~~~~~

(( منهج الخولى ))

فى تجديد البلاغة

~~~~~


الشيخ أمين الخولى . . . والتجديد

تتبع حياة الشيخ أمين الخولى ونتاجه الفكرى . . . وتعمقت فيما قال وكتب . . . فوجدتني أمام شخصية عملاقة لا يطك من يمرقها الا أن يحجب بها وما صدر عنها من آراء وأفكار . . . خصوصا وأن آراءه وأفكاره كانت متجهة كلها السوى التجديد . . . بل انى على كثرة ما قرأت عن الضادين بالتجديد فى علوم الصربية عامة والبلاغة خاصة . . . لم أجد فيهم من اهرز قصب السبق غيره . . . فعلى حين نصادى الجميع بالتجديد ودعوا اليه . . . اقتصروا على تلك الدعوة . . . ولم يتجاوزوها السى وضع منهج او تقرير خطة لتحقيق ما يدعون اليه من تجديد . . . اللهم الا قليلا مما سنبينه فى مكانه من هذا البحث .

اما الشيخ أمين فقد أمسك بالمقص وتجراً - عن خبرة ودراية - فقص من القديم ما لا يصلح واستبعده . . . وقص من الجديد ما يصلح وضمه الى ما يصلح من القديم فى تفصيل دقيق جميل . . . وهو لا يفعل ذلك اعتباطا . . . وانما يقتضيه فى كل خطوة يخطوها بأن هذه جراحة مطلوبة واجراء ضرورى تقتضيه الحياة ويفرضه التطور . . . ويبين لك وجهة نظره ومزايا كل خطوة يضمها فى المنهج الجديد . . . فاذا بك تسير معه خطوة خطوة وتسلم فى النهاية بأن هذا أفضل تجديد ممكن فى الوقت الحاضر على الأقل . . . ولذلك لا أعتقد أننا نبالغ او نتسرع فى الحكم اذا قلنا : ان الشيخ أمين الخولى هو رائد التجديد البلاغى فى العصر الحديث .

لقد " كان - الخولى - صاحب رسالة . . . وكانت رسالته دعوة حارة وصادقة الى التجديد والاصلاح . . . كان ينشد تجديدا شاملا فى المظهر والمخبر . . . كان يوءن بالاصلاح ايماننا جازما . . . ويريد به ان يستوعب مظاهر حياتنا على اختلافها ، فينصب على الحاديات والتقاليد ويشمل الانظمة والقوانين والفكر واللفظة . نادى

باصلاح الأسرة ، وكتب فى اصلاح الازهر ، ورسم سبلا فى اصلاح النحو وتطويع
اللغة ، وكان يمقت الجمود الزائف والتقليد الاعى ، ويرى أن الدين متين ، وأن
الشريعة سمحة ، وقد قبلنا ويقبلان كل تجديد واصلاح لا يتعارض مع الاصول الكبرى
والمبادئ المقررة . أما مجرد محاكاة الغرب ، والافتتان بهدعه ومستحدثاته فلم
يكن أقل تحاملا على ذلك من حطته على السلبية الجامدة التى تؤدى الى الفناء .
كان يهدف الى اصلاح من صميمنا ، ويربط حاضرننا بماضيها ، ويبقى على معالم
الحضارة الاسلامية التى تعتمد على أصول تختلف كل الاختلاف عن الحضارة
المصرية* . (١)

و " كان لأمين الخولى مدرسة رغم أنه لا يكتب الا قليلا . . كل من جلس بين
يديه يلقى العلم عليه ارتبط به ارتباط المسحور بالساحر مهما باعدت بينهما
الأيام ، أو باعدت بينهما مناهج العلم وغايات الحياة . من عرفه لا يمكن أن ينساه
. . وأنا عرفته وأجلته من أعق اعماق لا لعلمه وقوة عقله فحسب ولكن لأن شباب
فكره أثبت لجيلنا أن القديم يمكن أن يتجدد بما الحياة فيطاول أحداث الحديث (٢)

و يقول الدكتور شكرى عياد : " كنا نخرج من دروس أستاذنا أمين الخولى
ونحن نشعر أن عقولنا قد مخضت مخضا . . لقد تبخرت كثير من المسلمات الباهتة
من أن هاننا كما يتبخر الضباب تحت شمس قوية وتبيننا فجأة أن النظر الذى كان يبدو
لنا أنه الحقيقة ليس فى الواقع الا غلالة من نسيج واه ، وأن تحته حيوات كثيرة
لم تكن نشعر بوجودها ولكنها تتنفس وتنمو وتضرب بجذورها فى الارض . كانت تثار

(١) مع أمين الخولى : د . ابراهيم مدكور - مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٢

ص : ٢٣٩ - ٢٤١ .

(٢) طحق الاهرام - الجمعة ١١ / ٣ / ١٩٦٦ م . د . لويس عوض .

أسئلة فتوضع مشكلات فتقترح حلول ، والمقل الذى ألهب عقولنا بشوق المعرفة يسير معنا أو يسير خلفنا ، كالقائد فى ساقة الجيش ، لأن الاستاذ لم يكن يؤمن بأن المعرفة تلقين ، بل كان يؤمن بأنها اكتساب . بل قل انه كان يؤمن بأن المعرفة حرية ، عقل انسانى مجيد لا تكتمل الكرامة الانسانية ولا يصح المجتمع الانسانى بدون السعى اليه . ولهذا كان درسه أكثر من ساعة علم ، كان تجربة عقلية . وربما تحمس فى المناقشة حتى ليوشك أن يحتد . فقد كان مع أناة رأيه وصرامة منطقته يفعل بالفكرة انفعال المؤمن برسالته . وكان منا - أول الأمر - من تنفرهم هذه الحدة ، ولكننا لا نلبث أن نتبين أن استاذنا يتقبل مناقشاتنا بل يدعونا اليها ، ولا يطالبنا الا بوضوح التفكير واستقامة المنطق . ونتخرج ونعد رسائلنا الجامعية فيكون من تلاميذه من يخالفونه أشد المخالفة فى رأى من الآراء ، وقد يتحمسون مثل تحمسه ويظل ما بين الاستاذ وتلاميذه - مع ذلك - وداك كله ، واحتراما كله" (١) .

والواقع أن الشيخ أمين الخولى كان من فئة العلماء المجتهدين المصلحين الذين يتفحصون العلوم بدقة ويسعون فى اصلاحها - اذا كانت تحتاج الى اصلاح - وقد رأى أن علوم العربية وخاصة البلاغة فى حاجة ماسة الى التجديد والتطوير فلم يأل جهدا فى ذلك ووضع مناهج متطورة للنحو والبلاغة والتفسير والادب فى كتابه " مناهج تجديد " ثم أخذ مناهج البلاغة خاصة وركز عليه وزاد فيه وعمل منه وضمن ذلك المنهج البلاغى الجديد كتابه " فن القول " .

وقد لقي الخولى من مجابهة المحافظين هجوما واستنكارا شديدين ولكنه لم يتوقف وظل ينادى بآرائه وأفكاره التجديدية .

يقول الاستاذ زكى المهندس نائب رئيس المجمع اللغوى بالقاهرة :

" من قديم قسم العلماء الى طائفتين اثنتين . طائفة تأخذ العلم وتمطيه
كما أخذته لا تستطيع أن تغير فيه أو تبدل منه . مثل هؤلاء العلماء يتناولون العلم
ولا سيما العلم القديم الموروث فى شىء كثير من القداية ويقبلون كل ما فيه فى
انعان تام وتسليم مطلق . مثل هؤلاء العلماء هم الذين نصفهم أحيانا بأنهم
نسخ أخرى من الكتب التى بين أيدينا ، ونشبههم أحيانا أخرى بموسوعات حية
متحركة ، أو بالآلات تسجيل تسجيل كل ما يلقى اليها لا تزيد فيه حرفا ولا تنقص
منه حرفا . لو اقتصر العلم على مثل هؤلاء العلماء لنضبت الحياة الفكرية ، وتصلبت
شرايين العلم ، ووقف دولا الحضارة ، ورجع العالم القهقرى آلاف من السنين .
غير أنه من حسن حظ العلم والفكر والحضارة أن هناك طائفة أخرى من
العلماء أشبه ما تكون بالنحل يقع على مختلف الزهور يمتص رحيقها ثم يخرجها
للناس عسلا شهيا . مثل هؤلاء العلماء يتناولون العلم قديمه وحديثه بالبحث
والنقد والتحليل فيأخذون منه الصحيح ويردون الفاسد ويصححون الخطأ ،
ثم يخرجونه للناس علما جديدا يرضى العقول والقلوب .

ولقد كان فقيدها طيب اللهثاء من بين هؤلاء العلماء . . بل كان منهم
فى الصدارة . ان مؤلفاته الكثيرة المبسطة بين أيدينا ، وان محاضراته فى كلية
الآداب ، وان بحوثه فى مجلة الأدب ، وان مذكراته فى لجنة الاصول فى المجمع
. . كل أولئك يشهد بأن أمين الخولى كان عالما مجددا مهدعا خلافا . . كان
يرى أن باب الاجتهاد فى اللغة والأدب والدين مفتوح على مصراعيه على شرط أن
يكون المجتهد مؤهلا لذلك . . كان يعنى بالقديم عناية فائقة ولكنه لم يقف
به عند الاطلال البالية والرسوم الدارسة بل استطاع أن ينتزع منها مادة بنى بها

قصورا بل وناطحات سحاب" (١) .

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٢ ص ٣٣٠ .

الأستاذ الخولي يتحدث عن نفسه :

صور الاستاذ الخولي الفترة الهامة من حياته والتي بدأ فيها صراعه مع التجديد فقال : " دخلت كلية الآداب أواخر عام ١٩٢٨ م ، والجو كله مفتوح ومنعش ، يهفو الى الجديد ، ويشعر بثقل الوقوف الجامد لدراسة العربية وعلومها منذ العفات من السنين ، وقد قامت المعركة الكبرى بين المتشبهين بهذه الحياة ، يحاولون بثها في تلك الدراسات وكتبها ورجالها ، وبين المتوقفين في ذلك كله ، المناهضين دون أيسره . .

بدأت المعركة في الجامعة ، بل في كلية الآداب دون غيرها ، وتطايير شررها ، وانتشرت شظاياها على المعاهد التي تدرس اللغة ، كدار العلوم ، والقضاء الشرعي .

كنت اثرعودتي من أوروبا قد عدت الى مكانى في مدرسة القضاء ، أدرس في تخصصها وقسمها الجديد - الذى أرادوا به اعادتها بعد النفاء - مواء من الثقافة الاسلامية ، فإذا هذا الشرر وتلك الشظايا ، تفزع القائمين بتدريس العربية وآدابها ، وتنفرهم عن مكانهم ، وتلزمنى أن أنقل الى تلاميذ مدرسة القضاء الجديدة ، أنباء هذا التجديد الادبى ، الذى دوت معركته فى الآفاق واشتركت فيها دور القضاء .

وكنت - كما تقضى الحياة - متصلا بأنباء هذه المعركة وأنا فى أوروبا ، حيث تفيض الدنيا جدة وتوثبا ، لكى كنت أفق منها موقف غير المحارب ، الذى لا يكره انتصار المهاجمين فيها ، ولا يبيتس بهزيمة المعاندين المدافعين ، دون أن تذرو ربح الهزيمة المثل القديمة ، ولا تنسف هياكل آثارها ، لأن فى هذا القديم أصلا من حياة ، لقي بها الدنيا يوم جاءها ، وقبل أن تشله عواى الزمن ، فهو صالح

للمتابعة النماء ، من حيث عوقته عوامل الجمود . .

وذ هبت بهذا الشعور ، أحدث تلاميذى فى مدرسة القضاء عن التجديد
الأدبى حديث الموء من به ، الذى يراه ناموس الوجود ، كما يرى أن فى القديم
ما لا يزال صالحا للتقوى به ، والبناء عليه .

ثم شاءت الأقدار أن أضع مدرسة القضاء الى كلية الآداب بجامعة فؤاد ،
لأضى فى هذا الدرس الأدبى ، فدخلت ميدان التجديد الاول ، على خبرة به ،
ورأى ثابت عنه ، وخطة بينة فيه ، أدت عليها على فى درس البلاغة وسواها .

وكان طلبة الحقوق - ان ذاك - يطلقون دراسة فى كلية الآداب ، يراضون
فيها على القدرة الكلامية فى عطهم بالقضاء والمحاماة ، ويعرنون على الخطابة ،
وجوه هذه الدراسة وهدفها ، يقضيان باتخاذ طريقة عطية ، ذات أثر ايجابى
قريب ، بعيدة كل البعد عن المحاولات النظرية ، فكان هذا أول ما ألقى الخروج
عن المؤلف فى درس البلاغة ، ومنعنى الاعتماد على كتبها .

ثم كانت الدراسة لطلبة قسم اللغة العربية ، فى هذا الجوال المتجدد ، الذى
أشرت اليه ، ومعد معاناة لهذا الاتجاه المعطى ، فكانت ثانية ما ألقى الخروج
عن المؤلف فى درس البلاغة ، ومنعنى الاعتماد على كتبها ، وكان الخروج على هدى
من تلك الخطة التى وصفت آنفا . (١)

الشيخ امين يمين القديم والجديد :

كان التجديد والتفكير في التجديد هو الشغل الشاغل للشيخ امين الخولي وكان عطيه بالجامعة في كلية الآداب قسم اللغة العربية مجالا فسيحا للدراسة والبحث والتجديد . . وكان حماسه للقديم وللتراث لا يقل عن حماسه للتجديد والتطوير مما كان يسبب الحيرة والتعجب أحيانا لمن لا يعرفه .

يقول د . شكرى عياد : " وكان أشد ما يهيجنا أول ما بدأنا نختلف السوى د روس الاستاذ هو ذلك السؤال الذى كما نردده بيننا وبين أنفسنا : من أى الفريقين هو المحافظ أم مجدد ؟ ذلك أنه كان يبدو لنا أحيانا محافظا صلبا ، فى محافظته ، وأحيانا أخرى مجددا متطرفا فى تجديده . كان يعلمنا " أن أول التجديد قتل القديم فهما " ، فنفهم من ذلك أنه يعتز بالتراث القديم ويتهم المجددين بالمسارعة الى نبذه على غير بصيرة .

ثم كما نسمعه يتحدث عن مطالب الحياة المتجددة وارتباط اللغة بالحياة ، ومكان الفن القولى من الحياة ومن اللغة ، ويرتب النتائج على المقدمات حتى يصل الى آراء تحسبه لأجلها من غلاة المجددين ، بل من الثائرين ، ثم لم نزل حتى فهمنا أن التجديد والمحافظة يلتقيان فى مزاج الاستاذ وتفكيره ويتلازمان (١) .

والواقع أن محاولة التوفيق بين تراث الماضى وثقافة الحاضر من أهم القضايا التى تواجهنا فى حياتنا الفكرية والثقافية " فمن الماضى تتكون الشخصية الفريدة التى تتميز بها أمة من أمة ، ومن الحاضر تستمد عناصر البقاء والدوام فى معتبرك الحياة ، فالأمة العربية بما قد ورثته عن الاسلاف من عوامل ، أهمها اللغة والعقيدة

ومواضع العرف ، استطاعت الصعود في دوامات هذا العصر الجارفة العنيفة بمقدار ما استطاعت أن تساير حضارة العصر في وسائله وتصورات ، وانها لتقع بين ماضيها وحاضرها في مأزق حرج ، فاذا هي اقتصرت من جهة على فكر الماضي وطرائق عيشه ووجهة نظره جرفها الحاضر في تياره لأن له من الوسائل المادية ما لا قبل لها بدفعه واذا هي اقتصرت من جهة أخرى على الحاضر وعلمه وفنه وسائر معالجه ضاعت ملامح شخصيتها وانطمست فرديتها ولم يعد لها وجود الا كما يكون لقطرة الماء في البحر المتجانس وجود متميز خاص . فهل من سبيل السبيل التقاء الطرفين في ركب واحد يزيل ما بينهما من تباين وتضاد ، ويوئف بينهما في نسج ثقافي متسق منسجم يكون هو ما نطلق عليه اسم : الثقافة العربية المعاصرة^(١) ؟

هذا هو ما حاول الشيخ امين الخولي أن يفعله فقد نظر في كل من القديم والجديد نظرات متألمة متأنية يختار من كل منهما أفضل وأصلحه وينسق بينهما بخبرة وذكاء . . . وقد واثته الظروف المناسبة حين اشتغل بتدريس البلاغة فسي كلية الآداب فأعمل " ذهنه الاصولي وذوقه الادبي في نصوص الادب . وذهنه الاصولي مجتهد يأنف من التقليد ، وذوقه الادبي حريستند الى ممارسة فنيصة جريئة بالنسبة لمصره ، ومن هنا ينكر الاستاذ خضوع البلاغة العربية القديمة لمناهج التحليل المنطقية والكلامية ويعمل على أن يوصل لها اصولا جديدة تجعلها فن القول الذي يقوم الى جانب الفنون الأخرى من سمعية وبصرية . وتدعوه " واقميته الشالية " و " تجديده المحافظ " الى نفس التراث البلاغي القديم ليميز ما يصلح منه لهذا العصر ومطالبه من الفن القول ، فيتبين آثار " مدرسة أدبية " تقرب مسن مفهومنا لوظيفة البلاغة ، فيوجه العناية الى آثار هذه المدرسة للانتفاع بمالصالح ما تركت في بناء صرح البلاغة الجديدة " . (٢)

(١) من مقدمة وجهة نظر / د . زكي نجيب محمود .

(٢) مناهج تجديد ص ٩ .

أجل لقد استطاع الخولى أن يهضم القديم ويقدمه فى صورة جديدة تتفق ومتطلبات العصر وتواكب ركب التقدم العلمى . ولا بأس أنه استعان فسى ذلك بدراسة الجديد واختيار ما يصلح منه لتجديد القديم . وفى ذلك يقول الخولى : " طفت أتعرف معالم الدراسة الفنية الحديثة بحامة ، والادب منها بخاصة ، وأرجع الى كل ما يجدى فى ذلك من عمل الفريبيين وكتبهم ، وأوازن بينه وبين صنيع اسلافنا وأبناء عصرنا فى هذا كله . وكانت نظرتى الى القديم - تلك النظرة غير اليائسة - دافعة الى التأمل الناقد فيه ، والى العناية بتاريخ هذه البلاغة ، أسأله عن خطوات سيرها ، ومنعرجات طريقها ، أستعين بذلك على تبين عقد ها ، وتفهم مشكلاتها ، ومعرفة أوجه الحاجة الى الاصلاح فيها . . . وبذلك كانت الطريقة التاريخية ، مع الاستفادة بالحديث ، منهج د رسول للبلاغة فى الجامعة وجملت أقف الوقفة المتأنية عند الجانب من جوانب حياتها ، أتولاه ببحث مفسر ينشر ، أو بدرس طويل ، وان لم يخرج عنه شىء مكتوب . فأخرجت رسائل مفردة : عن " البلاغة والفلسفة " سنة ١٩٣١ ، وعن " مصرفى تاريخ البلاغة " سنة ١٩٣٤ ، وعن " البلاغة وعلم النفس " سنة ١٩٣٩ . كما كتبت مادة (بلاغة) كتابة مستقلة فى الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية سنة ١٩٣٨ فوضعت العالم الكبرى لما انتهيت اليه من رأى فى التفسير .

مضيفى هذا الدرس المتأنى أسس مسائل البلاغة مسأ رفيقا جريئا مما ، أقابل فيه القديم بالجديد ، فأنقد القديم وأنفى غثه ، وأضم سعيه الى صالح الجديد وذلك خطة لا تدوم فى دراسة جامعية أساسها التجدد ، وحياتها فى نماء متصل ولذا قاربت أن أفرغ من النظر فى القديم ، بمد ما ضمت خياره الى الجديد ، فألفت منهما نسقا كاملا ، يرجى أن يكون دستور البلاغة فى درسها " . (١)

اذن فان التجديد عند الخولى ينطلق من القديم ويرتكز عليه . وهذه
هى الأصالة فى التجديد . فالقديم تراث عزيز لا يجوز أبدا أن نهمله أو نستهيى
به مهما تقدمت الأيام وتغيرت الحياة . . . ولذلك دعا الخولى الى حماية التراث
ورأى أن على الدولة واجبا مقدسا وهو اصدار تشريعات لحماية هذا التراث ،
ولا انتفاع به ، واقترح أن تصدر الدولة هذه التشريعات .:

أولا : تشريع يوجب التبليغ عما فى حوزة الافراد أو الهيئات غير الحكومية من تلك
المخطوطات فى دقة تضمن عدم بقاء شىء من ذلك مجهولا للدوائر العلمية .

ثانيا : تشريع يعطى الدولة حق تصوير النادر من هذا التراث ليتمكن الدارسون
الاستفادة به وليصان من الفقدان والضياع .

ثالثا : تشريع يمكن الدولة من الاستيلاء على النادر النفيس من المخطوطات مع
تعويض أصحابها لتكون مادة للتاريخ والاستفادة العلمية معا .

رابعا : تشريع يمنع خروج هذه المخطوطات من مصر ويمنع اخراجها تهريبا ويدبر

لمقاومته . (١)

ومن هذا نجد الشيخ الخولى أصيلا فى تجديده خبيرا فى ميدانه ، غير دخیل
ولا متطفل ، فهو دارس للعلوم العربية والدين متعمق فى درسها . . . وهو أيضا
مطلع على جديد البلاغة والأدب فى الغرب . . . فكأنما توفرت له بذلك شروط الاجتهاد
فى مجال التجديد .

" وليس يستبين المجدد طريقه ، ولا يدري من أين يبدأ جهاده الا اذا
استجلى تاريخ ما يعانى تنميته ، وعرف كيف ومن أين بدأت حياته ؟ ولم وقف به
الجمود ؟ فاذا ما تبين المجدد طريق غده بتجارب أمسه ، عرف ما يدع وما يأخذ ،

(١) تشريعات ينهى أن تصدر / مجلة الأدب عدد مارس سنة ١٩٥٦ .

وان ذاك ينفي وثبت عن بصيرة ، ويتر مظاهر الجمود فى هدى وثقة ، كالطبيب
كشفت له الأشعة عن ديبب العلة" . (١)

والأستاذ الخولى بوصفه باحثا فى الأدب العربى عامة والبلاغة خاصة
كتب محاضرات قيمة فى تاريخ البلاغة بدأ القاءها فى كلية الآداب جامعة
القاهرة سنة ١٩٣٠ ولم ينشر منها شئ حتى صدرت الطبعة الاولى من كتاب
(مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب) فى سبتمبر سنة ١٩٦١
حيث جمع الدكتور شكرى محمد عياد هذه المحاضرات وأصدرها فى هذا الكتاب .
وقد استغرقت محاضرات الخولى عن البلاغة فى هذا الكتاب من صفحة ٨٧ الى
صفحة ٢٦٨ واشتملت على البحوث الآتية :

- ١ - من تاريخ البلاغة بين يدى تجديد ها .
 - ٢ - البلاغة وأثر الفلسفة فيها .
 - ٣ - البلاغة وعلم النفس .
 - ٤ - مصر فى تاريخ البلاغة .
 - ٥ - البلاغة بصورة عامة .
- وهى بحوث قيمة ومفيدة لدارسى البلاغة عامة ، ولمن يطمحون الى تجديد ها
خاصة .

ولكن الاستاذ الخولى أصدر بنفسه سنة ١٩٤٧-١٣٦٦ هـ كتابه " فن
القول " . وهو خاص بالبلاغة وتجديد ها .

الفرض من تجديد البلاغة :

فى كتاب " مناهج تجديد " يتحدث الخولى عن التجديد فى مجال الادب
ويقول أن التجديد الأدبى يرمى الى غرضين : قريب وبعيد .

فالفرض القريب : هو تسهيل دراسة المواد الأدبية ، وتقليل ما يبذل فيها من
جهد ووقت ، مع تحقيق المطلوب من دراستها تحقيقا عمليا . بحيث يمكن
كل دارس لها أن ينظر فى وقت مناسب ، ويجهد محتمل ، بما يستطيع معه استعمال
اللغة فى حياته ، ذلك الاستعمال الذى تطلب من أجله اللغات .

وهذا الفرض يحققه : المنهج الصالح ، والكتاب المنظم ، والمعلم الكفء .

وأما الفرض البعيد : من التجديد فى علوم الأدب : فهو أن تكون هذه
الدراسات الأدبية مادة من مواد النهوض الاجتماعى ، تتصل بمشاعر
الأمة ، وتروى كرامتها الشخصية ، وتسائر حاجتها الفنية المتجددة
ولا يتحقق هذا الفرض الا بتغيير قد يمس - أو لا بد أن يمس - الأصول أو الأسس
البعيدة ، ويدخله العزم والجد ، حتى تصير اللغة ناحية من كيان الأمة وجانبها
من وجودها المطلق .

وهذا المطلب شاق غير يسير فى جوانب مختلفة من العلوم العربية ، الا
انه أقل مشقة فى البلاغة ودرسها ، لمرونة فى فطرتها ، وقابلية فى منهجها ،
الذى يعتمد على الذوق والوجدان ، ويصل أبحاثها بالفن والجمال ، مهما تخف
ذلك اتجاهات ضالة ، وأعمال خاطئة ، ثم الى هذا كله أمر آخر يضيق الخلف ،
ويقلل المشادة بين الواقفين والسائرين ، هو أن الاقدمين أنفسهم قد صرحوا :
أن البلاغة من العلوم التى لم تنضج دراستها .

وإذا كان الأمر كذلك ، فاني أرى أن نعلم رأسا الى تحقيق الفرض
البعيد في تجديد البلاغة العربية ، تجديد ايمس الأصول والأسس فيغيرها ،
ونفى فيها وثبت ، ومخالف مقررات كبرى - وخاصة في البلاغة المتفلسفة - وخريف
اضافات جديدة حتى نصل البلاغة بالحياة ، ونمكنها من التأثير الصالح فيها ،
وإذا تم ذلك كان تسهيل الدرس أمرا هينا يسير التحقيق ، فلنا ان ذاك أن نؤلف
من الكتب ما نشاء ، ونعرض الموضوعات ، ونتناول المسائل كما نشاء ، بعد ما
استطعنا التحكم في الأصول الكبرى . . .

على أنى حينما أحاول ذلك أنتفع أولا بكل ما استطاع الانتفاع به من
القديم ، وأتجنب الاندفاع المضيع للجهد والوقت ، والمفرق للقوى في غير ضرورة .
مايستجيب له التراث القديم من التغيير والتجديد :

ومناء على الفرضين السابقين - القريب والبعيد - يرى الخولى أن التراث
القديم يمكن أن يستجيب للتغيير والتجديد في نطاق ما يأتي :

(١) من حيث وصل البلاغة بالحياة الأدبية ، وجعلها دراسة ذات جدوى
عملية ، يكفى أن نأخذ برأى القدماء حينما كان أبو هلال العسكري يقول :
ان صاحب العربية يستطيع بعلم البلاغة أن يفرق بين كلام جيد وآخر
ردى ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، كما يستطيع أن يصنع قصيدة وينشئ رسالة
وهذا تحكم حاجة الحياة الأدبية ، وينتفع بكل ما يجد في تلك الحياة
من نافع ، ونخدم الفنون القولية السرائجة .

(٢) من حيث اخضاع البلاغة للمنهج الأدبي الفني في الدراسة ، يكفى أن نحس

منهج بحث رسم المدرسة الأدبية الأولى ، وآثارها وكتبها ، وهذا نحتكم الى كل ما فى دراسة الفنون من أساليب مجرية ومناهج مستحدثة ونهمل بتاتا تلك الدراسة الفلسفية المستعجمة . وفيما ينبغى من تغيير وراء ذلك ننتفع بما قرروا من عدم نضج البلاغة لنقرر ما يلى :

(٣) قد وضع العلماء هذه البلاغة فى قسم المركبات من المعلوم الادبيـة وقصروها على دراسة الجملة وأجزائها فحسب ، لا نرى من أبحاثها شيئا يزيد على ذلك . وقد موا مقدمة عامة للفصاحة والبلاغة ذكرها فيها شيئا عن فصاحة الكلمة المفردة ، والعمل الادبى فى الجملة وجزئها لا غير ، فتلك لا تعطى الا معنى أدبيا جزئيا ، ووراء ذلك الفقرة المنشورة ، والقطعة المنظومة ، تأتلف من جمل عدة ومعان جزئية مختلفة ، ثم وراء ذلك كله العمل الأدبى الكامل ، قصيدة أو مقالة أو رسالة أو خطبة ، يحتاج ذلك كله الى النظر البلاغى .

وعلى هذا نبدأ البحث البلاغى المستوفى من اللفظة المفردة ، ولا نحد بالجملة ، بل نمده الى الفقرة والعمل الفنى الكامل ، فنبحث فيها الأسلوب واختلافه ، وأوجه تفاوته ، ومزايا أنواعه المختلفة ، وننظر النظرة الشاملة الجامعة فى الأثر الادبى كله .

(٤) قصر القديما* البحث البلاغى على الألفاظ من حيث أدائها للمعانى الجزئية بالجملة الواحدة أو الجمل المتصلة فى معنى واحد ، ولم يجاوزوا ذلك .

فعلم المعانى : تعرف به أحوال اللفظ العربى من حيث مطابقته لمقتضى الحال .

وعلم البيان : يعرف به ايراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة . والمعنى

هو تشبيه أو مجاز أو استعارة أو كناية لا غير . . أما المعانى الأدبية
والاغراض الفنية التى هى روح الفن القولى ومظهر عظمة الأديب وأسر
ثقافته وشخصيته فلم ينظروا فيها . ولا بد أن نفرد المعانى بالبحث
المستقل بعد بحث الألفاظ مفردة وجملا ونفرا . .

(٥) وإذا اتسع البحث البلاغى فشمّل مع الألفاظ المعانى جزئية وكلية ، وشمّل
مع الجملة اللفظة المفردة ، ثم جاوزهما الى الفقر والقطع الأدبية والاساليب
فقد صار التقسيم القديم للبلاغة الى المعانى والبيان والبديع لا أساس
له ولا فناء فيه ، ولزم أن يوضع التقسيم على أساس غير الاول ؛ كأن تقتصر
على كلمة " البلاغة " وصفا لجمال الكلمة والكلام ، ونوفر كلمة الفصاحة ،
ونقسم الدرس الى بلاغة الألفاظ ، وبلاغة المعانى .

وفى بلاغة الالفاظ نبحت عنها من حيث ان تلك الالفاظ أصوات
ذات جرس ، ثم من حيث هى دوال على المعانى مفهمة لها ، ونبحث
ذلك فى المفرد ، والجملة ، والفقرة ، والقطعة . ونقسم المعانى بما يناسبها
حتى ننتهى الى دراسة فنون القول الأدبى المنظم والمنثور فنا ،
وما به قوام كل فن وحسنه ، متخطين الفنون القديمة من المقامة والرسالة
والخطبة الى الفنون الحديثة من المقالة والقصة على اختلاف أنواعها .
وحين نستبعد ما حشدته طريقة العجم وأهل الفلسفة فى البلاغة
من مقدمات منطقية واستطرادات فلسفية مختلفة ، ونضم الى البلاغة مقدمات
جديدة لا بد منها لدراسة فنية تقوم على الاحساس بالجمال والتعبير عنه ،
دراسة تتصل بالحياة ، وتحدث عن خلجات النفوس ، وأسرار القلوب ، وتسعد
آمال الجماعة وأمانيتها ، وكذا هموشان الفن الصحيح فى الحياة الجادة .
وهذا لك :

(٦) نضم الى البلاغة مقدمة فنية ، نعرف الدارس فيها بمعنى " الفن " وطبيعته ونشأته ، وذايته ، وأقسامه ، متحررين في ذلك بيان الفن القولى بخاصة .
ثم :

(٧) نضم الى تلك البلاغة مقدمة نفسية لا بد منها مادام شأن الفن الأدبى ما أسلفنا ، وما دنا نريد وصل الفن بالحياة ، فنعرف الدارس بالقوى الانسانية ذات الأثر في حياته الأدبية ، والوجدان ، والذوق ، والخيال ، ونزيد فهمه للاعتبارات التى أجملها القدماء تحت كلمة " مقتضى الحال " وذكرنا منها فى أسباب الحذف والذكر والتقديم والتأخير اعتبارات نفسية محضة . كما تلم المقدمة النفسية بدراسة أمهات الحوافظ الانسانية التى هى مادة المعانى الأدبية ، ومشار الفنون القولية نثرا وشعرا ، وهى نفس الجملة دنيا الأدب والفنون جميعا .

وأخيرا يقرر الخولى أن تلك هى معالم التجديد البلاغى فى اجمال ، وأنه اذا أفسح الله له فى الأجل سيكمل كتاب " فن القول " مثلا مبتدأ للدراسة البلاغية على تلك الاصول (١) .

الشيخ امين الخولى و . . فن القول :

فى كتاب " فن القول " وضع الشيخ امين الخولى عبارة خبرته وتجاربـه
فى مجال البلاغة ، وأوضح معالم التجديد التى توصل اليها ، واقتـرح المنهج
والخطة التى يجب أن تتبع لنصل الى بلاغة جديدة تواكب العصر وتساير النهضة .

ونحن ان نركز على هذا الكتاب ونضعه على بساط البحث فانما يرجع
ذلك لما لـمـسناه من أهمية هذا الكتاب وجديـة ما ورد فيه . . فهو " توجيهـه
منهـجى شامل يستطيع أن يخلق فى البيئة الأدبية - لو أن فيها خصـومة - مدرسة
بلاغية ، ويستطيع أن يمنحها المعرفة ، بعد أن يمنحها عافية الفكر والضمير ،
وجعلها قادرة على فهم الدور الخطير الذى تلعبه اللغة ، ولعبه الفن على
مسرح الحركات التقدمية والنهضات الجماعية " . (١)

لقد توصل أمين الخولى الى أن " البلاغة ليست كما قال القدماء " ، وليست
احترازاً عن الخطأ ، ولا تجنباً للتعقيد المعنوى ، ولا ادراكاً لوجوه التحسين ،
وانما هى : مادة من مواد النهوض الاجتماعى ، تتصل بمشاعر الأمة ، وترضى
كرامتها الشخصية ، وتساير حاجتها الفنية المتجددة " . (٢) . و " ان البلاغة
أداة فعالة فى نهضة الخلق والسياسة ، وفى خلق الاحساس بالكرامة والقومية ،
وفى رفـع المـدارك الى مستويات الحق والخير والجمال " . (٣)

هذا بعض ما ورد فى " فن القول " عن البلاغة وهو كلام جديد جدير

(١) فن القول ص ٢٥ .

(٢) فن القول ص ٢٧ .

(٣) فن القول ص ٢٨ .

بالنظر والتأمل . وأول مايلفت نظرنا في كتاب " فن القول " أن النصف الاول من الكتاب بل أكثر من النصف عبارة عن تمهيد للدخول الى المنهج البلاغي المقترح . وقد يتبادر الى الذهن أن تمهيدا يستغرق أكثر من نصف الكتاب ، وأكثر من مائة صفحة هو ضرب من الاطالة والتفريط . وأنا أقول : هو كذلك في الاحوال المادية ، ولكنه في هذا الكتاب كان ضرورة ملحة ، لأن هذا التمهيد هو مقدمات أساسية لدراسة المناهج القديمة والحديثة وعوامل التأثير فيها ، بحيث يصبح القارئ على دراية تامة بظروف تكوين كل منهج ، وكيف أن منهج أى علم إنما يأتى صدى لظروف الحياة الاجتماعية ، فهو يفرض نفسه فرضا ، وتقتضيه الحياة الاجتماعية والبيئة المحلية اقتضا . وكأن الشيخ امين يفترض فينا - نحن المتلقين عنه - أننا نحن الذين سنضع هذا المنهج الجديد للبلاغة أوعلى الأقل نشاركه في وضعه . خاصة وأنه كان يلقى هذه المحاضرات على طلاب معهد الدراسات العليا الذين هم في الأصل نخبة من مدرسى اللغة العربية بالمدارس الثانوية .

الخطـة اجمالـا وتفصـيلا

أما الخطـة اجمالـا فقد رأى أنها تتلخص فيما يأتي :

- أ - المادة : منهجها ، ومباحثها .
- ب - المعلم : تفقـهه فيها ، وزيادـة علمه بها .
- ج - العرض : عرضها للناشئين عرضا يكسبهم المقدرة الكاملة فيها .
- د - الكتاب : الذي يتحقق به هذا العرض المكسب لهذه المقدرة .

تلك هي الخطـة اجمالـا . . . وذلك الاجمال يحتاج الى التفصيل الآتي :

أولا : في المادة ومباحثها :

نصف تصور القدما لها ، وتنظيمهم لمسائلها ، و منهج دراستهم لها ،
وأسلوب بحثهم لقضاياها ، وغايتهم المرجوة من درسها في رأيهم .
ستمعين في ذلك بنظرة تاريخية تمكنا من القول الدقيق في هذه

النواحي الأربع :

(١) صورة المادة .

(٢) مدى أبحاثهم فيها .

(٣) منهجهم في بحثها .

(٤) غايتهم من درسها .

وبعد بيان هذه النواحي ، نعرضها للنقد واحدة واحدة ، ستمضيئين
في ذلك بما عرفت الدنيا بعد عهدهم ، وما تطلبتـه حاجة الحياة
ومرافق النهوض ، لنرى هل تحقق المادة بصورتها المعروفة لهم ، وفي
دائرة بحثها التي حددوها بها ، وعلى المنهج الذي التزموه في درسها
والغاية التي رجوها منها . . . هل يتحقق بذلك كله مايرجى اليوم
من هذه الدراسة ، وفيـفى بطلبة الأمة ؟ .

وعلى هدى من هذه الدراسة نستطيع أن ننتهي الى رأى في تقدير
قيمتها ، وفيما نزيد أو ننقص منها ، والصورة الأخيرة التي نرى أن تكون
عليها . (١)

والواقع أن دراسة المادة - مادة البلاغة - وما حثها أهم المسائل الأربعة التي وردت في اجمل الخطة ، ولعله لهذا السبب سيعود بمسند الحديث عن المسائل الثلاثة الباقية الى تناولها بشرح أكبر وتفصيل أدق حيث يتحدث عن : صورة مادة البلاغة عند القدماء والمحدثين ، ثم أبحاثهم فيها ، ثم منهجهم في بحثها ، ثم غايتهم منها .

ثانياً : المعلم : تفقه في المادة ، وزيادة علمه بها :

يرى الأستاذ الخولى أن المعلم يجب أن يتمكن من مادته ، ويطلع على كل جديد فيها ، كما يجب أن يراض على العمل التطبيقي في مسائل يدرسها في وضعها الأول ويمن على تصويرها الجديد مع إرشاده الى المصادر المصنفة . ولا يبقى في سبيل تفقه المعلم في المادة الا رغبته الصادقة في الاستزادة ، ووجهه النفسى لهذا التفقه ، وقد هيئت له سبله ، ويسرت وسائله ، وجرب كسبه الشخصى فيها . وكل ما بعد ذلك فهو عطف المستقل ، وجهده الشخصى ان شاء أن يستزيد فان لم يشأ هو ذلك ، فلن تغلح قوة في حمله عليها ، ولو ألفت له كتب الدنيا ، وقد مت اليه خلاصات درس العالم كله . (١)

والواقع أن المعلم العربى مهضوم بصورة عامة من الناحيتين الأدبية والمادية . مالا يحمله على ترقية المادة والاستزادة منها ، وتنويع الدرس ، وتشويق العرض . . . وذلك أمر جوهرى فى تأخر التعليم وعدم تحقيق الغرض المطلوب منه . . . كما أنه سبب فى انصراف المثقفين عن مجال التدريس والتعليم وهو أمر خطير يجب المبادرة لعلاجها .

ثالثاً : العرض الصالح على التلاميذ ، والاخراج المحقق للفائدة :

يرى الأستاذ الخولى أن المادة اذا ما صورت صورة صحيحة ، وامتدت حدودها الى مدى يكمل نقصها ، ويعدّها للوفاء بحاجة الحياة ، ويصحح منهج درسها تصحيحاً يلائم طبيعتها الفنية أو العظمية أو العقلية ، ويوجهها الى الغاية

الجديرة اليوم بأن تطلب . ثم ربيح المدرس بعد ذلك على العمل الشخصى والثناء الفنى فى المادة ، فأصبح قادرا على كسب الحقائق فيها ، مستطيعا الزيادة على المعروف قبل الآن منها ، مضطلعا بالجرأة الواثقة على حذف ما لا خير من بقاءه بين أبحاثها ، وهو مطمئن الى صحة ما يفعل ، اطمئنان الطبيب المجرب حين ييضع أو يبتتر .

إذا ما كانت تلك حال المادة فى ذاتها ، ومقدار تمكن المدرس من التصرف فيها ، فقد هان عليه وهو المجرب المختبر ، أن يأخذ من طبيعته المادة ومنهجها الذى ارتضى لها ، الصورة الجميلة التى يعرضها على تلاميذه ، فتكشف عن مفا تن هذه المادة المدروسة ومحاسنها ، وتغرى النشى* بالعناية الواجبة بها ، والاقبال المحب عليها . (١)

وإذا ما تم هذا الذى رجونا من حال المادة ، وحال المعلم ، وصورة العرض ، فقد هان أمر ما بعده ما عدناه فى عناصر الخطأ ، وهو :

رابعا : الكتاب الذى يتحقق به هذا العرض المفيد :

الكتب القديمة لها قيمتها من حيث هى مصادر ومراجع فى دراستنا ، ويجب أن نكون على بصيرة بمواضع الفائدة منها فىما نحاوله من زيادة أو نقص .

وأما ما ألف من الكتب المتأخرة على غرار هذه الكتب ، وكان اختصارا لها وعرضا نظيف الطبع والورق لمافىها ، فله ما لها من قيمة ، ولنا عليه ما لنا عليها من قوة متصرفه ، ومقدرة ناقدة .

وأما ما ألف بعد ذلك من كتب حاولت أن تستحدث وتتصرف ، وتزيد وتنقص ، فلنا منها موقف أخص من الموقف السابق ، نستعين فيه بالذى اطمأننا اليه وارتضيناه من منهج بحث وخطأ عرض ، فإن كان فيها من ذلك شئ* أبقيناه وانتقمنا به ، وإن كان فيه من غير ذلك شئ* اسفنيانا عنه ، وألقيناه القاءنا

لما قبله ما فى الكتب السابقة ، ومثال ذلك - كما يرى الاستاذ الخولى - ما فى
أيدى تلاميذ الثانوى اليوم من كتب فى البيان ، فان فيها محاولات متجددة
كما أن فيها الى جانب ذلك آثارا من الوهن ، لحقتها بحكم ظروف الانتقال التى
ظهرت فيها .

ومن رأى الاستاذ الخولى فى الكتب المدرسية أن المدرسين المطربين
هم وحدهم أصحاب الحق كله فى وضعها ، ومن غير المصلحة أن يضع غيرهم
شيئا من هذه الكتب ، لأن لهم بتجارهم الطويلة ، وخبرتهم المزاولة لأحوال
التلاميذ ، ما يعينهم أفضل الاطاعة على التأليف لهم ، وتجنب السقطات التى
يقع فيها من يؤلف لهم من غير مدرسيهم .

بل من رأى الاستاذ الخولى - أيضا - ألا توضع كتب مقررة ، بل يترك كل
مدرس - وبخاصة فى هذه الدراسة الفنية الأدبية ، التى تتأثر باقيمتها ، ويقتتها
تأثرا شديدا - يترك كل مدرس ليضع بين يدي تلامذته مراجع لمذاكرة وتحصيل
ما عرضه عليهم فى صورته التى عرضه بها ، وما أهون ذلك اذا مايسرت له الجهات
الادارية سبله ، وسيكون لهذا أثر فى تحقيق ما أرادته المدرس من نتيجة فسي
تلامذته ، تسقط به معذرتة حين يقيد بالكتاب ، ويظهر ابداعه حين يعفى من
هذا التقييد .

ويبدى الاستاذ الخولى اقتناعه بما يقوله أنصار التقنين غير المنصوص ، بل
أصحاب التقنين المنصوص كذلك ، حينما يقدرون أن الاهمية كلها أو جلها للقاضى
المطبق ، لا للقانون مدونا أو غير مدون ، فيقولون : (أعطنى قاضيا ولا تعطينى
قانونا) ، وكذلك أقول : (أعطنى مدرسا ولا تعطينى بعد ذلك شيئا) ، حتى
المنهج التفصيلى لأريده . (١)

وهذا رأى الأخير - الذى ذكره الخولى - رأى خطير ، فان الاعتماد
على المدرس فقط دون المنهج والكتاب قد يؤدى الى الاختلاط والاضطراب
فى تدريس البلاغة وماعجبا حيث لن يكون هناك ضابط ولا رابط .

ثم من أين لنا المدرس الكافي من أساتذة البلاغة المتمكنين القادرين على مراقبة
الذين يمكن الاعتماد عليهم اعتماداً مطلقاً ويفوض إليهم الأمر في درس البلاغة ؟
علماً بأن معظم أساتذة البلاغة في المدارس ليس لديهم المقدرة الكافية لتدريسها
برغم وجود المنهج والكتاب .

وفي ذلك يقول الدكتور العماري : "... وأبعد من ذلك في الخيال وفي
توهم أن تشعروا دراسة البلاغة ، أن نترك الأمر للمدرس . نعم ، يرى بعض الذين
قضوا أعمارهم في دراسة البلاغة أن نترك الأمر للمدرس ، ويقول : (ولعل في هذا
المقام أجهر ببقية رأيي ، وهو ألا توضع كتب مقررة ، بل يترك كل مدرس ، وخاصة
في هذه الدراسة الفنية الأدبية التي تتأثر بأقليمها أهيئتها تأثيراً شديداً ،
يترك كل مدرس ليضع بين يدي تلاميذه مراجع المذاكرة وتحصيل ما عرضه عليهم في
صورته التي عرضه بها ، وما أهون أن يهين لهم ذلك إذا مايسرت له الجهات
الإدارية سبله ، وببذل قليل مما تنفقه ثمناً لهذه الكتب) . (١)

وما أشك أن هذا كلام يقوله رجل لم يختلط بأوساط المدرسين ، وقد
يظن أن كثيرين منهم نوابغ يستطيعون أن يضعوا المنهج ويؤلفوا عليه المذكرات
ويلقنوه بعد ذلك لتلاميذهم " (٢)

ونعود إلى خطة الشيخ أمين الخولي في تجديد البلاغة فنجد بعد
أن عرض خطته إجمالاً وتفصيلاً - كما أوضحنا في الصفحات الماضية - يعود إلى
القسم الأول منها . وهو المادة ، فيخصه بالنظر والبحث . ويد وأنّه عندما تحدث

(١) فن القول : ص ٢٣ .

(٢) قضايا بلاغية ص ٥٣ .

عن المادة أولا . . . انما تحدث عنها على وجه العموم . . . أما الآن فانه يتناول
مادة البلاغة بالذات ، ويبحثها بحثا دقيقا ناقدا يحيط بنواحيها الأربع
التي نص عليها من قبل . وهي :

١ - صورة مادة البلاغة عند القدماء والمحدثين .

٢ - دائرة أبحاثهم فيها .

٣ - منهجهم في بحثها .

٤ - غايتهم منها .

وقد قصد من ذلك أن يرسم الصورة كاملة وواضحة لمنهج فن القول ، أو منهج
البلاغة الجديد ، حتى يكون تجديده مبنيا على أسس متينة ، ومركزا على
دعائم ثابتة ، فهي مقدمات تؤدي بالضرورة الى النتائج المطلوبة في تجديده
البلاغة .

أولا : (صورة البلاغة)

=====

تناول الأستاذ الخولي صورة البلاغة العربية عند القدماء ، ثم وازن بينها
وبين صورة البلاغة عند المحدثين ، ليوضح لنا الفروق بينهما ، ويعرفنا
مواطن الصواب والخطأ في كل منهما ، كي نصل بذلك الى صورة جديدة للبلاغة
تجمع بين فضائل الماضي ومحاسن الحاضر .

١ - صورة البلاغة عند القدماء :

=====

عندما نلتبس هذه الصورة القديمة للبلاغة نعرف أنه قد تناول عليها
العمر ، وتمادى الزمن ، ولكننا سنقصد من ذلك الى آخرها استقرارها

الأمر وثبت ، وهو : متن التلخيص ، الذى هو خلاصة القسم الثالث من كتاب مفتاح العلوم للسكاكى ، ثم ما كتب على هذا المتن من شروح وحواش ، كشرحى التفتازانى المطول والمختصر ، وغير ذلك من شروح تجمعها النسخة المطبوعة المتداولة باسم " شروح التلخيص " ، ومنها كتاب الايضاح الذى كتبه الخطيب القزوينى ايضاحا وتيسيرا لمتنه التلخيص . ومن هذه الاصول نحدث عن الصورة القديمة للبلاغة عند اسلافنا . وهى صورة تتنوع الى نوعين : صورة افرادية ، وصورة تركيبية .

(١) الصورة الافرادية

=====

لهذه الصورة خطوط عديدة ، أوضحها : تعريف البلاغة . فهم يقولون : ان البلاغة تكون فى المتكلم والكلام فقط ، دون المفرد ، فاذا ما عرضوا لتعريف البلاغة فى الكلام ، لاحظوا أن للمتقدمين رسوما واهية (٢) ، وكان الرسم القوى عندهم ، هو البلاغة فى الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته . . . وقد موا بين يدي ذلك قولهم فى الفصاحة التى تكون فى المفرد والكلام والمتكلم جميعا دون البلاغة .

ومن خطوط هذه الصورة - أيضا - حد يشهم عن الحال ، ومقتضى الحال ، وقولهم فى حصر هذه المقتضيات ، فاذا ما ضمت الى ذلك

١ - راجع الصورة الافرادية للبلاغة عند القدماء ص ٣٢ - ٣٧ فن القول .

٢ - عروس الأفراح - شروح التلخيص ١ : ١٢٣ الطبعة الثانية سنة

١٣٤٢ هـ مطبعة السعادة بالقاهرة .

قولهم فى الاعتبار التى تحصر أبحاث هذه البلاغة ، ووجه هذا الانحصار بدت لك صورتها فى ذهنهم جليلة الملامح •

فالحال : هو الأمر الداعى للمتكلم الى أن يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به أصل المراد خصوصية ما • • والحال : هو المقام أيضا ، لا يتفايران الا بالاعتبار • أى أنهما متحدان بالذات ، وكل منهما هو الأمر الداعى الى إيراد الكلام مكيفا بكيفية مخصوصة ، ولا يتفايران الا بحسب اعتبار المعتبر وتوهمه " وهذا الاعتبار الذى يتوهمه المتوهم ، هو أن يتخيل أن ذلك الأمر الداعى الى ملاحظة الخصوصية زمان أو مكان ، أى لا بد له من زمان ومكان يقع فيهما ، وهو مطابق للزمان الذى يقع فيه ، وللمكان الذى يقع فيه ، أى أنه بقدرهما ، لا يزيد عليهما ولا ينقص عنهما ، فاعتبار مطابقته هذا الأمر الداعى للزمان ، يتوهم أنه زمان ، وهو ليس فى الحقيقة زمانا ، فيسمى لهذا التوهم حالا ، لأن الحال من أسماء الزمن المستقبل والماضى واعتبار مطابقته هذا الأمر الداعى الى اعتبار الخصوصية مطابقا للمكان الذى يقع فيه ، أى بقدره لا يزيد عنه ولا ينقص ، يتوهم أنه مكان ، فيسمى بهذا التوهم مقاما ، والمقام من أسماء الأمكنة كالمجلس والضيعة ، وانما اختاروا من أسماء الزمان لفظ الحال ، لأن المتكلم بالكلام البليغ ممن شعر وخطابة ، كان يتكلم بهذا الكلام فى حال وجود الاعتبار الذى لاحظته ، لا بعده ولا قبله ، كما كان البليغ يسوق شعره أو خطابه وهو قائم فيمن يتحدث اليهم ، فأطلق القامات على الاعتبار التى يلاحظها •

وقد يفسرون وجه اختيار " الحال " و " المقام " بغير هذا التفسير ، فيجعلون الحال : ما عليه الانسان من الصفات ، لا أحد الأزمنة الثلاثة ،

ويسمى الأمر الداعي الى اعتبار خصوصيته فى الكلام بالحال ، لأنه مما
يتغير ويتبدل ، كالحال الذى عليه الانسان من غضب أو رضاء ، أو سعى
ذلك الأمر الداعي بالحال ، لأنه صفة ، وحال من أحوال الانسان •

وأما المقام على هذا التفسير الثانى غير الناظر الى أنه اسم مكان — كما
سبق — فهو الرتبة ، وإنما سعى الأمر الداعي الى اعتبار خصوصية فى
الكلام مقاما ، لأن مراتب الكلام تتفاوت بالأحوال ، كما أن مراتب الرجال
ودرجاتهم تتفاوت بالمقامات (١) ، والحال أو المقام كانكار المتكلم أو ترديده ،
وله مقتضى ، هو ما يسمونه مقتضى الحال أو مقتضى المقام ، هو التأكيد
للمنكر مثلاً •

وإنما وقفنا هذه الوقفة عند كلامهم فى الحال أو المقام ، ومقتضى الحال
أو المقام ، لأنه لباب نظرهم للبلاغة ، والخط الأصلى فى صورتها عندهم ،
ومنه تتضح نظرهم الى هذا الفن ودرسه •

وهم يشيرون الى ضبط مقتضيات الأحوال وحصرها ، فتفهم من هذا الضبط
والحصر صورة البحث البلاغى عندهم ، ومن هنا نقرأ مثل قول القزوينى فى
تلخيصه : " فمقام كل من التنكير والاطلاق والتقديم والذكر ، يباين مقام
خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الإيجاز يباين مقام خلافه ،
وكذا خطاب الذكى مع خطاب الغبى ، ولكل كلمة مع صاحبها مقام " • (٢)

١ — حاشية الدسوقى — شرح ١ : ١٢٥ و ١٢٦ •

٢ — المصدر السابق ١ : ١٢٦ •

ف نجد أنهم قد استخلصوا منه ضبط مقتضيات الأحوال وحصرها ، وأنهم —
أقسام ثلاثة :

١ — ما يتعلق بأجزاء الجملة ، واليه يشير قوله : " ف مقام كل من التنكير والاطلاق والتقديم والذكر يباين مقام خلافه " .

٢ — ما يتعلق بالجملتين فصاعداً ، واليه يشير قوله : " ومقام الفصل يباين مقام الوصل " .

٣ — ما لا يختص بشيء من ذلك بل يتعلق بهما معا ، واليه يشير قوله :
" ومقام الإيجاز يباين مقام خلافه . . . إلى قوله . . . ولكل كلمة مع صاحبها مقام " .

وهذا تدرك الاعتبارات التي رأوها محققة للبلاغة ، أو تدرك ما نظروا في بلاغته من الجملة والجملتين ، كما سمعت من صريح قولهم في الضبط والحصر ، وكان هذا هو الذي جرى عليه عملهم فعلا في الدرس والتأليف ، لا يعدونه ولا يخالفونه ، فأيد فعلهم قولهم ، وحال ذلك كله دون الفهم الطليق من نص القزويني السابق .

على أنه وإن يكن في هذه الصورة شيء من التظليل المبهم ، فاسمع من قولهم ما يزيد ها جلاء حين يقولون : (١)

ان البلاغة في الكلام مرجعها إلى :

١ — الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد .

٢ — تمييز الكلام الفصيح عن غيره .

وليبيّنوا ويحققوا هذين الأمرين ، يرون أن الأمر الثاني منهما قد أعانست

عليه ومكنت منه دراسات لغوية أدبية سابقة ، أو هو ما يستعان فيه بالحس
فحسب .

ثم يبقى بعد ذلك شيء من الغرض الثاني يحتاج في تحقيقه وتحقيق الغرض
الأول الى دراسة خاصة ، وذلك قولهم :

ان الثانى ، وهو تمييز الفصح من غيره ، بعضه يبين فى علم متين
اللغة ، أو علم التصريف أو علم النحو ، أو يدرك بالحس ، وهذا الجانب
من تمييز الفصح هو ما عدا التعقيد المعنوى ، الذى اعتبروه فى النصاحه
حين عرفوها فى الكلام بأنها : خلوصه من ضعف التأليف وتناثر الكلمات
والتعقيد مع فصاحة الكلمات .

فيأخذون من الثانى — أى تمييز الفصح — هذا التعقيد المعنوى ،
ويضمونه الى الأول ، وهو الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ،
ويقولون : انهما هما المحتاجان الى دراسة خاصة ، لأن مرجع البلاغة
فيما عدا هذين ، بعضه مبين فى علوم معروفة ، وبعضه يدرك بالحس ،
فلم يبق الا هذان الأمران .

وانا كان الأمر كذلك . . فقد وضحت الصورة العامة للبلاغة عندهم بأنها
البحث عما يعرف به التعقيد المعنوى ، والخطأ فى تأدية المعنى المراد ،
وقد أدركت قبل الآن أنهم يعملون لتلافى هذا فى الجملة أو الجملتين فقط .
فالبحث الذى يحتز به عن التعقيد المعنوى — الذى بقى من شئون
الفصاحة — هو علم البيان .

والبحث الذى يحتز به عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، هو علم
المعانى .

وما يعرف به وجوه التحسين التابعة لهذين ، والثانية بعدهما ،
هو علم البديع .

ويسمى الجميع " علم البلاغة " . (١)

وكثير من الناس يسمى الجميع " علم البيان " .

وبعضهم يسمى الجميع " البديع " ، وبعضهم يسمى الأول علم

المعاني والثاني والثالث — أى البيان والبديع — " علم البيان " . (٢)

ومن كل هذا ترى أن الصورة الانفرادية للبلاغة عند القدماء يخطئها قولهم :

إنها البحث عما يحتز به عن التعقيد المعنوي ، وعن الخطأ فى تأديسة

المعنى المراد ، وذلك فى الجملة والجملة . ولنزدها ابانة بعرض الصورة

الثانية ، وهى :

الصورة التركيبية (٣)

=====

ونقصد بها الصورة التى نرى بها البلاغة مصنفة مع غيرها من علوم العربية

لنستبين بذلك ارتباطها بما يسبقها من دراسات عربية لغوية ، وما يتلوها

من تلك الدراسات .

وحصر علوم العربية أو علوم الأدب وتصنيفها مما اختلف كذلك مع الزمن ،

١ — مختصر السعد — شروح ١ : ٤٩ .

٢ — مختصر السعد — شروح ١ : ١٥١ .

٣ — انظر ص ٣٧ وما بعدها — فن القول .

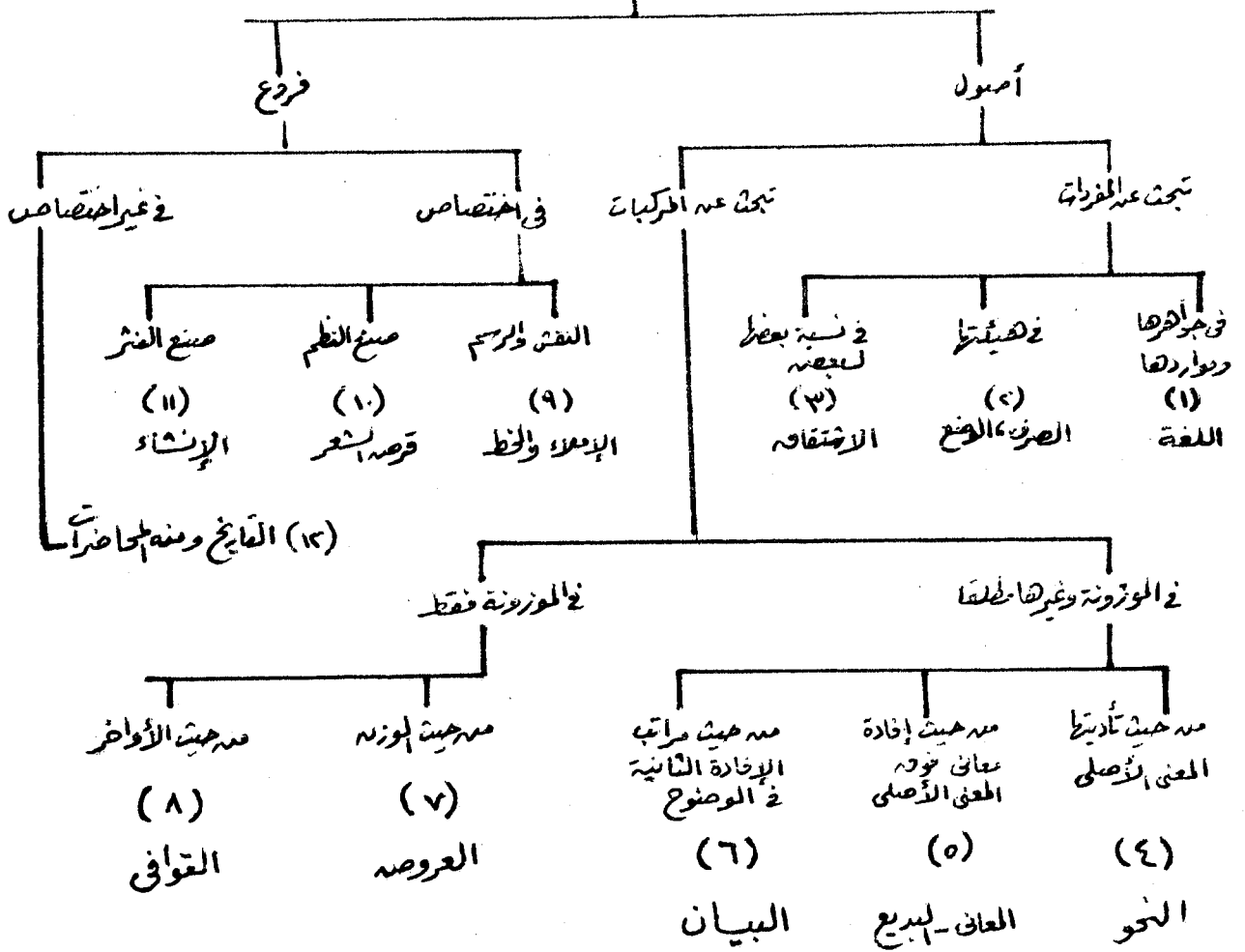
وتغير بتوالي القرون ، فنرى مثلا : أن أبا البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري — ت ٥٧٧ هـ ، يعدها ثمانية علوم ، ويزيد عليها هوائيتين يقول انه وضعهما ، فتكون هذه العلوم عشرة • (١)

ثم اذا بالسبكي ينقل عن الزمخشري المتوفى قريبا من عصر ابن الأنباري أن هذه العلوم اثنا عشر علما (٢) ، وهو أكثر ما اشتهر عن هذا التقسيم . ونرى من عد هذه العلوم وتقسيمها صورة في كتاب : الدر النضيد ، من مجموعة الخفيد ، للنفيد الهروي : احمد بن يحيى بن محمد المتوفى سنة ٩٠٦ هـ (٣) . كما نجد من ذلك صورة في كتاب : كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي الهندي من أهل القرن الثاني عشر الهجري (٤) . كما نجد اجمالا من ذلك في حاشية الخضري على ابن عقيل في النحو (٥) .

في هذه المصادر ونحوها نجد فكرا عن احصاء علوم العربية ، أو علوم الأدب وتنسيقها ، فتلوح تدرجها مع الزمن ، ونستطيع أن نصور الصورة الأخيرة التي استقر عليها رأى القدماء في جدول على النحو الآتي :

-
- ١ — نزهة الألبا في طبقات الأدبا — ص ١١٧ ط ١٢٩٤ هـ •
 - ٢ — عروس الأفراح ١ : ٥١ شروح التلخيص •
 - ٣ — الدر النضيد : ص ٤ وما بعدها ط الخانجي ١٣٢٢ هـ •
 - ٤ — كشاف اصطلاحات الفنون / ج ١ ص ١٧ ط الآسنة ١٣١٧ هـ •
 - ٥ — حاشية الخضري / ج ١ ص ١٠ ط الشرقية ١٣٢٠ هـ •

علوم الأدب أو علوم العربية



والنظر في هذا الجدول نكتبين موقع البلاغة ومنزلتها بين علوم العربية ،
وأنها من أبحاث الأصول فيها ، تتلو النحو ، وتبحث في المركبات موزونة
وغير موزونة من حيث افادتها معانى فوق المعنى الأصلى ، ومن حيث مراتب
هذه الافادة الثانية ، وأنها تتألف من علمين أصليين هما : المعانى
والبيان والبديع تابع لهما .

ونستطيع اذا ما تأملنا في هذه الصورة البلاغية عند القدماء ، بمسند
تصورها في وضعها الافرادى والتركيبى ، أن نشعر بأنها صورة وجه معروق
بأدى العظام ، شاحب ، يسير الحظ من الحيوية والنفرة ، ويـزداد
شعورنا بقلّة حيوية هذه الصورة وعدم جمالها ، اذا ما سمعنا حديث
غيرهم عن هذه البلاغة ودرسها وصورة ذلك عندهم . فكيف صور الفريسيون
البلاغة ؟ . .

ب - صورة البلاغة عند المحدثين (١)

=====

الصورة الافرادية : (٢)

=====

١ - يسوق المؤلف قطعتين أدبيتين ، هما وصف لشئ واحد ، وقسـد
صيفتا من كلمات واحدة ، ثم يقول . ان التفريق بين هاتين القطعتين

-
- ١ - راجع صورة البلاغة عند المحدثين ص ٤٠ وما بعدها - فن القول .
 - ٢ - هذه الفقرات وما بعدها عن الصورة الافراية مترجمة من الفاتحة
والفصل الأول من كتاب (الأسلوب الايطالى) للبارينى .

ليس بشيء ، ولكنه كل شيء ، وليس يجب أن تكون نقادا أو أدبيا لتدرك أن واحدة منهما أفضل من الأخرى وقد أشار الكاتب الى رجحان الثانية ، وهزال الأولى وضعفها .

ب- ثم عرض معنى للكتابة فيه ، هو : وصف البهجة التي تغلب على طبيعة المصافير . وذكر لأداء هذا المعنى صورا مختلفة ، من بينها صورة لكاتب كبير . ثم قال : " وكل أحد يرى أن خير هذه الأوضاع ، هو الذى صاغه فلان ، على حين أن سائر الأوضاع الأخرى قد استعملت فيها قواعد النحو وتركيب الكلام ذاتها التى استعملها فلان هذا " .
ثم خلاص من هذه الأمثلة التى أوردها ، والتى اقترحها ، الى أن معرفة اختيار أحسن وضع للتعبير ، وأفضل الصور لايضاح غرض ، وأداء معنى ، انما تعتمد على حسن وجمال الوضع الأجمل ، والصورة الأفضل .
والعلم الذى يعلم الكلام الأفضل ، والكتابة الأحسن ، هو : " علم البلاغة " .

هذه صورة فردية من الصور التى تعرض بها أبحاث البلاغة دون تمرير بالرسم أو الحد ، ويمكن عرض هذه الصورة مع ملاحظة أخص مما سبق فى معنى حسن التعبير ، وفضل الصورة عند هؤلاء المحدثين كما يأتى :

- ١ - يعرفون اجمالا بالفنون الجميلة ، ويوردون أمثلة لأقسامها المختلفة ، ويعدون هذا الأدب ، نشره وشعره ، من الفنون الجميلة .
- ٢ - ثم يقولون : انه ليس كل قول يعد عملا فنيا خاصا ، بل القول الفنى انما هو قول ممتاز . وهكذا تجد الكثيرين جدا يعرفون قواعد

النحو أعجب المعرفة ، ويكتبون كتابة صحيحة ، لكنها غير فنية ،
كما نجد مثل ذلك في أي فن آخر ،

ففي التصوير مثلا ، نجد أن درس التخطيط والتلوين ، شيء
غير تصوير لوحه جميلة ، كما نجد في لوحتين مصورتين تملآن شيئا
واحدا ، أن إحدى هاتين اللوحتين إنما هي لطخة جبر على
ووق لا غير ، على حين أن الثانية عمل متفوق جميل .

٣ — ومن هنا يحتاج فن القول إلى ما يمكننا من الوصول إلى قوة الأسلوب
وإدراك جمال القول .

والدرس المختص يبحث الأسلوب ، وتعليم الكتابة الفنية ، يسمى
" البلاغة " كما يسمى كذلك " فن القول " .

وهكذا تعرض الصورة الفردية للبلاغة ، دون تورط في تحديد ولا تقسيم
ولا تسمية أجزاء علوم الخ .

الصورة التركيبية :

=====

نقل الأستاذ أمين الخولي صورتين تركيبيتين للبلاغة عند المحدثين :

الصورة التركيبية الأولى : البلاغة بين سائر المعارف اللغوية .

وفي هذه الصورة :

١ — يبينون أننا نعرف القواعد التي بها تترابط الحروف فتكون المقاطع ،

ومن المقاطع تتكون الكلمات ، وهي صناعة النطق والرسم ..

ثم نعرف القواعد التي بها تقويم الكلمات ، من حيث سهولتها وعذوبتها فسي

قوالبها الصحيحة ، وهو درس الصرف ٠٠ ثم نعرف قواعد تنظيم الكلام وكيف نركب الجمل والفقر دون غلط وهو درس النحو ٠٠ وما درسناه من كل أولئك القواعد نعرف كيف نؤلف الكلام صحيحا .

٢ — لكن الكتابة بغير خطأ ليست الكتابة الجيدة ٠٠ ولو كانت الكتابة الجيدة تكفى فيها قواعد علوم اللغة لا استطاع كل منا كتابة الروائع الأدبية التى نقرأها لعظماء الكتاب . ولكن الأمر ليس كذلك ٠٠ فلا تكفى القواعد النحوية واللغوية لإخراج الكتابة الجيدة ٠٠ نعم ان القواعد لازمة ، لكنها ليست كافية ، اذ تستطيع أن تقول عن الكثير من أوضاع التعبير انه صحيح ، لكن واحدا من هذه الأوضاع هو الذى نقرر أنه الأفضل والأبلغ .

وهذا الصنيع ترون تدرج الدرس اللغوى فى خطوات أبحاثه المختلفة حتى ينتهى الى الصحة ، ثم يجرى البحث عن الأفضل والأحسن أو الأبلغ ، وهو درس البلاغة أو فن القول .

ونحن نرى أن هذا الكلام الذى أورده الأستاذ الخولى عن الصورة التركيبية الأولى عند المحدثين ، لا يفتقر كثيرا عن الصورة التركيبية عند القدماء ، من حيث ان مراعاة قواعد النحو والصرف وغيرهما من علوم العربية أمر لازم ، لكنه ليس كافيا للوصول الى الأبلغ من القول .

الصورة التركيبية الثانية : فن القول بين الفنون الجميلة :

=====

وهذه الصورة تتضح من خلال أقوال المحدثين عن الفن ، فهم يقولون :

- ١ — تفضل أصول الفن في ظلمات الزمن .. حينما بدأ الانسان يستخدم حاجات مادية وعندما استطاع في بعض الأحيان أن يستعمل ذكاءه ومواهبه استعمالاً طليقاً حول الثقافات الى بعض المطالب السامية ، فبدأ الفن يتحول ، حتى صار شيئاً نبيلًا جميلًا ضروريًا للحياة الانسانية ، وكان هدفه الخاص : اظهار الجميل .
- ٢ — والفنون الجميلة خمسة : التصوير ، والنحت ، والعمارة ، والموسيقى والأدب . وتدعى الفنون الثلاثة الأولى الفنون التجسيمية أو التشكيلية كما تدعى الفنون البصرية ، ويدعى الفنان الأخير ان الفنون المعنوية أو السمعية .
- ٣ — وتستعين الفنون جميعاً في اظهار الجميل بوسائط مادية : اللون ، والرخام ، والحجر ، كما تستخدم الموسيقى الصوت ، ويستخدم الأدب الكلمة ، فاذا ما دعيت الموسيقى فن الصوت ، دعى الأدب فن الكلمة .
- ٤ — والأنواع الخمسة تؤلف مجتمعة ما يسمى " الفن " دون غير ذلك من الأسماء ، فقطعة أدبية ، وقصر مشيد ، ولوحة فذة ، ولحن رائع ، لأشخاص مشهورين في كل نوع من هذه الأنواع ، هي الأعمال الفنية التي تعد أسمى وأنبل وأتقى مقدرة للروح الانسانية ، الشاعر والمصور والمثال عظماء حقاً ، يبدعون الشعر والصورة والتمثال لرغبتهم في ابداع الجميل والمفيد ، ولأن في قرارة أرواحهم من العظمة والسمو لا يمكن الدلالة عليه بخير من هذا الصنيع . قال ليوناردو دافينشى : " كم من مصور خلد مثال الجمال الالهى ،

حين فنيتم سريعا وتبددت الأمثلة الطبيعية لذلك الجمال ، فظل عمل
المصور أقوم من طبيعته الموحية المعلمة .

هذا شيء من قول المحدثين عن الفن والفنون المختلفة ، وأهمية فن
الكلمة بينها ، وأما عن علاقة ما بين أقسام هذه الفنون المختلفة ، فمن
قولهم في ذلك :

١ — ان ثلاثة الفنون التجسيمية بينها قرابة قوية ، وهى تتعاون وتشترك
فى الحياة ، فالتصوير والنحت يزيان ويكملان المآثر التى يخرجهما
فن العمارة .

٢ — وكذلك الموسيقى والأدب فلان شقيقان ، ولدا فى وقت واحد ،
وكانا قديما متحدين . . . ويذكرون هنا مظاهر هذا الاتحاد فى حياة
القدماء من اليونانيين والرومان ، وحياة مختلف الأمم الغربية ففى
المصور الوسطى ، وهو من وادى ما يقوله ابن خلدون : من أن
الفناء فى الصدر الأول كان من أجزاء الأدب ، وكان الكتاب والفضلاء
يأخذون أنفسهم به ، وحرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه .
وهكذا يبدو فن القول ، أو فن الكلمة ، بين مجموعة الفنون
الجميلة صنوا للموسيقى ، وشقيقا لفن الصوت .

ويعلق الأستاذ الخولى على كل ما تقدم به ديا وجهة نظره فيقول :
" أفلا تتون هذه الصورة للبلاغة ، أنصرف وجهها ، وأبهى قسما ، من
تلك الصورة التى عرضها حديث الأقدمين عنها فى رسوم وتقسيمات رفضوا
بها الرسوم الأدبية وعدوها واهية ، ليقيموا مكانها قولهم فى المطابقة
والقتضى ، وليحدثوا عن التعميد المعنوى ، والخطأ فى تأديسة

(١)

المعنى المراد ، دون طموح الى شئ وراء ذلك ؟ أحسب أن نعم .

نظرة أخيرة :-

=====

نفهم من كلام الأستاذ الخولى السابق أن المحدثين من الفريسيين كانوا أقرب الى السهولة والتيسير ، وأبعد عن التعقيد والجدل ، فى تصويرهم للبلاغة وأنهم اعتبروا البلاغة من الفنون الجميلة التى تقوم على الذوق والحص والجمال .

كما نفهم أن هذا الحكم انما اعتبره الأستاذ بناء على الموازنة التى قام بها بين ما قاله المحدثون ، وبين آخر ما استقر عليه الأمر وثبت ، وهو متن التلخيص وما تبعه من شروح كبيرة ومختصرة وهوامش .

ولو أن الأستاذ الخولى - مع احترامى لمقله وعلمه - رجع الى وراء قليلا ، الى ما قبل السكاكى ومتن التلخيص ، لوجد صورة البلاغة عند القدماء - فردية وتركيبية - لا تختلف كثيرا عنها عند المحدثين .

فأبو هلال العسكري - مثلا - لم يقسم البلاغة الى علومها الثلاثة ، ولم يتعرض للحال ومقتضاه كما تعرض له شراح التلخيص ، ولم يقتصر فى بحثه البلاغى على الجملة والجملتين فقط ، وانما كان - كالمحدثين - أقرب الى السهولة وأبعد عن التعقيد ، وقد قال كلاما يشبه قول المحدثين الى حد كبير ، من ذلك قوله : ان صاحب العربية " اذا لم يفرق بين كلام جيد

وآخر ردي ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، وشعر نادر وآخر بارد ، بان جهله
وظهر نقصه " . . . وأنه " . . . اذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشئ رسالة
وقد فاتته هذا العلم — أى البلاغة — مزج الصفو بالكدر ، واستعمل الوحش
العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للمعاقل . . . لما فاتته هذا
العلم ، وتخلف عن هذا الفن " (١)

وهذه الكلمة الأخيرة (تخلف عن هذا الفن) الا عوحى بان العسكرى
كان يعتبر البلاغة (فنا) ؟ ويؤكد ذلك قوله عن البلاغة أنها : " كل
ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتتمكن فى نفسه كتمكنه فى نفسك ، مع صورة
مقبولة ومعرض حسن " (٢)

" وكان عبد القاهر الجرجاني يرى البلاغة والأدب فنا كالتصوير والنقش
فيقول : " وانما سبيل هذه المعانى سبيل الأصباغ التى تعمل منها الصور
والنقوش ، فكما أنك ترى الرجل قد تهدى فى الأصباغ التى عمل منها الصورة
والنقش فى ثوبه الذى نسج الى ضرب من التخيير والتدبير فى أنفس الأصباغ
وفى مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبها اياها الى ما لم يتهد اليه
صاحبه ، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب ، كذلك حال
الشعر والشاعر " (٣)

١ — الصناعتين ص ٨ و ٩ .

٢ — الصناعتين ص ١٦ .

٣ — دلائل الإعجاز ص ٧٠ .

ومن قبل المسكرى وعبد القاهر •• كان الجاحظ يقول عن الشعراء :

" صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير " • (١)

بل ان المسكاكى نفسه — الذى أقام الأستاذ الخولى الموازنة بين
القديم والحديث على أساس كتابه الذى استقر عليه المروثت — كانت
له لمحات فنية من حين لآخر ، مثل قوله عن التشبيه : " وان الانسان
اذا مهر فيه ملك زمام التدرب فى فنون السحر البيانى " • (٢) • فاعتبر
البيان فنا له جماله وسحره •

بل ان الأستاذ الخولى نفسه ذكر أثناء حديثه عن الموسيقى والأدب
وأتهما شقيقان •• ذكر أن هذا " من وادى ما يقوله ابن خلدون من أن الغناء
فى الصدر الأول كان من أجزاء الأدب ، وكان الكتاب والفضاء يأخذون
أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه " • (٣)

وعلى هذا فان لى نظرة أخرى فى صورة البلاغة عند القدماء ، نظرة
تخالف نظرة الأستاذ الخولى التى اعتمد فى استخراجها على المدرسة
الكلامية فى البلاغة التى شاعت واستقرت بعد القرن السادس الهجرى فجاءت
صورة البلاغة معروقة الوجه شاحبة بادية العظام يسيرة الحظ من
الحيوية والنضرة •

١ — الحيوان ج ٣ ص ٤١ •

٢ — المفتاح ص ١٥٧ •

٣ — فن القول ص ٤٥ •

أما نظرتى الى صورة البلاغة عند القدماء فانى أعتد فى استخراجها وتكوينها على المدرسة الأدبية التى عاشت وانتعشت فى عهد الازدهار وكان من أعلامها :
المسكرى وعبد القاهر وابن المعتز وكذلك الجاحظ — رغم أنه — من
أعلام المتكلمين — هؤلاء الأعلام الذين أعطوا البلاغة العذوبة والحسن
والجمال . ولذلك فان صورة البلاغة التى أراها عند هؤلاء صورة وجه يشع
بالبهاء والحسن وقوام مياس يهوى بالحيوية والنضرة . ولا أذهب بعيدا
إذا ما قلت : ان المحدثين من الغربيين اطلعوا على صورة البلاغة العربية
فى عهد المدرسة الأدبية فتأثروا بها وكتبوا على ضوءها .

ولكن .. احقاقا للحق .. أعود فأقول : لابد من التسليم بأن الأستاذ
الخولى صحيح النظرة صائب الحكم .. فان الصورة الحالية للبلاغة العربية
هى الصورة التى أنتجتها المدرسة الكلامية والتى ما زالت منذ القرن السادس
الهجرى شائعة ومستقرة فى مدارسنا ومعاهدنا وكلياتنا حتى اليوم .. وهذه
الصورة الباقية لدينا والمستعملة فى دراستنا للبلاغة هى التى يجب أن تهتم
الموازنة بينها وبين صورة البلاغة عند المحدثين كما فعل الأستاذ الخولى ..

فقط أردت أن أقول : ان المحدثين ليسوا أفضل منا وأننا لو عدنا
الى تراثنا لوجدنا صورة البلاغة المشرقة التى يعرضها المحدثون .

بل ليس من المستبعد أن يكونوا أخذوا الخطوط الأصلية لصورة بلاغتهم
من تراثنا .. بينما وقفنا نحن ازاء هذا التراث جامدين لا نعرف كيف
نستفيد منه ..

ثانيا : دائرة بحث البلاغة

=====

يرى الأستاذ الخولى أن أول التجديد قتل القديم بحثا ، ولا شك أن القارنة بين القديم والجديد يزيدنا قدرة على القبول والرفض ، ومعد أن عرفنا صورة البلاغة عند كل من القدماء والمحدثين ، فانه من المفيد أن نعرف كذلك أفق البحث البلاغى ودائرته عند كل منهما .

ولذلك فان هذا الفصل يدور حول :

- ١ — دائرة البحث البلاغى عند القدماء .
- ٢ — دائرة البحث البلاغى عند المحدثين .

دائرة البحث البلاغى عند القدماء : —

=====

المصادر التى اعتمد عليها الأستاذ الخولى فى هذا البحث هى أيضا شروح التلخيص التى اعتمد عليها فى البحث السابق ، لأنها التى استقر عليها الأمر وثبت — كما أوضحنا من قبل — ومن هذه المصادر نجد أن القدماء قد ضبطوا أبحاث البلاغة بأنها : مقدمة وثلاثة فنون .

وقد عللوا هذا الانحصار بأن المذكور اما من قبيل المقاصد فى هذا الفن أو لا ، الثانى : أى ما ليس من المقاصد فى البلاغة هو المقدمة ، والأول : أى ما هو من المقاصد فى البلاغة ، ان كان الفرض منه الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد فهو الأول — أى المعانى

٧ - الفصل والوصل

٨ - الایجاز والاطناب والمساواة •

ومینوا وجه انضباطه عقلا بهذه الأبواب دون غيرها ، بأن الكلام اما خبر
أو انشاء لا محالة • والخبر لابد له من مسند اليه ومسند واسناد ،
والمسند قد يكون له متعلقات اذا كان فعلا أو فى معناه ، وكل
من الاسناد والتعلق اما بقصر أو بغير قصر ، وكل جملة قرنت بأخرى اما
معطوفة عليها أو غير معطوفة • والكلام البليغ اما زائد على أصل المراد
لفائدة أو غير زائد •

هذا هو الوجه العقلى لانحصار علم المعانى فى هذه الأبواب الثمانية
وان كانوا يوهنون قوة هذا الوجه ، ان يلاحظون : أن ما ذكر من القصر ،
والفصل والوصل ، والایجاز ومقابلیه ، انما هو من أحوال الجملة ، مثل
التأكيد والتقديم والتأخير وغير ذلك ، ولا يردون على هذا التوهين بأكثر
من أن هذه الأبواب من القصر والفصل والایجاز • الخ ، انما أفردت
بأبواب خاصة لكثرة تشعبها وصعوبة أمرها بكثرة مباحثها • (١) •

وفى كل فقد انحصر العلم أخيرا فى هذه الأبواب الثمانية ، سواء أكان
الملحظ فى هذا الحصر قويا ملزما ، أم كان ضعيفا اعتباريا •

وعرفوا علم البيان بأنه : علم يعرف به ايراد المعنى الواحد
— المدلول عليه بكلام مطابق لقتضى الحال — بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة
عليه . ثم حصروا أبحاث هذا العلم فى أبواب ثلاثة معينة كذلك ، هـ
التشبيه والمجاز والكتابة — وصلوا الى هذا الحصر من ملحظ عقلى ، أخذوه —
من مسألة قدموها بين يدى البحث فى علم البيان ، وهى مسألة الدلالات ،
التي تطرقوا اليها من ورود الدلالة فى تعريف العلم ، عند قولهم : "
طرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه " .. فوصلوا الى هذا الحصر بقولهم :
ان ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة — كما فى تعريف البيان — انما
يتأتى بدلالاتى التضمن والالتزام ، لا بدلالة المطابقة ، ولفظ كل —
دلالتي التضمن والالتزام ، ان قامت القرينة على عدم ارادة ما وضع له منه ،
فالمجاز ، وان لم تقم القرينة على ارادة ما وضع له منه ، فالكناية .. الى
هنا خرجوا ببحثى المجاز والكناية ... ثم لا حظوا أن من المجاز ما يبنى على
التشبيه وهو الاستعارة ، ثم لما كان فى التشبيه مباحث كثيرة وفوائد
جمة ، لم يجعل مقدمة لبحث الاستعارة ، بل جعل مقصدا برأسه . (١)

وهذا كملت البلاغة ، وبقي البديع تابعا لها ، يعنى بوجوه أخرى
تورث الكلام حسنا وقبولا ، بعد رعاية مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة
عليه .

وقد حصروا — كما دت هم — باعتبار ما ، أبحاث البديع ، فجعلوا
وجوه تحسين الكلام ضربين : معنوى راجع الى تحسين المعنى أولا وبالذات ،

وان كان قد يفيد بعضها تحسين اللفظ أيضا ، كما في المشاكلة التي هي :
ذكر شيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبتة ، فان الفرض فيها معنوى وان صحبه
حسن اللفظ لما فيه من ايها المجانسة • والضرب الثاني : لفظى
راجع الى تحسين اللفظ أولا وبالذات ، وان كان قد يفيد تحسين المعنى
أيضا ، لأنه كلما عبر عن معنى بلفظ حسن استحسنت معناه ، وان شئت
قلت كذلك فى التحسين المعنوى أيضا : انه يتبعه تحسين اللفظ دائما ،
لأنه كلما أفيد باللفظ معنى حسن ، تبعه حسن اللفظ الدال عليه • (١)

هذه هي دائرة البحث عند القدماء • ولو نظرنا نظرة شاملة الى هذه
الدائرة وتحديد ها لوجدنا ما يأتى :

١ - أن دائرة بحث هذه البلاغة مقصورة على الجملة : كما رأينا
هذا فيما مضى من صورتها ، ومن قولهم فى ضبط موضوعات البحث وتحديد سده ،
سواء فى ذلك علم المعانى أو البيان ، فالأول يبحث فى أجزاء الجملة ،
أو فى جملة ترتبط بأخرى ، وأبواب البيان الثلاثة - التشبيه والجاز والكناية
لا تتجاوز ذلك فى حقيقة الأمر ، وان جاوزته فالى مكملات الجملة ، أو الى
جمل تعدى معنى واحدا وتجتمع فى جملة ، كالذى ترى فى آية تمثيل الحياة
الدنيا - يونس ٢٣ - (٢) فانها تشبيه تمثيل شمل عشر جمل ، ولكنها
جميعا تكمل معنى يجتمع فى جملة واحدة •

١ - شرح التلخيص ٤ : ٢٨٥ •

٢ - قوله تعالى : " انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط

به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا =

ب- أن دائرة بحث هذه البلاغة محدودة بالألفاظ : فلم
المعاني : يعرف به أحوال اللفظ العرس ٠٠٠٠ ، والبيان : علم
يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق تعبير مختلفة ٠٠ الخ ، والبديع :
تحسين تابع لهما . وأما العنصر الثانى من عناصر الأدب وفن الكلمة ، وهو
المعاني ، — مهم : يكن الرأى فى أمر الألفاظ والمعاني — فان البلاغيين
لا يعرضون له بالبحث الخاص ولا تسمع لهم قولا مفردا فى شأن من شئونه .

تلك ملا حظة عامة على تحديد هم للبحث البلاغى ، وسنرى أولئك
الباحثين الآخرين فى البلاغة لا يتكفون فى تنظيمها الضابط النظرى الذى
يرد الأبحاث الى كيت وكيت ، وانما يردون ذلك الى حاجة العمل الأدبى
وطبيعة الفن القولى . (١)

دائرة البحث البلاغى عند المحدثين : —

=====

وهى دائرة تحددها عندهم طبيعة العمل الأدبى ، والأدوار التى
يمر بها ذلك العمل ، والمراحل التى يشمر قارئ القول الفنى أن مهدمه قد
قطعها ، حتى انتهى الى اخراج ذلك الأثر وتقديمه لقارئه .

أخذت الأرض زخرفها وأزمنت وطن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها
أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تكن بالأمس كذلك
نفصل الآيات لقوم يتفكرون .

١ — انظر دائرة بحث البلاغة عند القدماء ص ٤٧ — ٥٣ فن القول .

الأيجاد ، والترتيب ، والتعبيير تلك هي المراحل
الثلاثة التي يدور الدرس المحدث في فن القول عليها ، وتتحدد بها دائرة
بحثه ، وهي ما يدرك كل قارئ متأمل أن كل متفنن قد مر بها لا محالة
حتى أنجز عمله الأدبي .

أجل . . كل متفنن يمر بتلك الأدوار ، سواء في ذلك المروى صاحب
الحوليات ، يعطى كل جانب من هاتيك الجوانب حظه من العناية ، فيترسث
حتى يوجد من الأفكار والاحساسات والأخيلة كل ما يتصل بموضوعه ويلائمه ،
ثم يتأنى في ترتيب ذلك وتأليف صورته ، واضعا كل خط وإشارة منها في مكانه ،
فاذا ما عبر عن ذلك كله ، محققا وأثبت ، وتخير وتنوق ، فمر بتلك الأدوار متميز
الخطا متمهلا . وقد يمر بها آخر على غير هذه الصفات كلها ، فهو
عجل متسرع ، يكتب أول ما يتبادر له من الخواطر والمعاني ، ويخرج ما يلوح
له من الصور ، في غير دقة ولا تمييز ، ويعبر بما يسبق الى قلمه أو لسانه
في غير تدقيق ولا تخير ، فيمر بتلك الأدوار معجلا مرتبكا ، متداخلا الخطا ،
قاصرا النظرة ، سطحى الفن .

اذن . . تلك الأدوار الثلاثة هي خطوات العمل الفني ، سواء أُمِر
بها المتفنن متعجلا مقصرا ، أم متأنبا متريثا ، طمها مستوحيا ، أو متدبرا
متفكرا .

ثم هم ينظرون في تفاصيل هذه الخطوات وما تقوم به ، فيدركون في ذلك
جوانب دقيقة ، بعضها مما لم نعرض له ذلك العرض الفاحص للعمل الفني
وهي حركات نفسية وعقلية وعملية .
فهم يرون أن " الأيجاد " وهو ظفريا أفكارا واحساسات وأخيلة ،

يقوم على أشياء ، منها : الارادة ، والملاحظة ، والقراءة ، والتأمل ،
والاخلاص ... الخ .

ولنقف عند كل واحد من تلك الأشياء وقفة قصيرة .

الارادة :-

=====

في العمل الأدبي ، لابد قبل كل شيء من الارادة ، لأنها شرط
أول لكل عمل ، والعمل الفني في حقيقته نفسى داخلى ، يقوم على الوجدان
المواتى ، ويتولى الترجمة عما تجده النفس ، ومثل هذا لا يتحقق من
شيء اذا لم يقم على ارادة صادقة دافعة قوية .

والعمل الفني انما ينجح ويتم بقدر ما يتم له من الارادة الدافعة ، فان
لم تكن تلك الارادة موفورة ، فليس الا الاضطراب والتخاذل والجهد الذى لا
يجدى ولا يفيد .

ومهما يكن الرأى الفلسفى فى حرية الارادة وجبريتها ، فان الفن لا يكون
فنا جديرا بهذا الاسم الا اذا انبعث عن ارادة طليقة ، تعبر عما تجد النفس
من وقع الأشياء حسنا وقبحا ، ومقدر ما تفقد الارادة من تلك الطلاقة يفقد الفن
من قيمته .

الملاحظة :-

=====

اذا وجدت الارادة ، وصح المزم على أن تكون متفنا ، فقد حق عليك
أن تكون يقظا كل اليقظة لوقع الأشياء على وجدانك ، لتكسب بذلك مادة الفن ،
فتكون ملاحظتك لما حولك من أشخاص وأشياء وأحداث وو ... هى الطريق الواضحة

والسبيل الميسرة لاكتساب المعاني الأدبية . . وما أصدق الذين يقولون :
اننا نقوم كل حين بما هو طريق لكسب المعرفة بالأشياء ، ولا ينقصنا الا الاستفادة
المنتبهة لذلك .

نعم . . فان حواسنا لا تستريح أبدا ، بل تلقاها دائما أضواء واللوان
وبرائح وطعوم وأصوات وحركات ، تملأ يقظتنا ، وتترامى في نومنا ، لكننا
لا ندرك في وضوح الا قليلا منها ، ولا نذكر الا أقواها وألذها ، وأقل
من القليل منها ما يبدو واضحا في أذهاننا ، وما نتذكره عند الحاجة اليه ،
حينما يصبح موضوع عملنا الأدبي ومادته .

وهكذا تكون الملاحظة والنظرة الدقيقة أقرب سهل الایجاد الأدبي
المستقل غير المقلد ، بل المبتكر الخلاق ، اذا أحسن الانتفاع بما نلاحظه .

القراءة :-

=====

اذا كانت الملاحظة تعرفنا ما حولنا من الكون الذى تناله حواسنا ،
فان وراء ذلك من أنحاء الدنيا ما لا تناله تلك الحواس ، واذا كتبنا الملاحظة
نتعرف عصرنا في الحياة ، فقبل ذلك عصور وعصور حوت من الحقائق ما نحتاج
الى معرفته ، واذا ما كانت الملاحظة تقتضيها مقدرة خاصة على التفهم والتمعن
فان لنا قبل احراز هذه المقدرة أن نستعين بما عرف الآخرون قبلنا وحولنا
وكذلك تعرض علينا القراءة كل ما لا تنيله ايانا الملاحظة .

وتعد القراءة بحق من أهم طرق الایجاد الأدبي ، ومقومة فعاليتها
للطرائق الأخرى من طرق الایجاد ، تسدها وتزيدها عقا .

وجلّى أن القراءة التى تحقق هذه الغاية ، إنما هى القراءة العميقة ،
المسايرة للكاتب مسايرة تستشف خواطره وحركات نفسه ، لا تلكم القراءة التى
تعبر جملته وأسطره •

التأمل :-

=====

إذا كانت الإرادة هى التهيؤ النفسى لكسب المعانى الأدبية ، وعنهما
تبعث الملاحظة مظاهر الوجود حولنا ، ثم تمدنا القراءة بما عدا ذلك
زمانا ومكانا ، فذلك كله ليس إلا أيسر الأيجاد وأقربه • ووراء ذلك ما هو
أعمق وأقوم من كل أولئك ، أنه به يكتسب العمل الفنى قوته وقدرته على
الحياة ، بل صلاحيته للخطود • • ذلكم هو التأمل والتمعن ، الذى يفضى
الى ما وراء الظواهر المدركة بالملاحظة ، ويذهب الى اللباب ، وينال
الصميم ، ويفسر مظاهر الوجود ، وظواهر الحوادث ، وسطات الأشخاص • •
وهكذا تكون الملاحظة ادراكا خارجيا ، والتأمل استبطانا داخليا واستشفافا
روحيا • • وما أكثر الذين يقصّون أو يصفون أو يشبهون أو يتخيلون ، فلا
يعدون المظاهر المادية ، والأشكال الخارجية ، والحجوم والألوان والمقادير ،
ويعطون فى ذلك ما يحكى الحديث التعليل عن الأشياء ، ولا يعمون شيئا
من تلك الأيحاء المعنوية ، ولا يفهمون شيئا من دلالة الماديات على المعانى ،
ولا يعمون شيئا من واقع الألوان والأوضاع والأقدار ، إلا ما يعيه من يكسب
ويزن ، ويبع ويبتاع ، لا من يستوحى ويستشف ، ويجد ويشعر ، ويتذوق
ويتلقى ، ويسمى ويفهم ، ويترجم ويعبر ويفسر ، ويلقى النفوس الانسانية
الشفافة بما تحب وتريد التعبير عنه •

ويذكر المحدثون سوى ذلك أمورا أخرى معينة على الإيجاد ، وصينة لهم ، حسبنا منها ما وصفناه في شيء من الأجمال يدلك على روح بحثهم في هذه الخطا .

ويذكر المحدثون في دائرة بحثهم البلاغى الخطوة الثانية بعد الإيجاد وهى : " الترتيب " ويذكرون لها مثل تلك الأعمال ، وهاتيك الخطوات التى ذكرنا فى الإيجاد ، فيتحدثون عن : الاختيار والنظام والوضوح . . وما السبب ذلك ، وهى خطوات نتولاها بالشرح حين يستقر رأينا على خطتنا فى الدرس البلاغى ، والمنهج الذى نختاره له ، والموضوعات التى نتصدى لها .

فإذا كانت الخطوة الثالثة — وهى : التعبير — عرضا للبحث فى : الفصاحة أو الإبانة ، ثم الصور البيانية ، ثم صنوف الأساليب . وتحت كل واحدة من هذه النواحي الكبرى أبحاث جزئية نسوق شيئا منها .

ففى الفصاحة والإبانة — : —

=====

يتحدثون عن : الوضوح ، والمطابقة ، والتناسق ، والطلاوة ، ويذكرون الآراء والمذاهب الأدبية فى ذلك . . كما يتحدثون عن أحوال الكلمة من حيث أثرها فى الفن القولى ، وما ينبغى أن يلاحظه الأديب فى تلك الأحوال ، فيبحثون فى العامى والدخيل والمهمل والملحون والمستحدث وما إلى ذلك من أعراض حياة الكلمات ، إلى جانب حديثهم عن اللفظة واللهجات .

وفى الصورة البيانية — : —

===== يلмон بكثير من المصطلحات التى

عرفها بياننا ، فى اتجاه فنى أدبى ، يلائم ما عرفنا من ميلهم فى هذا البحث ،

فيذكرون مثلاً : المجاز المرسل اللغوي ، والمجاز العقلي الاسنادي ، —
والاستعارة ، والكناية . . الخ ، ويذكرون من ذلك تفاصيل قد تلتقى مع
ما نعرفه منها في أصله ، وان اختلف التناول ولون البحث .

وفي أوضاع القول وصنوف الأساليب :

=====

يعرضون للبحث في النثر والشعر وخصائصهما ، والفنون المختلفة لكل من
النثر والشعر ، كالنثر القصصى ، والخطابى ، والايضاحى ، والشعر
الحماسى ، والفنائى ، والتعليقى ، والدرامى . . الخ .

ومن هذا وما مثله نجد تخطيطهم للعام للبلاغة فى اجمال هــو :

١ — قد مات عن فن القول بين الفنون ، وتقسيم درس البلاغة على حسب
طبيعة العمل الأدبى .

٢ — بحث خطوات العمل الأدبى من ايجاد وترتيب وتعبير ، حتى تكون
الخطوة الأخيرة وهى التعبير ، فيزيدونها اهتماماً .

٣ — بحث الكلمة ، وصور البيان ، وفنون القول ، ثم الأساليب . . . فاذا
البلاغة عندهم بخاصة وبعمامة هــى :

درس الأساليب ، أو هـى : علم الأسلوب .

تلك دائرة البحث البلاغى عندهم ، نستطيع بالموازنة بينهم —

ومين ما عند قومنا أن نتبين نواحي الفرق . . ولعل أول ما نلاحظه فى هذا
البحث ودائرته . . أنه : —

* لا يقف عند الجملة ، بل يتصل بالعمل الفنى الأدبى كله ، وينظر
فى فنون القول وأوضاعه نثراً وشعراً ، وفى الأساليب المختلفة ، بل

يعد البلاغة علم أسلوب .

* لا يقف عند بحث الألفاظ ، بل يبحثون عن الإيجاد وطرائقه ، والترتيب
وخطواته ، كما ينظرون في الفنون الأدبية نظرة تعنى بالمعاني حيــــن
تنظر إلى الألفاظ .

وهذا ندرك اختلاف حدود البحث البلاغي عند الأقدمين والمحدثين
اختلافا جوهريا ، ننظر بعده في أمونا ، وما يمكن أن نفعله على هدى
هذا البيان ، ثم على هدى ملاحظة أننا انما نعلم البلاغة لنصل إلى
غاية أدبية . . . هذا ولا شك أن هذه المقارنات تزيدنا بصرا بما تحتاج
إليه بلافتنا من زيادة عليها ، أو استغناء عن شيء منها . (١)

ومعد هذه الجولة في الموازنة بيــــن :

- ١ - صورة البلاغة عندنا وعند المحدثين .
- ب - دائرة البحث البلاغي " " "

نأتي إلى القسم الثالث من هذه الدراسة المقارنة وهــــي :-

١ - فن القول : ص ٥٣ - ٦٣ بتصرف . دائرة البحث المحدث
وقد اهتم الأستاذ الخولي في دائرة البحث المحدث على كتاب الأسلوب
الإيطالي للباريني

ثالثا : منهج درس البلاغة

عند القدماء والمحدثين

=====

١ - منهج القدماء : (١)

=====

الواقع ان الأستاذ الخولى فى هذا القسم من البحث أفاض وأفاض فى الحديث عن البيئات البلاغية وأثرها فى المناهج التى اتبعت فى دراسة البلاغة العربية ، وقد صال وجال وتفرع واستطرد .. وتحدث عن الدراسات الاصطلاحية ومتى بدأت ، والشعرية وأثرها ، والحالة الاجتماعية وأثرها فى اللغة والأسباب والمسببات لكل ذلك .. حتى لتكاد تضل وأنت تلاحقه .. ولكننا هنا سنحاول بعد القراءة الشاملة والفحص الدقيق أن نقدم الخلاصة الشافية اللازمة لنا فى بحثنا وندع ما عدا ذلك .

ومنهج القدماء فى البلاغة يستبين ويتضح اذا استحضرنما ما ذكرناه سابقا من أن البلاغة العربية نمت فى أحضان مدرستين كان لكل منهما طابعه الخاص فى البحث والدراسة وهـ

الأولى : المدرسة الكلامية .

والثانية : المدرسة الأدبية .

وهاتان المدرستان أشار إليهما صاحب الصناعتين فى قوله : " وليس الغرض فى هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وإنما قصدت فيه مقصد صنّاع

الكلام من الشعراء والكتاب . (١)

وجاء السيوطى بعد ذلك فسمى الأولى بلاغة المعجم ، وسمى الثانية بلاغة العرب والبلغاء ، وذلك حين ترجم لنفسه قائلا : " ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة المعجم وأهل الفلسفة " . (٢)

والواقع أن وجود هاتين المدرستين فى حياة البلاغة العربية كان نتيجة وجود بيئات وعناصر مختلفة دخلت ميدان البحث البلاغى — من ذلك :

١ — المتكلمون —

===== أصحاب الصناعة اللاهوتية ، فى بحثهم للقرآن من حيث اعجازه وإيجازه وفهم العقائد منه وما إلى ذلك من مباحثهم .. والمتكلمون — كما نعرف — مهمتهم جدلية برهانية ، تقوم على الاستدلال ، وتبتغى الإثبات ، وتناظر مخالفيهم وخصوماً ، وقد استعانوا عليها بالأبحاث الفلسفية ، وتسلاحوا لها بالمنطق وصاغوا عليه مباحثهم .. مثل هؤلاء ان عرضوا لشيء من القول فى الفن الأدبى ، كان تعرضهم له على أساس درسه ، ومنهج تناولهم المنطقى الاستدلالى ، النظرى الجدلى ، العقلى التحديدى .

وهكذا ندرك أن هذه البيئة الكلامية ترجح جانب المنهج النظرى

العقلى الفلسفى بعيداً عن روح العمل الفنى .

١ — الصناعيتين ص ٨ ط الاستانة .

٢ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ١ ص ١٥٥ .

٢ — الأصوليون :

===== أصحاب الصناعة القانونية فى فهمهم للشرع الاسلامى من القرآن ، واستخراج أصول التشريع من عباراته . وهم يقدمون بين يدى عملهم فى أصول الفقه مقدمة واسعة الرحاب يسمونها المبادئ اللغوية ، يلمون فيها بأبحاث لغوية ، صرفية ، اشتقاقية ، نحوية ، بيانية . . . ومن حيث الناحية البلاغية بخاصة ، فان هؤلاء الأصوليين قد عرضوا فى مبادئهم اللغوية ، للبحث فى الحقيقة والمجاز والتشبيه والكناية وما الى ذلك من أبحاث علمى البيان . . . كما تحدثوا عن أشياء مما يتصل ببحث أجزاء الجملة فى علم المعانى ، وفى حديثهم عن المصنوع والخصوص ، عرضوا للتفكير والتعريف ، واستفراق المفرد ، واستفراق الجمع ، والحصص ، ونحوه . . . كما تحدثوا عما يمت الى هذه المباحث اللفظية بصلة قوية من القول فى الترادف ، والاشتراك ، والتواطؤ . . . وليس هذا فحسب بل ان تعرضهم للمسائل البلاغية . . . من المعانى والبيان ، قد انتهى بهم الى تناول نواح لم يستوفها أصحاب البلاغة أنفسهم ، من نحو كلامهم فى الجمع بين الحقيقة والمجاز ، وعموم المجاز ، وأن المجاز أولى من الاشتراك ، وأن للمجاز أمارات يستدل بها عليه ، الى جانب قولهم فى علاقات المجاز . . . الخ .

وتلك الأبحاث البلاغية فى المدرسة الأصولية ، هى التى جعلت السكاكى يشير الى استئثار علم أصول الفقه ، بأبحاث علمى المعانى والبيان ، ويقول : بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه ، لترى من أى علم هى ؟ وممن يتولاها ؟ (١) .

وهؤلاء الأصوليون انما غايتهم من هذا الدرس كله أن يخذلوا الجانب
العقلى من الاجتهاد فى استخراج الأحكام ، واستعمال القياس فى ذلك ،
على أساس من التنظيم المنطقى فى هذا الاستنباط ، وذلك القياس ، فهم
أدنى الى الأسلوب العقلى المنطقى ، يلونون به مباحثهم ، ويستمدون
منه نظراتهم ، ويتضح ذلك جليا فيما توسعوا فيه من أبحاث العلة فى
باب القياس .

كما أنهم الى جانب هذا تأثروا بالفلسفة فى نواح كثيرة ، اضطربهم
البحث الى تناولها والتعرض لها ، حين تحدثوا عن الحاكم ومن هو ؟
ونظروا الى القبح والحسن للأشياء والأفعال ، فكان هذا الاتصال بالمعانى
والأغراض الفلسفية عاملا قويا فى سيطرة المنهج العقلى النظرى ، وتحكم
الأسلوب المنطقى فى تفكيرهم ودراساتهم ، وهذا كله تأثر تناولهم للبلاغة
وأبحاثها ومسائلها ، وكانت بيئتهم بطبيعة عملها ، وما ثار فى جوهها ،
عاملا مرجحا للمنهج الاستدلالى العقلى فى درس البلاغة .

على أن هناك بيئة أخرى كان لها أثرها البالغ فى حياة البلاغة
المصرية وهى البيئة الأدبية التى حاولت أن تتخلص من تلك الناحية النظرية
فى دراسة البلاغة وقد تميزت هذه البيئة بمجافاتها للأحكام النظرية
وللعقلية المنطقية الاستدلالية التى جارت على العمل الفنى للبلاغة .
وأكثر هؤلاء من الكتاب الذين قيل عنهم منذ القدم : ان الكتاب دهاقين
الكلام ، وعرف عندهم من علم الأدب ما ليس عند غيرهم ، حتى قال الجاحظ :
" طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يحسن غريبه ، فرجعت
الى الأخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فمطقت على أبى عبيدة فوجدته
لا يتقن الا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر

بما أردت الا عند أدباء الكتاب ، كالحسن بن وهب ، ومحمد بن عبد الملك
الزيات * . (١)

والذى يعنىها هنا — والحديث عن منهج الدرس — أن عمل الكتاب
فى بحث البلاغة كان أبعد فى جملته عن المنزع النظرى والخطبة التعليمية ،
كما أن ثقافة هؤلاء الكتاب كانت فى جملتها أيضا ثقافة أدبية المـادة ،
فنية الاتجاه ، عملية الهدف . وذلك أنهم كانوا أقل اتصالا من غيرهم ،
ان لم يكونوا أبعد تماما ، عن البيئة الحكيمة النظرية ، والوجهة المنطقية
الفلسفية ، وكان علمهم دائما : اما مشجعا على منهج مخالف للمنهج
الفلسفى المنطقى الكلامى تماما ، أو مبعدا عنه بعدا مختلف النسبة ،
باختلاف الظروف والعوامل . فكانوا يعيدون المنهج الأدبى ، ويشجعونـه
فى صراعه مع المنهج العلمى النظرى .

ونتيجة لوجود هاتين البيئتين انقسم البحث البلاغى فى منهجه العلمى
مذهبين أو على حد قول المحدثين الى مدرستين :

الأولى : المدرسة الكلامية : ومنهجها نظرى عقلى منطقى فلسفى .
والثانية : المدرسة الأدبية : ومنهجها علمى فنى يعتمد على
الممارسة وكثرة الاتصال بالآثار
الأدبية .

بـ منهج المحدثين: (١)

=====

حين نتحدث عن منهج درس البلاغة عند غيرنا ، فبحسبنا أن نصف أسلوب الدرس البلاغي الذي يؤثره الغربيون جملة ، والطريقة التي بهـا يتناولون هذه الأبحاث ، ويعلمون هذه المادة الأدبية . ومن المعلوم أن اللغات الغربية تتصل بحياة أهلها اتصالا وثيقا ، وأن لفظة الحديث العادي هي لفظة الأدب المتأنق المتفنن ، هي هي في أصولها وجوهرها ، لا تفترق إلا بما يفرق بين الأساليب المختلفة من خصائص ومميزات ولا تتفاوت إلا بما تتفاوت به شخصية المتكلم وثقافته وأناقته ، والشخص هو الأسلوب ، أو الأسلوب هو الشخص .

وإذا ما كانت تلك منزلة لفتحهم في الحياة ، وصلة حياتهم باللفظة ، فإن من الطبيعي أن تعتمد طريقة تعليمهم على استعمال اللغة ومزاولة بها ، وممارسة التحدث بها مباشرة ، وتناول فنونها فعلا ، ويقصد المعلم والمعلم إلى غرض علمي مباشر ، غير نظري ولا علمي ، فلا اعتماد على الكتب والشروح ، ولا حاجة إلى القواعد والضوابط ، ولا عناية بالشرح والتقسيم والتفريع ، بل هي المعاطاة تكسب الملكة ، وتروض القوى ، وتلك كلها مقومات ما سميناه : المنهج الأدبي أو العلمي في دراسة البلاغة .

فإذا ما وضعنا في الاعتبار — بالإضافة إلى ما سبق — أن لديهم حركة ناهضة متجددة في شؤون التربية وطرائقها ، والنفس الانسانية ورياضتها ،

فقد آذن ذلك كله بأن نجد المنهج الأدبي في درس بلاغتهم واضح المعالم ،
متميز القسمات ، سليم الأساس • وكذلك نلح من ترتيب دراستهم لهذه
الأسلوبيات ، أو لعناصر الأدب ، مظاهر جليلة ، منها ما يأتي :

١ - الصلة الوثقى بين البلاغة والفنون :

فهم يضعون فن الكلمة الى جانب غيره من فنون النعمة واللون وسواهما ،
ويقدرون القرابة النسبية في تلك الاخوة المعقودة بين الأدب والموسيقى ،
الذين ينظرون اليهما على أنهما شقيقان .

ويحتاج الحديث في هذا الى الالهام بنواح للدرس : من علم الجمال
وأصوله ، وحقيقة الفن وشئونه ، بعضها تسعف عليه ثقافتهم الأدبية ،
ومعظمها يعرضون له في الدرس البلاغي ، فتجد لتلك الصلة بين البلاغة
والفنون آثارا واضحة في تنسيق أبحاثها ، وفي تناول مسائلها ، وتقريب
الآراء والأحكام فيها .

هذا وقد ذكر الباء من قبل في مثل هذه المناسبة ، ملاحظه مجدد
القاهر الجرجاني من تلامذة الشركة الفنية بين فن الكلمة وفن اللون " (١) وما ذكره
ابن خلدون من أن الغناء في الصدر الأول كان من أجزاء الأدب ، وكان
الكتاب والفضلاء يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه (٢) .

۱۔ دلائل الاعجاز ص ۷۰ •

٢ - فن القبول ص ٤٥ •

وعلى هذا فالصلة الوثقى — التى تحدث عنها الأستاذ الخولسمى —
بين البلاغة والفنون ، وكون البلاغة شقيقة الموسيقى ، ليست من بدع المحدثين
فقد سبقهم الى ذلك قدماءنا من أهل البلاغة والأدب ، أصحاب المدرسة
الأدبية قبل أن تطفئ عليها المدرسة الكلامية على نحو ما أشرنا من قبل .

٢ — تنسيق العناصر الأدبية : —

=====

فهم ينزلون البلاغة منزلها المشيد بين جوانب تلك الدراسة ، بحيث
يؤلف منها مجموعة متحدة الأسس ، متسقة الطابع ، لا نبوة فيها ولا جفوة ،
فلا تلمح فيها شيئا من التكلف أو التعمل ، يشعر في قوة أو ضعف ، أن
هذا الدرس البلاغى شئ يختلف فى كثير أو قليل عن غيره من مناحى الدراسة
الأدبية الناقدة المتدوقة المتفننة .

فمن ذلك فى توزيعهم الدرس ، وتناول مسأله ، أنهم — مثلا —
يصدرون القول بالبحث فى طبيعة الأدب وحدوده الى جانب الحديث عن
الفن والفنون ، ويبحثون عن الغاية من الأدب ، فيصلونها بالعمل البلاغى
وصلا وثيقا ، فاذا ما تناولوا الأبحاث البلاغية فانما يفعلون ذلك كله فى سبيل
تحقيق الغاية الأدبية . فالوضوح والتأثير هدف الدارس الذى يسعى اليه ،
فيحدث عن طرائق الايضاح ، ونقاء التعبير ، ويلم من أجل ذلك بالسوان
من النظر اللغوى والفنى ، تنتظم صنوفا من الحديث عن صور التعبير
التجزئية ، من حيث هى وسيلة لذلك ، لا من حيث هى قواعد ومباحث
تختبر فيها القوة المتعلمة ، وترتبط بمختلف المعارف الحكيمة . وفى هذا
البحث يلمون بأشياء مما هو عندنا من علم البيان ، وأشياء مما هو من البديع ،
فهو جلوة تلك الأضواء الأدبية الفنية الباهرة ، يتكلمون عن البليغ الفاخر

البارع ، ومظاهر تلك البراعة ، وهذا التفوق فى الشكل والصورة ، أو فى
المعنى والغرض ، فيصفون براعة الفكر وبراعة الإخراج فى مختلف الفنون
الأدبية .

ومن ذلك يكون البحث فى الأسلوب واللوان التأليف الأدبى المختلفة
وخصائصها ، وموازين تقديرها فنا فنا ، ولونا لونا . . . وذلك يبدأ البحث
البلاغى عن الكلمة المفردة ، وينتهى الى الأثر الأدبى كله ، فى ظلال
أدبية ، وتناول مشر ، وروح ذوق قوية ، لا يعوق شيئا من ذلك
قتام من صعوبة تحقيق لفظ ، أو تحديد اصطلاح ، أو ضبط منطقى
فلسفى لمعنى فى قوالب نظرية جدلية . (١)

وأقول : ان هذه الدراسة القارنة — التى قدمها الأستاذان
الخولى عن منهج البلاغة عندنا وعندهم — دراسة جيدة ، وهى لاشك
مجدية حين نعانى تطوير بلاغتنا وننظر فى تجديدها .

ولكن . . . لفت نظرى بشدة وأنا أعانى هذه القراءة وأدرس هذا
القول . . . أن لبه وأساسه موجود عندنا ومشهور فى تراثنا . . . ف (تنسيق
المناصر الأدبية تنسيقا ينزل البلاغة منزلها المشيد بين جوانب تلك الدراسة ،
ويؤلف منها مجموعة متحدة الأسس ، متسقة الطابع ، لا نبوة فيها ولا جفوة)
أمرورد فى المدرسة الأدبية ، حيث كانت البلاغة مختلطة بالنقد والأدب .

١ — فن القول ص ١٠٦ و ١٠٧ .

٢ — فن القول ص ١٠٦ .

وكانت البلاغة والنقد والأدب مجموعة متحدة الأسس ، متسقة الطابع —
لا نهوة فيها ولا جفوة •

وأما أنهم يلحون في هذا البحث (بأشياء مما هو عندنا من علم البيان ،
وأشياء مما هو من البديع — ويتكلمون عن البليغ الفاخر البارع ، ومظاهر تلك
البراعة ٠٠) (١)

فانه من الواضح أنهم يستميرون منا بعض بحوث بلاغتنا ويأخذون بعضاً
من البيان والبديع ٠٠٠٠ كما يقتبسون بعضاً من كلام قدامائنا عن براعة
البلغاء وقد رتهم ومظاهر تلك البراعة في تخير اللفظ المناسب للمعنى الحسن
أو (براعة الفكر وبراعة الإخراج) بتعبيرهم الحديث • ونظرة في تراثنا
نجد ذلك منشور هنا وهناك •• ففي صحيفة بشري المعتبر تقرأ — على
سبيل المثال — " فكل عين وغرة من الكلام لفظ شريف ومعنى بديع ،
والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين أفاذك ، ومن أراغ معني
كريما فليلتص له لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ٠٠٠٠ " •
ويقول أيضا : " وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها
وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك
كلاما ، ولكل حال منه مقاما ٠٠٠٠ " (٢) وتقرأ للجاحظ أيضا :
" وكلام الناس في طبقات ، كما أن الناس أنفسهم في طبقات ، فمن الكلام
الجزل والسخيف والطبع والحسن والقبيح والخفيف والثقيل ، وكله عرس ٠٠ " (٣)

١ — فن القول ص ١٠٧ •

٢ — راجع نص صحيفة بشر في البيان والتبيين ح ١ ص ١٠٤ — ١٠٧ • أو

المقدمة لابن رشيق ح ١ ص ٢١٢ — ٢١٤ •

٣ — البيان والتبيين ح ١ ص ١٤٤ •

ومن الملاحظ أن الجاحظ لم يختر في كتابته أسلوب التعريف والتحديد رغم أنه كان من أئمة المتكلمين ، وإنما اختار أسلوب الأديب البليغ الذي ينطلق مع عقله وذوقه وفطرته ، فكان يستعرض النصوص الأدبية ويشرحها مستهدفا الوصول إلى مواطن الجمال فيها .

وفي ذلك يقول الدكتور شوقي ضيف : (ان الجاحظ قد ألم في كتابته بالصورة البليغة المختلفة وكثير من فنون البديع ، غير أنه لم يمتد ذلك إلى تعريفات وتحديدات ، فقد كان مشغولا بإيراد النماذج البلاغية ، وقلما عني بتوضيح دلالة المثال على القاعدة البلاغية التي يقررها) . (١) وغير ذلك كثير في تراثنا لو ذهبنا نستقصيه .

أليس ذلك هو فرق ما بيننا وبينهم ؟ هم اعتمدوا الطريقة الأدبية أو المدرسة الأدبية وزادوا عليها ونقوا فيها ، ونحن تركناها إلى الطريقة الكلامية التي أدت بنا إلى طريق مسدود . فإذا جئنا اليوم واقتبسنا منهم بعض طرائقهم في بحث البلاغة ودرسها قلنا أن نقول : " هذه بضاعتنا ردت إلينا " .

ونعود إلى المظهر الثالث من منهج المحدثين :

٣ - ربط هذا الدرس بالثروة الأدبية للغة المدروسة :

=====

وهذا الربط لا ينتهى عند التزامهم ايراد الشاهد الفنى الأدبى ، دون صنع المثل الذى يساير القاعدة ، ويجارى الضابط . . ولا ينتهى عند اكتارهم من هذه الشواهد بل يعضى الى الوقفة الطويلة عند قطعة أدبية تورد بجملتها ، لينظر فيها نظرة متدقة ، يشارعنها الى مالصاحب هذه القطعة من روائع أدبية أخرى فى مثل هذا الصنيع ، من تشبيه خاص ، أو صورة تعبيرية موفقة . . وكذلك يمتد القول الى اشارات تاريخية تربط هذا الفن الأدبى فى اللغة المدروسة بأصوله فى الأدب أو الآداب التى كان لها تأثير واتصال بأدب تلك اللغة فأنت تجد مع الشاهد الأوربى الحديث أو المتوسط نظيره أو أصله اليونانى ، أو تقليد هذا اليونانى فى اللاتينية ، وما الى ذلك من بيان يطلو الفكرة الأدبية واضحة بتماسكها ، قوية بتكاملها ، قد بدت الفروق الزمنية فى حياتها ، وتمثلت مسايرتها للوجود ، وارتباطها بالحياة ، بعد ما لفتت الى ذلك الفكرة العامة عن طبيعة الأدب وغاياته ، وأعان عليه واقع اللغة فى الحياة وتحكمها فيها . (١)

ونفهم من هذا أن المحدثين يزدون عن مدرستنا الأدبية فى أنهم يوردون الأثر الأدبى بجملته ، ويضيفون اليه مالصاحب الأثر الأدبى من روائع أدبية أخرى ، وينظرون فى كل ذلك نظرة متدقة . . ولا يكتفون بذلك بل تمتد نظرهم الى اشارات تاريخية تربط هذا الفن الأدبى بنظيره أو بأصوله

ان وجدت في الآداب الأخرى التي كان لها صلة بتلك اللغة ٠٠ أى أنها دراسة مقارنة للقطعة الأدبية التي يوردونها في دراستهم البلاغية • وهى فى الحق طريقة مشبعة فى الدراسة الأدبية تملأ الدارس بالفهم العميق والنظرة الشاملة حبذا لو اتجهنا إليها وأدخلناها على دراستنا البلاغية ونحن بصدد تطويرها وتجديدها •

٤ — اقامة الدرس على أساس وجداني ذوقى :-

=====

فليس يبدأ القول فى العمل الفنى بتعريفه وتحديد هـ ، ولا بوصفه وعرضه ، ولا بسوق الأمثلة له ، وحمل السامع على استخراج عناصر القاعدة أو أجزاء الفكرة — وهذا هو ما يحدث فى خطة الدرس ومنهجهم عندنا حالياً — بل يعتمد الدرس على أصل عام فى التدريب على الفنون هـ وذلك الأصل هو : ايقاظ قوة الملاحظة الفنية والتنبيه الوجداني فى الدارس ، تنبيهه يجعله يشهد المثل الفنية هـ والصور الباهرة هـ التى جادت بها فطر موهوبة هـ وخلقتها نفوس حساسة صافية هـ يشهد بها المتكلم هـ ويلتفت منها الى ما تسعفه عليه فطرته هـ ويتنبه له وجدانه هـ وتستشفه موهبته ٠٠ فيبدأ بالتمييز والحكم لا بالتلقين والالزام •

وقد رأيتُم مثلاً لذلك فيما سبق من وصف صورة البلاغة عند الغربيين هـ وكيف يدعون الدارس يدرك وحده طبيعة الدرس البلاغى هـ بأن يعرضوا عليه قطعتين أدبيتين هما وصف لشيء واحد مثلاً هـ وقد صيغتا من كلمات واحدة هـ ليقدر ما به الفرق بينهما ٠٠ الخ •

كما رأيتهم يطلبون اليه التعبير عن معنى واحد بصور مختلفة هـ منها

صورة تكون آتق عنده وأحسن فى تقديره .
وهكذا يتأيد المنهج الفنى فى طريقة الدراسة نفسها ، بعد الذى تهيأ به
ذلك من صلة بالفنون الأخرى ، وتنسيق للأبحاث بين الدراسات الأدبية ،
وربط لها بالثروة الأدبية للغة المدروسة ، على نحو ما أشرنا إليه آنفاً ، فيألف
من ذلك منهج أدبى سليم غير مشوب .

رابعاً : غاية البلاغة .. أمس واليوم

=====

١ - غاية البلاغة عند القدماء :-

=====

يرى الأستاذ الخولى أن هناك قاعدة عامة تشمل غاية البلاغة فى كل أمة .
وهى أن : " غاية البلاغة فى أمة ، تتصل بنهاية تلك الأمة فى حياتها ،
وتتجه نحو هدف تلك الجماعة فى وجودها .. " وعلى هذا الأساس بحث
فى غاية البلاغة أمس واليوم ..

فى العصر الجاهلى كانت الحياة صراخاً مادياً عريانياً ، حماته مغاوير بهم ،
أو قاييل لسن ، تعتدهم القبيلة بعضاً تناضل به ، فتفرح بنهوض الشاعر
فيها ، وتحفل لذلك .. فى هذه الحياة الجاهلية كانت الاجادة القولية
والشوق الفنى ، يستغنى التماساً للفلج والغلب ، وكسباً للقوة التى هى
غاية الحياة حينئذ ، والباعث الأعظم على أعمال هذه الجماعة وأفرادها
وهذا كانت تلك القوة غاية البلاغة .

أما فى العصر الاسلامى فقد كانت الدعوة الاسلامية تدور على تلك المعجزة القولية ، وهى القرآن الكريم . . . كما يعتمد الكفاح بين المعسكر الاسلامى الجديد ، وما حوله من معسكرات قديمة على ما كان يعتمد عليه قبل ذلك من أسلحة وخطط : فللرسول شعراؤه ، ولخصومه شعراؤهم والمدح والهجاء بين الجانبين متصل ، فكان الفن القولى قوة فى الدعوة الدينية ، كما هو قوة فى النضال الدنيوى .

ومع انتصار الاسلام وانتشاره وتقدم الزمن ، صارت الغاية من البلاغية هى معرفة اعجاز القرآن الكريم . . . وان كان هناك غرض آخر ذكره أبو هلال العسكري (١) ، وهو معرفة الجيد من الردى فى الكلام ، والقدرة على صنع قصيدة أو انشاء رسالة . . . وهكذا نجد الغاية من البلاغة أسس عديدة قد ماثنا تراوحت بين : القوة ، ومعرفة الاعجاز ، وتمييز الجيد من الردى من الكلام وبالتالى القدرة على صنع كلام جيد شعرا أو نثرا . (٢)

ويهمنى هنا أن أذكر غرضا آخر ، كنت أحب ألا يفعله الأستاذ الخولى لأهميته ، فهو يتعلق بالناحية النفسية الوجدانية ، وهى ناحية أكثر حداثة المحدثين حولها ، واهتمامهم بها ، هذا الغرض أو تلك الغاية هى : الاتماع ، واثارة الطرب والاحساس بالجمال فى نفوس السامعين أو القارئین . . . وليس يغيب عنا ما كان يدور فى أسواق الجاهلية ، كسوق عكاظ ، ومجننة ،

١ — انظر الصناعتين ص ٢ و ٣ .

٢ — فن القول ص ١٤٦ — ١٥٠ بتصرف .

وندى المجاز ، من تنافس بين الشعراء فى اثاره الاعجاب والطرب بط يقولون
وما كان يصدره المحكمون من أحكام بالحسن والأفضلية لهذا أو ذاك .. وعلى
مر الأيام تطور هذا الامتاع ، وزادوا من وسائله ، فكانوا يختارون القطع
الشعرية الجميلة يلحنونها ويغنونها .. وما زال هذا الامتاع للقول الفنى
غرضا مصاحبا حتى عصرنا الحاضر ، تقام له المؤتمرات الشعرية والحفلات والندوات
الأدبية فى مختلف البلاد العربية ، وقد وصل بهم الأمر الى أن اختاروا أميرا
للشعراء كان شعره غاية فى الامتاع واثارة الاحساس بالجمال .

والأستاذ الخولى يرى أن غاية البلاغة اليوم تقلصت وهانت فقد أصبحت
مجرد مادة من مواد درس العربية ، التى يطالب باجتياز الامتحان فيها مسرعا
يتمنى حمل هذه الاجازة الممكنة من العمل .

ب- غاية البلاغة عند المحدثين :- (١)

=====

وبالبلاغة عند المحدثين لها غايتان : ١ - عطية حيوية

٢ - فنية تدقيقة .

فأما الأولى :

=====
ألزم تلك الفنون وأجداها ، وليس فيها من لا يستعمله فى صورة ما ، ليحقق
به غرضا حيويا ، يكون القول الحسن وصلته ووسيلته ، فليس فى الناس من
يستغنى عن بيان يقربه من نفس من يحامله ، أو طلب يرفعه الى ندى شأن

حاكم ، ليرفع عنه ظلمه ، أو يحقق له أملا ، أو يقضى له عملا .. وتلك
وما اليها مواطن تحوج فيها الحياة الى القول المتفنن ، يقال أو يكتب ،
ويدونه تتعطل تلك المصالح أو تتعقد ، ومن هنا كانت دراسة البلاغة
جد لازمة وضرورية للناس جميعا ، سواء الموهوبون منهم ذوو الحس
الفنى والقدرة البيانية ، وغير الموهوبين ، فهم كذلك لابد لهم من هذا
الدرس ، ليصقلوا فطرتهم ، ويروضوا طبائعهم ، كي يعطوا ما يستطيعون
اعطاءه ، من كتابة مقبولة نوعا ما ، أو قول أنيق الى حد ما ، يستمعون
به على ما لا بد منه فى حياتهم .

تلك هى الغاية العملية للبلاغة ، يتحقق بها لكل دارس نصيب
من الاجادة القولية ، ليرفعوا مستوى حياتهم ، ويحققوا من منافعهم
ما يتوقف على الابانة والأداء الحسن .. ذلك هو الجانب العملى من
غاية البلاغة فى حياة الانسان الفرد .

وان لهذه الغاية العملية فى حياة الجماعة لمجالا أفسح ، وفائدة
أبعد ، يجعلها لك أن تقدر أن الجماعة ليست الا كثرة يربطها شـعـور
نفسى مشترك ، وهذا الشعور النفسى المشترك : من أمل ورجاء وثقة بالخذ ،
أو ألم وضيق وشكوى من عجز ، أو بهجة وسرور بعزة أو نصر ، وما الى ذلك
ما يهز مشاعر الجماعة ، ويمسك عليها كيانها ، ويدفعها لخذها .
وجلاء هذا الشعور المشترك ، وحسن تبادل بين نفوس أهلها ، لا سبيل اليه
أقرب ولا أوضح من قول مبین ، وبيان متفنن .. وتلك حاجة حيوية اسبق
من المتعة بالخير والجمال والحق ، وأصل من هذا التدقيق الكمالى على ما لهذه
المتعة وذاك التدقيق من اثر بعيد فى الحياة العاطلة والقوى الجادة .

ولا ننسى أن حياة الأمة في تدبير سياستها ، وفي شورى نيابتها ،
وفي تطبيق قانونها ، وتسيير قضائها ، تحتاج الى هذه الابانة القولية ،
حاجة عملية ماسة ، ومادية قريبة ، هي أيضا من الغاية العملية الأولى
لتلك البلاغة .

والظاهر أن الأستاذ الخولى خلط هنا بين البلاغة والأدب واللغة ،
فأعتبر الحديث المادى اليومى بين الأشخاص وبعضهم ، وأن كتابة الطلبات
والرسائل والشكاوى ، كل هذا يدخل تحت باب البلاغة ، وغاية —
غاياتها .

ولئن سلمنا بأن كلا من المحامى ، وممثل الشعب فى البرلمان ، وخطيب
الحزب السياسى كل واحد من هؤلاء ، فى حاجة الى البلاغة ، وهى غايية
عملية حيوية بالنسبة له . . فاننا لا نسلم بأن حديث التخاطب المادى بين
الأفراد يستلزم البلاغة ، ويتطلب أن يكون بليفا ، بل تكفى فيه اللغة
المعبرة الصحيحة . . وكذلك كاتب الطلبات والرسائل والشكاوى وما شاكلها ،
وان كان هؤلاء بالذات يحسن أن يلتموا بشئ من الأدب ومعرفة جيد الكلام
من رديئه ، ولكن أن تكون البلاغة غاية عملية لهم فهذا كثير ومستبعد
الا ان كان هؤلاء الكتاب موظفين فى ديوان ملكى أو جهة حكومية هامة
أو فى مجال الاعلام .

وأما الثانية : —

=====
وهى الغاية الفنية المعنوية ، فقد عرفت مدى
ما فى الأدب من امتاع روحى ، ورضا نفسى ، يجده الشاعر بالجمال ،

فيحس الرغبة المتملكة في التعبير عنه وإشراك الآخرين فيه ، كما يجسده أولئك الآخرون حين يأتيهم صوت المتقن ببياننا ناطقا عما وجدوه وعيوبه ، وأحسوه فأرادوا العبارة عنه ، لكنها امتنعت عليهم ، ولم تستطعهم طبيعتهم ذات الحظ المحدود من الهبة الفنية . وهذه المتعة الروحية ذات جانبين :

أحدهما = التعبير عن الاحساس بالجمال ، حين تسعف الفطرة المواتية الشخص الموهوب شاعرا أو ناثرا .

ثانيهما = التدقيق الناقد لفن هذا المعبّر ، والشعور الصحيح الدقيق بقيمته الفنية ، تدقنا وشعورا يعين على كشف كنوز متجددة من الجمال ، في تلك الآثار الناثرة أو الشاعرة ، فيكون درس البلاغة وصلة للتمتع العالي بلذة معنوية روحية .

ففاية البلاغة عند غيرنا : اما عملية حيوية ، واما فنية متممة بالتعبير عن الجميل أو بالنقد المتدقيق لروائع الأداء الفني للشعور بالحسن . وهي في جملتها ترجع الى ما كان يقول القدماء : " صناعة الجيد " أو ادراك الجيد " . الا أن هذا الادراك للجيد ليس هو النقد صناعية واحترافا ، أو رياضة وتعليق ، بل هو استمتاع روحي ، وتلذذ وجداني يسعد النفس ، ويرفع مستوى الحياة .

بلاغية اليوم ..

أو .. فن القول .

=====

من أجل تقييم الرأى فى البلاغة واصلاحها ، على أساس من الواقع
المجرب ، المنتفع بخبرة من حولنا من الأمم ، المستفيد من التقدم الانسانى ،
والرقى الاجتماعى .. من أجل ذلك قدمنا ما سلف من مقارنات لصورة
البلاغة ، ودائرة بحثها ، ومنهج درسها ، وغاية هذا الدرس ،
عند الأقدمين — على ما اشتهر عندهم وغلب فى تناولهم من صنيع مدرسىة
المتكلمين فيهم — ، وعند المحدثين من أمم الغرب فى جملة أمرهم ولبسباب
رأيهم .

وهذه المقارنات رجوت أن تكشف المقابلة عن أوجه من الفروق الجليلة ،
تنفع الناظر بالحاجة الحققة الى التفسير والتعديل .. ولعل ما يزيد الاقدام فى
هذا الميدان ما أشرنا اليه — غير مرة — من اقرار القدماء أنفسهم ، أن —
البيان من علومهم التى لم تنفج ولم تحترق (١) ، فهو بشهادتهم محتاج
الى الانضاج ، حاجة قد قرووها وان لم يحاولوا تحقيقها ، وسلموا بها وان
لم يلتزموا اتمامها . وتلك منهم — فيما أرى — وصاة للخالفين ، يرضى
أولئك السلف أن تتحقق .

واذا ما كانت مقارناتنا السابقة ، قد كشفت عن نواحي هذا التفسير ،
وقدمت عناصر ذلك التجديد ، فانا نعرض هنا لنتائج المقارنات فى نواحيها

المختلفة ، فنقتطعها واحدة واحدة ، ونعرض مجمل ما انتهت اليه في مكانها ،
لننظر فيما يحقق الوجه الأفضل ، والمثل الأكمل في تلك الناحية ، بتتحيية
المعقوق ، وتكملة الناقص ، وتنمية المتوقف ، وزيادة المستحدث ، فاذا
ما أتممنا ذلك في تلك النواحي الأربع ، التي أدرنا عليها المقارنة ، كملت
لنا الفكرة عن " بلاغة اليوم " .

ونهدأ بمرض نواحي المقارنة واحدة واحدة ، لنرى نتائج

تلك المقارنة :

- ا - في الصورة وجمالها .
- ب - في الدائرة وسعمتها .
- ج - في المنهج وتصحيحه .
- د - في الفاية وحيويتها .

=====

أولا : فى صورة البلاغة ..

=====

لنتهت بنا المقارنة بين صورة البلاغة عند القدماء ، وصورتها عند
المحدثين ، الى النتائج الآتية : (١)

فى الحديث

=====

بدت صورتها على أنها : الدرس الذى
يعلم الأحسن والأجمل من الكلام .

هى فى ترتيب المعارف والثقافات :
فن من الفنون الجميلة ، أساسه القول
الممتاز ، وأداته الكلمة .. وفى
تدرج الدرس اللغوى تكون مرحلة من
الحسن تجىء بعد الصحة .

درس فنى ، شقيق الموسيقى ،
وصنوساثر أفراد الأسرة الفنية ،
من سمعية ومصرية ، فبدت صورتها

فى القديم

=====

بدت صورتها على أنها : بحث
يحتز به عن التعميد المعنوى ،
وعن الخطأ فى تأدية المعنى المراد
تقع فى تنسيق العلوم الأدبية
بعد النحو ، وتعنى بالمعانى
الثانية بعد المعنى الأول الأصلى ،
ومراتب الافادة لتلك المعانى
الثانية .

ضيقة الحدود ، قائمة على
المعقول من منطق وفلسفة .. فكانت
صورة ذلك كله معروقة الوجه ،

بإدراك المظاهر شاحبة يسيرة الحظ
من الحيوية والنضرة •

لذلك كله أنضرونها ، وأبهى
قسمات ، إذ هي تعبير عن الاحساس
بالجمال ، تتصل من ذلك بأرقى
وأنبى وأصفى ما تستطيعه الروح
الإنسانية •

يرى الأستاذ الخولى أنه بالنظر فى المقارنة السابقة ، يبدو تقابل
الصورتين وتواءمان لنا واضح حتى التخالف والتضاد ، يزيد ما بينهما من
فرق بذهاب الثانية صعوداً فى مدارج الفن والجمال ، وحتى الأولى تنزل
فى جفاف النظريات ، وجفوة الفلسفيات ، ونسيان الفنيات • فـإذا
ينبغي أن نعمل لاكتساب بلاغت تلك الصورة المحيية •

أول العمل فى هذا السبيل — كما يقول القدماء — : تخلية ، وثانيه
تحلية •

فالتخلية : تخليص هذه البلاغة من مظاهر الجمود ، وظواهر الجفاف ،
 وأسباب الذبول •• فإذا ما تم لنا ذلك ، صلحت بعده للتخلية ،
 بأسباب الحسن ، ووسائل التأثير •

وعلى هذين النوعين نقسم عملنا فى تجميل صورة البلاغة ، بادئين بـ :

التخلية : —

=====

يرى الأستاذ الخولى أنه يجب أن تقرب بين الفن والبلاغة • ومن أجل

ذلك لابد أن نكشف ما يسود جو شعورنا ، ويكون حياتنا ، من جفوة ونفور
من الفن والفنون ، إذ اقتضت هذه الجفوة أسباب متعددة ، منهم —
ما هو سياسى ، وما هو اقتصادى ، وما هو دينى عام ، كظرة التدين
الى منزلة الحياة الدنيا من الحياة الآخرة ، وما هو دينى خاص ، كظرة
التصوف الزاهدة الى مهاج الكون ومحاسن العالم ، وأضفى ذلك كله على
الحياة الاسلامية ظلالا من السامة والملل ، وألوانا داكنة ، فانصرف
قومنا فى المصور الوسطى من تاريخهم ، حتى قريب من عصرنا هذا ، عن
الدنيا ، وحرّموا زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق •

وحسبنا فيما نبتغى من تنقية الجو ، وتصفية الشعور ، أن نقرر أن المتعة
الفنية ، التى أشرنا اليها فى غاية البلاغة ، مما لا بأس به ، ولا شرف فيه ،
بل هى مما تستقيم به الحياة وتقوى ، وترتقى وتكتم ، وان كان لابد لنا
من أن نحتج لشيء من هذا أو نؤيده ، فلقد يكفى فى ذلك ، أن هذا
الفن القولى هو جمال اللسان ، الذى يقال عنه : ان الرسول عليه
السلام سئل : فيم الجمال ؟ فقال : فى اللسان (١) • وما بنا أن نخرج
هذا أو نتعقبه ، فان الاسلام هو صاحب المعجزة القولية ، التى نشرت
دعوته ، وأيدت دولته ، وفى سبيل اعجازها التمسوا ذلك الدرس البلاغى •

ومن التخليّة أيضا : أن نزيل من الأذهان ما فى استعظامهم
للعلم والفن من تداخل وعدم تميز ، لنقرب ذلك معنى الفن وحقيقته فى مكانه
الصحيح من صنوف المعارف الانسانية ، ونشعر بالجانب الوجدانى والمعنى

الجميل فيه ، فنشعر من اطلاقه على ذلك الدرس البلاغى بروح واستترواح ،
ينقلنا الى عالمه ، ويحيينا فى دنياه ، ويحول بينه وبين أعاصير النظم
المعقلى ، فلا تخنق زهراته ، ولا تصوح ورقاته ، ويفرنا بالتذوق الأدبى
الذى يرفع ويضع ، ويأخذ ويدع ، من صور التعبير ، وأساليب القول .

والذى نشير اليه من عدم التمييز فى استعمال العلم والفن ، هو ما نجسد
فى صنيح الأقدمين ، ان يسوون — أو يكادون — فى اطلاق الفن والعلم ،
فيتحدثون عن مهادى العلم أو مهادى الفن ، ويسوون عددا من دراساتهم
علما ، كما يسوونها حينئذ فنا ، ما يجدون فى ذلك كبير فرق .

أما فى العصر الحديث فلقد وضع الفرق بين العلم والفن ، ونسبقت
المعارف تنسيقا يفرق بين ذلك . فيخص " الفن " بما هو تطبيق لحقائق
نظرية ، وقضايا علمية ، مما يمكن من عمل يدوى . فاذا ما وصف الفنون
بالجميل فقد أريد به ذلك النشاط الوجدانى الذى يختص بالتعبير عن
الشعور بالحسن ، سواء كان من الفنون السمعية كالموسيقى والأدب ، أو
البصرية كالعمارة والنحت ..

وأحسب أنه بإزالة هذا التداخل فى الاستعمال ، نهى الأرواح لتشمل
تلك البلاغة ، وجدانية الوجود ، حسناء المعارف ، وضاعة القسطن .

التحلية :-

===== فى هذه التحلية يجب أولا أن نظل مخلصين
لقد يمتنا ما استطعنا ، حسنى الظن به ، ما وجدنا الى ذلك سبيلا ، فلنتمسك

خير ، ونجلو ما فيه من محاسن ، قبل أن نلتص لهذه البلاغة زيا غريبا ،
أو سقا دخيلا ، أو زينة من تطرية الآخرين . . . ولقد كنا حدثنا في المنهج
عن مدرسة أدبية للبلاغة ، ان غلبت على أمرها في الحياة التعليمية ، فانها
لم تحرم مكانها في عالم التصنيف ، وقد قام بها نفر من الكتاب وغيرهم ،
وخلفوا فيها آثارا ، نحسن الى أنفسنا والى ماضينا ، حين نطلب ما فيها
من تفنن أو تذوق وتنبه وتطلع ، فنبتغي ذلك لنحييه في درسنا اليوم .

وإذا ما ظفرتنا من هذا القديم بكل ما فيه من حلية ورواء ، تقدمنا السبي
اتمام ذلك بما يكمله من : التحلية بالجديد . . . تحلية ترسي أصول
هذا التفنن ، وتزيد صورة البلاغة وضاعة وسنا .

وأول التحلية بالجديد ما يتعلق بتعريف البلاغة ان يرى الأستاذ الخولسي
أن التعريف القديم يجب أن يحل محله تعريف جديد يكون تعبيرا عن
الاحساس بالجمال . . . وذلك التعريف في رأيه أن : البلاغة هي " فن
القول " فيكون هذا التعريف ، وهاتيك التسمية ، لفتا متصلا الى الصورة
المحببة ، والمنهج المرجو ، وصرفا مستمرا عما نحصر على ابعاده من الصور
القديمة للبلاغة ، والطريقة غير الصالحة في تناولها . . . ثم هي مع ذلك
تحمل دلالة لغوية قريبة على المعنى الحسن المراد من البلاغة قديما وحديثا ،
لما في مادة الفن من المعاني ، فمنها التزيين ، يقال : فن الشيء
فنا زينه ، ومنها التنويع مع اشعار بمعنى الحسن ، يقال : افتن فنى
الحديث : أخذ في فنون وأساليب حسنة من الكلام ، وهي ما نحسن
فيه من حسن القول وجمال الكلام ، بل دلالتها عليه أقرب من دلالة
البلوغ والانتهاء الذي أخذوا منه اسم البلاغة . . . ثم في هذه التسمية

بفن القول ، تأثير نفسى فى اعداد الطالب وتوجيه قواه ، ومثل هذا لا يستهان به فى ميدان التعليم والتلقين ، اذ يصل الطالب بجو الجمال والفن الذى تمنحه الحياة من نشاطها الكثير ، ويفرى هذا الوصل بأساليب الفن وطرائقه ، ويمرئ من الخط فى المنهج والتناول ، فتستقر بممارسة ذلك أصول التفنين الذى يراد تحقيقه فى هذه البلاغة .

ثم ان هذه التسمية مما ارتضاه المحدثون علما على هذه الدراسة ، فهى ليست بدعا من رأى ، ولا غريبا من التسمية .

هذا قلنا هنا فى التعريف ، من حيث أثره فى تجميل الصورة ، وتأيد أهداف التجديد فى البلاغة . وأما الموازنة بين هذا التعريف وتعريفات الأقدمين على اختلاف العصور ، فموضع التعرض له سنلم به قريبا عند الحديث عن : المبادئ من فن القول .

أما ثانى ما تحظى به صورة البلاغة من الجديد فهو :
" مقدمة فنية " تصل طالب هذه المادة بأطراف من " علم الجمال " وأصول التفنن ، فتنتظم خلاصة القول فى الفن ، وأصوله ، ومكانه فى المعرفة الإنسانية ، وصلته بما سواه من ألوان المعرفة ، كالفلسفة والعلم ، واجمالات عن الجمال ما هو ؟ وماى شئ يكون ؟ وفى أى شئ ؟ وهل يستطيع قياسه ؟ ومم ؟ وكيف ؟ مع التعرض الخاص للجمال اللسانى فى هذا كله ، واعتبار ما عداه من فنون الجمال الأخرى وسيلة لفهمه هو ، واللفت اليه لفتا يقوم على أساس ، ويعتمد على درس وخبرة ومعرفة ، مما يزود أصحاب الدراسة الأدبية بما يقدرونهم على القول الناقد ، والحكم الصادق ،

فى تناول دقيق ، وادراك عميق ، وحكم سليم .
ومثل هذه المقدمة لا يكون النقد الأدبى ، والتذوق الفنى ، محاولات
مبهمة ، ولا أحكاما مطلقة ، بعبارات غامضة ، كالتي ألفناها فى قول الأقدمين
والمحدثين ، وصفا لرجال الفن القولى وأثارهم فيه ، مثل قولهم —
الرجال : انهم سحرة مفلقون ، أو مهرة بارعون . . . وقولهم عن المتذوق :
انه سروروحانى ، وسحروفتنة و . . . وقولهم فى وصف الآثار :
انها رائعة ومعجزة ، وبارعة واهرة ، أو متينة ورصينة ، دون أن يستطيعوا
لذلك بيانا ، أو يجدوا شيئا من الايضاح . . . أما حين يلم الدارسون
بمثل أبحاث تلك المقدمة الفنية ، فانهم يوفون من ذلك على ما يوجهون به
وجدان المتذوق ، ويقولون فى ذلك ما يكشف السطر عن هذا الحسن ،
ويذيع السر عن هذا الاعجاز .

والخلاصة أنه لكى نكسب بلاغتنا الصورة الجميلة فعلينا أن نزيل
الجفوة التى بيننا وبين الفن ، ونحدد المفاهيم التى تفرق بين العلم
والفن ، ونعرف البلاغة بأنها فن القول ، ونضع تلك المقدمة الفنية للبحث
البلاغى — بتلك الأمور كلها تصبح صورة بلاغتنا أنفروجها ، وأبهى
قسمات ، من تلك الصورة القديمة .

ويرى الأستاذ الخولى أن هذا وحده ليس يكفى ، بل ان حسن
الصورة يتم حين يتحقق الاصلاح المنشود فى سائر النواحي البلاغية ، من
دائرة بحث ، ومنهج ، ورعاية غاية . . . وان نظرنا فى بقية مناحى المقارنة
يعتبر عملا فى تحسين الصورة العامة .

فلنض الى تحقيق نتائج المقارنة فى :

ثانيا : دائرة البحث وسميتها

=====

انتهت المقارنة بين دائرة البحث البلاغى عند القدماء ، ودائرته عند المحدثين

الى ما يأتى (١) :

فى الحديث

=====

تتسع دائرة البحث لكل ما تشمله
طبيعة الفن القولى وعمل الأديب فيه .
وتقسم خطوات عمل الأديب الى :
ايجاد ، وترتيب ، وتعبير . وتبحث
كل خطوة من هذه الخطوات ، كما
يجب أن يكون البحث الذى تتطلبه
المعرفة الفنية ، فيشمل هذا البحث
الالمام بمعارف انسانيه تتصل بالحياة
الوجدانية ، ويشمل الفن القولى فى
بساطته ومركباته ، فتبحث المعانى ،
وتبحث الألفاظ . مفردات وجمـل
وأساليب ، وتبحث صور التعبير التى
يصورها أصحاب الفن القولى ، وتبحث

فى القديم

=====

جعلوا من البحث مقدمة " ليست
من المقاصد فى هذا الفن " ثم من
المقاصد ما يعرف به وجه الاحتراز
عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ،
وهو علم المعانى . وما يحتـرز
به عن التعقيد المعنوى ، وهو
البيان . ومنها تابع تعرف به وجوه
التحسين الثانوية وهو البديع .
وحصروا أبحاث علم المعانى فى
أحوال طرفى الجملة ، والجملة .
وحصروا أبحاث البيان فى المجاز
والكتاية ، والتشبيه مقدمة لفهم
الاستعارة ، لكن كثرة مباحثه

فنون الأدب نظما ونثرا ، فنا فنا •	وقوائده جعلته كالمقصد ، وان
وهكذا لا يحد هذه الدائرة الا طبيعة	كان مقدمة في المعنى •
العمل الأدبي • وتدخل فيهما	والبديع تابع يعنى بوجوه حسن
دراسات مظاهر النشاط الفني •	اما لفظي واما معنوي • فكانت
وأسباب وضوح القول وتأثيره •	محسناته قسيميـن •

=====

والنظر والموازنة بين هاتين الدائرتين نجد أن بلاغتنا وقفت عند
 بحث الجملة ، وأهملت بحث المعاني ، ولم تنظر الى العمل الأدبي
 بجمته ، ولم تمن بالنظر في الفنون القولية ... الخ ، فهي في حاجة
 الى سعة شاملة ، ومسطرة وافرة ، لتستطيع الوفاء بمثل تلك الأبحاث ،
 وما يتصل بها ، مما هو ضروري لدقة الدرس ، ومسايرته درجة التقدم
 الانساني •

والأمر في ذلك يحتاج الى تخليصة وتحليصة أيضا •
 فأما التخليصة :

===== فمنها : ابعاد الملاحظ والاعتبارات التي حددوا

على أساسها بحثهم ، وابطال غير الصحيح منها ••

ففي المقدمة — مثلا — نرى أنهم وضعوها خارجا ، وبحثوا فيها
 في فصاحة الكلمة والكلام والمتكلم ، وبلاغة الكلام والمتكلم ، ودرجات
 البلاغة ... الخ •

لأن مثل هذه الأبحاث في قولهم ، ليست من المقاصد في هذا الفن ،

وهو قول نخالفهم فيه مخالفة تامة ، اذ أن الكلمة المفردة هي العنصر
الأساسى فى عمل فنى أداته الكلمة ، فالبحث فيها وفيما يتألف منها من
صميم المقاصد فى هذا الفن .

ثم ملحظهم فى حصر أبحاث علم المعانى ، فى الخبرية والانشائية ،
ليس ملحظ ذى قيمة ولا جدوى ، فهم أنفسهم قد شعروا بوهيه ، حين
خصوا به الشطر الكبير من مباحث علم المعانى ، ثم عادوا يقولون : " ولا وجه
لتخصيص هذا الكلام بالخبر ، لأن الانشاء لا بد له أيضا مما ذكر " . (١)

على أن هذا التقسيم الثنائى للكلام الى خبر وانشاء مما لا يتفقون عليه ،
ومنهم من يجعل القسمة غير هذه ، على ما يبين فى موضعه . (٢)

ثم ملحظهم فى ضبط أبحاث البيان : فى الحقيقة والمجاز ، ملحظ
لا قيمة ولا أصل له ، وانما الاعتبار القيم فى مثل هذا الأثر لتلك الصور
البيانىة فى المعانى هو ادراك مالها من قوة الايضاح والتأثير ، وهو ما لا يتم
الا بمعرفة المطلق اللغوى والأدبى ، والبصر بالموثرات فى النفس الانسانية .

ثم نلاحظ أن تقديرهم للبديع تقدير جائر ، فقد سمعنا فيما سلف
من قول الأقدمين أنفسهم : " ان الحق الذى لا ينازع فيه منصف ، أن البديع
لا يشترط فيه التطبيق ، ولا وضوح الدلالة ، وأن كل واحد من تطبيق الكلام
على مقتضى الحال ، ومن الايراد بطرق مختلفة ، ومن وجوه التحسين ،

١ — شرح السعد وحاشية الدسوقي من شروح التلخيص ١ : ١٧٠ .

٢ — السبكي فى شرحه للتلخيص من الشروح ١ : ١٧٢ .

(١)
قد يوجد دون الآخرين " . . فنستطيع أن نقول والحال على ما وصفنا : ان
المحسنات البدعية ليست أمورا تابعة للمعاني والبيان ، ولا ثانوية يسيرة
الأهمية ، بل هي وجوه توجد وحدها ، وعلى هذا الاعتبار نستطيع النظر
فى هذه المحسنات نظرا متفطنا منعا ، لنذكر أثرها فى العبارة ، وننزلها
فى درسا المنزلة المناسبة لهذا الأثر ، فما كان منها قويا عدناه ~~من~~
صور التعبير ، وضممناه الى أشباهه مما عد فى البيان ، وما كان دون ذلك
أهمية جعلناه فى المكان المثل لهذه الأهمية .
كما أن ما يكون من المحسنات تكلفا وتصنعا سيىء الأثر أهملناه وأبعدناه .
وسيرد تفصيل لذلك فى تنسيق الأبحاث ~~بم~~ .

البيان ، لأنه بمنزلة الفرد من المركب ، إذ أن رطابة المطابقة لقتضى الحال ،
وهي مرجع علم المعانى ، معتبرة فى علم البيان مع زيادة شىء آخر ، وهو
ايراد المعنى الواحد فى طرق مختلفة (١) . وهذا الاعتبار هو الذى رأيت
نقضه آنفا فيما أوردنا من عبارة السبكي ، وما دام الأمر كذلك ، فالدائـرة
المرسومة للبحث على هذا الأساس ، لا قوة لها ولا أصل ، فلا وجه اليوم
لالتزام حدودها ، والتقيد بها .

هذا الى أننا نلاحظ اليوم من الاعتبارات ما يحوجنا الى رفع قيود هذا
التحديد . . من ذلك ما عرفت من أن أبحاث المقدمة — فيما نقدر — انما
هى من المقاصد والعناصر الجوهرية ، فى فن أداته الكلمة ، فنحن نريد
ادخالها فى الأبحاث الأصلية ، وذلك تغيير للتحديد .

وإذا ما ألغينا هذا التقسيم الثلاثى ، وذكرنا أننا منذ قريب
فى تحلية صورة البلاغة ، قد حرصنا على الدقة فى التفريق بين استعمال —
كلمتى : " الفن " و " العلم " ، وحرصنا على استعمال كلمة " الفن "
فى هذه الدراسة وفروعها ، واستبعاد كلمة " العلم " فى تسميتها وتسمية
فروعها ، فقد بطل أن لدرس البلاغة أقساما ، وأن تلك الأقسام تسمى
علوم .

والمرحوم احمد مصطفى المراغى يوافق الأستاذ الخولى على عدم صحة
هذا التقسيم ويقول : " لا نعلم أحدا سبق السكاكى الى قسمة علوم الفصاحة

١ — السعد التفتازانى : الشرح المختصر للتلخيص ص ١٥ ح ١ ط
الآستانة .

الأقسام الثلاثة المعروفة ، ولا نرى لهذا التقسيم وجهها صحيحا ، ولا مستندا من رواية ولا دراية ، فليس هناك جهة للتمايز تفصل كل علم عن قسيميه . ولا فى أغراض كل علم ، ولا فى موضوعه ، ما يجعله وحدة مستقلة عن العلمين الآخرين فى بحوثه ومسائله ، حتى يمكن الناظر أن يقتنع بوجهة هذا التقسيم ، ويبرهن على صحته . (١)

لكن الأستاذ العقاد رحمه الله كان له رأى آخر ، فهو يرى :
" ان علوم البديع والمعانى والبيان خلاصة الملاحظات التى أدركها العقاد بالذوق والفهم ، واهتدوا بها الى مواضع البلاغة فيما وعوه من كلام الشعراء والكتاب ، وان الحذقة كانت أكثر من الوعى الصادق ، والفهم الحسن ، عند من حاولوا فى العصر الحديث أن يطلوا علوم البديع —
فلا بد أن نفهم أن علوم البديع والمعانى والبيان لم توضع لتلغى ، أو لينصرف عنها النظر فى الدراسة أو المظالمة ولقد وضعها الأقدمون وأدركوا من شأنها كل ما يدركه المحدثون الآن من فوائدها ومآخذها ، بل أدركوا منها — على التحقيق — فوق ما يدركه المتحذلقون الذين يجهلون البلاغة قواعد ومصطلحات ، كما يجهلون معانى ومفهومات . . . فالعلوم التى عرفت باسم علوم البديع والمعانى والبيان صحيحة لا عيب فيها ، وكل ما يؤخذ عليها فإنما يؤخذ على اساءة استعمالها كما ينبغى لها ، وكل ما أرادها واضعوها . (٢)

١ — تاريخ علوم البلاغة ص ١١٢ .

٢ — نشر هذا الرأى فى عدد جريدة الأخبار الصادر فى ١٤ رمضان ١٣٨٣ هـ .

ونعود الى الأستاذ الخولى الذى يرى أن علوم البلاغة الثلاثة باطلة ويجب أن تُلغى ، وأن من يقول الآن " علوم البلاغة " أو " العلوم البلاغية " أو نحو ذلك ، يخطئ ، فى طبيعة هذا الدرس ، وفى تحديده ، خطأ يشوه صورة الفن ، ويضيق دائرة بحثه ، وهو لا يرضاه صاحب ذوق أدبى ، يجد وقع ما يقول ، ويحمر بروعة الفن الأدبى الجميل . . . تلك هى التخليصة فى دائرة البحث البلاغى .

وأما التخليصة : فبأشياء ، منها :

=====

توسعة دائرة البحث وسط أقطبه ، فلا يقصر على الجملة ، بل نعد البحث بعد الجملة الى الفقرة الأدبية ، ثم الى القطعة الكاملة من الشعر أو النثر ، ننظر اليها نظرتنا الى كل مقامك ، وهيكلا متواصل الأجزاء ، قدرتنا سقمه ، وجمال أجزائه ، وحسن اتلافه ، ونحدث فيما لا يبد منه فى هذه النظرات من شئون فنية .

وإذا ما مددنا البحث فى أوله فدخل بحث اللفظة المفردة فى المقاصد ، كما قدمنا ، وسطناه فى نهايته فشملا ما بعد الجملة من العمل الأدبى كله ، فقد بدا لك أننا مضطرون الى الخفاء التقسيم الثلاثى أو الثنائى ، والنظر فى نظام آخر لهذه الأبحاث ، نعرضه فيما يلى عند تنسيق مباحث فن القول .

ومن التخليصة أيضا : افراد مكان من هذه الدائرة الفسيحة

===== لبحث المعانى الأدبية . . . فى

حقيقتها ، وميزتها ، وفى ايجادها وترتيبها ، على نحو ما وصفنا بعضها فى صنيع المحدثين ، وهو ما لم تمن المدرسة الكلامية بشئ منه . . . والمدرسة الأدبية فى البلاغة لم تصب من ذلك الكافى الموضى ، فهذا ابن الاثير فى مثله السائر يقسم الصناعة قسمين : الصناعة اللفظية ، والصناعة المعنوية ، ولكنه يعنى بالصناعة اللفظية السجع ، والتجنيس ، والترصيع ، ولـ — زوم

ما لا يلزم ، وما الى ذلك من أمور لفظية صوتية . . . ويعنى بالصناعة المعنوية ، التشبيه ، والاستعارة ، والتجريد ، والالتفات ، وما يتصل بذلك من صور في التعبير تؤدي بها المعاني .

أما البحث في المعاني بما هو روح العمل الأدبي ولبابه ، بحثا خاصا بها ، من حيث هي مدلولات ومفاهيم وأغراض ، فلا نجد فيه الا شذرات متفرقة عند الأولين من أهل الدراسة الأدبية في البلاغة ، كشر بن المعتز ، والجاحظ ، وأضرابهم ، من الذين نظروا في هذا البحث قبل أن يستكمل ويتسع السعة الثامة التي وصل اليها في ظل المدرسة الكلامية العلمية .

وفي كل حال سنحى في بحثنا للمعاني وغيرها ما نريده ، رسوم المدرسة الأدبية ، وننتفع بكل ما يستطاع الانتفاع به في ذلك التفسير ، من تراثنا القديم .

ومن التحلية أيضا : تخصيص مكان من هذه الدائرة الواسعة لبحث الفنون الأدبية . . . فندرس في فن القول تقسيم الناس قديما وحديثا لهذه الفنون نثرا ونظما ، والفكرة في هذا التقسيم ، ونبين خصائص هذه الفنون واحدا واحدا ، ومقوماتها التي يكمل بها جمالها الفني في ألفاظها وصياغتها ومعانيها وأغراضها ، مستعينين في ذلك بيسير ما خلفت المدرسة الأدبية العربية في هذا الميدان من نظرات وإشارات ، ثم نضم الى ذلك كل ما دلت الثقافة العلمية والفنية الحديثة ، على صلته بهذه الفنون وميزاتها ، ونفى بحق الأدب في فنون لم تزدهر في البيئة العربية ، ولم تعرف معرفتها اليوم ، كفن القصة والحقالة ، وما الى ذلك من فنون مستحدثة .

ثم من التحلية كذلك : تمييز مكان في هذه الدائرة لدرس الأساليب :

لا نقف في ذلك عند قليل ما ألم به القدماء في هذا ، ولا نكتفى بتكلمته المحدث ، بل نجعل هذا الدرس وسيلة للإشراف على آفاق أدبية

ونقدية ومذاهب في ذلك ، ومدارس في الفن القولي نعترف بها ، ونهين أهدافها
وخصائصها . . . ففي الأساليب نتحدث بعد المعروف الشائع عن الفلكهسية
والتهكم وما اليهما ، من حيث هي عوالم فنية ، ونزعات أدبية ، كط نسدرس
الرمز الفنى ، والرمزية الأدبية ، لا فى حدودها الساذجة التى أشير
الى إثارة منها فى الكتابة ، بل من حيث هي ضروب من الفن ، تتصل بموجهات
نفسية ونحوها ، وترى الى أهداف أدبية اجتماعية وما اليها من كبريات
الغايات ، التى تضطلع الفنون اليوم بالوفاء بها ، فى حياة الناس أفهماداً
وأهماداً .

تلك هي أمهات التحلية التى نعمل لتدعيم الدرس البلاغى بها ، تحقيقاً
لنتائج المقارنة ، التى ظهرت فى مقابلة دائرتى البحث قديماً وحديثاً .

والآن نتحدث عن نتائج المقارنة فنى :

ثالثا : في المنهج وتصحيحه (١)

=====

في القديم

مستوى الحياة العقلية لم يحسن التفريق التام بين الحكم الفنى الوجدانى بالحسن أو القبح ، والحكم العقلى بالصواب أو الخطأ .

الوضع الاجتماعى للغة يغير منهج التفكير فى أبحاثها وأسلوب د راسنها ، فإذا ما اتصلت بالحياة اتصالا تاما ، كان التفكير فى أبحاثها عمليا وجدانيا وعلمت بطريق الممارسة ، وإذا ما انفصلت عن الحياة كان التفكير فيها نظريا عقليا ، وعلمت بطريق الممارسة . وقد مرت بلاغتنا بهذه الأدوار المختلفة فعلمت حينئذ عن طريق الممارسة والتلقى ومخالطة أهل اللغة واحتكم فيها إلى الذوق والوجدان . ثم علمت بطريق الممارسة واستحال الاحتكام فيها إلى النظر العقلى والضبط المنطقى .

المدرسة الكلامية هى التى سيطرت أخيرا فى حياة البلاغة ، وهى المدرسة التى تتبع الطريقة الثانية —

في الحديث

المستوى العقلى الحديث تنبه إلى الفرق الواضح بين صنوف الحكم ، من عقلى ، وفنى ، وخلقى ، لدقة بحثه فى مسألة المعرفة ، وعنايته بمنطق المادة .

الوضع الاجتماعى للغات الحية ، واتصالها بحياة أهلها اتصالا قويا ، جعلها تعلم بطريق الممارسة قبل كل شئ ، وجعل التفكير فيها عمليا اجتماعيا صحيح المنهج ، وجعل الدرس الأدبى فيها فنيا وجدانيا حقا .

منهج د رس فن القول عندهم فنى محض ، تهذب فيه ظواهر واضحة من : الوصل الوثيق بين الأدب وسائر الفنون ، وتنسيق الدراسات اللغوية والأدبية تنسيقا سليم الأساس ، يكون لفن القول فيه مكانه المتميز ، وربط هذا الدرس بالتراث الأدبى للغات المدروسة قديما وحديثا ، وإقامة الدرس كله على أسس فنية صحيحة

مستفيدة من التقدم العقلى والاجتماعى
العام فى ألوان الحياة كلها •

طريقة المدرسة العقلية — فخلف
ذلك فى مباحث بلاغتنا آثارا • لا
تزال هى الواضحة • كاعتباس الظواهر
الفلسفية المنطقية فى تعاريفها •
وتقاسيمها • وضوابط بحثها •
مما أخل بالظواهر الفنية الأدبية •

وبالنظر الى هذه المقارنة فى المنهج عندنا وعندهم • تتضح لنا
حاجة البحث البلاغى عندنا الى عمل غير يسير • لاضطراب أساسه باضطراب
أساليب البحث القديم • وعدم التفريق بين صنوف الأحكام التى تختلف بها
صنوف المعارف والحقائق • • ولهذا اتخذ البحث البلاغى خطة غير سديدة •
ولا سليمة فى التناول والحكم والبحث والتصنيف • فبعد ما تبين لنا ذلك
كله • نستطيع فى اطمئنان ان نتقدم الى تخطيطه من تلك الآثار • ثم
امدانه بما يحى حيويته • ويؤهله لمسيرة الحياة اليوم • والاستجابة
لحاجة الشعوب الناهضة المتجددة فى الشرق • • وذلك يحوجنا — كما سبق —
الى تخطيط • ثم تحليل •

فمن التخطيط : ازالة التداخل المضطرب فى دراسة مواد ثقافتنا
على اختلافها • لنزيل مثل ذلك التداخل بين دراسة مواد العربية • فلا
نخلط البلاغة بغيرها من تلك المواد • • ونحن نشعر بهذا التداخل
فى الثقافة الاسلامية تفكيراً وتأليفاً • فنجد التعرض المستفيض للمسائل
علم فى دراسة غيره • فالمسائل النحوية والحكمية مثلاً يتعرض لها فى الفقه •
مع اختلاف المذاهب فى النحو عنها فى الحكمية • وفيها علم فى الفقه • لكن
توسعهم فى الشروح والحواشى والتقارير • بعد تركيزهم المتون واجمالها •
فسح المجال لهذا التداخل • • ولا نتوسع فى شرح هذه الظاهرة وتعليلها •

فإننا مهدنا بها للقول فيما يعيننا من هذا التداخل في درس البلاغة ، إذ
 اختلطت فيها الدراسات المختلفة ، فمن مقدمات حكيمية ، وأبحاث منطقية ،
 إلى دراسات خلقية ، وأخرى طبيعية أو الهيئية ، على ما أشرنا إليه ففى
 المنهج الكلامى لدراساتها • (١) وثلفت هنا إلى تخلية التفكير البلاغى ،
 والتأليف البلاغى من هذا التداخل ، إزالة للاضطراب الناجم عنه • • كما
 نشير إلى ما فى البلاغة من تداخل آخر بينها وبين مواد العمومية الأخرى ،
 كالنحو مثلا ، فإن هذا التداخل أيضا قد ترك أثره فيها ، واختلط
 البحثان فى غير موضع ، وكان من ذلك أن ضم البحث البلاغى وعجف أحيانا ،
 فقصر عن المعنى الأدبى الخاص به ، وأن تضخم وتزيد أحيانا ، فجار على
 المعنى الأدبى •

وأنت واجد المثل للضهور فى مثل قول البلاغيين فى أحوال المسند اليه :
 أن تعريفه بالاضمار : لأن القام للتكلم أو الخطاب أو الفية ، والعلمية :
 لاضماره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم مختصره ، وباللام لكذا ،
 وبالاضافة لكذا ، مما لا تجد فيه شيئا جديدا الا شرح المعنى النحوى
 الأول ، دون عناية بما وراء ذلك من معنى بلاغى خاص •

ثم أنت واجد المثل للتضخم والتزيد ، فى صنيعهم بباب الفصل والوصل
 مثلا ، إذ أوردوا فيه أحوالا وتقسيمات ، كان المرجو أن تكون أدبية الملحظ ،
 كعدمهم من أحوال الفصل " شبه كمال الاقطاع " الذى يمثلون له بقول
 الشاعر :

وتظن سلمى أننى أبغى بهـا بدلا ، أراها فى الضلال تهيم
 فان المطف فى " أراها " كما يبدو جليا ، يودى إلى فساد المعنى الأول ،
 ونقض ما أراد القائل ، فليس المانع منه بلاغيا ، بل هو نحوى صرف ،
 يدور الأمر فيه على الصحة واستقامة المعنى ، لا على اعتبار تال لما بهـ
 أداء المعنى الأول ، كما هو الشأن فى البلاغة • ولعلنا نعود إلى
 هذا قريبا حين نتخذ باب الفصل والوصل مثلا لتطور درسنا من البلاغة
 إلى فن القول •

والى هنا بدا أن التداخل المضطرب بين الدراسات المختلفة فى البلاغة قد أفسد منهجها ، كما أن التداخل بينها وبين مواد العربية نفسها قد أضربها ، فحق علينا تصحيح المنهج ، وإصلاح للبحث ، أن نخلصى الدرس من التداخل بين المواد .

ومن التخلية أيضا : إزالة الاضطراب الناجم عن عدم تمثيل الأقدمين — ولا سيما المتكلمين — للمنهج البلاغى الملائم : فقد تداخلت المناهج العقلية والنقلية والفلسفية والشرعية فى تناولهم للبلاغة ، وترك هذا الاضطراب أثره فى درس البلاغيين للشئون الفنية ، وبيانهم لها ، ولفقهم الى قيمها ومزاياها ، فكان لفتا غير كاشف ، وبيانا غير مبين ، ولا جدوى منه على موهبة دارسى ، ان لم يكن فيه افساد لها واخمد ، وهاك من ذلك ما يتجلى به اضطراب المناهج وتداخلها المفسد فى تناولهم :

ختم القوم علم البيان بفصل وازنوا فيه بين صور التعبير التى تولوها — بالشرح فى هذا العلم وأدأوه عليها ، فقالوا : "أطبق البلاغاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح ، لأن الانتقال فيهما من الملزوم الى اللازم ، فهو كدعى الشئ ببيئته " ، فكان وجه فضل تعبير على تعبير ، أنه انتقال من الملزوم الى اللازم ، وكان وجه بيانهم لهذا الحسن أنه كدعى الشئ ببيئته ، وأنت واجد فى هاتين الخطوتين منهجين مختلفين ، لقضية لها منهج ثالث غيرهما . فالمنهجان المختلفان هما : المنهج العقلى المنطقى ، فى الملزوم واللازم ، وأن وجود أحدهما يقتضى وجود الثانى ، لا متناع انفكاك الملزوم عن اللازم . ثم المنهج الشرعى أو النقلى ، فى البيئته على الدعوى ، والشهادة والرواية — كما تعرف — حجج تقليدية ، على حين أن المسألة المتناولة — وهى حسن التعبير وامتيازها — مسألة أدبية ، فمنهجها وجدانى فنى ، لا يغنى فيه واحد من المنهجين السابقين . فقضية هذا اللزوم العقلى الذى لا انفكاك فيه بين الملزوم واللازم ، هى قضية اللزوم الأدبى — ان كان هناك ما يسمى لزوما — لأن ما فى المعانى الأدبية إنما هو اتصال عملى ، وارتباط واقعى ، وملحظ نفسى عام .

وأما حكاية الدعوى والبيئة وما إليها ، فحسبى وحسبك أن نقدر أن ما يجده
القاضى من شهادة الشاهد ، وما يجده السامع من رواية الراوى ، وأثرهما
فى نفسه ، هو فى الحق والحسبى ليس أبداً من صنف ما يجده المتأثر
بالفن القولى من أثر نفسه ، وأين هذا الحق أو الباطل من ذلك الحسن
أو القبح ؟ شتان بين مشرق ومغرب .

وان يكن فينا من لا يزال يختلط عليه مثل هذا ، فلعله يهديه من
قول القدماء أنفسهم ، ما شعر به المتكلمون فى عصور مختلفة ، وشعر به المؤمنون
أنفسهم ، من أن البراهين العقلية على العقائد لا تفيد يقيناً ، ولا تكسب
اعتقاداً ، فصرحوا بأن استدلال القرآن ، خير وأجدى من استدلال اليونان .
ففى هذا معقد ما نشير إليه من فرق بين أثر النظر العقلى ، ووقع اللحظ
الفنى ، وهو أصل لبيان أن الحقائق المختلفة إنما تتناول بأساليب مختلفة ،
ومناهج مناسبة . ومن أجل هذا دعونا الى تخلية الميدان البلاغى من آثار
الاضطراب الذى بثه فيه اضطراب المناهج ، وتناول الفنيات بما لا ينالها .

ثم من التخليصة أيضاً : ابعاد الأبحاث التى أقحمها فى البلاغة
اضطراب المنهج ، واختلاط المناهج :

وما نحاول هنا أن نحصى هذه الأبحاث ، ولكنا نشير إليها على سبيل
التمثيل :

أ — فمن تلك الأبحاث المشحمة : البحث " فى الصدق والكذب " الذى
ينسب إليه فى فصل خاص بين يدي علم المعانى ، وهو بحث
لم يعد له اليوم مكان بين فصول دراسة فنية أدبية .

ب — ومنها : بحث واو الحال ، والرباط فى جملة الحال ، الذى يفرد
له تدنيب بعد الفصل والوصل ، فانه نحوى فى جوهره ولبابه ،
ولا مكان له فى الدرس الفنى .

ج — ومنها : مقدمتهم فى الدلالات ، التى يقحمونها بين يدي علم البيان ،

وهي مقدمة منطقية ، لا ينفع علمها في ادراك صور البيان التعبيرية ،
ولا يضر جهلها ، بل تضر معرفتها حين تصرف عن تحرير المنهج .

د - ومنها : وقفهم عند أنواع الجامع في باب الفصل والوصل ، وبيانهم
للعقلي والوهمي والخيالي ، وشرحهم القوى الانسانية ، وتعرضهم لغير
ذلك من معارف ليست في شيء من هذه البلاغة .

تلكم هي كبريات خطوات التخلية في تحرير المنهج ، نفسح المجال
لما يتلوها من :

التعليمة

=====

واجل هذه التخلية وأحسنها أثرا : تمثل المنهج الفني تمثلا
واضحا ، والتزامه في هذا الدرس التزاما صادقا ، يعتمد على الذوق
المسعف ، والروح الحرة ، والرغبة الصادقة في تجديد هذه الدراسة .
وأسوق اليك مثالا مما يوجه اليه المنهج الفني ، ويبدو بها فرق ما بين
النظرتين ، وأثر المنهجيين :

١ - تعريف البلاغية :

=====

ولنعتمد التعريف الذي استقر عليه الدرس المنظم أخيرا ، وهو : مطابقة
الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . وهو ما يموزه البيان للحال والمقتضى والمطابقة
فاننا هم يكدون في بيان هذا كله ، وشرح ان هناك دواعي تدعو المتكلم
الى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصية ما ، وهو
الخصوصيات هي الاعتبارات المناسبة ، التي يرتفع شأن الكلام في الحسن
الذاتي والقبول بمطابقتها ، وينحط بعدم مطابقتها ، ثم هذه الاعتبارات المناسبة
انما هي أمور اعتبرها المتكلم مناسبة بحسب السليقة ، او بحسب تتبع التراكييب .
وهكذا لم يعط التعريف شيئا الا بشرح كاد مكثود .

واذا كان هذا هو التعريف الذى استقر عليه الدرس البلاغى أخيرا ،
 فهل يستطيع المنهج الفنى أن ينتهى الى شئ أبين من ذلك ؟ انه يعرف
 البلاغة بأنها " فنية القول " ، والقول الفنى : هو الكلام المعبر
 عن احساس الانسان بالحسن ، فكأنه بتلك القولة القصيرة يذكر جنس
 الحسن فى الكلام ، وهو كمال تعبيره ، ثم يبين مجال هذا التعبير
 فيخبره بأنه التعبير عن الاحساس بالحسن ، فيعين موضوعات هذا القول ،
 ويشير بذلك الى ما به كمال التعبير ، فانه التعبير الكامل أو الفنى
 عن الحسن ، هو الذى ينقل اليك احساس بهذا الحسن ، فتشعر به
 قائله بما وجد من حسن موفور أو منقوص ، ولا ينقل التعبير هذا الاحساس
 الا اذا كان فى أصله عند القائل احساسا ، وكان فى وقعه عند السامع
 مشاركة واضحة فى هذا الاحساس ، وتلك معان جهدوا فى النص عليها ،
 ولكن لم تحملها تعريفاتهم .

٢ — المتكلم والمتفطن :

=====

قرر القداماء من علماء المدرسة الكلامية أن قصد المخبر بخبره هو :
 افادة المخاطب الحكم ، أو افادته كونه المخبر عالما بالحكم ، ويسمى الأول :
 فائدة الخبر ، والثانى : لازمها .

تسمع هذا وقد سمعت قبله قولهم : ان البلاغة وارتفاع شأن الكلام
 فى الحسن ، انما هى فى الاعتبارات التى تعتبر مع الكلام ، الذى يؤدي به
 أصل المعنى المراد ، فتسألهم : اذا كان هناك معنى مراد ، ثم
 اعتبارات زائدة عليه ، فأين هذا كله فيما ذكرتم أنه كل قصد المتكلم
 من خبره ؟ وهل الكلام غير البليغ ولا الحسن لا يحقق هذا المقصد ،
 وهو افادة الحكم . الخ ؟ واذا كانت افادة الحكم أو افادة العلم به ،
 هى كل قصد المخبر بخبره ، فأين عمل البليغ وأثره ؟ وكيف نقيسون
 كلام البليغ بتحقيق هذا المقصد ؟
 تلك وما إليها وقفات يقتضيها منهج القوم فى تناول الموضوع ، وردهم

الأمر كله الى اعتبارات عقلية ، وضوابط ذهنية ، لا تقدر شيئاً من عمل المتقن . .
ولو جنبنا المسألة كل بحث ودرس ، ورددتها الى قريب الملاحظة ، لوجدت
أن الناس حين يتحدثون كل يوم ، وفي كل شأن ، يخبرون ليفيدوا ، وأما
حين يتحدثون في أحيان خلصة حديثاً مروباً متأنقاً ، فانما يتحدثون ليفثروا
في النفوس ويحركوها ، وذلك القصد الأخير هو ولا شك ما ينبغي أن يتحدث
عنه أصحاب البلاغة ، وأن يقيسوا به مقادير الكلام وأقذارها ، ولكن
كتب البلاغة الكلامية لا تعنى به فيما سمعت من قول أصحابها .

أما في المنهج الأدبي فالأمر منته الى مثل هذا الذي يجد الناس ،
عن طريق الوجدان الدقيق ، والنظر الفني ، إذ أن هذا الفن ليس الا تعبيراً
عن الاحساس بالحسن ، والمقصد فيه شيء غير افادة الحكم ، أو افادة معرفته
وهو ما ينبغي قولنا فيه من عمل ومقنة (١) . وهذا وحده قول المتقن
وصوغ المتأدب ، وتعرف الاعتبارات المناسبة ، والخصوصيات الزائدة على
أصل المعنى المراد .

ومن هنا تدرك عدوان المنهج غير الصحيح ، على أصول قويسية ،
وأسس أصلية للعمل الأدبي ، حين يسوى بين المتكلم والمتقن .

٣ — المتكلم والمخاطب —

=====

عنى البلغاء القدامى بالمخاطب عناية فائقة دون المتكلم ، فجعلوا
قصد المخبر يخبره هو افادة المخاطب . . الخ ، ثم رأوا أنه مادام القصد
هو افادة المخاطب ، فينبغي أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة ، ثم يلى
ذلك بيانهم لحال المخاطب ، فراحوا يقولون : ان كان المخاطب خالي الذهن
من الحكم فكذا ، وان كان متردداً فيه طالبا له فكذا . . . الخ .

هذا كلامهم في اعتبار حال المخاطب ، ولكن العلامة السعد يقول :
(فالجملة الخبرية كثيرا ما تورد لأغراض أخرى غير إفادة الحكم أو لازمه ،
مثل : التحسر والتحزن في قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران " رب انسى
وضعيتها أنسى " وما أشبه ذلك) • (١)
فهذا اشعار منهم بأن الجملة الخبرية تكون مقصودة لغرض خاص بالمتكلم
لا بالمخاطب ، كالتحسر والتحزن ، ولو ضمنا الى ذلك ما لهم من وضعات
لا محلة لحال المتكلم لشعرنا بما في هذا الاقتصار على أحوال المخاطب
من قصور •

ذلك أنك مثلا تراهم يقولون في تعريف المسند اليه بالعلمية : انه
يكون للاستلذان ، والتبرك ، والتفاؤل ، والتطير ، وهي وما اليها
أحوال للمتكلم لا للمخاطب ، ولها أثرها في صوغ التعبير وصنعه ، لكنهم
حين تحدثوا عن الأحوال وتقدرونها ، لم يشيروا الا الى حال المخاطب • وهذا
أثر فن آثار المنهج غير المستقيم ، حين يأخذ بظواهر النظر ، ولا يتتبع
الاعتبارات الأدبية •

٤ - الأحوال والأضرب :

=====

وفي ضبط هذه الأحوال نقرأ قولهم : ان كان المخاطب خالي الذهن
من الحكم والتردد فيه ، استغنى المتكلم عن مؤكدات الحكم ، وان كان
مترددا فيه طالبا له ، حسن تقويته بمؤكد ، وان كان منكرا وجب توكيده
بحسب الانكار : وهذه هي الأضرب الثلاثة التي سموها أضرب الخبر •
ووصفوها بالابتدائية ، والطلبية ، والانكارية •• تراهم يضبطونها ضبطا
عقليا حكما اثباتيا انكاريا ، وذلك اذا نظروا الى ظواهر الحال •• أما
حين ينظرون الى خوافيه ، أو خلاف مقتضى الظاهر ، كما يقولون ، فانهم

يظلون أيضا يحكمون في هذه البواطن بتلك الضوابط العقلية المنطقية : من انكار ، وتسليم ، وتردد ذهني ، وقبول عقلي ، فيجعلون غير السائل كالسائل ، وغير المنكر كالمنكر ، ويجعلون المنكر كغير المنكر ، ويجرون النفس على مثل ما أجروا عليه الاثبات ، من أحوال ذهنية عقلية ، واعتبارات ومعان منطقية ، لحال المخاطب وحده ، وكل هذه ليست الا آثار المنهج الفلسفي الكلامي في تناول الأمور البلاغية .

ويعلق الأستاذ الخولي على ذلك قائلا : فلنقل معهم مؤقتا ان المسألة ذهنية وعقلية ، فهل انتهت الاعتبارات العقلية عند الانكار ، والتردد ، وخلو ذهن ؟ .

ألم يذكروا هم أنفسهم قبل ذلك الموضع بقليل ، اعتبارات عقلية أخرى ، حين يقولون مثلا : ومقام خطاب الذكي يباين مقام خطاب الغبي ، فان الذكي يناسبه من الاعتبارات اللطيفة ، والمعاني الدقيقة ، ما لا يناسب الغبي . فما لهم لم يستوفوا الاعتبارات العقلية ، ويبينوا ما يناسبها ؟ .

ولكن هل الفن القولي في حياة الناس هو خطاب عقولهم ورياضة أذهانهم ، وآفاقهم هي هذه الآفاق العقلية التي وقف الأقدمون عندها ؟ لملك توقن أنه بغير هذا كله يلتمس القول الفني فهو استهواء واسترضاء وتأثير واجتذاب واستنفار وهاجعة و... مما هو من الحالات النفسية غير العقلية ، بل من الحالات التي ينوم فيها العقل ليوقظ غيره ، ولا يعنى فيه بتحويل الناس من الانكار الى التسليم ومن الجهل الى اكتساب المعارف واستفادة الأحكام . فبما وقف القوم عنده من العقلية — ولم يستوفوه — ليس من صميم العمل الأدبي في شيء ، ولا هو الذي تضبط به أحوال المخاطب ، ويقاس الكلام على قدرها ، ويحدد بحاجتها .

ومعد أن طال الكلام في هذه التحلية .. وهي : تمثل المنهج الفني تمثالا واضحا ، والتزامه في هذا الدرس التزاما صادقا .. نأتى الى تحليلية أخرى هامة للمنهج البلاغي وهي :

أن يقدم بين يدي هذا الدرس " مقدمة نفسية " : فقد بان لك أن الأمر في هذا الفن القولى ، ليس أمر المنطق العقلى الاستنباطى الفلسفى ، بل هو ألوان أخرى من المنطق العاطفى النفسى ، المتصل بحياة الإنسان الوجدانية ، ونشاطه الذوقى ، وإدراكه للحسن ، وانفعاله به ، وترجمته عنه . وإذا كان الأمر كذلك . . فقد حق على الأديب والناقد أن يعرف من أمر النفس الإنسانية ما يبصره بأسرارها ، ويكشف له عن خفاياها ، ما دام الفن ليس إلا تعبيراً عن خلجاتها .

ولذلك يجب أن تقتبس لدراسة فن القول مقدمة نفسية ، تبصر فى جملتها بالحياة الوجدانية ، والمواطف الإنسانية التى تسيطر على الحياة البشرية وتوجهها ، وليست المعانى الأدبية ، والمحاولات الفنية فى صورها المختلفة ، الانفئات منها ، ووضعاتها ، فهذه المعارف النفسية تعمق معانى الأديب وتسمو ، وتصدق أحكام الناقد وتصدق ، بل تصان الحياة الأدبية من تطاول المتطاولين ، وعبث الجاهلين ، فلا يكون فننا القولى لعباً بالألفاظ ، ولا تعلقاً بمشاكلات سطحية ، ولا يكون قد نال كلاماً معاداً ، وعبارات مرددة جوفاء خاوية ، ويكون الأدب كما ينبغي أن يكون فى حياة الفرد والجمع نشاطاً وجدانياً ، مسعداً على الحياة الكريمة .

ونقدم بعد ذلك لتحقيق نتائج المقارنة فى :

رابعاً : الغاية وحيويتهم ————— (١)

=====

في الحديث	في القديم
لفن القول غايتان : عملية ، وفنية ، فالغاية العملية هي : تحقيق مصالح حيوية للأفراد والجماعات ، والغاية الفنية : هي الامتناع بالتعبير عن الاحساس بالجمال ، أو بالتذوق الناقد لروائع الأداء الفني المترجم عن الشعور بالحسن . (٣)	كانت الغاية من درس البلاغة العربية حيوية في العصر الجاهلي وصدر الاسلام ، فكانت القوة والغلبة والتفوق غاية الاجادة القولية . ثم لما زجها الغرض الديني ، فكانت معرفة اعجاز القرآن من غاياتها ثم خلصت الدارسة للمعنى الديني ، وان خلطها غرض آخر وهو معرفة الجيد من الردي في الكلام (٢) .

ويبدو من هذه المقابلة أن أفق الدرس القديم في أرحب عهوده كان
أضيق من الأفق الحديث ، لاختلاف النظرتين الى الحياة . . . ونحسب

- ١ - انظر فن القول ص ٢٠٩ - ٢١٣ .
- ٢ - انظر فن القول ص ١٤٦ - ١٤٩ .
- ٣ - انظر فن القول ص ١٥٤ - ١٥٦ .

أننا اليوم فى حاجة شديدة لبسط هذا الأفق الى المدى الذى بلغه المحدثون فى نظرتهم للحياة وخبرتهم بها وسط هذا الأفق يحتاج الى مثل ما مضى من تخلية ، وتحلية ، ثم لعلنا نجد كل واحدة منهما : معنوية نفسية تارة ، ومادية عملية طورا .

فأما التخلية المعنوية : فبأن نحرر أنفسنا من الرجعية الفنية ، التى تدىن بأن كل خير فى الدنيا قد تقضى ، وأن المصور الذهبية قد فاتت ، فالمعاني الأدبية القيمة قد ذهب بها فحول القدماء ، والأساليب القويمية قد انفردت بها أقلامهم وألسنتهم ، والصور البيانية المشرقة قد استنفدها الذاهبون الأولون ، فما بقى لمن بعد هم شيء ، ولم يدعوا مجالاً لقائل ولا ناقد وما ترك الأول للآخر شيئاً ، حتى لنسمع اليوم من يحرمنا الحق فى الحكم الأدبى والبيان لشيء من ذلك بعد عبد القاهر ، فيقول فى جمود : " وليس بعد كلام الشيخ كلام " . لكن الحياة تقول فى اصرار : انها قد تحركت وتطورت وتغيرت قرابة ألف عام ، منذ جاءها هذا الشيخ . .

وليس يجب حين نحطم هذه الرجعة الفنية أن ننكر ما للقدماء من علم وفضل ، ولكن نقول : ان الانسان قد ارتقى وجدانه وعقله ، وان لسعة عقله وعمق معارفه أثرا بلى آثارا فى وجدانه وحسه ، وذوقه وفنه .

فلنحرر أنفسنا من هذه الأمسية الأدبية ، ولنخلصها من هاتيك الرجعة الفنية ، لتتجدد وتتدق ، وتحكم وتتبين ، غير مقلدة ولا جامدة .

هذا رأى الأستاذ الخولى ولكن أحب أن أقول : ان هذه الرجعة الفنية التى تحدث عنها الأستاذ ربما وجدت فى فترة من فترات حياتنا ولكنها لم تلبث طويلا ، بل حل محلها رغبة جارفة فى التقدم والتطور شملت جميع مرافق حياتنا ، ومن بينها الفنون والآداب ، وجميع العلوم نالها القليل أو الكثير من هذا التطور ، الا البلاغة — موضوع بحثنا — والتى أرجو أن تنال نصيبها من هذا التقدم والرقى .

تلك كانت التخلية المعنوية ..

وأما التخلية العملية : فبأن نحرر دراستنا من آثار الدراسة القديمة الضيقة الأفق .. فلا نلتزم المقررات الأدبية ، والأحكام النقدية ، فنستحسن ما استحسنا ، ونستهجن ما استهجنوا ، لفضل المبنى والتقدم ، وهكذا سنرفض أحكاما شائعة ، وأمثلة دائرة ، ونستبعد صورا رائجية ، فليس أعذب الشعر أكذب ، وليس خير المدح ما كان بالفضائل الأربع ، وليس هير المعاني ما وصل اليه الذهن بالكد ، وليس التصنع الزخرفى عملا فنيا ، ولنا نقبل تشبيه البحر بالقلل ، ولا البنفسج بالنار فى الكبريت ، ولا المرأة بالدعص والقضيب ، مهما يرد هذا فيما عدوه ممن عيون الشعر ، ومعلق القصائد . ولا سبيل هنا الى سرد كل ما نريد رفضه ، بل نقول فى اجمال جامع : ان لحياتهم بوضعها الاجتماعى ، واضطرابها السياسى ، ومستواها العلمى ، وحالها الخلقى ، ما تخالفه حياتنا اليوم فى الاستقرار الاجتماعى ، والنظام السياسى ، والتقدم العلمى ، والوضع الخلقى ، ولكل أولئك فعله بالدوق ، وأثره فى الفن .

ومن التخلية العملية أيضا : ألا نلتزم دراستنا الطابع الدينى ، الذى لزمها يوم كانت غايتها معرفة اعجاز القرآن .

ويقول الأستاذ الخولى فى ذلك . نحن لا نلتزم رأيا بعينه فى الاعجاز ، ونرى الحياة الدينية نفسها قد اكتفت من ذلك بما قيل ، فلا حاجة بها الى جديد فيه ، وان جدت بها تلك الحاجة ، التمتتها بنفسها على المنهج الذى تختاره ، وأغتنا من هذا التناول ، وبذلك لا نقف أمام الاعتبارات الاعتقادية التى تحد الدرس ، وتكف من نشاطه .

ولا تحسين عدم اتخاذ هذا الطابع الدينى فى الدرس ، وعدم الوقوف عند الغاية الدينية فيه ، يتضمن شيئا من عدم تقدير الفن القرآنى ، كما بل نحن حين نرفض التزام الرجوع فى مثلنا وأمثلتنا الى الأدب القديم ، نحصر حرصا عظيما على الرجوع فى مثل هذا الى القرآن وفنه العالى . وكل ما هنالك

أننا في سبيل تحرير النفس والذوق ، ورد الحرية الى الوجدان ، نؤثر
أن نصل الى مثل هذا التقدير للقرآن ، عن طريق درس خالص من التقليد ،
متحرر من التحديد والتقييد .

هذا رأى الأستاذ الخولى . . . وكنت أحب أن يوضح رأيه أكثر ،
وبين كيف يمكن أن نصل الى مثل هذا التقدير للقرآن عن طريق درس خالص
من التقليد ثم كيف يغيب عن بال الأستاذ ، اتصال البلاغة بالنهـج
القرآنى حفظ لها حياتها وأمد ها بأسباب الروعة والخصب والنماء . . . " ويوم أن
حال المتأخرون بينها وبين هذا النهج ، وقصروها على مثلهم المرددة الموروثة
جمدت وجف ماؤها ، وذهب رونقها ، وفقدت جمال الفن ، وروعة الأدب " (١)

وعلى كل لنا عودة الى هذا الموضوع حينما نتحدث عن :

قضية الاعجاز .

تلك كانت التخلية : المعنوية النفسية ، والعملية المادية .

وأما التطيعة المعنوية :

=====

فإن نشعر بمعظمة الغاية التى نلتص من أجلها الدرس الأدبى
وحيويتها . . . وأنها تحقيق لضرب من نشاط الفرد والجمع يحقق نتائج عملية ونفسية ،
تسعد بها الحياة سعادتها بغيرها من ألوان النشاط العلمى والعملى ، لأن
لكل جانب من جوانب حياة الواحد والأمة قوى ، تعمل لتحقيق حاجتها ،
وتوفير كماله الحيوى ، والجانب الوجدانى من جوانب الحياة التى يحقق

التفنن حاجتها ، ويدنيها من كمالها ، والقول الفنى أكثر صنوف الفنــــــــــــــــون
شيوعا فى الناس ، ولزوما لهم ، واسعادا لجمهورتهم ، وهم أكثر حاجة
اليه ، وأنسابه ، كما يكشف ذلك الواقع ، وتزيد نوايس التجمع .

ومن التحلية المعنوية أيضا : أن نشق بأن فى الثقافة العلمية والفنية
لهذا العصر ، ما ينبغى أن يلتصق : تسديدا للنظر الفنى ، وارهافا
للذوق الأدبى ، وأن درس هؤلاء المحدثين للحياة الانسانية من نواحيها
المختلفة ، أو درسه لجوانب الكون ، ومحاولتهم فى تفسير ذلك وتفهمه ،
قد أوفت على أشياء ، أمست من ثقافة الأديب ، التى لا مفرد اليوم
من الالطام بها . ومع ذلك تأتى :

التحلية العملية : بأن نزود ثقافتنا الأدبية بما يجدى
عليها من دراسات فنية لها اليوم تقدمها :

كمعرفة قدر من أصول الموسيقى وفلسفتها ، والاتصال بالمذاهب الفنية
المحدثثة فى سائر الفنون ، ومعرفة وجهات أصحابها ، وفعل الحياة بها . .
هذا وما اليه ، مما يكمل الشخصية الأدبية المصرية ، ويجعلها جديرة
بأن ترضى ذوق العصر فى أدبها ، وتترجم عنه فى نقدها .

ولئن كنت فى هذه التحلية المعنوية والعملية قد شارفت آفاقا ليست
من مألوف الدرس الأدبى عندنا حتى اليوم ، فلا بدع أن يكون ذلك استشرافا
لغاية سامية ، كالفائدة الجليلة التى نريد لفن القول أن يحققها .

وفى التحلية العملية الأخيرة التى يراها الأستاذ الخولى ضرورة وهامة
وهى أن نزود ثقافتنا الأدبية بما يجدى عليها من دراسات فنية لها اليوم
تقدمها .

كنت أحب — لأهمية هذا الزاد الجديد — أن يوضح الأستاذ
رأيه بتطبيق بعض الأمثلة على الأقل ، ولا يكتفى بقوله مشــــــــــــــــلا :

" كمعرفة قدر من أصول الموسيقى وفلسفتها .. " فط هو هذا القسدر
المقترح ؟ وهل للموسيقى فلسفة ؟ .. ان الذى نعرفه أن أصول الموسيقى
تتلخص عندنا فى النغمات الشرقية مثل : الرست ، والنهائند ، والبياتى ،
والسيكة ، والدوكة ، والصبا ، الى غير ذلك من النغمات الكثيرة التى
تصل الى أكثر من ستين نغمة . فهل يريد الأستاذ أن ندرس هذه النغمات
ونحللها الى درجاتها الصوتية ومساحة كل صوت حسب النوتة الموسيقية ؟
ان ذلك يفيد الموسيقيين والمطربين لا شك ، ولكن بماذا يفيد الأدباء ؟
ولعله يقول : أنا أقصد أصول الموسيقى — عندهم — هذه المحدثين
من الغربيين .. وأقول : ان أصول الموسيقى هناك تتلخص فى : السلم
الكبير (الميجير) ، والسلم الصغير (المينور) بالإضافة الى النوتة
الموسيقية التى استحدثوها وأصبحت لغة الكتابة الموسيقية فى العالم ،
وقد وضعوا لهذه النوتة خطوطا ومسافات ترمز الى درجات الصوت ، كما
وضعوا رموزا أخرى للوحدات الزمنية للصوت ، مثل : النوتة ، والبلاش ،
والنوار ، وغير ذلك مما يتضح فى دراسة النوتة الموسيقية . فهل يقصد
الأستاذ الخولى شيئا من ذلك ؟ وما جدواه غير اضاءة الوقت فى تخصص
آخر غير الأدب فى الوسيلة والأداة ، وان كان يلتقى معه فى النهاية .

ولو أن الأستاذ الخولى قال : " كممارسة قدر من التذوق الموسيقى "
لهان الأمر ووضح ، فالتذوق للموسيقى ولأى لون من ألوان الفن لا شك
مما يساعد الأديب ويسمو بحاطفته وأحاسيسه .

ولكن القدماء من أعلام المدرسة الأدبية حينما قالوا : ان الأدب والموسيقى
شقيقان ، انما كانوا يقصدون ذلك والاستاذ الخولى ما زال يشير فى غير
موضع الى أهمية الذوق والتذوق فى الفنون بعامة وفى البلاغة والأدب بخاصة ..
وها هوذا يعود الى الذوق بعد هذه الجولة فى المقارنة بين القديم والحديث ،
فيتحدث عنه تحت عنوان :

... وشئ ليس فى الكتاب

يقول : الآن فرغنا من عرض نتائج المقارنات ، وبيان كيفية تحقيقها ، فالمعنا

بأصول التغيير العام والخاص لبحث البلاغة ، تغييرا صير البلاغة " فن القول " لكننا ان نمسك القلم عند هذه المرحلة نشعر بأن فوق ذلك الذى قلناه كنه شيئا ، هو الأساس الأول ، والعامل الأقوى ، واليه المنتهى ، وعنده المصدر ، فى ذلك التعبير كله ، وهو شئ لا سبيل الى تلقينه وتعليمه ، والتبصير بمصادره ومراجعته ، لأنه شئ ليس فى الكتب ، كما قال القدماء ، ولا هو مما يكسبه من حرم أصله ، ذلكم هو " الذوق " (١) . .

والآن وقد بسطنا فى التخليلات ما سندع ، وسينا فى التحليلات ما ستأخذ ، وأدركنا ما عليه المعتمد فى ذلك كله ، نتقدم فسى اطمئنان للحديث عن :

مباحث فن القول

=====

أخيرا وبعد هذه التمهيدات الطويلة التى كان لابد منها لنمصرف ونقدر وجهة نظر الأستاذ الخولى فى التجديد ، وكيف استنتجها وتوصل اليها . . . فدرسنا معه كلا من : صورة البلاغة ، ودائرة بحثها ، ومناهجها ، وغاياتها ، وأثر الحياة الاجتماعية والبيئات الثقافية فى كل ذلك قديما وحديثا . . . ثم قارنا بين كل ذلك قديما وحديثا ، وخرجنا من هذه المقارنات بما رآه الأستاذ الخولى من تخلية وتحلية ، وعرفنا المراد بكل منهما ، وضرب لنا الأستاذ بعض الأمثلة ، وان لم يعن بتطبيقها . .

بعد كل ذلك أصبحنا مهئين لتلقى وتفهم الخطة الجديدة التى وضعها الأستاذ الخولى لنصل الى بلاغة جديدة . . . وهذه الخطة تتلخص فى المباحث الآتية : —

- ١ - المبادئ : وهي فى اصطلاح القدماء اسم لما يقدمونه بيمين يدي العلم من تعريف له ، وبيان لموضوعه ، وغايته ، ومكانه فى دائرة المعارف الانسانية ، وما هو من ذلك بسبب .
- ٢ - المقدمات : وهي مقتبسات من دراسات أخرى ، تؤيد هذا الدرس ، وتثير سبيله ، ومنها : المقدمة الفنية ، والمقدمة النفسية .
- ٣ - الأبحاث : وهي لب الدرس وصميمه ، وسنديرها على اعتبارات فنية من طبيعة العمل الأدبى ، غير متقيدين بالتقسيم القديم المعروف ، ولا متدئين من بدئه ، ولا منتهين عنده نهايته ، على ما سترى بعد ، فنبحث الألفاظ والمعانى ، لأنها عنصر العمل الأدبى ، وسنبحث عن الكلمة ، فالجمل ، فالفقرة ، فالصور البيانية ، فالقطعة الأدبية ، فالأساليب ، وفنون النشر والشعر . . . الخ .
واليك تفصيل ذلك كله :

خطة فن القول (١)

=====

أولا : المبادئ :

=====

التعريف فن القول — غايته — صلته بخيره من الدراسات — صلته

بالدراسة الأدبية : بالأدب — بالنقد الأدبي — بتاريخ الأدب •

ثانيا : المقدمات :

=====

١ — المقدمة الفنية :

=====

الفن — حقيقته — الفن بين المعارف الانسانية :
الفن والفلسفة ، الفن والعلم ، الفن والجمال ... قبسات —
علم الجمال عن بيانه ، وفيم يكون ، وم يقدر ، والآراء فى ذلك
قديم وحديثا •

وفى هذه المقدمة مجال فسيح لاقتراح دراسات أخرى من مختلف
الفنون تمد الثقافة الأدبية بط يجعلها ملائمة للعصر .. وتلك خطوط
كبرى مدح تفصيلها الدقيق للتطبيق ، ثم لتفكير من يفكر •

ب — المقدمة النفسية :

=====

القوى الانسانية المختلفة : وصلة بعضها ببعض ، والآراء فيها قديما
وحديثا ، ونواحي اتصال هذه القوى المختلفة بالعمل الفنى ، وتأثيرها
فيه •

وكذلك الحياة الوجدانية : مقوماتها — أغراضها — رياضتها —
صلتها بجوانب الحياة الأخرى — المواقف والمشاعر الانسانية ، وما تمتد
به العمل الفنى ولا سيما الأدبى .. الخ وما يتصل بذلك ، مما
أفضل ألا أتولاه أنا بالتفصيل ، وأوثر أن أتركه لمتفرغ لدرس النفس
يكتب هذه المقدمة النفسية •

ثالثا : الأبحاث :

=====

أولا = فى الكلمة :

=====

١ — من حيث هى عنصر لغوى : حسن اللفظة من حيث جرسها

الصوتى — حسن الكلمة من حيث أداؤها لمعناها — أمثلة للنوعين ومبيان
الفرق بينهما — الضابط لحسن الجرس الصوتى هو حصى الأذن للأصوات —
لكل لغة ذوق صوتى خاص تنتظم أصوله قواعد الصرف — اختلاف الكلمة
فى الجملة كاختلاف الحروف فى الكلمة •

الصوت والمعنى : تناسبهما — الجزالة والرقعة ، ومواضع كـل ،
وأنهما أثر ل تناسب المعنى مع الصوت — ضبط ذلك بالحس الفنى •

زيادة حسن أداء الكلام لمعناه بالرنين الصوتى وتأثيره : الجناس ،
والسجع ، التصریح ، والتضريح ، ورد المعجز على الصدر ، ولزوم مالا
يلزم ... الخ • درجة الحسن فى هذه المحسنات ومنشؤه ، واتصاله
بالمعنى دائما ، فإذا فقد ذلك الاتصال فسد •

ب — من حيث هى جزء الجملة : حسن دلالة الكلمة على معناها
فى الجملة ... وتأثر هذه الدلالة بثلاثة أشياء :

الوضع : كما يسميه القدماء — ثم الاستعمال : وما يتركه
من أثر فى مفهومها — ثم نظم الجملة : وأثره فى هذه الدلالة •

واليك توضيح كل منها —

١ — الوضع اللغوى : اعطاؤه الكلمة مادتها وصيغتها — تعيينه
معناها ، وما تصلح له من موضع فى الجملة — ليست كل كلمة ، تصلح لكل
موضع فى الجملة — نظم الجملة فى العربية وأمهاث النظرات الأدبية فيه •

الوضع يهيم للكلمة — فوق ما سبق — خصائص أدبية تؤثر فى دلالتها :
بيان ذلك فى استعمال النكرة واستعمال المعرفة — خصائص التكثير فى
جزء الجملة — ركنها كان الجزء أو مكملها — خصائص التعريف فى جزء الجملة •

تفاوت أنواع التعريف المختلفة فى التعيين والدلالة — الاعتبار الأدبية
التي يؤثر بها الأديب معرفا على معرف • الضمير : أصل وضعه اللغوى
وأثره البلاغى — وضع المضمرة موضع المظهر والعكس ، وأثر ذلك فى

الكلام — تلوين الخطاب بالمخالفة بين أنواع الضمائر :

الالتفات وأثره في الكلام .

العلم — اسم الإشارة — الاسم الموصول — المصروف بال — المصروف
بالإضافة — الأصل الضمني لكل واحد منها ، وبيان الأثر الأدبي الخاص
به في الاستعمال ، والمواطن التي يحسن فيها .

تعريف طرفي الجملة وأثره في المعنى : " القصير بالتعريف " .

الفعل والاسم ومعناهما في الوضع اللغوي — الأثر الأدبي —
لهذا في معنى الجملة الاسمية والجملة الفعلية — وضع احدي
صيغ الفعل مكان الأخرى ، كالمضي مكان المضارع ، وأثر ذلك في المعنى .
أضرب من مخالفة الوضع اللغوي : كالتوسع ، والتقليب ، والتعبيير
عن المعنى بالواحد . وما إلى هذا ، وأثره في المعنى .

٢ — الاستعمال : الظواهر الاجتماعية المفسرة لأحواله ، نصيب الكلمات

منه .

تغيير الاستعمال قلة وكثرة ، وتأثير ذلك في دلالة الكلمة ووضعها .
قلية حظ الكلمة من الاستعمال تضعف دلالتها على معناها —
فتصير غريبة ، أمثلة لذلك ، اختلاف القرابة باختلاف العصر وأصلية
لذلك ، ضبط معنى القرابة باعتبار أدبي ، مراعاة حاجات الحياة
الأدبية وظروفها عند الحكم بالقرابة .

كثرة الاستعمال الأدبي لبعض أوضاع الكلمة تجعلها أفضل من أوضاعها
الأخرى : أمثلة لحسن استعمال الصيغ الفعلية من مادة ، دون الصيغ الاسمية
والعكس — فضل بعض صيغ الأفعال على بعض — حسن استعمال المفرد دون
الجمع والعكس ، أمثلة لذلك ، وبيان سببه .

الاستعمال : يوسع بمجموعة القرائن دلالة بعض الكلمات ، أمثلة لذلك
فيما يلي :

أدوات الاستفهام : وما قد تؤديه من المعاني وراء طلب الفهم ، تدقيق الأمثلة

المؤيدة لذلك ، وتقدير أثرها فى المعنى .

أدوات النداء : وما قد تجديه من المعانى وراء طلب الاقبال ، تذوق

الأمثلة المؤيدة لذلك ، وتقدير أثره فى المعنى .

أدوات النهى : وما قد تجديه من المعانى وراء طلب الترك ، تذوق

الأمثلة المؤيدة لذلك ، وتقدير أثره فى المعنى .

الاستعمال : يوسع بمعمونة القرائن دلالة الصيغ ، أمثلة ذلك فى

صيغة الأمر ، وما قد تحتطه من المعانى وراء طلب الفعل . . . صيغ

الاخبار ، وصيغ الانشاء ، ودلالة احداها على الأخرى ، وأثر تبادلها

فى الاستعمال ، وأمثلة ذلك .

اختصاص : بيئة من البيئات باستعمال كلمة ، يعطيها عند هذه

البيئة دلالة غير دلالتها اللغوية الأولى ، أثر العرف والاصطلاح فى ذلك ،

وأمثلة لما يزيدانه فى دلالة الكلمة ، الاستعانة بذلك على توسيع اللغات

للفواء بحاجة العلوم والفنون والأعمال ، وحاجات الحياة المختلفة للجماعة .

الاكتار من استعمال الكلمة : يمكنها من أداء معنى أوسع ، هو من

معناها الأول بسبب ، وهذا هو التجوز اللغوى — النظر فى سعة اللغوة

بالمجاز ، والفرق بين المجاز اللغوى والمجاز الأدبى — الصلات بين

المعانى هى التى تساعد على هذا الأثر للاستعمال (وهى " العلاقة "

فى قولهم) — أثر الاستعمال المجازى فى الدلالة ، وقيمه الأدبية .

أثر المركز الاجتماعى للبيئة المستعملة للكلمة عليها : رفعة وضمة ،

وكرامة وابتدالا — أمثلة لذلك — اختلاف باختلاف الأعراف فى الكلمة

الواحدة الانتفاع بهذا فى الفن القولى — اللغة اليومية ولغة الأدب : الفرق

بينهما — أثر الاستعمال فى قوة الكلمة وفورها ، وعقها وسطحيها — الحال

النفسية للفرد والجماعة ، متكلمين ومخاطبين — وأثرها فى مدلول الكلمات

حسن الانتفاع بذلك فى الفنون الأدبية .

٣ — النظم أو تأليف الجمل :

بعض مواضع الكلمة فى الجملة واجب نحويا ، وبعضها جائز يمكن تغييره ،
أمثلة ذلك — الأحوال الواجبة لا بحث للفن فيها الا من حيث تكشف
خصائص اللغة العامة — أحوال الكلمة الجائزة فى الجملة هى موضع البحث
البلاغى يفاضل بينها — ليس كل ما جاز نحويا كان بليفا ، أمثلة ذلك —
يفسر ايثار الأديب حالا من أحوال الكلمة فى الجملة على حال أخرى فيط يلى :

التقديم والتأخير : الجائزان ، وما تتأثر به دلالة الكلمة اذا
قدمت فى الجملة ، وما تتأثر به دلالتها حين مؤخر — التخصيص بالتقديم ،
والقصر بالتقديم ، والفرق بينهما .

الحذف والذكر : الجائزان ، وما تتأثر به دلالة الكلمة حين
تذكر وقد أمكن حذفها أو العكس — رجوع الحذف والذكر حينما الى نفسية
المتكلم ، وحينما الى نفسية السامع ، وأنا للموضوع الفنى المتناول ، أمثلة
لذلك .

يكون جزء الجملة جملة ، ولذلك أثره فى المعنى — تتقابل معانى
أجزاء الجملة أو الجمل ، فيكون لذلك أثر فى حسن الكلام (وهو الطباق) .

ثانيا — فى الجملة :

=====

ربط جزأى الجملة بالاسناد — استناد الشئ لغيره من صوره منه (المجاز
العقلى) — ما يراعى فى ذلك من الاعتبارات الأدبية ، وأثره فى المعنى —
بعد هذا الاسناد عن الجوال الدينى الذى أحيط به عند القدماء .

يدخل المؤكد على الجملة كلها ، ولهذا أثر يفتق عند ادخاله
على جزء منها — الاعتبارات الحقيقية لتوكيد الجملة .

يكون توكيد المعنى بغير المؤكد الحرفى : كالاقتسام فى الكلام ، والقول
بالموجب ، والتعليق ... الخ

القصر بالأدوات : (انط ، ما و الا) وأثره فى توكيد الجملة
الاعتبارات الأدبية التى تلحظ عند استعمال كل أداة وشاهد ذلك •

ادخال أدوات الشرط : على الجملة وأثره — ما يلحظ من
الاعتبارات الأدبية فى استعمال كل أداة من أدوات الشرط •
ايجاز الجملة واطنائها : وما يضبط ذلك أدبيا — أسباب ذلك
أنواع الايجاز فى الجملة ، وأنواع الاطناب فيها •

ثالثا = فى الفقرة :

=====

التقييم اللفظى لجمال الفقرة (الفصل والوصل) ، الضوابط الفنية
لذلك •

ايجاز الفقرة واطنائها : مقتضياته — ضابطه •
الفقرة فى العمل الأدبى جزء من صورة متناسقة فنية الخلق •

رابعا = فى صور التعبير :

=====

(ا) اختلاف صور التعبير يحدث تأثيرا وقوة ، بيان ذلك والدلالة على
التأثير والقوة فى الأمثلة المسوقة — قوة الابانة تكون بالايضاح المعلن ،
أو بالتظليل المؤثر — ايضاح ذلك بالأمثلة ، وبيان ناحية القوة فى
أمثلة الصنفين — اختيار كل صنف لمقامه المناسب يختلف باختلاف
الموضوع ، وحال المتكلم ، وحال السامع ، من حيث الاعتبارات الفنية —
تكون صورة التعبير من جملة واحدة ، وقد تكون بفقرة من عدة جمل ،
أمثلة ذلك •

(ب) صور الايضاح المعلن :

التشبيه : العمل الفنى فيه — الأثر الأدبى له — أغراضه •
أنواعه ، وما يتحقق من الأثر فى كل نوع — الشواهد الأدبية الكافية
لذلك كله •

الاستعارة : ربطها بالتجوز ، وأثر الاستعمال (على ما مضى
في درس الاستعمال) — العمل الفني في أنواع الاستعارة المختلفة —
بيان تفاوته فيها •

الأثر الفني للاستعارات المختلفة من تصريحية ومكنية — الشواهد
الأدبية الكافية لذلك •

الكتابة الموضحة : العمل الفني فيها — أثرها الأدبي — الشواهد
الأدبية الكافية لذلك •

التجريد : العمل الفني فيه — أثره الأدبي — الشواهد
الأدبية الكافية لذلك •

القلب : العمل الفني فيه — أثره الأدبي — الشواهد الأدبية الكافية لذلك •

أسلوب الحكيم : " " — " " — " " — " " — " "

المبالغة : " " فيها — " " — " " — " " — " "

تأكيد المدح بط

يشبه السذم : " " فيه — " " — " " — " " — " "

التدبيح : " " — " " — " " — " " — " "

التهيين

والالهاب : " " — " " — " " — " " — " "

التهكم (بجملة) : " " — " " — " " — " " — " "

الفكاهة (في جملة) : " فيها — أثرها — " " — " " — " "

التجاهل : " " فيه — أثره — " " — " " — " "

(ج) صور التعبير المظللة :

الرمز والايحاء (بجملة) : العمل الفني فيه ، الأثر الأدبي له ،
الشواهد الأدبية الكافية •

الالغاز : العمل الفني فيه ، الأثر الأدبي له ، الشواهد الأدبية الكافية •

التورية : " " فيها ، " " لها ، " " " " " "

الاستخدام : " " فيه ، " " له ، " " " " " "

الاتساع : " " " " " " " " " " " "

خامسا - فى القطعة الأدبية :

=====

- (ا) - عناصر العمل الأدبى : الآراء فى ذلك - ايثار القول الفنى منها •
علاقة ما بين اللفظ والمعنى فى العمل الأدبى • مع الاشارة الى
ما تقدم كالتناسب • وما وراء ذلك مما يلحظ من هذه العلاقة •

- (ب) - الصناعة المعنوية (مباحث المعانى الأدبية) :
خصائص المعانى الأدبية المميزة لها عن غيرها من المعانى - مصادر
ايجاد المعانى الأدبية • وطرائق هذا اليجاد تفصيلا - الأدب
والثقافة العامة والخاصة - الرياضة الأدبية وطرقها قديما وحديثا فى
تفصيل - ترتيب المعانى الأدبية - العوامل الأدبية والنفسيية
فى ذلك واختلافها فى المتفنيين • وأثرها فى فنهم - عرض
المعانى الأدبية واخراجها • واختلاف الأدباء فى ذلك وأثره •

- (ج) - الفنون الأدبية المختلفة :
أقسام العمل الأدبى قديما وحديثا • واختيار الفنى من التقسيم
خصائص الشعر : فى عباراته • ومعانيه • وموضوعاته •
وخصائص كل فن من فنونه •
خصائص النثر : فى عباراته • ومعانيه • وموضوعاته • وخصائص
كل فن من فنونه •

سادسا : فى الأساليب :

=====

- الأساليب الفنية فى الأدب وما سواه من الفنون • دلالتها على شخصية
المتفنى - الاعتبارات النفسية والأدبية التى يقوم بها تميز الأسلوب •

الأساليب الأدبية : من حيث هي طراز في الإخراج والعرض تميز عمل الأديب ،
مثل الأسلوب الرمزي ، والفكاهي ، والتهكمي ، في عمل أديب كأمسبيل —
مقومات مثل هذا الصنيع ، ومميزاته ، مع الإشارة إلى الروائع الفنية من كسبيل
طراز .

=====

وأخيرا .. معد هذا العرض المستفيض يقول الأستاذ الخولي :
تلكم هي خطة فن القول ، وتنسيق بحوثه ، لا نقول انهـــــــــــــــــا
في صورتها الأخيرة ، بل نقول انها تخطيط لمحاولة ، نأمل أن تظلـــــــــــــــــل
أبد الدهر — لو أمكن ذلك — رهن التغيير والتعديل ، وهدف التجديد
والتحسين . يضيف اليها ، ويحذف منها ، وينسقها ، من تهـــــــــــــــــيمات
له القدرة الصادقة على ذلك ، وكانت له فيه بصيرة خيرة ، ليظل هـــــــــــــــــذا
الدرس من الفن القولي صدى لحياة أهله ، وسبيلا لتحقيق غاياتهم في الحياة
الوجدانية الراقية .

فن القول في المـــــــــــــــــيزان

=====

حينما نريد أن نتكلم عن " فن القول " للأستاذ الخولي .. فلا بد
أن نرجع البصر سريعا إلى كتاب " الأسلوب " للأستاذ الشايب .. فهـــــــــــــــــا
الكتابان اللذان تجرأ كل منهما ووضع منهما جديدا متكاملا للبلاغة .

ومنظرة فاحصة نجد أن العلاقة بين الكتابين شديدة ، والأفكار متشابهة ،
فالأستاذ الشايب متأثر بدعوة الأستاذ الخولي ومحاضراته في تجديد البلاغة —
وقد سبق وقلنا رأينا في كتاب الأسلوب ، وأن الفصل الأخير منه عن الأســــــــــــــــلوب
هو الذي يمكن الاستفادة به في تجديد البلاغة .

أما كتاب " فن القول " فانه ملئ بالارشادات والتوجيهات والتحليلات والمقارنات التي يحتاج اليها من يتصدى لتجديد البلاغة . . وقد سـرد الأستاذ الخولى فى آخر كتابه خطة مجلدة ومفصلة لتصوره الذى استقر عليه فى تجديد البلاغة . . وهذه الصورة التي استقر عليها ليست هى الصورة الأخيرة للبلاغة أو فن القول — كما يقول — وانما هى تخطيط لمحاولة يود أن تظل أبد الدهر — لو أمكن — رهن التنوير والتبديل والاضافة والتحسين من تهيات لهم القدرة الصادقة على ذلك .

والواقع أن هذه الخطة تحتاج الى لجنة كبيرة من كبار المتخصصين لتطبيقها والافادة منها وتعديل ما يستحق التعديل فيها . فقد تـصل الأستاذ الخولى من مهمة التطبيق ، وتركها لمن يأتى بعده من المهتمين بشئون البلاغة . فـالقدمة الفنية — مثلا — وضع خطوطها ، وترك تطبيقها لتشكير من يفكر (١) ، والقدمة النفسية — كذلك — أشرأن يتركها لمشفر لدرس النفس يدرس علم النفس ، وقال : ولى من الثقة بمعمونة أصحاب الدراسة النفسية ما يطمئنى على تحقيق هذا الرجاء (٢) .

ويقول فى آخر الكتاب : (وكنت هممت بأن أفرد كتابا مستقلا من كتب هذا المؤلف ، بباب من الأبواب الكبار فى هذا الدرس ، كباب الفصل والوصل ، وقد أشار القدماء بأهميته ، ودعاه التجديد باب ترقيم الجمل فى الفقرة ، والفقرة فى القطعة ، فأتولاه ببيان مفصل ، عن التخلية فيه ، والاستغناء عما لا يجدى ، ثم التخلية له والاكمال بما يحقق الغاية . . لكن رثى أخيرا الاكتفاء بما سبق من بيان وتمثيل وهدى ، يصح أن يترك الدارسون بعده لي تجربوا قواهم فى ذلك التنوير . . الخ) (٣)

-
- ١ — انظر ص ٢١٦ فن القول .
 - ٢ — انظر المرجح السابق .
 - ٣ — انظر ص ٢٢٤ فن القول .

ونحن — بفضل الله وقوته — سنحاول في المستقبل القريب —
ان شاء الله — أن نساهم في تطبيق هذا المنهج . . . أو جزء منه .
حسب ما يتاح لنا . . فان هذا المنهج على جدته وطرافته منهج نظري
قاصر ، ونحتاج كثير من مباحثه الى الايضاح والتطبيق ، حتى لكان الخطبة
فهرس لعناوين كلية وجزئية . . . ان هذا المنهج على قصوره واقتضاره على
الناحية النظرية جدير بالعناية والتطبيق ، وهو على أي حال خير من بقاء
البلاغة على وضعها الحالي ، ولن نخسر علوم البلاغة الثلاثة كثيرا بالغاء
اسمها وتقسيمها ما دامت داخلية بطريقة أو بأخرى في مباحث المنهج الجديد .

وانا ما كان لنا من رأي فهو أن هذه المباحث تحتاج الى اختصار وتركيز
فهي عند التطبيق — فيما يبدو — طويلة وكثيرة على دارس البلاغة .

كما أن الاحتفاظ باسم (البلاغة) كعلم على هذا المعلم الجليل
وفنه أمر هام . . ولا يمكن أن يقوم عنوان " فن القول " مقامها . . وان صلح
تعريفها . . خاصة وأن هذا العنوان يصلح عنوانا لدراسة الأدب كذلك .

هذا والأستاذ الشايب هو أيضا — كما أوضحنا من قبل — كان قد
اقترح أن يبدل اسم البلاغة بالأسلوب ، وقلنا هناك ان كلمة الأسلوب تصلح
كذلك لأكثر من موضوع ، فلكل علم أسلوبه ، ولكل فن أسلوبه .

أما كلمة البلاغة فما زال لها رونقها وسبقها واختصاصها بهذا الفن
وحده دون سواه .

وأخيرا أقول : ان كتاب " فن القول " له وزنه وقيمته في مجال تجديد
البلاغة ، وما ورد فيه من خطة ومنهج يجب أن يوضع موضع الاعتبار لصالح
بلاغتنا الحبيبة ، حيث لم نجد حتى الآن من تقدم ووضع خطة أفضل . . وقد
يظهر في المستقبل القريب أو البعيد من يستطيع تعديل هذه الخطة أو يأتي
بأفضل منها . . ولكن حتى ذلك الحين يجب أن نهتم بخطة " فن القول "
ونسـتفيد منها .

الفصل الثالث

=====

المنهج المدرسي الحديث

في البلاغة

=====

البلاغة في مدارسنا

=====

جرت محاولات عديدة لأحياء دراسة البلاغة في المدارس الثانوية ، والنهوض بهذه المادة الهامة من مواد اللغة العربية . فوضعت مناهج جديدة • وألفت كتب جديدة لهذا الغرض •

ولا شك أن المناهج والكتب الجديدة في مادة البلاغة أفضل من القديم الذي لم تعد تستسيغه عقول الجيل الجديد وأذواقهم ، فهي خطوة أو خطوات على طريق تجديد البلاغة والنهوض بها ، بعد الخطوة الأولى التي بدأ بها كتاب البلاغة الواضحة كما أوضحنا ذلك من قبل •

ولكن إلى أي مدى من التجديد وصلت هذه المناهج المدرسية للبلاغة وكتبها ؟ وهل استطاعت أن تصل إلى عقول الدارسين وتؤثر فيهم ؟ أذواقهم ؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه في هذا الفصل من البحث •

ومن أجل ذلك فالتعرض هنا أحدث منهج للبلاغة وضع سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ضمن مناهج التعليم للمرحلة الثانوية (١) بالملكة العربية السعودية ، وقام بوضعه إدارة المناهج والبحوث بوزارة المعارف والرياسة العامة لتعليم البنات •

وغايتنا من ذلك تقييم عملية تطوير البلاغة في موقعها العملي حيث تدرس للجيل الجديد نظرياً وتطبيقياً وأثر ذلك في أجيالنا وحياتنا الثقافية •

ونحب أن نقول في بادئ الأمر أن هذه الجهود في ترقية
درس البلاغة وتطويره جهود مشكورة • أصابها التوفيق أو جانتهم •
وصادفها الصواب أو أخطأها • فما زالت البلاغة في حاجة إلى مشـ
هذه الجهود المشكورة من اللجان التعليمية والعلماء المتخصصين •

=====

منهج النقد والبلاغة للمرحلة الثانوية

=====

وفى مقدمة هذا المنهج نجد أهدافا وتوجيهات نعرض صورة منها :

أ- الغاية من تدريس البلاغة والنقد :-

=====

- ١ - اعداد الطالب على وجه يمكنه من الوقوف على أسرار الاعجاز فى القرآن الكريم وادراك جماله .
- ٢ - اقداره على تذوق جمال الحديث النبوى والجيد من كلام العرب شعرا ونثرا .
- ٣ - تعريف الطلاب بصفات الأسلوب العربى الجميل وتدريبهم على الاستفادة منها فى تكوين تعبيرهم .
- ٤ - تنمية الذوق الفنى لدى الطلاب وتمكينهم من الاستمتاع بما يقرءون من الآثار الأدبية الجميلة .
- ٥ - ادراك الخصائص الفنية للنص الأدبى ومعرفة ما يدل عليه من نفسه الأدب ، وما يتركه من أثر نفسى نفس السامع أو القارئ ، وتكوين النص تقويما فنيا .
- ٦ - تكوين طلبة النقد بالتعرف على مواطن القوة أو الضعف فى النصوص الأدبية .

ب- ولتحقيق هذه الأهداف تعتمد الوسائل والتوجيهات الآتية :-

=====

- ١ - الاعتماد فى تدريس هذه المادة على الاكثار من ايراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية واختيار النصوص الأدبية البليغة الجميلة .
- ٢ - يتوخى فى النصوص والشواهد الأدبية أن تكون هادفة نافعة متفقة مع أهداف التربية التى ترعى الدين والخلق .

٣ — تجلية الصورة البليانية بذكر نواحي الجمال فيها وتأثيرها في النفس
وعدم الاقتصار على ذكر التسميات الاصطلاحية كاجراء الاستعارة بالطريقة
المعمودة .

٤ — استنباط القواعد البلاغية والتعريفات بالاعتماد على مناقشة النصوص وتذوقها
وعدم الاقتصار على سردها وتقريرها .

٥ — يراعى في تقويم النص والحكم عليه الوضع والدقة ، وتتجنب المبهارات
العامة التقليدية التي تصلح لكل نص .

٦ — الاكثار من التطبيقات على نصوص جميلة ، ووجوب اشراك الطلبة في
الكشف عن أسرار الجمال وتذوق النص . ويجب أن تصدر أحكامهم
النقدية معتمدة على دواستهم للنص الأدبي نفسه للتأكد من نمو
قدرة النقدية وتمكنهم من مادة البلاغة .

٧ — الحرص على تدريب الطالب دوما على صياغة الكلام الجيد تطبيقا
ليط يدرسه من فنون البلاغة وأساليبها .

٨ — يستعان على ايضاح موضوعات هذه المادة بالكتابات المشرقة المناسبة
والأمثلة التحليلية الجميلة التي يوردها أئمة هذا العلم من أمثال
عبد القاهر الجرجاني والآمدي .

وبالتأمل والنظر نجد أنها توجيهات قيمة سديدة ولكن هل يوجد العدد
الكافي من المدرسين الأكفاء الذين يستطيعون أن ينفذوا هذه التوجيهات
كما يجب وكما ينبغي .

المنهج

=====

١ - نماذج من الكلام البليغ يعرف الطالب من خلالها تعريفًا اجماليًا
بالبلاغة وعلومها وأهميتها ووظيفتها في إيضاح الفكرة وإبرازها
في ثوب جميل .

٢ - كلمة موجزة عن الفصاحة والبلاغة .

٣ - علم البيان : ويدرس منه في الصف الأول :

أ - التشبيه :

تعريفه - أركانه (استيفاءها أو نقص بعضها) .

أنواعه - التشبيه البليغ - التشبيه التمثيلي - التشبيه

الضمني - التشبيه المقلوب .

أغراضه - كلمة عن جمال التشبيه وقيمه البيانية - عرض نماذج

من التشبيهات الجيدة والمعينة والموازنة بينهما .

ب - كلمة موجزة عن الحقيقة والمجاز .

ج - الاستعارة :

تعريفها - الاستعارة التصريحية - الاستعارة المكنية - كلمة

عن جمال الاستعارة وقيمتها الفنية - عرض نماذج عن الاستعارات

الجميلة والردیئة والموازنة بينها .

ويدرس من علم البيان للصف الثاني :

الاستعارة التمثيلية - المجاز المرسل ، ويقتصر على أشهر علاقاته .

د - الكناية :

تعريفها - أنواعها - الكناية عن الصفة - الكناية عن الموصوف

الكناية عن النسبة - عرض نماذج من الكنايات المأثورة والمستعملة

غير المأثورة .

٤ — علم المعاني : ويدرس منه في الصف الأول :-

- ا — الخبر : إضرابه وأغراضه بإيجاز .
- ب — الانشاء : تقسيمه الى طلبى وغير طلبى .
- الانشاء الطلبى :
- الأمر : معناه الحقيقى ، وصيغه ، وأهم المعانى التى يخرج اليها
- النهى : " " " " " " " " " " " "
- الاستفهام : " " " " " " " " " " " "
- التسنى : " " " " " " " " " " " "

ويدرس من المعانى فى الصف الثانى :-

- ا — الذكر والحذف .
- ب — القصر : تعريفه — طريقه — أنواعه : قصر الصفية
- على الموصوف ، قصر الموصوف على الصفة ، القصر الحقيقى ،
- القصر الاضافى .
- ج — الفصل والوصل :
- (ويدرس بإيجاز من مواضع الفصل ما يأتى) :
- كمال الاتصال — كمال الانقطاع — شبه كمال الاتصال .
- (ويدرس بإيجاز من مواضع الوصل ما يأتى) :
- الاشتراك فى الحكم الاعرابى — الاتفاق خبراً أو انشاءً — الاختلاف
- خبراً أو انشاءً .
- د — كلمة عامة عن أثر علم المعانى فى بلاغة الكلام .
- ه — علم البديع : — ويدرس منه للمصنف الأول :
- ا — الجناس — الطباق والمقابلة — التورية — السجع .
- ب — كلمة عامة عن جمال هذه المحسنات والتنبية الى أن الاكثار منها —
- عيب يورث الكلام تكلفاً .

ج — الموازنة بين نماذج جيدة منها وأخرى رديئة •

ويدرس من البديع للصف الثاني :
حسن التعليل — أسلوب الحكيم — الاقتباس — تأكيد المدح بما
يشبه الذم •

٦ — النقد : ويدرس منه للصف الثاني :

١ — عرض موجز لتاريخ النقد والبلاغة يشتمل على ما يأتي :
معنى النقد ووظيفة كل من النقد والبلاغة والترابط بينهما
وتداخل مباحثه مع مباحث البلاغة — بذور النقد والملاحظات
البلاغية في الجاهلية و صدر الاسلام — أثر القرآن الكريم في
تغيير مفاهيم العرب الفنية واحداث طريقة جديدة في التعبير
متأثرة بالبيان القرآني — بيان أن علوم البلاغة نشأت للكشف
عن اعجاز القرآن الكريم — نمو البلاغة والنقد وازدهارهما —
تأثر النقد العربي بمباحث النقد الغربي في العصر الحديث •
ب — نماذج من أمهات كتب البلاغة والنقد العربية تتماشى مع العرض
التاريخي السابق تتخذ أساسا لدراسة تدقيقية توضح منهج العرب
قديما وحديثا في النقد الأدبي •

ويدرس منه في الصف الثالث :

تعريف النقد — وظيفته وغاياته •

فنون الأدب :

١ — الشعر : طبيعته — أنواعه — عناصره — بنيته

القصيدة العربية •

٢ — النثر : الفرق بينه وبين الشعر — أنواعه :

المقال — الخطابة — المحاضرة والحديث الانداعي —

القصة — المسرحية •

تذوق النص الأدبي •

=====

المنهج المدرسى فى الميــــزان :-

=====

وبالتأمل والنظر نجد أنه لا جديد فى هذا المنهج الا دراسة النقد وما يتبعه من فنون الأدب الحديثة من مقال وقصة .. الخ . أما باقى المنهج الخاص بالبلاغة فهو يسير على الطريقة القديمة من تقسيم البلاغة الى علومها الثلاثة ، غير أنه درس هذه العلوم فى ايجاز ، وعنى بوضع أمثلة جديدة فى الكتاب ، واستعمل الطريقة الاستنباطية فى تحصيل القواعد .

أما الأسلوب — مع أهميته — فقد أشارت اليه التوجيهات ، ولكن المنهج أغفله . وقد رأيت فى كتاب " الأساس فى النقد والبلاغة " للصف الثانى الثانوى (١) فصلا عن الأسلوب وعناصره ، وقد اختفى هذا الفصل من الكتب التى استحدثت بعد ذلك .

أما كتاب النقد والبلاغة لمعاهد اعداد المعلمين فهو قريب من هذا المنهج الا أنه اختصر اختصارا مبالغا بحيث لا يفيد طلاب المعلمين مع أنهم أولى بالتعمق فى دراسة البلاغة وأحرى باجادتها وإتقانها .

وغاية القول إن منهج البلاغة فى المدارس الثانوية ودور المعلمين منهج قديم وإن وضع حديثا وتناولته يد التنسيق والتشذيب وهو لا ولم يحقق الغرض الذى نصبوا اليه من تخريج جيل يتذوق البلاغة ويحبها . ولعل من أسباب فشله أن الشرح والتحليل فى كل درس لم يستطع أن يبين وجه الجمال البيانى وأن يوصله الى القلوب قبل العقول . كما أن الوقت المخصص لمادة البلاغة لا يكفى مطلقا ولا يعطى فرصة لبسط موضوعات المنهج واعطائها حقها من الشرح والتطبيق فالوقت المخصص للبلاغة فى الصف الأول الثانوى

١ — طبعت وزارة المعارف السعودية هذا الكتاب سنة ١٣٨٦ هـ ط ٣

وقررت تدريسه فى المدارس الثانوية .

حصة واحدة فقط في الأسبوع وحصتان لكل من الصف الثانى أدبى والثالث أدبى • ولا نصيب للقسم العلمى فى الصفين الأخيرين مع أنه الأكثر عدداً • •

هذا الى أن كثيراً من أساتذة اللغة العربية فى وزارة المعارف — وخاصة حديثى التخرج — لا يجيدون تدريس البلاغة ولا يتذوقونها وبالتالى لا يستطيعون اقناع الطلاب بها •

ولكل هذه الأسباب فإن العطية التعليمية للبلاغة العربية فى مدارسنا قد فشلت • وعلى المتخصصين والمهتمين بشئون البلاغة ألا يغفلوا هذه الأسباب وهم بصدد تجديد البلاغة والنهوض بها • والله الموفق •

=====

الفصل الرابع

=====

رأى جديد فى تدريس البلاغة

=====

لاح لى بعد كثرة ما قرأت واطلعت على بحوث ومناهج وآراء فى تجديد تدريس
البلاغة أن هناك رأيا لم يطرح بعد ، وأن درس البلاغة اليوم فى حاجة
الى علاج سريع يخرج به من نطاق السكاكى والقزوينى ، ويساعد الدارسين
على استيعاب البلاغة فنا وعلما ، ويقنعهم بها ، ويشعرهم بجمالها .

فالدارسون اليوم لا يستفيدون من درس البلاغة ، ولا يستقر فى أذهانهم
منها الا أخلاط من التعريفات والتخرجات والمحتجزات وردى الأمثلة
ثم كثير من التقسيمات والتفريعات والنقاش والجدل . وهكذا يتخرجون
وفى ذاكرتهم صورة مشوهة عن البلاغة .

ومادة هذا شأنها ، وتلك حالها ، أنى لها أن تروق وتزدهر ؟
وكيف لها أن تعد ظلالها عبر العصور وهى من الأهمية بمكان عظيم ؟ وأين
الخلف الذى يحمل عن السلف رسالة البلاغة الى الأجيال القادمة ؟

وإذا كان هذا الخلف لا يستسيغ تدريس البلاغة ولا مناهجها ، أفنتركهم
فى ضلالهم يعمهون ؟ أم نقدم لهم علاجا سريعا مؤقتا حتى يستقرأ أولو
الأمر على منهج جديد وخطة جديدة للبلاغة العربية ؟

ولقد أمنت النظر فيما يفعلون بدرس البلاغة . فوجدتهم يعلمون الطالب
أول ما يعلمونه — الفصاحة بأنها خلو اللفظ من تناقض الحروف والغرابية
ومخالفة القياس ويضربون لكل منها أمثلة ركيكة تصيب النفس بالضيق والكدر .

وقلت لنفسى : أهذا هو أول ما ينطبع فى ذهن الطالب عن الفصاحة
وبلاغة ؟ وتساءلت : لماذا يعرف القدماء الفصاحة تعريفا سلبيا فيقولون
هى خلو اللفظ من ... ويتركون التعريف الإيجابى فلا يذكر عن شيئا ... أما
كان التعريف الإيجابى للفصاحة أولى وأجمل وأوقع فى النفس من التعريف السلبى ؟

ان التعريف السلبى للفصاحة قد أدى بالقدماء الى استعمال أمثلة فاسى
غاية السوء والرداءة يفاجأ بها الطالب فى أول درس البلاغة فتترك فى ذهنه

انطباط سيئا ما كان أغنانا عنه لو أنهم لجأوا الى التعريف الايجابى .
فهذا هو الخطيب القزوينى فى كتابه الايضاح — وهو الذى تدور حوله دراسة
البلاغة حتى اليوم — يبدأ بمقدمة فى الكشف عن معنى الفصاحة والبلاغة
ثم يقول : (أما فصاحة المفرد فهى خلوصه من تنافر الحروف والخرابة ومخالفة
القياس اللغوى . فالمتنافر : منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية فى الثقل
على اللسان وعسر النطق بها كما روى أن أعرابيا سئل عن ناقته فقال : تركتها
ترعى الهمخ ، ومنه ما هو دون ذلك كلفظ مستشررات فى قول امرئ القيس :
غداثه مستشررات الى المـ — (١)

ويذهب القزوينى بعد ذلك يتحدث عن الخرابه فيقول : (والخرابة
أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فيحتاج فى معرفتها الى من ينقر عنها
فى كتب اللغة المبسطة كما روى عيسى بن عمر النحوى أنه سقط عن حمار
فاجتمع عليه الناس فقال : ما لكم تكأتم على تكأكم على ذى جنة افرقموا
عنى أى اجتمعتم تنحوا ، أو يخرج لها وجه بعيد كما فى قول المجاج :
وفاحما ومرسنا مسرجا

(٢)
فانه لم يعرف ما أراد بقوله مسرجا حتى اختلف فى تخريجها — (١٠٠)

ثم يعرف القزوينى فصاحة الكلام تعريفا سلبيا أيضا فيقول :
(وأما فصاحة الكلام فهى خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد
مع فصاحتها . فالضعف كما فى قولنا : ضرب غلامه زيدا فان رجوع
الضمير الى المفعول المتأخر لفظا ممتنع عند الجمهور لثلاثا يلزم رجوعه الى ما هو
متأخر لفظا ورتبة وقيل يجوز لقول الشاعر :
جزى ربه عنى عدى بن حاتم جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

١ — الايضاح ص ٤ .

٢ — المرجع السابق .

وأجيب عنه بأن الضمير لمصدر جزى أى رب الجزاء كما فى قوله تعالى :
" اعدلوا هو أقرب للتقوى " أى العدل .

والتنافر : منه ما تكون الكلمات بسببه متناهية فى الثقل على اللسان
وعسر النطق بها كما فى البيت الذى أنشده الجاحظ :

قبر حرب بمكان قفر — وليس قرب قبر حرب قبر

ومنه ما دون ذلك كما فى قول أبى تمام :
كريم متى ما أمده أمده والورى — معى وإذا ملته لمته وحدى

فان فى قوله أمده نقلاً ما لما بين الحاء والهاء من تنافر .

والتعقيد : أن لا يكون الكلام ظاهراً للدلالة على المراد به . ولـ
سبيان :

أحدهما ما يرجع الى التعقيد اللفظى كقول الفرزدق :

وما مثله فى الناس الا ملكاً — أبوامه حى أبوه يقاربه
كان حقه أن يقول : وما مثله فى الناس حى يقاربه الا ملكاً أبوامه أبوه (١)
وهكذا نجد القزوينى يعد بنا عن الفصاحة الى ضدها ، ويدل أن يحدثنا
فى البداية عن جمال الفصاحة وأثرها فى النفس ويضرب لذلك أمثلة
مضيئة مشرقة يحدثنا عن أضداد الفصاحة من التنافر والفرابة والتعقيد
ويضرب لها — بالطبع — أمثلة معتمدة موحشة .

هذا ولم أجد من مؤلفى كتب البلاغة من لجأ الى التعريف الايجابى
الا اثنين ، أولهما : الأستاذان على الجارم ومصطفى أمين فى كتابهما
(البلاغة الواضحة) فقد عفا الكلام الفصيح بأنه : ما كان واضح المعنى ،

سهل اللفظ • جيد السبك • ولهذا وجب أن تكون كل كلمة فيه جارية
على القياس الصرفي • بيّنة في معناها • مفهومة غنية سلسة •

ولكنهم لم يأتوا بأمثلة وشواهد على ذلك التعريف الايجابى بل عدا بهمد
ذلك الى التعريف السلبى وأمثله • (١)

وثانيهم : الدكتور الممارى فى كتابه (البيان) فقد رأى أن الفصاحة
تتحقق بثلاثة أمور : الوضوح والصواب والخفة •

أما الوضوح : فهو الصفة الأولى التى يتحقق بها البيان •
فاللفظ الغريب الحوشى • والمعبارة المعقدة الكثرة • بعيدان كل البعد
عن البلاغة • ولذلك اشترط علماء البلاغة فى فصاحة الكلمة أن تكون مألوفة
كثيرة الدوران على الألسنة • وقوله : أن تكون الكلمة مألوفة كثيرة
الدوران على الألسنة تعريف ايجابى يقابل خلو الكلمة من الغرابة • وفى
فصاحة الكلام تحدث عن التعقيد اللفظى والمعنوى ولكنه أتى بأمثلة للكلام
الجيد الخالص من التعقيد مثل :

قول شوقي : المحسنون هم اللبالب وسائر الناس النفايسة
وقول المتنبي : من يهن يسهل الهوان عليه ما الجرح بميت ايلام
ومن النثر قول الحجاج بن يوسف : (اللهم أرنى الهدى هدى فأتبعمه •
وأرنى الغى غيا فأجتنبه • ولا تكلنى الى نفسى فأضل ضلالا بعيدا ••)

ومن الاستعارات الجميلة قول الحجاج أيضا : (انى لأرى رؤوسا
قد أينعت وحان قطافها وانى لصاحبها • وقول الشاعر :
نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ط نرقع

أما الصواب : فبأن تكون الكلمة جارية على نظام تأليف الكلمات العربية ، ويعبر عنها علماء البلاغة بالألا تكون مخالفة للقياس .
فالصواب عنده تعريف ايجابى مقابل للتعريف السلبي وهو عدم مخالفة القياس .

وكما يشترط الوضوح والصواب فى الكلمة كذلك يشترط كل منهما فى التراكيب .
وليس الصواب وحده كافيا فى تحقيق البيان الجيد ، بل لابد من أمور تضاف الى الصواب والى الوضوح . من تلك الأمور :
أولا : خفة الكلمة فى النطق ، وخفة التركيب .
ثانيا : تناسب الألفاظ مع المعانى .
ثالثا : جمال المعانى (١) .

هذا ما وجدته من التعريف الايجابى للفصاحة وللکلام الجيد . والأمر بعد ذلك يحتاج الى نظر جديد ورأى سديد .
وقد عرضت - فيما عرضت - فى هذا البحث لعناصر الأسلوب الثلاثة :
الوضوح - القوة - الجمال - ذكرها كتاب البلاغة الواضحة فى ايجاز واقتضاب وذكرها كتاب الأسلوب فى اسهاب واطناب ، وهذه العناصر الثلاثة
(الوضوح - القوة - الجمال) أرى أن تكون الأساس الجديد فى درس البلاغة بوجه عام ، على أن نسلک لبها الطريقة الكلية ، فنبدأ من الكل وننتهى بالجزء . أى نبدأ من النص كله ، ثم نتدرج الى فقراته ، ثم الى عباراته وجملته ، ثم الى الكلمة . وكل خطوة من هذه الخطوات نطبق فيها العناصر الثلاثة (الوضوح - القوة - الجمال) .

وسواء كان النص شعرا أو نثرا فاننا يجب أن ننظر اليه فى أول الأمر على أنه جسم واحد وكيان متحد .

ثم نطبق عليه العناصر الثلاثة :

الوضوح : والمراد به هنا أن تكون الكلمات والمعارات جارية في سهولة
وجلاء ، حتى تكون ثوبا شفافا للمعنى المقصود ، دون أن تكون
مثارا للظنون ، ومجالا للتوجيه والتأويل . ويستثنى من هذا بالطبع
الأدب الرمزي حيث يجنح الى الغموض والاختفاء . (١)
والوضوح وحده هو صفة الكلام العادي ، فإذا ما انضمت اليه
القوة صار فصيحاً .

القوة : والمراد بها هنا رصانة الحجة ، وقوة الرأي ، والسيطرة ، والاقناع
وجذب انتباه القارئ أو السامع ، واستقطاب تفكيره بحيث يهتم
بالنص ويدع ما عداه مدة قراءته أو سماعه على الأقل .
فإذا لم يستطع النص أن يؤثر هذا التأثير فقد انتفت عنه صفة
القوة وان توفرت له صفة الوضوح .
والصواب شرط أساسي في قوة الكلام ومظهر من مظاهرها وهو أن يكون أسلوب
النص موافقا لقواعد النحو والصرف غير مخالف للسمع والقياس .

الجمال : والمراد به هنا سطوع البيان ، وإشراق الديباجة ، وسلامة
الذوق في الصياغة والتركيب ، وروعة التأثير في التصوير والتعبير ،
وحسن تقرير المعنى في الأفهام من أقرب وجوه الكلام .

فإذا توفرت في النص هذه العناصر الثلاثة حكمنا له بالبلاغة والجودة
وينتاقص هذا الحكم بقدر ما ينتفى من العناصر .

وما صنعناه في النص نصنعه في الفقرات والمعارات غير أننا هنا نتحدث
أيضا عن الصورة والخيال والم عاطفة والبديح ، وحتى الصورة البيانية يمكن
أن نطبق عليها الوضوح والقوة والجمال ، وعلى قدر ما تحرز الصورة من

١ - انظر : الصورة الأدبية - د . مصطفى ناصف - ص ١٦٦ .

هذه العناصر الثلاثة يعلو شأنها ويسمو قدراها .
ونتدرج من ذلك الى الجملة والكلمة فننظر اليهما مجتمعين لأن الكلمة
وحدها لا قيمة لها ، ولا شك أن للكلمة قيمتها واعتبارها في الوضوح والقوة
والجمال ولكن ذلك لا يظهر الا في نطاق الجملة ، غير أن هذه العناصر
الثلاثة يتغير — الى حد ما — معناها ومفهومها عند استعمالها في هذا
الجزء الأخير .

فالوضوح هنا : هو كون الكلمة مألوفة مشهورة في معناها بحيث لا تسبب
غموضا أو ابهاما لمعنى الجملة .
والقوة هنا : أن تكون الكلمة في جملة ما في مكانها الصحيح ، متمكنة بيـ
أقرانها ، متضامنة معهم في إبراز المعنى المراد . فإذا ما تسببت الكلمة
بوضعها داخل الجملة في خلل أو لبس انتفت عنها صفة القوة وان توفرت
لها صفة الوضوح .
والصواب شرط أساسي أيضا في قوة الكلمة وهو هنا : أن تكون الكلمة
صحيحة لفة وامـتعـمـلا .
والجمال : وهو في الكلمة أن يكون لها إحياء نفسى . ووقع موسـمـيـقـى
يبدو ذلك منها أولا ، ثم بتناسقها مع زميلاتها في الجملة ثانيا .

هذا ويمكن أن نعم هذه العناصر الثلاثة في دروس البلاغة بوجـه
عام — كما قلت سابقا — وأن نجعل كل الباحث البلاغية تدرس في ضوءها .
ففتنسى الحال مثلا يمكن أن يدرس في ضوء : الوضوح والقوة والجمال . وكذلك
الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية . وأيضا في الحذف والتقديم والقصر ،
وفي الإيجاز والاطناب والمساواة ، الى غير ذلك من مباحث البلاغة .

وفي الأسلوب : نجد العناصر الثلاثة متميزة مميزة ، فالأسلوب
العلمي يتوفر فيه الوضوح والقوة فقط فإذا توفر عنصر الجمال أيضا فهو
الأسلوب الأدبى .

والخلاصة : أن البلاغة هي الكلام الجيد الذي توفرت فيهِ عناصر الوضوح والقوة والجمال . وأن الفصاحة هي الكلام الجيد الذي توفرت فيه عناصر الوضوح والقوة فقط . أما الوضوح وحده فيمكن أن يتوفر في الكلام العادي الذي لا يعتبر فصيحاً ولا بليغاً .

هذه فكرة مبدئية يمكن أن تتطور بالمداولة والممارسة ، وهي تتلخص فيما يأتي :

١ — هجر الأساليب المنطقية الفلسفية وترك التعريفات السلبية وأمثلتها ومحتجزاتها والاكتفاء بوضع الضموري منها في الهامش ، ووضع تعريفات ايجابية بدلا عنها وتكون أمثلتها نصوصاً أدبية رائعة يتوفر فيها الوضوح والقوة والجمال حتى يتطبع الطالب بهذه النصوص وتترك في نفسه أثراً حسناً ويرى البلاغة على حقيقتها .

” فالبلاغة فن قيل أن تكون علماً ، ومرجعها إلى الذوق قبل أن يكون إلى العقل والمنطق ، ومجالها الأدب لا الفلسفة ، وثمرتها تكوين الملكات لا حفظ القواعد ، وغايتها تمييز جيد الكلام من رديئه ، وليست تحقيق أساليب العلماء وتخريجها ” . (١)

٢ — جعل العناصر الثلاثة (الوضوح — القوة — الجمال) أساساً لدرس البلاغة بوجه عام .

٣ — استعمال الطريقة الكلية في تطبيق هذه العناصر ، فنبداً بالنصوص وننتهي بالجملة والكلمة .

٤ — مزج القواعد البلاغية البسيطة بالتطبيق الشفوي والتحريري ، ويكون التقدير ووضع الدرجات على أساس الأداء الفني لا التحصيل القاعدي . ولا أستطيع القول بأنني وضعت للبلاغة خطة حديثة أو منهجاً جديداً ، إن هي إلا — كما قلت — فكرة مبدئية يمكن أن تنمو وتتطور إذا لاقت القبول والاستحسان .

وهي في رأيي علاج سريع مؤقت لدرس البلاغة اليوم . والله العوفيق .

١ — من مقدمة كتاب (توضيح المعاني في البلاغة) للدكتور العماري .

الباب الرابع

~~~~~

( ( البلاغة بين الدفاع والهجوم ) )

~~~~~

الفصل الاول : دفاع عن البلاغة .

الفصل الثاني : هجوم على البلاغة .

~~~~~

## الباب الرابع الفصل الأول

### دفاع عن البلاغة

لم يكن ما عانت به البلاغة العربية من أسباب الجمود والتأخر ينحصر في طغيان المدرسة الكلامية بمنطقها وجدلها ، ولا في تحديد المنهج البلاغي وربطه بالكلمة والجملة . وإنما هناك أسباب أخرى جدت في العصر الحديث ، وكان لها كبير الأثر في تعطيل البلاغة والتكرار لها . وهذه الأسباب قد كشف عنها ونبه اليها الأستاذ أحمد حسن الزيات في كتابه " دفاع عن البلاغة " . وتتلخص في :-

السرعة - الصحافة - التطفل .

ووجدت البلاغة نفسها في موقف لا تحسد عليه ، فالأسباب والمعوقات تعددت وتشابكت وضررت بينها وبين الناس والحياة حجابا مستورا .

وفوق كل ذلك منيت البلاغة بأعداء ألداء ، أجادوا الهجوم عليها ، والانتقاص منها بدعوى الإصلاح والتجديد . وفي الوقت الذي كان يجب فيه أن تلقى البلاغة من يؤازرها ، ويقف الى جانبها ، ويأخذ بيدها ، اذا بها تجد هجومًا خبيثًا ومجابهة شديدة من بعض الأدباء والمثقفين أجنب ووطنيين .

وقد تصدى بعض الفضلاء من العلماء والأدباء للدفاع عن البلاغة وبيان قيمتها وأهميتها ..

يقول د . أحمد بدوي ردا على من عاب على البلاغة وقوفها عند حدود الجملة والجملتين : ( ولا يضير علوم البلاغة أن تقف عند هذه الحدود - أي حدود الجملة والجملتين - فذلك ميدانها ، وهو ميدان شاسع الأرجاء لأنها تقف في النص الأدبي عند كلماته تتبين سراختيارها ، وعند جملة تبين سر تركيبها ، وليس ذلك بالعمل الهين ) (١) .

والدكتور أحمد بدوي يرى أن البلاغة قد أدت رسالتها خصوصا فيما مضى ، فإذا كانت رساله البلاغة تبصير الكتاب الشعراء وهدايتهم الى الرفيع من التعبير ، فأنى أعترف - أي د . بدوي - بالاهتداء الى فن من فنون البلاغة وهو علم البديع كان له أثر كبير جليا في الشعر والنثر .

فان طائفة كثيرة قد استخدوا ألوان البديع في شعرهم بحذق ومهارة دون تكلف أو تعنت فجاء شعرهم غاية في الجمال والابداع . أما هؤلاء الذين أكرهوا من البديع في شعرهم بالتكلف والارهاق ، واستغلق المعنى عندهم في كثير من الأحيان كأبي تمام ، وعلماء البديع قد بحوا أصواتهم معلنين أن جمال البديع لا يكون طبيعيا الا اذا كان قليلا ولم يكن متكلفا .

أما اذا كانت رسالة البلاغة البحث عن أسرار الجمال في المفرد والجملة والجمليتين فيمكن القول بأنها وصلت في ذلك الى مدى بعيد . وأن كان الأمر لا يزال محتاجا الى جهود وجهود للكشف عن باقى أسرار الجمال في الأمور الستى يحسن القارى بجمالها ثم لا يجد البلاغيين قد اهتموا اليها . وعلوم البلاغة ترحب بهذه المكشوفات وتدعو الى البحث وراء الأسرار المجهولة .

وان كان معنى رسالة البلاغة أنها كانت أداة في أيدي النقاد يزنون بها النصوص الأدبية ، فقد أدت البلاغة رسالتها في الأعصر الأولى الى مدى بعيد ، وما تركه الأقدمون من كتب شاهد على ذلك ، فانهم قد اتخذوا ما وصلوا اليه من قواعد وسيلة لقياس النصوص الأدبية وبيان جمالها وردائها ، وكان للمقاييس البلاغية شأنها في تلك الأزمان .

أما في عصرنا الحاضر فلا ينكر الدكتور بدوى أن المقاييس البلاغية قليلة الاستعمال في أيدي النقاد . وقد يكون ذلك لأن كثيرا من الأدب في عصرنا الحاضر يتجه الى الافهام والاعتماد على التأثير من ناحية معناه أكثر من اعتماده على التأثير من ناحية لفظه وأسلوبه وعبارته .

ويرى الدكتور بدوى أن الفنون التي شاعت في وقتنا الحاضر كالقصة والرواية لا تتنافى مطلقا مع الأسلوب البلاغى ، ولكنها السرعة التي تحول دون التريث والانتاج الفني ندى الأسلوب البليغ .<sup>(١)</sup>

ولا ننسى أن السرعة التي تحدث عنها د . بدوى هي احدى الهلايا الثلاث التي ذكرها الاستاذ الزيات في كتابه " دفاع عن البلاغة " . بل أولها وهي أسباب التنكر للبلاغة في العصر الحديث .



ومن الذين دافعوا عن البلاغة وبتحس الأستاذ العقاد ، فقد رد على من عابوا التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة ورأوا أنه وقف بها عن التطور والتوسع فقال :  
ان علوم البديع والمعاني والبيان خلاصة الملاحظات التي أدركها النقاد بالذوق والفهم ، واعتدوا بها الى مواضع البلاغة فيما وعوه من كلام الشعراء والكتاب . وان الحذقة كانت أكثر من الوعي الصادق والفهم الحسن عند من حاولوا في العصر الحديث أن يبطلوا علوم البديع .

ويرى العقاد أن تدرس نصوص الأدب في مدارسنا على قواعد البلاغة العربية ، ولكن باعتبار البلاغة ذوقاً ومفهوماً ، وليست قواعد مقررة ، وقوالب محفوظة ، كتلك التي حفظت بمصطلحاتها ، وجمعت في علوم عرفت بأسمائها ، وهي البديع والمعاني والبيان . . . ثم يقول :

لا بد أن نفهم أن علوم البديع والمعاني والبيان لم توضع لتلغى ، أولينصرف عنها النظر في الدراسة أو المطالعة ، لأنها خلاصة الملاحظات التي أدركها النقاد بالذوق والفهم واعتدوا بها الى مواضع البلاغة فيما وعوه من كلام الشعراء والكتاب ، ولقد وضعها الأقدمون وأدركوا من شأنها كل ما يدركه المحدثون الآن من فوائد لها وماخذها بل أدركوا منها - على التحقيق - فوق ما يدركه المتحذلقون الذين يجهلون البلاغة قواعد ومصطلحات ، كما يجهلون معاني ومفاهيم . . . فالعلوم التي عرفت باسم علوم البديع والمعاني والبيان صحيحة لا عيب فيها ، وكل ما يؤخذ عليها فانما يؤخذ على إساءة استعمالها كما ينبغى لها ، وكما أرادها واضعوها .<sup>(١)</sup>

ونحن مع اعتزازنا برأي العقاد ودفاعه المجيد ، نرى أن علوم البلاغة الثلاثة يجب أن تتطور وتتوسع بحيث تشمل الأسلوب بجميع أنواعه وألوانه ، كما يجب أن تصاغ بطريقة أدبية بعيدة عن أسلوب المتكلمين وطريقتهم وهذا هو التجديد الذي نطمح اليه لبلاغتنا العزيزة .

---

(١) من مقال العقاد في جريدة الأخبار بتاريخ ١٤ رمضان ١٣٨٣ هـ .

وانذا كان هناك شبه اجماع من المحدثين بأن السكاكى هو السبب فى تعميد  
البلاغة وتعميدها فان هناك بعض الأصوات تخالف ذلك ، وتدافع عن السكاكى  
وبلاغته .

من ذلك ما يراه الدكتور عباس حسن من أن السكاكى خدم البلاغة خدمة جلييلة  
بما وضع لها من قواعد وأصول جمعت شتاتها ولمت شملها وجعلتها علما قائما  
بذاته ومستقلا بنفسه ، وأخذ يشيد بفضل السكاكى ومن لف لفه برغم الناقمين عليه ،  
المتسرعين فى حكمهم على آثاره . ونذهب بثبت ذلك بأراء وهجج عديدة ( ١ ) .

والدفاع عن السكاكى - فى رأينا - دفاع عن البلاغة وعلومها الثلاثة لما بينهما  
من الارتباط الشديد . ولذلك فقد لفت نظرنا كذلك رأى الأستاذ أحمد موسى  
فى كتابه " الصبغ البديعى " ، فهو على الرغم من حملته على السكاكى واتهامه بأنه  
( أول جان على هذه العلوم بسلاح المنطق والفلسفة على هذا الوجه المسرف الذى  
رأينا بذوره الأولى عند قدامة بن جعفر فى نقد الشعر ، فأعمن فيه السكاكى ،  
واستحلى مذاقه ، حتى ودعت البلاغة عصرها الذهبى الحافل بالذوق الأدبى  
بانطواء صفحة أستاذها الأول والأخير عبد القاهر الجرجانى ) ( ٢ ) . أقول :  
على الرغم من هذه الحملة وهذا الاتهام نرى الأستاذ أحمد موسى يعود وينصف  
السكاكى ويقول : ( ... وذلك لا ينسبنا ما أفادته البلاغة على يد السكاكى من  
حسن التنسيق والتبويب ، ودقة التقسيم والتفصيل ، واحكام التمييز بين مباحث علم  
المعانى وعلم البيان . فان هذا مما يحمده التاريخ للسكاكى . ولو سلم هذا القسم  
الثالث من المفتاح - من مزجه بالعلوم العقلية لكان من خير المؤلفات التى ألفت  
فى البلاغة فى جميع عصورها ) ( ٣ ) .

---

( ١ ) انظر كتاب ( المتنبى وشوقى ) د . عباس حسن ص ٦٤ - ٦٩ .

( ٢ ) الصبغ البديعى ص ٢٤٧ .

( ٣ ) المرجع السابق ص ٢٤٨ و ٢٤٩ .

أما الدكتور سهير القلماوى فانها تعفى السكاكى من مسئولية جمود البحث البلاغى وتعقيده وترى : ( أن كتاب المفتاح كتاب جاف فى ترتيبه ومعالجته للموضوعات ، وأن السكاكى ليس هو المسئول عن جفاف هذه الدراسة التى نتجت عن جفاف الكتاب نفسه ، ولكن الواقع أن البلاغة والنقد الأدبى لابد أن يمرا فى هذه الأطوار دائما ببداية فطرية مبعثرة ، ثم دراسة حية قوية ثمرة مؤثرة ، وأخيرا خلاصة وتقنين وتعقيد جاف يودى بحياة النظرية أو الفكرة أو الناحية المدروسة ، ان هذه سنة الحياة فى الأبحاث الأدبية والفنية ) ( ١ ) .

وواضح من هذه الآراء السابقة أنها دفاع عن بلاغة السكاكى وعلومها الثلاثة ، واقتصارها على الكلمة والجمله والجملتين .

لكن الأستاذ الزيات حينما أصدر كتابه " دفاع عن البلاغة " لم يكن يقصد ذلك ، وانما كان يعنى بلاغة أخرى هى التى يدافع عنها . فما هى ؟  
ثم ماذا فى كتابه من دفاع وتجديد ؟

الواقع أن حديث الأستاذ الزيات عن البلاغة لم يكن مجرد دفاع ، وانما كان ارشادا وتوجيها الى اجادة التعبير ، وترقية الأساليب ، وبيان آله ذلك ووسيلته . وقضية ( ترقية الأساليب ) شديدة الارتباط بعلوم البلاغة ، ان هى أثر من آثار دراستها ، وغاية من غاياتها ، ولذلك لا يستغنى الباحث فى ( تجديد البلاغة ) عن الالمام بما دار حول هذه القضية .

ولعل هذا هو السبب فيما أوليته من عنايه أكبر بدفاع الزيات عن البلاغة .

---

( ١ ) انظر تقديم د . سهير القلماوى لرسالة الماجستير ( البلاغة عند السكاكى )

للدكتور احمد مطلوب .

الزيات وكتابه :

" دفاع عن البلاغة "

لعل أنسب الأوقات لصدور كتاب ( دفاع عن البلاغة ) هو وقتنا الحاضر الذى تتأمر فيه على البلاغة ظاهرات ثلاث : السرعة والصحافة والتطفل ، فاحتلت المقاييس ، وتضاربت القيم ، وتسابق الكم وغمط الكيف . وهذه الآفات علتها القراءة الخفيفة . ، والحاجة الملحة ، ونقص القدرة ، وعجز الوسيلة ، فلم يعد للكثرة طاقة أو صبر على التعمق أو التجويد أو التفروق المميز أو التقييم الصحيح .

بهذه الكلمات بدأت الدكتورة نعمات احمد فؤاد تقديمها لكتاب دفاع عن البلاغة للأستاذ احمد حسن الزيات . وهى ترى أن الأدب أصبح يكابد من الدعسكوى والأدعاء ، وأن الأدب دون سائر الفنون يستطيع أن يدعيه من يشاء فى أى وقت يشاء ، فى حين لم يجد غير شخص من الاقتراب من هرم الطب أو الهندسة أو حتى الفنون الأخرى كالرسم والموسيقى .

وقد فصل كتاب ( دفاع عن البلاغة ) القول عن الفروق الدقيقة والواضحة بين الموهبة والاكساب والأصالة والهواية وبين القريحة والفن ، وأخيرا بين علم البيان والبلاغة ، فهو يقدم القواعد وهى تخدمها ، وهو ( يعين الوسائل وهى تملكها ، وهو يرشد الى ينبوع وهى تغترف منه ) .

وليست البلاغة التى قام الكتاب بالدفاع عنها ، وتصدى صاحبها لحد يشها بلاغة شكل أو مظهر أسلوب ، ولكنها بلاغة شخصية أو بلاغة فن ، فهى ( لا تفصل بين العقل والذوق ولا بين الفكرة والكلمة ولا بين الموضوع والشكل ) .

وقد ناقش الكتاب رسالة البلاغة ووسائلها : ناقش الاسماع والاقناع وتحدث عن آلة البلاغة وهى : ( الذهن الثاقب ، والخيال الخصيب ، والعاطفة القوية ، والأذن الموسيقية ) وعلى ضوءها أجرى استفتاء لراغبي البلاغة .

ثم تحدث عن ثلاث :

- اللفة : ومهمة طالب البلاغة درسها لتقويم السليقة واكتساب الذوق .
- والطبيعة : لاستمداد الموضوع واستقاء المادة واثراء الخيال وتنويع الصور .
- والنفس : ليشكل شخصيات القصة ويرسم شخصيات المسرحية ويحلل أخلاق المجتمع ونزعات الناس وخلجات الشعور .

كما تحدث عن الذوق الذي يصدر في حكمه عن العقل والعاطفة معا . وبعد ذلك الحديث العام عن البلاغة خُصَّ الأستاذ الزيات الى الحديث عن الأسلوب ( والأسلوب من حيث هو فكرة وصورة أجل بكثير من الجمل البليانية أو المحسنات البديعية ) . وأطال الزيات الوقوف عند الأسلوب من حيث اللفظ والمعنى ووجهات النظر المختلفة في هذا الشأن في شرق وغرب . ووقفته هنا مادة للتأمل والدراسة والمقارنة والتفكير ، ومجال في الوقت نفسه للدفاع عن البلاغة دفاعا علميا أولا ثم عاطفيا بما في طبعه من أناقة وفي ذوقه من ترف وفي حسه من موسيقية . . وهذا الدفاع بالطبع ضد أولئك الذين يحاصرون ( معبد الذوق ) .

وقد خُصَّ من بحثه ودفاعه معا الى صفات ثلاث جامعة لا بد من توافرها لتحقيق البلاغة وهي : الأصالة ، والوجازة ، والتلاؤم . وشرح كلامها بتفصيل .

وفي القسم الأخير من الكتاب وقف الكاتب بالتحليل عند مذاهب الكتابة فـلى تاريخ العربية حتى العصر الحديث ، كما تحدث عن نشأة المذاهب الأدبية فـلى أوروبا من اتباعية وابتداعية وواقعية وما نبع منها . ثم انتقل الى المذاهب الأدبية العربية وميز منها دعوتين : الدعوة الى العامية ، والدعوة الى الرمزية . وبعد : فهذه ليست مقدمة بالمعنى التقليدي للمقدمات ، ان هي الا مفتاح يفضي الى كتاب ( دفاع عن البلاغة ) ( ١ ) .

ويبدو أن الدكتور نعمات أرادت بهذه المقدمة أن تعوض نقصا في طبع الكتاب فقد صدر بلا فهرس يعرف بموضوعاته وتسلسلها ، فكانت هذه المقدمة ضرورية لتعريف القارئ بمضمون الكتاب وموضوعاته وتبهيئته لقراءة ( دفاع عن البلاغة ) .

---

( ١ ) من مقدمة : دفاع عن البلاغة للدكتور نعمات فؤاد الطبعه الثانية- بتصرف

وقد نال الزيات جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٥٣ عن كتاب "وحى الرسالة" وتقديرا لعلمه وأدبه . وقد جاء في تقرير اللجنة للكتاب ما يلي :

( أنه مقالات متفرقة في مختلف شئون الثقافة والأدب يجمعها أنها تحمل طابع مذهب فني واحد مثله المؤلف عملا في ضروب انتاجه المختلفة ، ودافع عنه نظرا في بعض كتاباته وعلى الأخص كتابه ( دافع عن البلاغة ) . ويقوم هذا المذهب على ركنين هما :

أولا : العودة بالبلاغة العربية الى طابعها العربي الأول الذي يتضمن في نهج البلاغة وكتابات ابن المقفع والجاحظ وأضرابهم الذي يتجلى في الإيجاز ، ورصانة الفواصل ، وقصرها ، وتصفية اللفظ .

ثانيا : تطعيم الفكر العربي الحديث بآثار الفكر الأوربي وروائع الآداب الغربية عن طريق الترجمة . وبذلك يساير الأدب العربي ركب الحضارة المعاصرة ، وقد أسهم المؤلف في هذا بترجمته لبعض الآثار الغربية مثل ترجمته آلام فرتر ، فإذا ضمننا الى هذا جهد المؤلف في الدراسة الأدبية وفي تاريخ الأدب العربي تجمع لنا من كل أولئك انتاج جدير بالتقدير والاحترام .

ومن جهود الزيات التي لا تنكر ، وفضله الذي لا يجحد ، والذي لا يجوز لباحث أن يغض الطرف عنه وهو يكتب عن الزيات ، وعن رأيه في البلاغة ودفاعه عنها ، انشاء " مجلة الرسالة " التي ما لبث أن اشتهرت وراجت وأصبحت منبرا حرا يعبر عن روح النهضة العصرية ، ويسجل مظاهر التجديد في الأدب العربي ويحيي أساليب البلاغة العربية التي قرعت الاسماع وشغفت العقول والقلوب .

وقد صادفت ( الرسالة ) خلافا فشغلته ، وخللا فسدت ، وعيثا فحاولت أن تصد عنه بايقاط النخوة في الرؤوس ، والكرامة في النفوس ، والرجولة في النشء ثم سمرت بين الأدباء في كل قطر من أقطار العروبة ، ثم قادت كتائب الفكر والبيان في ميادين الإصلاح الأدبي والاجتماعي والسياسي على نهج من الدين والخلق<sup>(٢)</sup>

(١) من محضر الجلسة السادسة للجنة جوائز الدولة للآداب بتاريخ ١٨/٦/١٩٥٣م

(٢) وحى الرسالة ج ٤ ص ٧٢ .

وعلى صفحات الرسالة الفراء قامت معركة التجديد فى البلاغة التى عرضنا لها منذ قريب فى الباب الثانى من هذا البحث ، كما قامت على صفحاتها ايضا أهم المعارك الأدبية التى تمثل حيوية الأدب والفكر ويقظة الأدباء والمفكرين وتدفع الى التجديد والابتكار (١) .

ولقد تركت " الرسالة " أثر بارزا على قرائها وعلى الأدب بصفة عامة . أما أثرها على قرائها فيبدو جليا فى أمور أهمها :

١ - أشبع رغبات القراء ، وجذبتهم اليها ، وجعلتهم يتعلقون بها ، ويتقربون ظهورها ؛ ولقد أعجبهم فيها وجهة الرأى وثبات المبدأ فمالوا اليها عن حب ورضى .

٢ - جعلت من قرائها تلاميذ شكلتهم نفسيا وموضوعيا وأعدتهم لخوض المعارك... الأدبية والسياسية .

٣ - خلقت جيلا جديدا من مثقفى الأرياف ، ومعلمى الطفل ، وطبعتهم على الذوق العربى الأصلى وأعدتهم لنقل رسالتهم عن طريق التعبير للتلميذ المبتدى مما أعان المدرسة على أداء رسالتها ، وأعان المدرس على اكمال مالهديه من نقص وقصور .

٤ - أقامت جوا من الارتباط الروحى والفكرى بين الناشئة والشباب والسابقين من الكبار ، وضمنت للأدب الفصيح ثباته فى وجه المارقين .

٥ - لم تقتصر فى معاملاتها على اقليم مصر فحسب بل تخطت حدود مصر الى الهلال العربى ومنها انطلقت الى أقاصى الأرض وغزت عقولا وأما وكتابا ومتعلمين وطبعتهم بطابعها .

أما آثارها على الأدب انما يرجع الفضل فيه الى ثبات المبدأ ، والتعفف عن الدنيا ، والصلابة فى الحق ، والتزام الغاية بلا التواء أو انعطاف . وأهم الآثار التى استفاد منها الأدب هى :

أولا : تعد مرجعا هاما لتاريخ الأدب ودراسته .

---

(١) الكاتب احمد حسن الزيات - مخطوطة بمكتبة دار العلوم رقم ٣٧٨ للأستاذ

على الفقى ع ٣٠٦ .

- ثانيا : عملت على نشر الأرب ونقده وتقييمه .  
ثالثا : كانت الرسالة مدرسة يتخرج فيها الأرباء .  
رابعا : أطلت بنا على الأرب المعالى .  
خامسا : الأثر الفكرى الانسانى . ويظهر هذا الاتجاه فى توجيه الفكر وتنمية المواهب ونشر المادة التى تدفع العطل الأدبى الى آفاق أرحب وإلى نظرة أعمق وأشمل .  
والاثر الفكرى لمجلة الرسالة يبدو فى نواح عدة أهمها :

الاتجاه الاسلامى - المجال العربى - المجال الاجتماعى - المجال الفنى (١).

"وجملة القول أن الرسالة ليست مدرسة واحدة ، ولكنها جماع المدارس التى نشأت ففيتها أدب الظلال والأدب الرمزي والانشائى والوصفى . ولعل هذا قد جاء نتيجة لتجارب كثيرة فقد سجل الزيات هذا المعنى فى العدد الثالث من الرسالة حيث قال : انه تلقى من القراء رسائل متباينة يطلب بعضها المزيد من التعمق والافاضة ومن يرغب الى شئ من الفكاهة والبساطة وقال : "الرسالة ترجو أن توفق بين الرأيين بأن تتخذ طريقها بين ثم تنشر فى الحين بعد الحين أعدادا خاصة بما تجمع لديها من البحوث المستفيضة والدراسات العميقة والقصاص الضافية " وقد عالجت الرسالة كثيرا من القضايا الأدبية ، ومن ذلك قضية المنهج الأدبى والنقد ، وغيرها من القضايا الأدبية العامة " (٢) .

وظلت الرسالة تصدر من يناير عام ١٩٣٣ الى فبراير عام ١٩٥٣ حيث توقفت لظروف خارجة عن ارادتها بعد أن أدت رسالتها وقامت بدور كبير جليل فى حياتنا الأدبية والفكرية .

---

(١) المصدر السابق - ص ٣٣٤ وما بعدها .

(٢) المحافظة والتجديد فى النثر العربى المعاصر - أنور الجندى ص ٦٦١ .



### أسباب التنكر للبلاغة :

نعود الى كتاب ( دفاع عن البلاغة ) حيث بدأ الكاتب بمقدمة عن اسباب التنكر للبلاغة في العصر الحديث ، وأجل هذه الاسباب في ثلاثة أمور :  
السرعة - الصحافة - التطفل .

ثم تحدث عن كل منها بايجاز :

#### السرعة :

وهي جناية اختراع الآلة على الناس ، وكانت جريرتها على الفكر بوجه أعم ، أن استحالة تقدير القيم التي يحتاج وزنها الى الروية والتأمل ، أو الى الأناسة والصبر ، فظهر الخبيث في صورة الطيب ، ودخل الردي في حكم الجيد ، وقيس كل على بمقياس السرعة لا بمقياس الجودة .

ويرى الدكتور نايلي أن " من أبرز سمات العصر الحاضر الحركة والسرعة والنشاط فهو سريع في كل شيء . سريع في تفكيره واتجاهاته ، وفي صناعاته وانتاجه ، وفي تقلباته ومفاجآته ، حتى اصطلح الناس على تسميته - عصر السرعة . والسرعة قرينة البساطة أبدا ، لا تحب التركيب ولا التعقيد ، بل تبغضهما أشد البغض . . ولقد كان طبيعيا أن تتأثر الثقافة الأدبية بهذه السرعة وأن تنجح الى البساطة التي نلحها في القراءة والاطلاع ثم في التأليف والكتابة (١) " .

ورأى الاستاذ الزيات والدكتور نايلي ورأينا ورأى الكثيرون غيرنا في الشرق عن السرعة وجنابتها على الأدب ، هو رأي الغربيين أيضا . يقول السير هيو البول : " لا يمكن للكاتب الخالق أن يبدع انتاجه كما يبدع أحد العمال في مصانع السيارات صنع قطعة الحديد التي يمارس صنعها مئات العرات كل يوم ويقذف بها الى الآلة . ان العمل الأدبي غير ذلك بالمرة لا تغني عادة الكتابة فيه شيئا ولا يمكن أن تكون كثرة ممارستها يمهد للكاتب أن يكتسب السرعة في انتاجه مع الاحتفاظ بالجودة . ان المسمار الصغير لا يمكن للتأني في صنعه أن يجعل منه شيئا أكثر من مسمار ، أما العمل الأدبي فان التأني في

انتاجه يستطيع أن يتدرج به من الموضوع الانشائي التافه الى القطعة الأدبية الرائعة الى العمل الأدبي الخالد . . ان السرعة هي الداء الذي يقتل في الأدب الحديث كل عناصر الخلود (١) .

أما جريرة السرعة على البلاغة بوجه أخص ، فالأستاذ الزيات يرى : أنها أصابت الأذهان ، فلم تعد تلك الاحاطة بالأطراف ولا الغوص الى الأعماق ، فجاء لذلك أكثر انتاجها من الفناء الذي لارجع منه ، أو من الزبد الذي لا يبقا له .

وأصابت الأفهام ، فلم تعد تصبر على معاناة الجيد من بليغ الكلام ، فكان من ذلك انكبابها على الأدب الخفيف الذي لا غناء فيه ولا وزن له .

وأصابت الأنواق ، فلم تعد تميز الفروق الدقيقة بين الطعوم المختلفة ، فاختلط الحلو بالمر ، والتبس الفج بالناضج .

وقد تقع السرعة خطأ في موازين بعض النقاد فيحسبوننها شرطاً في حسن الانتاج . وربما عابوا الكاتب المروى بالابطاء وغمزوه بالتجويد وسفهاوا قول الحكيم القائل : " لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده ، فان الناس لا يسألون في كم فرغ ، وإنما يسألون عن جودته واتقانه " (٢) .

هذا هو رأى الأستاذ الزيات عن السرعة وجنائيتها على الأدب والبلاغة وهو كما ذكرنا من قبل رأى الكثيرين من الأدباء والنقاد في الشرق والغرب .

لكن للدكتورة بنت الشاطي رأى آخر فهي تقول : " . . ومما أن يقيس أحد بهذا ، وأن تكون السرعة جانبية على الأدب ، إنما تقابل الجودة بالتسرع لا بالسرعة المستطبعة المتيسرة الأداة ، والكاتب ينسى أن الالهام سر الفن ، ويرى العكوف البطيء على صنعة الكلام ونحت الألفاظ سر جماله . أما البلاغة الفنية التي نعرفها فتعجب بالهدية المسعفة والخاطر الحاضر ، وما زالت لللمحة والخطرة

---

(١) مجلة الثقافة - العدد ٤٩ ص ٤٢ .

(٢) انظر - دفاع عن البلاغة ص ٩ (٢٠١) .

سربناء العربية لغة وفنا . فمتى كان بليد الذهن مثال الفنان ، ومتى كان البطيء الموسوس مثال المفكر ؟

ويقول الاستاذ : ان السرعة أصابت الان واق فلم تعد تميز الفروق الدقيقة  
بين الطعموم المختلفة فاختلط الحلو بالمر والتبس الفج بالناضج . فهل عند  
الاستاذ أن التفرقة بين الحلو والمر والفج والناضج تمييز لفروق دقيقة . . . وأيمن  
اذن الفروق الكبيرة الواضحة ؟

أما انى لأعرف أن ما بين الحلو والمر ليس فرقا دقيقا يميزه الذوق السليم ، انما تكون الانواق سليمة اذا ميزت الفرق الدقيق بين حلو وحلو وأدركت درجة الحلاوة فى كل وأحسست نوعها على ضآلة الفرق ودقته . فأما أن يتواضع الذوق فيصير مقياس صحته أن يميز بين حلو ومر وهين ناضج وفج ويصبح هذا التمييز ادراكا لفروق دقيقة فتلك مرتبة يدركها الأطفال الرضع قبل أن يراضوا على دقة الحس ويسمو اليها الجفاة الغلاظ قبل أن يهذب لهم ذوق " ( ١ ) .

وكلام الدكتور بنت الشاطي\* هذا ، ليس كله صوابا ، فاذا سلطنا لها بأن التمييز بين حلو ومر وبين ناضج وفج ليس من قبيل ادراك الفروق الدقيقة فانا لا نسلم لها بأن السرعة بريئة من الجناية على الادب عامة والبلاغة خاصة . وقد أعجبني رد الدكتور رجب الهيومى عليها حين قال : " ولتأذن لنا الدكتور الفاضلة ان ندلها على المغالطات السافرة فى هذا القول ، فقد جعلت التسرع خاصا بالمجلة ، والسرعة خاصة بالاستطاعة المتيسرة الاداء . وذلك فهم ذاتى لا يعلق بغير ذهنهم الخاص . فمن قال ان الكاتب الذى يملأ الصحائف فى دقائق دون جدة طريفة يكون متسرعاً لا سريعاً ؟ ومن قال ان الزيات ينسى أن الالهام سر الفن وقد تحدث عنه أكثر من مرة فى دفاعه ؟ وهل تجهل السيدة الفاضلة أن الالهام شىء والتعبير عنه شىء آخر ؟ فقد يكون الالهام سريعاً طائراً ولكن انتقاله الى دنيا الحسروف والكلمات لا تفى السرعة بكماله على وجه دائم . وقد كان الحارث بن عنترة وعمر بن كعثوم نسي الأدب الجاهلى مثالين للسرعة المرتجلة ، وكان

(١) مجلة الكاتب - يناير ١٩٤٦ هـ ٣ ص ٣٧٠ .

الناصفة وزهير مثالين للتنقيح والتؤدة ، فأى الفريقين أشعر وأخلد ؟ وهل يكون زهير بن أبى سلمى بليد الذهن وبطيئاً موسوساً لانه تروى فى تسجيل ما ألهمه من معان كما وصفت الناقدة بذلك كل متأكد دقيق ؟ ثم لتسأل الكاتبة نفسها ألا تجد أنها اذا كتبت مقالا أدبيا وعاودت النظر فيه على وجه متأكد فانه يكون على درجة من القوة أفضل منه لو فقد المراجعة المنقحة ؟ وهل يعد الزيادات داعياً للمكوف البطيء على صنعة الكلام ونحت الالفاظ اذا ما دعا الى الجودة والاتقان قوما يتكلمون بالعامية ويكتبون بالفصحى فيتعرضون للتهافت متى جانبوا الدقة والاحتياط ؟ ( ١ ) .

#### الصحافة :

هى السبب الثانى بعد السرعة - وهى من فنون الادب المستحدثة ، ورأى الزيادات فى جريرتها على البلاغة . . ( أنها أوشكت ان تستبد بالمجال الحيوى للكتابة . وليس فى هذا الأمر على ظاهره نكير ولا مؤاخذه ، ولكن على الصحافة رواية الأخبار العالمية وتسجيل الأحداث اليومية ونشر الثقافة العامة ، وهى فى كل أولئك تخاطب الجمهور فلا مندوحة لها عن التبذل والتبسط والاسفاف والمسط مراعاة للموضوعات التى تكتب فيها ، وللطبقات التى تكتب لها ، وللسرعة التى تعمل بها . ولو كان للصحافة كتابها وللتأليف كتابه لما لقيت البلاغة منها أذى ولا مضرة ، ولكن حالها مع الكتاب كحال السينما مع المسرح ، فهى أوفر فى المال وأقوى فى السلطان وأوسع فى الانتشار وأشمل فى المعرفة ، وأغنى فى الوسائل ، ولذلك استخلصت لنفسها أمراء القلم ، فهم يعملون فيها على ما تقتضيه أحوالها من مجاوبة السرعة وتوخى السهولة وإيثار العامية . وللصحافة سبعة أبواب لا يدخلها بلغاء الكتاب الا من باب واحد ، أما سائر الأبواب فهى لأنماط من ذوى الثقافات المختلفة . . . . . قعد بأكثرهم وهن السليقة وضعف الاطلاع

عن مجارة الموهبين ، فسول لهم الفرور أن يخفضوا مستوى البلاغة ، ويبتذلوا حرم الفن ، ويوهموا الناس أن أدب الدماء هو أدب المستقبل ، لأن المصير عصر السرعة ، ولأن الشأن شأن العامة ، ولأن الديمقراطية تقضى باختيار لفظة الشعب وإيثار أدبه . . . . .

من أجل ذلك طغت العامية ، وفشت الركافة ، وفسد الذوق ، وأصبحت العناية بجمال الأسلوب تكلفاً في الأدباء ، والمحافظة على سر البلاغة رجعة إلى الوراء ، ولم يكن للمخلصين للغة الوحي وأدب الرسالة إلا أن يكتبوا لأنفسهم ولمن يعصمهم الله من أعقاب هذا الجيل ( ١ ) .

ومرة أخرى تتصدى الدكتورة بنت الشاطي لنقد الزيات في حديثه عن الصحافة كما نقدته من قبل في حديثه عن السرعة . وهي ترى أن الاستاذ الزيات أطلق القول في الصحافة . وذلك لأن الصحافة أدبية وغير أدبية ، وعيب ما في صحافتنا صفتها التجارية التي لم يمسهما الاستاذ ولو من بعيد . ثم علقت على قول الزيات : " ولكن عمل الصحافة رواية الاخبار العالمية وتسجيل الاحداث اليومية ونشر الثقافة العامة ، وهي في كل أولئك تخاطب الجمهور فلا مندوحة لها عن التبذل والتبسيط والاسفاف والمط مراعاة للموضوعات التي تكتب فيها وللطبقات التي تكتب لها وللسرعة التي تعمل بها " فقالت : " والكلام هذا لا يستقيم لأن السرعة لا تحتل التبسط والمط ، ولأن رواية الأخبار العالمية وتسجيل الاحداث اليومية ونشر الثقافة العامة لا يقتضى التبذل والاسفاف . والاستاذ نفسه ينقض هذا مسرعاً حين يقول بعد أسطر قلائل في الفقرة ذاتها من الصفحة نفسها " ولو كان للصحافة كتابها وللتأليف كتابه لما لقيت البلاغة منها أداة ولا مضرة " وهذا ابراء للعمل الصحفي من هذه التهمة والقاء بالتبعة على الفقر في الكتاب ، فكأن الاستاذ يقرر في الوقت عينه أن العيب في فقر الكتاب الذين لو وجدوا لبطلت الشكوى " ( ٢ ) .

( ١ ) دفاع عن البلاغة ص ٢٠-٢٣ بتصرف .

( ٢ ) مجلة الكتاب ص ٣٧٢ .

وأحب هنا أن أضع بعض النقاط فوق الحروف ، وأوضح للدكتور بن الشاطي أن الاستاذ الزيات لم يقصد إطلاق القول في الصحافة ، فهو - بالضرورة - يعرف أن الصحافة أدبية وغير أدبية ، كيف لا وهو منشئ ومحرر مجلة الرسالة التي كانت أشهر من نار على علم في مجال الصحافة الأدبية . فهو ان يقصد الصحافة ( غير الأدبية ) تلك التي شاعت وانتشرت في الجرائد اليومية . . صحافة السند وتش كما سماها الزيات في غير هذا المكان . . وهي صحافة لا تسمن ولا تغني من جوع . ولو أنها وقفت عند هذا الأثر لكان الأمر ، ولكنها طفت على مر الأيام وغطت على الصحافة الأدبية ، ومالت بالأدب عامة إلى العمامة والابتذال في الأفكار والأساليب . تماما كما طفت ( السينما ) بتفاهتها وابتذالها على المسرح الأدبي وروائعه ، وحين أراد المسرح أن ينهض بعد عثاره لم يجد مناصا من أن يجارى السينما في تفاهتها وابتذالها .

ومن هنا أستطيع القول بأن الدكتور أخطأت أيضا في فهم قول الزيات : " ولو كان للصحافة كتابها وللتأليف كتابه لما لقيت البلاغة منها أداة ولا مضرة " فقالت : وهذا إبراء للعمل الصحفي من هذه التهمة ، والقاء بالتبعة على الفقر في الكتاب .

وأقول : ان المسألة ليست فقرا في الكتاب فهم كثيرون ، وأكثرهم مجيدون ولكن الزيات يقصد : أن الصحافة ( غير الأدبية ) اجتذبت هؤلاء الكتاب - والدكتور منهم - وأغرتهم بوسائلها ، وطبعتهم بطابعها ، فمالوا بأقلامهم عن التأنق في اللفظ والعناية بالمعنى ، وشغلوا عن الاجادة والاتقان ، واتبعوا أهواء الصحافة وساروا في ركابها . ان فالاستاذ الزيات انما كان يأسى ويأسف لخلو مجال الادب من أربابه بسبب انجذابهم الى مجال الصحافة . وهذا هو معنى العبارة التي لم تتعمق الدكتور في فهمها . ولعلنا نلتصّل لها للمعذر لان الاستاذ الزيات - على غير عادته - لم يكن دقيقا في اختيار بعض الالفاظ . فلو انه - مثلا - قال : " ولو ظل للصحافة كتابها وللتأليف كتابه . . . . . " بدلا من " ولو كان

لصحافة كتابها . . . . . " لوضح الأمر . علما بأن التعبير (كان) قد يأتي بمعنى الدوام والاستمرار ومنه قوله تعالى : " وكان الله سميعا بصيرا " .

كذلك من الألفاظ التي لم يكن دقيقا في اختيارها : التبسيط والمسط .  
فاننا مع الدكتور في أن " الكلام هذا لا يستقيم لأن السرعة لا تحتل بالتبسيط والمسط " .

ويهمني في هذا المقام أن أؤكد أن صحافتنا العربية قد تدهورت الى حد كبير من حيث الكتابة والأسلوب ، وارتفعت أصوات الفيورين تنبه الى كثرة الأخطاء الإملائية والنحوية واللغوية . هذا بالإنعاف الى تدني الأسلوب والابتذال في التعبير ، مما أفسد أذواق الأجيال العربية ، وجنى على اللغة والأدب بوجه عام ، وعلى البلاغة بوجه خاص كما قال الزيات رحمه الله .

التطفل :

بعد الحديث عن السرعة والصحافة أخذ الأستاذ الزيات يتحدث عن السبب الثالث من أسباب نكبة البلاغة فقال : " أما التطفل فقد رأيتُه ظاهرا لآثر على موائد الصحافة . غير أن هناك ضربا من التطفل المغرور يجوز أن نفرده بالذكر : ذلك هو تطفل فئة من أرباب المناصب لا يدح فى كفايتهم الا يكونوا كتابا ولا شعراء ، ولكنهم يأبون الا أن يضموا المجد من جمع حواشيه ، فهم يتكفون ماليس فى طباعهم من صناعة البيان ، فيقعون فى النقص وهم يريدون الكمال .

قد ينبغ أولئك السادة فيما يملك بالتحصيل والمزاولة ، كالتعليم والتأليف ، إمامة والسياسة ، ولكنهم أعجز من أن يخلقوا فى رؤسهم ملكة الفن بمجسدت الارادة أو الأمر أو الادعاء ، فاصرارهم على أن يعدوا فى كبار الكتاب على ما فيهم من تخلف الطبع وخمود القريحة وضعف الأذنة ، دفعهم الى مشايعة الجهلاء ففى تنقص البلاغة وخفض مستواها الى الدرك الذى لا يعز مناله على القاعد .

وهذه المشايعة من قوم لهم فى التوجيه الثقافى رأى مسموع وأثر ملحوظ أخطر على البلاغة من كل ماتعانيه فى هذه المحنة (١) .

وعكذا شخص الأستاذ الزيات أدواء البلاغة ، وأسباب نكبتها ، وهى : السرعة والصحافة والتطفل . ويذكرنى هذا الظلوث بثالث آخر يهدد كيان الشعب - أى شعب - وهو : الفقر والجهل ولعرض .

وهذه الأدواء الثلاثة التى كشف عنها الزيات أمر جديد ، وحديث لم يسبب اليه ، فالسرعة والصحافة والتطفل أعداء للبلاغة لم ينتبه اليهم أحد من قبل ، ان كان الداء محصورا قبل ذلك فى الطريقة الكلامية ولمعانها على الطريقة الأدبية فى دراسة البلاغة .



ومن الواضح أن الاستاذ الزيات كان موفقا في تشخيص هذه الأدواء الثلاثة ،  
ويبدو أنه عاش في غمارها ، واكتوى بنارها ، ولعلها كانت بعض الأسباب التي  
أودت بحياة ابنته العزيزة " مجلة الرسالة " .

والآن قد آن الأوان لنسأل : ما البلاغة التي يدافع عنها الزيات ؟ والتي  
يلتمس لها الأعذار والمبررات ؟ فيدفع عنها الالهام والتقصير ، وينسبها إلى  
الثالث الجديد الذي لم يكن أحد يلتفت إليه قبل صدور كتاب " دفاع عن البلاغة " .  
البلاغة التي يدافع عنها الزيات :

يقول : ( تسألني بعد ذلك عن البلاغة التي أعنيها وأدفع عنها : أهى  
بلاغة العقل العربي التي تجلت في نثر ابن المقفع والجاحظ والبديع ، وارتسمت  
في منهج أبي هلال وعبد القاهر ؟ أم هي بلاغة العقل اليوناني التي تمثلت  
في كلام الأصوليين والجدليين والمناطقية ، واستقرت في قواعد السكاكي والسعد ؟  
أم هي بلاغة المعنى أم بلاغة اللفظ ؟ أهى بلاغة الفكر أم بلاغة الأسلوب ؟

والجواب : أن البلاغة التي أعنيها هي البلاغة التي تحدى بها القرآن أمراء  
القول في عهد كان الأدب فيه صورة الحياة ، وترجمة الشعور ، وعبرة العقل .  
هي البلاغة التي لا تفصل بين العقل والذوق ، ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين  
المفهوم والشكل ، إذ الكلام كائن هي ، وروحه المعنى ، وجسمه اللفظ ، فإذا  
فصلت بينهما أصبح الروح نفسا لا يتمثل ، والجسم جمادا لا يحس . . . ( ١ ) .

وبذكرنا قول الزيات هذا بقول ابن رشيق : " اللفظ جسم وروحه المعنى ،  
وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته . . . " ( ٢ ) .

ونفهم من كلام الزيات وجوابه السابق أنه يعنى البلاغة الفنية ، تلك البلاغة  
التي تحدى بها القرآن أمراء البيان ، خاصة وأنه ذكر قبل ذلك بقليل أن البلاغة  
( كسائر الفنون طبيعية موهوبة لا صناعة مكسوبة ) ( ٣ ) .

---

( ١ ) دفاع عن البلاغة ص ٣١

( ٢ ) العمدة : ج ١ ص ٩٩

( ٣ ) دفاع عن البلاغة ص ٢٥ .

### البلاغة بين العلم والفن :

ولقد دعونا من قبل أن يتحول درس البلاغة من علم الى فن ، وان تختلط القواعد البلاغية المبسطة بتمارين التطبيق الشفوي والتحريري ، وأن يكون التقدير ووضع الدرجات على أساس الأراء الفنية لا التحصيل القاعدي . أى على أساس مدى الاستفادة من التحصيل القاعدي فى الأراء الفنية .

وعلى هذا فالكلام عن البلاغة على أنها فن أمر يهمننا أن نعرضه ونعرف مداه ومدى مافيه من صلاحية وتجديد .

وإذا كان الزيات يتحدث عن البلاغة بوصفها فنا فانه يهمننا أن نعرف رأييه فى تلك البلاغة الفنية التى يمارسها ويدعو اليها ، كما يهمننا كذلك أن نعرف الوسائل التعليمية التى توصلنا اليها .

ان الغايه من علم البلاغة هو الوصول الى فن البلاغة ، فالبلاغة الفنية هى الهدف الذى يرجع الوصول اليه ، وللقواعد البلاغة الاسباب ووسائل للوصول الى الهدف وهو البلاغة الفنية . وقد فرق الزيات بين علم البيان والبلاغة ، فهو يعقد القواعد وهى تخدمها وهو يمين الوسائل وهى تملكها ، وهو يرشد الى ينبوع وهى تفتقر منه (١) .

وإذا كان موضوع هذا البحث ( التجديد فى علوم البلاغة ) فان الفرض من هذا التجديد تيسير الوصول الى فن البلاغة .

وهنا سؤال يطرح نفسه ، ويفرض هذا الحديث وجوده ، وهو : هل تستغنى البلاغة الفنية عن العلم ؟ أم أنها ترتبط به وترتكز عليه ؟

والواقع أن البلاغة بوصفها فنا قوليا استغنت فيما مضى عن العلم بأصوله وقواعده فالقدماء أمثال : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأبى بكر وابن الخطاب رضى الله عنهما .

هؤلاء وأمثالهم كانوا بلغوا ، وكانت بلاغتهم فنا فطريا طبعوا عليه واكتسبوه ونمّوه بطريقة ما ، ليس منها علم البلاغة . فالفن البلاغي لا يحتاج الى علوم البلاغة وهو في غنى عنها ، ويستطيع أن يستقل بنفسه دون مساعدة علمية . وان كان ذلك قد أصبح من الصعوبة بمكان بعد أن اختلطت الأجناس العربية بغيرها وخاصة في العصر الحديث .

أما البلاغة بوصفها علما نظريا فانها لا تستغنى أبدا عن التطبيق الشفوي والتحريري والممارسة العلمية في ميادين الخطابة والكتابة والشعر . أي أن . . . . . البلاغة العلمية لا تستغنى عن البلاغة الفنية .

وبالبلاغة الفنية - وان كانت كما قلنا لا تحتاج بالضرورة الى البلاغة العلمية - تحتاج في هذا العصر الذي تغيرت فيه الفطر ، وتلونت الطباع ، الى صقل ودرية وخبرة لا يوفرها الا دراسة علوم البلاغة ، ولكن على الطريقة الأدبية - الكلامية .

ونخلص من كل ذلك الى نتيجة حتمية وحقيقية واقعة وهي أن البلاغة الفنية والبلاغة العلمية أصبح كل منهما لا يستغنى عن الآخر ولا ينفك عنه ، ومن الخطأ الفصل بينهما في درس البلاغة الجديد .

هذا وقد أشار الأستاذ الشايب الى هذه الصلة بين علم البلاغة وفنها ، وأورد لذلك فصلا في كتابه " الأسلوب " ، ورأى أن القدرة على التعبير هبة طبيعية ولكنها متفاوتة الدرجات بين الناس ، وأن طالب البلاغة كغيره من طلاب الفنون الأخرى لا يكتفى بالموهبة ، بل يحاول دائما صقلها بالدراسة والمران ليصل الى مستوى النبوغ والابتكار ( ١ ) .

بل انه يرى أن الدراسة والمران يفيد الموهوبين وغير الموهوبين . فغير الموهوبين ترتقى أذواقهم ، وتسمو مداركهم حتى يفرقوا بين الجيد والردى من القول ، وهذا

كاف بالنسبة لهم . أما الموهوبون فان الدراسة والمران يخلق منهم بلفاء ، ويصل بهم الى مستوى النبوغ والابتكار ( ١ ) .

وانا كانت البلاغة عند الزيات ( كسائر الفنون طبيعة موهوبة لا صناعة مكسوبة ) فانه يرى أيضا ( أن الطبع والقريحة لا يفتنيان في البلاغة عن الفن . وربما كان فيهما ذلك الفناء في العصر الجاهلي وصدر الاسلام ، حين كانت الأهواء صادقة والأخلاق صريحة ، والحياة بسيطة . أما وقد زيف الصادق ، وشيب الصريح ، وركب البسيط ، فلا بد من حذق الصناعة وهدى القواعد لمعالجة ذلك ) ( ٢ ) .

وبالتأمل في قول الزيات هذا نجده أطلق كلمة الفن وأراد بها العلم ، وذلك في قوله : ( ان الطبع والقريحة لا يفتنيان في البلاغة عن الفن ) ان كان حقه أن يقول : الطبع والقريحة لا يفتنيان في البلاغة عن الدرس والمران .

ولعل ذلك يعطينا انطبعا بأن الزيات ربط هو الآخر بين علم البلاغة وفنهما ، فاذا أطلق أحدهما أريد الآخر معه .

وعلى الرغم من أن الزيات في دفاعه عن البلاغة كان يعنى البلاغة الفنية - كما يقول - فانه قد تحدث كذلك عن البلاغة العلمية ودافع عنها .

وذلك كدفاعه عن قواعد البلاغة التي وضعها الأقدمون ، فهو يرى أن علم البيان هو الجزء النظري من فن الاقتناع ، والبلاغة هي الجزء العلمي ، وأن القواعد البيانية لم يضعها الواضعون الا بعد أن رجعوا الى أصول الأشياء ، ودرسوا علائقها بالنفس والحس ، ثم صاغوها قواعد وقالوا انها أمثل الطرق لاحسان العمل دون أن يخضعوا قريحتك لها .

كذلك الذوق ، لا يمكن أن يكون بغير القواعد طريقا مأمونة الى عمل من أعمال الأدب ، فانه موهبة طبيعية تختلف في الناس وفي الأجناس ، وتحتاج الى المراتبة بالدرس والمادة ( ٣ ) .

---

( ١ ) المرجع السابق .

( ٢ ) دفاع عن البلاغة ص ٢٨ .

( ٣ ) انظر دفاع عن البلاغة ص ٢٨ - ٣٠ .

ونلاحظ أن الزيات هادىء فى دفاعه ، أديب فى علمه ، فهو لا يندفع ولا يهاجم كالعقاد - مثلاً - عند ما دافع عن قواعد البلاغة وعلومها الثلاثة .

والزيات لم يدافع عن قواعد البلاغة فقط ، ولكنه دافع عن كثير من قضايا البلاغة العلمية ، فتحدث عن حد البلاغة وتعريفها ، وعن آلة البلاغة ووسائلها ، وعن اللغة والطبيعة والنفس وضرورة دراستها لطالب البلاغة ، وعن الذوق المثقف الذى يصدر عن العقل والمخاطفة معا ، كما تحدث عن الأسلوب وأطال الوقوف عنده من حيث اللفظ والمعنى ووجهات النظر المختلفة فى هذا الشأن ، ثم تحدث عن صفاته من الأصالة والوجازة والتلاؤم .

وكل ذلك سنفصله بعد هذا الاجمال ، ونبين ما فيه من تجديد ودفاع . وأيضا كل ذلك يؤيد ما ذهبنا اليه من أن علم البلاغة وفنها قد ارتبطا أشد الارتباط ، بل قد اتحما وامتزجا ، وأصبح الحديث عن أحدهما يفرض الحديث عن الآخر ، وأن من الخطأ البين الفصل بينهما فى درس البلاغة الجديد .

#### تعريف البلاغة عند الزيات :

والزيات بوصفه مدافعا عن البلاغة ، وأحد دعاةها الى التجديد ، أراد أن يضع لها تعريفا جديدا بعيدا عن تعريف المتكلمين وجدلهم ، ولكنه لم يفعل ذلك الا بعد أن قدم بعض التعريفات البلاغية فى الشرق والغرب ، ورأى أن التعريفات على مدلول البلاغة اختلفت باختلاف تصور الناس لها ، وتأثرهم بها ، وغرضهم منها ولكنها تعريفات مقتضبة لا تكاد تكشف عن جوهرها الفنى . ولعل أول من حاول شرح البلاغة على نحو يشبه الفن ابن المقفع ، ان قال : " البلاغة اسم لمعان تجرى فى وجوه كثيرة : منها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعاً ، ومنها ما يكون خطيباً وربما كنت رسائلى . . . فاعلم ما يكون من هذه الأبواب فالوحي فيها بالاشارة الى المعنى أبلغ - والابجاز هو البلاغة " . ومن أمثلة الأقوال المقتضية : قول ابن المعتز : " البلاغة هى البلوغ الى المعنى ولما يطل سفر الكلام " . وقول الخليل بن أحمد : " البلاغة هى ما قرب طرفاه وبعد منتهاه " .

ولبلغاء الغرب في البلاغة أقوال تشبه ما قال بلغاء العرب في اجمال المصنعي  
ومعد الاشارة . قال لاهارب (١) : " البلاغة هي التعبير الصحيح عن عاطفة  
حق " .

وقال سورين (٢) : " هي الفكرة الصائبة ، ثم الكلمة المناسبة " .  
وقال لبروير (٣) : " هي نعمة روحية تولينا السيطرة على النفوس " .  
وتخيلها سنيك (٤) : لها مجهولا في صدر الانسان . ومثلها القدماء في صورة  
آله يتكلم فيخرج من فيه سلاسل من الذهب تسلك السامعين فلا يفلت منهم أحد .  
والتمثال على هذا الوضع لا يمثل غير بلاغة الخطيب .

ومعد كل ذلك يستخلص الزيات تعريفه للبلاغة ، فهي عنده بمعناها الشامل  
الكامل : " ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم من طريق الكتابة  
أو الكلام " . فالتأثير في العقول عمل الموهبة المعلمة المفسرة ، والتأثير في  
القلوب عمل الموهبة الجاذبة المؤثرة ، ومن هاتين الموهبتين تنشأ موهبة الاقناع  
على أكمل صورة .

ونذهب الزيات بعد ذلك في حديث غير قصير يشرح ويحلل هذا التعريف متكئا  
على شيء من علم النفس ثم يقول : ان " الغرض من تحليل هذا التعريف هو تجلية  
المراد من قول البيانين : ان البلاغة هي مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال .  
فليست الأحوال المعروضة أو المفروضة الا انفعالات العواطف في النفس ، أو اتجاهات  
الخواطر في الذهن . وليست مقتضياتها الا الصور البلاغية المناسبة التي يهتم  
اليها البليغ بطبعه أو فنه فيؤثر بها في هذه العواطف أو في تلك الخواطر التأثير  
الذي يريد (٥) .

---

(١) لاهارب : ناقد فرنسي اشتهر بدروسه الأدبية التي ألقاها في الليسيه

وجمعها في مجلدين . توفي سنة ١٨٠٣ م .

(٢) سورين : شاعر فرنسي درامي . توفي سنة ١٧٨١ م .

(٣) لبروير : كاتب أخلاقي فرنسي

(٤) سنريك : أحد علماء البيان في روما

(٥) دفاع عن البلاغة ص ٣١ - ٤٢ بتصريف .

مع الدكتورة بنت الشاطي \* مرة ثانية :

لم ترغ الدكتورة عن صنيع الزيات بعرضه لكل هذه التعريفات البلاغية للعرب وغير العرب ثم استخلاصه هذا التعريف الذي نسهه الى نفسه . قالت : " ولقد تعب الأستاذ الزيات وأتعبنا في عرض تعريفات للبلاغة حشد فيها أقوال طائفة من الغربيين والعرب القدامى . ثم استخلص منها هذا التعريف الطويل العريض على حين اكتفت المدرسة الأدبية الحديثة بتعريف لا يتجاوز كلمتين اثنتين حين سمت البلاغة " فن القول " وهذا التعريف على ايجازه دقيق جامع مانع كما يقول المناطقة " ( ١ ) .

وحتى لا أعظم الدكتورة قبل أن أرد عليها أعود - على سبيل التوثق والتأكد - فأستعرض تعريف الأستاذ الزيات للبلاغة لأرى طوله وعرضه . لقد عرف البلاغة بأنها : " ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم عن طريق الكتابة أو الكلام . واني لا تسأل : أي طول وأي عرض في هذا التعريف ؟ أم أن المسألة مسألة تعصب لفن القول وصاحب فن القول ؟ وماذا اذن تقول الدكتورة في تعريف الامام محمد عبده للبلاغة - وهو لا يخفى على علمها وأطلاعها بقول الامام : " ليست البلاغة في الحقيقة الامانة البيان وقوة النفس على حسن التعبير عما تريد من المعنى لتبليغ من مخاطبها ما تريد من أثر في وجدانه يميل به الى الرغبة فيما رغب عنه أو النفرة مما كان يميل اليه ، أو تمكين ميل الى مرغوب أو تقرير نفرة من مكروه ، أو تحويل في الاعتقاد وذوق النفس كذلك لمحاسن ما تسمعه ، أو وجوه النقد فيما يلقي اليها " ( ٢ ) .

ماذا تقول الدكتورة في هذا التعريف ؟ ثم ماذا تقول في التعريفات المختلفة للبلاغة التي أوردها صاحب العمدة ( ٣ ) واستغرقت خمس صفحات كاملة من القطع الكبير ولم يقل أحد ان ابن رشيق قد تعب وأتعبنا معه في ايراد هذه التعريفات المختلفة للبلاغة .

---

( ١ ) مجله الكتاب - المجلد الأول ص ٣٧٤ .

( ٢ ) في البلاغة العربية - د . رجاء عيد ص ٨ .

( ٣ ) ج ١ ص ٢٤١ تحقيق محيى الدين عبد الحميد .

وأجد من المتسبب هنا أن أعرض رد الدكتور رجب البيومي على الدكتور فهد منطقي وطريف . قال : " أما أن الأستاذ الزيات أتعب قراءه وتعب في عرض تعريفات للبلاغة حشد فيها أقوال طائفة من الغربيين والمرب فهذا افتراء عجيب ، لأن التعريفات قد وقعت في أقل من صفحة واحدة من القطع الصغير . . أفيكون الأستاذ تعب وأتعب في هذا المدى القصير . . ثم قالت ان المؤلف قد كتب للبلاغة تعريفا طويلا عريضا . أفيدري القارىء أين الطول والمرغى في قول الزيات عن البلاغة : ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم من طريق الكتابة أو البيان ؟ أظن أن للطول والعرض مفهوما خاصا بالناقدة ولعلها تتحفظ به القراء . . ثم تقول : ان المدرسة الحديثة اكتفت بتعريف لا يتجاوز كلمتين اثنتين هو - فن القول - ومعنى هذا التفضيل الرقعي أنه لو عرف كاتب البلاغة بكلمة واحدة فقط لكان تعريفه أولى من تعريف المدرسة الحديثة " ( ١ ) .

ومعد : ما الجديد في تعريف الزيات ؟ وما وجه الدفاع فيه ؟ أما الجديد فهو أنه تعريف بسيط واضح لا يحتاج الى شرح ومحتجزات وهو امسش وتقاريرات ، وهو مائدعو اليه في تجديد البلاغة من البساطة والوضوح في وضع الحدود والقواعد . وهو في ذلك قد نحى منحى الخولى في تسميته البلاغة " فن القول " ، والشايب حين اراد أن يسميها " الأسلوب " .

أما وجه الدفاع فانه غير ظاهر ، ولعله أراد أن يدفع عن البلاغة ماران على تعريفها القديم من شروح لمقتضى الحال وما يتبع ذلك من محتجزات وتقاريرات ، وأن يساهم في ادخال بعض التعديلات والاضافات التي تجعل وجه البلاغة مشرقا واضح القسما .



### آلة البلاغة

بدأ الزيات حديثه عن آلة البلاغة بمهاجمة مدعى البلاغة والادب ، ورأى ان آفة الفن الكتابي أن يتعاطاه من لم يتهياً له بطبعه ، ولم يستمن عليه بأداته ، وأكثر المزاويلين اليوم لصناعة القلم متطفلون عليها ، أغراهم بها رخص المداد وسهولة النشر واغضاء النقد . . ومن هنا شاع المبتذل وندر الحر ونفق الرخيص وكسد الغالى وكثر الكتاب وقلت الكتابة .

ولقد تحدث بعض البلغاء القدامى عن آلة البلاغة نذكر منهم أبا هلال العسكري وابن الاثير . ففي الصناعتين قال أبو هلال " ان من تمام آلات البلاغة التوسع فى معرفة العربية ، ووجه الاستعمال لها ، والعلم بفاخر الالفاظ وساقطها ومتخيرها ورد يثها ، ومعرفة المقامات ، وما يصلح فى كل واحد منها من الكلام (١) .

وفى مكان آخر يقول : " ينبغى أن تعلم أن الكتابة الجيدة تحتاج الى أدوات جمّة وآلات كثيرة من معرفة العربية لتصحيح الالفاظ ، واصابة المعانى ، والى الحساب وعلم المساحة والمعرفة بالازمنة والشهور والاهلة (٢) " .

أما ابن الاثير فقد تحدث فى مثله السائر عن آلة البلاغة حديثاً ضافياً حين أضاف - الى ما تقدم من العلم باللغة وسائر الفنون الأخرى - الطبع فهو الاصل والأساس : " اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر الى آلات كثيرة . وقد قيل ينبغى للكاتب أن يتعلق بكل علم حتى قيل : كل ذى علم يسوغ له أن ينسب نفسه اليه فيقال : فلان النحوى وفلان الفقيه وفلان المتكلم ، ولا يسوغ له أن ينسب نفسه الى الكتابة فيقول : فلان الكاتب . وذلك لما يفتقر اليه من الخوض فى كل فن وملاك هذا كله الطبع فانه اذا لم يكن ثم طبع فانه لا تغنى تلك الآلات شيئاً . ومثال ذلك كمثل النار الكامنة فى الزناد والحديدة التى يقدها بها ألا ترى أنه

---

(١) الصناعتين ص ٢٧ .

(٢) " ص ١٦٠ .

إذا لم يكن في الزناد نار لا تخفى تلك الحديد شيئا (١) .

والآن : ماذا قال الزيات عن آلة البلاغة ، وما رأيها فيها ؟ لقد لخص الزيات  
رأيه عن آلة البلاغة في أمرين :

أ - الطبع الموهوب .

ب - العلم المكتسب .

ونلاحظ للوهلة الأولى أنه لم يخرج في تعريفه لآلة البلاغة عن تعريف ابن الاثير  
والمسكري " ولكن نلاحظ أيضا أنه في شرحه لهما ( الطبع الموهوب والمكتسب  
المكتسب ) كان أكثر دقة ووضوحا . يقول عن الطبع :

" والمراد بالطبع ملكات النفس الأربع التي لا بد من وجودها في البليغ ، ولا حيلة  
في ايجادها لغير الخالق ، وهي : الذهن الثاقب ، والخيال الخصب ، والعاطفة  
القوية ، والاذن الموسيقية . فان كنت على يقين جازم من وجود هذه الملكات في  
نفسك فامض على ضوئها في طلب هذا الفن فانك لا محالة واصل .

وسألقى عليك بعض الاسئلة لتعلم من أجوبتك عنها ان كنت موهوبا أو غير موهوب :

• هل يتأثر خيالك في يسر ، ويتحرك فؤادك في سهولة ، ثم يكون بين الخيال  
والعقل تجاوب سريع ؟

• هل تجد لاذنك الحساسية الرهيفة لانسجام الألفاظ ، وازدواج الفقر ،  
وايقاع التراكيب ؟

• هل يملك مشاعرك جمال البلاغة في روائع الشعر والنثر ؟

• هل تحس في نفسك السمو اذا حمسها الاطلاع على الأمثلة الرفيعة من البلاغة

فتتحرك للمنافسة والمباراة ؟

• هل تشعر حين يتجه فكرك الى موضوع ما أن فكرته الجوهرية الأولية لا تلبث فنى  
ذهنك أن تحيا وتنمو ، ثم تتشكل وتتلون ، ثم تتوالد وتنتشر ؟

• هل تشعر بالحاجة الملحة والتوقان الشديد الى الانتاج الناشئ عن فيض  
المفارقة وحرارة الفكر ؟

• هل يسهل عليك ادراك العلاقة بين الأفكار المجردة والموضوعات المحسوسة  
فتخرجها في الصورة المقبولة والالوان المناسبة ؟

• هل تتمثل المعانى فى ذهنك من تلقاء نفسها على أفضل الوجوه الصالحة  
للتعبير والتصوير ؟

• هل تحس حين تفكر فى موضوع شعري أن العواطف تنثال على نفسك ثم تتزاحم  
وتدافع طالبة الانبثاق والتدفق ؟

ان كانت أجوبتك عن هذه الاسئلة بنعم . . فأنت تملك الطبع الموهوب (١) .

وللاستاذ رجب البيومي رأى فى هذه الاسئلة . فهو يرى أن : " هذه الاسئلة  
جيدة التشخيص صحيحة النتيجة دقيقة الميزان ، ولكنها تؤتى من خطر واحد يعصف  
بها كما تعصف الريح بالرماد . ذلك أن المسئول فى كثير من أحيانه لا يقدر نفسه  
تمام التقدير ، فان دخلاء كثيرين من ادعاء البلاغة يجيبون عن هذه الاسئلة بنعم  
دون نكوص ، لا لأنهم يكذبون على الناس وأنفسهم تعلم من خوائها ما تعلم ، بل  
لأنهم يتأكدون أنهم موهوبون يتسمنون البلاغة فى أرفع مراقبة . فكم من دعى يعتقد  
أن خياله يتأثر فى سرعة ، وأن قلبه يحفل بأرق المشاعر وأن أذنه حساسة تطرب  
لموسيقا البيان ، وأن خواطره تنثال على نفسه انشالا اذا حاول علاج فكرة أو تحليل  
عاطفة ، ثم تتلون وتتوالد وتنتشر ، وكم رأينا من شعر بالحاجة الى التعبير شعرا

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ٤٣ - ٤٦ يتصرف .

ونشرا ثم فاجأنا بما يغشى النفوس ويصدع الرؤوس . لذلك كانت هذه الاسئلة على جودتها الجيدة لاتصلح الا للموهوب فعلا ، يأنس لها أنسا صادقا حين يجد افصاحها عن ذاته واضحا سافرا ، أما غير الموهوب فتزيده غرورا حين يجيب بنمسم مكان لا " (١) .

أما آلة البلاغة الثانية وهى : العلم المكتسب . فالزيات يرى أن " الكاتب اذا كان ناقص العلم أو قليل الاطلاع ، يدركه الجفاف فلا يكون فى آخر أمره الا سارد ألفاظ ومقطع جمل . ذلك أن معارف الكاتب هى منابع انتاجه . والمؤلف المعرفة له كألوان التصوير للمصور يجب أن تكون كلها على اللوحة قبل أن يقبض على الريشة . والمعارف لا تستفاد الا بمواصلة الدرس وادمان القراءة .

وأقل ما يجب على طالب البلاغة درسه ، هو : اللغة والطبيعة والنفس أما اللغة : فلأنها أداة القول والكتابة . وللثقافة العامة منها قدر مشترك يجب تحصيله على كل شئف . لكن الكاتب أو الشاعر محتوم عليه أن يدرسها دراسة خاصة : يتطلع من مادتها ، ويتعمق فى فقهها ، ويتبسط فى أدبها ، ويحيط بعلومها ، ويوغل ما استطاع فى استبطان أسرارها ، واستقراء أطوارها ، حتى تكون للسانه وقلمه أطوع من الشمع ليد المثال الماهر . ومن زعم أن علوم اللسان لا ينبغى حذقها لغير الزهريين أو المتخصصين فهو هازل لا يريد أن يكون شيئا مذكورا فى هذا الفن . . . . .

وكان الأشبه بطبيعة الموضوع أن نفصل الكلام فى تحصيل علوم اللسان ووضع الخطبة لها وبيان الفائدة منها . ولكننا فى مقام من يدافع ولا يعلم ، ويوجه ولا يقسم . وقد يما شكا عبد القاهر ما نشكو من زهادة الكتاب فى اللغة ، وانصرافهم عن النحو ، واستغفاهم بالبيان . . . . . وظنهم أن الكاتب متى " عرف أوضاع لغة من اللغات . . . وعرف المفرد من كل لفظة ، ثم ساعده اللسان على النطق بها ، وعلى تأدية أجزائها وحروفها ، فهو بين فى تلك اللغة كامل الاداة " .

ولقد حاول عبد القاهر أن يطب لهذا الداء<sup>١</sup> فوضع كتابه القيمين ( دلائل الاعجاز ) و ( أسرار البلاغة ) . . . ثم عقم الدهر بمثل عبد القاهر ، وانقطعت الأسباب بين كتابيه وبين الزمن ، فتجددت معان وصور ، وتولدت أغراض وأساليب ، وأصبح هذان الكتابان في أول الطريق ضارا لا ترى بعده إلا أغفالا ومجاهللا فهل في البيانين من أساتذة جامعاتنا من يحاول في البلاغة الحديثة ما حاول عبد القاهر في البلاغة القديمة ، فيجددوا ما درس ، ويكملوا ما نقص ، ويقيموا أدب الكتابة وأدب النقد على قواعد ثابتة من الفن الصحيح والعلم الحديث ؟ ( ١ ) .

وأنا أقف أمام هذا الكلام الأخير للزيات متعجبا . فهل يعقل أن الاستاذ الزيات لا يعلم بأن من أساتذة الجامعة من تقدم بخطة ومناهج جديدة للبلاغة ؟ فالاستاذ الشايب أصدر كتابه ( الاسلوب ) عام ١٩٣٩ والاستاذ أمين الخولى أصدر كتابه ( فن القول ) في عام ١٩٤٧ بينما أصدر الاستاذ الزيات كتابه ( دفاع عن البلاغة ) بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات هذا الى أن مصركة البلاغة بين الدكتور العمارى والشيخ أمين الخولى دارت على صفحات مجلته ( الرسالة ) . فكيف بعد كل ذلك لا يشير الى كتابى الاسلوب وفن القول ويتفاضى عنهما وهو يهيب بأساتذة الجامعة البيانين أن يحاولوا في البلاغة الجديدة ما حاول عبد القاهر في البلاغة القديمة ؟ أما كان المفروض أن يعرض لهذين الكتابين وما ورد فى كل منهما من تخطيط جديد للبلاغة وينتقدهما ويبين رأيه فيهما وهو يدافع عن البلاغة ؟ وإذا كان الاستاذ الزيات يرى أن طالب البلاغة يجب أن يدرس - على الأقل - بجانب اللغة الطبيعية والنفس فذلك ليس بجديد فقد سبقه الى هذا رأى منذ سنين الاستاذ الشايب فى " الاسلوب " ، والاستاذ الخولى فى " فن القول " وزاد على ذلك علوما أخرى ذكرناها هناك فى مكانها .

والاستاذ الزيات يرى أن درس طالب البلاغة للطبيعة من الاهمية بمكان . وذلك لانها " كتاب الفنان الجامع ومصوره العجيب . منها موضوعه ومادته ، وعنهما اقتباسه ووحيه ، وفيها دليله ومثاله ، وبها أخيلته وصوره ، فيجب أن يطبل فيها

النظر ، ويشغل بها الفكر ، ويرجع في كل ما يعمل لأصولها الثابتة وقواعدها المقررة ، ليتقى الضلال والخطأ ، ويأمن الاغراق والتكلف .

هذا الكتاب المحيط المعجز الذي ألفته يد القدرة قد تجمعت على هوامش منته الهائل عقول بني آدم منذ استبحروا ، يحاولون كشف أسرار وفهم حقائقه ، فوفقوا بالاستقراء<sup>(١)</sup> والاستنباط الى ابتكار علوم ، وابتداع فنون ، تخصص في هذه أقوام ، وفي تلك أقوام ، كالجيولوجيين والجغرافيين والطبعيين والكيميائيين والفلكيين والمهندسين وسائر من يتصل علمهم أو علمهم بالأرض والسماء ، واليهيس والما ، والجماد والحي . والاديب وحده هو الذي يجب عليه أن يشارك في كل علم ويلم بكل فن ، لانه عرضة لان يكتب في كل أولئك ولو على سبيل التصوير والتشبيه (١) .

وأما دراسته للنفس فلانها ينبوع الثر لما يزخر به الشعر والنثر من مختلف الفرائز والمواطف والافكار والاحاسيس . . . واذ كان من خصائص فن الكاتب أن يخلق اشخاصا للقصص ، ويمثل أهواء على المسرح ، ويعالج أخلاقا في المجتمع ويحلل عقدا في الناس ، فمن غير المعقول أن يحسن شيئا من أولئك اذا لم يكن عليما بأسرار القلوب وأهواء النفوس وما ينشأ من التعارض والتصادم بين الفرائز والاخلاق ، وبين العواطف والمنافع . واذ كان مدار البلاغة على مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال ، فان ادراك الفروق الدقيقة بين الحالات المختلفة للمخاطب ، وصياغة الكلام على قوالب المقترضات المناسبة للمخاطب ، وتصوير الاخلاق على نحو يفرى بالخير أو يحذر من الشر ، والقدرة على خلق الجمال في الأسلوب ، أو التعبير عما يخلقه الجمال فينا من العواطف ، كل أولئك يستلزم دراسة خاصة لعلم النفس وعلم الاخلاق وعلم الجمال (٢) .

وكأنما أحس الاستاذ الزيات أنه ساق كلامه على عجل ووضعه في تجميع وإيجاز

(١) دفاع عن البلاغة ص ٥١ و ٥٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٣ و ٥٤ .

فقال : هذا كلام أشبه بالمتن فى تعميمه وإيجازه . والعذر المسوغ لهذا الأسلوب أننا نخطب الكتاب ونبين الحدود ونبرز الخصائص ، ومن أجل ذلك قصرنا الكلام على اللغة والطبيعة والنفس من جملة ما يجب على طالب البلاغة درسه ، لأنها فنى رأينا أشبه بعلوم التخصص له . والمفروض أن يخصصها بطول النظر بعد أن يأخذ قسطه الأوفى من ضروب الثقافة .

وبعد : ان حديث الزيات عن آلة البلاغة - هو كما يقول - حديث من يدافع ولا يعلم ، ويوجه ولا يقود . وهو يرى أن الذنب فى تأخر البلاغة وجمودها ليس ذنب البلاغة ، وإنما هو ذنب أولئك المدعين الخاوين من الموهبة والعلم ، فهم الجانسون على البلاغة والأدب . ولو أنهم التمسوا لفن البلاغة آتته ووسيلته من الطبع الموهوب والعلم المكتسب لافادوا البلاغة ونهضوا بها .

### الذوق

يكتر تردد كلمة ( الذوق ) فى البلاغة ، كما يكتر تردد كلمة ( العقل ) فى الفلسفة . ذلك لأن حاسة الذوق هى أداة الفن ، كما أن ملكة العقل هى أداة العلم . فمن لا يذوق لا يدرك الجمال . ولم تؤت البلاغة الا من فساد الذوق فيمن يكتب أو فيمن يقرأ . ولم أجد فيما أثر عن أدبنا ، ولا فيما نقل السلف لغتنا ، كلاما يفيد طالب البلاغة فى موضوع الذوق على ما له من بليغ الأثر فى انشاء العمل الفنى وصحة تقديره ودقة نقده . لذلك لم أر من الفضول ، وأنا فى مقام الدفاع عن البلاغة أن أحاول تجلية هذا المعنى <sup>(١)</sup> .

كانت هذه هى الكلمات الأولى التى كتبها الأستاذ الزيات فى هذا الموضوع الهام ( الذوق ) .

### الذوق وتجديد البلاغة :

ولئن كان الزيات يتحدث عن الذوق وهو فى مقام الدفاع عن البلاغة ، فإنه يهمنى أن نتحدث عن الذوق ونحن فى مقام الدعوة الى تجديد البلاغة . وما أصدق الزيات حين قال : " ولم تؤت البلاغة الا من فساد الذوق فيمن يكتب وفيمن يقرأ " .

ولئن تأملنا لوجدنا أن السرعة التى نعيش عصرها قد أفسدت الأذواق الأدبية وكذلك الصحافة فى عصر السرعة ساعدت على فساد الأذواق ، ثم هؤلاء المتطفلون الذين فرضوا أنفسهم على الجو الأدبى والصحفى فى البلاد . وكان الزيات حينما نهى الى هذه البلىا الثلاث : السرعة - الصحافة - التطفل ، وما لها من أثر فى التنكر للبلاغة ، إنما كان يقصد أن هذه البلىا الثلاث قد جارت على الأذواق فأفسدتها ، فجنت بذلك على البلاغة .

وهل نستطيع فى هذا المقام أن ننسى الانذاعة والتليفزيون والمسرح والسينما وما لها من أثر كبير فى فساد الأذواق .



ان الذوق هو مناط الادراك والتقدير لآى فن من الفنون عامة ، وفن البلاغة خاصة . ومن هنا كان من حق الزيات وهو يدافع عن البلاغة أن يتحدث عن الذوق وأهميته وأن يدلى برأيه فى هذا الموضوع . وكان من حقنا ايضا ونحن نتحدث عن تجديد البلاغة الا نغلت هذا الموضوع دون تدبر ونظر .

وقبل أن نتطرق الى ماهية الذوق عند الزيات نجد من الملائم أن نشير الى مفهوم الذوق عند العرب فنذكر ما ذكره الدكتور احمد بدوى من أن العرب عرفوا للحسن وذوق معنيين :

أحدهما : الملكة الراسخة فى النفس الناشئة من ممارسة كلام العرب .  
ثانيهما : الاستعداد الفطرى الذى يهبى صاحبه لادراك ما فى الكلام من جمال وما لهذا الجمال من سر .

وقد خرج الدكتور بدوى بهذا الحكم بعد الموازنة التى عقدها بين عبد القاهر وابن خلدون وأوضح اختلاف نظرة كل منهما الى الذوق . فابن خلدون اعتد بالذوق المثقف ثقافة أدبية لغوية ، أما عبد القاهر فيرى أنه استعداد خاص يهبى صاحبه لتقدير الجمال وفهم أسرار الحسن فى الكلام (١) .

والآن ماهو الذوق عند الزيات :

يقول : " الذوق حاسة معنوية يصدر عنها انبساط النفس أو انقباضها لى النظر فى أثر من آثار العاطفة والفكر (٢) " فهو بذلك يميل الى نظرة عبد القاهر الى الذوق فالحاسة المعنوية ان هى الاستعداد فطرى خاص .

ويرى الزيات ان الناس قد يما فطنوا ( الى الشبه بين الذوق الحسى الذى يميز بين الطعوم ، وبين هذا الذوق المعنوى الذى يحكم فى نتاج الفنون . وأنهم لم يقفوا بوجه الشبه بين هاتين الحاستين عند طبيعة الادراك ، وانما تعدوا به الى قابليتهما للكمال والنقص ، واختلافهما بين الناس باختلاف الزمان والمكان والخلق والمادة .

---

(١) انظر أسس النقد الأسمى عند العرب ص ٨٧ وما بعدها .

(٢) دفاع عن البلاغة ص ٥٦٥٥ .

على أن التنوع والتغير والاختلاف فى الذوق الحسى أضعف وأقل ، لأن مجاله مادي محدود ، وادراك المادى قريب ، واستيعاب المحدود ممكن ، وفعل الطبيعة والبيئة فى تطوير الفرائز بطى\* لا يكاد يحس . أما الذوق المعنوى فمجاله ما لا يحصى وما لا يعجب من أعمال النفس والذهن . والمعجب ~~بشيء~~ المعجب من هذه الأعمال أمور لا تزال تتأثر بعوامل الزمن والاقليم والجنس والتربية والثقافة والحضارة والطبقة والسن . وكلما التبتت هذه الأمور التبتس الذوق الذى يسيرها ويدبرها ويفرق بينها ويحكم عليها . فالذوق الحسى مرجعه الى الطبيعة والطبيعة طريقة واحدة . والذوق المعنوى مرجعه الى المادة وللحادة طرق متعددة .

وان لا يمكن الظفر بذوق عام تصدر عنه أحكام الناس على الأعمال الفنية فان ما يعجب الحضرى قد لا يعجب البدوى ، وما يطرب المصرى قد لا يطرب الأوروبى . فكيف نجعل الذوق اذن ميزانا فى البلاغة وهو على هذا الاختلاف<sup>(١)</sup> .

والى هنا وصلنا فى حديثنا عن الذوق الى طريق مسدود ، فالذوق لم يعد صالحا للحكم على الأعمال الفنية وبالتالى صدورها عنه .

وفى محاولة للبحث عن حل ومخرج يقول الزيات :

( ان للذوق مصدرين يستمد منهما الحكم فى جميع قضاياها : أحدهما : العقل المتزن ، وهو يحكم فى التناسب والقصد والترتيب والملائق المشتركة بين السبب والنتيجة ، أو بين الطريقة والغاية . والذوق المستمد من هذا المصدر له ما للعقل من الوضوح الذى يشرق فى كل نفس مهذبة ، وقواعده كقواعد العقل لا تتغير لأنه ثابت مطرد . والفنان الذى أوتى ثقب الذهن يكون فى مأمن من الزيغ اذا اتبع قواعد الفن لأنها وضعت على هذا الأساس المكين .

والمصدر الآخر هو : العاطفة ، وهى الشعور الواقع على النفس مباشرة من طريق الحواس . وهنا كان مجال الاختلاف وسبب التباين ، لأن الحقيقة فى الفنون غير الحقيقة فى العلوم - هى فى العلوم محصورة مضبوطة ، ولكنها فى

الفنون منتشرة مبسطة ، ومن ذلك كان التدرج من الحسن الى الأحسن ، ومن الفائق الى الممتاز . ولم ينشئ \* هذه الفروق الا هذا الذوق العاطفي الذى يتولد من الصفات والعادات والحوادث فيجعل الحقيقة الفنية تختلف فى نفسها من شعب الى شعب ، ومن قرن الى قرن ، حتى لتختلف فى المكان الواحد ، وفى الزمان الواحد ، تبعاً لحالات العواطف وانطباعات الأحداث واختلافات الميول . .  
(١) لا بد للذوق ان من استمداد العقل والعاطفة كليهما فى تكوين حكمه .

#### الذوق بين عبد القاهر وابن خلدون والزيات :

ونشعر بعد قراءة هذا الكلام أن الاستاذ الزيات لم يجد رأى عبد القاهر الجرجاني فى الذوق مجدداً فى العصر الحديث ، وأن الاستعداد الفطري الخاص لم يعد وحده صالحاً للحكم فى العمل الفنى أو التأثير فيه . فعدل عن هذا الرأى الى رأى ابن خلدون الذى اعتبر الذوق : ملكة راسخة فى النفس ناشئة من ممارسة كلام العرب . وهذه الملكة سماها د . أحمد بدوى " الذوق المثقف " ثقافة لغوية وأدبية . وقد استخلص ذلك من قول ابن خلدون فى مقدمته :

( اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعنون بفنون البيان . ومعناها : حصول ملكة البلاغة للسان . وقد مر تفسير البلاغة ، وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه ، بخواص تقع للتراكيب فى افادة ذلك ، فالتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم ، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده ، فإذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة فى نظم الكلام على ذلك الوجه ، وسهل عليه أمر التركيب ، حتى لا يكاد ينحرف فيه غير منحى البلاغة التى للعرب . وان سمع تركيباً غير جار على هذا المنحى مجه ، ونبا عنه سمعه بأدنى فكر ، وبغير فكر ، الا بما استفاده من حصول هذه الملكة ، فان الملكات اذا استقرت ورسخت فى محالها ، ظهرت كأنها جبلة وطبيعة لذلك المحل . . لذلك يظن كثير من المغفلين ممن لا يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب فى لغتهم اعراباً وبلاغة أمر طبيعي ، ويقول كأننى العرب تنطق بالطبع ، وليس كذلك ، وإنما هى ملكة لسانية فى نظم الكلام تمكنت (١) دفاع عن البلاغة ص ٥٢ و ٥٨

ورسخت فظهرت فى بادى الرأى أنها جبلة وطبع ، وهذه الملكة كما تقدم انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع ، والتفطن لخواص تركيبه ، وليسست تحصل بمعرفة القوانين العلمية التى استنبطها أهل صناعة اللسان ، فان هذه القوانين انما تفيد علما بذلك اللسان ، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل فى محلها . . . . . وانما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتیاد والتكرور لكلام العرب . . . (١)

وعلى هذا فان الذوق عند ابن خلدون هو : الملكة الناشئة من ممارسة كلام العرب . ولو أن د . أحمد بدوى سماها : الذوق المدرب ، لكان أقرب . ورأى الزيات فى الذوق أقرب الى رأى ابن خلدون ، فهو يرى أنه " لا بد للذوق من استمداد العقل والعاطفة كليهما فى تكوين حكمه " . ولا شك أن الزيات يقصد العقل المثقف المدرب .

والحقيقة أن الذوق فى العصر الحديث يجب أن يكون ذوقا مثقفا مدربا حتى لا تختلف الأذواق اختلافا بينا وحتى نستطيع أن نجمع - ولو الى حد ما - على رأى واحد أو قريب فى حسن العمل الفنى والأدبى أو قبحه . فحتى الآن لم نتفق - ولو الى حد ما - على حسن الشعر الحديث المرسل - مثلا - أو قبحه ، وتباينت فيه الأحكام ، واختلفت الآراء ، دون أن نصل الى نتيجة حاسمة . وما زال الشعر المرسل يصول ويجول بل يغطى على الشعر العربى العريق الأصيل . .

من أجل ذلك يجب ألا يترك الذوق على عواهنه بل يجب أن نقوم بترشييد الذوق وتعريفه الجيد والردى\* وتدريبه على ادراك كل منهما . واذا اختلفنا بعد ذلك فى تحديد درجة الجودة أو درجة الرداءة فهذا أمر ميسور وضرره مقصور .

#### الذوق بين الشايب والخولى والزيات :

اذا كان الزيات قد جعل للذوق مصدرين هما : العقل والعاطفة ، فان الاستاذ الشايب قد جعل للذوق ثلاثة مصادر هى : العاطفة والعقل والحس . وذلك حين قال : ( وليس الذوق ملكة بسيطة كما قد يتوهم ، ولكنه مزيج من

العاطفة والعقل والحس ، وربما كانت العاطفة أهم عناصره وأوسعها سلطانا فى تكوينه ومظهره وأحكامه ، وكان تأليفه هذا من أسباب اختلاف الأفراد ان يندرو أو يستحيل أن تجد اثنين يتفقان فيما يصيبان من هذه العناصر كيفا وكما ، وكان لذلك مظهره فى نقد الأدب ، فمن غلب عليه عنصر الفكر أثر شعراء المعانى أمثال أبى تمام وابن الرومى والمتنبى وأبى العلاء وفضل كتاب الثقافة كالجاحظ وابن خلدون ، ومن غلبت عليه العاطفة فتن بشعراء النسيب والحماسة والعتاب وبالخطباء والوصاف ، ومن كان شديد الحس فضل أسلوب البحترى وشوقي كما يفضل الموسيقا والرسم الجميل (١) .

وهذه المصادر الثلاثة - العقل والعاطفة والحس - التى جعلها الشايب مصدرا للذوق ترجع فى الحقيقة الى اثنتين ، لأن الزيات جعل العاطفة نتيجة للشعور الواقع على النفس من طريق الحواس ، فهما ان شىء واحد (٢) .

أما الاستاذ الخولى فقد جعل الذوق ( هو الأساس الأول ، والعامل الأقوى ، واليه المنتهى ، وعنه المصدر ، وهو شىء لا سبيل الى تلقينه وتعليمه ، والتبصير بمصادره ومراجعته لأنه شىء ليس فى الكتب كما قال القدماء ، ولا هو مما يكسبه من حرم أصله . . هو الذوق الذى لو أجملنا كل محاولة فى تصيير البلاغة فن القول لاعتمدت عليه ، ولم تتم الا به ، وكان العدة الفردة فى تحقيقها ، فما نحتاج فى شىء من ذلك كله ، الى أكثر من ذوق مثقف : فطرة تمنحها السماء وتمدها ثقافة كاملة ، وذلك هو ملاك الأمر ومساكه (٣) )

ونلاحظ أن رأى الخولى متفق وجار مع رأى ابن خلدون فى أن العبرة بالذوق المثقف لا غير . واذ كان الأمر كذلك فان هناك سؤالا يطرح نفسه ، وهو كيف يتكون الذوق : أو بتعبير أدق : كيف نشق الذوق وندرجه . يقول الاستاذ الزيات : ( كان الذوق فى العصور الذهبية يتكون فى الأديب بالدراسة الفقهية لعلوم الأدب والقراءة النقدية لروائع الفن ، والصحة المتصلة لأمر البليان ، وغشيان مجالسهم ، وطول الاستماع اليهم ، وأخذ النفس بمحركاتهم ، وامتحان

(١) أصول النقد الأدبى ص ١٢١ ط ٧

(٢) الزيات بين البلاغة والنقد ص ٢٧٨

(٣) فن القول ص ٢١٣

الآراء والأذواق بمحاكمهم ، بعد أن يجمع الأديب وعاء قلبه على خير ما أشرع عن العباقرة الذاهبين من بليغ النظم والنثر في الأحوال المختلفة والأغراض المتنوعة . (١)

ويرى الزيات : أن متأدبي اليوم لا يقرءون الا ( صحف الاخبار ومجلات الفكاهة وأقاصيص اللهو وملخصات العلم . وأكثر ما يقرءون صور منقولة أو مقبوسة عن أدب الغرب لا تربى في القارىء الا ذوقا مذبذبا لا يثبت على لون ولا يستقيم على خطة . ومثل هذا الذوق المطلق المستعار لا ينظر الى ( الأمالى ) و ( الأغاني ) و ( اللزوميات ) الا كما ينظر الى العمامة والقباء والجبة ، فهى فى حكمه أشياء قضت عليها ( المودة ) وللمودة فى كل يوم زى يتجدد معه الذوق ويتعدد ! وليس معنى ذلك أن الذوق الأدبى العربى فسد فى كل نفس ، انما نتحدث عن الكثرة ، والكثرة فى عهد الديموقراطية تتحكم فى القلة : تحدد لها المستوى ، وتعين لها الاتجاه ، وتنصب أمامها الفرض ، بله العدو ، فانها الى الأصحاء مؤكدة سريعة .

على أن فى كتاب العربية المعاصرين صفوة مختارة لا تزال فى وسط هذه الأذواق المتنوعة المتناقضة مخلصه للذوق الطبيعى الخالص ، تذود عنه ، وتدعو اليه ، وتأبى أن تنزل به الى تمليق الدهماء ، ولو فقدت فى سبيله انتشار الصوت ورواج القلم . وأغلب هذه الصفوة من أبناء الأزهر ودار العلوم ومن تلحد لهم ، لأن الذوق الأدبى عندهم هدى من الوحي الالهى أنزله الله فى القرآن ، وأرسله فى الأدب ، فجرى فى النفوس المؤمنة مجرى العقيدة ، لا يحسن فى مكان دون مكان ، ولا يصلح لزمن دون زمن (٢)

وأخيرا يرى الزيات أن ( مستقبل البلاغة منوط بتغلب الذوق الطبيعى المأثور على الذوق المزيف المستحدث . واذا قلت ان سلامة القومية العربية موقوفة كذلك على هذا التغلب لم نعد الحق ، لأن الأذواق والأخلاق والعادات هى عناصر الشخصية التى تميز فردا من فرد وأمة من أمة . وسبيل الغلبة والفلسج للذوق الحر تربيته وتقويته (٣)

(١) دفاع عن البلاغة ص ٦١

(٢) المرجع السابق ص ٦٢

(٣) المرجع السابق ص ٦٥ و ٦٦

والواقع أن الاستاذ الزيات لمس وترا حساسا في دفاعه عن البلاغة ولم يكن مهالفا حين قال : " ان مستقبل البلاغة منوط بتغلب الذوق الطبيعي المأثور على الذوق المزيف المستحدث " . وذلك أمر يهمنا أن نبرزه ونوضحه في مقام دعوتنا الى التجديد . ان يجب أن يراعى في تجديد البلاغة العناية بتربية الذوق والوصول به الى مرتبة الذوق المثقف ، وذلك عن طريق اختيار النصوص الملائمة المساعدة على تربية هذا الذوق . وكذلك عن طريق دراسة بعض العلوم التي ورد ذكرها كاللغة والطبيعة والنفس بجانب العلوم الأساسية اللازمة لتقويم القلم واللسان كالنحو والصرف .

ولقد ذهب الاستاذ الزيات في نظريته الى أهمية الذوق الى حد بعيد ونبه الى أمر خطير حين قال : " وانما قلت ان سلامة القومية العربية موقوفة كذلك على هذا التغلب لم تعد الحق " . وأزيد على ذلك : أن سلامة العقيدة موقوفة كذلك على هذا التغلب . فأمر الذوق ان جد خطير ، والعناية به وبتربيته ليس واجبا بلاغيا فحسب ، ولكنه واجب قومي وديني كذلك .

### الأسلوب

لعل ما عرضته عليك من اجمال القول في البلاغة كان توطئة لتفصيل الكلام في الأسلوب . ذلك لأن الأسلوب هو مظهر الهندسة الروحية لهذه الملكية النفسية يبرزها للعيان ويصل بينها وبين الأذهان ، وينقل أثرها المضرر إلى الأغراض المختلفة والغايات البعيدة . وكتب البلاغة في لغتنا لم تمنعنا إلا بالجمال وما يعرض لها في علم المعاني ، والا بالصور وما يتنوع منها في علم البيان . أما الأسلوب من حيث هو فكرة وصورة معا فقد سكنت عن سكوت الجاهل به . وكان الظن بمن خلفوا عبد القاهر وأبا هلال وابن الأثير أن يفتنوا إليه بمد ما دلوه عليه بذكرهم بعض خصائصه الفنية وصفاته اللفظية ، وان كان ما ذكره من ذلك جاء فطيرا لم يخمر ، وخديجا لم يكتمل ، وشائعا لم يحدد ، ومشوشا لم يرتب . ولكنهم صموا عن تنبيه العسكري ، وعموا عن توجيه الجرجاني ، ومضوا على نحائزهم الأعجمية بفلسفون النحو والبلاغة لا لشيء غير الفهاهة والحدلقة<sup>(١)</sup> .

ونستنتج من هذا الكلام للزيات أنه يدافع عن البلاغة الأولى ، بلاغة المدرسة الأدبية وأعلامها من أمثال عبد القاهر وأبي هلال وابن الأثير ، فان هؤلاء لم يقصروا وذكروا الأسلوب وتحدثوا عنه ، وان كان ما ذكره من ذلك جاء فطيرا لم يخمر ، وخديجا لم يكتمل . ولكن أليس هؤلاء الأعلام عذرهم ؟ فان النظرة الأدبية في عصرهم كانت تتوجه إلى البيت والبتين ، والجملة والجلتين ، ولم تكن النظرة الشاملة إلى النص كله قد وجدت بعد .

ونستنتج من كلام الزيات أيضا أن هدفه الأول في دفاعه عن البلاغة هو الكلام عن الأسلوب ، وأن ما فات كله إنما كان توطئة وتمهيدا لتفصيل الكلام عن الأسلوب .

ولسنا مع الاستاذ الزيات في هذا القول ، فان ما فات من آراء وأفكار كان كبير الأهمية عظيم الخطر . فأسباب التنكر للبلاغة لم يكن أحد يلفت إليها من قبل ، وحديثه عن حد البلاغة وألتها حديث له أهميته وقد ره ، أما حديثه عن



عن الذوق فقد كان دقيقا رائعا ، كشف به عن أهمية الذوق ومكانته وخطر شأنه  
لا بالنسبة للبلاغة فحسب ، بل بالنسبة للقومية العربية وتربية الشخصية العربية  
كذلك .

وليس معنى ذلك أننا ننقص من قدر الأسلوب وأهميته ، فإن الأسلوب من  
الدراسات الأدبية المستحدثة الهامة التي نادى دعاة التجديد بإدخالها فى  
منهج البلاغة الجديد .

والاستاذ الزيات . وان كان يرى أن الأسلوب بحث جديد ، الا أنه يرى  
- كما أوضح من قبل - أن للأسلوب جذورا فى القديم . ولذلك أتى بتعريف ابن  
خلدون للأسلوب ، غير أنه أتى به مقتضبا ناقصا من أوله حوالى ثلاثة أسطر ، ومن  
وسطه حوالى سطرين . ونحن نورده بأكمله .

يقول ابن خلدون : " ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة  
- صناعة الشعر - وما يريدون بها فى اطلاقهم ، فاعلم أنها عبارة عند هم عن  
المنوال الذى ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه ، ولا يرجع الى  
الكلام باعتبار افادته أصل المعنى الذى هو وظيفة الاعراب ، ولا اعتبار افادته  
كمال المعنى من خواص التراكيب الذى هو وظيفة البلاغة والبيان - ولا باعتبار الوزن  
كما تستعمله العرب فيه الذى هو وظيفة العروض ، فهذه العلوم الثلاثة خارجة  
عن هذه الصناعة الشعرية - وانما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنظمة لكيسة  
باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب  
وأشخاصها ، ويصيرها فى الخيال كالقالب والمنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة  
عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصا ، كما يفعل البناء فى القالب  
والنساج فى المنوال ، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام  
ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربى فيه ، فان لكل فن من الكلام  
أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة . . . . . (١)

ولست أدري ماذا تقول الدكتور بنت الشاطىء فى طول هذا التعريف  
وعرضه ، فهى اذا كانت اعتبرت تعريف الزيات للبلاغة طويلا وعريضا وهو سطر واحد

فماذا اذن تقول فى هذا التعريف ؟ ! ولعل هذا ما حدا بالزيات أن يحذف منه أكثر من خمسة أسطر فلا أظنه حذفها استغناءً عن معناها . واذ كان الأمر مجرد اثبات جذور للأسلوب فى القديم أما كان يكفى تعريف عبد القاهر عن الأسلوب بأنه " الضرب من النظم والطريقة فيه <sup>(١)</sup> . خاصة وأن الزيات رجل بليغ ويدافع عن البلاغة ويقول ان من صفاتها ( الوجازة ) كما سيأتى بعد قليل .

وبعد ما هو الأسلوب عند الزيات ؟

" هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام <sup>(٢)</sup>

وذكرنا هذا التعريف بالاستاذ الشايب حيث عرض فى حد الأسلوب تعريفين أولهما : أن " الأسلوب معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظاً منسقة ، وهو يتكون فى العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجرى به القلم <sup>(٣)</sup> . وثانيهما أن الأسلوب هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير <sup>(٤)</sup> .

ونلاحظ بين الزيات والشايب فرقاً فى تعريف الأسلوب . فالزيات يعتبر الأسلوب خاصاً باختيار الألفاظ وتأليف الكلام ، بينما الشايب ينظر الى الأسلوب نظرة أشمل فهو عنده معان فى النفس قبل أن تكون عبارات على اللسان أو فوق الورق .

#### اختلاف الأسلوب ومداه :

اذ كان الأسلوب عند الزيات هو : طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام فإن " هذه الطريقة فضلاً عن اختلافها فى الكتاب والشعراء تختلف فى الكاتب أو الشاعر نفسه باختلاف الفن الذى يعالجه ، والموضوع الذى يكتبه ، والشخص الذى يتكلم بلسانه أو يتكلم عنه <sup>(٥)</sup> .

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٦١ .

(٢) دفاع عن البلاغة ص ٧٠ .

(٣) الأسلوب ص ٤٠ ط ٤

(٤) الأسلوب ص ٤٦ ط ٤

(٥) دفاع عن البلاغة ص ٧٠ .

وهذا الكلام فى اختلاف الأسلوب نجد مثله كذلك فى كتاب الأسلوب للاستاذ الشايب<sup>(١)</sup> . ولكن الأستاذ الزيات يتناول هذا الاختلاف فى الأسلوب ويفيض فيه بفكر آخر أو بنظرة أخرى أبعد مدى فيقول :

" ولكن الأساليب مهما اختلفت باختلاف الأفراد ، وتنوعت بتنوع الأغراض ، فانها تتسم جميعا بسمات واحدة من عبقرية الأمة . ومنطق ذلك أن الصفات المشتركة فى آحاد الأمة تتلاقى وتتجمع فتكون خصائصها التى تميزها من سواها . وهذه الخصائص نفسها تنطبع فى لفتها فتكون طغرازا عاما فى كل أسلوب . وعلى قدر ما تكون هذه الخصائص فى الأمة تكون قابلية الأساليب فيها للاختلاف فالصفات القومية فى الأمة العربية كانت فى جاهليتها شديدة الظهور والعموم حتى لم يكن بين صفات الفرد وصفات الجماعة الا فروق لا تكاد تلاحظ . ومن ثم تشابهت أساليب الشعر والخطابة فى ذلك العصر فلا تستبين فروقها الدقيقة الا للناقد البصير . ومن اختلف أسلوبه من الشعراء الجاهليين فقد اختلف لتغلب صفاته الخاصة .

فلما جاء الاسلام أخذت هذه الفروق تتضح وتباين حتى بلغت غايتها من ذلك فى العصر العباسى ، حين صارت اللغة العربية لغة الاسلام ، وصار الأرب العربى أدب الشرق . . .

وبهذه الصفات القومية العامة تميزت لغة من لغة ، واختلف أدب عن أدب ، فاللغات الشرقية فى جملتها تتميز من الغربية بالزخرف والأبهة والانتفاخ والتبجيل والتهويل والصوفية ، لأن شعوبها صبغوها بهذه الأصباغ من صفاتهم الخاصة . والفروق المعروفة بين الفرنسية فى وضوحها ووقتها ، وبين الإيطالية فى رخاوتها ورقتها ، وبين الانجليزية فى خشونتها وقوتها ، هى نفسها الفروق بين أصحاب هذه الأمم الثلاث فى أصل الجبله وموروث الطبع<sup>(٢)</sup> .

طبيعة اللغة وأثرها فى الأسلوب :

يرى الزيات أنه كما تؤثر صفات الأمة فى طبيعة اللغة ، كذلك " تؤثر طبيعة اللغة فى أسلوب الكاتب ، فاللغات التى اكتسبت من مدنية أهلها رقعة

(١) أنظر الباب الثالث ص ٥٤

(٢) دفاع عن البلاغة ص ٧٠ - ٧٢

اللفظ وأناقة العبارة ، ومن شاعريتهم جمال الصورة وروعة الأخيلة ، تغنى الكاتب بموسيقاها وحلاها عن كد القريحة فى ابتكار المعانى واستنباط الفكر . أما اللغات التى لم تؤتها الطبيعة حظا موفورا من سحر اللفظ وفتون الصياغة ، فكتابها مضطرون الى أن يعرضوا أساليبهم من ذلك وجازة التعبير ووزانة التفكير ومد القارى\* بفيض من المعانى يشغله عن الفكر فيما فاتته من جمال الأسلوب .

واللغة العربية من النوع الأول ، طبعها أهلها منذ القدم على موسقة الألفاظ ، وتنويع المعانى بصور البيان ، وتفويف الجمل بألوان البديع ، لا فرق فى ذلك بين بدوتها وحضارتها ، ولا بين فصاحتها وعاميتها ، حتى اطمأن كثير من رجال القلم الى أن يعفوا طباعهم من جهد التفكير ويحاولوا امتلاك القلوب بروعة الأسلوب ، فكانت المقالة أو القصيدة أشبه بالقطعة الموسيقية تخلب الأذن ولا يبلغ النفس والذهن منها غير رجوع ضعيف . ومن هنا قرئى أكثر النفوس أن الأسلوب انما يطلق على الجانب اللفظى من الكلام ، حتى قال الاستاذ الرافعى طيب الله ذكره : " فصل ما بين العالم والأديب ، أن العالم فكيرة ، والأديب فكرة وأسلوبها " . فصل بين الفكرة والأسلوب واعترف بالأسلوب للأديب وأنكره للعالم . ولعللى أوفق الى تصحيح هذا الرأى فيما يلى من هذا الحديث<sup>(١)</sup> .

هذا الكلام من الأستاذ الزيات يجعلنا نعيد النظر فى تعريفه السابق للأسلوب ، فبعد أن قرر أن الأسلوب هو : طريقة الكاتب أو الشاعر فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام ، يعود فيستنكر ما قرئى أكثر النفوس من أن الأسلوب انما يطلق على الجانب اللفظى من الكلام ، ويستنكر فصل الرافعى بين الفكرة والأسلوب ويعود بتصحيح هذا الرأى فيما يلى من الحديث .

#### الأسلوب بين المعنى واللفظ أو بين الفكرة والصورة :

ومرة أخرى يحاول الزيات أن يوضح موقفه من الأسلوب ويزيل أى التباس سابق فيقرر أن " من رجال الأدب من يرى أن العلاقة بين المعنى واللفظ كالعلاقة بين الجسم والثوب ، لكل منهما على تلازمهما وجود ذاتى مستقل لـه

أوصافه وخصائصه ، فالجسم يقوم بحساب الخلقة ، والثوب يقوم بحساب الصناعة . ومنهم من يرى أن العلاقة بينهما كالعلاقة بين الروح والجسد ، لا يوجد هذا بغير ذاك ، فإذا انفك أحدهما عن الآخر مات الحي وفسد الكائن . ونحن - كما علمت من قبل - على رأى هذا الفريق فقد قلنا فى كلمة سبقت ان الاسلوب هو الهندسة الروحية لملكة البلاغة ، وان البلاغة التى نعينها هى البلاغة التى لا تفصل بين العقل والذوق ، ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين المضمون والشكل : اذ الكلام كائن حتى روحه المعنى وجسمه اللفظ ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفساً لا يتمثل ، والجسم جماد لا يحس<sup>(١)</sup> .

وعلى الرغم من أن هذا الكلام - عن البلاغة التى يعينها والتى لا تفصل بين العقل والذوق ولا بين الفكرة والكلمة . . . الخ - ورد فى حديثه عن : ( حد البلاغة ) لا الأسلوب ، فاننا نعتبر هذا رجعة الى الصواب ، وتنكر اللغطاً فالواقع - كما يقول الزيات بعد ذلك - أن : " الفكرة والصورة فى الاسلوب كل لا يتجزأ ، ووحدة لا تتعدد . وليس أدل على اتحادهما من أنك اذا غيرت فى الصورة تغيرت الفكرة ، واذا غيرت فى الفكرة تغيرت الصورة . فقولك : أعنيك غير قولك : اياك أعنى وقولك : كل ذلك لم يكن غير قولك : لم يكن كل ذلك وقولك : ما شاعر الا فلان ، غير قولك : ما فلان الا شاعر . فترتيب الألفاظ فى النطق يكون بترتيب المعانى فى الذهن . . . . وانا حين ذكرنا أن الاسلوب هو الطريقة الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام ، كما نريد بذلك اختيار الألفاظ على الشكل الذى يرتضيه الذوق ، وتأليف الكلام على الوضع الذى يقتضيه العقل<sup>(٢)</sup> .

وهكذا وضع الزيات النقط فوق الحروف فى موضوع الأسلوب وحدد موقعه منه بوضوح . وزيادة فى التأكيد يأتى بتعريف آخر بنا " على ما سبق " فالأسلوب اذن هو طريقة خلق الفكرة وتوليدها وابرازها فى الصورة اللفظية المناسبة<sup>(٣)</sup> ثم يذهب يشرح ذلك : من ذلك نرى أن الأسلوب خلق مستمر : خلق الألفاظ بواسطة

(١) المرجع السابق ص ٧٣ و ٧٤ . وهذا رأى ابن رشيق أيضا - أنظر العمدة

ج ١ ص ٩٩ و ١٠٠

(٢) المرجع السابق ص ٧٤ و ٧٥ بتصرف

(٣) " " " ص ٧٦

المعاني ، وخلق المعاني بواسطة الألفاظ . ومن ذلك نرى أن الاسلوب ليس هو المعنى وحده ولا اللفظ وحده ، وانما هو مركب فني من عناصر مختلفة يستمد ها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه . تلك العناصر هي الأفكار والصور، والعواطف ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة <sup>(١)</sup> .

### أنصار الصياغة اللفظية :

ومرة أخرى بعد كل ما تقدم يعود الزيات فينضم الى أنصار الصياغة اللفظية ويبراهم أقرب الى الصواب من أولئك الذين كهروا بها وشنعوا عليها <sup>(٢)</sup> . ويستشهد لذلك بآراء من الشرق ومن الغرب . فأبو هلال العسكري يقول : " ليس الشأن في ايراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وانما هو في جودة اللفظ وصفائه . . . مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أود النظم والتأليف . . . " وقال لبرويير : " ان هوميروس وأفلاطون وفرجيلي وهوراس لم يبين شأوهم على سائر الكتاب الا بعباراتهم وصورهم " . وقال شاتوبريان : " لا تحيا الكتابة بغير الأسلوب . . . " . . . . .

وقد غالى علماؤنا البيانيون فزعموا أن المعاني شائعة مبدولة لا يملكها المبتكر ولا السابق ، وانما يملكها من يحسن التعبير عنها ، فمن أخذ معنى بلفظه كان سارقا ، ومن أخذه ببعض لفظه كان سالخا ، ومن أخذه فكساه لفظا أجود من لفظه كان هو أولى به ممن تقدمه <sup>(٣)</sup> . . . . .

ومعنى ذلك - في رأى الزيات - أن الأفكار تكون قبل أن يفرغها الفنان في قالبه الخاص من الأملاك العامة ، فاذا عرف كيف يصوغها على الصورة اللازمة الملائمة تصبح ملكا خالصا له ، تسير في الناس موسومة بوسمه ، وتعيش في الحياة مقرونة باسمه . فالأسلوب وحده هو الذي يملك الأفكار وان كانت لفيرك . ألا ترى أن أثر الاخلاق في بقاء الأم وفنائها معنى من المعاني الماثورة المطروقة ، فلما أجاد شوقي سبك اللفظ عليه في بيته المشهور :

انما الأم الأخلاق ما بقيت      فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

(١) المرجع السابق ص ٧٩

(٢) المرجع السابق ص ٨٠

أصبح بهذه الصيغة من حسناته المعدودة وأبياته المروية ؟

على أنك مهما تستقرا تجد امرأ سليم الطلعات ينكر ما لحلاوة الجرس وطلاوة العبارة من الأثر الفعال في بلاغة الكلام . وعلماء البيان مجتمعون على أن : " الكلام اذا كان لفظه غثا ، ومعرضه رثا ، كان مردودا ولو احتوى على أجل معنى وأنبله " (١) .

### الصورة والفكرة مرة أخرى :

بعد ما ذهب الزيات الى فريق الصياغة اللفظية مؤيدا ومناصرا ، عاد يؤكد أن الأسلوب في الحقيقة صورة وفكرة معا ، ولكن المسألة مسألة نسبية فبالنسبة للصياغة فهي عند أرجح وأقوى أثرا . يقول : " خلص لنا من مخاض هذه الأحاديث أن الأسلوب الفني يتكون من الصورة والفكرة ، كما يتكون الماء القراح من الهيدروجين والاكسجين . وكما استحال في فن الطبيعة أن يتكون الماء من أحد عنصريه ، فقد استحال في فن الانسان أن يتكون الأسلوب من أحد جزأيه . ولا أقصر وجهه الشبه بين الأسلوب والماء على أن تركيب هذا وذاك من عنصري ضرب لا زب ، انما أمد الشبه الى أن نسبة الصورة الى الفكرة في الأسلوب يجب أن تكون كنسبة الهيدروجين الى الاكسجين في الماء - وهي نسبة اثنين الى واحد - . وان لا يعد من الأساليب الفنية المعاني الحكمة التي تعرض في معرض بشع من الركاكة والغثاثة والتعقيد والخطأ ، ولا تلك الصور الموهمة التي تنتفخ انتفاخ الفقاقيع ، وتبرق بريق الشرر ، ثم لا يكون من زرائها غير فراغ وظلمة " (٢) .

قال ابن رشيق : " ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب ، قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح . فان اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه وان كان حسن الطلاوة في السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأى العين الا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة . وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ، لأننا لا نجد روحا في غير جسم ألبتة " (٣) .

(١) الصناعتين ص ٤٩ ، وانظر المرجع السابق ص ٧٨ - ٨٢

(٢) المرجع السابق ص ٩٢ و ٩٣

(٣) كتاب العمدة ج ١ ص ١٠٠

### صفات الأسلوب عند الزيادات :

الأسلوب يختلف باختلاف الذهن والثقافة والنوع والفرض والحال والشخص الذى يتحدث اليه . فأسلوب القصة غير أسلوب الرواية وأسلوب العتاب غير أسلوب الشكر ، وأسلوب التأثير غير أسلوب الاقتناع . . . . وهكذا . ولكن لهذه الأنواع مهما تعددت واختلفت صفات مشتركة من جهة الذهن . هذه الصفات المشتركة هى التى تعيننا ونعنيها <sup>(١)</sup> .

ويذهب الزيادات ينقد صفات الأسلوب القديمة " ذلك لأن أكثرها من الألفاظ التى أشاعها الكتاب فى الناس من غير تقييد ولا تحديد فظلت معانيها مبهممة ، ودلالاتها شائعة . من ذلك قولهم : الجزالة والسهولة والعدوية والركة والدقة والخفة والقوة والسلاسة والرصانة والنصاعة والوضوح والصدق والطلاوة والحلاوة والرونق والمائية والطبيعية والسبك والحبك والشرف والسمو والجمال والجلال ، الى آخر هذه النعوت المتداخلة التى لا تعين حدا ولا تبين مزية <sup>(٢)</sup> .

ولا أستطيع أن أترك هذا الكلام دون تعليق . فهذه الكلمات العربية التى استعملها العرب فى النقد والبلاغة ليست مبهممة ولا متداخلة ولا هى مما لا تعين حدا ولا تبين مزية . بل ان لكل كلمة معناها المحدد وايحاءها الجميل ، فقط يسأل عن ذلك العارفون باللغة .

فالجزالة - مثلا - جودة الرأى وعظمه وفصاحة المنطق ، وفى المنجد : الجزل : الغليظ العظيم ، وجزل الرجل جزالة : صار جيد الرأى ، وجزل المنطق : فصيح فهو جزل والجزل ضد الركيك من الألفاظ <sup>(٣)</sup> .

والرصانة - مثلا - معناها الاتقان والاحكام ، وفى المنجد : رصن الأمر رصنا : أتمه وأتقنه ، ورصن العقل وغيره رصانة : استحكم واشتد وثبت فهو رصين <sup>(٤)</sup> .

(١) المرجع السابق ٩٣ و ٩٤

(٢) المرجع السابق ٩٤ و ٩٥

(٣) المنجد ص ٩٠ ط ٢٣

(٤) المنجد ص ٢٦٤ ط ٢٣



والطلاوة - كذلك - معناها الحسن والبهجة ، وفي المنجد : اطلولسى  
اطليلا : حسن كلامه ، والطلوة : بياض الصبح ، والطلاوة ( مثلثة ) : الحسن  
والبهجة ، يقال : " هذا كلام ما عليه طلاوة " اذا كان غشا لا ملاحه فيه <sup>(١)</sup> .

وانذا كنت قد اخترت هذه الكلمات الثلاثة وأوضحتها من المعاجم فلأنها  
قد تكون موهلة في القدم الى حد ما أما بقية الكلمات كالسهولة والعذوبة والرقصة  
والدقة . . . الخ فهي كلمات قريبة الى الأذهان والأفهام يكاد يعرفها العامي  
والفصيح على السواء . واني لأعجب كيف يراها الأستاذ الزيات شائعة الدلالة  
مبهمة المعنى وهو الذي أكثر من استعمالها في أحاديثه هنا وهناك ؟ ! أما  
انه لو قال : أننا أسأنا استعمال هذه الكلمات في النقد والبلاغة لكان أولى .

ويعود الأستاذ الزيات الى تلك الصفات المشتركة من جهة الأسلوب فيرى  
أنها لا تخرج عن صفات ثلاثة هي جمعتها وجماعها : وتلك الصفات الجامعة هي :  
الأصالة - الوجازة - التلاؤم .

وتذكرنا هذه الصفات الثلاث بصفات أخرى ثلاثة أيضا هي :  
الوضوح - القوة - الجمال . فقد ذكرها الأستاذ الشايب واعتبرها صفات للأسلوب  
كذلك ذكرها من قبله أصحاب ( البلاغة الواضحة ) ومن تبع طريقته بعد ذلك  
من مؤلفي الكتب المدرسية .

هذا وفي الامكان بقليل من النظر ارجاع صفة الأصالة الى الوضوح والقوة ،  
وارجاع الوجازة والتلاؤم الى الجمال . والله أعلم .

### الأصالة :

يراد بالأصالة في الأسلوب بناؤه على ركنين أساسيين من : خصوصية  
اللفظ وطرافة العبارة . وتلك هي الصفة الجوهرية للأسلوب البليغ والسمة المميزة  
للكاتب الحق . و ملاك الأصالة ألا تكتبكما يكتب الناس . ملاكها أن تكون أصيلا في  
نظرك وكلمتك وفكرتك وصورتك ولهجتك ، فلا تستعمل لفظا عاما ، ولا تعبيراً  
محفوظا ، ولا استعارة مشاعة .

أما خصوصية اللفظ : فهي دلالة التامة على المعنى المراد ، ووقوعه الموفق في الموقع المناسب . وآية مطابقته لمعناه ومبناه أنك لا تستطيع أن تبدله ولا أن تنقله . والخصوصية في اللفظ أصل الدقة في التعبير ، والوضوح في المعنى ، والصدق في الدلالة . . . . . والكلمة في الجملة كالقطعة في الآلة ، إذا وضعت في موضعها على الصورة اللازمة والنظام المطلوب تحركت الآلة ولا ظلت جامدة . . . . . ويضرب الزيات مثلاً لذلك بما ورد . . . أن ابن هرمة سـمـع أديبا ينشد قوله :

بالله ربك ان دخلت فقل لها هذا ابن هرمة ( قائما ) بالباب فقال له : لم أقل ( قائما ) أكتأصدق ؟ ! ، قال : ( قاعدا ) ؟ قال : أكتأبول ؟ قال فماذا ؟ قال : ( واقفا ) . وليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى <sup>(١)</sup> . ذلك مثال من أمثلة كثيرة تريك كيف يميز الفنان اللفظ ويختاره ، وتميز اللفظ واختياره شديدان على من لم يؤتته الله العلم بمعاني الألفاظ والبصر بفروق المعاني . ولم يقع صاغة الكلام في البهرج والزيف إلا بمجافاة الذوق ومخالفة اللغة .

أما الركن الأخير وهو طرافة العبارة : فأسه الابتكار في حكاية الخبر وتصوير الفكر وتقويم الموضوع . وهيئات أن تحدد الجملة المبكرة التي تشير الاعجاب وتحدث الأثر وتحرك الفتنة إلا إذا وجدت الكلمة الخاصة التي تحدد الفروق وتجدد العلاقة وتبعث الحركة .

والأسلوب - كما يرى الزيات - خلق مستمر : خلق للفكر بطرافته ، وخلق للترتيب بتنسيقه وتشويقه ، وخلق للأداء بألفاظه ولهجاته وصوره . وعلى قدر ما يتضح الخلق في الكتابة تتضح المعظمة في الكاتب .

ما تحققه الأصالة في الأسلوب :

ويعود الزيات إلى الحديث عن الأصالة - بعد ما استطرده في خصوصية اللفظ وطرافة العبارة - فيقرر أن الأصالة هي الكلمة الخاصة والعبارة الجديدة .

(١) القيام يقتضى الشبوت والدوام ، والوقوف لا يقتضيهما تقول : وقف الحجيج بعرفة ولا تقول : قام .

وبخصوصية الكلمة وجدة العبارة تتحقق ( الطبيعة ) فى الأسلوب . وليسـت  
( الطبيعية ) أن ترسل الكلام على سجيته من غير روية ولا تنقيح ، انما الطبيعية  
نتيجة النظر الطويل والجهد المتصل فهى على الرغم من اسمها تكسب ولا توهب .

وأقول : اذا كان من المعلوم أن ( الطبيعية ) موهبة لا كسب فلماذا يرغب الزيات  
الكلمة على عكس معناها مهما قال فى تبرير ذلك ؟ ! وهل ضاقت العربية بالأسما  
المناسبة ؟ !

ومن الطبيعية بمعناها الفنى تكون ( الدقة ) . وما الدقة الا ترك فضول  
الكلام وتوخى صواب اللفظ . . . . .

والدقة المشتقة من الطبع سبيل ( الوضوح ) . لأن غموض الكلمة ينشأ من  
غرابيتها أو اشتراكها ، وغموض الكلام ينشأ من تعقده أو فساد ه . والغرابية  
والاشتراك والتعقد والفساد هى الأضداد الطبيعية لمعانى الأصالة<sup>(١)</sup> .

ذلك مجمل القول فى " الأصالة " وما تضمنته من صفات الدقة والصحة  
والصدق والطبيعة والوضوح<sup>(٢)</sup> .

والأصالة بهذه الصفات التى ذكرها الزيات انما تتناول الجوانب اللفظى  
من الأسلوب و " كان من حق الأصالة فى الشعور والتفكير أن تنال من الاستاذ  
ما نالته الأصالة فى الأسلوب والتعبير . فالمعانى والأحاسيس ليست شائـمة  
ملقاة على جانب الطريق ، والا فأيـن تذهب الطبائع الأصيلة الممتازة التى تسرى  
الدينيا والأشياء بعين خاصة فاذا هى تعيش فى كون خاص بها من صنع أحاسيسها  
وتفكيرها ؟ تلك فلتة من فلتات الحماسة للبلاغة من صاحب ( دفاع عن البلاغة )  
يرد بها الغلو فى انكار قيمة التعبير فيجعل المزية كلها للتعبير<sup>(٣)</sup> .

(١) دفاع عن البلاغة ص ٩٥ - ١٠٣ بتصرف

(٢) المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٣) مقال ( على هامش النقد ) لسيد قطب - الرسالة العدد ٦٢٦ ص ٦٦٥

### الوجازة :

( اذا كانت الأصاله هى الصفة الجوهرية للأسلوب البليغ ، والسمة المميزة للكاتب الحق ، فان الوجازة باجماع الرأى هى حد البلاغة .

واذا كانت الوجازة أصلا فى بلاغات اللغات ، فانها فى بلاغة العربية أصل وروح وطبع . . . يظهر ذلك فى مثل قولك : ( قتل الانسان ) فان الفعل فى هذه الجملة يدل بصيغته المملوطة وقرينته المملوطة على المعنى والمزمـن والدعا\* والتعجب وحذف الفاعل ، وهى معان لا تستطيع أن تعبر عنها فى لغة أوربية الا بأربع كلمات أو خمس\* .

وللزيات فى التفصيل رأى خاص فهو يرى أن : " التفصيل اذا سلم من اللغو ، كان كالا جمال اذا برى\* من الاخلال ، وكلاهما حسن فى موقعه بليغ فى بابه . وقد يكون التفصيل من الايجاز اذا قدر لفظه على معناه ، فان الايجاز الذى نعنيه أن يدل اللفظ على المعنى ولا يزيد عليه : فان كان ناقصا عنه فهو ايجاز الحذف والقصر ، وان كان مساويا له فهو ايجاز التقدير والمساواة\* .

ويذهب الزيات يوضح قصده فيقول : " انما أقصد بذكر الاجمال والتفصيل الى أن الأسلوب العربى الأصيل موسوم بالوجازة من أصل النشأة ، لأنه أسلوب أمة صافية الذهن دقيقة الحس سريضة الفهم ، تشمر بقوة ، وتعبر بقوة ، وتفهم بقوة . وقوة الروح والقلب ، وقوة العقل والخلق ، تلازمهما قوة اللسان والقلم ، أى البلاغة . والبلاغة والايجاز ، والايجاز امتلا\* فى اللفظ وقوة فى الحبك ، وشدة فى التماسك\* .

وراح الزيات يلتبس أمثلة كثيرة للوجازة نختار منها قوله " كان سيد البلخا\* محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يكره أن يجاوز الكلام مقدار القصد به ، فقد تكلم رجل عنده فأطال ، فقال له : " كم دون لسانك من حمجابه ؟ قال : شفتاى وأسنانى . فقال له الرسول : ان الله يكره الانبعاث فى الكلام . فنضر الله وجهه رجل أوجز فى كلامه واقتصر على حاجته\* .

وقيل لاياس : " لا عيب فيك الا أنك تطيل . قال : أخيرا تسمعون أم  
شرا ؟ قالوا : خيرا . قال : فالزيادة في الخير خير " . روى ذلك الجاحظ  
وعقب عليه بقوله : " وليس الأمر كمال قال اياس ، فان للكلام غاية ، ولنشاط السامعين  
نهاية ، وما فضل عن مقدار الاحتمال ، ودعا الى الاستثقال والمبال ، فذاك  
الفاضل هو الهذر ، وهو الخطل ، وهو الاسهاب الذي سمعت الحكماء  
يعيبونه " (١) .

وكان أمراء النثر العربي من أمثال جعفر بن يحيى وسهل بن هرون  
يتوخون جانب القصد ، ويؤثرون طريق الايجاز ، حتى قال جعفر للكتاب :  
" ان استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا " (٢) .

ونحن مع الاستاذ الزيات في أن الايجاز أصل من أصول البلاغة العربية ،  
ولكنه ليس الأصل الوحيد ، فالبلاغة فيها الاطناب والمساواة كما فيها الايجاز ،  
ولكل واحد من الثلاثة دواعيه وأسبابه ، وذلك أعرف وأشهر من أن نقره أو نؤكده .  
والقرآن الكريم الذي استشهد الاستاذ ببعض آياته على الايجاز ، فيه كذلك  
آيات أخرى بنيت على الاطناب أو المساواة حسب الغرض الذي سيقته الآيات .  
فلماذا ذكر هذا وأنكر ذاك ؟ " أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض " ؟ . ولعل  
السبب في ذلك ما ذهب اليه الزيات من مفهوم خاص عن الايجاز فأدخل فيه  
المساواة كما بينا ذلك من قبل ، بل أدخل فيه الاطناب كذلك فقال : " والتفصيل  
إذا سلم من اللغو كان كالأجمال إذا برى " من الاخلال . . . (٣) .

(١) البيان والتبيين ص ١٠٦

(٢) دفاع عن البلاغة ص ١٠٣ - ١١٥ بتصرف

(٣) " " " " ص ١٠٤

## التلاؤم :

وهو الصفة الثالثة والأخيرة من صفات الأسلوب الجامعة .

والتلاؤم يعنى عند الزيات الموسيقية أو ( الهرمونية ) . وهذا التلاؤم يفتح صفحة هامة من قضية البلاغة ، ويشير غبار تهمة " تريب المتهم ، وتعسف الدليل ، وتنكر الذوق ، وتنزل القيم الفنية منزلة العبث . تلك هى تهمة اللفظ بالأناقة ، والتركيب بالموسيقى ، والأسلوب بالرفعة . ولو كانت هذه التهمة الجريئة تقصد الجمال المزيف والحسن المجتلب لما حك فى الصدور من ناهيتها شئ " ، ولكنها تقصد التعبير الجميل الذى يتميز به كلام الأديب من كلام الناس .

وينبرى الزيات مدافعا عن البلاغة وجمال الأسلوب فيقول : " لماذا يثيرون على تنميق الكلام بدعوى أن الفرض منه الفهم والعلم ، ولا يثيرون على تزيين الطعام وتحلية الهندام وتزويق المسكن ، والفرض الأصيل منها الغذاء والوقا ؟ . . . .

وإذا كان أحدهم لا يحب أن يلبس الثوب المرقع ، ولا أن يسكن الكوخ النابي ، ولا أن يتزوج المرأة المسيخة ، ولا أن يسلك الطريق الوعر ، ولا أن يركب المركب الخشن ، فلماذا يكره أن يسمع الكلمات العذبة ، والفقر المنسقة ، والجميل الموزونة ، والأصوات المؤتلفة ، والنظر والسمع فى هذا المقام سوا . . . . " وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن الى ما يوافقه ، وتنفر مما يضاده ويخالفه . والعين تألف الحسن وتغذى بالقبيح ، والأنف يرتاح للطيب وينفر للنتن ، والفم يتلذذ بالحلو ويمج المر ، والسمع يتشوف للصوت الرائع وينزوى عن الجهير الهائل ، واليد تنعم باللين وتتأذى بالخشن ، والفهم يأنس من الكلام للمعروف ، ويسكن للمألوف ، ويصغى الى الصواب ، ويهرب من المحال وينقبض عن الوخم ، ويتأخر عن الجافى الغليظ . ولا يقبل الكلام المضطرب الا الفهم المضطرب والرؤية الفاسدة (١)

والحق الصريح أن الذين يدعوننا أن نكتب كما نتكلم انما يزورون حقيقة الفن فيهم بنقيصة المعجز منهم ، بدليل أنهم يجدون فى أنفسهم حلاوة الرضا ان وقعت فى كلامهم عفوا كلمة أنيقة أو جملة رشيقة أو سجعة محكمة . . . . .

من ذلك نعلم أن جمال العبارة ، وجمال الأسلوب ، من الصفات المشتركة في الناس ، تتفق في الوجود والمظهر ، وتختلف في الطاقة والدرجة . فالعامة يستعملون الوزن والسجع والجناس متى جاشت في صدورهم عاطفة أو جرت على ألسنتهم حكمة ، فمواويلهم وأناشيدهم وأغانيتهم موزونة أو موقعة ، وأمثالهم وحكمهم وضوابطهم مزدوجة أو مسجعة . وكلما سمت الطبقة واتسعت الثقافة وصدق الشعور وصفا الذوق وأرهفت الأذن ، سما الأسلوب من الجميل إلى الأجل ، ومن الجليل إلى الأجل ، حتى يبلغ الأوج عند كلام الله .

إن جمال اللفظ وطلاوة التعبير تابعان لقوة العاطفة وجلالة الموضوع لا فرق في ذلك بين أدب العامة وأدب الخاصة<sup>(١)</sup>

وبعد هذه الجولة في الدفاع عن الجمال الفني والصياغة الفنية يعود الزيات إلى التلاؤم في حقيقة معناه وطبيعة مداه . فيقول " التلاؤم كلمة جامعة لكل وصف لابد منه في اللفظ ليكون الكلام خفيفا على اللسان ، مقبولا في الأذن ، موافقا لحركات النفس ، مطابقا لطبيعة الفكرة أو الصورة أو العاطفة التي يعبر عنها الكاتب أو الشاعر .

فالتلاؤم من حيث القبول في الآذان والخفة على اللسان ، يكون في الكلمة بائتلاف الحروف وتوافق الأصوات وحلاوة الجرس . ويكون في الكلام بتناسق النظم وتناسب الفقر وحسن الإيقاع . ومن هنا تنشأ السلاسة والعذوبة والطلاوة والرخامة ، وانسجام التراكيب ومتانة الحيك ، وكل صفة تنفي عن الكلام التنافر والنبو القلسق والتعسف والتعقيد والهلالة والركاكة والغثاثة والحوشية والجفوة . ومدار ذلك على الذوق الفني السليم ، والأذن الموسيقية المرهفة . . . . .

وأما التلاؤم من حيث موافقة الكلام لحركات النفس ومطابقته لصور الذهن ، فيكون بتقطيعه فقرًا وفواصل تقصر أو تطول تبعًا لحالات النفس والفكر . فلكل عاطفة درجة من البطء أو الإسراع ، ولكل صورة طبيعتها من الظهور أو الضمور ومن القوة أو الضعف . قد تكون أشعة الإلهام كوميضات البرق تتعاقب على الذهن

(١) دفاع عن البلاغة ص ١١٦ - ١٢١ بتصرف .

بسرعة ، وقد تكون عواطف النفس فائرة تجيش بالألم أو تضطرم باللذة ، وحينئذ تكون الفقر القصيرة أنسب الصور للتعبير عنها . . . وقد تكون المعاني رزينة بطبيعة موضوعها لتوخيها الافادة أو الاقناع أو الشرح ، فتقتضى الأسلوب المرسل أو المفصل . . .

وتقطيع المنثور من الكلام جملاً أو فقراً أو فواصل عمل بلاغى تقتضيه حالة النفس وحركة الذهن وطبيعة التنفس . . وهذا التقطيع له هندسة وموسيقى ملاكهما التلاؤم بين أجزاء الفقر وفواصلها . فان كانت الفواصل متعادلة فهو التوازن ، وان كانت متماثلة فهو السجع .

#### الموسيقى بين السجع والازدواج :

والتوازن - ويسمى الازدواج - موسقة فطرية فى نفوس العرب جعلوا بها النثر أشبه بالنظم فى جمال الوصف وحسن الاقناع . فهو صفة ملازمة من صفات الأسلوب لا تكاد تنفك عنه فى جميع أغراضه ومختلف صوره . وهو فى ذلك يخالف السجع ، فان للسجع موضوعات ومواضع لا يطلب الا لها ، ولا يحسن الا فيها ، ولذلك يقبل فى غرض ون غرض ، ويجمل فى صورة ون صورة . . . قال أبو هلال فى الصناعتين : " لا يحسن منثور الكلام ولا يحلوا حتى يكون مزدوجا . ولا تسكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج . . . " . وقال فى موضع آخر " واعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع ، فان جعلتها مسجوعة كان أحسن ، مالم يكن فى سجعك استكراه وتنافر وتعقيد " .

فالازدواج على اطلاقه ، والسجع على تقييده ، يؤلفان الموسيقى فى الأسلوب البليغ منذ كان للعرب ذوق وللعربية أدب . . . .

وأقطع الحجج على أن الازدواج والسجع من لوازم الأسلوب العربى ان القرآن وهو " كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " قد تجوز فى بعض الألفاظ والصيغ محافظة عليهما . قال شمس الدين بن الصائغ فى كتابه ( احكام السراى فى أحكام الآى ) : " وتتبع الأحكام التى وقعت فى آخر الآى مراعاة للمناسبة فعثرت منها على نيف وأربعين حكماً " نذكر منها على سبيل المثال :



- تقديم ما هو "مؤخر في الزمان" نحو: ولله الآخرة والأولى  
- تقديم الصفة الجملة على الصفة المفرد نحو: ونخرج له يوم القيامة كتابا  
يلقاه منشورا .

- تقديم الضمير على ما يفسره نحو: فأوحس في نفسه خيفة موسى  
- تذكير اسم الجنس مرة وتأنيثه مرة أخرى نحو: أعجاز نخل منقصر ،  
وأعجاز نخل خاوية  
- الافراد في موضع التثنية نحو: فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى  
- تغيير بنية الكلمة نحو: طور سينين ، بدلا من طور سيناء .  
- وضع اسم المفعول موضع اسم الفاعل نحو: حجبا مستورا ، بدلا من  
ساترا .

كذلك نجد في كلام أفصح العرب وسيد البلغاء مثل ذلك ، فقد كان صلى الله عليه  
وسلم يغير الكلمة لتلائم أختها في مثل قوله: " أعيذه من الهامة والسامة ، وكل  
عين لامة " أى لممة . أو في قوله: " أرجعن مأزورات غير مأجورات " وإنما أراد  
موزورات من الوزر .

فلو كان الازد واج نافلة ، والسجع فضلة ، لما كان لهما هذه المنزلة من  
كتاب الله وحديث رسوله <sup>(١)</sup> .

ونحن لا نجادل الأستاذ الزيات في أن السجع والازد واج أساسان من  
أسس النثر العربي المأثور . . ولا نجادل في أن فيهما جمالا حين يحسن  
استخدامهما . ولكن هذا لا يعنى أنهما مفروضان ضربة لازب على الأساليب  
المصرية . . ولا أتردد في الجهر بأن القرآن لم يستخدم السجع والازد واج في كافة  
أغراضه ، بل استخدمهما في المواضع الخطابية التأثيرية ، وفي هذه المواضع  
وأمثالها دون سائر الأغراض يحسن السجع والازد واج .

فإذا خطر لنا أن نتأثر أسلوب القرآن ، فلنعرف مواضع كل طريقة من طرق  
الأدباء فيه ، ولنفرق بين السمات المطردة فيه ، والسمات الخاصة بموضع دون موضع <sup>(٢)</sup> .

(١) دفاع عن البلاغة ص ١١٦ - ١٣٨ بتصرف

(٢) من مقال ( على هامش النقد ) لسيد قطب - الرسالة : العدد ٦٧٧ ص ٦٩٢

والآن . . هل آن لنا أن نتساءل : ما لنا في " دفاع عن البلاغة " — من تجديد ؟ فهذا هو ما يهمنى بالدرجة الأولى .

الواقع أننا أشرنا أثناء دراستنا لدفاع الزيات عن البلاغة الى الافكار الجديدة التى تضمنها هذا الدفاع ، ولكننا هنا نحب أن نضم شتاتها ، ونعيد النظر فى أمرها .

ذلك أن دفاع الزيات عن البلاغة لم يكن دفاعا مباشرا كدفاع الدكتور أحمد بدوى عند ما رد على من عابوا على البلاغة وقوفها عند حدود الجملة والجملة ، وعند ما تحدث عن رسالة البلاغة وأنها قد أدت رسالتها خصوصا فيما مضى .<sup>(١)</sup>

وكدفاع العقاد عند ما رد بحماسة وعنفة على من عابوا التقسيم الثلاثى لعلوم البلاغة ورأوا أنه وقف بها عن التطور والتوسع .<sup>(٢)</sup>

وكدفاع الدكتور عباس حسن عن السكاكى وكيف أنه خدم البلاغة خدمة جليلة بما وضع لها من قواعد وأصول جمعت شتاتها ولمت شملها وجعلتها علما قائما بذاته ومستقلا بنفسه .<sup>(٣)</sup>

وكدفاع الأستاذ أحمد موسى عند ما رأى أن ما قدمه السكاكى للبلاغة — من تنسيق وتبويب عمل عظيم يحمده له التاريخ .<sup>(٤)</sup>

وكدفاع الدكتور سهير القلماوى عند ما أعفت السكاكى من مسئولية جمود البحث البلاغى وتعقيده ، وألقت بالمسئولية على سنة الحياة والتطور .<sup>(٥)</sup>

كل ذلك كان دفاعا مباشرا ، لكن دفاع الزيات — كما يلوح لى — كان دفاعا غير مباشر .

- 
- |     |                         |
|-----|-------------------------|
| (١) | أنظر ص ٤٨٤ من هذا البحث |
| (٢) | أنظر ص ٤٨٦ " " "        |
| (٣) | أنظر ص ٤٨٧ " " "        |
| (٤) | أنظر ص ٤٨٧ " " "        |
| (٥) | أنظر ص ٤٨٨ " " "        |

لم يكن الزيات يريد على أحد بالذات ، وإنما كان يدافع عن البلاغة بصفة عامة ، ويدفع عنها تهمة القصور والجمود والفشل ، ويلحق هذه التهمة بأسباب ودواعي جدت في العصر الحديث . ثم ذهب يتحدث عن البلاغة التي يعرفها ~~ونحنها~~ ويدافع عنها ، ويوضح - كما في تصويره - حقيقتها وجوهرها . ولقد شغل الأستاذ الزيات بهذا الدفاع ، وانصرف إليه ، واستغرق فيه ، فلم يفكر في وضع خطة أو منهج جديد للبلاغة ، واكتفى بأن يكون مدافعا لا معلما ، وموجهها لا قائدا .

وحديث الزيات عن أسباب التنكر للبلاغة حديث جديد ، فالسرعة والصحافة والتطفل أمور جديدة لم يلتفت إليها أحد من قبل في مجال البحث عن أسباب تأخر البلاغة . والأسباب التي كنا نعرفها من قبل وكان لها أثرها في تأخر البلاغة هي طريقة المدرسة الكلامية من شيوع الفلسفة والمنطق في كتب البلاغة وطريقة تدريسها .

والأسباب الجديدة التي ذكرها الزيات جديدة بالنظر والتأمل ، لأنها أمور متوغلة في حياتنا ، ونعيشها رغما عنا ، وأثرها فينا بعيد الفور كبير الخطر .

إن القضاء على الأسباب القديمة من شيوع الفلسفة والمنطق في تعليم البلاغة وكتبتها أمر سهل جدا بالنسبة إلى الأسباب الجديدة التي نجد القضاء عليها من الصعوبة بمكان . فمن ذا الذي يستطيع أن يتخلص من السرعة وقد ضربت أطناها في هذا العصر ؟ أو يتجاهل أثر الصحافة أو يقضي عليها أو يعدل في نظامها وتحريرها ؟ بل من ذا الذي يستطيع أن يتخلص من التطفل والطفيليين وقد كثر عددهم وانتشروا كالذباب في كل مكان ؟

لقد كان الزيات على صواب حين سماها : البلياء الثلاث - وإذا كنا نريد أن ننهض بالبلاغة ونجدها فلا بد أن نجعل في اعتبارنا ونضع نصب أعيننا هذه الأسباب ، ونتمسك لها العلاج قدر الامكان ، إذ لابد للبلاغة الجديدة - فسي رأيي - أن تكون محصنة ضدها . فدرهم وقاية خير من قنطار علاج .

كان هذا أول الجديد فى دفاع الزيات عن البلاغة .

أما الثانى : فقد كان حديث الزيات عن البلاغة التى يعنيهها ويدافع عنها وهى البلاغة الفنية . ولكن الزيات ربط بين علم البلاغة وفنها ، وتحدث مدافعا عن كليهما معا ، وخلصنا من دراستنا هناك الى نتيجة حتمية وحقيقة واقعة ، وهى أن البلاغة الفنية والبلاغة العلمية أصبح كل منهما لا يستغنى عن الآخر ولا ينفك عنه ، وأصبح الحديث عن أحدهما يفرض الحديث عن الآخر ، ومن الخطأ الفصل بينهما فى درس البلاغة الجديد .

أما ثالث الجديد . فهو ما وجدناه فى حديث الزيات عن الذوق ، وأنه لم تؤت البلاغة الا من فساد الذوق فيمن يكتب وفيمن يقرأ ، ولقد لسن الزيات وترا حساسا فى دفاعه عن البلاغة حين قال : ان مستقبل البلاغة منوط بتغلب الذوق الطبيعى المأثور على الذوق المزيف المستحدث . وذهب الزيات فى نظريته للذوق الى أبعد من ذلك حين رأى أن سلامة القومية العربية موقوفة على سلامة الذوق وتغلبه . وأضفت هناك : أن سلامة العقيدة موقوفة كذلك على سلامة الذوق وتغلبه . فأمر الذوق اذن جد خطير ، والعناية به وتربيته وتثقيفه ليس واجبا بلاغيا فحسب ، ولكنه واجب قومى ودينى كذلك .

وكان الحديث عن الأسلوب وصفاته من الأصالة والوجازة والتلاؤم رابع ما وجدنا من الجديد فى دفاع الزيات عن البلاغة . والأسلوب فى حد ذاته أمر جديد ، ودراسة أدبية مستحدثة ، وان كان له جذور فى القديم كما أوضحنا ذلك فى مكانه . ولكن الصفات الثلاثة للأسلوب التى ذكرها الزيات وتحدث عنها صفات جديدة فى تكوين الأسلوب البلاغى ، وان كان بعض القدماء مثل المسكوكى والرمانى وابن سنان - تحدث عن التلاؤم لكنه حديث عابر ليس فى سعة حديث الزيات وافاضته . وهذه الصفات الثلاث من الأصالة والوجازة والتلاؤم ربطنا بينها وبين صفات الأسلوب الثلاثة - التى ذكرناها سابقا - من الوضوح والقوة والجمال - التى اقترحنا أن تكون أساسا لدرس البلاغة الجديد ، وأوضحنا كيف يكون ذلك فى مكانه من البحث .

ولعل الحديث عن الأسلوب - من وجهة نظر البعض - لا يعد جديدا ،  
وذلك لشيوع الحديث عنه في الأونة الأخيرة . ولكننا نقول : ان الحديث عن  
الأسلوب سيظل جديدا متجددا حتى تضمه البلاغة الى خطتها ومنهجها  
الجديد .

وبعد : فان حديث الزيات عن البلاغة كان دافعا غير مباشر - كما  
أوضحنا من قبل - ، وكان دافعا عن بلاغة جديدة لا تفصل بين العقل والذوق ،  
ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين المضمون والشكل . بلاغة مزجت بين المعلم  
والفن ، فصار كل منهما يستمد وجوده من الآخر . وعلى المتطفلين في ميدان البلاغة  
ومجالاتها أن يعرفوا ذلك ، وأن يأخذوا أنفسهم بألة البلاغة ووسائلها ان كانوا  
يريدون أن يكونوا بلغاء .

وعلى أساس أن الزيات كان يدافع عن بلاغة جديدة أو يدعو اليها ، فاننا  
نعتبر الزيات من الدعاة الى تجديد البلاغة . واذا كان لم يضع منهاجا أو خطة  
جديدة للبلاغة ، فان في دفاعه عنها ملامح خطة أو منهج ، وأسلوب الزيات في  
كتابته صورة حية مما يدعو اليه ، ويدافع عنه .

## الفصل الثانى

### هجوم على البلاغة

لم تكن الدعوات الى تجديد البلاغة كلها صادقة النية ، حسنة الطوية ، فقد كانت هناك دعوات مفرضة تهدف الى هدم اللغة ، والقفز على البلاغة باسم التجديد والتطور .

" قالوا ان بلاغتنا العربية هي بلاغة الاعاجم وليست بلاغة العرب . يقصدون بهذا القول ان اعلام البلاغة العربية ليسوا من أصل عربي . وهى التهمة نفسها التى وجهها "رينان" الى الفلسفة العربية والحضارة العربية .

وقالوا ان بعض مباحث البلاغة العربية له نفاثر فى بعض المباحث النقدية او البلاغية عند الاجانب . أى ان هذه الامة العربية ليست بذات أضلّة فى ميدان البحث البلاغى . وبعض اصحاب هذه الدعوى يناقضون انفسهم اذ تراهم يدعون الى اغتنام كل فرصة للإفادة أيا كان مصدرها ، فى الوقت الذى يرون فيه ان افادة علماء البلاغة العربية من الثقافة الاجنبية يجعلها غريبة على الادب العربى والعقلية العربية ومن ثم لا تصلح مقياسا له مع هيأهم ولوعهم فى ايماننا بتطبيق نظريات غريبة لا تمت الى ادبنا وعقليتنا بسبب من الاسباب . . . . . والمجدد عند هؤلاء من يتصيد خياله من خيال الغرب ، ومن يبعد عن أساليب لغته وأحاسيس قومه .

وقالوا : ان البلاغة العربية بمقاييسها التى انتهت الى ما رسم أبو يعقوب السكاكى فى مفتاح العلوم قد تحجرت ولم تعد صالحة لرهاف الطلحات التعبيرية الفنية " ( ١ )

ولا يخفى ما فى هذه التقولات من ادعاء وبهتان وسوء طوية . ومن السهل على أى دارس ان يرد هذه الدعاوى .

فقولهم ان بلاغتنا هي بلاغة الاعاجم ليس غريبا علينا ، بل اننا نسمى بلاغة السكاكى ومد رسته بلاغة الاعاجم وذلك لان أصحاب هذه المدرسة هم فعلا من غير

---

( ١ ) أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية ص ١١٠ بتصرف د . طبانة

العرب كما ان كتبهم جنحت عن طابع العربية فى الوضوح والافهام وتعمقت كثيرا فى مسائل الفلسفة والمنطق وعلم الكلام . وليس هذا بعيب يؤخذ علينا ولا على بلاغتنا ، بل انه لفخر ان يخصص هؤلاء العلماء وقتهم وجهدهم فى بحوث البلاغة والادب والنقد العربى بعد ان بهرهم الاسلام بروحه وثقافته فشاركوا العلماء العرب فى كثير من العلوم او الفنون .

ان معظم من الفوا فى النحو أعاجم ، ولم يقل أحد ان ذلك يعد انتقاصا للنحو العربى والنحاة ، فلماذا البلاغة بالذات ؟!

أما قولهم ان بعض مباحث البلاغة العربية له نذائر فى بعض المباحث النقدية أو البلاغية عند الاجانب فقد رد عليه د . طبانة بما كتبناه آنفا ، ونزيد عليه بأنه من الطبيعى أن تتشابه مباحث البلاغة فى كل اللغات تقريبا لانها تعبير عن مشاعر الانسان وأحاسيسه . هذا الى أن الغرب سبق واقتبس كثيرا من اصول علومنا وآدابنا وبنوا عليه علومهم وحضارتهم فلم نعب عليهم ذلك وتلك سنة الحياة وطبيعة النمو والتطور .

أما قولهم ان البلاغة العربية بمقاييسها التى انتهت الى ما رسم السكاكى قد تسد تحجرت ولم تعد صالحة ، فنحن نعجب ونتساءل : هل السكاكى هو المؤلف الوحيد فى البلاغة العربية ؟ وهل لم يسمع هؤلاء عن الابام عبد القاهر ومقاييسه البلاغية . أو عن الجاحظ أو أبى هلال العسكري وغيرهم .

والواقع أن اللوم فى ذلك علينا أكثر مما هو على الناقدين المفرضين ، فقد صبرنا كثيرا جدا على بلاغة السكاكى على الرغم من تواتر الشكوى منها ومن آثارها .

ان آثار مدرسة السكاكى فى علوم البلاغة لم تقتصر علينا فقط بأن باعدت بيننا وبين بلاغتنا ووضعت بيننا وبينها السدود والحدود فعزلتها عن الحياة ، بل انها كذلك أعطت الفرصة لبعض النقاد الاجانب وأشباههم من مثقفينا أن يطعنونا فى بلاغتنا ويتهمونها بالجمود والتأخر والجمود .



### البلاغة المعاصرة وسلامة موسى :

ما سبق وذكرناه من هجوم على البلاغة ونقد لها أمر هين وليس بالغريب .  
ولكن الغريب حقا هو تلك البلاغة المعاصرة التي دعا اليها سلامة موسى ، وساق  
لها من الحجج والمبررات ما كاد يخدع الناشئة من أجيالنا والسادحين من القراء  
وأنصاف المثقفين .

وسلامة موسى ركب موجة الحملة على اللغة العربية وبلاغتها ، وتزعمها مدعي  
الاصلاح والتجديد . وفيما أتى به سلامة من آراء وأفكار جديدة نجد عجباً  
فسى كلامه عن لغتنا أو عن بلاغتنا . ولكننا في هذا الفصل من البحث نقصر كلامنا  
على آرائه في البلاغة ، ونرد عليه هجومه ، ونبين ما فيه من باطل واضطراب .

وبينما الدعوات الصادقة المخلصة الى تجديد البلاغة تتوالى من العلماء  
والأدباء ، وكلهم حرص وحدب على لغتنا وبلاغتنا وتراثنا ، اذا بسلامة موسى يطلع  
علينا بآراء جديدة غاية في الغرابة والشذوذ . انه يدعونا الى بلاغة جديدة  
قوامها العقل والمنطق ، لا مخاطبة الشعور ، واثارة الانفعال والاحساس بالجمال .  
فالبلاغة القديمة في نظره بلاغة تزاويق وسهارج ، وهي ترف ذهني لا ضرورة له .

" ولذلك يجب أن يكون المنطق أساس البلاغة الجديدة ، وأن تكون مخاطبة  
العقل غاية المنشئ " بدلا من مخاطبة العواطف . والبلاغة بفنونها المختلفة كما  
هي الآن في لغتنا العربية تخاطب العواطف دون العقل وهذا ضرر عظيم .  
فاننا حين ننصح لأحد الشبان بأن يسلك السلوك الحسن في الدنيا ، ويتخذ  
أسلوبا ناجحا في الحياة ، نشير عليه بأن يجعل العقل والمنطق دون العاطفة  
والانفعال هدفه ووسيلته في كل ما يعمل . ولكن البلاغة العربية في حالها  
الحاضرة هي بلاغة الانفعال والعاطفة فقط . واذا جعلنا المنطق أساس البلاغة  
فاننا عندئذ نجعل قواعد المنطق ونظريات اقليدس مما يدرس للتفكير الحسن وهو  
الغاية الأولى للبلاغة ، ونبين قيمة الأرقام في التفكير الحسن . ثم تأتى بعد ذلك  
الفنون ، وهي عاطفية انفعالية للترفيه الذهني . ولكن يجب أن نذكر أن التفكير  
الدقيق بالمنطق أخطر وأثمن من الترفيه الذهني بالفنون . واذا جعلنا المنطق  
أساس البلاغة فاننا سنبحث الكلمات من حيث معانيها ، ونبين كيف أن الناس كثيرًا

ما يخلطون بين الشئ<sup>١</sup> واسمه ، وأن هذا الخلط يشقيهم لأنه يبعدهم عن التفكير  
الناجح ، ويؤخر نجاحهم ، ويعطل المجتمع عن الرقى<sup>٢</sup> . ( ١ )

ماذا أقول فى هذا الخلط العجيب ! ! بلاغة تخاطب العقل دون العاطفة  
وتعتمد على قواعد المنطق ونظريات اقليدس ، وتتعامل بالأرقام فى التفكير الحسن .

ما هذا الهراء . . لقد ضجت البلاغة بالشكوى من بعض أساليب المنطق  
التي دأخلتها ، ونادى الجميع - محافظون ومجددون - بتخليصها من هذه الشوائب  
المنطقية ، أفيكون علاجها فى رأى الاستاذ الهمام أن نفرقها فى المنطق ، ونضمها  
الى لغة الأرقام والحسابات ، وأن تصبح أحد العلوم الرياضية كالجبر والهندسة .

أولا يعلم هذا الكاتب التحرير أن الأسلوب نوعان : أدبى وعلمى ، وأن  
فى الأسلوب العلمى من دقة له ومجالا لأن يخاطب العقل كما يريد ويقنعه بالحجج  
والبراهين والمنطق ، دون اللجوء الى التأثير العاطفى ؟ أو يريد أن يجعل  
البلاغة كلها أسلوبا علميا بحتا ! !

ثم اننا حين ننصح المشهور بالتمقل ، ونشير عليه بأن يجعل العقل والمنطق  
دون العاطفة والانفعال هدفه ووسيلته فى كل ما يعمل ، حين ننصح الشاب  
المشهور الطائش بذلك ، لا نلقى عليه خطبة رنانة ، ولا نسمعه نصا أدبيا ، ولا قصيدة  
شعرية ، فبلاغتنا تقول : لكل مقام مقال ، ولذلك فمقتضى المقام أن نحدث هذا  
المشهور الطائش حديثا رزينا هادئا يعتمد على العقل والمنطق والاقناع بأى نحدثه  
بالأسلوب العلمى ، وقد يقتضى المقام أن نمزج حديث العقل بشئ<sup>٣</sup> من العاطفة ،  
فيتعاون الاقناع والتأثير على تحقيق الغرض المراد من نصح الشاب وتهذيبه  
واعادته الى الصراط المستقيم والسلوك المتزن ، وهو ما يسمى بالأسلوب العلمى  
المتأدب . وهما - أى الأسلوب العلمى ، والأسلوب العلمى المتأدب - خلاف  
الأسلوب الأدبى الذى يعتبره سادته الغربيون أرقى أنواع الأساليب ، وبه ترهف  
المشاعر وتسمو ، وترق الأحاسيس وترقى ، وتتناجى القلوب ، وتتعانق الأرواح ، ويصبح  
الانسان انسانا ملائكيا ، يحب الخير ويهفو اليه ، ويكره الشر وينبو عنه .

والتفكير الحسن ليس هو الغاية الأولى للبلاغة كما يزعم سلامة موسى ، فكل انسان بالغ عاقل يستطيع أن يفكر تفكيراً حسناً ، كما يستطيع أن يفكر تفكيراً سيئاً ، وهو في كلتا الحالتين يعلم أن هذا التفكير حسن ، وذاك سيئ ، فكل الناس تعرفوا الخير والشر ، والحسن والسيئ ، والمعقول واللامعقول ، ولا يحتاج ذلك السيئ موهبة أو عبقرية .

أما غاية البلاغة - ان كان يريد أن يعرفها - فهي أولاً : تكوين ملكة الادراك الاعجاز ، وثانياً : ادراك الجيد والردى من الكلمات ، وثالثاً : تأدية المعنى واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة لها في النفس أثر خلاب مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه والأشخاص الذين يخاطبون به ، أو هي باختصار : الكلام الفني الممتع . وجميع تعريفان البلاغة قديما وحديثا تدور حول ذلك . أما أن غاية البلاغة هي التفكير الحسن فذلك ما لم يقل به أحد من قبل ولا من بعد .

وإذا كان لنا أن نصح للاستاذ معلوماته فاننا نقول له : ان التفكير الحسن هو الغاية من دراسة علم المنطق أو الفلسفة . كما أن بلاغة المنطق والأرقام موجودة في لغتنا ، ولكن اسمها - كما يعرفه الجميع - الأسلوب العلمي .

ثم هل نسي هذا العالم الأريب أن سادته من علماء الغرب المحدثين قد جعلوا البلاغة فنا من الفنون الجميلة الخمسة وهي : النحت والتصوير والعمارة والموسيقى والأدب ، ولم يقل أحد منهم بهذه البلاغة المنطقية التي يدعو اليها ، والتي تعتمد على العقل والاحصائيات والأرقام .

ان دعوته هذه فكرة طاسفة " تهدم أساس الشعر والنثر والفنون الجميلة عامة ، لأن الفنون وليدة العواطف ، واستجابة لنوازع نفسية لا صلة للمنطق بها ، ولو أننا أخضعنا كثيراً من النصوص الأدبية التي تروقنا للمنطق لوجدناها هباءً . فكلنا يعجب بقول المنخل الإشكري :

وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بحيري

ونطرب لقول جميل :

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

وأى منطق فى هذا ؟ لو اتخذنا المنطق وحده دعامة للأدب لا نقلب الى حقائق جافة لا خيال فيها ولا جمال ولا سحر ، ولكان أخرى به أن يسمى علما لا أدبا ، لأن خصيصة الأدب فى لغات العالم كلها أن معانيه خيالية ، وليس معنى ذلك أنها بمعزل عن منطق الحياة<sup>(١)</sup> .

لكن الكاتب التحرير كما رأينا ( يوجب أن يكون المنطق أساس بلاغته الجديدة ، ويسمى البلاغة القديمة " بلاغة الانفعال والم عاطفة " ، ويعود فينقض بنفسه كلامه السابق حين يرى أنه يمكن أن تستخدم بلاغة الانفعال والم عاطفة ، أى البلاغة القديمة كما سماها ، فى التوجيه الاجتماعى للأمة ، ولكن مع الحذر من أن يعود هذا التوجيه دعاية سيئة لأحد المذاهب الضارة<sup>(٢)</sup> . ثم يعود مرة أخرى فيقرر أننا ننسى " الى اللغة العربية والى شبابنا أيضا ، إذ أننا نعلمهم مبادئ " البلاغة العاطفية بالمجاز والاستعارة والتشبيه . لكن يصلوا منها الى التعبير الفنى أو الى الرفاهية الذهنية بدلا من مبادئ " البلاغة العقلية بقواعد المنطق حتى يصلوا الى دقة التعبير وتوقى الالتباس . والنتيجة من هذه البلاغة العاطفية هى الضرر لأنها تحدث لهم اتجاهها نحو التزويق والبهاج ، فاذا طلب اليهم التفكير عجزوا<sup>(٣)</sup> .

والذى نريد أن نصل اليه الآن هو الاجابة على السؤال التالى : هل يعترف الكاتب أن هناك فنا اسمه " الأدب " وفنيا اسمه " الأديب " ؟<sup>(٤)</sup>

فان اعترف فقد هدم كلما قاله عن بلاغة المنطق والعقل ، وان أنكر فقد أنكر شيئا مشهودا معلوما بالضرورة لكل مثقف وغير مثقف . وأنكر كذلك نفسه لأنه يعتبر نفسه صحفيا أديبا ويستعمل أسلوب الأديب ويستخد م بلاغة الانفعال والم عاطفة فى كتاباته ومقالاته . بل ان كتابه هذا " البلاغة المصرية " الذى يدعوفيه السى العامة والى بلاغة العقل والمنطق ونهذ بلاغة العاطفة والأساليب المجازية نجده - وبيا للمعجب - مكتوبا بالفصحى ، وطيئا بالأساليب المجازية<sup>(١)</sup> . فأين دعوته السى العامة ؟ ولماذا لم يكتب بها ؟<sup>(٢)</sup> وأين دعوته الى البلاغة المنطقية ؟ ولماذا لم

(١) مجلة الرسالة - العدد ٦٢٤ ص ٦٤٦ مقال د . الحوفى - البلاغة المصرية

(٢) البلاغة المصرية ص ٥٤

(٣) المرجع السابق ص ٥٥ و ٥٦

(٤) البيان العربى - ص ٢٩٦ - د . بدوى طبانة

يستعملها في كتابته كمونج تطبيقي لها خاصة وهو يدعونا اليها !! أليس هو أولى بتطبيقها كمونج يحتذى في بادىء الأمر !! وانى لأكاد أوقن أنه لو حاول ذلك لفشل ، ولجاءت كتابته جافة عجفاً شوهاً . ولكنه وهو يدعونا الى بلاغة المنطق والعقل يستعمل بلاغتاً التي لا تعجبه ، بلاغة العاطفة والمجاز . وعلى سبيل المثال :

يقول : " فلو أن جيته ولد في قبيلة أفريقية لما استطاع أن ينتج الثمرات الزكية التي نقطعها من مؤلفاته لأن اللغة القبلية لم تكن عندئذ لتسعه بالكلمات التي تؤدى معانيه بل كانت تبقى هذه المعاني أجنة تؤلمه بالمخاض ولا تخرج المخرج من ذهنه أو تخرج جهيضة (١) .

ويقول هينما تحدث عن اللغة والجنس فرأى أن الكلمات " أصوات نشأت بين البرمائيات كالضفدع لكى ينادى الذكر الأنثى ، وكانت غليتها الأولى لهذا السبب جنسية . بل ما زلنا نرى أغاريد الطيور التي تنضح بها الجوفى الربيع انما قصد بها فى الأغلب نداء الجنس الآخر للتناسل . والصوت يميز عن العاطفة ولذلك يجب ألا نستغرب قول فرويد : ان الباعث الأول للنشاط البشرى هو الشهوة الجنسية ، ويجب ألا يصد منا هذا القول ، لأن فرويد قد بصر من خلال هذا القول الى الجذور الأولى التي تختفى فى جوف التطور (٢) .

وهكذا نجد سلامة موسى يدعونا الى نبذ الأساليب المجازية ، ويستعملها هو !! ومثله فى ذلك مثل عدو المرأة الذى يعشق المرأة ولا يستغنى عنها .

#### رأى سلامة موسى فى الأساليب البيانية :

ويرد ان الاستان تناقضا فى منهجه ، ففي الوقت الذى يدعونا فيه الى نبذ الأساليب البيانية يدعونا الى استخدامها . فهو يدعونا الى استخدام كلمات العلوم الموجودة فى بيئتنا الاجتماعية باعتبارها الكلمات المجازية التي تتفق والمجتمع العلمى الذى ننشده .

( ١ ) البلاغة المصرية ص ١٩

( ٢ ) المرجع السابق ص ٢٧

" وفيما يلي بعض التعابير التي اشتقتها أنا - أى سلامة موسى - من اللغة العلمية على سبيل المثال :

- التفاعل بين اللغة والمجتمع - كيمياء
- الاستقلال هو بؤرة الاشتعال الوطنى فى مصر - طبيعيات
- نعيش فى عصر متوتر بالمصاعب والمشكلات - سيكولوجية
- اللغة هى الجهاز العصبى للمجتمع - طب
- الحياة تفقد ايقاعها فى المرض - موسيقا
- أول ما تجرثمت الفكرة عندى - سيكولوجية
- يجب أن ننظر الى المستقبل ببصيرة تلسكوبية - فلكيات
- يعانى تخمة ذهنية - طب
- الايحاء أفضل من الاغراء - سيكولوجية
- يمشى فى تشاقل روماتزمى - طب
- يخشى الدنيا ويرى المصباح الأحمر أينما سار - ميكانيات
- الحرب هى قاطرة التاريخ لأنها تعجل التطور - ميكانيات (١)

أجل ، لقد دعانا الأستاذ الى استخدام هذه التعابير المجازية ، وقال :  
انها تتفق والمجتمع العلمى الذى ينشده ! !

هذا بينما منذ قليل عاب علينا أننا " ما زلنا نلتزم عبارات مقتبسة يما فيها  
الذهن الذكى . ومرجع هذه العبارات تلك البلاغة العاطفية الانفعالية الستى  
تعلمناها وغرست فى نفوسنا قيمة مزيفة للاستعارة والمجاز . فما زالت صحفنا مثلاً  
تقول :

- |                      |          |              |
|----------------------|----------|--------------|
| - عرض على بساط البحث | بد لا من | عرض للبحث    |
| - وخاض غمار القتال   | “ “      | قاتل         |
| - حمى وطيس القتال    | “ “      | حمى القتال   |
| - دارت رهى المعركة   | “ “      | دارت المعركة |

- وضعت الحرب أوزارها
- لتميز أواخر الثقة
- صب جام غضبه
- أطلق سراحه
- نتجانب أطراف الحديث
- بدلاً من انتهت الحرب
- ، ، ، لتميز الثقة
- ، ، ، صب غضبه
- ، ، ، أطلقه
- ، ، ، نتحدث

وقل منا من يقول : الحرب الضروس أو الموت الزؤام . ولكن العبارات السابقة الستى ذكرت لا تزال ترى كل يوم فى جرائدنا ، على الرغم مما فيها من استعارات ومجازات يمكن أن نستغنى عنها . بل على الرغم من أنها كلمات تحتاج الى مجهود كبير لتفسيرها لصبياننا مثل : وطيس - أوزار - أواخر - جام - رعى . وفى استثنائنا عن هذه العبارات اقتصاد ذهنى ومادى . ويجب ألا يفهم القارىء أننا نعارض الاستعارة كائنة ما كانت ، ولكننا نعارضها حين يمكن الاستغناء عنها ... (١)

وإذا كان الأمر كما يقول الأستاذ فإنه قد وقع فيما يحذر منه ويعارض فيه ، فان معظم الاستعارات التى اشتقها - آنفاً - من التعبيرات العلمية يمكن الاستغناء عنها . وعلى سبيل المثال يقول :

- الحرب هى قاطرة التاريخ لأنها تعجل التطور

يمكن أن تصبح العبارة - على رأيه - : الحرب تعجل التطور - ولا داعى للتشبيه .

- يخشى الدنيا ويرى المصباح الأحمر أينما سار : يخشى الدنيا دائماً .
- يمشى فى ثناقل روماتزى : يمشى متعباً
- يجب أن ننظر الى المستقبل ببصيرة تلسكوبية : فلننظر الى المستقبل . وهكذا .

والواقع أن سلامة موسى لا ينظر الى البلاغة ببصيرة تلسكوبية وهو يخلط فى كلامه ويناقض نفسه بين كل صفحة وأخرى .

وإذا كنت تريد أن تعرف بلاغة سلامة موسى على حقيقتها فتعال أعرض عليك نوعا من البلاغة المقدسة التي تعجبه والتي وردت ضمن بعض الأدعية التي وضعها ليتضرع بها أبناء طائفته الى الله . يقول :

" يا رب أنت الواهب وواحد المربيات ، جربنا بقدرتك الالهية الى ملكوت السما . . . يا رب أنت الحنفية واحنا الجردل ، املأنا من نعمتك <sup>(١)</sup>

ليت شعري كيف يجوز لمن يقول ذلك أن يتحدث في البلاغة وأساليبها . بل كيف يجوز له أن يكون أدبيا من لا يحسن فهم الشعر ويخطئ ويغلط فـي تفسيره ، يقول : " ولأبى تمام شطرة من بيت كثيرا ما تذكر هي : ( السيف أصدق انبا من الكتب . ) . والواقع أن أبا تمام لم يقل كلمة هي أبعد عن الصحة والحقيقة من هذه الشطرة <sup>(٢)</sup> ويقول في مكان آخر : " كان أبو تمام شاعرا عربيا ، وكان ملتون شاعرا انجليزيا وقد قال الأول كلمته الكاذبة البشعة " السيف أصدق أنبا من الكتب " <sup>(٣)</sup> . ونتساءل في عجب : لماذا ؟ ! فنسمع خلطا وهذيانا ثم جهلا . أما الخلط والهذيان فقلوه : " لأن السيف لا تتحرك الا للكلام الذي سبقها . والكلام هو القوة الروحية المتسلطة ، والسيف هو القوة المادية الخاضعة . أليس من الواضح أن السيف انما جردت في حروب العرب والرومان لأن كلا منهما كان يفكر بكلمات تحمل قوات ذهنية وروحية ونفسية تختلف عما كانت تحمله الكلمات الأخرى عند الفريق الآخر ؟ ثم انظر الى نابليون . لقد ضاع كل ما فتحه بالسيف في أوربا وأفريقيا قبل أن يموت . أما الكلام الذي رتبته في " قانون نابليون " فلا يزال حيا الى الآن . ولو أن نابليون عني بالكلمات ولم يحتقرها ، لكان الى جنب سيوفه ومدافعه دعاية لمذهبه الجديد في الحكم من حيث اتحاد أوربا والغاء النظام الاقطاعي . ولكنه أهمل هذه الدعاية ، ولذلك استطاع أصحاب الكلمات القديمة بزعامه " مترنيخ " أن يفوزوا عليه ، وأن يطفئوا نور العصر الجديد الى حين . . . . . <sup>(٤)</sup>

( ١ ) شيخ الأدب الحديث ص ١١٥ - حبيب الزحلاوي

( ٢ ) البلاغة العصرية ص ٩١

( ٣ ) المرجع السابق ص ٩٣

( ٤ ) المرجع السابق ص ٩١ و ٩٢



وهكذا بعد بنا سلامة موسى عن شطر أبى تمام ، وخلط بينه وبين نابليون ومرتنيخ وأوروبا ونظام الاقطاع والدعاية !! وتتساءل : أهذه بلاغة المنطق والعقل والأرقام ؟ ! أم أن هذا هو التجديد فى شرح النصوص !! هذا هو الخلط والهذيان . أما الجهل فهو قوله بعد ذلك : " وهل نسى أبو تمام أن المسيحية تركت كتابا ، وأن الاسلام ترك كتابا ، وكذلك فعلت سائر الأديان ، وأن هذه الكتب أصدق أنباء من السيف ؟ " (١)

وعجبنى . . . ان أى طالب فى الصف الثانى الثانوى لو سأله : ما المراد بالكتب فى شطر أبى تمام ؟ لقال على الفور : المراد بالكتب هنا كتب المنجمين . أجل .. كتب المنجمين فقط لا غير ، الذين يرحمون بالفييب ويدعون معرفة المستقبل وكان يجب أن يرجع الى كتب الأدب ليُعرف حقيقة الموضوع قبل أن يقول ويقرر : أن المسيحية تركت كتابا ، وأن الاسلام ترك كتابا ، وكذلك سائر الأديان ، وأن هذه الكتب أصدق أنباء من السيف . فأبو تمام لم ينس ولم يخطئ ، ولكن المخطئ هو سلامة موسى .

#### فن البلاغة والحياة العصرية :

وسلامه موسى يلبس الحق بالباطل ، ويسوق باطله على وجه معقول ومنطوق منسق ، فيقدم المقدمات ، ويستخلص النتائج ، ويريدنا أن نقتنع بما يقول . ولكن أنى للحق أن يخفى مهما حاول الباطل . أنظره يقول :

" انه ليس للحياة غاية سوى الحياة . وكل ما عدا الحياة إنما هو وسائل للحياة . فاللغة والأدب والفن والبلاغة إنما هي جميعها فى خدمة الحياة التى لها الاحترام الأول والمكانة المفضلة . فنحن نتعلم الفنون ، ونمارس البلاغة ، ونعنى بالثقافة ، كي نصل فى النهاية الى مستوى عال من الحياة . ولذلك لا نحتاج الى أن نشرح للقارىء أن بلاغة الحياة أهم وأخطر من بلاغة اللغة ، وأن أسلوب الحياة أجدر بالأولوية والتفضيل فى التعليم من أسلوب الكتابة ، وأن فن الحياة هو أشرف وأجدى الفنون على هذا الكوكب .

وانا جعلنا الحياة الشريفة السعيدة هدفا ، نوجه اليه فنوننا وعلومنا وعقائدنا ، فاننا نستطيع أن ننزع عن هذه جميعها تلك القداسة التي تحول بينها وبين تنقيحها أو تغييرها . ويمود عندئذ " فن البلاغة " فنا تجريبيا مثل جميع الفنون . ويتغير كما تغيرت . فليس شك في أن التغير أو التنقيح قد عم فنوننا كثيرة في عصرنا مثل الرسم أو النحت أو البناء<sup>(١)</sup> . ولكن فن البلاغة في اللغة العربية لم يتغير .

فحياتنا المصرية تختلف عن الحياة العربية قبل ألف سنة . فاذا كنا نسلم بأن فن البلاغة يجب أن يكون في خدمة هذه الحياة المصرية فانه يجب أن يتغير كي يخدمها . فلم يعد مجتمعا في حاجة الى البهارج والزخارف البديعية نحطم رؤس أبنائنا بتعلمها وممارستها . ولكنا في حاجة الى أن نجعل البلاغة فنا للتفكير الحسن السديد<sup>(٢)</sup> .

ماذا يريد هذا الرجل ؟ وما له يخلط بين فنوننا وعلومنا وبين عقائدنا ثم يريد أن ننزع عنها جميعها تلك القداسة التي تحول بينها وبين تنقيحها أو تغييرها . أما يكفيه أنه طعن في لغتنا وبلاغتنا حتى يريد - بحذر - أن يطعن في عقيدتنا !! ان الدعوة الى جعل اللغة والأدب والفن والبلاغة جميعها في خدمة الحياة أمر نقره وندعوله ونسعى اليه ، ولكن ليس بطريقة سلامة موسى ، طريقة السم في العسل ، ان بلاغتنا في حاجة الى التجديد ، نعم ، وليس ذلك بضائرا ، فالدعوة الى التجديد تعالت بها أصوات كثير من العلماء الشرفاء المخلصين ، وكانت آراؤهم واقتراحاتهم موضع تقديرنا واحترامنا . أما أن تتخذ الدعوة الى التجديد طابع الهدم والتنديد بلغتنا وعقيدتنا فهذا ما لا نسمح به على الإطلاق .

ماذا يريد هذا الرجل من البلاغة الجديدة :

- ويمود سلامة موسى بعد هذه المقدمات التي حاول فيها أن يلبس الحق بالباطل فيقول : **ويجب أن نشرح غايتنا من البلاغة الجديدة :**
- ١ - فهي قبل كل شيء " التفكير المنطقي السديد الذي يؤمن فيه الخطأ .
  - ٢ - تحريك الذكاء وتدريبه بالكلمات .

(١) نلاحظ هنا أن سلامة موسى لم يفرق في كلامه عن البلاغة بين العلم والفن وكأنه يقصد هما معا . وقد أشرنا الى ذلك من قبل في دفاع الزيات .

(٢) البلاغة المصرية ص ١٠٧ و ١٠٨

٣ - أن نعرف كيف نستعمل الكلمات للتفكير التوجيهي .

٤ - أن نعرف كيف نستعمل الكلمات لتحريك الاجتماعي .

فأما القاعدة الأولى وهي أن التفكير يجب أن يكون منطقياً ، فتقضى بدراصة كتاب موجز في المنطق . وإذا كان اللورد هوردر الطبيب الانجليزي ينصح لكليات الطب في بريطانيا بتدريس كتاب جيفونز في المنطق في السنة الأولى من الدراصة الطبية ، فاننا أحوج الى مثل هذه النصيحة في درااسة اللغة العربية في كلية الآداب أو في دار العلوم .

ويجب أن تكون الكلمات موضوعاً لتدريب الذكاء اللغوي في التلميذ والطالب . ولن يستطيع مدرس اللغة أن يصل الى ذلك الا اذا كان موسوعي المعارف قد درس احدى اللغات الأوروبية وأتقن علماً عصرياً .

والى هنا الفائدة سلبية ، وهي أننا لا نقع في الخطأ والالتباس . ولكن يجب أن نتعلم اللغة للفائدة الايجابية ، وهي الانتفاع بها في ايجاد الكلمات ( الموطرية ) التي تحرك الفرد والمجتمع . أي نعرف القيم ( السيكولوجية ) للكلمات وما فيها من شحنات عاطفية أو تنبيهات ذهنية . فاللغة علم وفن . هي علم من حيث أننا يجب أن نعرف كيف ننتقد المعاني وكيف نسبر المعاني في الكلمة . وهي فن من حيث قدرتنا على استعمال الكلمات كي تبعث التحريك الاجتماعي أو التنبيه الذهني أو العاطفي في الفرد أو الجماعة<sup>(١)</sup> .

وإذا نظرنا الى ما ذكره المؤلف عن غايته من البلاغة الجديدة وجدنا عيباً وخطأ واضطراباً . فهي عنده قبل كل شيء التفكير المنطقي السديد الذي يؤمن فيه الخطأ ، وإذا كانت تلك غاية البلاغة أولاً وقبل كل شيء ، فما هي غاية المنطق إذن !! أليس ذلك خلط في الرأي واضطراب في التفكير .

أما الغاية الثانية وهي : تحريك الذكاء وتدريبه بالكلمات فليست تلك مهمة البلاغة وإنما هي مهمة الأدب والنصوص والمطالعة والنحو أيضاً فعلى قدر ما يعنى الدارس ويستوعب من أساليب اللغة يتحرك ذكاؤه اللغوي ومن هنا قالوا : ( احفظ ثقلان الكلام من الكلام ) . ولذلك كانت درااسة روائع الأدب وحفظ نصوصه من أهم الأمور في تجلية موهبة الدارس وصلها .

أما الغایتان الثالثة والرابعة وهما : كيف نستعمل الكلمات للتفكير التوجيهي ، وكيف نستعملها لتحريك الاجتماعي ، فهما يعودان أيضا الى ما قلناه في الغاية الثانية ، لأن استعمال الكلمات سواء في التفكير التوجيهي أو التحريك الاجتماعي إنما يتولد وينبعث من كثرة ومد اومة الاطلاع على روائع الأدب من شعر ونثر . وحتى ان كان يقصد بالتفكير التوجيهي الكتابة ، ويقصد بالتحريك الاجتماعي الخطابة ، فان كلا من الكتابة والخطابة إنما يرجع أساسا الى صقل الموهبة عن طريقة الدراسة والممارسة لروائع النصوص الأدبية . وان كان يقصد بالتفكير التوجيهي الأسلوب العلمي ، وبالتحريك الاجتماعي الأسلوب الأدبي فان كلا الأسلوبين يحتاج أيضا الى التدريب اللغوي والممارسة .

وعلى كل فائق أسلوب المؤلف غير محدد وغير واضح ولا شيء فيه يلفت النظر غير تلك الكلمات الجديدة التي يكثر من ترديد ها مثل : الكلمات الموطريسة ، القيم السيكلوجية ، السلبية والايجابية ، التنبيهات الذهنية . . . الى غير ذلك .

أما الغاية من البلاغة عنده فهي بعيدة كل البعد عن البلاغة العربية بل وعن غيرها من البلاغات . فلا يوجد - فيما نعلم - بلاغة عربية أو عربية تقوم على المنطق وتخاطب العقل وتجافي العاطفة وغايتها التفكير الحسن .

والغريب - وما أكثره في هجوم سلامة موسى - أن المؤلف بعد أن جرد البلاغة من العاطفة ، وجرد اللغة من الأسلوب الأدبي ، وجعل كلا من البلاغة واللغة منطقا واحصاء وأراقاما ، يعود مرة أخرى فيناقض نفسه ويقول : " فاللغة علم وفن . هي علم من حيث أننا يجب أن نعرف كيف ننتقد المعاني وكيف نسبر المعاني في الكلمة ، وهي فن من حيث قدرتنا على استعمال الكلمات كي تبعث التحريك الاجتماعي أو التنبيه الذهني أو العاطفي في الفرد أو الجماعة " .

فهل بعد هذا اضطراب وخلط وتناقض ؟ ! !

يقول د . طبانة " ورأينا في هذا الكلام أنه ليس من طبيعة الأدب أن يلزم الأديب أو البليغ أن يكون أدبه منطقيا أو غير منطقي ، بل ان له أن يعبر تعبيرا جميلا عما يحس وعما يجد في بيئته مما يؤثر في نفسه ، أو يثير تفكيره أو عواطفه وانفعالاته .

ومجالات الأدب لا حد لها ، وإنما المطلوب هو فنية التعبير<sup>(١)</sup> .

وإذا كانت البلاغة - عند المؤلف - هي بلاغة العلم والمنطق والأرقام ، فإننا نورد هنا أيضا ما قاله الاستاذ عباس محمود العقاد من " أن الكتابة الأدبية فن ، والفن لا يكفي فيه بالافادة ، ولا يغنى فيه مجرد الافهام ، وعندى أن الأديب فى حل من الخطأ فى بعض الأحيان ، ولكن على شرط أن يكون الخطأ خيرا وأجمل وأوفى من الصواب . . . . " (٢) .

ومن المتناقضات الكثيرة فى آراء سلامة موسى أم حليمه أنه يعزده فيفرق بين الكلمة الموضوعية والكلمة الذاتية ، أى بين الأسلوب العلمى والأسلوب الأدبى ، أنظره يقول : " ونحن فى تفكيرنا نتخذ أسلوبين : الأسلوب الموضوعى ، حين نتجرد من احساسنا الشخصى أو لا نجد له مجالا . كما لو قلنا ، كرسى أو أسد أو شمس أو شارع . فكلنا على وجه التقريب يذكر هذه الأسماء دون أى انفعال . وكلنا سواء تقريبا فى ادراك صورها . . . . وهذه الكلمات موضوعية ، أى أنها غير متأثرة بذواتنا . و المفكر العلمى يحاول على الدوام الوصول الى هذا الأسلوب الموضوعى فى التفكير أى أنه حين يبحث مشكلة يتجرد عن احساساته ويحولها الى كلمات وما يجب وما يكره . ولكن هناك الأسلوب الذاتى ، أسلوب الأديب والفنان ، فرجل الأدب يتحدث عن المثليات أو الجمال أو الذوق أو العظمة . وهذه الكلمات جميعها ذاتية ، أى تعبر عن احساساته وانفعالاته . ولذلك نختلف فيها كثيرا . . . . " (٣)

وهذا الكلام ليس بجديد طبعا ، ولكن الجديد أنه قاله بعد أن أنكر واستنكر الأسلوب الأدبى وحمل عليه وعلى بلاغة العاطفة والانفعال . وكعادته عاد فنقض هذا الكلام بطريقة مائعة . يقول : " والكاتب الذكى هو الذى يحاول

(١) البيان العربى ص ٢٩٤

(٢) مقدمة " الغربال " لميخائيل نعيمة بقلم العقاد ص ٨ دار المعارف - القاهرة .

(٣) البلاغة المصرية ص ٦٥ ، ٦٦

أن يكون علميا موضوعيا ، وليس عاميا ذاتيا . ولكن يجب أن نذكر أن اللغــــــــــــة  
ستحتوى على الدوام كلمات ذاتية تعبر عن الآداب والفنون ، وهى هنا ليست  
عامية ، ولكنها تعبر عن ذاتية ممتازة <sup>(١)</sup> . ثم يقول : " والتفكير السديد ينقلنا ،  
أو يحاول أن ينقلنا ، من النظر الذاتى للأشياء الى النظر الموضوعى ، ومن  
الوصف المائع العام الى الوصف بالأرقام <sup>(٢)</sup> .

وأقول : ليت المؤلف أراحنا من كلامه المائع ووصف لنا ما يريد به بالأرقام  
فلعل ذلك كان يقنعنا ويقنع غيرنا بنظرية اللغة الرقمية .

### ضرر البلاغة العاطفية :

ويحذرنا سلامة موسى من أضرار البلاغة العاطفية القديمة ، واســــــــــــاءة  
استعمالها ، فيقول : اننا ( فى مصر نسمى الى اللغة العربية ، والى شبابنا  
أيضا ، حين نتخذ معهم طرقا عتيقة فى معالجتها يمكن تلخيصها فيما يلى :  
١ - أننا نعلمهم مبادئ البلاغة العاطفية بالمجاز والاستعارة والتشبيه الخ . .  
كى يصلوا منها الى التعبير الفنى أو الرفاهية الذهنية ، بدلا من مبادئ  
البلاغة العقلية بقواعد المنطق ، حتى يصلوا الى دقة التعبير وتوقى الاقتباس ،  
والنتيجة من هذه البلاغة العاطفية هى الضرر ، لأنها تحدث لهم اتجاهها  
نحو التزويق والبهارج . فاذا طلب اليهم التفكير عجزوا .

٢ - هذه البلاغة العاطفية قد حملت المعلمين على الاكثار من شأن الاقتباس ،  
حتى اننا كثيرا ما نرى فى كتب الانشاء التى يتداولها التلاميذ غنايــــــــــــة  
المؤلفين بما يسمونه " الجمل المختارة " . وهى عبارات تحتوى كلمات لها  
بريق أو رنين أو ضجيج . والتلميذ الذى يكلف استظهارها انما يفعل ذلك  
على حساب تفكيره . فكأننا نقول له " لا تنظر الى هذه الدنيا بروح الباحث  
المتفهم المفكر ، وانما استظهر العبارات المزخرفة وتكلف التزويق لأنــــــــــــها  
أحسن ما يمكنك أن تعبر به فى الانشاء " . ونحن فى هذا التوجيه نحمله  
على العناية بالقشور ، بل بما هو أغفــــــــــــه منها ، وترك اللباب ، أى التفكير  
السديد .

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ص ٦٧

٣ - ضرر ثالث هو أيضا نتيجة لما ذكرناه ، نغنى به العناية بالأسلوب، ومحاولة التلميذ أو الطالب أن يتعلم أساليب الأقدمين ويحاكي أحسنها ، وكأنها غاية الانشأ<sup>(١)</sup> .

ويعلق الكاتب على هذه الأضرار الثلاثة التي اخترعها وصورها له خياله المريض فيقول : " ونحن في كل هذا نكاد نجحد الذهن وعند ما يشب هؤلاء الشبان يتجهون ، اذا ألفوا كتابا أو كتبوا في صحيفة ، وجهة الاقتباس والتزويق دون التفكير والبحث . وهذا ما نراه شائعا في كتبنا ومجلاتنا<sup>(٢)</sup> ،

ويتساءل الكاتب : كيف نعالج هذه الحال ؟ ويتطوع بالاجابة المثلى كما يتصور فيقول :

١ - نعالجها أولا وقبل كل شيء بأن نجعل قواعد المنطق تقوم مقام قواعد البلاغة القديمة . أى دقة التعبير بدلا من تزويق التعبير ، ومخاطبة العقل بدلا من مخاطبة العواطف .

٢ - ونعالجها ثانيا بأن نقاطع الاقتباس في الانشاء في المدارس الابتدائية والثانوية ونجعل التفكير يقوم مقام الاقتباس . فيجب ألا تكون هناك " جملة مختارة " تحفظ عن ظهر قلب . بل يجب أن يعود الصبي أو الشاب كيف يفكر ويبحث ويطلع .

٣ - يجب أن نعرف أن الأسلوب هو الناحية الاخلاقية للكاتب . فاذا كان الكاتب فنانا يعيش الحياة الفنية ، فأسلوبه فنى . واذا كان عالما فأسلوبه علمي ، واذا كان اجتماعيا . . . الخ .

وأسلوب الكتابة هو بعض أسلوب الحياة . فالرجل المستقيم الصريح فنى معاملاته يكتب فى عبارة صريحة وفى كلمات لا تقبل الالتواء . فاذا طالبنا الصبي أو الشاب بأن يحسن الأسلوب فى كتابته ، فانما نطالبه فى الحقيقة بأن يتخذ أسلوبا حسنا فى معيشته وأن يرقى شخصيته . واذا استقرت هذه القواعد فى مدارسنا وتعلمها صبياننا وشبابنا فاننا سنجد عندئذ المؤلفين المفكرين والصحافة النيرة المرشدة صحافة الشخصيات الكبيرة والتفكير العلمى الدقيق<sup>(٣)</sup> .

(١) البلاغة العصرية ص ٥٥ و ٥٦

(٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق ص ٥٧

واعتجابه . . ان كلام هذا الكاتب وأفكاره كوسوسة الشيطان . بل هي هي ،  
أليس الوسواس الخناس من الجنة والناس .

وانا تأملنا في وسوسة هذا الكاتب وكلامه وجدنا تفكيراً صبيانياً وهــرا  
ومغالطات وأخطاء . فما هي هذه القواعد التي اذا استقرت في مدارسنا وتعلمها  
صبياننا وشبابنا فاننا سنجد عند المؤلفين المفكرين والصحافة النيرة ؟

أهي أن نحل قواعد المنطق مقام قواعد البلاغة القديمة . فنلغى عواطفنا  
ونخاطب عقولنا فقط ، ونلغى بالتالي كل ما يتعلق بالمعاطفة الانسانية من محبة  
ورحمة ومروءة وصداقة وحنان وغير ذلك من المواطف التي لا غنى لمجتمع عنها !!

أم هي أن نلغى من كتب الانشاء وتعليم اللغة تلك الجمل المختارة من  
روائع الأدب واللغة التي تصل أبناءنا بتراثهم وروائع أدبهم ولغتهم ، وتغرس فيهم  
جمال اللفظ وروعة المعنى ، وترسى لديهم أساساً هاماً من التعابير والتراكيب  
المتنازة التي تخول لهم بعد ذلك أن ينسجوا على منوالها ثم يبتكروا بعد ذلك  
ما شاءوا من الصيغ والتراكيب ، بعد أن تمرسوا وتقلبوا في رياض اللغة !!

أما الأسلوب فأمره عجب عند سلامة موسى . . فهو لا يعترف الا بالاسلوب  
الرقمي الذي لا يحتمل الشك ، ولكنه في أكثر من موضع يتحدث عن الاسلوب الفني  
أو الأدبي ، ولكنه يعود فيقرر أن الذكي هو الذي يعتمد الأسلوب العلمي دون  
غيره . وهو هنا يعود فيخلط في كلامه عن الأسلوب ، فيقول : " يجب أن نعرف  
أن الأسلوب هو الناحية الأخلاقية للكاتب . فاذا كان الكاتب فنانياً يعيش الحياة  
الفنية فأسلوبه فني ، واذا كان عالماً فأسلوبه علمي ، واذا كان اجتماعياً . الخ ."  
اذن فهو يعترف بالأسلوب الفني ، وبالأسلوب العلمي ، ولكن لا ندري ماذا يريد  
بالأسلوب الاجتماعي الذي أحجم عن ذكره واكتفى بقوله : واذا كان اجتماعياً الخ .

على أن قوله ، ان الاسلوب هو الناحية الأخلاقية للكاتب ليس صحيحاً فالكافر  
قد يكتب في ناحية اسلامية فيجيد ، والظالم قد يكتب عن العدل والانصاف فيبدع .  
ثم نجد بعد أن يجرد الأسلوب من محصلاته يقول : " فاذا طالبنا الصبي أو الشاب  
بأن يحسن الأسلوب في كتابته ، فانما نطالبه في الحقيقة بأن يتخذ أسلوباً حسناً  
في معيشته " .



فاذا سلمنا بأن تحسين الاسلوب يؤثر في تحسين المعيشة ، فاننا  
نتساءل : كيف يحسن الطالب أسلوبه في الكتابة ؟ أبالأرقام والأعداد والمنطق ،  
كما يقول سلامة موسى ؟ أم بتلمس وسائل الجمال الأسلوبى من تشبيه ومجاز ويديع  
ما ينكره ويستنكره الكاتب الخطير ؟ !

( ان الهدم سهل ، والذي يصنعه هم أولئك الذين ينتقدون الجمال في  
اللغة ، ويريدونها عضواً أشل . . . والأحداث التي غيرت مجرى التاريخ وألهبت  
بين الجوانح نزعة الرقى . . . كانت وسيلتها الى الإصلاح . . التعابير الجميلة  
التي تخاطب القلب قبل أن تخاطب العقل . ومن أمعن النظر في أسرار هذه  
الأحداث تبين له أن أسرعها الى الانتشار وأبعدها أثراً في المجتمع هي التي  
كان في الدعوة اليها وفي شرح أهدافها أكبر نصيب ممكن من الجمال . . ولو  
حاولنا أن نجارى الذين يدعون أن اللغة للأداء فحسب فماذا نفعل بالآثار  
الأدبية العالمية التي تزخر بالجمال ، وهي التراث الخالد الذي ينحدر من جيل  
الى جيل ، وفيه تجارب الانسان يلتبس فيها علاج النفس ويملك به ناصية الهنا .  
أنعرض عنها أم نلقى على عواتقهم تبعه تجريدنا من كل رائع طريف وجعلها مرجعاً  
للجمود والبلادة .

ان الأساليب المجردة التي يطالب بها هؤلاء لا يمكن أن تميز كاتباً عن  
آخر ، فكأنها خارجة من قالب واحد في معمل واحد فيها تتلاشى الشخصية  
الانسانية وتحل محلها الآلة التي لا تبدى ولا تعيد . . . وهكذا يمكن الاستغناء  
بكاتب عن بقية الكتاب . أما الأساليب التي تبهرنا ، وأما اللغة التي تحـوـز  
اعجابنا فهي التي تجعل كل كاتب شخصية مستقلة تتميز عن سواها بخصائصها  
الواضحة .

في وسط هذا التيار الجارف من اليبوسة المؤلمة ، تقف اللغة العربية  
موقف المجابهة . . ان أعداءها حاقدون ، والحجة التي يتكلمون عليها تفرى  
وتغوى ما أسهل أن يعلق في أشراكها الذين لا يبالون بالبحث والتنقيب أو ما  
نسميهم يصرخون بأنهم يريدون مجارة روح العصر ومسيرة القافلة الانسانية  
السائرة الى الأمام . ويدعون أن التخلف الذي تعاني منه العربية ما تعاني ،

من دواعيه لفتحها وما في لفتحها من تعقيد ، ويجهلون أو يتجاهلون أن هذه اللغة التي يعيبونها كانت رسالة حضارة نشرت أعلامها في الشرق والغرب ، ورافقت الفتوحات - وكانت طليعة فيها - ووطدت في الأصقاع التي دخلتها معالم العمران وظلت - بعد أن تقلصت البنود السياسية في البلدان المذكورة - تزود الأفسكار بالروائع ، وتمون القلوب بالبدائع ، وتقع موقع الرضا والترحاب حيث حلت . ويجهلون أو يتجاهلون أن هذه اللغة هي من دقة التعبير وقوة الاشتقاق وجلالة الصيغ وغنى المفردات بحيث اختارها الكثيرون من العلماء غير العرب في الدولتين الأموية والعباسية للدراسة والتأليف . فقد رأوها من أصلح اللغات للتعبير عن أدق الشئون العلمية المختلفة .

ان العلة ليست في اللغة العربية ، بل في الذين لا يفهمونها ، ويهذرون وهم في معزل عن الحق (١) .

#### بين البلاغة والاعراب :

حفل هجوم سلامة موسى على البلاغة واللغة العربية بكثير من الدعوات المفرضة ، وقد عرضنا ونقدنا آراءه في البلاغة وتجديدها ، وفي الأسلوب الأدبي والأساليب البيانية .

وكما نود أن نعرض وننقد آراءه وأحافيره في اللغة العربية أيضا ، والسبب ساقها باسم الإصلاح والتجديد والتيسير ، لنكشف بصورة أكثر وضوحا حقيقة سلامة موسى وحملته الهدامة المفرضة . أقول : كنت أود ذلك ، لولا ما أحاذره من الخروج على موضوع البحث .

ولكن من أحافير سلامة موسى اللغوية ما له علاقة ببحثنا ، كحديثه عن النحو الاعراب .

وذلك أنه يدعو الى " أن تقتصر في تعليم اللغة العربية على تمكين التلميذ من المطالعة والفهم بلا حاجة الى أية قواعد خاصة بالنحو ، وليس عليه من حرج أن يقرأ فيرفع المفعول ، وينصب الفاعل ، ما دام يفهم ما يقرأ . حسبه أن يسكن آخر الكلمات (٢)

(١) من مقال للأديب الياس قنصل بعنوان ( العلة ليست في اللغة العربية ) مجلة الفيصل - العدد الخامس عشر ص ١٥٣ - ١٥٤ بتصرف .

(٢) البلاغة العصرية واللغة العربية ص ١٣٨

وتتسائل في عجب : كيف يرفع التلميذ المفعول وينصب الفاعل ثم يفهم ما يقرأ ؟ ! ألم يطلع - وهو العالم التحرير - على ما قاله الامام عبد القاهر في هذا الشأن من أن " الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب هو الذى يفتحها ، وأن الاغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وأنه المعيار الذى لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس الذى لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع اليه ، ولا ينكر ذلك الا من ينكر حسه ، والا من غلط في الحقائق (١) نفسه

ان الاعراب هو مفتاح المعانى ، وهو مظهر الفصاحة ، وجمال البيان ، وبدونه نطمس كثيرا من معالم اللغة ، ونبعد كثيرا عن موسيقا الكلام ، ونفقد الصحة والسلامة في قراءة القرآن وفهم معانيه ، فلا بلاغة بغير اعراب . ان تسكين أو اواخر الكلمات ليس حلا مقبولا بل ولا مستساغا في كثير من الأحيان ، ولك أن تتخيل أو تحاول قراءة الفاتحة - مثلا - بتسكين أو اواخر كلماتها ، فسترى أن ذلك صعب على اللسان ، ولا طرب له في القلب والآذان . هذا الى ما يسببه ذلك من خلط في المعانى والأفكار . فهل هذا ما يدعو اليه المؤلف الخطير ؟ !

ويقول : " وبدلا من هذه القواعد النحوية يجب أن يتعلم الصبي أكبر مقدار مستطاع من الكلمات التى ترد في الجريدة والمجلة والمتجر والمصنع والدكان . " أى نعلمه الكلمات العامة . وهل اللغة العامة في حاجة الى تعليم ! ! وهل من الصواب أن نلغى قواعد النحو لنوفر للتلاميذ الوقت لزيادة ما يدخرون من الكلمات العامة ! !

ومن العجيب حقا أنه بعد أن دعانا الى الوقف في أواخر الكلمات أى اسكانها ، وادعى أن ذلك " هو الخطة السديدة التى يجب أن تتبع وعندئذ يتوافر للتلاميذ الوقت لزيادة ما يدخرون من الكلمات " يقول : " وهنا تدخل البلاغة " ! !

أى بلاغة يا سلامة تلك التى تدخل هنا ؟ ! ويسرع بالرد : " ونعم - بلغة المنطق اللغوى للتمييز بين الكلمات من حيث الدقة والاتصال في التعبير ، وليس من حيث ألعيب الصغار عن الاستعارات والمجازات ، كوجه القمر ، وأنت بحر ، وعلم من فوقه نار . الخ " (٢)

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٣ و ٢٤

(٢) البلاغة المصرية ص ١٣٨

وماذا نقول فى هذا الخلط والهديان والشناقص ، فهذا الرجل يستنكر الاستعارات والمجازات ويعتبرها ألعيب الصفار ثم يستعملها فى كتابته - كما بينا من قبل - ويدعونا الى بلاغة المنطق اللغوى والأرقام ثم لا يستعملها ، أو هو لم يستطع ذلك . لأنه غير صادق فى دعوته ، ولأن هدفه هدم الفصحى وبالتالي هدم الدين الذى يحقد عليه وعلى أهله .

وإذا كانت بلاغة العاطفة والاستعارات والمجاز ألعيب صفار ، فماذا نسمى بلاغته المضحكة المخجلة التى وضعها لكى يدعو بها أبناء طائفته ومنها : يا رب انت الواهيوحنا العربيات جرننا الى رحمتك ، يا رب انت الحنفية وحنا الجسرادل املانا من نعمتك .

حقا لقد صدق المثل : اذا لم تستح فاصنع ما شئت .

ويعود سلامة فيدعونا الى الاخلاق - فهو رجل أخلاق - ويقول : " يجب أن تكون لنا غاية أخلاقية فى تعليم اللغة العربية هى تعويد التلميذ القراءة بحيث لا يستطيع الكف عنها طيلة حياته " (١).

وتعويد التلميذ على القراءة أمر محمود ولكن كيف نحققه ونرغب فيه اذا كان الأسلوب الذى يعرض عليه ويقرؤه أسلوبا علميا جافا لا روح فيه ولا عاطفة ولا حلاوة ولا جمال . وحتى البلاغة قد فقدت روائها وطلاوتها لانها أصبحت بلاغة صارمة تقوم على المنطق وتتعامل بالأرقام . أفلا يجد ربنا اذا كنا نريد أن نعود التلاميذ على القراءة أن نعرض عليهم الموضوعات المطلوبة فى ثوب قشيب وأسلوب جميل يرقى بأن واقهم فى الكتابة والتفكير ؟ .

ومن الخلط العجيب أن سلامة موسى يربط بين الخطابة والمناقشة ، ثم يعرف الخطابة بأنها الاكثار من الموضوعات التى يظالعهها التلاميذ ، وهو كلام يدل على غلط وجهل . اسمعه يقول : " غاية أخرى نتوخاها هى تكوين شخصيته - أى التلميذ - بالمناقشة والخطابة . ولا نعنى بالخطابة تلك الحركات المنبرية البهلوانية التى تعتمد على قوة الذراعين والحنجرة أكثر مما تعتمد على الفهم

والتمييز ، وانما نعى أن نكرر من الموضوعات التي يطالعها التلاميذ مع المعلم فتنشأ المناقشة المنيرة التي يتعلم منها التلميذ كيف يناقش وينتقد <sup>(١)</sup> .

وأقول ما كل من عرف الكتابة كاتب . وأكبر دليل على ذلك : سلامة موسى وآراؤه في البلاغة واللغة .

وبعد : فان دعوة سلامة موسى الى تجديد البلاغة وبنائها على قواعد المنطق والأرقام دعوة لم تكن لتنجح أبدا ، أو تأخذ طريقها الى القلوب والعقول . ومهما تذرع في دعوته بالاصلاح والتجديد والتيسير ، وصاغ أفكاره الهدامه في كثير من الخبث والدهاء ، وتظاهر بأنه مجدد صادق مخلص حريص على مصلحة اللغة العربية ومستقبلها ، مهما فعل ذلك فان نظرة فاحصة تكشف عما في دعواته من هدم وعصبية ، وما في نفسه من حقد وضعفينة على العرب والعربية .

ولسنا نعتبر دعوة سلامة موسى الى تجديد البلاغة الا هجوما عليها ، واستهانة بها وبأربابها .

ونعود فنقول : اننا لا نعى علما منا وأدبا منا الكبار ، والمسؤولين عمن الثقافة العربية ، من التبعة والمسئولية ، وما لاقت وتلاقى بلاغتنا ولغتنا من جور وظلم واجحاف .

وقد آن الأوان لنقوم بعمل كبير ، ننصف به بلاغتنا ، وننهض بلغتنا ، ونعيد العصر الذهبي للأمة العربية في العلوم والآداب .

وبلاغة : قمة اللغة العربية ، وذروة سنامها ، بحاجة الى هزة عنيفة ، تسقط أوراقها الجافة ، وتسعد أوراقها الخضراء . وحديقة البلاغة بحاجة ماسة الى العناية والتشذيب والارواء ، لتعود روضة غناء ، تؤتى أكلها كل حين باذن ربها .

## الباب الخامس

قصة الاعجاز الكبرى وآراء المجددين فيها

---

الفصل الأول : الاعجاز النفسى

الفصل الثانى : الاعجاز العلمى

الفصل الثالث : الاعجاز العدى

الفصل الرابع : الاعجاز الروحى

=====

## قضية الاعجاز

قضية الاعجاز قضية قديمة ، كثر القول فيها وكثرت الآراء ، ولسنا هنا بصدد البحث فيما ثار حول الاعجاز قديما ، فقد تحدث فيه كـيـرون وقتلوه بحثا وتمحيضا ، ولكننا بصدد ما طرأ حوله من جديد ، وما استحدث من دراسات حديثة في هذا المجال .

اما وان الحديث عن الجديد لا بد ان يستضاء له بالقاء ضوء على القديم ، فانا نعرض هنا للآراء القديمة باجمال ، توطئة للحديث عن الجديد في قضية الاعجاز .

ولقد اختلفت وجهات النظر في الاعجاز ، وتشعبت سبل القول فبعضهم رأى انه لا علة للاعجاز " ولذلك صاروا اذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اخص بها القرآن ، الفائقة في وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر انواع الكلام الموصوف بالبلاغة قالوا : انه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم منه مباينة القرآن غيره من الكلام ، وانما يعرفه العالمون منه عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده . واحالوا على سائر اجناس الكلام الذي يقع فيه التفاضل فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك ، ويتميز في افهامهم قبيل الفاضل من المفضل منه . قالوا : وقد يخفى سببه عند البحث ، ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوى العلم والمعرفة به . قالوا : وقد توجد لبعض الكلام عبوبة في السمع وهشاشة في النفس لا يوجد مثلها لغيره منه ، والكلامان معافصيحان ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة " ( ١ ) .

فاحصا هذا الرأي يرون ان الاعجاز احساس وادراك وتذوق خاص بأولى العلم والمعرفة ، وانه لا علة ظاهرة يمكن بها بيان سبب الاعجاز وهو لاء قد اراحوا واستراحوا ، ولكن انى للعقل البشرى ان يفتح بهذا الرأي .

ولعل ذلك هو ما دعا الخطابي الى ان يعود فيقول : " واعلم ان القرآن انما صار معجزا لانه جاء بانصح الالفاظ في احسن نظم التأليف مضمنا اصح المعاني " ( ٢ ) .

١- بيان اعجاز القرآن للخطابي ص ٢٢ .

٢- المرجع السابق ص ٢٤ .

فقد التمس للاعجاز بعض الأسباب والعلل ، بعد ان عرض رأى القائلين بأنه لا علة للاعجاز ، وان كان قد رأى رأيهم فى موضع آخر حيث قال : "قلت فى اعجاز القرآن وجهها آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه الا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعة فى القلوب وتأثيره فى النفوس" ( ١ ) وهكذا نجد الخطابى يرى الوجهين ويقول بهما .

ويرى الشيخ الامام عبد القاهر الجرجاني أن معرفة أسرار الاعجاز ممكنة وأن دراسة البيان هى الوسيلة لهذه المعرفة ( وأنه لابد لكل كلام تستحسنه ، ولفظ تستجيده ، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة ، وأن يكون لنا الى العبارة عن ذلك سبيل ، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل ، وهو باب من العلم اذا انت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة ، ومعان شريفة ، ورأيت له أثرا فى الدين عظيما ، وفائدة جسيمة ، ووجدته سببا الى حسم كثير من الفساد فيما يعود الى التنزيل ، واصلاح انواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل ، وانه ليوء منك من أن تغالط فى دعواك ، وتدافع عن مفزاك ، ويربأ بك عن ان تستبين هدى ثم لا تهتدى اليه ، وتدل بعرفان ثم لا تستطيع أن تدل عليه ، وأن يسألك السائل عن حجة يلقي بها الخصم فى آية من كتاب الله تعالى او غير ذلك ، فلا ينصرف عنك بمقنع ، وأن يكون غاية مالصاحبك منك أن تحيله على نفسه ، وتقول : قد نظرت فرأيت فضلا ومزية ، وصادفت لذلك ايجابية فانظر لتعرف كما عرفت بوراجع نفسك واسبر وذنق لتجد مثل الذى وجدت فان عرف فذاك ، والا فبينكما التناكر ، تنسبه الى سوء التأمل ، وينسبك الى فساد فى التخيل " . ( ٢ )

ويأتى السكاكى فيخالف رأى عبد القاهر ، ويرى أن معرفة الاعجاز عن طريق الدراسة أمر غير ممكن ( نعم للبلاغة وجوه مثلثة ربما تيسرت اماطة اللثام عنها ، لتجلى عليك ، أما نفس وجه الاعجاز فـ لا ) .

١- المرجع السابق ص ٦٤ .

٢- دلائل الاعجاز ص ٣٣ ، ٣٤ .



ويقول « د . الصامى : " لقد طال القول فى امكان معرفة الاعجاز وعدم  
امكانه ، واطال الشيخ عبد القاهر وفصل القول تفصيلا فى رأيه ، وأصر  
السكاكى فى اكثر من مناسبة على أن هذه القواعد ليست الطريق لمعرفة  
اسرار الاعجاز ، ثم رأيت كلاما اعجبني للعلامة ابن خلدون ، وهو كلام  
جديد ، لعله كذلك وسط بين الرأيين ، رأيته يفرق بين المعرفة والادراك  
ويرى أن معرفة الاعجاز ممكنة عن طريق دراسة البلاغة ، أما ادراكه  
فغير ممكن عن طريق هذه الدراسة ( واعلم ان ثمره هذا الفن انما  
هو فى فهم اعجاز القرآن . . . وهذا هو الاعجاز الذى تقصر الافهام عن  
ادراكه ، وانما يدرك بعض الشئ منه من كان له ذوق بمخاطبة اللسان  
العربى ، وحصول ملكته ، فيدرك من اعجازه على قدر ذوقه ) (١) .  
ويمكن بسهولة أن نفرق بين المعرفة والادراك ، ونضرب لذلك مثلا  
بدراسة العروض ، فبعض الناس يعرف سلامة البيت واعتلاله عن طريق هذه  
الدراسة ، فهو ينظر الى البيت يعرضه على ما عرفه من البحور وقواعدها ،  
ويتبين ما فيه من زحاف وعلة ، ويحكم بما يجوز من ذلك وما لا يجوز فهذا  
عارف . وبعض آخر له اذن موسيقية تحس نبو الوتر - كما يقول حافظ  
ابراهيم - يحكم على البيت بالصحة أو الاعتلال بمجرد سماعه ، وهذا هو  
الادراك . . . وقد لما قال بعض الخلفاء العباسيين لاسحق الموصلى :  
صف لى جيد الغناء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ان من الاشياء اشياء  
تصيبها المعرفة ، وتعجز عن ادراكها الصفة . وما قاله اسحق فى جيد  
الغناء هو نفسه الذى يقال فى جيد الكلام ، والجيد من الفنون بعامة (٢) .  
وهذا هو رأى السكاكى ومن شاع فى الاعجاز حيث يرى ان شأن  
الاعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه ، وهو بهذا يتفق مع الشطر الثانى من

---

١- مقدمه ابن خلدون ص ٥٢١ ط الشعب .

٢- قضايا بلاغية - د . الصامى - ص ٢٧ و ٢٨ بتصرف .

رأى ابن خلدون الذي فرق بين المعرفة والادراك . ومن ذلك ما قاله  
 رشيد رضا من أن " العلماء قد حاروا في كشف حجب البيان عن وجوه  
 اعجاز القرآن ، بعد ان ثبت عندهم بالوجدان والبرهان ، حتى قال بعضهم  
 ان الله تعالى قد صرف عنه قدر القادرين على المعارضة بخلق العجز في  
 أنفسهم وألسنتهم وذلك ان ادراك كنه العجز ، والاحاطة بأسبابه وأسرار  
 ضرب من ضروب القدرة ، والمقام مقام عجز مطلق ، فالقرآن في البيان والهداية  
 كالروح في الجسد ، والاثير في المادة ، والكهرباء في الكون متصرف  
 هذه الاشياء بمظاهرها وآثارها ، ويعجز العارفون عن بيان كنهها وحقيقتها<sup>(١)</sup>  
 وفيما قاله رشيد رضا اشارة الى مذهب الصرفة ، وقد دان بهذا المذهب  
 بعض علماء الكلام من المسلمين ، كابراهيم بن سيار النظام ، الذي قال  
 في اعجاز القرآن ، " الآية والاعجوبة في القرآن ما فيه من الاخبار  
 عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز ان يقدر عليه العباد ، لولا  
 أن الله منعهم بمنع وعجز احدهما فيهم " (٢) .  
 وقد عارض كثير من العلماء القول بالصرفة ومنهم الامام عبد القاهر الذي ذهب  
 الى ان الاعجاز انما يكمن في النظم الذي هو توحى معاني النحو وأحكامه  
 ورأى ان ألوان البلاغة من استعارة وكناية وتمثيل يعتبر من مقتضيات النظم<sup>(٣)</sup> .  
 لكن سيد قطب رحمه الله رد الاعجاز الى التصوير الفني ورأى أنه الاداة  
 المفضلة في اسلوب القرآن ( ٤ ) وضرب لذلك أمثله وأدلة ( ٥ ) .  
 ونحن نرى أن ما ذكره سيد قطب من الادلة لا يتعدى كونه لونا من ألوان  
 البلاغة وهو بذلك ينضوي تحت رأى عبد القاهر في الاعجاز بالنظم ، والبلاغة  
 والتصوير الفني من مقتضياتها .

١ - من مقدمه رشيد رضا لكتاب اعجاز القرآن للرافعي ص ١٨

٢ - الملل والنحل للشهرستاني - ج ١ ص ٦٤ .

٣ - دلائل الاعجاز ص ٣٠٠ ، وثلاث رسائل في الاعجاز ص ٤٨ - ٥١

٤ - التصوير الفني ص ٤٩

٥ - المرجع السابق ص ٤٠ وما بعدها

ومن رأى سيد قطب - خلافا لعبد القاهر - أن نظام الفواصل والمقاطع يعتبر وجهها من وجوه الاعجاز ( ١ ) وكذلك ما فى القرآن من ايقاع موسيقى متعدد الانواع . ٢ .

وهكذا نجد أن علماء المسلمين اتفقوا على اعجاز القرآن الكريم لكنهم اختلفوا فى وجوه اعجازه " فمنهم من قال : ان اعجاز القرآن الكريم بما اشتمل عليه من النظم الغريب ، والترتيب العجيب ، والاسلوب المخالف لما استنبط بلفاء العرب من الاساليب فى مطالعة ومقاطعته ، بوالفاظه وفواصله وهذا هو مذهب بعض المعتزلة .

ومنهم من قال : انه معجز بما اشتمل عليه من البلاغة التى تقاصرت عنها سائر ضروب البلاغات . وهذا هو قول الجاحظ من المعتزلة . . . وعليه المحققون من اهل العربية . . . . .

ومنهم من ذهب الى مجموع الامرين : أى النظم الغريب ، وكونه فى الدرجة القصوى من البلاغة الخارجة عن طوق البشر . وهذا القول منسوب الى القاضى الباقلانى .

ومنهم من قال : انه معجز باشتماله على الاخبار عن الغيب مطابقا لما هو الواقع ، كما فى قوله تعالى : " وهم من بعد غلبهم سيفلبون " . وهو رأى الاممى .

وقال بعضهم : ان اعجازه فى عدم اختلافه وتناقضه مع ما فيه من الطول والامتداد ، وتمسكوا بقوله تعالى : " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " وكأن هذا القائل غافل عن وقوع التحدى بمقدار سورة منه . . . ومنهم من قال ان الاعجاز " بالصرفة " بمعنى ان العرب كان فى مقدورهم الاتيان بكلام مثل القرآن الكريم قبل البعثة المحمدية ، ولكن الله تعالى صرنهم عن المعارضة مع بقاء قدرتهم عليها أو بدونها على اختلاف فى الرأيين . وهو رأى النظام وأبى اسحق الاسفرايينى " ( ٣ ) .

" وفكرة الصرفة التى نادى بها بعض المعتزلة لم يفهم المقصد منها على حقيقته

١ - المرجع السابق ص ٩٠ - ٩٢ .

٢ - المرجع السابق ص ٨٧

٣ - اعجاز القرآن البيانى - د . حنفى محمد شرف ص ٨ و ٩ و ١٠ بتصرف

فالنظام زعيم مدرسة الاعتزال يقول : " ان العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها " ، وقدرة الانسان مقيدة بحدى علمه وحدى ما يخطر بباله ، والقدرة تابعة للعلم ، والارادة نفسها لا تأتي مرتبتها الا تالية للعلم ، فالانسان عند النظام " يعلم الشئ " ثم تريده نفسه ثم تقوم قدرته بتنفيذه " ، فالعجز ليس فى القدرة ولكنه فى جهد وطاقة واستطاعة هذه القدرة ، والتي منحها الله الانسان بطاقة معينة واستطاعة محدودة وجهد مرسوم ، وهذه القدرة قد بذلت طاقتها فاستطاعت كل الاغراض ، أما بالنسبة للقرآن فانها حاولت وجربت ففعلت ففعلت ففعلت ، ومن ثم سمي مبدأ الصرفة أى الانصراف وليس الصرف " ( ١ ) وفى هذا الكلام نظــــر .

هذه خلاصة عجلة لآراء القدماء فى الاعجاز اذ لنا بها أن نوطى القول للبحث فيما جد من جديد وما استحدث من دراسات حول اعجاز القرآن الكريم مهد البلاغة ومنبعها بل ان البلاغة لم تتكون أصلاً علماً له أصوله وقواعده الا من أجل معرفة الاعجاز . وهذا أمر معروف وقد أشرنا اليه اكثر من مرة خلال هذا البحث .

أما ماذا جد من دراسات حديثة حول الاعجاز ؟ فهذا ما يهمنى بيانـه وما نحاول عرضه فى هذا الباب من بحثنا .

ولقد شهد العصر الحديث عدة دراسات جديدة حول الاعجاز هى :-

( ١ ) الاعجاز النفسى

( ٢ ) الاعجاز العلمى

( ٣ ) الاعجاز العددى

( ٤ ) الاعجاز الروحى

وحول كل واحد من هذه الأوجه الجديدة للاعجاز نقدم الفصول التالية :-

-

-١

١

## الفصل الاول

### الاعجاز النفسى

وصاحب هذا رأى هو الأستاذ أمين الخولى ، وقد بدأ بحثه باستعراض سريع لأراء العلماء السابقين فى الاعجاز ورأى أن هذه الآراء " كانت تستوفى نواحي القسمة العقلية وتدير كل تردد واحتمال ، نقائل : لا اعجاز فى اللفظ ولا فى المعنى ، ولكنها الصرفة ، وقائل بالاعجاز فيهما مـــــــع الصرفة .

وقائل باعجازهما للبشر ولا سبيل الى تعليل هذا الاعجاز أو بيانه .  
وقائل بالاعجاز مع امكان التعليل ، ومن هنا تتشعب الطرق ، وتتفرق السبل فى ذلك التعليل ، فيقال تارة هو النظم البديع والاسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

أو هى الجزالة التى لا تتأتى من مخلوق بحــــال .  
أو هو التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى حتى يقع منهم جميعهم الاتفاق على اصابتها فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .  
أو هو الاخبار عن الامور التى تقدمت فى أول الدنيا الى وقت نزوله من أمسى ما كان يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه .

أو هو الوفاء بالوعد المدرك بالحس فى كل ما وعد الله سبحانه وتعالى .  
أو هو الاخبار عن المغيبات فى المستقبل مما لا يطلع عليه الا بالوحى .  
أو هو ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الانام فى الحلال والحرام وفى سائر الأحكام .

أو هو الحكم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمى .

أو هو التناسب فى جميع ما تضمنه ظاهرا أو باطنا من غير اختلاف ( ١ ) .  
ثم يقول بعد هذا الحصر المجمل لأوجه الاعجاز : " كل واحد من هذه الأوجه مردود ممن لا يقول به بالكل مناقشون . وجمهرة هذه الآراء ، بل هذه الآراء

---

(١) - القرطبي - الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٧٢ ط دار الكتب .

رأيا رأيا ، وقولا قولا ، ليست ذات صلة كافية بالفن الادبي من تلك  
الوجهة التي قد منا القول في ضرورة ابتناء الفن كله عليها  
— والفن القولي بخاصة — وهى الوجهة النفسية الانسانية ( ١ ) .  
والواقع أن الاشارة الى اعجاز القرآن النفسى ، وماله من بالغ الاثر  
فى النفوس والقلوب لم يفت بعض العلماء القدامى .  
فهذا ابن قتيبة فى كتابه ( تأويل مشكل القرآن ) يشير الى أثر القرآن النفسى  
وكيف أنه " يثير الوجدان عن طريق الشمور ، ويهز القلوب لأن أسلوبه  
يخاطب النفس الانسانية خطاب العارف بخفاياها ، فيبلغ فى التعبير  
بلغ الروعة ان يكلم الفرائز وينادى الطبائع " ( ٢ ) .  
والخطابى لم يقف باعجاز القرآن عند بيان الفاظه وصحة معانيه وروعة  
نظمه ، بل تخطى ذلك الى أثر البيان القرآنى فى النفوس وفى القلوب . فقال :  
" قلت فى اعجاز القرآن وجهها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه الا الشاذ  
من آحادهم ، وذلك : صنيعة بالقلوب ، وتأثيره فى النفوس ، فانك لا تسمع  
غير القرآن منظوما ولا منثورا قرع السمع الا خلص له الى القلب من اللذة والحلاوة  
فى حالة ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ما يخلص منه اليه ، تحتبشر به النفوس  
وتنشرح له الصدور ، حتى اذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من  
الوجيب والقلق ، وتغشاها من الخوق والفرق ، ما تقشعر منه الجلود ، وتنزعج  
له القلوب ، يحول بين النفس وبين مغمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكهم  
من عدو للرسول — صلى الله عليه وسلم — من رجال العرب وفتاكها اقبلوا  
يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقفت  
فى سامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الاول ، وأن يركنوا الى مسالته ، ويدخلوا  
فى دينه ، وصارت عداوتهم موالاة ، وكفرهم ايمانا " ( ٣ )  
ومثل ذلك قال ابو هلال العسكري فأشار الى ما عظم القرآن من الحلاوة  
وجلاله من الطلاوة ( ٤ ) . وكذلك الامام الزركشى ( ٥ ) . وغيرهم

١- مناهج تجديد : ص ١٩٩ و ٢٠٠

٢- ص ٦٦ من كتاب " تأويل مشكل القرآن " .

٣- ص ٢٣ من ثلاث رسائل فى الاعجاز

٤- مقدمه الصناعيتين .

٥- البرهان فى علوم القرآن ص ٥ .

اعتراض ووههم وتوضيح :

لكن الاستاذ الخولى لا يرى فيما سبق لنا ذكره من حديث السابقين عن حلاوة القرآن وطلاوته وأثره فى النفس شيئاً من الاعجاز النفسى الذى يقصده ويقول : انه يجب أن " لا يسبق الى الوهم ذلك القول القديم ، المعـمـاد حديثاً كذلك ، عن أثر القرآن على النفس الانسانية ، ووقعه عليها ، ففعله فيها وما تجده من حلاوته ، وتستشعره من طلاوته . أو تلك الموسيقى الصوتية فى جرس حروفه ، وتأليف كلمه ، واثلاف جملة . أو هاتيك العذوبة يتذوقها قارئه ، أو الاقبال النفسى على تلاوته ، وعدم الملالة من تكراره . . . . . تلك نواح لا أعنيها فيما أريد الآن من القول فى صلة الاعجاز بعلم النفس ، فلن أقصد الى هذا المعنى وان كنت لا أكرهه ، ولا أعتد عليه فى مشكلة الاعجاز ، كما لا أهدمه . . . . . ثم هذا الملحظ لا يرتد فى جملة الا الى الألفاظ والعبارات ، وليس على مثل هذا وحده يقوم اعجاز كتاب وصف نفسه بأنه هدى ورحمة وبيان وتبصرة ، أولاً أقل من ألا يكتفى بهذا المعنى فى اعجاز مثل هذا الكتاب " ( ١ ) .

كذلك يرى الأستاذ أن " ثمة معنى بعيداً قد سبقت اليه أوهام قـوم فى هذا العصر ، فآثرت أن انفى القصد اليه هنا أو التعميل على شىء منه بذلك هو استخراج علم النفس ونظريات من القرآن ، تدعيماً للزعم بأنه يتضمن كل شىء ... فنحن ندع علماء النفس فى تجاربهم العملية بمشاهداتهم الواقعية ، أو تأملاتهم النظرية ، ان صح لهم فى ذلك شىء ، ليكشفوا عن خصائص النفس الانسانية ، لا نقلقهم فى شىء من ذلك ، ولا نرى سبق القرآن اليه ، أو تقدمه على الأجيال بأصله ، وما الى ذلك ، بل ننتلقاه منهم لنعتمد عليه فى بيان الوجه النفسى للاعجاز ، مؤيدين هذا البيان بفضل ما عرف محدثوا الباحثين عن الظواهر النفسية . . . . . " ( ٢ ) .

اجمال فكرة الاعجاز النفسى :

ان هذا القرآن من حيث هو فن ادبى معجز ، ثم من حيث هو هدى وبيان

١- مناهج تجديد : ص ٢٠١ و ٢٠٢ بتصرف .

٢- مناهج تجديد : ص ٢٠٢ بتصرف .

دينى ، لن يدار الأمر فيه الا على سياسة النفوس البشرية ورياضتها ، لان الفن هو : نجوى الوجدان ، والدين هو : حديث الاعتقاد وخطاب القلوب ، فصلته بالنفس ، ومناجاته للروح ، أوضح من أن يستدل لها ، أو تخص بالشعر . . . .

فالنظر الصائب اليه ، والقهم الصحيح له ، أو بعبارة أكثر صراحة تفسيره ، لا يقوم الا على ادراك ما استخدمه من ظواهر نفسية ، ونواميس روحية ، أدار عليها بيانه مستدلا وهاديا ومقنعا ومجادلا ومثبثا ومهددا ، فأصبح ما يبني عليه هذا التفسير هو القواعد النفسية وأصعد قـمـا اهتدى اليه العلم قديما وحديثا عن تلك الشئون . فليس يضح أن تعلل عبارة من عباراته ، أو يحتج للفظ فى آية من آياته ، أو يستشهد لأسلوب من أساليبه ، الا بموقعه كله من النفس ، وبما كشف العلم عن هذا الموقع ، وما سبر من اغواره . فبالأمر النفسية لا غير ، يعـلـل ايجازه واطنابه ، وتوكيده وإشارته ، واجماله وتفصيله ، وتكراره واطالته ، وتقسيمه وتفصيله وترتيبه ومناسباته . وما قام من تحليل هذه الأشياء وغيرها على ذلك الاصل فهو الدقيق المضبوط ، وما جاوز ذلك فهو الادعاء والتحمل ، أو هو أشبه به شىء به . . . .

تلك جملة من الاعجاز النفسى ، قد يكشفها مترادف الأمثلة ، ويجليها متتابع الشواهد ، وينتهى الى تأييدها تفسير جديد للقرآن على هذا النمط . ( ١ )

بعض بيان الاعجاز النفسى :

يضرِبُ الأستاذ الخولى مثلا للاعجاز النفسى بالتكرار ، ويرى أن " هذا التكرار فى القرآن قال فيه القدماء منذ عهد بعيد ، ولا يزال يقول فيه المحدثون حتى أمس القريب ، ولعل القائلين جميعا جاءوا هذه المسألة من غير طريقها النفسى ، الذى هو سبيل الاعجاز الفنى فى القرآن ، فكان كلام كل رجل منهم محتاجا لكلام من بعده ، وظل كلام الأمس ينادى



مقال اليوم ليسنده .

فالحافظ منذ القرن الثالث تكلم فى هذا وأيمان ( ١ ) ، وكان مما أورده  
حكايه ابن السماك ، ان جعل يوما يتكلم ، وجارية له حيث تسمع كلامه ، فلما  
انصرف اليها قال لها : كيف سمعت كلامى ؟ قالت : ما أحسنه لــــولا  
أنك تكررت داه ، فقال : أردده حتى يفهم من لم يفهم ، قالت : الى  
أن يفهم من لم يفهم قد ملّته من فهمه . كما نقل فى هذا الموضع  
أنه مكتوب فى التوراة : لا يعاد الحديث مرتين ، وقول الزهرى : اعادة  
الحديث أشد من نقل الصخر ، ثم عرض بعد هذا كله لالتماس وجهه  
الاعادة فى القرآن فقال : " وجملته القول فى الترداد أنه ليس فيه  
حد ينتهى اليه ، ولا يوءتى الى وصفه ، انما ذلك على قدر المستمعين من  
له ، ومن يحضره من العوام والخواص ، وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر  
قصة موسى ، وهود وهارون ، وشعيب ، وإبراهيم ، ولوط ، وعاد  
وشمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار ، وأمور كثيرة ، لأنه خاطب جميع  
الامم من العرب ، وأصناف العجم ، وأكثرهم غبي غافل ، أو معاند  
مشغول الفكر ، ساهى القلب ، وأما حديث القصص والرقعة فانى لــــم  
أر أحدا يعيب ذلك . "

ولعل قيمة هذا البيان واضحة ، ومدى اقناعه محدود ، بعد طول  
ما ساقه قبله فى ثقل التكرار وملا له . . . \* ( ٢ ) .

ومن الجاهظ يلتفتل الأستاذ الخولى الى القاضى الباقلانى  
ويذكر أنه عرض للمسألة فى كتابه ( اعجاز القرآن ) مرتين ، قال فى  
أولها : ( ومن البديع عندهم التكرار ، كقول الشاعر :  
هــــلا سألت جموع كندة يوم ولــــوا أين أينا  
وكقول الآخر :

وكانت فزارة تصلى بنا فأولى فزارة أول لهمــــا

ونظيره فى القرآن كثير ، كقوله : " ان مع العسر يسرا " ، وكالتكرار فى قوله :

١- البيان والتبيين ج ١ ص ٨٥ ط السندوبى

٢- منهاهج تجديد \* ص ٥٠ .

" قل يأيتها الكافرون " ، وهذا فيه معنى زائد على التكرار ، لأنه يفيد الاخبار عن الغيب ( ١ ) وليس هذا التكرار في كلمة أو جملة مما يحتاج الى القول الكثير .

وفي الثانية : عرض القاضى لموضوع التكرار الذى نحن بصدده ، فى ثنايا كلامه عن بديع تأليف القرآن وحسن نظمه ، وأنه يتبين لمن كان من أهل الصنعة اذا عمد الى قصة من هذه القصص ، وحديث من هذه الأحاديث ، فعبر عنه بعبارة من جهته ، وأخبر عنه بألفاظ من عنده فانه يرى فيما جاء به النقص الظاهر ، ويتبين فى نظم القرآن الدليل الباهر . . . وعرج من هذا على التكرار فقال : ( ولذلك أعاد قصة موسى فى سور على طرق شتى ، وفواصل مختلفة مع اتفاق المعنى ، فلعلك ترجع الى عقلك وتستمر ما عندك ، ان غلطت فى أمرك ، أو ذهبت فى مذاهـب وهمك ، أو سلطت على نفسك وجه ظنك ) ( ٢ ) .

وأنت واحد أن هذا القول لم ينل من المسألة الصميم ، ولم يخـض الغمار ، وهل يريد أن يعلل التكرار بأنه مظهر لحسن النظم ودقته ، أو لم يريد أن يدفع شبهة التكرار وما يثار حوله ؟! وان كان يتحدث فى ختام عيارته عن الغلط والوهم والظن !! ( ٣ )

ثم هذا السكاكى شيخ البلاغيين يتناول المسألة فى كتابه ( المفتاح ) ويسوقها من بين المطاعن على القرآن ليردها فيقول : " ومنها أنها — يقولون لا شبهة فى أن التكرار شىء معيب خال عن الفائدة ، وفى القرآن من التكرار ما شئت ، ويعدون قصة فرعون ونظائرها ، ونحو : نبأى آلاء ربكما تكذبان ، وغير ذلك مما ينخرط فى هذا السلك ، فيقال لهم : أما إعادة المعنى بصيافات مختلفة فما أجهلكم فى عدها تكرارا وعدها

من عيوب الكلام .

اذا محاسنى اللاتى أدل بها كانت ذنوبى فقل لى كيف اعتذر

١- ص ٥١ اعجاز القرآن للباقلانى

٢- ص ٨٨ المرجع السابق

٣- منهاج تجديد ٢٠٧

أليس لو لم يكن في إعادة القصة فائدة سوى تبييت الخصم بلو قال عند التحدى لعجزه : قد سبق الى صوغها الممكن فلا مجال للكلام فيها ثانياً لكفت . وأما نحو : فبأى آلا \* ريكما تكذبان ، وهل يومئذ للمكذبين فطهوب به مذهب رديف يعاد في القصيدة مع كل بيت ، أو مذهب ترجيع القصيدة يعاد بعينه مع عدة أبيات ، أو ترجيع الأذكار ، وعائب الرديف أو الترجيع اما دخیل في صناعة تفنن الكلام ، ما وقف بعينه على الطائف أفانينه ، واما متعنت ذو مكابرة " (١) .

هذا رأى السكاكي في التكرار . ولكن " ان يهن الأثر في الرديف والترجيع فما أحسب احتجاجة لتكرار القصة بما قال يبين وجه ايثار القصة بهذا التكرار ، أو ايثار الجنة والنار ، وهلا كان يجي \* ذلك في القرآن كله ؟ وربما كان أقطع للمعذرة في هذا أن يجاء بقرآن ، أو قرآناً حسماً لتعلل من يتحدى !!! " (٢) .

ثم يجي \* بعد ذلك الامام يحيى بن حمزة العلوي فيتناول المسألة في كتابه ( الطراز ) ويقول ما خلاصته : أن التكرير على جهة الشرح لفوائد رسول الله صلى الله عليه وسلم والتسلية له ، فليس تكراراً في الحقيقة . وثانياً : انما كرر القصص لفوائد ، وما هذا حاله فليس تكراراً في الحقيقة . وثالثاً : لأن الله تعالى لما تحدى العرب بالآتيان بمثل القرآن ، ربما توهم متوهم أن الآتيان بمثله مستحيل من جهة الله تعالى ، فلا جرم كسر القصص ليعلم أنه غير مستحيل من جهته ، وانما الاستحالة كانت متعلقة بالخلق دونه .

ومن وجه آخر هو أن التكرير انما ورد لتأكيد الزجر والوعيد ، كقوله تعالى ، " كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لتعلمون " . ثم ان التأكيد مستحسن في لغة العرب ، فلهذا وردت هذه التكريرات على جهة التأكيد ، ولو كان ما أتى به مخالفاً لأساليب العرب في كلامهم لكان ذلك من أعظم المطاعن لهم ، فلما سكتوا عن ذلك دل على بطلان ما زعموه من

١ = ص ٢٤٧ من المفتاح

٢ = مذهب تجديد ص ٢٠٨

من الطعن بالتكرير (١) .

ويعلق الخولى على ذلك بقوله : ان العلوى تحدث " عن تكرار القصص فقط ، وفى القرآن مكررات أخرى ، كالذى ورد فى قول الجاهظ من الجنة والنار ، بل كالذى يذكره هو نفسه — أى العلوى — من تأكيد الزجر والوعيد . ثم دفع توهم أن الله لا يستطيع الاتيان بمثلته مطلب ليس قريبا ، والتوهم غريب ، وان يكن فليس يكون فى القصص فقط ، فقد استطاع الاتيان بمثل القصص ، ولا استطاع الاتيان بمثل الأحكام مثلا . ثم ليس سكوت العرب عن الطعن مانعا من أن يذكره من تأخر عنهم ، ولا فيه دليل على بطلان ما زعم المعترض به ، ما دامت اللغة وأدبها من نصيب من يستعملها ويعاجز فيها (٢) .

وفى العصر الحديث جاء الأستاذ الرافعى ليكشف عن سر التكرار فى القرآن فقال : " فانه فى الحقيقة سر من أسرار الأدب العبرانى بهجرى القرآن عليه فى أكثر خطابهم خاصة ، ليعلموا أنه وضع غير انسانى ، وليحسوا معنى من معانى اعجازه فيما هم بسبيله ، كما أحس العرب فيما هو من أمرهم ان كان أبلغ البلاغة فى الشعر العبرانى القديم أن تجتمع له رشاقة العبارة وحسن المعروض ووضوح اللفظ ، وفصاحة التركيب ، وابانة المعنى ، وتكرار الكلام لكل ما يفيد التكرار ، توكيدا ومبالغة وابانة وتحقيقا ونحوها ، ثم استعمال الترادف فى اللفظ والمعنى ، ومقابلة الاضداد وغيرها ، مما هو فى نفسه تكرر آخر للمحسنات اللفظية ، وتحسين للتكرار المعنوى " (٣) .

ويقول الأستاذ الخولى : ان هذا البيان لا يكتفى فى توجيه هذا الحديث العام عن شئون فى الأدب العبرانى ، ولا يكون القول فيها بمثل هذا التعجل والالمام القاصر ، ولا ذاك التعميم ومجمل الكلام . ثم كيف كان هذا التكرار سرا لم يدركه الا اليهود الذين عنوا به ، وانه ان ذاك لما تجد العرب غرابته ويصح الطعن به ما دام قد خرج مخالفا لمألوفهم نابيا عن طريقه فى

١- انظر رأى العلوى ملخصا فى مناهج تجديد ص ٢٠٨ ، ومفصلا فى الطراز

ج ٣ ص ٤٤٤

٢ مناهج تجديد ص ٢٠٨ و ٢٠٩

٣- اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٥٦ و ٢٥٧

مخاطبتهم \* \* \* والجاء حفظ نفسه حين يحلل بهذا تكرار ما خاطبت به يهود ، يذكر أن في القرآن تكرارا لشئون أخرى من الثواب والعقاب وليست هذه مما يخص به بنو اسرائيل ، أو يفردون بادراك سره (١) .

" تلك آراء في التكرار أشعر أنها لا تزال تفسح مكانا لمحاولة تحليل يقوم على اعتبار نفسى انساني عالى ، تؤيده شواهد من أحوال النفس البشرية واتجاهاتها ، ولعله يصح أن يكون من وجه ذلك ما يسوقه النفسيون من : أن التكرار من أقوى طرق الاقناع ، وخير وسائل تركيز الرأي والحقيقة في النفس البشرية ، على هيئة وفي هوادة ، دون استثارة لمخالفاتها بالجدل أو المشادة في نظم البرهان والتعرض البادى للاستدلال ، الذى آخر ما يسوق علماء النفس على ذلك من شواهد ومثل عملية تفنى عن (٢)

اختراع الوجوه في تحليل التكرار القرآنى ، وجعله مثار الجدل والاختلاف .

وأخيرا فان هذا - الاعجاز النفسى - وجه من وجوه الاعجاز لم ينفج بعد ، فهو ما يزال فكرة فى بدايتها ، تحتاج الى كثير من الدراسة والبحث ، فلعلها بعد ذلك تصبح الوجه المفضل من وجوه الاعجاز .

---

١- منهاج تجديد ص ٢١٠ .

٢- المرجع السابق .

## الفصل الثاني

### الاعجاز العلمي :

ظهرت في العصر الحديث نزعة علمية حاولت أن تحلل الاعجاز القرآني بأسباب علمية ، هدفها اثبات مساهمة القرآن لكل ما يجد من مكتشفات ومخترعات .

ويقول د . حفي شرف : لحل السرفى هذا الاتجاه بفكرة إعجاز القرآن ، وتفسيره التفسير العلمى راجع الى رد الفعل الحنيف الذى أحدثه الاتصال بأوروبا وامتزاج الثقافة العربية والإسلامية بالثقافة الأوروبية ، وكذا ما بهر العلماء من علوم ومخترعات حديثة ، فحاول هؤلاء المفكرون أن يرجعوا الى تراثهم العربى الإسلامى مستنبطين منه أصول هذه العلوم ، وخشوا اذا هم لم يفعلوا أن يظهروا القرآن غير مسير للزمن فى أعين أنصاره ومتبعيه ، وأن تتزعزع العقيدة فى قلوب أناس بهرهم زنج المدنية الحديثة ولا أولئك (١) .

وقد عارض بعض العلماء هذا الاتجاه فى تفسير آيات القرآن الكريم ورأوا أن نصوص القرآن يجب أن تكون بعيدة عن هذا التفسير العلمى ، لأن النظريات العلمية لا تكاد تأخذ صفة الثبوت والاستقرار ، فقد تثبتت القضية الكونية لدى جيل من الأجيال حتى تصبح أمرا ثابتا لا يجوز عليه الاختلاف ، ثم يأتى جيل آخر وينقض ما أثبتته الجيل الأول ، وبذلك تتعرض النصوص القرآنية للتأويلات المختلفة ، وبذلك تصبح الآية الواحدة دليلا للآيات فى زمن ، والنفى فى زمن آخر ، وهذا عبث يجب أن ننزه كتاب الله تعالى عنه (٢) .

هذا وقد أصدر كتاب الهلال عددا خاصا عن القرآن حافلا بأقلام عديد من العلماء الذين تناولوا هذه الناحية من الاعجاز العلمى . ففى ديسمبر سنة ١٩٧٠ م وكذلك فى أعداد مختلفة من الرسالة ومجلة الزهر . وقد ذهب كل من الفريقين يومئذ رآيه ويرجح وجهة نظره : فالذين يرون أن يفسر القرآن تفسيراً علمياً تؤيده النظريات المستحدثة

يحتجون بأن القرآن ليس للحرب فقط حتى يكون اعجازه بلاغيا يلمس  
الفصحاء وخدامهم ، ويدركه من فهموا أسرار البيان العربي من ذكر وحذف  
ووصل وفصل ، ولكنه اعجاز بشرى يشمل الناس كافة من أسيويين وأوربيين  
وأفريقيين ، وهو لا الحسم من غير الحرب يستطيعون أن يفهموا  
نواحيه العلمية والنفسية والاجتماعية ، فلو اقتصر الاعجاز القرآني على الوجه  
التشريحي أو البلاغي لفات هؤلاء جميعا أن يروا أقباسا وضئيفة من  
نور الله ، كما أن القرآن الكريم ليس خاصا بجيل واحد من الأجيال ، فتعصر  
تفسيره فيما يروى عن الصحابة والسلف من الأقوال ، ومن حق كل جيل  
أن يفهم منه ما يمتد إليه بحثه العلمي والنفس والاجتماعي من استنباط  
وقياس . فإذا حاول أبناء القرن العشرين أن يجدوا في بعض آياته تعظيدا  
لما سطحت به الفتوح العلمية من حقائق فإنهم بذلك يزدادون إيمانا  
مع إيمانهم . وهذا كسب كبير للنصوص الدينية في عهد يفيض بالشكوك ويمتلئ  
باللحاد . على أن هؤلاء الملاحدة المتشككين لا يجدون حجة يستطيعون  
بها على المؤمنين إذا وجدوا الحقائق العلمية تؤيد ما يتشككون فيه من  
هدى كريم ، فتخرس ألسنتهم أمام الحجج الساطعة ، ويجسد كتاب  
الله من النظريات الثابتة أسسا تدعمه ، وأركاناً وطيدة تقويه وتحليه .  
هذا هو أهم ما يحتج به أنصار التفسير العلمي للقرآن ، وأوردنا الاستاذ  
محمد أحمد الخمراوى أكثر من مرة في أعداد مختلفة من الرسالة (١) .  
وقد وضع الأستاذ الخمراوى حدودا وقيودا لهذا التفسير العلمي فقال :

يجب أن ننبه الى أمرين مهمين (٢) :

الأول : أنه لا ينبغي في فهم القرآن أن نحدل عن الحقيقة الى المجاز  
الا اذا قامت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ وتحمل على مجازه ، لأن  
مخالفة هذه القاعدة قد أدى الى كثير من الخلط في التفسير .

أما الامر الثاني : فهو أنه ينبغي ألا نفسر كونهات القرآن الا باليقين  
الثابت من العلم ، لا بالنظريات ولا بالفروض ، لأن الحقائق هي سبيل التفسير

الحق هي كلمات الله الكونية ينبغي أن يفسر بها نواتها من كلمات الله  
القرآنية ، أما الحدسيات والظنيات فهي عرضة للتصحيح والتعديل ان لم  
يكن للابدال في أى وقت •

وقد جاء الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى - رحمه الله - بقيد  
ثالث حين قال : " يجب ألا نجر الآية الى العلوم كي نفسرها بولا العلوم  
الى الآية كذلك ، ولكن ان اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرلها  
بها " (١) •

ويمكن للقارئ أن يأخذ هذا للقيد مستشفا من خلال القيديين  
السابقين الا أننى أثرت أن أسجله صريحا واضحا ليكمل التوجيه المحتوم  
لمن يتعرض الى كتاب الله بتفسير علمى رشيد (٢) •  
أمثلة توضيحية للاعجاز العلمى :

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام : " ان الله فالق الحب والنوى يخرج  
الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى توفكون " •  
هذه الآية الكريمة اذا تعرض لتفسيرها رجل الدين فانه لا يرى  
فى معناها أكثر من المعنى الظاهرى الذى يتمثل فى أن الله سبحانه  
وتعالى هو الذى يهيمن بقدرته على مصير الحبة الباقية والنواة الساكنة  
فيحب كليهما الحياة وتنشق كل منهما عن جنين أو بادرة صغيرة فيهما  
حياة بعد سكون ، فنراها وقد ارتفع ساقها الى الشمس والهواء واتجه  
جذرها الى الأرض باحثا عن عناصر الغذاء • هذا هو المعنى الظاهرى •  
ومع أنه صالح لأن يشير مكانا للفكر عند الرجل العادى ، ويوضح له عظمة  
الله فيما خلق ، ويريد كيف أن الحبة الصغيرة أو النواة الضئيلة تنفلق  
وتنشق عن شجرة ضخمة أو نخلة عذيمة أكبر بملايين أو بلايين المرات من هذه  
البذرة التى قد يحمل منها الحشرات على أحد كفيه • مع ذلك فان رجل  
الحلم يرى فيها قولا عميقا راسخا رسوخ الجبال الراسيات •  
لقد عرفنا مثلا عن طريق العلم أن للحبة أو نواة البلحة نوى من داخل  
نوى وأنه جميعا ينفلق وفى فلقه تكمن فكرة الموت والحياة •  
ولكن ما المقصود بالنواة ؟ انها لب الشئ أو وسطه أو مركزه ••



فلكل شيء في الكون مركز أو نواة ، ولا يقتصر هذا على دوائرنا القاصية  
في نواة البلعة أو ما يشبهها كما يذهب البعض في التكثير والتفسير ، ولكننا  
نرى فيها صورا رائعة نستطيع أن نهمل من مواردها الكثير .. ثم اذا بنا  
في النهاية نرى وحدانية الخالق تتجلى لنا في وحدة خلقه من أصغر  
الأشياء الى أكبرها ..

فلذرة نواة تتوسطها وتسيطر على شخصيتها ، لأنها هي الأساس  
وقد تنفلق النواة أو تتشطر ثم تلتحم .. وهي الأساس الذي تقوم عليه  
حياة شمسنا من قديم الأزل ، كما أن الاضواء أو الانوار التي تنتشر  
في كل أرجاء الكون من بلايين البلايين من النجوم أو الشمس ولبلابيين  
السنين انما تقوم أساسا على هذه العملية .. فحياة الشمس كجرم سماوي  
منير تعتمد على عملية انفلاق والتحام في نوى ذراتها ، وهو ما نعتبره  
بالطاقة الشمسية أو النجمية ، ولو توقفت لتوقفت حياتها وحياتنا تبعاً لذلك .  
اذن فهناك موت وحياة على المستوى الذري ، وكذلك على المستوى  
الشمسي أو النجمي ..

والخلية الحية في كل المخلوقات نواة تتوسطها ، وتهيمن على كل أسرار  
الحياة فيها .. وهي بدورها تنفلق أو تنقسم ، ولولا هذه العملية لما  
تكاثر المخلوقات على هذا الكوكب .

ولقد بدأت حياتنا بخلية ملقحة جاء نصفها من الأب ونصفها من الام ،  
فأصبحت واحدا ، والواحد ينقسم الى اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر ..  
ف .. فمليون فعشرات ومئات وآلاف الملايين .. فلق من وراء فلق لتتكاثر  
الخلايا وتنمو وتتميز الى أنسجة وأعضاء .

اذن فلا بد أن تنفلق النواة .. ولكن من وراء هذا الفلق فلق آخر  
في مكونات النواة ذاتها ، في أشياء تبدو لنا من خلال عدسات (الميكروسكوب)  
كحلق أو دود صغير ، في كل خلية من الخلايا الجسدية ٤٦ من هذا الحلق  
الدقيق ، وهذا الحلق هو عبارة عن مكونات يطلق عليها اسم (الكروموسومات)  
أو المورثات وكأنما كل كروموسوم منها بمثابة نواة أصغر في داخل نواة أكبر  
لان الكروموسوم ينفلق أيضا عند كل عملية انقسام الى نصفين ، ثم يكمل كل

نصف نفسه ليصبح واحدا •

ومن هذه العملية ينتج لنا ٩٢ كروموسوما يهاجر نصفها الى أحد قطبي الخلية والنصف الآخر الى القطب الثاني • • وعند كل قطب تتكون نواة جديدة بها ٢٦ كروموسوما ثم تبنى الخلية الأم بينهما حاجزا أو جدارا • • وبهذا تصبح الخلية الأم خليتين جديدتين تنمو كل منهما وتكبر لتصبح - أما - ثم تنقسم من جديد وهكذا تسير الأمور •

اذن ففي الخلية فلق أو انقسام بعد فلق النواة • • وفي النواة فلق وانقسام بعد فلق الكروموسومات • • ولكن السر لم ينته عند هذا الحد لأننا عندما ننظر الى الكروموسوم من خلال عدسات الميكروسكوب الضوئية فاننا لا نرى الا الظاهر أما الباطن فلا يزال عن عيوننا وعيون ميكروسكوبنا تماما غامضا أشد الغموض • • والى هنا تظهر أجهزة الحلم الحديث وأدواته المتطورة الدقيقة ، ومنها الميكروسكوب الإلكتروني الذي يكبر مكونات النواة بدرجات فائقة ، فبرينا تفاصيل أدق وأسرار أعظم وكأنما في داخل الكروموسوم نوى جديد تجرى عليه عملية الانفلاق كما هو الحال في فلق خلية ونواة وكروموسومات •

ان أقرب تشبيه يمكن أن نقدمه لتوضيح الصورة هي أن نتصور (سوستة) الملابس التي نفتحها فتتفرج الى نصفين ثم نخلقها فتصبح على هيئة شريط متقل • كذلك وجد العلماء أن في الكروموسوم أشياء أشبه بأشرطة مجدولة وعندما يريد الشريط أن يضاعف نفسه ، أو أن يخلق نسخة من ذاته فانه ينفلق الى نصفين ، وعلى كل نصف أن يكمل نفسه ليصبح واحدا •

بقي أن نحرف أن شريطنا هذا ليس الا جزئيات عملاقة من الأحماض النووية - نسبة الى نواة - أو أنه شفرتنا الوراثية ، أو هو بمثابة كتابنا المكتسوب داخل نواة الخلية لكي تتحول معلومات من البداية الى أوامر كيميائية تبني لنا البروتينات وهذه بدورها تسيطر على كل العمليات الحيوية التي تجرى في ملايين الملايين من خلايا الجسم •

والموضوع بعد ذلك طويل جدا وعلينا أن نمود الى هذا الجزء من الآية •

فالق الحب والنوى :

رأينا من اللامضات الخفيفة التي قدمناها أن الفلق ليس مقصودا  
على تلك الصورة الظاهرية التي تعرض لها المفسرون من قبل ولكنه يتحداها  
الى خلية في نواة بلحة أو أى مخلوق نشأ ، ثم الى نواة فى قلب خليصة  
ثم الى كروموسوم فى نواة خلية ، ثم الى جزئيات وراثية فى كروموسوم نواة ••  
وكلها تسير بكفاءة واحدة وهدف واحد وجميعها يسرى بنظم رائعة وقوانين  
متقنة فاذا بنا نقف خاشعين متعبدين أمام هذه القدرة وهذا الجلال •  
واذا بالسواس كلها تكاد تصرخ من الأعماق : هنا فى الأرض نرى  
عظمة الله هناك فى السموات نرى جلاله •• وكلما تعمقنا وجدنا سبر  
اعجازه فى نواة ذرة •• فى نواة جزيء •• فى نواة خلية •• فى كل ما  
يحيط من مخلوقات حية وساكنة •• صنع الله الذى أتقن كل شئ ••  
ولكن ما يدرينا أن هذا القوى هو ما يعنيه القرآن ويقصده ؟  
لسنا فى الواقع ندري ، ولا نستطيع أن نوكد تمشيا بذلك مع روح العلم ••  
ولكن يكفى أن نقول : ان كثيرا من الآيات القرآنية قد جاءت مكتشفة  
بالإشارة والتلميح دون الاسهاب والتوضيح •• ذلك أن القرآن كتاب  
دين وعقيدة فى المقام الأول ، وليس من المحقول أن يتعرض لكل هذه  
الأسرار خاصة وأنه قد نزل على أعراب ليس لهم معرفة أو درايسة  
بنوى ذرات وجزئيات وخلايا وكروموسومات ، ولكن الحبة ونواة البلحة تناسب  
تفكيرهم •• وهى فى نفس الوقت تناسب تفكير القرن العشرين أو ما بعد  
العشرين ، فلقد تركت الآية دون تحديد ومع ذلك فانت تستطيع أن تحدد  
معناها بقدر ما تحمقت فى نظام الخلق ، وهى أيضا مازالت تناسب رجس  
الشارع والمزارع والأعراب ورجل الدين والعلم فسر اعجاز القرآن أنه صالح  
لكل مستويات التفكير عند الانسان • (١)

" واذا كانت بعض الآيات الكونية لاتزال فى دور التطبيق الصريح  
فان أكثر الآيات الطبية قد وجدت من العلم نصيرا مجندا ، فأصبح من  
الاعجاز العلمى للقرآن أن نقرأ قوله تعالى : والمطلقات يتربصن بأنفسهن  
ثلاثة قروء ، وقوله : والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن

---

١- راجع : علماء الطبيعة كيف يقرءون القرآن ؟ للدكتور عبد المحسن صالح  
الهلال عدد خاص عن القرآن ديسمبر سنة ١٩٧٠م ص ٢٨ - ٣٨

أراد أن يتم الرضاة ، وقوله : فليُنظر الانسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب • ونحو ذلك مما انبسط فيه مجال القول للمتخصصين فكان احدى معجزات القرآن الكريم (١) • ويرى الدكتور مصطفى محمود فى كتابه عن القرآن أن الآية الكريمة " يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل " هذه الآية لا يمكن تفسيرها الا أن نتصور أن الأرض كروية • • ويشرح الآية الكريمة : " ثم (٢) ان علينا بيانه " بأن الله عز وجل سوف يشرحه ويبينه فى مستقبل العصر • هذا هو رأى الفريق الاول الذى يرى أن القرآن ليس وفقا على اللغويين وعلى رجال الدين وعدهم ، وانما هو دائرة معارف يجب أن يشترك فى محاولة فهمها العالم والمتدين والفلكى والكيمائى وغير ذلك من العلماء المتخصصين فى فروع الثقافة الانسانية المتنوعة •

أما الفريق الآخر فيعارضون التفسير العلمى ، ويذهبون الى أن القرآن قد خاطب العرب أول من خاطب من الناس وهم قوم أميون لا يحتاجون فى فهم النصوص المبرحة الى التخلخل فى العلوم الكونية والرياضيات الهندسية وقد واجههم القرآن بما فى مقدورهم أن يستوعبوه من الكلام فأدى رسالته معهم على أحسن وجه يحتاج اذ فهموا مبادئه ودرسوا شرائعه دون أن تكون لهم حاجة الى نظرية علمية أو فلسفية كونية ، فعلى المفسرين أن يفهموا من القرآن ما فهمه العرب الاوائل اذ أن كتاب الله لسان هداية ومدار توجيه أنزله الله على نبيه ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، لا ليتحدث عن أسرار البرق والرعد والمطر والرياح ، ولا ليحدد مواضع الشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال ثم ان النظريات العلمية فى الكون - كما أشرنا سابقا = لا تستقر على حال فقد تثبت القضية الكونية لدى جيل من الأجيال حتى تصبح أمرا بديهيا لا يجوز فيه الاختلاف ، ثم يدور الزمن فيجد من النظريات ما يقلب الأولى رأسا على عقب ، فاذا فسرنا القرآن بمقتضى النظر العلمى فاننا

نجعله ميدانا للتأويل المتناقض المضطرب حتى ليجوز أن تتخذ من الآية الواحدة دليلا للاثبات في زمن والنفي في زمن آخر • ومثـــــــل ذلك عيـث بالغ يجب أن يتنزه عنه كتاب الله (١) •

ومما جعل الأذان تصفى كثيرا لهذا الفريق أن أناسا ممن لا يجمعون بين النظر الدائب والعلم الصحيح قد دفعهم حب الابتكار الى تفسير بعض الآيات تفسيراً بدائيا لا يستند الى دليل ، فعين يظهر مكتشف ما من المكتشفات يسارع هو **السطحيون** فيقتطعون من كتاب الله ما يوهم صاحب النظر المتسرع أنه يسير مع المكتشف الحديث ، يملئون الصحف هراء بمحالاتهم الكاذبة واقتياتهم المقيت ، ويدعون عند ذلك أن كتاب الله قد ألقى اليهم بأسراره ، فهم قديرون على أن يستنبطوا منه قضايا العلم الحديث ، وينسون أنهم في تحملهم الكاذب يخطون خبط عشواء •

وجد أحد هؤلاء يتحدث عن التصوير الشمسي فيستدل بقوله تعالى : " ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا " أو يتحدث عن القمر الصناعي فيستدل بقول الله : " اقتربت الساعة وانشق القمر " أو يلزم بآلة التسجيل الهوائى للاصوات فيستشهد بقوله تعالى : " وكل انسان أزمانه طائره فى عنقه " أو يشير الى تحطيم الذرة فيقرأ قول الله : " وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمرمر السحاب " •

من أجل ذلك كتب فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ردا واقفا يفند به ما ذهب اليه هؤلاء الأذعياء من تحسف مقيت ، وبسسط الحجج المقنعة على فساد نظريهم الطائش واستدل بالنقل والعقل على شططهم الكريه ثم قال فى ختام حديثه :

فلندع للقرآن عظمتة وجلاله ، ولنخلق عليه قدسيته ومهابته ولنعلم أن ما تضمنه من الاشارة الى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة انما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ، وحسبنا أن القرآن لم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطمئن اليها العقول (٢) •

### الفصل الثالث

#### الاعجاز العددى

هذا وجه آخر جديد من وجوه الاعجاز طال المنا به حديثا الاستاذ  
عبدالرزاق نوفل ألا وهو الاعجاز العددى فى القرآن الكريم .  
وهذا الوجه من الاعجاز - كما يقول - وجه قاطع فان دليله العدد  
والحساب ، والعدد لا يختلف والحساب لا يخطئ .  
وهذا الوجه من الاعجاز لا يمكن لأى باحث أو دارس أو قارئ  
أن يستعرضه الا يؤمن الايمان الكامل المطلق أن هذا القرآن لا يمكن  
الأ أن يكون وحى الله سبحانه وتعالى لآخر انبيائه وخاتم رسله  
لأنه شئ فوق القدرة ، وأعلى من الاستطاعة ، وأبعد من حدود العقل  
البشرى . ان التوازن والتناسق العددى فى موضوعات القرآن الكريم  
لا يمكن أن يكون مصادفة قديمة ، أو واقعة عشوائية ، أو حادثة عفوية  
لأنه توازن مقصود وتناسق غير محدود .  
ترى أى قوة أو طاقة بشرية ، أو ما كانت من الأجهزة الحاسبة ، والعقول  
الالكترونية ، يمكنها أن تحدد هذه الأعداد المتساوية فى ألفاظ الموضوعات  
المتشابهة ، أو المماثلة ، أو المترابطة ، أو المتناقضة . . ثم توزعها  
هذا التوزيع الدقيق منفردة ومتباعدة فى مختلف آيات القرآن الكريم  
التي يبلغ عددها بضع مئات وست آلاف آية . . وتأتى الآيات بعد ذلك قمة  
فى البلاغة والبيان وروعة فى الصياغة والاتقان . . ترى اذا كان لا يمكن  
ولو تعاون البشر اجمعون ، فكيف بالأمر ان كان هذا الفرد من الأميين  
صلى الله عليه وسلم .  
ان التساوى فى عدد الألفاظ لموضوع بعدد الألفاظ لموضوع آخر مما  
يشير الى أكثر من أمر . . وما أخطرها من أمور ، ويوضح أكثر من حقيقة  
وما أجملها من حقائق .  
لهذا طالبنا القرآن بالتدبر فى آياته والتذكر والتفكر فى أوجزه  
معجزاته ، وتقول آياته الشريفة : " كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا

آياته وليتذكر أولوا الالباب " (١) ، " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " (٢) .

وقد أوضح التدبر في آياته أنها معجزة بلاغية ، ودعوة أخلاقية ، ثم ثبت أنها مراجع تشريعية وأصول قانونية ، وأخيرا قرر العلم أنها تسبقه فسي ايرادها للحقائق العلمية . . . وهذا نحن اليوم نجد بالتدبر وجهها جديدا من اعجاز القرآن الكريم . . . انه الاعجاز العددي . . .

ها هو ذا القرآن الكريم يميزه - ضمن ما يتميز به - التساوى والتوازن والتناسق والتناسب العددي ، شأنه في ذلك شأن كل ما خلق الله من موجودات كونية ، أفلا يكون قطعا وصدقا وحقا ويقينا هو وحى الله المنزل على خاتم رسله وأنبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . . ويكـون بذلك هذا التساوى والتناسق والتوازن وجهها جديدا من أوجه الاعجاز الحديدية التي تكشف عنها التدبر والتفكير والتأمل . . . الا أنه وجه لا تختلف في نتيجته الآراء ، ولا تتعدد الاتجاهات ، فهو ليس بتفسير أو تأويل - تتعارض فيه الاجتهادات ، وتتباين النظريات ، ولكنه حساب وأرقام وحقائق الحساب دائما قاطعة ، وشواهد الأرقام أبدا دامغة (٣) .

وعين خرج الجزء الأول من " الاعجاز العددي " الى الوجود ، انقسم العلماء الى فريقين . . . فريق يعارضه ويرى أن الاعجاز العددي للقرآن فتنة جديدة تقوم على المغالطات والأوهام ، وأن هذا الاعجاز من شأنه أن يحول القرآن الى كلمات متقاطعة . . . الخ . . . وفريق آخر يؤيده ويرى أن هذا الاعجاز العددي رد دامغ على الملحدين الذين لا يؤمنون الا بالأرقام والحساب والأعداد التي لا تقبل الشك أو الجدل . من الفريق الاول : الشيخ عبد الجليل عيسى ، والاستاذ عبد الكريم الخطيب .

ومن الفريق الثاني : الشيخ عبد الرحيم فودة ، والعالم المجاهد الشيخ عبد الحميد كشك ، والشيخ صلاح أبو اسماعيل ، والشيخ عبد الرحمن البنا ، ولقيف من عمداء وأساتذة ورجال جامعة الأزهر الشريف ، والدكتور مصطفى محمود الذي اعتبر هذا الاعجاز فتنة جديدا في ميدان الدراسات

١ - ٢٩ من سورة ص .

٢ - ٢٤ من سورة محمد .

٣ - راجع خاتمة الاعجاز العددي ج ١ ص ١٨١ - ١٩٢ ط ٢ .

## القرآنية (١) •

ونظرا لهذا التشجيع الكبير من الأساتذة والعلماء أخرج الأستاذ عبد الرزاق نوفل ثلاثة أجزاء في الاعجاز العددي للقرآن الكريم • وقال في خاتمة الجزء الثاني :

هذا التساوي العددي في الموضوعات التي يتضمنها هذا الجزء الثاني ، بالإضافة إلى التساوي في الموضوعات السابق ايضاحها في الجزء الأول ، إنما هي مجرد أمثلة وشواهد وعبارات وإشارات ، فما زالت الموضوعات المتشابهة أو المترابطة أو المتناقضة المتساوية الأعداد أو المتناسقة الأرقام تفوق الحصر ولا تدركها الطاقة • والبحث في الأعداد ذاتها ومناقشتها ، بل مجرد النظرة العابرة لها ، يقود الإنسان إلى جانب آخر من جوانب هذه المعجزة العددية يزيد بها وضوحا وإشراقا وعمقا وبعدا •

فإن الأرقام التي ورد بها التساوي في الموضوعات مختلفة عن بعضها جدا ، ومتباعدة الواحدة عن الأخرى شوطا ، فليست المعجزة العددية قاصرة على قلة من الأعداد تتكرر في كل موضوعات القرآن الكريم ، إذ أن كثرة الأعداد واختلافها تزيد من عمق المعجزة ، وتوضح مدى قدرها ، فمثلا كانت الأعداد التي تساوت بها موضوعات الجزء الأول من الكتاب هي :

١٤٨ - ١٤٥ - ١١٥ - ٨٨ - ٧٠ - ٥٠ - ٤٥ - ٣١ - ٢٧ - ١٣ - ١٠ - ٧ - ٥ - ٤ - ١٨٠ - ٣٦٨ - ٨١١ •

وهذه أعداد تختلف بعضها عن بعض كثيرا ، فهي مثلا تبدأ من ٤ وتنتهي بالعدد ٨١١ وتكون ١٧ عددا تساوت به هذه الموضوعات • والأعداد الجديدة التي تساوت بها موضوعات هذا الجزء الثاني هي :

٦ - ١١ - ١٢ - ١٤ - ١٦ - ١٧ - ٢٣ - ٢٥ - ٣٢ - ٣٧ - ٤١ - ٤٩ - ٦٠ - ٦٢ - ٦٨ - ٧٣ - ٧٥ - ١٢٢ - ١٥٤ •

وهي أيضا أعداد كثيرة تبدأ من ٦ وتنتهي بالعدد ١٥٤ ولم تتكرر في المجموعة الأولى • • فالأمر إذن ليس في بضعة أعداد تتكرر بها آيات



القرآن الكريم وإنما لكل موضوعين أو أكثر عدد خاص بها •••••  
سبحان الله •

ويرى الأستاذ عبد الرزاق نوفل أن هذه الأرقام لها دلالات خاصة وذات أسرار هامة ، ويتساءل في أي جيل سيكون الفتح بسر هذه الأرقام • ويقول : ان أمر الاعجاز العددي أبعد مما يرى وأعق مما يتصور وأسمى مما يثان ، فهناك الأسرار التي ما زالت تحتاج الى جهد جهيد وفتح مبين ، وان بدأت بعضها في الاشراف فانما هي علامات على الطريق أو أضواء بين يدي نور عظيم ••••• ولكن لما نريد اعلاؤه هو أن هذا التساوي الرهيب ، وهذا التناسق الصجيب في كل موضوعات القرآن الكريم والفاظه يقطع بلا أدنى شك أو جدل أن القرآن وحى الله سبحانه وتعالى ••••• فما كان لرسول الله وهو الأسمى ••••• ولا للعلماء في زمانه ••••• ولكل علماء العالم ولو اجتمعوا في مختلف الأجيال ايجاد هذا التساوي والتوازن في هذه الموضوعات بهذا القدر وهذا الاعجاز • اعرضوا هذه المعجزة على الآليات الاحصائية ، والحقول الحاسبة ، لتسمعوا الرد القاطع والجواب الواضح :

" لا اله الا الله • محمد رسول الله ••••• حقا وصدقاً " •  
( ١ )  
" كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " ( ١ من سورة هود ) •  
أمثلة من الاعجاز العددي في القرآن الكريم :

#### الدنيا والآخرة :

لقد تكررت الدنيا في القرآن الكريم ١١٥ مرة وذلك بمثل النص الشريف :  
" وما الحياة الدنيا الا متاع الزور " ( ١٨٥ آل عمران ) •  
وتكررت الآخرة نفس العدد أي ١١٥ مرة وذلك بمثل النص الشريف :  
" ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة " ( ١٠٣ سورة هود ) •  
رغم أنهما لم يجتمعا في أكثر من حوالى ٥٠ آية في مثل النص الكريم :  
" وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا " ( ٧٧ القصص ) •

وانفردت الدنيا في آيات ، والآخرة في آيات أخرى ، ورغم ذلك يتساوى عدد مرات ورود كل منهما ١١٥ مرة الدنيا ، و ١١٥ مرة الآخرة في كل آيات القرآن الكريم (١) .

الصيف والحر . . والشتاء والبرد :

تساوى عدد مرات ذكر الصيف والحر بعدد مرات ذكر الشتاء والبرد في القرآن الكريم رغم اختلاف ورودهما في آياته الشريفة إذ لم يجتمعا في آية واحدة سوى مرة في النص الشريف :

" لا يلاق قريشاً يلاقهم **ربطة الشتاء والصيف** " ( ٢ من سورة قريش ) .

ولم يرد بعد ذلك لفظ الشتاء أو مشتقاته ولا الصيف ومشتقاته ، فيكون الصيف ذكر مرة واحدة ، والشتاء ذكر أيضاً مرة واحدة .

ولقد ورد الحر مرتين في مثل النص الشريف : " وجعل لكم سراويل تقيكم الحر " ( ٨١ من سورة النحل ) ، ومرة واحدة بلفظ حرا في النص الكريم " قل نار جهنم أشد حرا " ( ٨١ من سورة التوبة ) ، وأيضاً مرة واحدة بلفظ الحرور في قوله تعالى : " وما يستوى الأعشى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور " ( ٢١ من سورة فاطر ) .

وبذلك يكون الحر قد ورد ٤ مرات .

وورد البرد بلفظ بردا مرتين في مثل النص الكريم : " قلنا يا ناركوني بردا وسلاما على إبراهيم " ( ٦٩ من سورة الأنبياء ) .

وكذلك ورد بلفظ بارد مرتين في مثل النص الشريف : " اركض برجلك هذا **مغسسل بارد** وشراب " ( ٤٢ سورة ص ) .

ويكون البرد قد تكرر ٤ مرات قدر ما تكرر الحر .

وأن الصيف والحر تكرر ٥ مرات ، قدر ما تكرر الشتاء والبرد تماما (٢) .

الشياطين والملائكة :

تساوى عدد مرات ورود لفظ الشيطان وعدد مرات ورود لفظ الملائكة

في القرآن الكريم ، فقد تكرر لفظ الشيطان ٦٨ مرة في مثل النص الشريف :

١- الإعجاز العددي ج ١ ص ١٣

٢- المرجع السابق : ص ٥٥ و ٥٦

" ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا " ( ٦ من سورة فاطر ) .  
وتكرر لفظ الملائكة ٦٨ مرة أيضا في مثل النص الكريم : " اذ يوحى ربك الى الملائكة ائني معكم " ( ١٢ من سورة الأنفال ) .  
وبلفظ شيطاننا في آيتين في مثل النص الكريم : " ان يدعون الا شيطاننا مريدا " ( ١١٧ من سورة النساء ) .  
وبلفظ شياطينهم مرة واحدة في النص الشريف : " واذا خلوا ليس شياطينهم قالوا انا معكم " ( ١٤ من سورة البقرة ) .  
وهنا يتصدى سؤال : هل المراد بشياطينهم في هذه الآية : الشياطين الحقيقية المقابلة للملائكة أم المراد بها رؤساء المنافقين ؟  
وقامت معركة بين الشيخ عبد الجليل عيسى وبين الأستاذين عبدالرزاق نوفل وعبدالرحيم فودة حول عد الشياطين في هذه الآية من الألفاظ المقابلة للملائكة :  
قال الشيخ عبد الجليل عيسى : ان المؤلف اذ يقابل بين الاسم ونقيضه لا يلتفت الى المعنى ، فهو مثلا اذ يدل على التساوى العددي بين كلمة الملائكة وكلمة الشياطين ، يدخل لفظة الشياطين الواردة في قوله تعالى : " واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم " يدخلها في جملة عدد الشياطين ، مع أن المراد منها في الآية رؤساء المنافقين كما أنه لم يجعل المقابلة بين الملائكة وبليس ، أو بين الملائكة وبليس والشياطين ، لأن ذلك لا يحقق له المساواة العددية التي يطلبها (١) .  
ورد عليه الأستاذ عبدالرزاق نوفل وقال : اني أخالفه الرأي ففى هذا التفسير ، فتمت قرر القرآن على أى جمع أنهم شياطين فهم شياطين واحترام قول القرآن يقضى بذلك ، ولا ينسب سيادته أن الشياطين منهم شياطين الانس وشياطين الجن اذ يقول الله تعالى : " وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن " فهل بعد أن يقرر القرآن على رؤساء المنافقين أنهم شياطين نعترض ونقول بشير ما قال القرآن (٢)

١- الأخبار : عدد ١٩٧٥/٦/٢٧

٢- الأخبار : عدد ١٩٧٥/٧/٤

وأيد الأستاذ عبدالرحيم فودة رأى الأستاذ نوفل فقال : وقد قرأت مما نشر عن بعض الأخطاء التى أخذت على هذا الكتاب فلاحظت أنها هذات هينات . . . . . كإنكار ذكر الشياطين فى مقابلة الملائكة بدعوى أن المراد بهم فى قوله تعالى : " وإذا خلوا الى شياطينهم " رؤساء المنافقين ولم يأخذ فى الاعتبار أن لقب شيطان يطلق على المتمردين من الإنس والجن .

على أن الباحث لم يزعم أنه فسر معانى الكلمات حتى يؤخذ عليه قطعتها من السياق ، ولم يزعم أنه أصاب التوفيق والصواب فى كل مما كتب ، وإنما كان همه منصرفا الى اظهار وجه من وجوه الاعجاز هو كما قال : التساوى والتوازن والتناسق والتناسب العددي . فأى فتنة أو خطر فى هذا ؟ (١)

ورد عليهما الشيخ عبدالجليل عيسى ، فحقب على رد نوفل بقوله : انسى لا خجل بالرد على مثل هذه البدهيات ، ولكنى أسأل هذا العالم : هل رأى انسانا تحول الى شيطان ؟ وإذا سمع الناس يقولون : ان فلانا شيطان ، فهل يفهم من هذا أنه شيطان حقا ؟ ان الشيطان لا يظهر للناس عيانا كما يقول تعالى : " انه يراكم هو قبيله من حيث لا ترونهم " . ان هذا استعمال مجازى ، وآسف أن يدور الحوار حول هذه البدهيات . (٢)

أما رده على الأستاذ فودة فيتلخص فى قوله : ان هذا الاطلاق على متمردي الإنس لا يدخلهم بحال فى عالم الشياطين الذى هو عالم حقيقى مستقل بصورة الخلق التى خلقه الله عليها ، كما أنه لا يدخل الانسان القوى الى عالم الأسود اذا قالوا عنه : أسد فى شجاعته وقوته كذلك لا يدخل الانسان الى عالم الثعالب أو الذئاب أو الكلاب اذا قيل عنه انه ثعلب أو ذئب أو كلب أو نحو هذا مما يطلقه بعض الناس على بعض بصفة بارزة فيهم تشبه بصفة هذا الحيوان أو ذاك . (٣)

ولندع هذا الخلاف بين العلماء الأجلاء ونكتفى بذكر ما قاله الأستاذ

١- الأخبار : عدد ١١ / ٧ / ١٩٧٥ .

٢- الأخبار : عدد ١٤ / ٧ / ١٩٧٥ .

٣- المرجع السابق

نوفل من أنه قد اجتهد فان أصاب فله أجران وان أخطأ فله أجر واحد وهو لا يطمع في أكثر من هذا •

ولنستمر في عرض التساوى بين الشياطين والملائكة :

وقد ذكر الشيطان بألفاظ أخرى ٢٠ مرة اذا أضيفت الى عدد ورود

لفظ الشيطان وهو ٦٨ لا أصبح المجموع ٨٨ مرة •

وباقى الألفاظ التي تخص الملائكة فقد وردت بلفظ الملك ١٠ مرات

في مثل النص الشريف : " ولا أقول لكم انى ملك " ( ٥٠ من سورة الانعام ) •

ويلفظ ملائكته ٥ مرات في مثل النص الكريم : " ان الله وملائكته

يصلون على النبي " ( ٥٦ من سورة الأحزاب ) • ويلفظ ملكا ٣ مرات

بمثل النص الشريف : " ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر " ( ٨ من سورة الانعام )

ويلفظ الملكين في آيتين شريفتين مثل : " وقال ما بهاكما ركبا عن هذه

الشجرة الا أن تكونا ملكين " ( ٢٠ الاعراف ) •

وعدد هذه المرات ٢٠ أيضا اذا أضيفت الى عدد ورود لفظ الملائكة

وهو ٦٨ أصبح المجموع ٨٨ مرة أيضا •

وهكذا تتساوى مرات ذكر الشيطان والملائكة بالعدد ٦٨ ، وتتساوى

الألفاظ الأخرى للشيطان وهي ٢٠ مرة بالألفاظ الأخرى للملائكة وهي ٢٠

ويتساوى المجموع الكلى لكل من الشياطين والملائكة فيرد كل منهما

٨٨ مرة في القرآن الكريم (٢) •

هذا هو بعض الاعجاز العددى في القرآن الكريم الذى يراه الأستاذ

عبد الرزاق نوفل دليلا ماديا وبرهانا ساطعا على أن القرآن من عند الله ،

" ولو كان من عند غير الله لوجدود فيه اختلافا كثيرا " ، فهذا التساوى

العددى بين الألفاظ التي وردت متساوية في القرآن الكريم رغم بعد زمن

نزل الآيات واختلافها من السور لهو أكبر دليل على أن القرآن من وحى

الله عز وجل ، فما كان لرسول الله وهو الامى ، ولا للعلماء في زمانه ولا

لكل علماء الوجود ولو اجتمعوا في مختلف الأجيال ، ايجاد هذا التوازن

والتساوى في هذه الموضوعات بهذا القدر وهذا الاعجاز (٢) •

١- الاعجاز العددى : ج ١ ص ١٧ - ١٩ •

٢- المرجع السابق ص ١٥٩ •

### الاعجاز العددى فى الحروف :

اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى تبتدىء بها أوائل السور القرآنية بمثل : أ ل م ، أ ل ر ، ق • كهيعص ، • الخ •  
قال بعض المفسرين : انها من أسماء الله التى استأثر بها فى علم غيبه •  
وبعضهم كان يتلو : ا ل م ذلك الكتاب لا ريب فيه ، بمعنى أن الله يقول : من جنس هذه الحروف جئنا بذلك الكتاب الذى لا ريب فيه • ونحن نتحدى أن يأتى أحد بمثله رغم أن هذه الحروف فى ميسور الجميع •  
وقال كثرة المفسرين : الله أعلم •

لكننا فى العصر الحديث شهدنا أخيراً محاولة جريئة لاكتشاف المدلول العددى لهذه الحروف ، قام بها الأستاذ رشاد خليفة باستخدام العقل الإلكتروني ووصل الى نتائج مثيرة ••

فقد وجد بالاعضاء أن استهلال سورة بحروف معينة يقابله دائماً تفوق حسابى بمعدل توارى وتكرار هذه الحروف فى نفس السورة • وفى سورة (ق) مثلاً نجد أن الحرف ق — يتكرر فى السورة بمعدل أعلى من باقى الحروف ، ثم ان معدل فى السورة هو أعلى معدل فى سور القرآن على الإطلاق • ونفس الشئ فى ا ل م البقرة ، وأكثر من هذا تأتى المعدلات فى سلم تنازلى من ا الى ل الى م ونفس الترتيب :

ا وردت ٤٥٩٢ مرة ، ل وردت ٣٢٠٤ ، م وردت ٢١٩٥ مرة •  
نفس الحكاية فى ا ل م آل عمران :  
ا وردت ٢٥٧٨ مرة ، ل وردت ١٨٨٥ مرة ، م وردت ١٢٥١ مرة •  
بنفس الترتيب التنازلى ا ل م ، وهى تتوارد فى السورة بمعدلات أعلى من باقى الحروف •

ونفس الحكاية فى ا ل م سورة العنكبوت :  
ا وردت ٨٢٤ مرة ، ل وردت ٥٥٤ ، م وردت ٣٤٤ ، بنفس الترتيب التنازلى ، ثم هى تتوارد فى السورة بمعدل أعلى من باقى الحروف • نفس الحكاية فى ا ل م سورة الروم  
ا وردت ٥٤٧ مرة ، ل وردت ٣٩٦ ، م وردت ٣١٨ مرة بنفس الترتيب التنازلى ، ثم هى تتوارد فى السورة بمعدلات أعلى من باقى الحروف •

نفس الحكاية في ا ل م ر الرعد :

ا ترد ٦٢٥ مرة ، ل ترد ٤٧٩ مرة ، م ترد ٢٦٠ مرة ، ر ترد ١٢٧ مرة  
نفس الترتيب التنازلى ا ل م ر ، ونفس الترتيب الذى جاءت به بالقرآن .  
وفى جميع السور التى ابتدأت بالحروف ا ل م نجد السور المكية  
تتفوق حسابيا فى معدلاتها على باقى السور المكية فى المصحف والمدنية  
تتفوق حسابيا فى معدلاتها على باقى السور المدنية .  
كما نجد أن جميع السور التى افتتحت بالحروف حم اذا ضمت الى  
بعضها البعض فان معدلات توارد الحرف ح والحرف م تتفوق على  
السور المكية فى المصحف .

وكذلك السور التى افتتحت بالحروف ا ل ر وهى ابراهيم ويونس  
وهود ويوسف والحجر ، وأربع منها جاءت متتابعة فى تاريخ النزول  
اذا ضمت لبعضها أعطانا العقل الألكترونى أعلى معدلات فى نسبة  
توارد حروفها ا ل ر على كل السور المكية فى المصحف .  
وبالمثل ا ل م ص سورة الاعراف يقول لنا العقل الألكترونى أن  
معدلات هذه الحروف هى أعلى ما تكون فى سورة الاعراف وأنها تتفوق  
حسابيا على كل السور المكية فى المصحف .

وفى سورة طه نجد أن الحرف ط والحرف ه يتواردان فيها بمعدلات  
تتفوق على كل السور المكية .

أما فى سورة يس : فاننا نلاحظ أن الدلالة موجودة ولكنها انعكست  
لأن ترتيب الحروف انعكس فالألف فى الأول بعكس الترتيب الأبجدي ، ولهذا  
نرى توارد الحرف ي والحرف س فى السورة أقل من توارده فى جميع  
المصحف مدنيا ومكيا (١) .

دلالة خاصة للمعدد ١٩ :

ثم يكشف الأخ رشاد خليفة دلالة خاصة للمعدد ١٩ ويرى أن  
الله يقيم بهذا الرقم حجة على الملحد الذى يقول ان القرآن مع صنع  
ببشر ، كما جاء فى سورة المدثر : " انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم

قتل كيف قدر ثم نظر ثم عسى ويسر ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا  
الا سحر يومئذ ان هذا الا قول البشر سأصليه سقر وما أدراك ما سقر  
لا تبقى ولا تذر لواءة للبشر عليها تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار  
الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا  
الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا " (١) •

ويفسر الأستاذ رشاد خليفة هذه الألفاظ فيقول : ان آية (بسم  
الله الرحمن الرحيم) الفاتحة •• وقد نزلت بعد هذه الآيات مسمين  
المدثر، هذه الآية من ١٩ حرفا، ثم ان كل كلمة منها تتكرر في القرآن  
١٩ مرة، أو مضاعفات ال ١٩ :

كلمة اسم تتكرر ١٩ مرة

كلمة الله تتكرر  $19 \times 142 = 2698$  مرة

كلمة الرحمن تتكرر  $19 \times 3 = 57$  مرة

كلمة الرحيم تتكرر  $19 \times 6 = 114$  مرة

ثم ان جميع الحروف المقطعة في أوائل السور تتكرر الى مضاعفات ال ١٩ بطول  
المصحف هكذا :

الحرف ق يتكرر في سورة ق  $19 \times 3 = 57$  مرة

الحروف كهيمص تتكرر في سورة مريم  $19 \times 42 = 798$  مرة

الحرف ن في سورة النجم يتكرر  $19 \times 7 = 133$  مرة

الحرفان يس في سورة يس يتكرران  $19 \times 10 = 190$  مرة

الحرفان طه في سورة طه يتكرران  $19 \times 18 = 342$  مرة

الحرفان حم في جميع السور المفتحة بهما يتكرران  $19 \times 114 = 2166$  مرة

الحروف عسق في سورة الشورى تتكرر  $19 \times 11 = 209$  مرة

الحروف ال م ر في سورة الرعد تتكرر  $19 \times 79 = 1501$  مرة •

ثم ان الكلمات :

لا حول ولا قوة الا بالله = ١٩ حرفا

بسم الله الرحمن الرحيم = ١٩ حرفا

وهي كلمات يتحفظ بها المؤمن من الشر والسوء ومن زانية العذاب الذين



قال ربنا في سورة المدثر أنها ١٩ " سأصليه سقروما أدراك ما سقّر

لا تبقى ولا تذر لواءة للبشر عليها تسعة عشر " •

فهل كل هذه مصادفات ؟

وإذا سلمنا بمصادفة واحدة فكيف نفسر الباقي ؟

وقوانين الاحتمال ذاتها تنفي تكرار المصادفات بهذا التواتر الا أن يكون

الامر ترتيبيا مقصودا •

ولا يمكن أن يبدأ مؤلف كتابا بأن يقول لنفسه : سوف أكرر الحرف الفلاني

كذا والحرف الفلاني كذا وسوف ألتم في مقالاتي بالأ تتجاوز مجموعات الحروف

كذا مضاعفات ١٩ ، ثم ان القرآن نزل مفرقا على ٢٣ سنة وكانت الآيات

تنزل على النبي من وسط السورة وهو يجهل أولها كما يجهل آخرها

ثم تكتمل بعد ذلك السورة ربما بعد عشرين سنة ، فهناك استحالة أن يكون

الامر تأليفا من الرسول عليه الصلاة والسلام •

بل ان الحد الاكثرون يصح لنا أخطاء وردت في احصاءات المعجم

المفهرس لألفاظ القرآن ويؤكد استطراد هذه القاعدة ••

ان البعض ينظر باستنكار واستهجان الى هذه النظرة الاحصائية

لحروف القرآن وكلماته ، ويرى أنها تصرف القارى عن تدبر معاني

الكتاب الكريم ، ويخشى فتح هذا الباب •

ولحن لا نشجع أحدا على الانصراف عن تفهم القرآن الى عد حروفه ،

وليس عند كل قارئ عقل الكثر ، والمشكلة غير واردة ، والخوف ليس

له مبرر • انما هو اجتهاد يظرح أمامنا ملاحظة ، وعلى من يفكر أن يجسد

لنا تفسيراً • وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام عن القرآن انه كتاب

لا تتلف عجايبه ، وهذه عجيبه من عجايبه •

وقال ربنا : " الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان " ( ١٧ الشورى )

وأى ميزان ؟ انه ميزان يدق حتى يزن الشعرة والحرف والرقم •

انها ظاهرة جديدة بالاهتمام ، وحجة جديدة على أن ذلك الكتاب الذى

تداوله وقتلوه ليس من الكتب العادية فى شئ • ( ١ )

وأخيرا .. هل لنا أن نقول : لماذا نرفض هذا الكشف الجديد  
ما دام يقوم على احترام كتاب الله تعالى ، ويبين وجهها جديدا من وجوه  
الاعجاز .

## الفصل الرابع

### الاعجاز الروحي

ما زالت قضية الاعجاز القرآني وستظل تشغل العلماء والباحثين والمفكرين فالقرآن الكريم لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ، وستجد فيه أجيال المسلمين في العصور القادمة وجوها أخرى جديدة في الاعجاز وباب الاجتهاد في اعجاز القرآن مازال مفتوحا ، وسيظل مفتوحا أبد الدهر . ولقد اختلف القدماء في وجوه الاعجاز ، وتجمع لدينا من آرائهم ثلاثة عشر وجها لاعجاز القرآن الكريم (١) .

وفي العصر الحديث سمعنا وقرأنا عن : الاعجاز النفسي ، والاعجاز العلمي ، والاعجاز المادي . وهذا الذي بين يدينا وجه رابع من وجوه الاعجاز الجديدة التي تمخض عنها القرن العشرين . وصاحب هذا الرأي الجديد هو العالم المفكر الأديب محمد فريد وجدى فقد رأى أن العناية في العصر الحديث متجهة الى اعجاز القرآن البلاغي ، واعتبار هذا الوجه أرجح من الوجوه الأخرى ، وأحسن أن الاعجاز الحقيقي إنما هو في الاعجاز الروحي الذي يكمن في أسلوب القرآن الكريم . يقول : ان المتكلمين في اعجاز القرآن قد حصروا كل عنايتهم في الناحية البلاغية ، ونحن وان كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الفاية من هذه الوجهة الا أننا نرى أنها ليست الجهة الوحيدة لاعجازه ، بل ولا هي أكثر جهات الاعجاز تسلطا على النفس ، فان للبلاغة على الشعور الانساني تسلطا محدودا لا يتعدى حد الاعجاب بالكلام والاقبال عليه ثم يأخذ هذا الاعجاب والاقبال يضعف شيئا فشيئا بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه في مبدأ توارده عليها ، وليس هذا شأن القرآن فانه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيرا ، فوجب على الناظر في ذلك أن يبحث عن وجه اعجازه في مجال آخر .

وهذا الوجه الآخر الذى يراه يتمثل فى : أن القرآن روح من أمر الله تعالى ، فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح فى الأجساد فيحركهم بها ويتسلط على أهوائها . . . وأما تأثير الكلام فى الشعور فلا يتعدى سلطانه حد اطرابها والحصول على اعجابها . .

وقوله تعالى : " وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا " يكفى وحده فسى ارشادنا الى جهة اعجاز القرآن ، وقصور الانس والجن عن الاتيان بمثلهم وبقائه الى اليوم معجزة خالدة تتلأل فى نورها الالهى ، وتتألق فسى جمالها المقدس ، فلا جرم كانت روحانية خاصة هى عندنا جهة اعجازه ، والسبب الأكبر فى انقطاع الانس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره ، وارتعاد فرائض الصناديد والجبابرة عند سماعه وناهيك بروحانية الكلام الالهى . ثم قال : ولا مشاحة فى أن القرآن فصيح ، قد أخرج بفصاحته فرسان الخطابة وقادة البلاغة وهو حكيم بهر الفلاسفة وهو حق ألزم كـ ل ضال الحجة وهو هدى وشفاء لما فى الصدور ، وكل هذه صفات جلييلة تؤثر فى العقل والشعور والحوافظ والميول فتتحكم فيها تحكم المالك فى ملكه ، ولكنه فوق ذلك روح من أمر الله تصل من روح الانسان الى حيث لا تصل اليه أشعة البلاغة والبيان ، ولا سيالات الحكمة والعرفان ، وتسرى من صميم معناه الى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر ، ولا يتخيلهم خيال شاعر .

هذه الروحانية تظهر جليا عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد والاعتباس فى صفحة كبيرة فإليك ترى تلك تتجلى لك من بين السطور وخلال التراكيب كأنها الشمس فى رابعة النهار مهما كانت درجة تلك الصفحة من البيان ومنزلتها من جمال الأسلوب وجزالة الألفاظ (١) .

هذا ويرى د . رجب الهيومى أن الشقة قريبة بين من يقول بالاعجاز البلاغى وبين الأستاذ محمد فريد ، وتساءل : أيمكن أن تظهر روحانية القرآن دون أسلوب بليغ يحملها للناس ؟ اذ يستحيل علينا بداهة أن نتصور هذا الظهور دون كلام يقال ، واذا ثبت أن الأسلوب القرآنى هو موضح

هذه الروحانية النافذة فقد صارت الشقة قريبة بين من يقولون بالاعجاز البلاغي وبين الأستاذ الكبير ان لم تكن هناك شقة على الاطلاق . . .  
واذا كانت بلاغة البشر تفقد تأثيرها باستمرار التلاوة دون بلاغة القرآن فلأن الأسلوب القرآني يعمل من وسائل اعجازه ما يرتفع به عن بلاغة البشر ، وعلينا أن نبحث عن ذلك في م تلاوى نظمه وطريقة تعبيره وتصويره . . . . . وكون القرآن روحا من أمر الله لا يحصر اعجازه البيانى بل يدفع الدارس الى استشفاف هذا الروح فيما يتراءى من قوة أسرته ودقة دليله وبلاغة تصويره مما يسيطر على النفوس سيطرة تدفع الى الاعتراف المؤمن والاستسلام البصير .

ولعل الأستاذ وجدى لا يريد أن يحصر الاعجاز القرآني فى بلاغته التعبيرية موافقة لمن يرى أن حصر الاعجاز فى البلاغة التركيبية يدفعنا لطول النظر الى اكتناه أسرارهِ والوقوف على دقائقهِ ، ومتى عرفت هذه الأسرار وجلت تلك الحقائق أمكنت محاكاته وسهلت معارضته فلم يبق وجه لاعجازه . وهذا كلام براق فى ظاهره ، ولكنه لدى التدقيق لا ينهض على ساق ، لأن ادراك السر البلاغى فى قول معجز لا يجعل المدرك قادرا على الاتيان بمثل ما أدرك سره وجلا حقيقة وجه . . . .

والمسألة أوضح من أن يستدل عليها ، لانا نرى الناقد الأدبى يدرك أسرار القصيدة الرائعة بيتا بيتا وكلمة كلمة ثم لا يستطيع بد ذلك أن يأتى لمثلها لأنه غير شاعر بطبيعته ، فلو كان الولوج الى أسرار الجمال فى البيان الأدبى داعيا الى محاكاته لكان كل ناقد كبير شاعرا كبيرا أو قصاصا شهيرا ولكن التذوق النقدى شىء وملكة الابداع الفنى شىء سواه . . . .  
فليكن القرآن ذا روح قوية غالبة ، ولكن هذه الروح تستكن فى كلمات وآيات وسور وهى موضع الاعجاز (١) .

وهكذا طلع علينا العصر الحديث بأربعة وجوه جديدة للاعجاز ولكل وجه وجهة هو موليتها ، وفكرة يجليها ، ولكل جيل أفكاره وتصوراتهِ وكشوفهِ والقرآن الكريم لا تنقضى عجائبهِ ، وستجد فيه أجيال المسلمين فى

الحصـور القادـمة وجـوها أخرى جديدة ، وباب الاجتهاد فـسـى  
بيان اعجاز القرآن مازال مفتوحا ، وسيظل مفتوحا أبـد الدهـر •

## الخاتمة

=====

الصراع بين القديم والجديد هو قضية الزمن ، وديدن الحياة ، وتجديد  
البلاغة العربية قضية طال عليها الزمن دون أن نبت فيها برأى ، فقلبي  
كثرة من تكلموا وكتبوا في تجديد البلاغة نجدها ما زالت تدور في فلك السكاكسي  
ومدرسته . ولقد جرت محاولات في العصر الحديث للتخفيف من حدة كتب  
البلاغة القديمة ، وصياغتها في أسلوب جديد يميل الى البساطة والوضوح  
ونحن لا ننقص من قدر هذه المحاولات ومن حاولوها ، ولكن نقول : — ان هذه  
المحاولات لم تثمر ثمرتها المرجوة ، فما زالت الكتب الحديثه في البلاغة تدور  
في فلك علم الكلام ومنهج السكاكسي .

واذا كانت البلاغة العربية من أجل العلوم قد راا ، لأن ثمرتها — كما يقول  
ابن خلدون — فهم الاعجاز وادراكه . وأيضا لأن دراستها تفتح الذهن  
وترسي الذوق وتدربه على الرقة والدقة حتى يميز بين الجيد والردئ ، من الكلام  
اذا كانت البلاغة بهذه الأهمية دينيا وتربويا فان من واجبننا صيانة هذا التراث  
البلاغي ، والعمل على تداوله وازدهاره . وما أنه ليس تحفا وأحجارا كريمة  
فيجب العمل على تجديده وتطويره بما يرغب في الاقبال عليه وتداوله .

اننا لسنا أعداء للبلاغة القديمة ، ولكننا أعداء لجمودها وتأخرها ، ولا  
يرضينا أبدا ما تعانیه بلاغتنا الحبيبة من زهد فيها ، وانصراف عن درسيها ،  
ورغبة الأدباء والنقاد عنها .

ونتيجة لاهمال تجديد البلاغة ، واخلق تدريسها للأجيال القريبة الماضية ،  
ظهر كتاب وشعراء هبطوا بالكتابة والشعر . ونزلوا بالأدب العربي عن عرشه  
فسمعنا وقرأنا الشعر الحديث ، تقلبه فلا تدري ان كان شعرا أو نثرا ، ثم  
هو بعد ذلك أعجمي الروح ، غري الملامح ، لا أثر له ، ولا بريق فيهِ ،  
ولم نعد نسمع في مجال الأدب والصحافة الا منكرا من القول وزورا . وأكد أجزم  
بأن كل ذلك أثر من آثار واهمال البلاغة والقعود عن تجديدها . بل اني لا أبالغ  
اذا قلت : ان افتقاد الشخصية العربية أو ضعفها واهتزازها في أعين القوميات

الأخرى انما هو أيضا أثر من آثار اهمال البلاغة وعدم نجاح تدريسها لأجيالنا  
المشاعبة ، فعظمة الانسان العربي مرتبطة الى حد كبير بفصاحته وبلاغته .  
فالمرء بأصغرية والانسان - كما يقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه - : المرء  
مخبوء تحت لسانه ، حتى اذا نطق أفصح عن عظمته أو نقصانه . فاللسان  
هو الذى يوضح عظمة الانسان ، وهو فى الوقت نفسه جزء من هذه العظمة  
لأن البلاغة ليست فى اللسان فقط ، بل هى فى الفكر والعقل قبل أن تكون  
فى اللسان والبيان . فسمو التعبير جزء من سمو التفكير وسمو التفكير والتعبير  
سمو للشخصية . والبلاغة لها دخل كبير فى كل ذلك .

وليس من المجهول أن هناك أيدى خفية مجتدة من قبل الاستعمار  
الثقافى والغزو الفكرى ، تريد أن تقضى على الفصحى وآدابها وبلاغتها ،  
لتقضى بالتالى على دينها وقرآنها ، ولتمحو الشخصية العربية المسلمة من  
الوجود ، فلا يبقى اطم استغلالها واستعمارها مجابهة ولا مقاومة .

من أجل كل ذلك فانى أرى أن تجديد البلاغة والنهوض بها أصبح واجبا  
قوميا ودينيا فى آن واحد ، وهو واجب الجامعات العربية أولا ، ثم الجامعات  
العلمية والهيئات الثقافية ثانيا .

ومن أجل كل ذلك أيضا كان اقدامى على هذا البحث فى تجديد البلاغة .  
ولقد اقتضى هذا البحث أن نقسمه الى مقدمة وتمهيد وخمسة أبواب وخاتمة .  
وفى المقدمة ، أوضحت موضوع هذا البحث وظروفه وداويعه ، وبينت  
فى اجمال حال البلاغة قديما وحديثا .

وفى التمهيد ، تحدثت عن نشأة البلاغة وتطورها ، وبينت مدارسها  
وخصائص كل مدرسة ، ثم تحدثت عن صلة البلاغة بالعلوم العربية الأخرى  
ومكانتها بين هذه العلوم ، ثم تتبعتم مسيرة البلاغة حتى مرحلة نشوئها  
على يد الامام عبد القاهر ، ثم استقلالها على يد السكاكى ، ثم جهود البحث  
البلاغى بعده حتى العصر الحديث ، وأوضحت كيف أن البلاغة أصبحت  
فى حاجة ماسة الى التجديد .

وهذا التمهيد فى الواقع كان يستحق - وحده - أن يكون بحثا



مستقلا ، فهو مسيرة طويلة مع البلاغة في عصورها المتعاقبة منذ تكونت جذورها الأولى حتى وصلت إلينا في العصر الحديث . وهو تمهيد كان لابد منه لمعرفة القديم وتصوره وعرض آراء المتقدمين والمتأخرين فيه ، وقبل أن تقدم على دراسة الجديد ونقلب فيه وجهات النظر ، فأول التجديد قتل القديم فهما . ولقد كنت أحاذر في هذا التمهيد الاطناب الممل والايجاز المخل وهي مهمة ليست باليسيرة في مثل هذا البحث الدقيق . ( ١ )

ولقد كان للتجديد بواد ومقدمات كما كان له مقاصد واتجاهات ولذلك كان الباب الأول : " بواد التجديد واتجاهاته في العصر الحديث " . وقسمت هذا الباب الى فصلين : تحدث في الفصل الأول عن التجديد ومفهومه وبوادره .

وقد كان لهذه البوادر والبدایات أصوات تملو حيناً ، وتخت أحياناً ، الى أن كانت البادرة التي أشعلت الحماس ، وأثارت الرأي ، تلك هي معركة البلاغة التي حمى وطيسها على صفحات مجلة الرسالة بين الدكتور على العماري والأستاذ أمين الخولي ثم انضم اليهما آخرون ( ٢ ) . وتشور قضية التجديد البلاغي في معكف الأستاذ أمين الخولي على كتابه " فن القول " ويضمنه آراءه وخطته في تجديد البلاغة ( ٣ ) ، ويصدر الأستاذ احمد الشايب كتابه " الاسلوب " ويضع فيه منهاجاً كاملاً لبلاغة جديدة ( ٤ ) ، ويشارك الأستاذ احمد حسن الزيات في القضية فيدفع الى الميدان بكتابة " دفاع عن البلاغة ( ٥ ) وفي الجامعة الأمريكية يلقي البشري محاضراته " ثورة على علوم البلاغة " ( ٦ ) وفي المجمع اللغوي يلقي د . عبد الرزاق محيي الدين بحثه " مفاهيم بلاغية " ( ٧ ) ويكتب الدكتور العماري بحثه " البلاغة المربية وحاجتها الى التجديد " ( ٨ ) ،

- 
- |                                        |                                      |
|----------------------------------------|--------------------------------------|
| ١ — راجع التمهيد في البحث ص ٧ .        | ٢ — انظر حركة الرسالة ص ١٩٠ من البحث |
| ٣ — راجع خطة فن القول ص ٣٦٣ من البحث . | ٤ — راجع منهاج الشايب ص ٢٤٢          |
| ٥ — انظر ص ٤٨٤                         | ٦ — انظر ص ١١٤                       |
| ٧ — " " ١٥١                            | ٨ — " " ١٤٣                          |

وتعقد الندوات والمحاضرات بين المعنيين بالدراسات البلاغية ، وتذاع على الهواء ، كالدوة التي عقدت بين الدكاترة : غنيم هلال ، ومدوى طبانه ، وأحمد بدوى . (١)

وفى جامعة الأزهر ينشأ قسم خاص بالبلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية ويقوم أساتذته بالدعوة الى تجديد البلاغة وتطهيرها ، وفى آداب القاهرة والاسكندرية وعين شمس ودار العلوم ترتفع الأصوات بضرورة اصلاح البلاغة وتجديدها .

كل ذلك آثار قضية البلاغة بعد ركود ، وأيقظها بعد سبات ، وأخذ العلماء والأدباء وأساتذة البلاغة يدلون بأرائهم ، ويعلنون عن اتجاهاتهم فى تطوير البلاغة وتجديدها .

ولهذا كان الفصل الثانى من الباب الأول " اتجاهات التجديد ومظاهره فى العصر الحديث " .

وباستقراء آراء الدعاة الى تجديد البلاغة نجدهم يتجهون فى شبه اجماع الى تخليص البلاغة مما اشابها من مسائل المنطق والفلسفة ، ومباحث الأصوليين وما اليها .

ثم يختلفون بعد ذلك :

- فبعضهم يرى الاعتماد على تراثنا فى البلاغة وجعله أساسا للتجديد . وأن التجديد يجب أن يكون نابعا من روحنا ومجتمعنا وتكويننا وفطرتنا وذاقنا .
- وبعض آخر يرى أن الكتب القديمة يجب أن تلقى ويلقى بها فى بحر الظلمات ويحل محلها كتب أخرى مؤلفة على منهج حديث مستقل مبنى على أساس من الدراسات الغربية الحديثة .
- وبعض ثالث يرون مزج البلاغة العربية بأصول الدراسات البلاغية الحديثة فى شتى اللغات الأوربية ، وأنه من الخير الجمع بين ما يصلح من تراثنا وما يصلح من بلاغة الغرب ، وأن التعايش بين القديم والحديث أفضل نتاجا وأقوى أثرا .

ومعد هذا العرض العام في الباب الأول لبوادر التجديد واتجاهاته ، تناولت في الباب الثاني " دعوات التجديد البلاغية " وتحدثت عنها بالتفصيل ودعوات التجديد في العصر الحديث ، انما نغنى بها تلك التي بدأت مع هذا القرن العشرين ، حيث بدأت النهضة العربية في العلوم والآداب تأخذ سبيلها وتشق طريقها بعد أن انفتح العرب على النهضة الغربية الأوربية ، واطلموا على الكثير من علومها وآدابها .

وقد قسمت هذا الباب الى ثلاثة فصول :

عرضت في الفصل الأول لبحوث عديدة في تجديد البلاغة ، للأساتذة : أمين الخولي ، وعبد العزيز البشري ، وأبيس القدسي ، والدكاترة ، احمد بدوي ، وعلى الصمغري ، وعبد الرزاق محيي الدين ، ثم عرضت لتقرير لجنة المعارف المصرية وما تضمنه من تخطيط جديد للبلاغة . وقد عقب كل بحث برأى ورأى غيرى ان وجد .

وفي الفصل الثاني : عرضت لآراء بعض المتخصصين من أساتذة البلاغة في الجامعات ممن أولوا بدلوهم في قضية التجديد ، فهم الأقدم من سواهم على معرفة حاجة البلاغة ، وتفهم مشكلاتها . وإذا كان الطبيب يستطيع بالكشف على مريضه أن يحدد الداء ويصف الدواء ، فانهم — ولا شك — يعرفون داءها ، ويستطيعون أن يصفوا دواءها ، ولذلك رأينا ألا نهمل آرائهم مهما كان حجمها .

هذا عدا بعض الآراء الأخرى التي عرضناها في ثنايا البحوث السابقة . وهذه الباقية من الآراء في البلاغة وتجديدها ، حلقة مكملية للبحوث السابقة في الفصل السابق ، وتلقى كثيرا من الأضواء على قضية التجديد في البلاغة .

وفي الفصل الثالث — من هذا الباب الثاني — تناولت حركة الرسالة ، تلك المعركة البلاغية التي قامت على صفحات الرسالة في منتصف هذا القرن بين المحافظين والمجددين ، وبينت كما كان لها من أثر في إثارة قضية التجديد في البلاغة . وكنت هنا وهناك أطل برأى أيدي ما أراه صوابا ، وأصوب ما أراه خطأ ، وأوضح ما أراه غامضا ، وأضيف ما أرى اضافته ، مستشهدا في كل

ذلك بما يؤيد وجهة نظري أو يجيزها على الأقل .  
وإذا كانت البحوث والآراء التي عرضتها في هذا الباب الثاني قد تضمنت  
بعضها تخطيطا صغيرا ، أو فكرة محدودة ، في تجديد البلاغة ،  
فقد جعلت الباب الثالث " مناهج جديدة للبلاغة " خاصا بالمناهج  
الكبيرة المتكاملة التي وضعت لتجديد البلاغة وقد قسمت هذا الباب إلى  
أربعة فصول :

تحدثت في الفصل الأول عن منهج الشايب وكتابه " الأسلوب " ثم عرضته  
على ميزان النقد ، وبينت ماله وما عليه .

وتحدثت في الفصل الثاني : عن منهج الخولي وكتابه " فن القول " ثم  
عرضته هو الآخر على ميزان النقد ، وقارنت بينه وبين منهج الشايب .  
وفي الفصل الثالث : عرضت للمنهج المدرسي الحديث ، وتحدثت عن  
البلاغة في مدارسنا ، وبينت أثر المنهج ، ومدى نجاحه أو فشله ، وأسباب  
ذلك .

وفي الفصل الرابع : عرضت رأيا جديدا في تدريس البلاغة . فقد لاحظت  
بعد كثرة ما قرأت واطلعت على بحوث ومناهج وآراء في تجديد البلاغة أن هناك  
رأيا لم يطرح بعد ، وأن درس البلاغة اليوم في حاجة إلى علاج سريع — ولو  
مؤقتا — يخرج به من نطاق السكاكي والقزويني ، ويساعد الدارسين  
على استيعاب البلاغة فنا وعلما .

ولقد أمنت النظر فيما يفعلون بدرس البلاغة ، فوجدتهم يعلمون الطالب —  
أول ما يعلمونه — الفصاحة بأنها خلو اللفظ من تناثر الحروف ، والغرابية ،  
ومخالفة القياس ، ويضربون لذلك أمثلة ركيكة — تصيب النفس بالضيق والكدر .

وقلت لنفسي أهذا هو أول ما ينطبع في ذهن الطالب عن الفصاحة والبلاغة ؟  
وتساءلت : لماذا يعرف القدماء الفصاحة تعريفا سلبيا فيقولون : هي  
خلو اللفظ أو خلوصه من التناثر والغرابية . . . ويتركون التعريف الإيجابي  
فلا يذكر عنه شيئا . . . أما كان التعريف الإيجابي للفصاحة أولى وأجمل  
وأوقع في النفس من التعريف السلبي ؟

ان التعريف السلبى للفصاحة — قد أدى بالقدماء الى استعمال  
أمثلة رديئة ، يفاجأ بها الطالب فى بداية درس البلاغة ، فترك نفسه  
انطباعات سيئة ، لما كان أغفانا عنه لو أنهم لجئوا الى التعريف الايجابى وعرفوا  
الفصاحة تعريفا أدبيا جميلا مشرقا وقد أوضحت ذلك بالأمثلة والشواهد فى  
مكانه من البحث . مبينا كيف أن القزوينى بعد بنا عن الفصاحة انى ضدها ،  
ومدل أن يحدثنا فى البداية حديثا ايجابيا عن جمال الفصاحة وأثرها فى النفس .  
ويضرب لها أمثلة هضيفة مشرقة ، يحدثنا عن أضداد الفصاحة من التناثر والغرابية  
والتعقيد ، ويضرب لها — بالطبع — أمثلة — معتمدة موحشة .

ولقد عرضت — فيما عرضت — فى هذا البحث لعناصر الأسلوب  
الثلاثة : الوضوح — القوة — الجمال . ذكرها كتاب البلاغة الواضحة  
فى ايجاز واقتضاب ، وذكرها كتاب الأسلوب فى اسهاب واطناب .

وهذه العناصر الثلاثة ( الوضوح والقوة والجمال ) أرى أن تكون  
الأساس الجديد فى درس البلاغة — بوجه عام ونجمل  
كل الباحث البلاغية تدرس فى ضوءها .

فمقتضى الحال يمكن أن يدرس بطريقة جديدة فى ضوء الوضوح والقوة والجمال  
وكذلك الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية ، وأيضا فى الحذف والتقديم  
والقصر ، وفى الإيجاز والاطناب والمساواة ، الى غير ذلك من مباحث البلاغة .  
وقد أوضحت وجهة نظرى ، ووضعت النقاط فوق الحروف فى الفصل الخاص  
بذلك فى هذا البحث .

ولا أستطيع القول بأننى وضعت للبلاغة خطة حديثة ، أو منهجا جديدا  
ان هى الا فكرة مبدئية يمكن أن تنمو وتتطور بالمدايسة والممارسة اذا اقتصرت  
القبول والاستحسان . وهى فى رأى علاج سريع مؤقت لدرس البلاغة اليوم ، حتى  
يستقرأولو الأمر على منهج جديد للبلاغة العربية .

ولقد تعرضت بلاغتنا فى هذا العصر لهجوم كبير ، وتجن خطير ، اتسم  
بالدهاء والخبث ، وتوجه بدعى الإصلاح والتجديد ، لذلك جعلت الباب

الرابع " البلاغة بين الدفاع والهجوم " وقسمته الى فصلين :  
تناولت فى الفصل الأول • آراء الذين دافعوا عن البلاغة مثل : الدكتور  
احمد بدوى والأستاذ العقاد والدكتور عباس حسن والأستاذ احمد موسى  
والدكتورة سهير القلماوى • ثم تحدثت عن الزيات وأوضحت دفاعه عن البلاغة  
وآراءه فى تجديدها ، وما ينبغى أن تكون عليه فى العصر الحديث •

وفى الفصل الثانى من هذا الباب الرابع تحدثت عن سلامة موسى ومن  
دار فى فلكه ، وعن كتابه ( البلاغة المصرية ) وما تضمنه من هجوم  
خبيث على بلاغتنا ولغتنا باسم الاصلاح والتجديد ، وثققت آراءه وفندتها  
ومينت الأسباب والدواعى التى كانت وراء هذه الجملة المفرضة ، والتى تفرض  
علينا أن نسارع الى بلاغتنا الحبيبة فننفض عنها آثار الماضى ، ونفتح لها  
باب التجديد والتطور ، حتى لا يتهمها المفرضون ويتهموننا معها بالجمود  
والتاخر •

وان فيما عرضه هذا البحث من بحوث ومناهج لخير معين على تطويع  
البلاغة وتجديدها •

ولم يكن فى الامكان أن نختم هذا البحث دون أن نتناول قضية الاعجاز  
الكبرى وآراء المجددين فيها ، فهى قضية تتصل بالبحث البلاغى اتصالا وثيقا  
بل هى من أهم قضايا البلاغة على الاطلاق •

لهذا كان الباب الخامس خاصا بقضية الاعجاز وما طرأ عليها من دراس  
جديدة فى العصر الحديث •

وقد قسمت هذا الباب الى أربعة فصول ، تحدثت فيها عن أربعة أوجه  
جديدة للاعجاز ، هى على الترتيب :  
الاعجاز النفسى ، والاعجاز الملقى ، والاعجاز العددي ، والاعجاز  
الروحى •

وفى الخاتمة : لخصت هذا البحث ، وأوضحت خطته ، وأبرزت أهم معالمه  
كما أجملت رأى الجديد فى تدريس البلاغة •

ولقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن أنهج المنهج التاريخي ، فأتبع  
الفكرة البلاغية منذ نشوئها ، وأسير معها في تطورها عبر العصور حتى العصر  
الحديث ، ثم أتبع ما أطرا من أفكار جديدة ومناهج متطورة لتطوير البلاغة  
وتجديدها .

ولم يكن المنهج التاريخي وحده هو الذي فرض نفسه على هذا البحث ،  
بل إن المنهج الفني - كذلك - فرض نفسه ، وسيطر على طول هذا البحث  
وعرضه . ذلك أن طبيعة هذه الدراسة اقتضت أن أتناول أعلام البلاغة  
ومدارسها وأبرز آثارها بالنقد والتحليل والموازنة ، كما أتناول - كذلك -  
كل رأى جديد وفكرة مستحدثة في تجديد البلاغة حينما ما فيها من ابتكار  
أو تقليد . ولذلك فإن المنهجين التاريخي والفني يتعاضدان في هذا البحث  
ويؤازر كل منهما الآخر .

وفي كل ما عرضت في هذه الدراسة من آراء وبحوث ومناهج ، كان رأيي  
يطل هنا وهناك ، يقوم تلك الجهود وينقدها ، ويشيد بما يستحق الإشادة  
منها من غير تعصب أو هوو .

وبهذه في ختام هذا البحث أن نستخلص منه التوصيات الآتية :  
١ - يجب أن يراعى في تجديد البلاغة تسهيل دراستها ، وتقليل ما يستدل  
فيها من جهد ووقت ، مع تحقيق المطلوب من دراستها تحقيقاً علمياً  
يتمثل في : أ - القدرة على إدراك الجمال الأدبي .

ب - القدرة على التعبير الرائع .

٢ - استبعاد الأبحاث المضمخة في البلاغة ، وما خالطها من مقدمات منطقية  
واستطرادات فلسفية مثل : الدلالات ، والجامع الوهمي والخيالي  
والعقلي ، كما نستغنى عن أبحاث الأصوليين ، وعن الاطالة في بعض  
التعاريف ومحتجزات القيود والخلافات اللفظية ، فانه لا معنى لأن يستدل  
الطالب وقتاً وجهداً في خصومة عتيقة يطالغ فيها حجج الفريقين ، ويتمسب  
نفسه في تفهم جدل الخصمين ، ثم يقال له أخيراً : ان الخلاصة  
لفظي ، أو يجد النتيجة لا تكافئ الجهد .

- ٣ — اعادة تنظيم البلاغة على أسس تتصل بالذوق والفن والجمال والتأثير .
- ٤ — وضع مقدمة فنية يدرك الدارس من خلالها قيمة الفنون عامة ، والفن القولي خاصة .
- ٥ — الاستعانة بما يناسب مباحث البلاغة من الدراسات النفسية ، ويساعد على توضيحها ، وتقرير مسائلها .
- ٦ — أن تتجاوز دراسة البلاغة مجال البحث في الكلمة والجملة والجمليتين الى البحث في الفقرة والقطعة الأدبية والأساليب المختلفة .
- ٧ — ادخال دراسة الأسلوب وعناصره وأنواعه في البحث البلاغي .
- ٨ — الحرص على أن تتصل البلاغة اتصالاً وثيقاً بالنهج القرآني الفياض الزاخر بشتى الصور البيانية ، وأن نخلق جواً من الجمال القرآني يهيمن على فن البلاغة ودرسها .
- ٩ — تجديد البلاغة قضية قومية دينية في آن واحد ، ويجب ألا يخفت صوت هذه القضية حتى يتم وضع خطة جديدة متكاملة .
- وان فيما ورد في هذا البحث لخير معين على وضع هذه الخطة .
- ١٠ — منهاج الخولى في تجديد البلاغة أفضل منهج حتى الآن ، وهو على ضخامته له أسس وضررات ، وقام على مقارنات واقعية بين القديم والجديد ، ولكنه كما قال صاحبه : ليس الصورة الأخيرة للبلاغة أو فن القول ، وانما هو تخطيط لمحاولة يود أن تظل أبد الدهر .
- لو أمكن — رهن التفسير والتبديل والاضافة والتحسين ممن تهيبات لهم القدرة على ذلك .
- والواقع أن هذه الخطة الخولية في تجديد البلاغة خطة متطورة واعية ، غير أنها تحتاج الى لجنة متخصصة لتطبيقها والافادة منها ، ففصل الأستاذ الخولى من مهمة التطبيق ، وتركها لمن يأتي بعده من المهتمين بشئون البلاغة . ونحن — بفضل الله وقوته — سنحاول فى المستقبل القريب — ان شاء الله — أن نساهم فى تطبيق هذا المنهج أو جزء منه حسب ما يحتاج لنا ، فان هذا المنهج — على قصوره واقتصاره على الناحية النظرية — جدير بالمعناية والتطبيق . وقد يظهر فى



المستقبل القريب أو البعيد من يستطيع تعديل هذه الخطة ، أو يأتي بأفضل منها ، ولكن حتى ذلك الحين يجب أن نهتم بخطة الخولـــــ ونستفيد منها .

١١- وجهة نظري الجديدة لتدريس البلاغة التي قدمتها في هذا البحث إنما هي بمثابة اسعافات أولية ضرورية سريعة حتى يتفق أولو الأمر ويستقروا على خطة جديدة لتدريس البلاغة .

فالتعريفات السلبية للفصاحة وغيرها يجب استبعادها مع أمثلتها ووضع الضرورى منها في الهامش ، ووضع تعريفات ايجابية بدلا منها تكون أمثلتها وضيفة مشرقة .

والوضوح والقوة والجمال ركائز ثلاثة يجب أن يعنى عليها الدرس البلاغى بوجه عام . فما توافر فيه الوضوح فقط فهو الكلام العادى ولغة التخاطب وما توافر فيه الوضوح والقوة معا فهو الكلام الفصيح ، أما ما توافر فيه الثلاثة . الوضوح والقوة والجمال فهو كاللزام البليغ . ولكل من هذه المستويات الثلاثة درجات ورتب ومقامات . وقد أوضحت المراد بكل من الوضوح والقوة والجمال فى مكانه من البحث .

محمد : فان هذا البحث الذى بين أيديكم عبارة فكر ، وثمره جهود ومعاينة طويلة ، أرجو بها مخلصا أن أكون قد مت لبلاغتنا الحبيبة ما يرضى لها الطريق الى عند أفضل ومستقبل أجمل ان شاء الله .

ولقد قرأت رسالتى هذه على سبيل المراجعة عدة مرات ، وفى كل مرة كنت أغير وأبدل ، وأزيد وأنقص ، وأقدم وأؤخر ، أجبر نقصا هنا ، وأضيف رأيا هناك . وهكذا لو قرأتها مائة مرة لفعلت ذلك فى كل مرة ، فالنقص من صفات البشر ، والكمال لله وحده ، وفوق كل ذى علم عليم .

نسأل الله العلى العظيم أن ينفعنا بما علمنا ، وأن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن يزيدنا علما .  
انه سميع مجيب .

المصادر والمراجع

=====

- ١ — ابن أبي الأصبح المصري بين علماء البلاغة — د . حفنى شرف — مكتبة نهضة مصر — القاهرة .
- ٢ — أبو هلال العسكري ومقاييسه النقدية — د . بدوى طبانة — مطبعة مخيمر — القاهرة ١٩٥٢ .
- ٣ — الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث — أنيس المقدسى — طبعة بيروت
- ٤ — الاتقان فى علوم القرآن — جلال الدين السيوطى — مكتبة البابى الحلبي ط ٣ القاهرة ١٩٥١
- ٥ — أثر القرآن فى تطور النقد العربى — د . محمد زغلول — لام — دار المعارف . القاهرة ١٩٦١
- ٦ — أثر القرآن فى تطور البلاغة العربية حتى القرن الخامس الهجرى — د . كامل الخولى — دار الأنوار . القاهرة ١٩٦٢ .
- ٧ — أثر النحاة فى البحث البلاغى حتى نهاية القرن الخامس الهجرى — د . عبد القادر حسين — دار نهضة مصر ١٩٧٥
- ٨ — أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبى — د . رجب البيومى — مجلة كلية اللغة العربية بالرياض الممدد الخامس ١٩٧٥
- ٩ — الأدب والنصوص للصف الأول الثانوى — د . حسن شاذلى — فرهود وآخرون — ط وزارة المعارف السعودية .
- ١٠ — أرسطو — تلخيص الخطابة — ابن رشد — تحقيق عبد الرحمن بدوى — مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ .
- ١١ — أساس البلاغة — الزمخشري — دار الكتب . ط ٢ . القاهرة ١٩٧٢ م .
- ١٢ — الأساس فى النقد والبلاغة — د . عبد الله الوهيبي وآخرون — دار الاصفهاني بجدة
- ١٣ — أسرار البلاغة — عبد القاهر الجرجاني — دار المنار — القاهرة

- ١٤ — الأسس الجمالية فى النقد العربى — عز الدين اسماعيل — ط ٢ —  
دار الفكر العربى • القاهرة ١٩٦١
- ١٥ — الأسس النفسية للنقد الأدبى — د • عبد الحميد يونس — دار  
المعرفة القاهرة ١٩٥٨ •
- ١٦ — أسس النقد الأدبى عند العرب — د • أحمد بدوى — نهضة  
مصر ١٩٦٠
- ١٧ — الأسس المعنوية للأدب — د • عبد الفتاح الديدى — دار  
المعرفة القاهرة ١٩٦٦
- ١٨ — الأسلوب — أحمد الشايب — مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦
- ١٩ — أسواق الذهب — أحمد شوقى — دار الهلال — القاهرة ١٩٣٣
- ٢٠ — أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب — عباس محمود العقاد — دار  
المعارف — القاهرة ١٩٧٠
- ٢١ — الأشباه والنظائر — جلال الدين السيوطى — ط الهند
- ٢٢ — أصول النقد الأدبى — أحمد الشايب — مكتبة النهضة المصرية  
١٩٦٤ •
- ٢٣ — الأضواء فى اللغة الغربية — أحمد محمد صقر وآخرون — دار نهضة  
مصر ١٩٧٢ •
- ٢٤ — اعجاز العددى للقرآن — د • عبد الرازق نوفل — مطبعة دار  
الشعب — القاهرة •
- ٢٥ — اعجاز القرآن — عبد الكريم الخطيب — دار الفكر العربى — القاهرة —  
١٩٦٤
- ٢٦ — اعجاز القرآن — الباقلانى — دار المعارف — القاهرة ١٩٦٣
- ٢٧ — اعجاز القرآن والبلاغة النبوية — مصطفى صادق الرافعى — المكتبة  
التجارية • القاهرة ١٩٦٩
- ٢٨ — اعجاز القرآن البيانى — د • حنفى محمد شرف — مطابع الأهرام  
التجارية • القاهرة ١٩٧٠

- ٢٩ — اعجاز القرآن بين الممتزلة والأشاعة — منير سلطان — منشأة  
المعارف بالاسكندرية ١٩٧٨
- ٣٠ — الاعجاز والايجاز — الثعالبي — مكتبة دار البيان — بيروت •
- ٣١ — الأغاني — أبو الفرج الاصبهاني — طبعة دار الكتب المصرية
- ٣٢ — الأملى لأبي علي القالى — دار الفكر — بيروت
- ٣٣ — أملى على عبد الرازق فى علم البيان وتاريخه — على عبد الرازق —  
مكتبة النيل • القاهرة ١٩٣٠
- ٣٤ — أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى — أنيس المقدسى — طبعة  
بيروت
- ٣٥ — أنوار الربيع فى أنواع البديع — ابن معصوم المدنى — النجف  
الأشرف مطبعة النعمان ١٩٦٨
- ٣٦ — الايضاح فى علوم البلاغة — الخطيب القزوينى — مكتبة صبيح • القاهرة  
١٩٧١
- ٣٧ — الايمان — ابن تيمية — دار الطباعة المحمدية • القاهرة
- ٣٨ — البحث الأدبى — طبيعته مناهجه — أصوله — شوقى ضيف  
ط ٢ دار المعارف — القاهرة ١٩٧٦
- ٣٩ — بحوث وآراء فى علوم البلاغة — أحمد مصطفى المرافى — مطبعة  
العلوم • القاهرة ١٩٤٠
- ٤٠ — بديع القرآن — ابن أبى الأصبع المصرى — تحقيق د • حفى شرف  
مطبعة مصر ١٩٥٧
- ٤١ — البديع — ابن المعتز — ط كراتشوفسكى — المكتبة المركزية  
بمكة رقم ٤١٤ / ٣
- ٤٢ — البرهان فى علوم القرآن — الامام الزركشى — دار احياء الكتب  
المرية — القاهرة ١٣٧٦ هـ
- ٤٣ — بغية الايضاح — عبد المتعال الصميدى — مكتبة الآداب ومطبعتهما  
القاهرة ط ٦

- ٤٤ — بلاغة أرسطو بين العرب واليونان — د . إبراهيم سلامة — مكتبة  
الأنجلو — القاهرة ١٩٥٢
- ٤٥ — البلاغة التطبيقية فى علم البيان — د . أحمد إبراهيم موسى —  
ط ١ . القاهرة ١٩٦٣
- ٤٦ — البلاغة تطور وتاريخ — د . شوقي ضيف — دار المعارف  
ط ٣ . القاهرة
- ٤٧ — البلاغة العالية — عبد المتعال الصعدي — المطبعة السلفية  
القاهرة ١٣٥٥ هـ
- ٤٨ — البلاغة العربية فى دور نشأتها — د . سيد نوفل — مطبعة  
الاعتماد — القاهرة ١٩٤٧
- ٤٩ — البلاغة العربية نشأتها وتطورها — د . حفنى شرف — مكتبة  
الشباب . القاهرة ١٩٧٣
- ٥٠ — البلاغة المصرية واللغة العربية — سلامة موسى — مطبعة  
التقدم . ط ٤ . القاهرة ١٩٦٤
- ٥١ — البلاغة عند السكاكى — د . أحمد مطلوب — مكتبة النهضة  
بغداد ١٩٦٤
- ٥٢ — البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري — محمد حسنين أبو موسى  
دار الفكر العربى — القاهرة .
- ٥٣ — البلاغة الواضحة — على الجارم ومصطفى أمين — دار المعارف  
ط ٢٣ . القاهرة ١٩٦٩
- ٥٤ — البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها — أمين الخولى — بحث  
القى فى الجمعية الجغرافية بالقاهرة ونشر فى "مناهج تجديسد"  
كما نشر فى صحيفة الجامعة المصرية مايو ١٩٣١ .
- ٥٥ — البلاغة والنقد بين التاريخ والفن — د . مصطفى الجويلى —  
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ .
- ٥٦ — بل ثورات على علوم البلاغة — مقال نشر بالهلال عدد مارس ١٩٣٦ .

- ٥٧ - بيان اعجاز القرآن - ابن أبي الاصبح المصرى - تحقيق حنفى شرف  
ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٨٣ هـ .
- ٥٨ - بيان اعجاز القرآن - الخطابى - مطبعة دار التأليف - القاهرة ١٩٥٣
- ٥٩ - البيان المصرى - د . بدوى طبانة - دار العودة - بيروت .
- ٦٠ - البيان - د . على محمد حسن العمارى - دالا الاتحاد المصرى  
للطباعة . القاهرة
- ٦١ - البيان القرآنى - د . رجب البيومى - مجلة مجمع البحوث  
الاسلامية . القاهرة
- ٦٢ - البيان والتبيين - الجاحظ - المكتبة التجارية ط ١ . القاهرة
- ٦٣ - تاج العروس - الزبيدى . المطبعة الخيرية ١٣٠٦ هـ القاهرة
- ٦٤ - تاريخ الأدب الفرنسى - جوستاف لانسون - ترجمة  
محمود قاسم - المؤسسة المصرية الحديثة . القاهرة ١٩٦٢
- ٦٥ - تاريخ الجاهلية - د . عمر فروخ - ط بيروت ١٩٦٤
- ٦٦ - تاريخ الدعوة الى المامية وأثرها فى مصر - د . نفوسة زكريا -  
دار نشر الثقافة بالاسكندرية ١٩٦٤
- ٦٧ - تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها - أحمد مصطفى المراغى -  
مطبعة الحلبي . القاهرة ١٩٥٠
- ٦٨ - تاريخ النقد الأدبى عند العرب - طه أحمد ابراهيم - دار الحكمة  
بيروت .
- ٦٩ - تاريخ النقد العربى الى القرن الرابع الهجرى - د . محمد زغلول  
سلام - دار المعارف . القاهرة ١٩٦٤ .
- ٧٠ - تاريخ النقد العربى من القرن الخامس الى العاشر الهجرى - د . محمد  
زغلول سلام - دار المعارف .
- ٧١ - تأويل مشكل القرآن - ابن قتبية - مطبعة الحلبي . القاهرة ١٩٥٤
- ٧٢ - تحرير التحرير - ابن أبي الاصبح المصرى - تحقيق حنفى محمد شرف  
المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٨٣ . القاهرة

- ٧٣ — تجريد البناني على مختصر الفتازاني — المطبعة العلمية • القاهرة  
١٣١٥ هـ •
- ٧٤ — التركيب اللغوي للأدب — د • لطفى عبد البديع — مكتبة —  
النهضة المصرية ١٩٧٠
- ٧٥ — التصوير البيانى — د • حنى شرف — مكتبة الشباب • القاهرة ١٩٧٠
- ٧٦ — التصوير الفنى فى القرآن — سيد قطب — دار الشروق — بيروت
- ٧٧ — التطور والتجديد فى الشعر الأموى — د • شوقى ضيف — دار المعارف  
القاهرة ١٩٥٩
- ٧٨ — تلخيص البيان فى مجازات القرآن — الشريف الرضى — دار احياء  
الكتب المصرية • القاهرة ١٩٥٥ •
- ٧٩ — تلخيص المفتاح — القزوينى — مطبعة الحلبي ط ١ • القاهرة ١٩٣٨
- ٨٠ — توضيح المعانى — د • على محمد حسن العمارى — القاهرة  
الحديثة للطباعة ١٩٦٤
- ٨١ — تهذيب السعد — محمد محيى الدين عبد الحميد — مكتبة الحسين  
التجارية • القاهرة
- ٨٢ — الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين — العقاد — المكتبة  
الثقافية • القاهرة
- ٨٣ — ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن — الخطايبى والرمانى والجرجانى —  
دار المعارف • القاهرة ١٩٦٨
- ٨٤ — ثورة على علوم البلاغة — عبد الميزب البشرى — محاضرة ألقاها فى الجامعة  
الأمريكية بالقاهرة ونشرت فى كتابه : المخارج •
- ٨٥ — الجامع لأحكام القرآن — القرطبي — مطبعة دار الكتب • القاهرة •
- ٨٦ — الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور — ضياء الدين بن الأثير  
القاهرة
- ٨٧ — الجمان فى تشبيهات القرآن — ابن نايقا البغدادي — منشأة  
المعارف بالاسكندرية ١٩٧٤
- ٨٨ — جواهر البلاغة — أحمد الهاشمى — طبعة بيروت •

- ٨٩ — حاشية الدسوقي — شروح التلخيص — محمد عرفة الدسوقي — المكتبة التجارية ١٩٣٦ القاهرة
- ٩٠ — حاشية الخضري — المطبعة الشرقية • القاهرة ١٣٢٠ هـ
- ٩١ — حاشية مخلوف المنياوى على شرح الدمنهورى لمثن الخضري ( الجوهر المكون فى المعانى والبيان والبديع ) دار احياء الكتب العربية — القاهرة ١٩٢١
- ٩٢ — حديث الأربعاء — د • طه حسين — دار المعارف • القاهرة ١٩٥٧
- ٩٣ — حركات التجديد فى الأدب العربى — يوسف خليف — دار الثقافة للطباعة والنشر • القاهرة ١٩٧٥ •
- ٩٤ — حسن التوصل الى صناعة الترسل — شهاب الدين الحلبي — المطبعة الوهابية ١٢٩٨ هـ
- ٩٥ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة — السيوطى — دار احياء الكتب العربية • القاهرة ١٩٦٨ •
- ٩٦ — الحقيقة والمجاز فى القرآن الكريم — د • على محمد حسن العمارى — مطبعة السعادة • القاهرة ١٩٧٤
- ٩٧ — الحيوان — الجاحظ — طبعة الساسى • القاهرة
- ٩٨ — خزانة الأدب — البغدادى — دار الكتب المصرية •
- ٩٩ — خصائص الشعر الحديث — د • نعمات أحمد فؤاد — دار الفكر العربى • القاهرة
- ١٠٠ — الخطابة — أرسطو — ترجمة ابراهيم سلامة — مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٠
- ١٠١ — الخواطر الحسان فى المعانى والبيان — جبر ضومط — مطبعة الوفاء بيروت ١٩٣٠
- ١٠٢ — دائرة المعارف الاسلامية — مجلد ٤ — مادة بلاغ —
- ١٠٣ — دائرة المعارف فى القرن العشرين — ج ٧
- ١٠٤ — دراسات فى الأدب والبلاغ — ابراهيم أبو الخشب واحمد البهى — القاهرة ١٩٥٩ •



- ١٠٥ — دراسات في الشعر العربي المعاصر — د . شوقي ضيف —  
القاهرة ١٩٥٣
- ١٠٦ — دراسات في علم النفس الأدبي — حامد عبد القادر — مطبعة  
مصر ١٩٤٩
- ١٠٧ — الدر النضيد — الحفيد الميموني — طبعة الخانجي . القاهرة  
١٣٢٢ هـ
- ١٠٨ — دفاع عن البلاغة — أحمد حسن الزيات — عالم الكتب ط ٢ .  
القاهرة ١٩٦٧
- ١٠٩ — دلائل الإعجاز — عبد القاهر الجرجاني — طبعة بيروت .
- ١١٠ — الذخيرة — ابن بسام — دار الثقافة بيروت ١٩٧٩
- ١١١ — سر الفصاحة — ابن سنان الخفاجي — مكتبة صبيح . القاهرة ١٩٦٩
- ١١٢ — شروح التلخيص — مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٤٢ هـ
- ١١٣ — الشعر — أرسطو — تحقيق شكرى محمد عياد — دار الكتاب العربي  
القاهرة ١٩٦٧
- ١١٤ — الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث — مصطفى عبد اللطيف  
السحرتي — القاهرة ١٩٤٨
- ١١٥ — الشعر والشعراء — ابن قتيبة — القاهرة ١٣٣٢ هـ
- ١١٦ — شيوخ الأدب الحديث — جيب الرحلاوى — مكتبة نهضة مصر
- ١١٧ — الصبغ البديعى فى اللغة العربية — د . أحمد موسى — دار الكتاب  
العربي للطباعة والنشر ١٩٦٩
- ١١٨ — الصراع الأدبي بين القديم والجديد — د . على الممارى — دار  
الكتاب الحديث ١٩٦٥
- ١١٩ — الصناعتين — أبو هلال العسكري — مطبعة الحلبي . القاهرة .
- ١٢٠ — الصورة الأدبية — د . مصطفى ناصف — مكتبة مصر — القاهرة .
- ١٢١ — الصورة البديعية — د . حنفى شرف — مكتبة الشباب — القاهرة ١٩٦٦
- ١٢٢ — صور البديع وفن الاسجاع — على الجندي — دار الفكر العربي القاهرة

- ١٢٣ — الصور البيانية بين النظرية والتطبيق — د . حفى شرف — المكتبة التجارية — القاهرة
- ١٢٤ — ضحى الاسلام — أحمد أمين — مطبعة الاعتماد . القاهرة
- ١٢٥ — ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد — د . محمد زغلول سلام — مكتبة نهضة مصر
- ١٢٦ — طبقات فحول الشعراء — محمد بن سلام الجمحى — مطبعة المدنى — القاهرة
- ١٢٧ — الطراز — يحيى بن حمزه الحلوى — مطبعة المقتطف . القاهرة ١٩١٤
- ١٢٨ — عبد القاهر الجرجانى — بلاغته ونقده — د . احمد مطلوب وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٧٣
- ١٢٩ — عبد القاهر الجرجانى — د . أحمد بدوى — أعلام العرب (٨) . القاهرة
- ١٣٠ — الفرغال — ميخائيل نعيمه — القاهرة ١٩٢٣
- ١٣١ — عروس الأفراح — بهاء الدين السبكى — مطبعة السعادة . القاهرة ١٣٤٢ هـ
- ١٣٢ — العصر الجاهلى — شوقى ضيف — دار المعارف . القاهرة ١٩٦٠
- ١٣٣ — عصر ورجال — فتحى رضوان — مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٧
- ١٣٤ — علوم البلاغة — أحمد مصطفى المراغى — المكتبة العربية ومطبعتها القاهرة ط ٣
- ١٣٥ — الحمدة — ابن رشيق القيروانى — المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة ١٩٥٥
- ١٣٦ — فجر الاسلام — احمد أمين — مكتبة النهضة . القاهرة ١٩٥٩
- ١٣٧ — فصول فى الأدب والنقد — طه حسين — مطبعة المعارف . القاهرة ١٩٤٥
- ١٣٨ — فلسفة البلاغة — جبر صومط — المطبعة المثمانية . القاهرة
- ١٣٩ — فلسفة المجاز — د . لطفى عبد البديع — مكتبة النهضة المصرية .

- ١٤٠ — فن القول — أمين الخولى — دار الفكر العربى • القاهرة
- ١٤١ — الفن ومذاهبه فى الشعر العربى — د • شوقى ضيف — ط ٤ • دار المعارف • القاهرة ١٩٦٠
- ١٤٢ — الفن ومذاهبه فى النثر العربى — د • شوقى ضيف — دار المعارف ١٩٦٥
- ١٤٣ — فن المقالة — محمد يوسف نجم — دار الثقافة • بيروت ١٩٦٣
- ١٤٤ — فنون بلاغية ( البيان والبديع ) د • احمد مطلوب — مكتبة النهضة بغداد
- ١٤٥ — فى الأدب الجاهلى — د • طه حسين — دار المعارف • القاهرة ١٩٥٢
- ١٤٦ — فى الأدب والنقد — د • محمد مندور — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر • القاهرة ١٩٤٩
- ١٤٧ — فى البلاغة العربية — د • رجاء عيد — مطبعة غريب • القاهرة
- ١٤٨ — فى تاريخ البلاغة العربية — عبد العزيز عتيق — دار النهضة العربية — بيروت ١٩٧٠
- ١٤٩ — فى الميزان الجديد — د • محمد مندور — مطبعة نهضة مصر • القاهرة
- ١٥٠ — فيض الخاطر — أحمد أمين — مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١
- ١٥١ — قصص العرب — محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون — دار احياء التراث العربى • بيروت ١٩٦٢
- ١٥٢ — قضايا بلاغية — د • على العمارى — مخطوطة
- ١٥٣ — قضايا جديدة — د • محمد مندور • بيروت ١٩٥٨
- ١٥٤ — قضايا النقد الأدبى والبلاغة — محمد زكى العشماوى — دار الكتاب العربى • القاهرة
- ١٥٥ — قواعد النقد الأدبى — لاسل أبر كرمبى — ترجمة محمد عوض — لجنة التأليف والترجمة والنشر • القاهرة ١٩٣٦

١٥٦ — الكامل — المبرد — مطبعة التقدم العلمية ط ١ • القاهرة ١٣٣٤هـ  
١٥٧ — الكتاب — سيويه — تحقيق عبد السلام هارون — دارالعلوم  
القاهرة ٩٦٦

١٥٨ — كتب وشخصيات — سيد قطب — طبة بيروت  
١٥٩ — الكشف — الزمخشري — مكتبة مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٩٦٦  
١٦٠ — كشف اصطلاحات الفنون — التهانوي الهندي — طبعة الآستانة  
١٣١٧ هـ •

١٦١ — لسان العرب — ابن منظور — سلسلة تراثنا • القاهرة  
١٦٢ — لغتنا والحياة — د • عائشة عبد الرحمن — دار المعارف • القاهرة  
١٩٧١

١٦٣ — اللغة الشاعرة — عباس محمود العقاد — مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠  
١٦٤ — المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر — ضياء الدين بن الأثير  
طبعة حجازي • القاهرة ١٣٥٤ هـ

١٦٥ — مجاز القرآن — أبو عبيدة معمر بن المثنى — طبعة الخانجي • القاهرة  
١٩٦٢

١٦٦ — المجازات النبوية — الشريف الرضي — مطبعة الحلبي — القاهرة ١٣٥٦ هـ  
١٦٧ — محاضرات في البيان العربي — د • يوسف البيومي — مطبعة السعادة  
القاهرة

١٦٨ — محاضرات في البلاغة العربية — علي البدري — دار الطباعة المحمدية  
القاهرة ١٩٧٤

١٦٩ — المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر — أنور الجندى — مكتبة  
الأنجلو المصرية ١٩٦٥

١٧٠ — المختار — عبد العزيز البشري — دار المعارف • القاهرة ١٩٥٣  
١٧١ — المختار من صحاح اللغة — محمد محي الدين ومحمد عبد اللطيف  
السبكي — المكتبة التجارية الكبرى ط ٣

١٧٢ — المدخل الى دراسة البلاغة العربية — السيد احمد خليل — دار  
النهضة العربية — بيروت ١٩٦٨ •

- ١٧٣ — المدخل الى النقد الأدبي الحديث — د . غنيم هلال — مكتبة  
الانجلو المصرية ١٩٦٢
- ١٧٤ — مذكرة فى الفصل والوصل — سليمان نوار — القاهرة ١٩٣٤
- ١٧٥ — المسوغات العقلية فى البلاغة — مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق  
المجلد الثلاثون
- ١٧٦ — مصر فى تاريخ البلاغة — أمين الخولى — نشر هذا البحث فى مناهج  
تجديد —
- ١٧٧ — المطول — سعد الدين التفتازانى — مطبعة أحمد كامل . القاهرة  
١٩٣٠
- ١٧٨ — المعتمد فى علم البيان — محمد حسن ضيف الله — دار الكتاب العربى  
القاهرة ١٩٥٩
- ١٧٩ — معجزات قلب القرآن — هاشم محمد سعيد دفتدار — بيروت ١٩٧٦
- ١٨٠ — مع المتنبى — طه حسين — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ال  
قاهرة ١٩٣٦
- ١٨١ — المفتاح — السكاكى — مطبعة الحلبي . القاهرة ١٩٣٧
- ١٨٢ — مقدمة ابن خلدون — ابن خلدون — طبعة الشعب
- ١٨٣ — مقدمة لدراسة بلاغة العرب — أحمد ضيف — القاهرة ١٩٢١
- ١٨٤ — مقدمة نقد النثر — د . طه حسين — مطبعة مصر
- ١٨٥ — الملل والنحل — للشهرستانى — ط لينج ١٩٢٨
- ١٨٦ — مناهج بلاغية — د . أحمد مطلوب — وكالة المطبوعات بالكويت  
١٩٧٣
- ١٨٧ — مناهج تجديد — أمين الخولى — دار المعرفة . القاهرة ١٩٦١
- ١٨٨ — مناهج الدراسة الأدبية — شكرى فيصل — بيروت .
- ١٨٩ — من أسرار القرآن — د . مصطفى محمود — كتاب اليوم العدد ١١٥  
القاهرة
- ١٩٠ — من بلاغة القرآن — د . أحمد بدوى — مكتبة نهضة مصر
- ١٩١ — المنجد فى اللغة والأعلام . ط ٢٣ — دار الشروق . بيروت

- ١٩٢ - من حديث الشعر والنثر - د . طه حسين - دار المعارف .  
القاهرة ١٩٥١
- ١٩٣ - من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده - محمد خلف الله  
أحمد - المطبعة العالمية . القاهرة .
- ١٩٤ - المنهاج الواضح - حامد عوني - مكتبة الجامعة الأزهرية . القاهرة
- ١٩٥ - منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه - مصطفى الجويني -  
دار المعارف . القاهرة ١٩٦٨ .
- ١٩٦ - منهج المرحلة الثانوية - ادارة المناهج والبحوث برئاسة العامة  
لتعليم البنات ط ٢
- ١٩٧ - منهل الورد في علم الانتقادات - فسطاكي الحمصي - مطبعة  
الأخبار . القاهرة
- ١٩٨ - الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري - الأمدى - تحقيق  
أحمد صقر - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٢
- ١٩٩ - مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح - ابن يعقوب المغربي -  
شرح التلخيص
- ٢٠٠ - المرجز في تاريخ البلاغة - د . زكي المبارك - دار الفكر - بيروت
- ٢٠١ - نزهة الألبا في طبقات الأدبا - أبو البركات عبد الرحمن بن محمد  
الانباري ( مصور ) ١٢٩٤ هـ
- ٢٠٢ - نصوص النظرية البلاغية - د . داود سلام ود . عمر الملا حويش -  
مطبعة الأمة . بغداد
- ٢٠٣ - نظرية العلاقات - د . محمد نازيل - دار الطباعة المحمدية ١٩٦٤
- ٢٠٤ - النقد الأدبي - أحمد أمين - دار الكتاب العربي . القاهرة
- ٢٠٥ - النقد الأدبي - د . يوسف البيومي - دار الجيل للطباعة . القاهرة
- ٢٠٦ - النقد الأدبي - د . حفي شرف - مطبعة الرسالة ١٩٧٠ . القاهرة
- ٢٠٧ - النقد الأدبي الحديث - د . غنيمي هلال - دار النهضة العربية  
١٩٦٤ . القاهرة .

- ٢٠٨ — النقد الأدبي أصوله ومناهجه — سيد قطب — دار الفكر العربي  
القاهرة ١٩٥٩
- ٢٠٩ — النقد الأدبي في القرن الرابع للهجرة — د . احمد مطلوب — وكالة  
المطبوعات بالكويت ١٩٧٣
- ٢١٠ — نقد النثر — قدامة بن جعفر ، تحقيق د . طه حسين  
والعبادي — مطبعة مصر ١٩٣٨
- ٢١١ — نقد الشعر — قدامة بن جعفر — مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٦٣
- ٢١٢ — النقد العربي الحديث ومناهجه — د . محمد عبد المنعم خفاجي  
دار الطباعة المحمدية . القاهرة
- ٢١٣ — النقد المنهجي عند العرب — د . محمد مندور — نهضة مصر —  
القاهرة
- ٢١٤ — النقد الموضوعي — سمير سرحان — مكتبة الانجلو المصرية — القاهرة
- ٢١٥ — النقد والبلاغة — د . مهدي علام وآخرون . المطابع الأميرية ١٩٥٩
- ٢١٦ — النقد والبلاغة للمعاهد المعلمين — توفيق محمد احمد وعبد الكريم  
أسعد — دار الأصفهاني بجدة
- ٢١٧ — النكت في اعجاز القرآن — الرطاني — دار المعارف ١٩٦٨ القاهرة
- ٢١٨ — نهاية الايجاز في دراية الاعجاز — فخر الدين الرازي — مطبعة  
الآداب ١٣١٧ هـ
- ٢١٩ — وجهة نظر — د . زكي نجيب محفوظ — مكتبة الأنجلو المصرية —  
القاهرة
- ٢٢٠ — وحى الرسالة — أحمد حسن الزيات — مطبعة الرسالة — القاهرة .
- ٢٢١ — الوساطة بين المتنبي وخصومه — القاضي الجرجاني — تحقيق  
أبو الفضل ابراهيم — مطبعة مصر ١٩٤٥
- ٢٢٢ — الوسيلة الأدبية فالى العلوم العربية — حسين المصطفى — مطبعة  
المدارس الملكية — القاهرة ١٩٢٤ .
- ٢٢٣ — وفيات الأعيان — ابن خلكان — تحقيق احسان عباس — دار  
الثقافة — بيروت .

المخطوطات :

=====

- ١ - أمين الخولى فى مـناهج تجديده - د . كامل سعـفان - مكتبة  
آداب عين شمس
- ٢ - البلاغة بين عهديـن - د . محمد نـايل - مكتبة اللغة  
العربية
- ٣ - قضايا بلاغية - د . على العـمارى - مكتبة  
اللغة العربية .
- ٤ - قضية اللفظ والمعنى - د . على العـمارى - مكتبة  
اللغة العربية
- ٥ - الكاتب أحمد حسن الزيات - د . على الفقى - مكتبة  
دار العلوم
- ٦ - منهج البحث البلاغى بين عبد القاهر والسكاكى - د . سيد حجاب -  
مكتبة اللغة العربية

الدوريات :

=====

- الأخبار - عدد ١٤ رمضان ١٣٨٣ هـ ، والأعداد ٦/٢٧ ، ٧/٤ ،  
١٩٧٥/٧/١١
- دائرة المعارف الاسلاميه - مجلد ٤
- دائرة المعارف فى القرن العشرين - ج ٧
- صحيفة دار العلوم - العدد الثانى من السنة الثالثة - وعدد أكتوبر  
١٩٣٨
- كتاب الهلال - عدد خاص عن القرآن الكريم ديسمبر ١٩٧٠
- مجلة آداب اسكندرية - المجلد الأول ١٩٤٣



- مجلة الأدب — مارس ١٩٥٦  
مجلة الأزهر — المجلد السادس ، والمجلد ٢٤  
مجلة الثقافة — العدد ٤٩  
مجلة الرسالة — الأعداد ١٤٦ ، ٤٠٨ ،  
٦١٧ — ٦٢٨ ، ٦٧٦ ،  
٦٨٧ — ٧٤٦  
مجلة الفيصل — العدد ١١ ر ١٥  
مجلة الكاتب — يناير ١٩٤٦  
مجلة الكتاب — المجلد الأول  
مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود — العدد  
الخامس ١٩٧٥  
مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق — مجلد ٣٠  
مجلة مجمع اللغة العربية — ج ٢٢  
مجلة الهلال — عدد يناير ١٩٣٨ ومارس ١٩٣٦  
ملحق الأهرام — عدد ١١ / ٣ / ١٩٦٦

الفهرس

=====

|           |                                                    |
|-----------|----------------------------------------------------|
| ص         |                                                    |
| ١         | المقدمة :                                          |
| ٧         | التمهيد : نشأة البلاغة وتطورها — مدارسها وخصائصها  |
|           | صلة البلاغة بالعلوم الأخرى — نضوج البلاغة          |
|           | على يد الامام عبد القاهر — استقلالها               |
|           | على يد السكاكي — جمود البحث البلاغى                |
|           | بعد السكاكي — حاجة البلاغة الى التجديد *           |
|           | اسباب الأول : ( بؤادر التجديد واتجاهاتها ) ٤٣ — ٧٧ |
| ٤٤        | الفصل الأول : التجديد — مفهومه                     |
|           | بؤادره *                                           |
| ٦٣        | الفصل الثانى : اتجاهات التجديد —                   |
|           | ومظاهره فى العصر الحديث                            |
| ٢٤٠ — ٧٨  | الباب الثانى : ( دعوات التجديد البلاغية )          |
| ٢٩        | الفصل الأول : بحوث فى البلاغة وتجديدها             |
| ١٦٨       | الفصل الثانى : آراء فى التجديد                     |
| ١٩٠       | الفصل الثالث : حركة الرسالة                        |
| ٢٨٣ — ٢٤١ | الباب الثالث : ( مناهج جديدة للبلاغة )             |
| ٢٤٢       | الفصل الأول : منهج الشايب                          |
| ٣٤٥       | الفصل الثانى : منهج الخولى                         |
| ٤٦٧       | الفصل الثالث : المنهج المدرسى الحديث               |
| ٤٧٦ *     | الفصل الرابع : رأى الباحث فى تدريس البلاغة         |